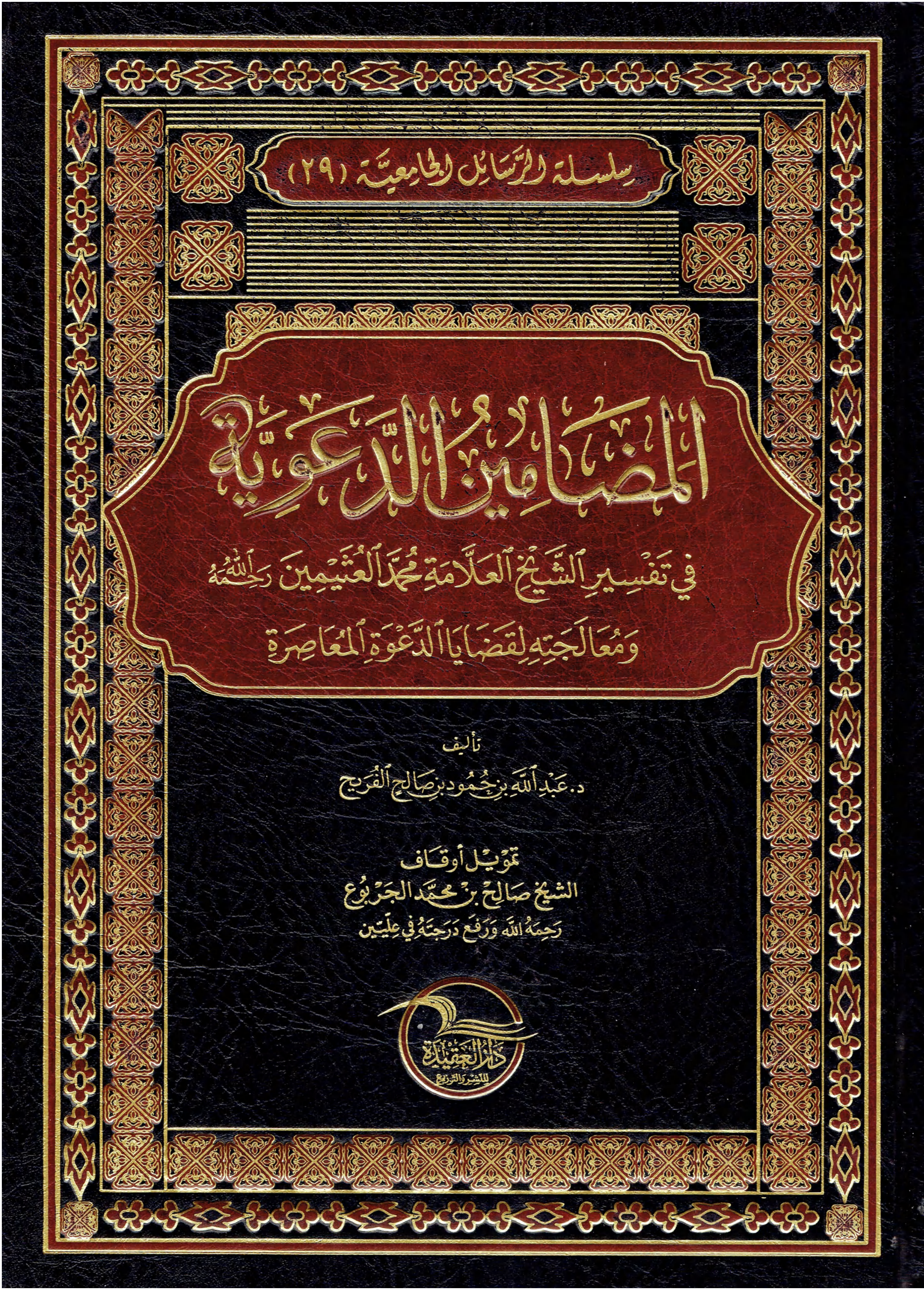
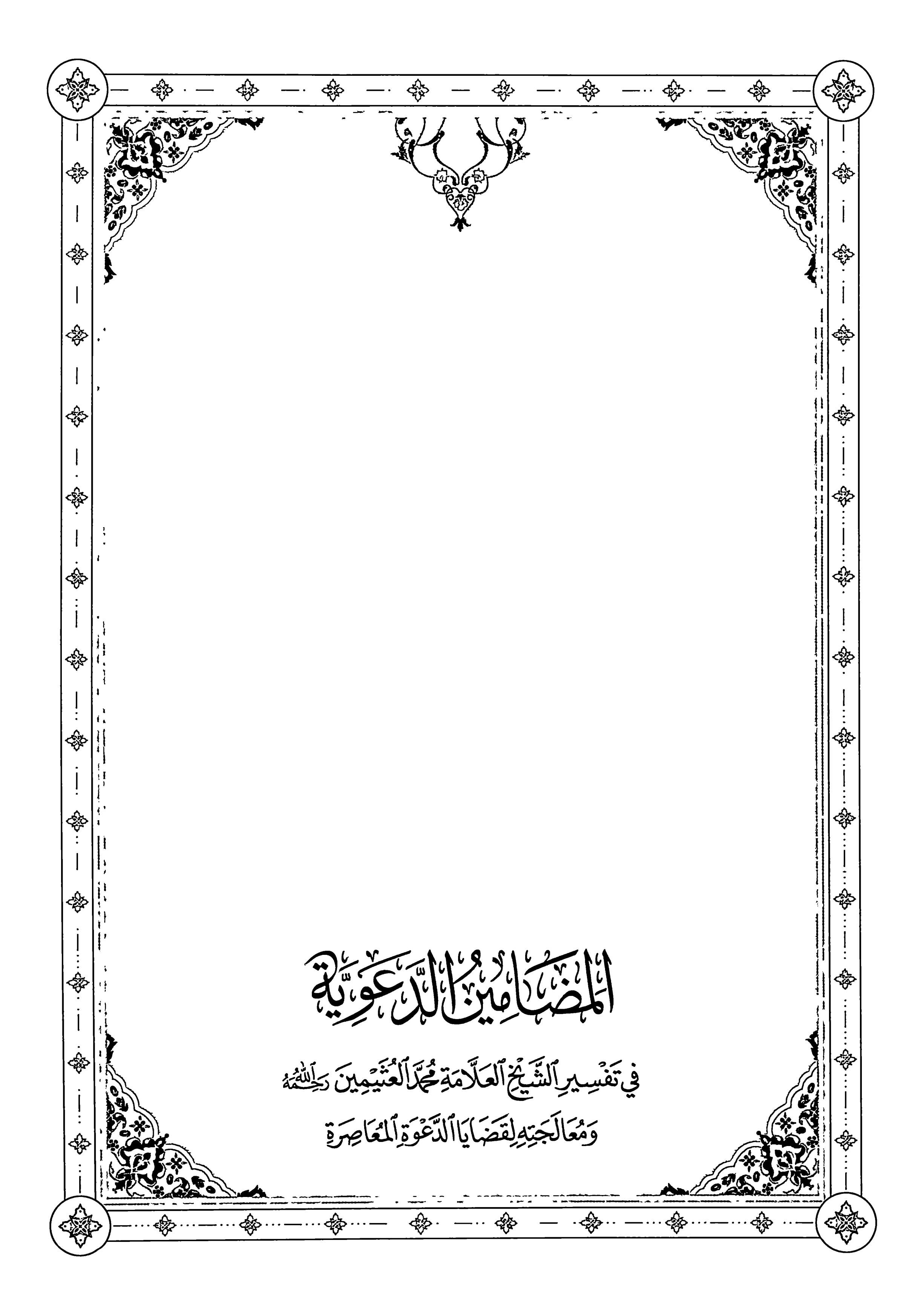


سلسلة الرسائل الجامعية (٢٩)
المضامين الدعوية
في تفسير الشيخ العلامة محمد العثيمين رحمه الله
ومعالجته لقضايا الدعوة المعاصرة
تأليف
د. عبد الله بن حمود بن صالح الفريح
تمويل أوقاف
الشيخ صالح بن محمد الجربوع
رحمه الله ورفع درجته في عليين
دار العقيدة
للنشر والتوزيع



المضامين الدعوية

في تفسير الشيخ العلامة محمد العثيمين رحمه الله

ومعالجته لقضايا الدعوة المعاصرة



ح دار العقيدة للنشر والتوزيع ، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفريح ، عبدالله بن حمود

المضامين الدعوية في تفسير الشيخ العلامة محمد العثيمين رحمه الله ومعالجته لقضايا الدعوة المعاصرة. / عبدالله بن حمود الفريح - الرياض ، ١٤٤٢هـ

٧١٠ ص ؛ ١٧/٢٤ سم

ردمك: ٨-٩-٩١٥٩٦-٦٠٣-٩٧٨

١- العثيمين ، محمد بن صالح ، ١٣٤٧ - ١٤٢١ هـ. ٢- الدعوة الاسلامية ٣- القرآن - تفسير أ.العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٧٣٩٨

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٧٣٩٨

ردمك: ٨-٩-٩١٥٩٦-٦٠٣-٩٧٨

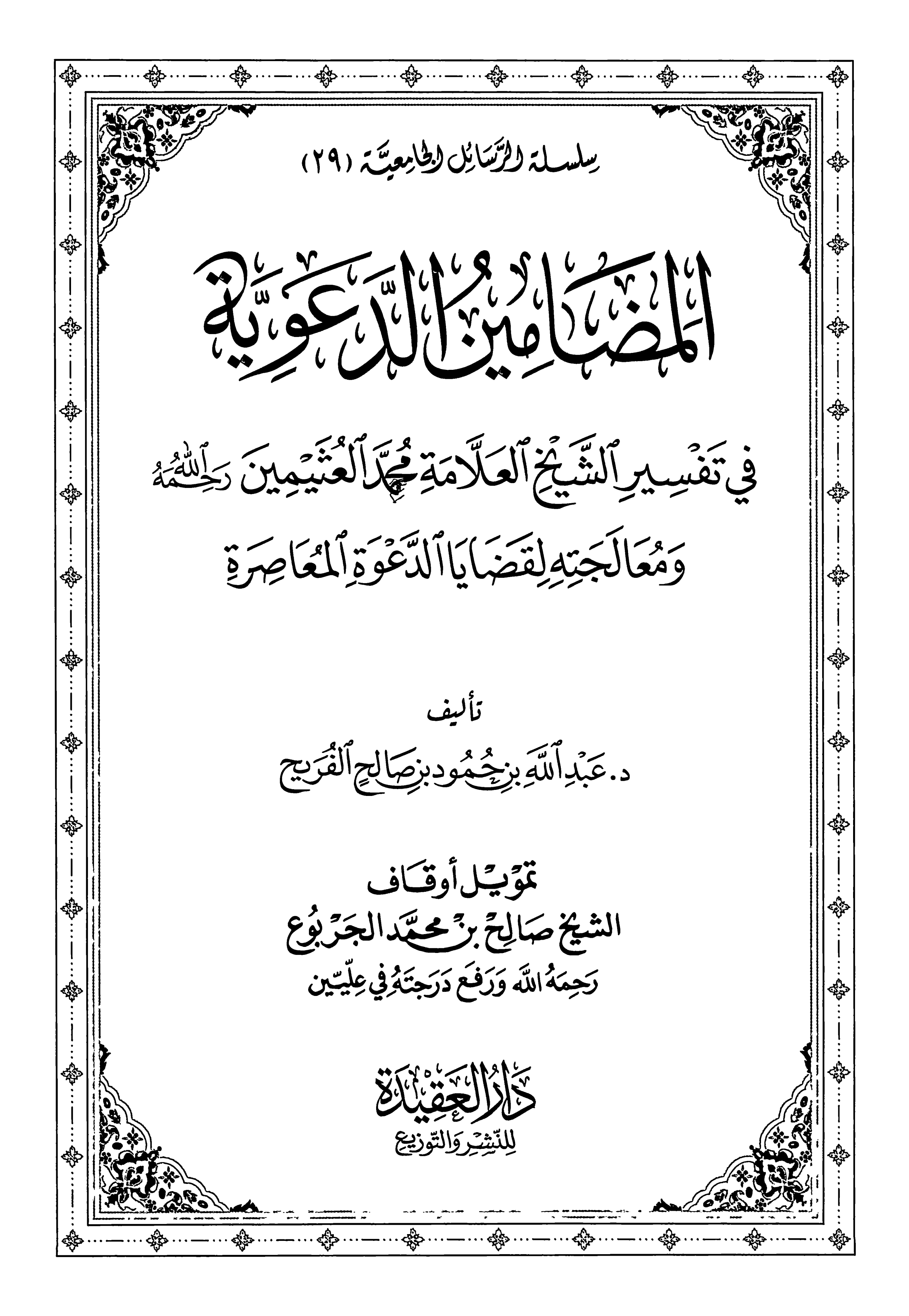
الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١م

دار العقيدة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ الرياض

هاتف 0503310067



سلسلة الرسائل الجامعية (٢٩)

المضامين الدعوية

في تفسير الشيخ العلامة محمد العثيمين رحمه الله ومعالجته لقضايا الدعوة المعاصرة

تأليف

د. عبد الله بن حمود بن صالح الفريح

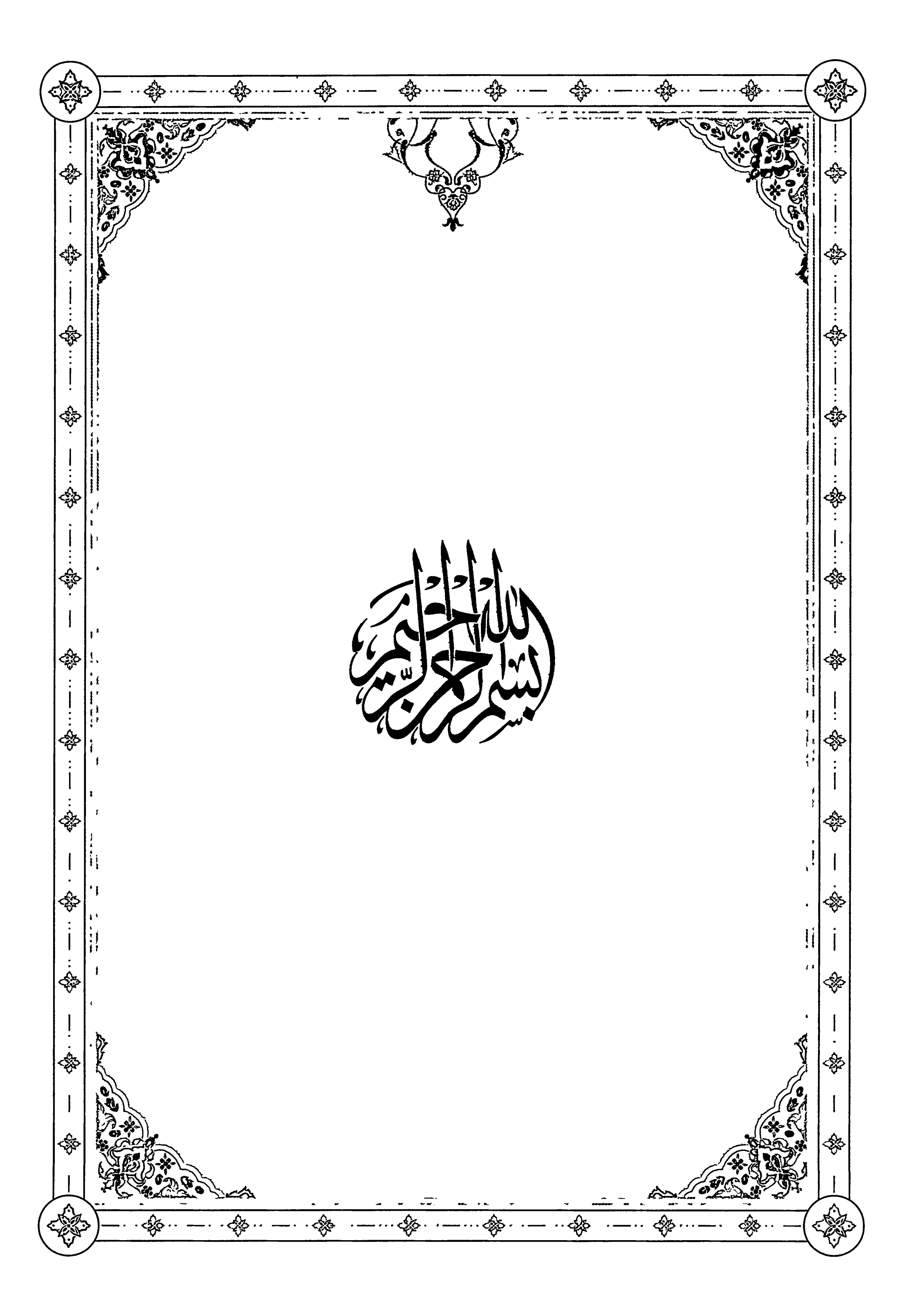
تمويل أوقاف

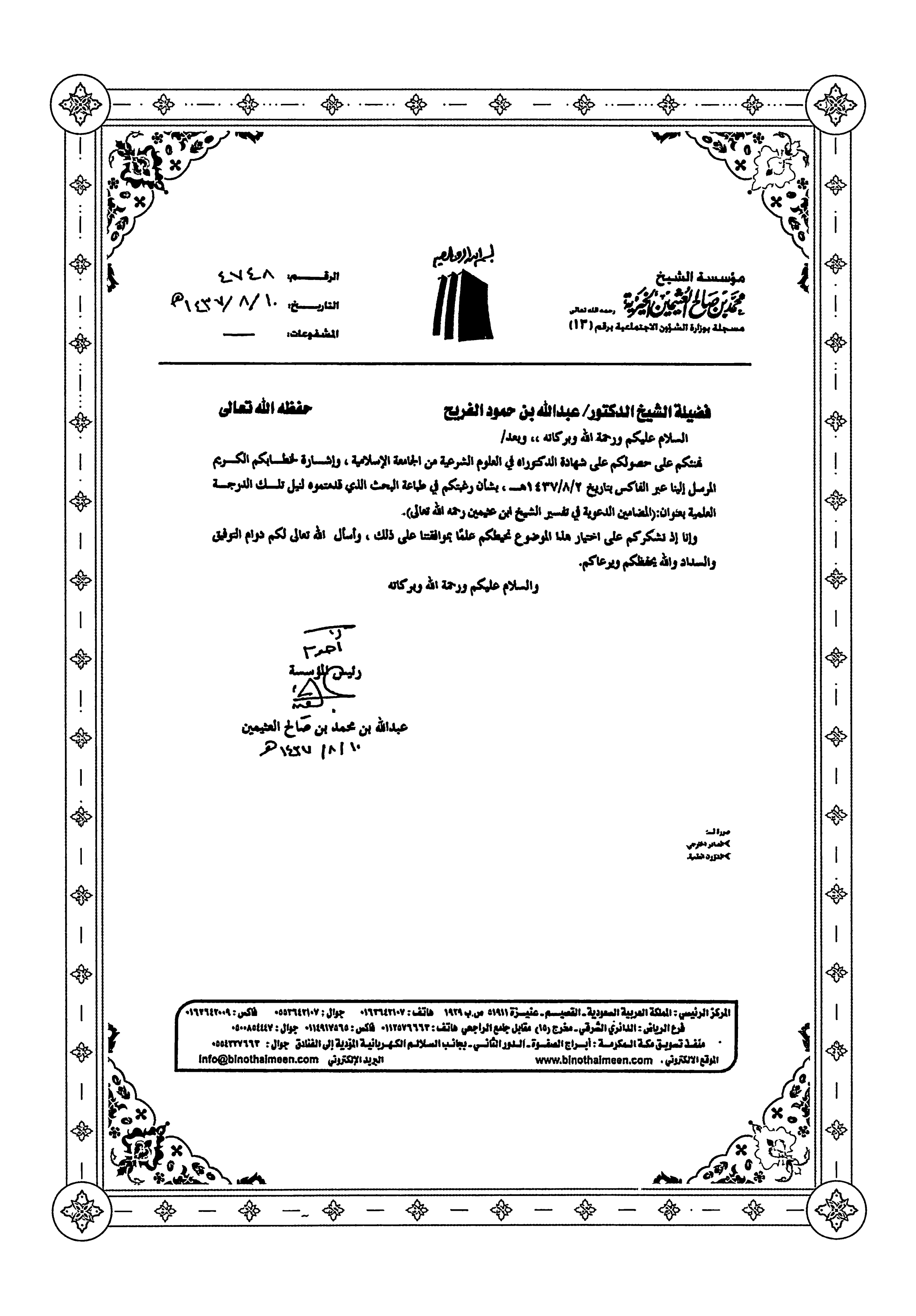
الشيخ صالح بن محمد الجربوع

رحمه الله ورفع درجته في عليين

دار العقيدة

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين الخيرية رحمه الله تعالى
مسجلة بوزارة الشؤون الاجتماعية برقم (١٣)

الرقم: ٤٧٤٨
التاريخ: ١٠/ ٨/ ١٤٣٧هـ
المشفوعات: ـــ

فضيلة الشيخ الدكتور/ عبدالله بن حمود الفريح **حفظه الله تعالى**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،، وبعد/

نهنئكم على حصولكم على شهادة الدكتوراه في العلوم الشرعية من الجامعة الإسلامية ، وإشارة لخطابكم الكريم المرسل إلينا عبر الفاكس بتاريخ ١٤٣٧/٨/٢هـ ، بشأن رغبتكم في طباعة البحث الذي قدمتموه لنيل تلك الدرجة العلمية بعنوان:(المضامين الدعوية في تفسير الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى).

وإنا إذ نشكركم على اختيار هذا الموضوع نحيطكم علمًا بموافقتنا على ذلك ، وأسأل الله تعالى لكم دوام التوفيق والسداد والله يحفظكم ويرعاكم.

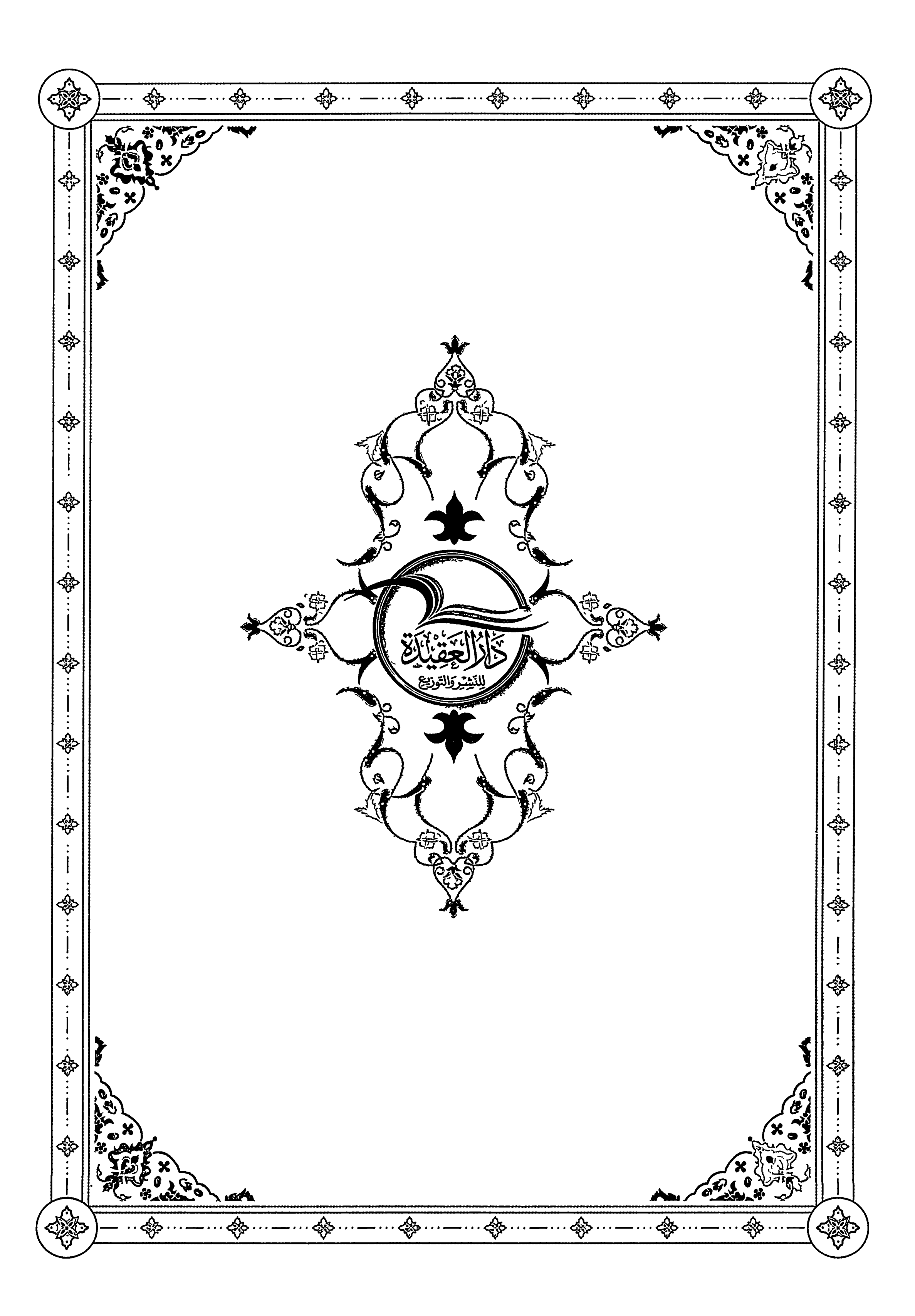
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحمد
رئيس المؤسسة

عبدالله بن محمد بن صالح العثيمين
١٠/ ٨/ ١٤٣٧هـ

صورة لـ:
الصادر الخارجي
الشؤون العلمية

المركز الرئيسي : المملكة العربية السعودية - القصيم - عنيزة ٥١٩١١ ص.ب ١٩٢٩ هاتف : ٠١٦٣٦٤٢١٠٧ جوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ فاكس : ٠١٦٣٦٤٢٠٠٩
فرع الرياض : الدائري الشرقي - مخرج (١٥) مقابل جامع الراجحي هاتف : ٠١١٢٥٧٦٦٦٣ فاكس : ٠١١٤٩١٧٥٦٥ جوال : ٠٥٠٠٨٥٤٤٤٧
منفذ تسويق مكة المكرمة : أبراج الصفوة - الدور الثاني - بجانب السلالم الكهربائية المؤدية إلى الفنادق جوال : ٠٥٥٤٣٢٧٦٦٣
الموقع الالكتروني www.binothaimeen.com البريد الإلكتروني info@binothaimeen.com



دار العقيدة
للنشر والتوزيع



المقدّمة

١ – أهمية وأسباب اختيار الموضوع .

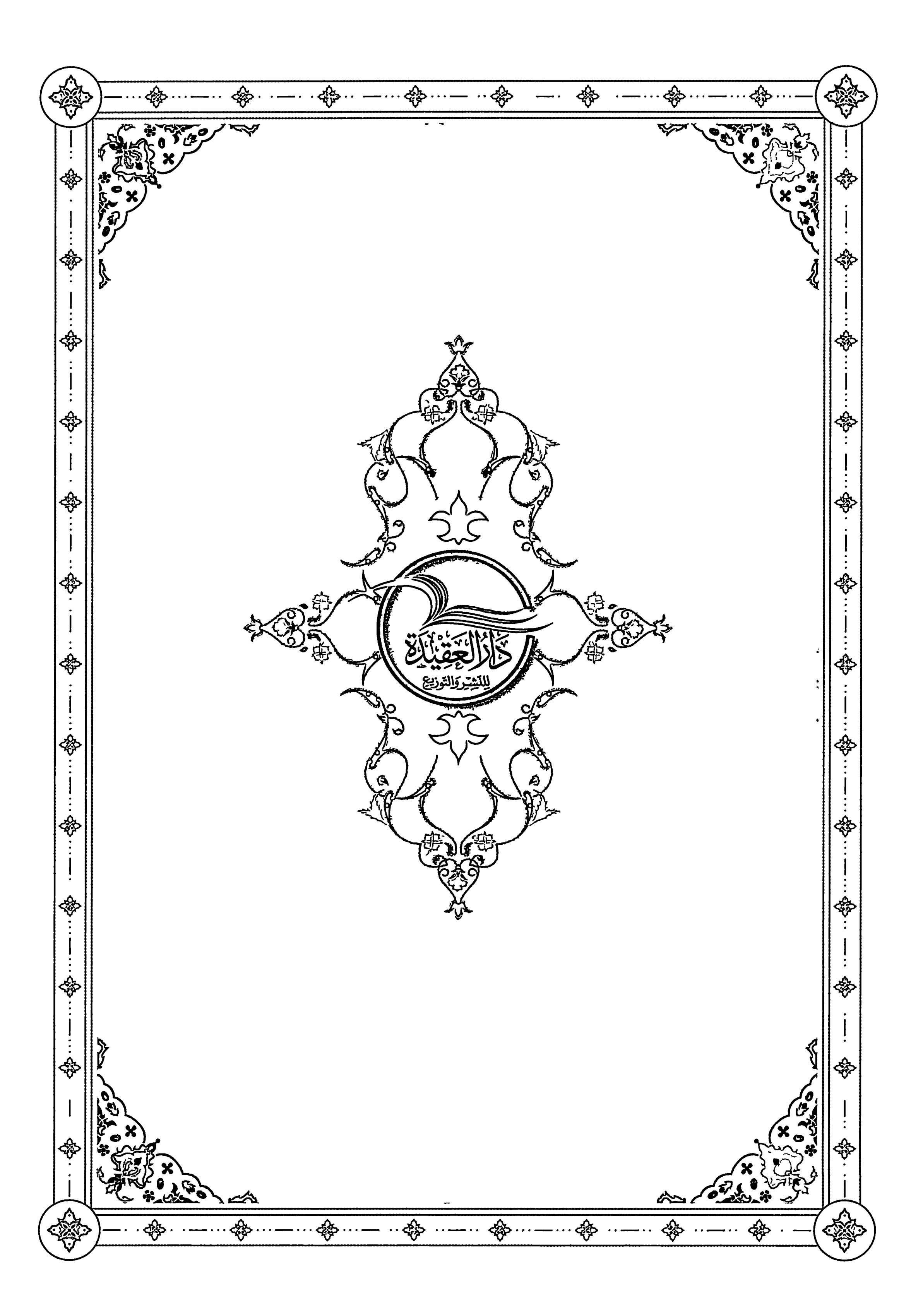
٢– أهداف الدراسة .

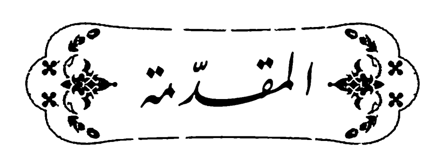
٣– تساؤلات الدراسة .

٤– الدراسات السابقة .

٥– منهج البحث .

٦– خطة البحث .


دار العقيدة
للنشر والتوزيع



المقدّمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا ، فجاءت آياته هداية للناس ومنهجا لحياتهم فيه مصالح دينهم ودنياهم ، والصلاة والسلام علىٰ خير من بلَّغ ما أُنزِل عليه أتم بلاغ ، وأوضح بيان ، فكان أعظم مثال يُحتذىٰ به في طريق الدعوة حتىٰ تركنا علىٰ المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك ، ثم أما بعد ...

فإن فضل الله تعالىٰ علىٰ عباده فضل عظيم عميم لا يُحصىٰ مهما عدَّه العادُّون ، وإن من عظيم فضله أن أنزل لهم كتابا نعته بالفضل والرحمة لما فيه من هداية ورشاد للعباد إن تمسكوا به وعملوا بتنزيله ، فقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس :٥٨] .

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أيْ : بهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ الهُدَىٰ ودِينِ الحَقِّ ، فَلْيَفْرَحُوا ، فَإِنَّهُ أَوْلَىٰ مَا يَفْرَحُونَ بهِ ، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أيْ : مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الفَانِيَةِ الذَّاهِبَةِ لَا مَحَالَةَ »[1] .

وإن العناية بالتنزيل وتوجيه الناس للعمل به والدعوة إليه ، وامتثاله أهم ما ينبغي للداعية أن يشتغل به ويدعو الناس إليه ، لما يحتويه من مضامين دعوية هي مصدر الدعوة الأول ، ولأنه هدىٰ ورحمة للمؤمنين ، قال تعالىٰ :﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النمل :٧٧] .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى ﴾ من الضلالة والغي والشبه

(١) « تفسير القرآن العظيم »(١ / ٢٠) .

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تنثلج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به المصدقين له المتلقين له بالقبول المقبلين علىٰ تدبره المتفكرين في معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلىٰ الصراط المستقيم والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح»[1].

ولقد عني المفسرون ببيان ما في التنزيل من الهدىٰ والرحمة للمؤمنين، فجاءت كتب التفاسير مليئة بالمضامين الدعوية التي هي هداية للناس دعاة ومدعوين بأصنافهم، وإن من التفاسير الثرية بذلك والتي تناولت الملامح الدعوية باستيفاء تفسير شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، مع تميزه بتناوله للقضايا المعاصرة في الدعوة، والذي أخرجت مؤسسة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه ما يربو علىٰ خمسة عشر مجلدا، ولقد عُرف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالعلم الغزير، والفهم الدقيق، والجلد والصبر في العلم والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ بصيرة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان إلىٰ الناس وبرهم. وعُرف عنه كذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يسير في دعوته وأعماله تلك علىٰ منهج الأئمة من الصحابة والتابعين والعلماء الربانيين من السلف الصالح رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين.

ولتفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبول في أوساط واقعنا المعاصر، لما فيه من سلامة المعتقد، وعمق التحليل، وذكر لأقوال المفسرين مع تميُّزه بالترجيح المدعَّم بالتدليل أو التعليل، مع وضوح بالعبارة، واستيعاب لجميع ما تضمنته الآية من منطوق أو مفهوم، مع التنبيه لما ورد من ضعيف القصص أو الآثار في مناسبات الآيات ونزولها، وقد اهتم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بترسيخ العقيدة السلفية، وبيان ما وقع فيه أهل البدع من تأويل الصفات وتعطيلها،

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦٠٩).

وما وقع فيه أهل الإشراك من الشرك بأنواعه ، وكذا بيَّن في مواطن عديدة كثيرا من أبواب التوحيد ، وما يُخلُّ بالعقيدة الصحيحة كمجال من مجالات الدعوة ، ناهيك عن تفصيل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ واستطراده في مجالات الدعوة الأخرىٰ في الأخلاق والتربية والعبادة والمعاملة وغيرها ، مدعَّمة بأساليب دعوية مناسبة ووقفات تربوية يحتاجها الداعية والمدعو علىٰ حدٍّ سواء ، وللشيخ طرح لمشكلات المجتمع العصرية التي يحتاجها الناس ويستفيد منها الدعاة والمدعوين ، وتفسيره ثري للغاية في طرح ومعالجة القضايا الدعوية المعاصرة ، مع التنبيه علىٰ أنواع الفتن المعاصرة -عند الآيات التي تتناول الفتن- ومداخلها وكيفية المخرج منها وضماناتها الشرعية ، وغيرها من المجالات والموضوعات الدعوية ، وبالجملة فإن تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثري بالملامح الدعوية في مفهوم الدعوة ومصادرها ومجالاتها وأساليبها ، وعوامل بناء الداعية وتأهيله ، وبيان أصناف المدعوين وغيرها من مضامين الدعوة ، وقد كانت له رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وقفات دعويّة عند تفسيره لبعض الآيات والسور تدل علىٰ علمه وعنايته في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأحببت أن تكون رسالتي في مضامين الدعوة في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ، وأثر تفسيره في معالجة القضايا الدعوية المعاصرة .

❑ الأهمية وأسباب الدارسة :

أولاً : ارتباط الدعوة إلىٰ الله بالكتاب والسنة ارتباطًا وثيقًا ؛ لأنهما مصدر التشريع وأساس الدعوة إلىٰ الله ، وهما مصدر المضامين الدعوية الصحيحة بأركانها وأساليبها ووسائلها وأصولها .

ثانيـًا : أهمية ربط المجتمع دعاة ومدعوين بكتاب الله تعالىٰ ، والانطلاق من موضوعاته الدعوية ، وما فيه من القصص والعِبَر ، والبشارة والنذارة .

ثالثـًا : ضعف الطرح الدعوي المرتبط بكتاب الله تعالىٰ عند بعض الدعاة ، وعدم الرجوع لكتب التفسير الموثوقة ذات الطرح الدعوي .

رابعـًا : أن تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تفسير ثري بالملامح الدعوية ، ويتميَّز بمعالجة القضايا الدعوية المعاصرة ، فهو كثير ما يربط الآيات بما يحتاجه الناس دعاة ومدعوين ، وهو رَحِمَهُ اللَّهُ من العلماء المعاصرين الذين يسعون إلىٰ تبليغ الدعوة إلىٰ الله بشتىٰ الوسائل والأساليب الشرعية المتاحة ، ويظهر ذلك جليًّا في تفسيره للآيات وما تتضمنه من مضامين دعوية .

خامسـًا : أن الداعية مأمور بأن تكون دعوته علىٰ علم وبصيرة ولن يتم ذلك حتىٰ يكون عالمـًا بالكتاب والسنة الصحيحة .

سادسـًا : أهمية تقديم دراسة دعويّة تكون مادتها أحد التفاسير السليمة في معتقدها ومادتها ، ويُعْتَبَرُ تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أوْسَعِ التفاسيرِ التي عُنِيَتْ بتقريرِ العقيدةِ ، فهو تفسيرٌ سَلَفِيٌّ قَرَّرَ فيه مذهب أهل السنة والجماعة ، ورَدَّ علىٰ مخالفيهم .

سابعـًا : كثرة الفوائد الدعويّة التي ذكرها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره ، وقد تميز الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه من العلماء ذوي المنهج الشمولي في الدعوة ، ولتوجيهاته الدعوية أثر بالغٌ علىٰ كثير من الدعاة والمدعوين في واقعنا المعاصر ، إذ أنه يسير في دعوته محتسبًا مقتفيًا آثار وخطىٰ السلف الصالح من الأئمة والدعاة الربانيين ، والذين كان لدعواتهم عظيم الأثر في حياة الناس .

وأذكر جملة من المضامين التي امتلأ بها تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، مقتصراً علىٰ نزر يسير ، مراعياً في ذلك التنوع للتمثيل لا علىٰ سبيل التتبع والحصر :

فمن المضامين الدعوية في تفسيره : تناوله لصفات الداعية : ومن ذلك بيان ما يجب أن يكون عليه الدعاة وطلبة العلم من التعاون والتناصح والتشاور ونبذ الاختلاف والتخاصم ، لما في ذلك من ذهاب لبركة الدعوة والعلم .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش :٤] : « الواجب علىٰ المرء أن يذكر نعمة الله عليه في كل مكان ، لا في مكة فحسب ، فبلادنا ولله الحمد اليوم من آمن بلاد العالم ، وهي من أشد بلاد العالم رغداً وعيشاً . أطعمنا الله تعالىٰ من الجوع ، وآمننا من الخوف ، فعلينا أن نشكر هذه النعمة ، وأن نتعاون علىٰ البر والتقوىٰ ، وعلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلىٰ الدعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة وتأنٍ وتثبت ، وأن نكون إخوة متآلفين ، والواجب علينا ولاسيما علىٰ طلبة العلم إذا اختلفوا فيما بينهم أن يجلسوا للتشاور ، وللمناقشة الهادئة التي يقصد منها الوصول إلىٰ الحق ، ومتىٰ تبين الحق للإنسان وجب عليه اتباعه ، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه ؛ لأنه ليس مشرعاً معصوماً حتىٰ يقول إن رأيه هو الصواب ، وأن ما عداه هو الخطأ » .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ :- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة :٢٠٤] . : « ومنها -أي ومن الفوائد- الإشارة إلىٰ ذم الجدل ، والخصام ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾؛ لأن الخصومات في الغالب لا يكون فيها بركة ؛ وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال : « أبغض الرجال

إلىٰ الله الألد الخصم »[1] ، أي الإنسان المخاصم المجادل بالباطل ليدحض به الحق ؛ وما من إنسان في الغالب أعطي الجدل إلا حرم بركة العلم ؛ لأن غالب من أوتي الجدل يريد بذلك نصرة قوله فقط ؛ وبذلك يحرم بركة العلم ؛ أما من أراد الحق فإن الحق سهل قريب لا يحتاج إلىٰ مجادلات كبيرة ؛ لأنه واضح ؛ ولذلك تجد أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة لا خير فيها ؛ وتجد أنهم يخاصمون ، ويجادلون ، وينتهون إلىٰ لا شيء ؛ لا ينتهون إلىٰ الحق ؛ لأنهم لم يقصدوا إلا أن ينصروا ما هم عليه ؛ فكل إنسان جادل من أجل أن ينتصر قوله فإن الغالب أنه لا يوفق ، ولا يجد بركة العلم ؛ وأما من جادل ليصل إلىٰ العلم ، ولإثبات الحق ، وإبطال الباطل فإن هذا مأمور به ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل :١٢٥] .

ومن المضامين الدعوية : تناوله لخصائص الدعوة ، ومنها الشمول ، حيث ذكر شمولية الخطاب الدعوي وأن الدعوة عامة شاملة لجميع أصناف المدعوين ، مؤمنا كان أو كافرا شريفا أو وضيعا .

قال في تفسير سورة عبس عند قوله تعالىٰ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ : وهذه الآيات فيها تأديب من الله عَزَّوَجَلَّ للخلق ألا يكون همهم هَّما شخصيًّا بل يكون همهم هَّما معنويًّا وألا يفضلوا في الدعوة إلىٰ الله شريفـًا لشرفه ، ولا عظيمـًا لعظمته ، ولا قريبـًا لقربه ، بل يكون الناس عندهم سواء في الدعوة إلىٰ الله الفقير والغني ، الكبير والصغير ، القريب والبعيد » .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧) ، ومسلم (٢٦٦٨) .

ومن ذلك : تناوله لموضوعات الدعوة وأخلاق الداعية : ومنها الصبر في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ لاسيما ما ربما يجده الداعية من أذىٰ المدعوين .

ففي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه : ١٣٠] : « فهم يقولون : إن محمداً كذاب ، وساحر ، وشاعر ، وكاهن ، ومجنون ، وأنه لا بعث ، وإن كانوا يقرون بالرب عَزَّوَجَلَّ وأنه خالق السماوات والأرض ، لكن لا يقرون بأمور الغيب المستقبلة فأمره الله أن يصبر علىٰ ما يقولون ، والصبر علىٰ ما يقولون يتضمن شيئين : الأول عدم التضجر مما يقول هؤلاء ، وأن يتحمل ما يقوله أعداؤه فيه وفيما جاء به ، والثاني : أن يمضي في الدعوة إلىٰ الله ، وأن لا يتقاعس » .

وقال في فوائد قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [البقرة : ١٠٩] : « ومنها : اتباع الحكمة في الدعوة إلىٰ الله بالصبر ، والمصابرة حتىٰ يتحقق النصر ، وأنْ تعامَل كل حال بما يناسبها .. » .

ومن ذلك : تناوله لأساليب الدعوة ووسائلها واختيار الأنسب منها :

ففي مقدمة التفسير قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة ؛ وذلك لأن فيها فوائد منها :

تربية الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ ، وتوجيههم إلىٰ أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع ، من حيث المخاطبين ، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم ، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها » .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] : « من فوائد الآية : أن الله تعالىٰ يوجه الخطاب للمخاطب إما لكونه أوعىٰ من غيره ؛ وإما لكونه أولىٰ أن يمتثل ؛ وهنا وجّهه لبني إسرائيل ؛ لأنهم أولىٰ أن يمتثلوا ؛ لأن عندهم من العلم برسالة

النبي ﷺ ، وأنها حق ما ليس عند غيرهم .

ومنها : أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعىٰ لقبوله الحق ، وأقوم للحجة عليه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة :٤٠] ؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلىٰ الله ؛ بمعنىٰ أننا إذا أردنا أن ندعو شخصاً نذكره بالنعم؟

فالجواب : نعم ، نذكره بالنعم ؛ لأن هذا أدعىٰ لقبول الحق ، وأدعىٰ لكونه يحب الله عَزَّوَجَلَّ ؛ ومحبة الله تحمل العبد علىٰ أن يقوم بطاعته » .

ومن مضامين الدعوة التي تميَّز بها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وانفرد به عن غيره من المفسرين : تناوله للموضوعات والقضايا الدعوية المعاصرة ، وربط حياة الناس بكتاب الله تعالىٰ فيما ألمَّ بهم وأصابهم ونزل من نوازل العصر ، وكم تحتاج الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ إلىٰ عالم في الدين راسخ فيه يعظهم بكتاب الله تعالىٰ لاسيما فيما يعرض لهم في حياتهم ، ومن أمثلة ذلك قوله :

في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :١٧١] : « ومنها -أي ومن الفوائد- أن لهؤلاء أمثالاً يدعون بدعوىٰ الجاهلية ، كأولئك الذين يدعون إلىٰ القومية : فإن مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ، ونداءً ؛ وهذه الدعوىٰ لا يفكر الدعاة لها فيما يترتب عليها من تفريق المسلمين ، وتمزيق وحدتهم ، وكونهم يجعلون الرابطة هي اللغة ، أو القومية ، فيدخل فيها غير المسلم ممن تشملهم القومية ، ويخرج بها مسلمون كثيرون ممن لا تشملهم القومية ؛ لكن الرابطة الدينية التي قال الله سبحانه وتعالىٰ فيها : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحُجُرات :١٠] » .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[البقرة :١٣٥] : « ومن فوائد الآية : أن كل داع إلىٰ ضلال ففيه شبه من اليهود ، والنصارىٰ ؛ دعاة السفور الآن يقولون : اتركوا

المرأة تتحرر ؛ اتركوها تبتهج في الحياة ؛ لا تقيدوها بالغطاءِ ، وتركِ التبرج ، ونحو ذلك ؛ أعطوها الحرية ؛ وهكذا كل داع إلىٰ ضلالة سوف يطلي هذه الضلالة بما يغر البليد فهو شبيه باليهود ، والنصارىٰ » .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضُّحىٰ :٨] : « أي : وجدك فقيراً لا تملك شيئاً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي : أغناك وأغنىٰ بك ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح :٢٠] وما أكثر ما غنم المسلمون من الكفار تحت ظلال السيوف ، غنائم عظيمة كثيرة كلها بسبب هذا الرسول الكريم (حين اهتدوا بهديه ، واتبعوا سنته فنصرهم الله تعالىٰ به وغنموا من مشارق الأرض ومغاربها ، ولو أن الأمة الإسلامية عادت إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح لعاد النصر إليهم ، والغنىٰ ، والعزة ، والقوة ولكن مع الأسف أن الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر كل منها ينظر إلىٰ حظوظ نفسه بقطع النظر عما يكون به نصرة الإسلام أو خذلان الإسلام ... الأمة تحتاج إلىٰ علاج رفيق هادئ يدعو بالتي هي أحسن ، الأمة الإسلامية تحتاج بعد الفقه في دين الله والحكمة في الدعوة إلىٰ الله ، تحتاج إلىٰ العلم بالواقع والفطنة والخبرة ، ونظر في الأمور التي تحتاج إلىٰ نظر بعيد ، لأن النتائج قد لا تتبين في شهر ، أو شهرين ، أو سنة ، أو سنتين ، لكن العاقل يصبر وينظر ويتأمل حتىٰ يعرف ، والأمور تحتاج أيضـًا إلىٰ عزم وتصميم وصبر ؛ لأنه لابد من هذا لابد من عزم يندفع به الإنسان ، ولابد من صبر يثبت به الإنسان وإلا لفاتت الأمور أو فات كثير منها والله المستعان » .

❑ أهداف الدارسة :

١- بيان حاجة الدعوة إلىٰ القرآن الكريم وتفسيره .

٢- التعريف بالشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجهوده الدعوية من خلال تفسير

القرآن الكريم .

٣- الوقوف على الأساليب التي ذكرها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره .

٤- ذكر الموضوعات الدعوية في القرآن الكريم من خلال تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ سواء في الاعتقاد أو الأخلاق أو العبادات أو المعاملات .

٥- بيان منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدعوي في تقرير قضايا الدعوة من خلال تفسيره .

٦- إبراز القضايا الدعوية المعاصرة التي عالجها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره .

٧- ربط الداعية والمدعو بكتاب الله تعالى من خلال إبراز المضامين الدعوية في التفسير .

٨- ذكر أصناف المدعوين الوارد ذكرهم في تفسير ابن عثمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكيفية تناول التعامل الدعوي معهم .

❑ **تساؤلات الدارسة :**

١ . ما أهمية ارتباط الدعوة بالقرآن الكريم وتفسيره؟

٢ . ما منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير قضايا الدعوة إلى الله تعالى من خلال تفسيره؟

٣ . ما هي جهود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدعوية المرتبطة بتفسير القرآن الكريم؟

٤ . ما هي الموضوعات الدعوية التي تناولها تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟ وما القضايا المعاصرة التي تناولها مع بيان أثرها .

٥ . ما المنهج الشرعي في التعامل مع أصناف المدعوين الوارد ذكرهم في الآيات من خلال تفسير ابن عثيمين .

٦ . ما أبرز الأساليب الدعوية في القرآن الكريم المستنبطة من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

❑ **الدراسات السابقة :**

بعد البحث عن دراسة تناولت المضامين الدعوية في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وجرىٰ البحث في المكتبات العامة كمكتبة الملك عبدالعزيز ، ومركز الملك فيصل للدراسات والبحوث ، ومكتبة الملك فهد الوطنية ، والإطلاع علىٰ قائمة البحوث والرسائل الجامعية في الجامعة الإسلامية ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة أم القرىٰ ، لم أقف علىٰ دراسة لهذا الموضوع ، وغاية ما طُرح -مع قلَّتها- هي موضوعات تتكلم عن جهود الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير ، ويرجع سبب ذلك إلىٰ أن تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يظهر علىٰ الساحة العلمية كمطبوع إلا منذ عهد قريب أخرجته مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ومن الجهود العلمية التي وقفت عليها في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يلي :

١ .**جهود الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير وعلوم القرآن** ، رسالة دكتوراه ، للباحث : أحمد بِن محمد البريدي ، جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض .

اشتملت الرسالةُ علىٰ مقدمة ، وتمهيد ، وأربعة أبواب ، وخاتمة ، ذكر في التمهيد ترجمة للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفي الباب الأول : بيان جهوده ومصادره في التفسير وعلوم القرآن ، وفي الباب الثاني : منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير ، أمَّا البابُ الثالث فكانَ لبيانِ اهتماماتهِ في تفسيرهِ ، أمَّا البابُ الرابع فَعَقَده لبيانِ مَنهجِه في علومِ القرآن وأصول التفسير ، ثم الخاتمة ، ولم تُسق الرسالة لبيان المضامين الدعوية لأنها غير مقصودة في البحث ، ولذا لم يتعرض لها الباحث ،

وإنما كانت الرسالة في بيان جهود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومنهجه في التفسير .

٢. **ترجيحات العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير** ، وهي ورقة عمل قدَّمها الدكتور عبدالله بن محمد الجيوسي ، وليس في هذه الورقة ذكر للمضامين الدعوية البتة ، وإنما هي في آلية ترجيحات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآيات .

٣. **منهج الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلىٰ الله** ، رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، للباحث : عبدالعزيز بن عبدالرحمن الروضان ، وقد جاءت رسالته في تمهيد وأربعة فصول ، كما يلي :

الفصل التمهيدي : وفيه ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

الفصل الأول : أصول منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة والاحتساب وخصائصه :

الفصل الثاني : وسائل وأساليب منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلىٰ الله :

الفصل الثالث : ميادين الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ في منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

الفصل الرابع : مقومات منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ

وهي دراسة تختلف عما أردت بحثه من عدة وجوه ، وإيضاحها كما يلي :

أولاً : أوجه الاتفاق .

ذكر الباحث في الفصل التمهيدي ترجمة للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وذكرت ذلك أيضا في المبحث الأول من الفصل التمهيدي .

ذكر الباحث في رسالته التفسير إشارة إلىٰ كونه إحدىٰ نتاجه العلمي البارز دون التعرض لمضمون تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فقد ذكر في الفصل الأول أصول منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة والاحتساب ، وأنه كان يعتمد الكتاب والسنة في منهجه ومن ذلك عنايته بالقرآن وتفسيره ، وذكر في الفصل الرابع ميادين الدعوة إلىٰ الله في منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذكر منها مسجده والذي كان يعقد فيه دروسا علمية ومنها تفسير كتاب الله تعالىٰ .

ثانيًا : أوجه الاختلاف .

لم يسلط الباحث في رسالته ما تضمنه تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مضامين الدعوة ، فلم يكن منطلق الباحث تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكتاب الله تعالىٰ ، ولذا لم يكن للتفسير في رسالته غير ذكره كنتاج علمي اهتم به الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للدلالة علىٰ عنايته بكتاب الله تعالىٰ .

الباحث لم يذكر حاجة الدعوة إلىٰ الارتباط الوثيق بتفسير كتاب الله تعالىٰ لاسيما تفسير الراسخين في العلم كالشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

الباحث لم يبيِّن منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ربط حياة الناس وواقعهم بكتاب الله ، وما تناوله الشيخ عند تفسيره للآيات ، إذ أن دراسة الباحث لم تُعنىٰ بربط الدعوة بتفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنما منهجه الدعوي عموما .

الباحث لم يذكر ما تضمنه تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من موضوعات دعوية ، وهي موضوعات ثرية جدا في تفسيره لاسيما ما يتعلَّق بالاعتقاد ، ومسائل الإيمان ، وبيان التوحيد وما يخالفه من الشرك وأنواعه ، ويُعدُّ تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما تقدَّم من أوسع التفاسير في المعتقد السلفي في بيان المعتقد الصحيح وبيان ما وقع فيه أهل البدع من التأويل والتعطيل والرد عليهم ، كما لم يتعرض الباحث إلىٰ موضوعات الدعوة الأخرىٰ في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما



يتعلق بالأخلاق والتربية والعبادات والمعاملات .

لم يذكر الباحث أصناف المدعوين الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم والذين تناولهم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأصنافهم وكيفية التعامل الشرعي معهم .

لم يذكر الباحث الأساليب الدعوية الواردة في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنما كان ذكر الأساليب والوسائل في رسالة الباحث من خلال دعوة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عموما ، لا من خلال الآيات التي فسرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

تناول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره كثير من قضايا العصر وربطها بالآيات ربطًا مميزاً ، ودراسة الباحث لم تتعرض لهذا لأن الدراسة لم تكن في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

وبالجملة أصل دراسة الباحث يختلف تماما عن الأصل الذي أردت تناوله في الدراسة وهو المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ وجه الخصوص .

٤. **الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات** ، وهو كتاب مطبوع قام بجمعه الأخ علي بن حسين أبو لوز ، جمع طرفا من توجيهات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكلماته فيما يتعلق بقضايا الدعوة إلىٰ الله وكذلك الفتاوىٰ المتعلقة في هذا الجانب .

وقد قسمه إلىٰ عدة أقسام : منها ما يتعلق بضوابط الدعوة ، ومنها ما يتعلق بقضية التوازن والاعتدال في الدعوة ، ومنها ما جعله لتوجيهات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول الفتاوىٰ المتعلقة بحكم الدعوة إلىٰ الله وصفات الداعية وما يحتاجه في دعوته ، والفتاوىٰ للمرأة المسلمة ودورها في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، ثم الصحوة والجماعات الإسلامية والحزبية ، ثم الدعوة في مجتمع الأقليات الإسلامية ، وأخيرًا دعوة الكفار .

ولم يكن للمضامين الدعوية المتنوعة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أي ذكر في الكتاب مما يبيِّن اختلاف مادة الكتاب عما أردت دراسته تماما .

٥. **صفحات من حياة الفقيد العالم الزاهد الشيخ محمد بن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كتيب صغير كتبه الدكتور عبدالله الطيَّار في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ متناولاً اسمه ونسبه ونشأته وأعماله وزهده ومرضه، ثم تطرق إلىٰ حياة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلمية وذكر فيها طريقته في التعليم ثم ذكر شيوخه ومنهجه في التدريس وسمات دروس الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتلاميذه، وفي عنوان جوانب من حياة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر منهجه في الدعوة وإنكار المنكر.

والكتاب يُستفاد منه في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا أن المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن لها نصيب، بالإضافة إلىٰ أن مادة الكتاب قليلة.

٦. **الجامع لحياة العلامة محمد بن عثيمين العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي**، وهو كتاب من تأليف الباحث وليد بن أحمد الحسين، والكتاب عبارة عن ترجمة وسيرة ذاتية للشيخ مع توسع في بسط كثير من المسائل العلمية، ثم جمع في أكثر من نصف الكتاب ما قيل في الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المراثي شعراً ونثراً، وقريب منه كتاب:

٧. **ابن عثيمين الإمام الزاهد**، الذي جمعه الدكتور ناصر الزهراني، ففيه بسط في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأكثر من نصف الكتاب مقتصر علىٰ ما قيل من المراثي شعراً ونثراً.

ويستفاد من الكتابين في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن لم يكن من نهج الكتابين التعرض للمضامين الدعوية في التفسير البتة.

ومما يُذكر من التراكمات العلمية السابقة: ندوة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلمية، المنعقدة بجامعة القصيم، في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية خلال يومين من (٦-٧/ ١١/ ١٤٣٢هـ) وعُرض في الندوة جملة من البحوث القصيرة وأوراق العمل وكان منها ما يخص تفسير

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وهي كما يلي :

منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير غريب القرآن ، للدكتور . حسن بن علي الشهراني بحث مُحكَّم .

موقف الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من القراءات من خلال تفسيره ، للدكتور . عبدالعزيز بن سليمان المزيني .

منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان مشكل القرآن الكريم ، للدكتور . رجب عبدالمنصف عبدالفتاح .

التأمل والاستنباط في آيات الكتاب بين الشيخ العثيمين وشيخه السعدي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ ، للدكتور . محمد بن حمد المحيميد .

وهذه البحوث القصيرة وأوراق العمل مع اختصارها -لما يقتضيه المقام وطبيعة الندوة- إلا أنها مميزة في موضوعاتها ومضمونها ، لكنها ذات علاقة وطيدة بعلم التفسير وما يتعلق به من مشكل وغريب القرآن وعلم القراءات وبيان منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها وطريقته في الاستنباط ، وهي مباحث قصيرة ذات اختصاص بقسم التفسير ، ودراسة الباحث تهتم بإبراز الجوانب الدعوية والمضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للقرآن الكريم علىٰ وجه الخصوص .

وغاية ما ذُكر من الدراسات والتراكمات العلمية إما دراسات تناولت ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجهوده العلمية علىٰ وجه العموم ، دون التركيز علىٰ المضامين الدعوية لاسيما في تفسيره ، وإما أن تكون دراسات ذات علاقة بالتفسير وما يتعلق به ، ولم أقف -بعد البحث علىٰ دراسة تناولت المضامين الدعوية في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع ثروة تفسيره بالأساليب والموضوعات الدعوية في العقيدة والتربية والأخلاق ومنهج التعامل مع

المخالف ، وتأصيله لفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الآيات الدالة عليه ، وبيان المنهج الشرعي من الفتن والقضايا المعاصرة ، وما يحتاجه الناس ، وربطها بما جاء في كتاب الله تعالىٰ ، إلىٰ غير ذلك من المضامين المتنوعة .



❑ **خطة البحث :**

تتكون خطة البحث من : مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة ، وفهارس .

المقدمة : وتشمل :

- أهمية وأسباب اختيار الموضوع .
- أهداف الدراسة .
- تساؤلات الدراسة .
- الدراسات السابقة .
- منهج البحث .
- خطة البحث .

التمهيد : وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيها ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : مولده ونشأته ووفاته .

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المطلب الثالث : مكانته العلمية والدعوية ، ومؤلفاته .

المبحث الثاني : أهمية القرآن الكريم وتفسيره للدعوة الإسلامية ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة .

المطلب الثاني : حاجة الدعوة إلىٰ القرآن الكريم وتفسيره .

المطلب الثالث : منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية ، وفيه :

بيان منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية، وربطها بكتاب الله تعالىٰ، وبيان موسوعيَّة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه وتناوله لكثير من قضايا العصر، وتأكيده علىٰ ربط حياة الناس دعاة ومدعوين بكتاب الله تعالىٰ بما فيه من المواعظ والعِبَر والحِكَم، وبيان الكتب في التفسير التي صدرت من مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقوامها ثمانية عشر مجلدا: ثلاثة مجلدات في سورتي الفاتحة والبقرة، ومجلدان في سورة آل عمران، ومجلدان في سورة النساء، ومجلدان في سورة المائدة، ومجلد في سورة الأنعام، ومجلد في سورة الكهف، ومجلد في سورة يس، ومجلد في سورة الصافات، ومجلد في سورة ص، ومجلد في السور من الحجرات إلىٰ الحديد، ومجلد في جزء عم، ومجلدان في أحكام القرآن.

المبحث الثالث: مفهوم الدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها من خلال تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويشتمل علىٰ أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الدعوة إلىٰ الله.

المطلب الثاني: أهمية الدعوة إلىٰ الله.

المطلب الثالث: حكم الدعوة إلىٰ الله.

المطلب الرابع: مصادر الدعوة إلىٰ الله.

الفصل الأول: الدعوة إلىٰ عقيدة التوحيد من خلال تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الدعوة إلىٰ عقيدة التوحيد بأنواعه.

المبحث الثاني: التحذير من الشرك وما يضادّ التوحيد.

المبحث الثالث: الدعوة إلىٰ أركان الإيمان.

المبحث الرابع : الدعوة إلىٰ الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة .

الفصل الثاني : القضايا الدعوية المعاصرة ، ومجالات الدعوة الأخرىٰ في تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : مجالات الدعوة الأخرىٰ في تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الدعوة إلىٰ العبادات .

المطلب الثاني : الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق .

المطلب الثالث : الدعوة إلىٰ ما يتعلق بالمعاملات .

المطلب الرابع : الدعوة إلىٰ التربية الصالحة ، والقدوة الحسنة .

المبحث الثاني : القضايا الدعوية المعاصرة في تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أثر معالجة القضايا المعاصرة في تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة في تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبيان تأصيل ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها .

الفصل الثالث : بناء الداعية وتأهيله من خلال تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الداعية وبيان مفهوم التأهيل .

المبحث الثاني : التأهيل العقدي للداعية .

المبحث الثالث : التأهيل العلمي للداعية .

المبحث الرابع : التأهيل الأخلاقي للداعية .

المبحث الخامس : التأهيل العملي للداعية .

الفصل الرابع : أصناف المدعوين وخصائصهم في تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف المدعوّين وبيان أصنافهم وأنواعهم .

المبحث الثاني : مراعاة أحوال المدعوّين .

المبحث الثالث : دعوة المسلمين .

المبحث الرابع : دعوة أهل البدع .

المبحث الخامس : دعوة أهل الكتاب

المبحث السادس : دعوة المجوس وسائر المشركين .

المبحث السابع : دعوة المنافقين .

الفصل الخامس : الأساليب والوسائل الدعويّة المستنبطة من تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الأساليب الدعوية المستنبطة من تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعويّة ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : الحكمة .

المطلب الثالث : الموعظة الحسنة .

المطلب الرابع : الجدال بالتي هي أحسن .

المطلب الخامس : الترغيب والترهيب .

المطلب السادس : الأمثال .

المطلب السابع : القصص .

المبحث الثاني : الوسائل الدعوية المستنبطة من تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الوسائل الدعويّة ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : القدوة الصالحة .

المطلب الثالث : الدعوة بوسيلة القول .

المطلب الرابع : إرسال الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والدعاة

المطلب الخامس : إرسال الكتب والرسائل .

المطلب السادس : الخطبة .

المطلب السابع : وسائل أخرىٰ .

الخاتمة :

وتتضمن أهم نتائج البحث والتوصيات .

الفهارس : وتتضمن :

فهرس المضامين الدعوية

فهرس المصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .



❑ منهج البحث :

المنهج هو الطريق الواضح البيِّن ، ومنهج البحث هو الطريقة الصحيحة المختارة لتنظيم سلسلة من الأفكار العديدة من أجل الكشف عن الحقائق[1] .

واعتمدت في هذه الدراسة علىٰ المنهج الاستقرائي ، وقمت باستقراء المضامين الدعوية من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وتحليلها حسب متطلبات البحث وطبيعة الدراسة .

ومما يتعلَّق بعملي ومنهجي في هذا البحث ما يلي :

أولاً : اعتمدت في هذا البحث علىٰ النسخة الصادرة من مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جميع المجلدات التي هي موضوع الدراسة وقوامها ثمانية عشر مجلداً كما تقدَّم بيانه ، وهي كما يلي :

– أحكام من القرآن الكريم ، مجلدان ، مدار الوطن ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ط١٤٢٥هـ .

– تفسير سورة البقرة مع الفاتحة ، ثلاث مجلدات ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط٣ ، ١٤٣٥هـ .

– تفسير سورة آل عمران ، مجلدان ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط٣ ، ١٤٣٥هـ .

– تفسير سورة النساء ، مجلدان ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط٣ ، ١٤٣٥هـ .

– تفسير سورة المائدة ، مجلدان ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط٢ ، ١٤٣٥هـ .

---

(١) « كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الفقهية » عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان (٤٧) .

- تفسير سورة الأنعام، مجلد واحد، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الدمام، ط١، ١٤٣٣هـ.

- تفسير سورة الكهف، مجلد واحد، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الدمام، ط٣، ١٤٣٥هـ.

- تفسير سورة يس، مجلد واحد، دار الثريا، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٤هـ.

- تفسير سورة الصافات، مجلد واحد، دار الثريا، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ.

- تفسير سورة ص، مجلد واحد، دار الثريا، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.

- تفسير السور من الحجرات إلىٰ الحديد، مجلد واحد، دار الثريا، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.

- تفسير جزء عم، مجلد واحد، دار الثريا، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط٣، ١٤٢٤هـ.

ثانيًا: العزو في أثناء البحث لتفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيكون مختصراً، متضمنًا اسم السورة ورقم الصفحة.

ثالثًا: الاهتمام بالمضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والتعليق عليها والوقوف علىٰ أبرز المضامين الدعوية الظاهرة والمرتبطة بالموضوع، وأحيانًا كثيرة أختار جملة منها دون استقصاء الجميع؛ لئلا يطول ويكثر النقل ويخرج عن مقصوده.

رابعـًا : يذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفوائد المستنبطة من الآية مرقمة (١ ، ٢ ، ٣ ...) ، وأحيانـًا تعداداً بلا ترقيم ، بلفظ (من فوائد الآية ... ، ومنها : ....) وقد يكون المضمون الدعوي متعلِّق بفائدة أثناء هذه الفوائد ، فأورد الفائدة بلفظ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسبوقة بلفظ (ومن فوائد الآية) .

خامسـًا : عنونة ما يحتاج إلىٰ عناوين من المضامين وقد أدرج معه من كلام أهل العلم ما يعضد المضمون الدعوي في أصل البحث وحاشيته .

سادسـًا : الإضافة إلىٰ كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ما يشابهه ويتعلَّق به من كتبه الأخرىٰ .

سابعـًا : عزو الآيات القرآنية إلىٰ مواضعها بذكر سورها وأرقامها ، مع كتابتها بالرسم العثماني .

ثامنـًا : عزو الأحاديث إلىٰ مظانها ، وأذكر في التخريج رقم الحديث والجزء والصفحة واسم الراوي .

تاسعـًا : الحكم علىٰ الأحاديث ، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بهما ، وإن كان عند غيرهما ذكرت الحكم علىٰ الحديث من كلام الأئمة .

عاشراً : الالتزام بعلامات الترقيم ، وضبط ما يحتاج إلىٰ ضبط .

الحادي عشر : تذييل البحث بالفهارس علىٰ النحو المبيَّن في الخطة .

وأختم مقدمة رسالتي : بالشكر الخالص ، والحمد التام ، والثناء الكامل لأهل الثناء والمجد ، ومن لا أحصي ثناء عليه ، سبحانه هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه ، أحمده حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، علىٰ نعمه الوافرة ، ومن جملة نِعَمِهِ إعانتي علىٰ هذا البحث وتيسير أمره ، فالحمد له علىٰ كرمه وعظيم امتنانه ، والحمد له أولا وآخرا وظاهرا وباطنا .

ثم الشكر لشيخي فضيلة المشرف علىٰ هذه الرسالة الدكتور : عبيد بن عبدالله السحيمي في كلية الدعوة وأصول الدين ، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية في الجامعة الإسلامية ، الذي سددني وأعانني بتوجيهاته ، وإرشاداته ، ودقة ملحوظاته ، وسرعة إنجازه في فصول هذا البحث أولا بأول ، فجزاه الله عني وعن طلاب العلم خير الجزاء .

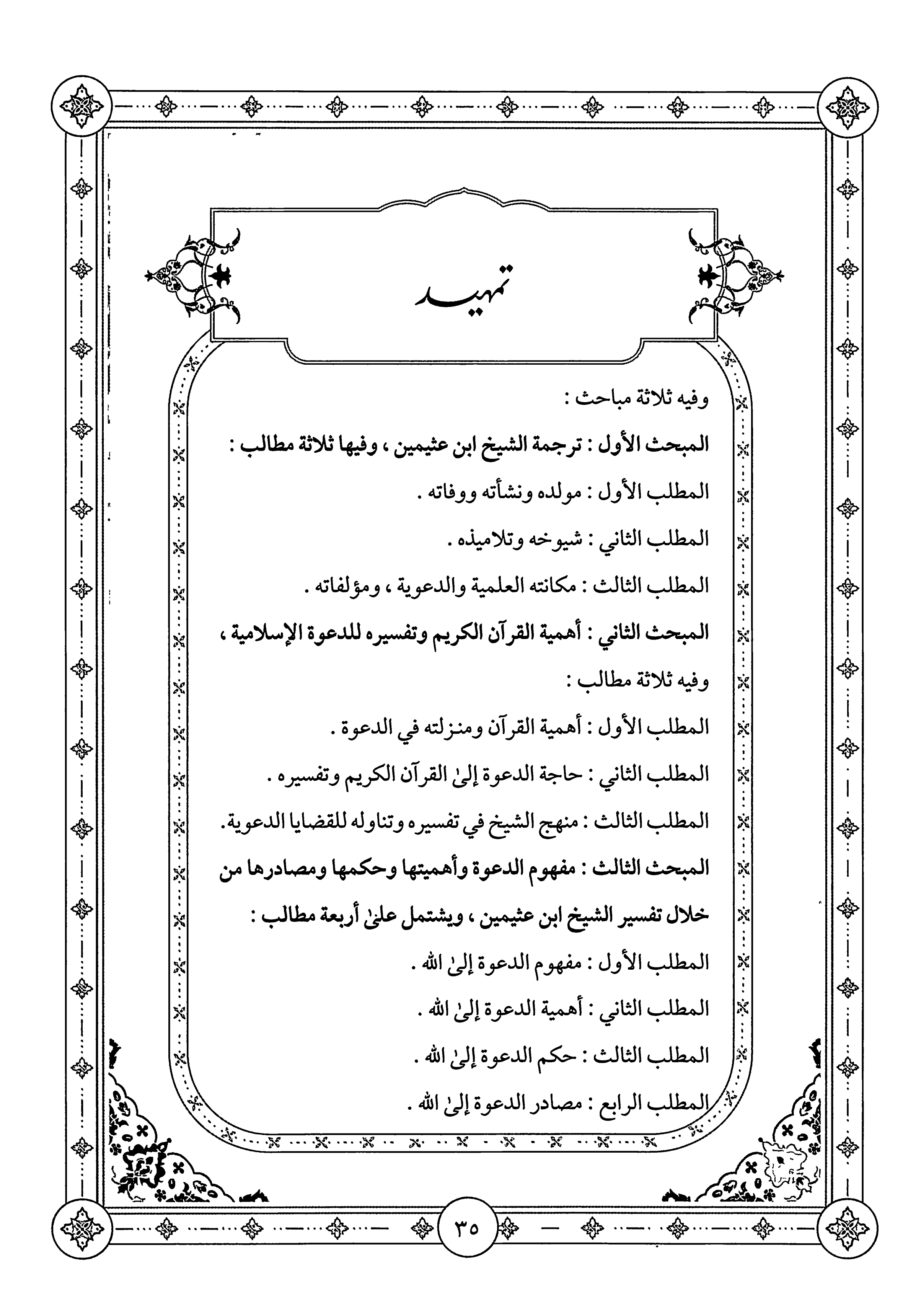
ثم الشكر مقدَّماً للجنة مناقشة هذه الرسالة الدكاترة الفضلاء علىٰ ما سيصلني من ثمار ملحوظاتهم وتسديدهم ، ونصحهم وإرشادهم ، فجزاهم عني وعن طلاب العلم خيرا .

وشكرٌ مثله أهديه والدتي وأهل بيتي علىٰ حثِّهم وصبرهم ، وتقديرهم انشغالي بإعداد الرسالة ، والشكر لكل من شجعني وحثني ، وسأل عن مسيرة عملي في رسالتي .

والشكر موصول لكلية الدعوة وأصول الدين في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، ممثلة بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية علىٰ ما يقدمونه من تيسير وخدمة لطلاب العلم والباحثين .

أسال الله تعالىٰ التوفيق والسداد ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفعني به وعامة طلاب العلم ، والمسلمين ، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .





تمهيد

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : ترجمة الشيخ ابن عثيمين ، وفيها ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : مولده ونشأته ووفاته .

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المطلب الثالث : مكانته العلمية والدعوية ، ومؤلفاته .

المبحث الثاني : أهمية القرآن الكريم وتفسيره للدعوة الإسلامية ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة .

المطلب الثاني : حاجة الدعوة إلىٰ القرآن الكريم وتفسيره .

المطلب الثالث : منهج الشيخ في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية.

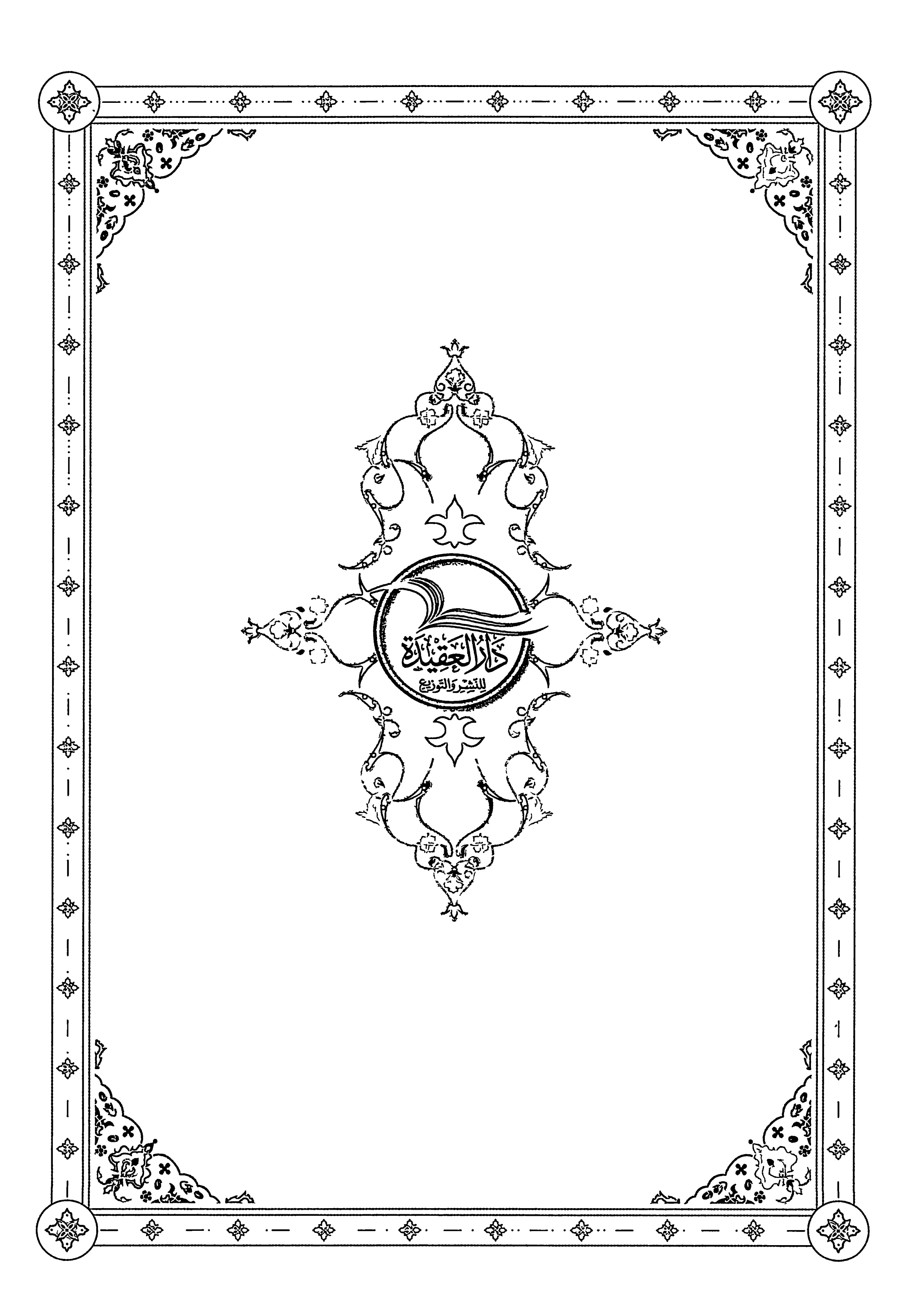
المبحث الثالث : مفهوم الدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين ، ويشتمل علىٰ أربعة مطالب :

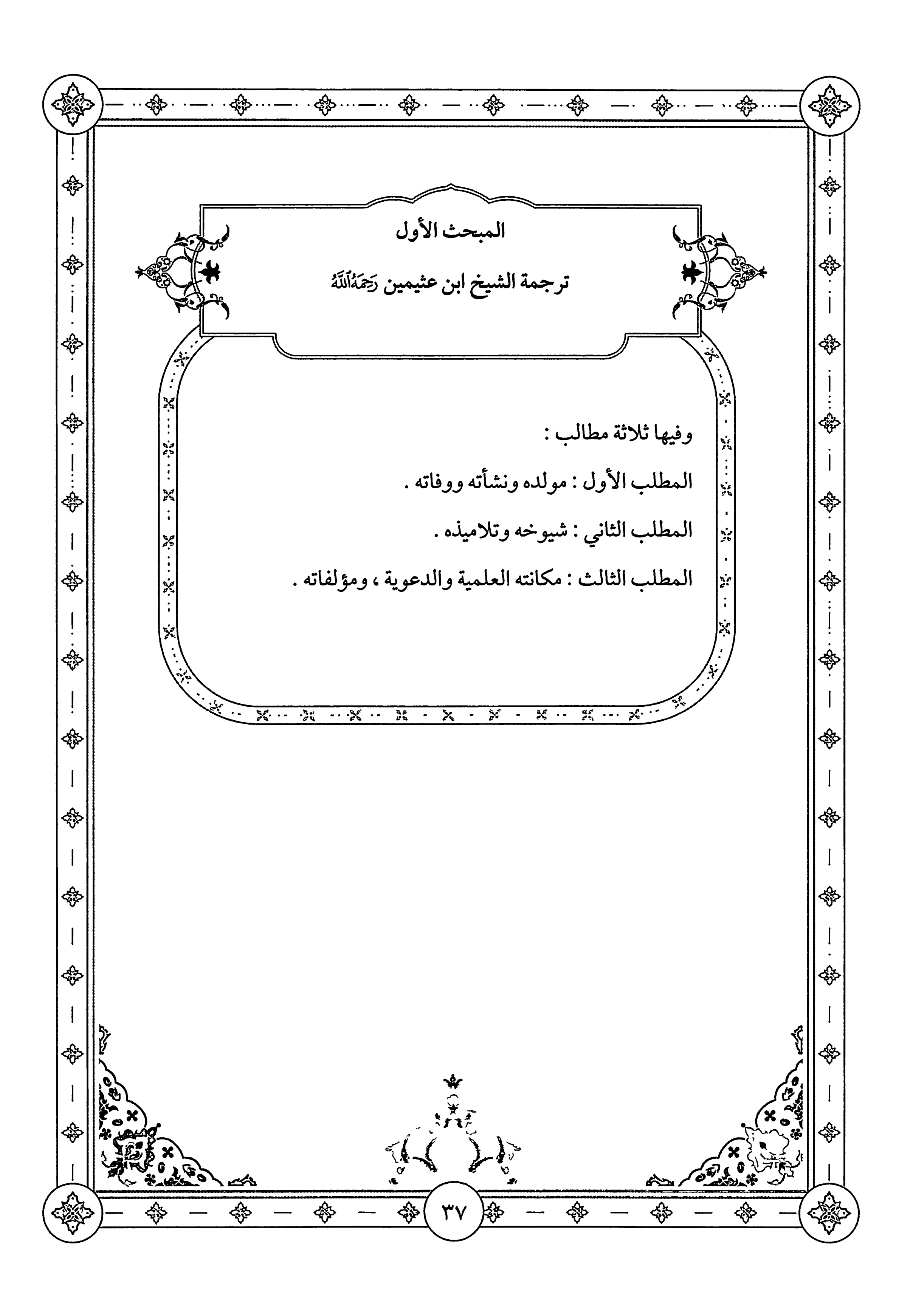
المطلب الأول : مفهوم الدعوة إلىٰ الله .

المطلب الثاني : أهمية الدعوة إلىٰ الله .

المطلب الثالث : حكم الدعوة إلىٰ الله .

المطلب الرابع : مصادر الدعوة إلىٰ الله .


دار العقيدة
للنشر والتوزيع



المبحث الأول

ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وفيها ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : مولده ونشأته ووفاته .

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المطلب الثالث : مكانته العلمية والدعوية ، ومؤلفاته .

المطلب الأول: مولده ونشأته ووفاته

إن من أبرز العلماء المعاصرين الذين استفاض التأليف في الحديث عن حياتهم مولدا ونشأة وعلمـا وعملاً وخدمة للدين الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك أنه من العلماء العاملين الراسخين في العلم ، الذين كُتب لهم القبول في الأرض حتىٰ أحبه عامة الناس وصدروا عن آرئه وعلمه ، لما حباه الله تعالىٰ من عمق في العلم ، وصحة في الاستدلال ، ووضوح في المنهج ، وقوة في الاستنباط ، ودماثة في الأخلاق ، فكان مثالاً حيًّا يُرىٰ فيه سيرة السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وسأتناول فيما يلي مولد هذا الإمام ونشأته ووفاته .

أولاً : مولده ونشأته :

وُلِد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلامة المحقق الفقيه الأصولي محمد بن صالح بن سليمان بن عبدالرحمن آل عثيمين الوهيبي التميمي في مدينة عنيزة إحدىٰ مدن منطقة القصيم عام (١٣٤٧هـ) في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك في عائلة معروفة بالدين والاستقامة(١) .

وقد كان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ رُزق ذكاءً وزكاءً وهمة عالية في تحصيل العلم ، ومزاحمة رَكْب العلماء في حِلَق العلم ، وكانت بداية ذلك عام (١٣٦٠) هجرية عند ملازمته لشيخه العلَّامة المفسر عبدالرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، بل إن نشأته كانت في التحصيل واغتنام الوقت وصرفه في المطالعة والمكوث الطويل في المكتبات لاسيما مكتبة الشيخ عبدالله بن محمد المانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاضي

---

(١) « حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية وسيرته الخيرية » مرزوق عبدربه عبدالعال (٢٤) .

عنيزة ، حيث يقول أولاد الشيخ المانع : كان الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في مُقتبل العمر وفي صباه يأتي إلىٰ منزلنا في الصباح الباكر وعلىٰ رأسه قُفَّة[١] يحمل فيها كتبه وأوراقه فيطرق الباب علينا ويستأذن ، ثم يصعد إلىٰ المكتبة فيبقىٰ فيها إلىٰ الظهر ، ثم بعد ذلك ينزل من المكتبة ويُسلِّم علينا وينصرف .

وقد تجاوز المراحل الأولىٰ في طلب العلم من حفظه القرآن علىٰ جده لأمه الشيخ عبدالرحمن بن سليمان بن دامغ إمام مسجد الخريزة ، ودراسته وحفظه للمتون المختصرة علىٰ شيخه محمد بن عبدالعزيز المطوع ، وقد انتظم مع هذين الشيخين قبل أن ينضم إلىٰ شيخه ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

بل الذي صقل موهبته جلوسه للتدريس في حياة شيخه ، فكانت أول جلسة عقدها عام (١٣٧١هـ) أي قبل وفاة شيخه السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخمس سنوات ، فكانت نشأته في أحضان شيخه ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

وقد لمس الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تلميذه الذكاء والنجابة فحرص عليه ، وعلىٰ أن ينضم إلىٰ حلقته ويُفرغ نفسه للعلم[٢] .

ثانيـًا : مرضه ووفاته :

أصيب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمرض سرطان القولون ، والذي ظل يعاني منه لفترة طويلة ولم يُكْتَشف إلا في شهر ربيع الأول عام (١٤٢١هـ) إثر مراجعة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمستشفىٰ الملك فهد بالرياض ، وأمام إلحاح ولاة الأمر بالمملكة العربية السعودية سافر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطائرة خاصة بأمر من صاحب

---

(١) قال ابن الأثير : « القُفَّة : شبه زنبيل صغير من خوص يجتنىٰ فيه الرطب ، وتضع النساء فيه غزلهن » . « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٤ / ٩١) ، مادة (قفف) .

(٢) « الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية » وليد الحسين (١٠ - ١١) .

السمو الملكي الأمير : عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد في ذلك الوقت رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ مدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية وذلك للتشخيص بصحبة أخيه وأبنائه وعدد من استشاري الأورام في مستشفىٰ الملك فيصل التخصصي بالرياض وهذه هي أول مرة في حياته يسافر إلىٰ خارج المملكة حيث إنه أمضىٰ هناك عشرة أيام- ورغم مرضه الشديد لم يبخل علىٰ المسلمين في مدينة (بوسطن) الأمريكية ببعض الجلسات والكلمات والنصح والإرشاد ، وأمَّ المسلمين في صلاة الجمعة مرة واحدة .

ثم عاد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ المملكة وأدخل مستشفىٰ الملك فيصل التخصصي بالرياض ، وتوافدت علىٰ غرفته بالمستشفىٰ جموع كثيرة من محبي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعموم رجالات المجتمع الذين حرصوا جميعاً علىٰ الاطمئنان علىٰ صحة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

وقد غادر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستشفىٰ الملك فيصل بالرياض يوم الثلاثاء التاسع من رمضان متوجهاً إلىٰ مكة المكرمة لقضاء بقية أيام رمضان بجوار الكعبة المشرفة ، وفي الحرم المكي كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يلقي دروساً يومية من مقر إقامته داخل المسجد الحرام بجوار باب العمرة ، ويتم نقل الصوت عبر المكبرات إلىٰ الركن الذي طالما جلس فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتعليم الناس وتوجيههم ، ثم يجيب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الأسئلة التي توجه إليه ، إلا أنه لم يكن يستقبل الزيارات نظراً لحالته الصحية ، ثم غادر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ جدة حيث أدخل مستشفىٰ الملك فيصل التخصص ، ثم دخل العناية المركزة ، وخرج منها بعد ثلاثة أيام ، وتحسَّنت حالته الصحية لكنها ساءت مرة أخرىٰ .

توفي سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الساعة السادسة من مغرب يوم الأربعاء (١٥ / ١٠ / ١٤٢١هـ) داخل مستشفىٰ الملك فيصل

التخصصي بجدة .

وقد شيَّع أكثر من نصف مليون مصلي أو يزيدون الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقب إقامة صلاة الميت عليه عصر يوم الخميس الموافق (١٦/ ١٠/ ١٤٢١هـ) حيث تدافع عدد كبير من العلماء والمسؤولين من مدنيين وعسكريين ، وجمع غفير من طلبة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومحبيه للمشاركة في تشييع جثمانه إلىٰ مقابر العدل في مكة المكرمة ، ليُوارىٰ إلىٰ جوار أستاذه ورفيق دربه في طريق الدعوة الشيخ : عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورغم وجود أكثر من ألف من رجال الشرطة إلا أن تدافع المشيعين الذي بدا عليهم التأثر واضحـًا ، حيث أغشي علىٰ عدد كبير منهم ، أدىٰ كل ذلك إلىٰ إغلاق مداخل المقبرة لمنع الأعداد المتزايدة من الدخول ، في حين لم تأخذ مراسم الدفن إلا دقائق معدودة ووارىٰ فيها جثمان الفقيد الثرىٰ .

وقد شارك في تشييع الجثمان كل من سمو وزير الداخلية نايف بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، والأمير ممدوح بن عبدالعزيز رئيس مركز الدارسات الاستراتيجية ، والأمير فيصل بن بندر بن عبدالعزيز أمير منطقة القصيم ، ومحافظ جدة الأمير مشعل بن ماجد بن عبدالعزيز .

وبوفاة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقدت الأمة الإسلامية عالمـًا من علمائها ولبنة من لبناتها[١] .



(١) انظر : « حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية وسيرته الخيرية »(٥٩-٦١) .

المطلب الثاني: شيوخه وتلاميذه

أولاً: شيوخه:

لم يكن شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المكثرين من المشايخ والتتلمذ عليهم؛ وسبب ذلك أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يرغب شدَّ الرحال إلىٰ المدن والأمصار سواء داخل الجزيرة أو خارجها، فكان يُفضِّل الاكتفاء بمن حوله من العلماء، وأبرزهم:

١- الإمام العلامة المفسِّر عبدالرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وله الحظ الأوفر من التتلمذ عليه، فقد لازمه قرابة الست عشرة سنة، وأخذ عنه كافة فنون العلم.

٢- الشيخ المحدِّث عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مفتي عام المملكة العربية السعودية، وكانت دراسة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه فترة مواصلة دراسته النظامية في الرياض، قرأ عليه صحيح البخاري وبعض كتب الفقه، وكان الشيخان ابن باز وابن عثيمين رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ مأرزاً للعلم والفتوىٰ داخل المملكة وخارجها، فقد كتب الله لهما القبول عند جميع فئات المجتمع في العالم الإسلامي.

٣- الشيخ المفسِّر اللغوي محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، صاحب التفسير المشهور «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» وقد درس عليه في المعهد العلمي.

٤- الشيخ علي بن حمد الصالحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من أوائل مَنْ طلب العلم علىٰ يديه، والشيخ علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تلاميذ الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان يُدرِّس المبتدئين.

٥- الشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوَّع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو كذلك من أوائل

من طلب العلم علىٰ يديه ، فقد قرأ عليه الشيخ ابن عثيمين : مختصر العقيدة الواسطية للشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ومنهج السالكين في الفقه ، والآجرومية والألفية في النحو والصرف .

٦- الشيخ عبدالرحمن بن علي بن عودان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فقد درس عليه بعض كتب الفقه والفرائض .

٧- الشيخ عبدالرحمن بن سليمان آل دامغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فقد حفظ عليه القرآن كاملاً .

٨- الشيخ عبدالرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، حيث قرأ عليه في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرِّساً في مدرسة عنيزة[١] .

ولقد حرص مشايخ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه غاية الحرص ؛ لما رأوه من اجتهاده ونبوغه وجَلَدِه ومصابرته علىٰ العلم ، وتعددت المواقف في بيان هذا الشيء ، ومن ذلك حينما أراد والد الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يسافر للرياض ويستقر بها فترة من الزمن ، وقرر الوالد أن يصطحب معه ابنه محمد اعترض الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ والده وقال : هل أنتم تاركوا لي محمداً؟! فكان الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حريصاً علىٰ أن يلازمه تلميذه ابن عثيمين ليستفيد من هذه الملازمة ، وماذاك إلا لما رآه من نبوغه وحرصه علىٰ العلم ، ورأىٰ فيه العالم الواعد للأمة[٢] .

ثانياً : تلاميذه :

لقد كانت فترة تدريس الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلم الشرعي فترة زاخرة بعدد كبير من

---

(١) « أربعة عشر عاماً مع سماحة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين » عبدالكريم المقرن (١٠-١١) ، وانظر : « حياة الشيخ محمد صالح العثيمين » (٢٦-٢٧) ، و« الجامع لحياة العلامة محمد صالح العثيمين » (٤٨-٤٩) .

(٢) « الجامع لحياة العلامة محمد بن عثيمين »(٦٦) .

الطلاب ، وكان بداية التصدي للتدريس يوم الأحد (٢٦ / ٦ / ١٣٧٦هـ) إلىٰ وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكان قد توفي يوم الأربعاء (١٥ / ١٠ / ١٤٢١هـ) أي قرابة خمس وأربعين سنة بذلها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عمره تعليماً لطلابه ولعامة الأمة ، ولقد كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد العناية بتلاميذه الذين كانوا يتوافدون عليه من كل أنحاء العالم حتىٰ أقام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سكناً قريباً من الجامع الذي يُدَرِّس فيه ، يحتوىٰ علىٰ صالة إعاشة ، ومكتبة علمية ، زاخرة بالكتب والمخطوطات ، وكان يتعاهدهم بالمتابعة واللقاءات الشهرية والإعانة المالية ، ولقد شهد له الكثير حسن عنايته بطلابه ونفعهم ، حتىٰ أورثه الله تعالىٰ نفع طلابه من بعده فكانوا خير سفراء لبلادهم في نشر العقيدة الصحيحة والعلم الشرعي ، دعاة لمنهج الحق القائم علىٰ الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، ولقد استفاد من علم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآلاف المؤلفة من الناس علىٰ اختلاف جنسياتهم وأعمارهم وبلدانهم ، ولقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوصي طلابه بنشر العلم الشرعي ونفع الناس وحسن معاملتهم .

يقول وليد أحمد الحسين وهو أحد تلامذته : (ولعلي عاصرت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المرحلتين :

المرحلة الأولىٰ : قلة التلاميذ في درسه وربما كنا نزيد علىٰ العشرة أو نَقِل ، وكان ذلك في أول انتظامي معه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مطلع عام (١٤٠٢هـ) .

والمرحلة الثانية : كثرة التلاميذ ، وبدأ هذه التزايد ربما في بداية عام (١٤٠٦هـ) حتىٰ وصل العدد في المجلس الواحد في مسجده في الدروس العلمية إلىٰ أكثر من ستمائة تلميذ علىٰ اختلاف مستوياتهم في التحصيل ، وتجد الحضور ما بين دكتور في الجامعة أو عميد كلية أو طبيب أو مهندس أو موظف حكومي أو تلميذ في المدرسة أو عُمَّال في مِهن مختلفة ، أو مفرَّغين

لطلب العلم أو غير ذلك)[١] .

ولقد كان لحسن تعليم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصبره علىٰ طلابه ، ومتابعته وتعاهدهم ثمرة كبيرة لازالت الأمة تنتفع بها ، حيث تخرَّج عليه جملة من المشايخ الفضلاء الذين تعددت منابرهم في التعليم في سائر الأقطار ، وعدد تلاميذ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثير ومن أبرزهم :

- إبراهيم بن علي العبيد .
- إبراهيم بن محمد الدبيان .
- أحمد بن عبدالرحمن القاضي .
- أحمد بن محمد الخليل .
- أحمد بن محمد العبيد .
- أمين بن يحيىٰ الوزان .
- بندر بن نافع العبدلي .
- حمد بن إبراهيم العثمان .
- خالد بن سليمان المزيني .
- خالد بن عبدالله المصلح .
- خالد بن علي المشيقح .
- سامي بن محمد الصقير .
- سليمان بن عبدالله بن حمود أبا الخيل .
- عبدالرحمن بن سعود الكبير آل سعود .

---

(١) « الجامع لحياة العلامة محمد صالح العثيمين » (٥٠-٥١) .

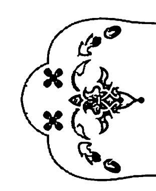
- عبدالرحمن بن صالح الدهش .

- عبدالله بن محمد الطيار .

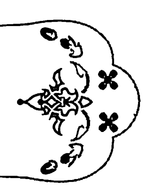
- عصام السناني[١] .



(١) « الجامع لحياة العلامة محمد صالح العثيمين » (٤ ٥٧) .



المطلب الثالث : مكانته العلمية والدعوية ، ومؤلفاته



مسيرة العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلمية والعملية تركت للأمة في الواقع المعاصر مثالاً حيًّا لما ينبغي أن يكون عليه العالم الرباني من العلم والتعليم والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، فمن تأمل سيرة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلمية والدعوية وجده ملأ الأرض بفتاواه ، وبَسْطِ علمه ، وتنوِّع مؤلفاته ، ولقاءاته الدعوية الأسبوعية منها والشهرية والسنوية مع أطياف المجتمع علىٰ تنوعهم ، إضافة إلىٰ لقاءاته التي تُبَثُّ عبر الإذاعة فتصل إلىٰ أصقاع المعمورة ، هذا -وغيره مما سيأتي- أورثه مكانة كبيرة في نفوس الناس داخل المملكة العربية السعودية وخارجها ، وانتشارا لمؤلفاته المتنوعة والتي تتميَّز بسلامة المعتقد وتقرير عقيدة السلف الصالح ، وسهولة العبارة ، وحسن التقسيم ، وثراء القيمة العلمية .

أولاً : مكانته العلمية والدعوية :

لقد كان لطول فترة التدريس التي تولاها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ -والتي تجاوزت السبع والأربعين سنة كما تقدَّم- أثراً كبيرا ومكانة جسيمة في الأمة ، ففي عام (١٣٧١ هـ) التحق بالمعهد العلمي وبعد سنتين تخرج ، وعُيِّن مدرسـًا في معهد عنيزة العلمي مع مواصلة الدراسة انتسابـًا في كلية الشريعة بالرياض ، وذلك لرغبته البقاء في عنيزة والنهل من علم شيخه السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، حتىٰ تخرج من كلية الشريعة عام (١٣٧٧ هـ) وتولىٰ إمامة الجامع والتدريس فيه ، وبالمكتبة الوطنية الملحقة به التي كان أسسها الشيخ علي الصالحي ، وذلك في عام (١٣٧٦ هـ) بعد وفاة شيخه السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ثم انتقل من التدريس بالمعهد إلىٰ التدريس بكليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم ، وعمل رئيساً لقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة وظل عضواً في هيئة كبار العلماء لوفائه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعرض عليه سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تولي القضاء لكن ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألحَّ علىٰ إعفائه من ذلك فأُجيب .

ذاع صيت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآفاق بوقت مبكر ليس في المملكة العربية السعودية فحسب بل في البلدان المجاورة حتىٰ ملأت مكانته العالم الإسلامي ، وهو إلىٰ جانب تدريسه في الكلية استمر في تدريسه بالجامع والبيت بل وحتىٰ أثناء ذهابه وإيابه من بيته إلىٰ المسجد الذي يبعد أكثر من ألف متر ، فكان مما أدركته ورأيته آنذاك في ذهابه وإيابه أن كانت تُعرض عليه الفتاوىٰ ممن يسير معه ، وكان يُقرأ عليه بعض شروحات الدروس العلمية التي شرحها بعد تقييدها ليتم تنقيحها ، ويخصص وقت الظهر للردِّ علىٰ استفسارات الناس وما يَرِدُ من الفتاوىٰ عن طريق الهاتف ، ويستمر علىٰ هذا إلا في موسمي رمضان والحج حيث كان ينتقل إلىٰ مكة المكرمة للتعليم والفتوىٰ ، وفي الإجازات الصيفية يكثِّف التدريس والمحاضرات والدورات العلمية ، بالإضافة إلىٰ مشاركته المكثفة في الفتاوىٰ عن طريق الرد علىٰ رسائل المراسلين بالإذاعة ضمن برنامج (نور علىٰ الدرب) ، أو بالردِّ علىٰ السائل خطيًّا ومشاركته في الندوات في الدعوة والإرشاد ، كل هذا جعل مكانته العلمية تتجلي بشكل ظاهر في نفوس الناس الذين لا يفتأون عن التردد عليه والتزود من علمه علىٰ كافة الأصعدة وأطياف المجتمع ، حتىٰ بلغ من سموِّ مكانته العلمية في قلوب الناس أن جعل مجالسَ علمية خاصة بمن لهم مشاركة علمية ودعوية فاعلة في المجتمع ؛ لإلحاحهم في الطلب أن يشاركهم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المجالس ، ومجالسه الدورية كما يلي :

المجلس الأول : مجلس هيئة كبار العلماء : والذي انضمَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه بالقرار الصادر من مجلس الوزراء والصادر من المقام السامي برقم (أ/ ٢٨٥) وتاريخ (١١ / ٧/ ١٤٠٧هـ) وكان ذلك في حياة العلَّامة المحدِّث ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وبعد وفاة الشيخ ابن باز كان الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أبرز الأعضاء في ذلك المجلس ، واستمر الشيخ فيه حتىٰ وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكان آخر مجلس حضره بتاريخ (٢ / ١١ / ١٤٢١هـ) بمدينة الرياض .

المجلس الثاني : مجلس القضاة : وهو مجلس خصصه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقضاة منطقة القصيم ، وهو مجلس أسبوعي بدأ في عام (١٤٠٧هـ) ، واستمر إلىٰ العام الذي توفي فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، يحضره قرابة عشرين قاضيـاً ، وتمَّ في الجلسة قراءة كتاب (الطرق الحكمية) لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وبعدما أتموه شرعوا بقراءة كتابا الوقف والوصايا فقط من كتاب (الإقناع) في فقه الإمام أحمد لمؤلفه الحجاوي الدمشقي ، وبعد الفراغ منهما شرعوا بقراءة كتاب (أعلام الموقعين) لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، يتناوب القضاة علىٰ قراءة الكتاب ويُعلِّق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ الكتاب ويجيب علىٰ أسئلة القضاة في تلك الجلسة .

المجلس الثالث : لبعض البارزين من طلابه : وكانت بدايته في عام (١٤١٣هـ) تقريبـاً ، وهو مجلس أسبوعي عقده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدما ألحَّ عليه مجموعة من أساتذة الجامعة ، والسابقين في الطلب عند الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ رغبة منهم أن يخصِّص لهم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجلسـاً يتم فيه تحرير ومناقشة بعض المسائل الشرعية ، وقُرِئ في ذلك المجلس من كتاب (الإقناع) ثم كتاب (المنتهىٰ) ثم كتاب (الكافي) ، واستمر إلىٰ العام الذي مات فيه الشيخ عام (١٤٢١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

المجلس الرابع : مجلس أعضاء هيئة التدريس بقسم العقيدة : وهو مجلس شهري ابتدأ عام (١٤٠٩هـ) لأعضاء هيئة التدريس في قسم العقيدة بفرع جامعة الإمام بالقصيم ، وكانت القراءة فيه من كتاب (حادي الأرواح) لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ثم بعد هذا الكتاب استمر المجلس بلا كتاب مخصَّص ، وإنما تُطرح فيه المسائل والفتاوىٰ والاستشارات ، واستمر المجلس إلىٰ العام الذي توفي فيه الشيخ عام (١٤٢١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

المجلس الخامس : مجلس الدعاة في بريدة : والذي ابتدأ عام (١٤١٤هـ) وكانت نهايته في عام (١٤١٧هـ) ، وهو مجلس شهري يطرح فيه الدعاة قضاياهم التي تخصهم في جانب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، ويستمر المجلس ساعتين ، وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حريصاً علىٰ هذا المجلس إلا أن مشاغله والمسافة بين بريدة وعنيزة حالت دون الاستمرار فيه .

المجلس السادس : مجلس خاص ببعض المشايخ : وهو مجلس يعقده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كل أسبوعين لجملة من المشايخ الفاعلين في البلاد الذين ترأسوا مناصب دعوية حكومية تهتم بشأن العامة ، ومن جملة من يحضره ذلك الوقت ، مدير عام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقصيم ، ومدير عام فرع وزارة الشؤون الإسلامية بالقصيم ، ورئيس قسم العقيدة في جامعة الإمام بالرياض ، ورئيس قسم العقيدة بجامعة الإمام بالقصيم ، وغيرهم ، وابتدأ المجلس في عام (١٤١٦هـ) واستمر إلىٰ مرض الشيخ قبيل وفاته بأشهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، قُرِئ فيه جملة من الكتب كان آخرها (المختارات الجليَّة) للعلَّامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

المجلس السابع : مجلس خطباء مدينة عنيزة : وهو مجلس شهري ابتدأ عام (١٤١٨هـ) إلىٰ شهر صفر من العام الذي توفي فيه الشيخ عام

(١٤٢١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكانت القراءة فيه من كتاب (زاد المعاد) لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ويزيد حضور هذا المجلس علىٰ عشرين خطيبـًا ، وتُطرح فيه القضايا الدعوية المستجدة والتي يحتاجها العامة ، كما يتمخَّض في هذا اللقاء اختيار الخطب المناسبة لكل شهر .

المجلس الثامن : مجلس أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وهو مجلس شهري يخصُّ به الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عنيزة ، وابتدأ اللقاء في عام (١٤١٢هـ) ، واستمر إلىٰ العام الذي توفي فيه الشيخ عام (١٤٢١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكان عدد الحاضرين فيه يزيد علىٰ الأربعين ، وتم في هذا المجلس قراءة كتاب (الحسبة) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثم غيره من الكتب ، كما تُطرح فيه بعض القضايا والمشاكل التي يعانيها أهل الحسبة .

لقاءات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدوريَّة .

للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقاءات عامة لعموم الناس ، كاللقاء الأسبوعي لقاء الباب المفتوح في صباح كل خميس في بيته مفتوحا للجميع ، واللقاء الشهري في الجامع الكبير في عنيزة ، وهناك لقاءات ليست علمية وإنما إدارية مثل اللقاء الأسبوعي لأعضاء إدارة جمعية التحفيظ القرآن في عنيزة ، ولقاؤه بالطلبة المقيمين في السكن وذلك كل أول أحد من كل شهر ، هذه اللقاءات وغيرها من اللقاءات الطارئة تبيِّن مكانة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلمية والدعوية وحاجة الناس علىٰ اختلاف أعمالهم وتوجهاتهم العلمية والدعوية للشيخ وعلمه وتوجيهه ، ولقد كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَخصُّ الدعاة والخطباء والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بلقاءات خاصة كما تقدم- مهتمـًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما ينزل بالواقع من قضايا دعوية ، موجهـًا لهم بما ينبغي أن يكون عليه الداعية سواء كان ذلك عبر اللقاء

بهم ، أو الإجابة علىٰ تساؤلاتهم ومشكلاتهم ، أو بكتبٍ مطبوعة يخصُّ بها جانب الدعوة ككتاب (زاد الداعية إلىٰ الله) و(رسالة في الدعوة إلىٰ الله) ، مهتماً بشأن الأمة دعاة ومدعوين ، مخاطباً المسؤولين وولاة الأمر بما تحتاجه الدعوة إلىٰ الله في البلاد ، متابعاً لقضايا المسلمين في العالم الإسلامي ، متحلياً بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومراعاة المصالح والمفاسد ، وإجلال كلمة الحق ، عاملاً بما فيه مصلحة المسلمين والنصح لخاصتهم وعامتهم ، كما كان لفضيلته نشاط كبير في تبصير الدعاة في كل مكان عبر لقاءاته في البلدان والمراكز المختلفة داخل المملكة العربية السعودية ، ومشاركته في المؤتمرات الإسلامية كمؤتمر رسالة المسجد والدعوة والدعاة ، ومؤتمر الفقه الإسلامي ، ومؤتمر مكافحة المخدرات ، وغيرها من المؤتمرات ، بالإضافة إلىٰ المحاضرات التي يلقيها عبر الهاتف في أوربا وأمريكا وغيرها من دول العالم ، ولأجل هذه الجهود الدعوية التي جعلت للشيخ قيمة ومكانة علمية ودعوية قلَّ نظيرها في خدمة الإسلام والمسلمين ، حصل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام (١٩٩٤م) ، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع جهوده العلمية والدعوية ترك موروثاً علمياً كبيراً في شتىٰ الفنون لا زال العالم الإسلامي يتفيأ ظلاله ، وينهل من معينه ، وبعد وفاة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تمثلت هذه المكانة في نفوس المسؤولين فتوالت برقياتهم بالتعزية بفقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكذا العلماء وطلبة العلم والدعاة وعامة الناس في كل مكان ، فجاء المسلمون من كل مكان يشيِّعون جنازته ويورون جسده الثرىٰ ، وارتسمت لقاءات العلماء عبر وسائل الإعلام يتحدثون عن مكانته وفضله وعلمه ، وانهالت خطابات التعزية من أصقاع المعمورة ينعون فقده ، وامتلأت الصحف بالحديث عن أخلاقه وخدمته لدين الله تعالىٰ ، وأُلِّفت الكتب في سيرته ، وفاضت قرائح

الشعراء بكثير من القصائد التي تنعيه وتتحدث عن مآثره وأخلاقه وبذله لعلمه ودعوته ونفسه في خدمة دين الله تعالىٰ فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه الفردوس الأعلىٰ من جنته.

يقول فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ مفتي عام المملكة العربية السعودية: « إن الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أحد العلماء الأفذاذ الذين خدموا العلم، وساروا في دروبه خلال الفترة الزمنية السابقة، وترك الكثير من العلم ممثلاً في فتاواه ومؤلفاته، والدروس والمحاضرات، وكان مثالاً للعالم الباحث عن الدليل ولذلك انتشر علمه بشكل كبير بين الناس وعُرف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالعطاء الجيد والحرص علىٰ عمل الخير. . ».

ويقول الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد الرئيس العام لشؤون الحرمين آنذاك: « أحسن الله عزاءنا وعزاء الأمة الإسلامية لوفاة فقيدها سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فبفقده ثُلمت في الإسلام ثلمة، فهو إمام من أئمة المسلمين، وعالم من علماء الأمة، نفع الله به ونشر نوره وتلقىٰ العلم عنه خلق كثير من داخل البلاد وخارجها ... »[1].

ثانيـًا: مؤلفاته.

لقد برز الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عدد من العلوم حفظـًا وتأليفـًا وتعليمـًا وتطبيقا، حتىٰ إذا ما تحدث أو ألَّف في فن من الفنون قلت: هو من أهل هذا الفن، ومن العلوم التي درَّسها وألَّف فيها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوحيد، والفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، والفرق والمذاهب، واللغة، والنحو، وغيرها، حتىٰ

---

(١) « ابن عثيمين الإمام الزاهد » للدكتور ناصر الزهراني(٨٤ ٩٨)، وانظر: « الجامع لحياة الشيخ ابن عثيمين » (١١٣-١٢٢)، و« حياة الشيخ محمد صالح العثيمين » (٣٩-٤٣) و(٨٣).

تجاوز موروثه العلمي من التأليف أكثر من مائة كتابٍ في شتىٰ الفنون .

وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حريصاً علىٰ متابعة ما يُسطَّر من علمه مراجعة وتنقيحاً لاسيما في ثلث عمره الأخير ، منها ما يتولىٰ تنقيحه بنفسه ، ومنها ما يوكلها للمبرزين من طلابه ، ولقد أوضح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ منهجه وصرَّح به مرات عديدة بأنه يسير علىٰ الطريقة التي انتهجها شيخه العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، والشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيراً ما يتبنىٰ آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ ويرجحهما علىٰ المذهب الحنبلي خلافاً لما عليه معظم علماء نجد ، وهكذا كان شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ولقد اتسمت مؤلفات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتقلُّد الدليل -بغضِّ النظر عن قائله- وبالبسط مع سهولة في العبارة وتقريب بالأمثلة ، وقلَّما تبحث عن إيضاح لمراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شروحاته ، ويكاد يكون شرحه هو الأكثر في طرح المسائل المعاصرة في شتىٰ الفنون التي يشرحها ، ولأسلوب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبولاً عند كافة أصناف المجتمع مما حدا بطلبة العلم وغيرهم إلىٰ الحرص علىٰ اقتناء شروحاته المطبوعة ، ولقد تولَّت مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخيرية القيام علىٰ كافة تراث الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسموع والمقروء ، وكذا المؤسسات الحكومية والخيرية الرسمية التي تتولىٰ توزيع كتب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نظراً للطلب المتزايد علىٰ كتب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شتىٰ أنحاء العالم ، وقلّما تُنتشر عن طريق دور النشر التجارية لاسيما في الفترة الأخيرة .

*** ومن مؤلفات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المطبوعة ما يلي :**

أولاً : في التفسير .

السور من الفاتحة وحتىٰ الآية (٥٣) من سورة الأنعام ، وسورة الكهف ، وسورة يس ، وسورة الصافات ، وسورة ص ، والسور من الحجرات إلىٰ

الحديد ، وجزء عم ، وأحكام القرآن -وهذه ثمانية عشر مجلداً وهي محور الدراسة- ، فوائد التقوىٰ من القرآن الكريم .

ثانيًا : في الحديث .

١- شرح رياض الصالحين .

٢- شرح الأربعين النووية .

٣- شرح بلوغ المرام .

٤- شرح حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

٥- شرح حديث جابر في صفحة حجة النبي ﷺ .

٦- التعليق علىٰ المنتقىٰ من أخبار المصطفىٰ ﷺ .

٧- التعليق علىٰ صحيح مسلم .

ثالثًا : في العقيدة .

١ . شرح العقيدة الواسطية .

٢ . القول المفيد شرح كتاب التوحيد .

٣ . شرح ثلاثة الأصول .

٤ . شرح كشف الشبهات .

٥ . شرح العقيدة السفارينية .

٦ . عقيدة أهل السنة والجماعة .

٧ . القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ .

٨ . فتح رب البرية بتلخيص الحموية .

٩ . نبذة في العقيدة الإسلامية .

١٠ . شرح لمعة الاعتقاد .

١١ . مذكرة علىٰ العقيدة الواسطية .

١٢ . تقريب التدمرية .

١٣ . منهاج أهل السنة والجماعة .

١٤ . أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها .

١٥ . رسالة في القضاء والقدر .

١٦ . الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع .

١٧ . التمسك بالسنة النبوية وآثاره .

رابعـًا : في الفقه .

١- الشرح الممتع علىٰ زاد المستقنع .

٢- رسالة في حكم تارك الصلاة .

٣- رسالة في مواقيت الصلاة .

٤- رسالة في سجود السهو .

٥- ٧٠ سؤالاً في أحكام الجنائز .

٦- بحوث وفتاوىٰ في المسح علىٰ الخفين .

٧- من الأحكام الفقهية في الطهارة والصلاة والجنائز .

٩- ٦٠ سؤالاً في أحكام الحيض والنفاس .

١٠- رسالة الحجاب .

١١- رسالة في زكاة الحلي .

١٢- رسالة في الدماء الطبيعية عند النساء .

١٣- مجموعة أسئلة في بيع وشراء الذهب .

١٤- الزواج ومجموعة أسئلة في أحكامه .

١٥- مجموعة أسئلة تهم الأسرة المسلمة .

١٦- مجالس شهر رمضان .

١٧- فصول في الصيام والتراويح والزكاة .

١٨- ٤٨ سؤالاً في أحكام الصيام .

١٩- الصيام ومجموعة أسئلة في أحكامه .

٢٠- التعليق على رسالة حقيقة الصيام .

٢١- شرح دعاء القنوت .

٢٢- المنهج لمريد الحج والعمرة .

٢٣- مناسك الحج والعمرة .

٢٤- صفة الحج .

٢٥- أخطاء يرتكبها بعض الحجاج .

٢٦- أحكام الأضحية والزكاة .

٢٧- تلخيص أحكام الأضحية والزكاة .

٢٨- تسهيل الفرائض .

٢٩- تلخيص فقه الفرائض .

٣٠- المداينة .

٣١- رسالة في أحكام الميت وغسله .

٣٢- رسالة في أن الطلاق الثلاث واحدة ولو بكلمات .

٣٣- رسالة في قصر الصلاة للمبتعثين .

٣٤- رسالة في الوصول إلىٰ القمر .

٣٥- رسائل فقهية .

خامسـًا : في الأصول وعلوم الآلة .

١ . أصول في التفسير .

٢ . شرح مقدمة التفسير .

٣ . الأصول من علم الأصول .

٤ . منظومة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أصول الفقه وقواعده .

٥ . شرح نظم الور رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصول الفقه .

٦ . مصطلح الحديث .

٧ . شرح البيقونية في مصطلح الحديث .

٨ . شرح الآجرومية .

٩ . مختصر مغني اللبيب .

١٠ . شرح ألفية ابن مالك .

سادسـًا : في الخطب .

الضياء اللامع من الخطب الجوامع

سابعـًا : الفتاوىٰ .

١- فتاوىٰ أركان الإسلام .

٢- فقه العبادات .

٣- فتاوىٰ الحج والعمرة .

٤- فتاوىٰ في التعزية .

٥- الفتاوىٰ الاجتماعية .

٦- فتاوىٰ الصيد .

٧- فتاوىٰ منار الإسلام .

٨- الفتاوىٰ النسائية .

٩- الفتاوىٰ المكيَّة .

١٠- فتاوىٰ وتوجيهات في الإجازة والرحلات .

١١- فتاوىٰ ورسائل في الأفراح .

١٢- الفتاوىٰ الذهبية في الرقىٰ الشرعية .

١٣- مجموع الفتاوىٰ .

ثامنًا : موضوعات عامة .

١ . المنتقىٰ من فرائد الفوائد .

٢ . كتاب العلم .

٣ . التعليق علىٰ السياسة الشرعية .

٤ . الخلاف بين العلماء .

٥ . مكارم الأخلاق .

٦ . رسالة في الدعوة إلىٰ الله .

٧ . حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة .

٨ . من مشكلات الشباب .

٩ . الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات .

١٠ . زاد الداعية إلىٰ الله .

١١ . دور المرأة في إصلاح المجتمع .

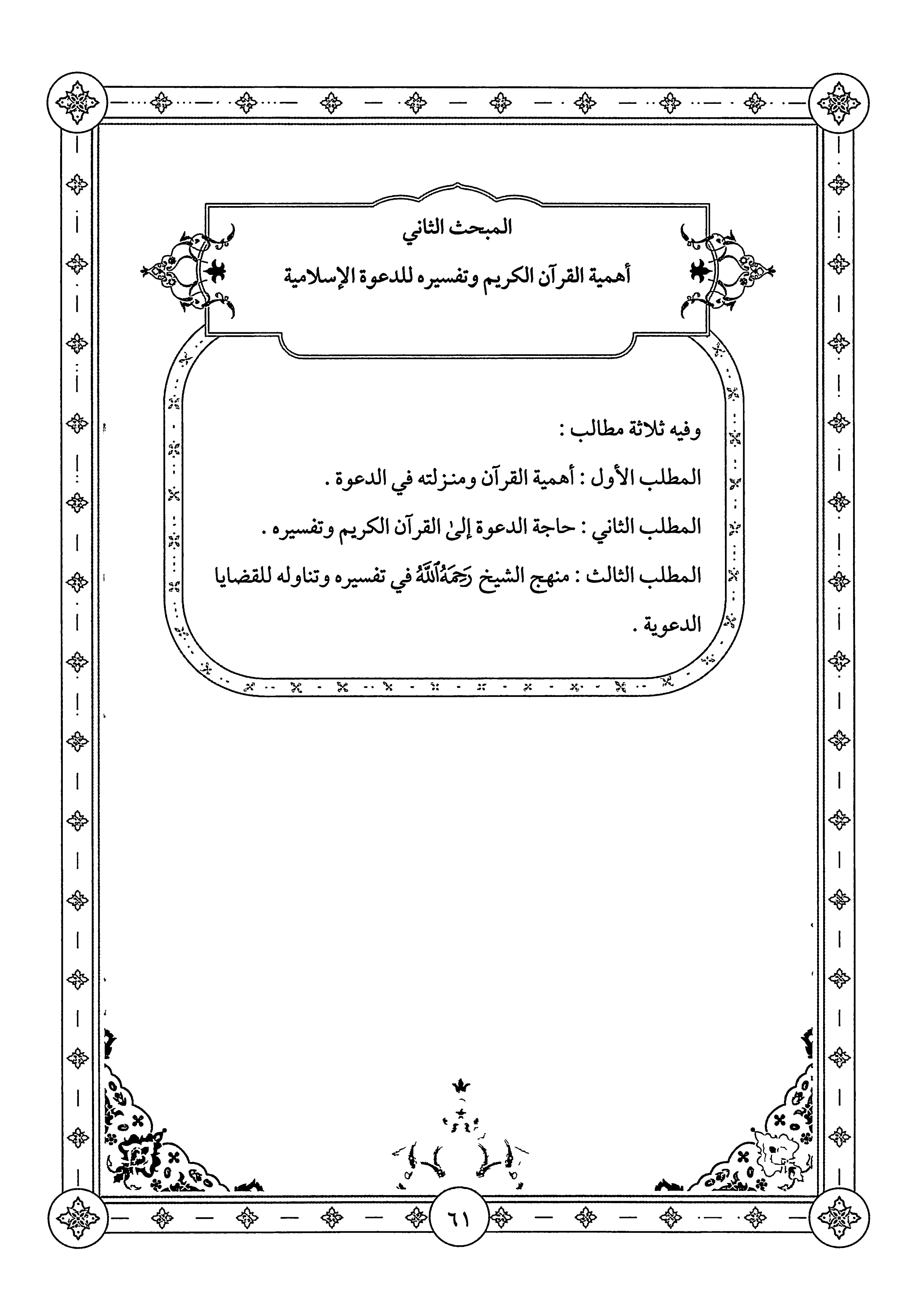
١٢ . الزواج[1] .

ولا زالت مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعمل علىٰ إخراج نتاج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفريغ المواد الصوتية ومرَحِمَهُ ٱللَّهُ وتنقيحها ، ولقد حدثني القائمون علىٰ النتاج العلمي في المؤسسة -حين زيارتي لهم- سواء المقروء أو المسموع أن مواد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشروحاته لا زالت تتتابع من طلابه ، وفي كل فترة يأتي أحدهم بشروحات -لاسيما التسجيل القديم الذي لم يكن بحوزة الكثير- هي عند أفراد طلبة العلم السابقين للطلب عند الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم تعمل المؤسسة علىٰ تنقيحها وترتيبها ، ومن تأمَّل كثرة المؤلفات للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَلِم ما بلغه الشيخ من العلم والرسوخ فيه ، وبذل نفسه للتدريس حتىٰ بلغ نفعه أرجاء العالم الإسلامي ، ولا زال طلبة العلم يترقبون كل جديد لهذا العالم الجهبذ رحمة الله تعالىٰ عليه .



---

(١) انظر : « ابن عثيمين الإمام الزاهد »(٣٢-٣٥) ، و« حياة الشيخ محمد صالح العثيمين » (٤٣-٤٨) .



المبحث الثاني

أهمية القرآن الكريم وتفسيره للدعوة الإسلامية

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة .

المطلب الثاني : حاجة الدعوة إلىٰ القرآن الكريم وتفسيره .

المطلب الثالث : منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية .

المطلب الأول : أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة

إن تميُّز الدعوة ومضمونها يرجع إلىٰ تميُّز ركائزها التي تعتمد عليه ، وإذا كانت ركائز الدعوة ومصادرها سماويةً بوحيٍ منزَّل من عند الله تعالىٰ ، تكلم به جل وعلا ، وأنزله علىٰ رسوله ﷺ ، فإن الدعوة حينئذ تكون أصيلة المنبع ، بالغة التأثير ، ولقد جاءت النصوص متضافرة في أهمية تمثُّل الدعوة بالقرآن الكريم بأن يكون هو أساسها ومنطلقها في جميع مضامينها أصولاً ومجالاتٍ وأساليبَ ووسائلَ ، وسائر متعلقاتها ، وهكذا الدعوة لن تكون علىٰ نهج سلف الأمة ، ولن يدين لها المدعوون علىٰ اختلاف أصنافهم إلا إذا جعلت كتاب الله تعالىٰ هو منهاجها ؛ لأن الدعوة إنما تكون لشرع الله تعالىٰ القائم علىٰ الكتاب والسنة ، وقد جاء الأمر بالدعوة إلىٰ هذا الشرع صراحة في نصوص القرآن ، يقول الله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل :١٢٥] .

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يشمل الرسول ﷺ وغيره ، وقوله : ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ما هو سبيل الله؟ سبيل الله تعالىٰ شرعه ؛ لأنه طريق يوصل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ؛ ولأن الله تعالىٰ هو الذي شرعه فأضيف إليه ، فيكون الشرع مضافًا إلىٰ الله لوجهين : الوجه الأول : أنه موصل إلىٰ الله . والوجه الثاني : أنه هو الذي شرعه لعباده وبينه لهم حتىٰ يصلوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ »(١) .

---

(١) مادة صوتية بعنوان : (من دروس وفتاوىٰ الحرم المدني لعام ١٤١٦هـ) مقتبسة من صفحة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موقع إسلام ويب .

وتأمل قول شيخ المفسرين الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الإرشادات التي جاءت بآية الدعوة السابقة حيث جعل المقصود في الآية هو الدعوة إلىٰ كتاب الله تعالىٰ حيث قال: «يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ ٱدۡعُ ﴾ يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلىٰ طاعته ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، يقول: إلىٰ شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ يقول بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي ينزله عليك ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾، يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكرهم بها في تنزيله، كالتي عدد عليهم في هذه السورة من حججه، وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه»[1].

ويقول العلامة عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي: «وقوله سبحانه ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ هذه الآية نزلت بمكة، أُمر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يدعو إلىٰ دين الله وشرعه بتلطف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلىٰ يوم القيامة»[2].

وقد جعل الله تعالىٰ في القرآن الكريم من الخصائص ما يجعله رأس الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ومن ذلك أنه:

١- **رباني**: من الرب جل وعلا، ليس للبشر فيه أي سبب، فهو مُحْكَم وحُكم، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الواقعة: ٧٥- ٨٠].

٢- **كامل**: فلا يعتريه نقص ولا عيب؛ تكلَّم به من له الأسماء الحسنىٰ

(١) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للطبري (١٤/ ٤٠٠).

(٢) «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» (٣/ ٤٤٨).

والصفات العلىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء :٨٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فُصِّلَت :٤٢] .

٣- **عملي** : صالح لكل زمان ومكان إلىٰ يوم القيامة ، وهذا من إعجازه أن جعله الله منهاجاً يرجع إليه الناس في مصالح دينهم ودنياهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ - ١٦] .

٤- **ثابت متواتر ، محفوظ** ، وصل إلينا بالتواتر كما نزل علىٰ رسول الله ﷺ ، تكفل الله تعالىٰ بحفظه ، محفوظ من كل تغيير أو تبديل أو نقص أو زيادة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

٥- **واضح** : فيه تبيان كل شيء مما يحتاجه الناس علىٰ مرِّ العصور إلىٰ قيام الساعة ، قال تعالىٰ : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

٦- **شامل** : يستوعب كل شرائح المجتمع : العالمين والجاهلين ، والأغنياء والفقراء ، والمؤمنين والكافرين ، ولا يختص بجنسٍ معيَّن بل هو متوجه لكل البشر ، قال تعالىٰ : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

٧- **معجز** ، في آياته ، وأحكامه وتشريعه ، وأخباره ، تحدىٰ الله به العرب ، ولا يزال التحدي باقيا إلىٰ يوم القيامة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيا منه إليه منقولا إلىٰ الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لعموم رسالته ودوامها إلىٰ قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾، ثم تقاصر معهم إلىٰ عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[هود: ١٣]، ثم تحداهم إلىٰ أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]»(١).

وكتاب هذه من خصائصه لَزِمَ لزوما قطعيـًا أن تنطلق الدعوة منه وإليه، وإلا كانت الدعوة جوفاء بلا عمق ولا أثر، والدعوة بالقرآن هي السبيل الذي دعا به النبي ﷺ أمته، وهي المنهج الذي سار عليه الصحابة والتابعون من بعده؛ ذلك أن القرآن هو الفرقان الذي نزله الله تعالىٰ علىٰ عبده ليدعو به الأنس والجن، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠)، وانظر في الكلام علىٰ خصائص القرآن: «دراسات في علوم القرآن» محمد بكر إسماعيل (١١) و«مباحث في علوم القرآن» مناع القطان (١/ ٣٣).

المطلب الثاني : حاجة الدعوة إلىٰ القرآن الكريم وتفسيره

القرآن الكريم هو كتاب الدعوة الأول ، فتاريخ الدعوة في هذه الأمة بدأ منذ تنزيل الوحي من الله تعالىٰ علىٰ نبيه ﷺ ، جاء أمر الله تعالىٰ لنبيه ﷺ بالدعوة فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدَّثر : ٢] فاقترنت الدعوة بالقرآن الكريم منذ أول الإسلام ؛ لأنه منهاجها ومُحَكِّمُها ، فكانت دعوته ﷺ ومجالسه إنما هي في التنزيل وتفسيره وما تضمنه من متعلقات الدعوة ؛ لأن الله تعالىٰ أوجد الخليقة علىٰ هذه البسيطة ليعبدوه حقَّ عبادته ، فقال تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات :٥٦] والقرآن هو الداعي الأول إلىٰ معرفة الله سبحانه وتعالىٰ حق المعرفة بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وفيه إرشاد العبيد إلىٰ التوحيد والهداية ، وما فيه صلاح دينهم ودنياهم .

وجاء التوجيه الرباني من الله تعالىٰ لأن يكون هذا القرآن هو مادة الدعوة إلىٰ الله ويتضح ذلك من خلال ما يلي :

أولاً : الأمر بالتذكير والوعظ بالقرآن الكريم :

وتعددت الآيات في هذا الأمر توجيهاً وإرشاداً ، وبشارةً ونذارة ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام : ٥١] .

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية الكريمة : الفائدتان الأولىٰ والثانية : وجوب الإنذار بالقرآن ، ويتفرع علىٰ هذا أن خير ما يُنذر به هو القرآن ، يعني هو أبلغ المواعظ في الإنذار ، لكن كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق : ٣٧] »[1] .

---

(١) « تفسير سورة الأنعام »(٢٦٢) .

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ ﴾ يا محمد بالقرآن الذي أنزلناه إليك القوم ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام : ٥١] »(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وأما قوله : ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ، فإنه يعني به : وذكر يا محمد بهذا القرآن هؤلاء المولين عنك وعنه »(٢) .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي : وذكر الناس بهذا القرآن ، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة »(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥] أي : ليكون هذا القرآن موعظة في قلوب من يخاف وعيد الله تعالىٰ(٤) .

ثانيًا : ذم من أعرض عن الدعوة بالقرآن والإنكار عليهم :

لما كان القرآن هو أساس الدعوة ، ذكر الله تعالىٰ المعرضين عن الاهتداء به والتحاكم إليه وتطبيق الشرع الذي نزل به ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : ١٥] .

---

(١) « جامع البيان » (٩ / ٢٥٧) .

(٢) « جامع البيان » (٩ / ٣٢٠) .

(٣) « تفسير القرآن العظيم » (٣ / ٢٧٩) .

(٤) انظر : « الجواهر الحسان » للثعالبي (٩ / ١٠٨) و« الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » للواحدي (١ / ١٠٢٦) .

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ ذكره: وإذا قرئ علىٰ هؤلاء المشركين آيات كتاب الله الذي أنزلناه إليك يا محمد بينات واضحات علىٰ الحق دالات. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١] يقول: قال الذين لا يخافون عقابنا ولا يوقنون بالمعاد إلينا ولا يصدقون بالبعث لك: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس: ١٥] بقول: أو غيره. ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ [يونس: ١٥] أي من عندي. والتبديل الذي سألوه فيما ذكر، أن يحول آية الوعيد آية وعد وآية الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما، فأمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم أن ذلك ليس إليه، وأن ذلك إلىٰ من لا يرد حكمه ولا يتعقب قضاؤه، وإنما هو رسول مبلغ ومأمور متبع. وقوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يقول: قل لهم: ما أتبع في كل ما آمركم به أيها القوم وأنهاكم عنه إلا ما ينزله إلي ربي ويأمرني به »[١]، وهذا فيه دلالة واضحة علىٰ أن دعوة النبي ﷺ إنما هي التنزيل، وهكذا ينبغي للدعاة أن يمتثلوا في دعوتهم القرآن الكريم.

وقال تعالىٰ مبينـًا أن أصل الدعوة بالرسالة هو تبليغهم هذا القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يقول تعالىٰ: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ من قبلك، فلك بهم أسوة »[٢].

(١) « جامع البيان » (١٢ / ١٣٦).

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٤ / ٤٥٩).

ثالثًا : القرآن ميزان الدعوة في بيان خطر الإعراض عن الدعوة .

لما كان الإنسان في الحياة عرضة للأهواء التي تجعله يجانب الصواب ، جعل الله تعالىٰ الدعوة بالقرآن والنظر في آياته وتأملها ملاذاً من شبهات القلب التي تزيغ به عن سواء الصراطِ ، وعِظَةً وذكرىٰ لأولي الألباب ، قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت :٥١] .

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يعني أو لم يكفهم من الآيات القرآن يتلىٰ عليهم ، إن في ذلك ، في إنزال القرآن ، لرحمة وذكرىٰ لقوم يؤمنون ، أي تذكيرا وعظة لمن آمن وعمل به »[١] .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أي : أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا! »[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] فيه بيان -لأرباب الدعوة دعاة ومدعوين- أن القرآن الكريم هو المأمن والمعْتَصَمُ لمن تفكَّر في آياته ممن أراد الهداية إلىٰ الصراط المستقيم من غوائل الكفر ، وهو باقٍ بين أظهر الناس رحمةً ونعمة لهم[٣] .

وإذا كان القرآن الكريم هو مدار الدعوة عِظَة وذكرىٰ ، بشارة ونذارة ،

---

(١) « معالم التنزيل » (٣/ ٥٦٣) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٦ / ٢٨٧) .

(٣) « معالم التنزيل » للبغوي (١ / ٤٧٨) .

وميزانـاً للهداية ، فقد استودع الله فيه مضامين الدعوة وكل ما يحتاجه الداعية زاداً في دعوته ، من مجالات وأساليب ووسائل ، فجاءت فيه العقائد والعبادات والمعاملات والمصالح والتحذير من كل ما فيه مفسدة للعبد ، وجاءت فيه أساليب الترغيب والترهيب والأمثال والقصص ، والعِبَر التي أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ وأمته من بعده أن يتفكروا ويتعظوا بأخبار الأمم السابقة ؛ لتكون من أمثل الأساليب تأثيرا علىٰ المدعوين ، ولقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ الدعاة حفظة القرآن الذين يحملون آيات الله تعالىٰ في صدورهم فقال : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت :٤٩] .

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والذين أوتوا العلم : المؤمنون الذين حملوا القرآن علىٰ عهد رسول الله ﷺ وحملوه بعده »(١) .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي : هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة علىٰ الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر :١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ ، وإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ(٢) »(٣) .

وجاء الثناء علىٰ الداعية علىٰ وجه الخصوص حين يدعو إلىٰ الله تعالىٰ المتضمن للدعوة إلىٰ كتابه جل وعلا ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فُصِّلَت :٣٣] .

---

(١) « زاد المسير في علم التفسير » (٣/ ٤١٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢) .

(٣) « تفسير القرآن العظيم » (٦/ ٢٨٦) .

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « حدثنا محمد بن عبد الأعلىٰ ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، قال : تلا الحسن : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال : « هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب الخلق إلىٰ الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلىٰ ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحا في إجابته ، وقال : إنني من المسلمين ، فهذا خليفة الله »[1] .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فجمع بين الدعوة إلىٰ الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك ، مما يبتغىٰ به وجه الله ، وعمل هو في نفسه صالحا ، وقال قولا صالحا ، فلا أحد أحسن حالا من هذا »[2] .

وإذا تقررت أهمية القرآن الكريم في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ أهمية بالغة ، فإن كل سبب موصل إلىٰ هذه الأهمية فهو بمنزلته من الأهمية ، ولذا الداعية إلىٰ الله تعالىٰ بحاجة إلىٰ التعمق في كتاب الله تعالىٰ وفهم معانيه ، وذلك بالاطلاع علىٰ كتب التفسير ، إذ أن شرف العلم بشرف المعلوم ، ولا يمكن الوصول إلىٰ تمام المقصود إلا بتمام الفهم المراد ، بل إن تفهم معاني القرآن من المحتمات علىٰ العاملين في ميدان الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ .

قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فأول العلم حفظ كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وتفهُّمُه وكل ما

---

(١) « جامع البيان » (٢٠ / ٤٢٩) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٦٨) .

يعين على فهمه فواجب طلبه معه »[١] .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ولهذا دخل في معنى قوله ﷺ : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ » تعليم حروفه ومعانيه جميعـًا ؛ بل تعلُّم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه وذلك هو الذي يزيد الإيمان »[٢] .

ولقد فقه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هذا الأمر عن رسول الله ﷺ ، فأخذوا القرآن بفهم معانيه والعمل به ، وكان ﷺ يفسِّر لهم القرآن .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل[٣] »[٤] .

وقال السيوطي : « وقد أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات وأجلُّ العلوم الثلاثة الشرعية »[٥] .



---

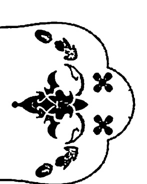
(١) « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ١١٢٩) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٣ / ٤٠٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد « المسند » (٣٨ / ٤٦٦)(٢٣٤٨٢) بسند حسن .

(٤) « مجموع الفتاوى » (١٣ / ٣٠٨) .

(٥) « الإتقان في علوم القرآن » (٤ / ١٩٩) .



المطلب الثالث : منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية



تنوَّعَ منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لتنوِّعِ المحافل العلمية التي ألقىٰ فيها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيره ، وعليه يتنوَّع طرحه للقضايا الدعوية في هذه الدراسة التي مصدرها ثمانية عشر مجلداً مطبوعة من مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخيرية ، من أول القرآن إلىٰ سورة الأنعام عشرة مجلدات ، ثم سورة الكهف في مجلد ، ثم سورة يس في مجلد ، ثم سورة ص في مجلد ، ثم سورة الصافات في مجلد ، ثم السور من الحجرات إلىٰ الحديد في مجلد ، ثم جزء عم في مجلد ، بالإضافة إلىٰ أحكام من القرآن مجلدين ، ويمكن تقسيم الكلام علىٰ منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وتناوله لقضايا الدعوة في هذا التفسير الذي هو محل الدراسة إلىٰ أربعة أقسام :

القسم الأول : أحكام من القرآن الكريم :

وهو عبارة عن تفسير للشيخ عبر برنامج إذاعي ابتدأه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سورة الفاتحة ووصل فيه إلىٰ الآية الحادية والثلاثين من آل عمران ، طُبع تحت عنوان : (أحكام من القرآن الكريم) في مجلدين مجموعهما (٩٧٨) صفحة ، ومنهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا التفسير علىٰ نحو ما يلي :

١- الشرح ليس خاصاً بآيات الأحكام كما هو ظاهر عنوانه ، وإنما فسَّر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه جميع الآيات ، ولذا قال في مقدمته : « وأحكام القرآن العظيم هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد الدينية والدنيوية والفردية والاجتماعية »[١] .

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٧) .

٢- يذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ الآية إجمالا ثم يتوسع في ذكر الفوائد المستنبطة منها .

٣- لا يذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا التفسير ما يتعلق باللغة والإعراب ، وقد صرح بذلك في مقدمته حيث قال : « ونحن في هذا الكتاب لن نتكلم كثيراً عن تفسير الآيات وبيان وجوهها اللغوية من البلاغة والإعراب وغير ذلك ؛ لأن هذا -والحمد لله- موجود في كتب كثير من المفسرين ، ولكن يهمني أن أبيِّن الفوائد التي تُستنبط من هذه الآيات وأبيِّن وجه ذلك غالبـًا فيما يحتاج إلىٰ بيان وفيما خَفِيَت دلالته »[1] .

٤- تقرير مذهب أهل السنة والجماعة عند تفسيره للآيات ، والرد علىٰ المخالفين ، وأحسب أن هذه مزية في الشيخ في سائر مؤلفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

٥- بيان الأحكام الفقهية المتعلقة بالآية بإيجاز ، والتركيز علىٰ الجانب السلوكي والوعظي ، وذلك لأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يخاطب فيه الجمهور عبر الإذاعة .

وهذا القسم من التفسير تميَّز بالقضايا الدعوية المتعلقة بالعقائد والسلوك بشكل واضح بأسلوب وعظي ، كما عرض فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لجملة من القضايا الدعوية المعاصرة التي يحتاجها واقعنا اليوم ، وإن كان هذا التفسير أقل من القسم الذي يليه من حيث احتوائه واشتماله علىٰ الجوانب الدعوية .

القسم الثاني : تفسيره من المصحف مباشرة .

وهو أوسع تفسير للشيخ افتتحه بسورة الفاتحة عام (١٤٠٧هـ) ومات رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند الآية (٥٣) من سورة الأنعام ، وكان يلقيه في درسين كل أسبوع ، وهو مطبوع في (٥٢٢٠) صفحة ، في عشرة مجلدات ، البقرة ثلاثة

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٩) .

مجلدات، وآل عمران مجلدان، والنساء مجلدان، والمائدة مجلدان، والأنعام مجلد، ومنهجه في هذا التفسير ما يلي:

١- تقرير مذهب أهل السنة والجماعة والدعوة إلىٰ الله في العقيدة عند تفسيره للآيات ذات موضوع الاعتقاد، والرد علىٰ المخالفين من المبتدعة لاسيما في باب الأسماء والصفات بالتفصيل وبالأدلة النقلية والعقلية.

٢- يحتوي تناوله لتفسير الآيات علىٰ ثلاثة محاور: الكلام في اللغة والوجوه الإعرابية ومعاني الكلمات، ثم التفسير التحليلي مع إيراد القراءات في الآية وتوجيهها، وخلاف المفسرين، ثم الفوائد المستنبطة من الآية ويستطرد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها كثيرا مما يدل علىٰ سعة علمه، بحيث يستوعب الآية وما تتضمنه.

٣- ذكر الفوائد الفقهية المتعلقة بالآية، ويرجِّح ما يدل عليه الدليل دون التزام مذهب معيَّن.

٤- إيراد بعض العناوين الجانبية سواء كانت استفهاماً أو افتراضاً أو مسألة أو تنبيهاً.

وهذا القسم من التفسير أثراه -بشكل موسّع- الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالقضايا الدعوية سواء في الحديث عن موضوعات الدعوة ومجالاتها في الاعتقاد والعبادات والمعاملات ومكارم الأخلاق، أو في بناء الداعية وتأهيله العقدي والعلمي والعملي والأخلاقي، أو في أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم ومراعاة أحوالهم، أو في الأساليب والوسائل الدعوية، وسيأتي خلال الدراسة بيان ذلك والوقوف علىٰ جملة من النماذج لهذه المضامين الدعوية.

القسم الثالث: التعليق علىٰ تفسير الجلالين.

والمطبوع من هذا التفسير ثلاثة مجلدات، سورة يس في مجلد، وسورة

الصافات في مجلد، وسورة ص في مجلد، مجموع صفحاتها (٩٨٠) صفحة، وبقي منه بقية لم تُطْبَع بعد، وهو عبارة عن تعليق علىٰ تفسير الجلالين وقد طُبع تحت عنوان: تفسير القرآن الكريم، نفس الاسم السابق مع الاختلاف الواضح في الطرح بين التفسيرين، ومنهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا التفسير كما يلي:

١- بيان مصطلحات المؤلف صاحب الجلالين التي يذكرها في تفسيره.

٢- الاستدراك علىٰ المؤلف سواء في التنبيه علىٰ الأخطاء العقدية التي وقع فيها لاسيما ما يتعلق بالأسماء والصفات، أو مخالفة المؤلف في تخصيص عموم ما تحتمله الآية بينما يرىٰ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية تشمل أعم مما خصصه المؤلف، أو مخالفته في معاني الكلمات أو في تقدير المحذوف أو في الإعراب، أو الاستدراك علىٰ المؤلف فيما أورده من الإسرائيليات.

٣- إعراب الآيات، واستنباط الفوائد منها، وإن لم يكن بشكل واسع كالقسم الذي قبله.

٤- تقرير مذهب أهل السنة والجماعة عند تفسيره للآيات، والرد علىٰ المخالفين.

وهذا القسم من التفسير حظي بكثير من القضايا الدعوية بشكل عام، إلا أنها لم تكن كسابقتها في التوسع، لاختلاف منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وطريقته في الشرح، وأبرز ما في هذا القسم هي القضايا الدعوية التي تتعلق بالاعتقاد، وتقرير مذهب أهل السنة والجماعة، والرد علىٰ المخالفين لاسيما المبتدعة، وكيفية التأهيل العقدي للداعية.

القسم الرابع : تفسير أجزاء وسور متفرقة .

وهذا القسم من التفسير كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يلقيه أثناء افتتاحه للقاء الباب المفتوح (وهو لقاء أسبوعي كان وقته ضحىٰ الخميس في بيت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبدأه بتفسير آيات يسيرة ثم يستمع لأسئلة الحاضرين العامة) ولم يكن اللقاء خاصا بطلبة العلم ، وكانت هذه الآيات التي يلقيها في افتتاحه للقاء ابتدأها من جزء عم حتىٰ ختمه وطُبع في مجلد واحد ، ثم ابتدأ من الحجرات ومات رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولم يتمّه حيث وصل فيه إلىٰ الآية السادسة عشرة من سورة المجادلة ، وطُبع في مجلد واحد من سورة الحجرات إلىٰ آخر سورة الحديد ، ويُلحق بهذا القسم ، تفسير سورة الكهف الذي طُبع في مجلد واحد مختصر ، وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر سورة الكهف في دورة صيفيَّة مسائية عام (١٤١٩هـ) لمدة أسبوع ، وهذه الثلاثة مجلدات قوام صفحاتها مجموعة (٩٧٠) صفحة ، ومطبوعة بنفس الاسم السابق للقسم الثاني والثالث (تفسير القرآن الكريم) ، ومنهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا القسم من التفسير كما يلي :

١- يعتني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمعنىٰ العام للآية بأسلوب ميسَّر للمخاطبين .

٢- يعتني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه بالجانب السلوكي والوعظي .

٣- لم يتعرض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه لإعراب الآيات إلا نادرا .

٤- لم يكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ عادته في هذا النوع من التفسير في استنباط الفوائد مستقلة ؛ لأنه أراد به الاختصار بما يناسب المخاطبين ، وبما يناسب قصر المقام .

٥- اعتنىٰ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر المناسبات بين الآيات ، واكتفىٰ بالقول الراجح في الآية ، وذكر الخلاف عند الحاجة .

تميَّز هذا القسم بإيراد القضايا الدعوية المتعلقة بالآيات بأسلوب وعظي ، حيث يستوقف القارئ على آيات الوعد والوعيد بما يدعوه لأخذ الاعتبار ، كما يتميَّز بطرح بعض القضايا الدعوية المعاصرة ، وما يتعلق بجانب تأهيل الداعية العلمي والعملي ، مع أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يستطرد في هذا القسم من التفسير ، إلا أن الجوانب الدعوية فيه ليست قليلة[١] .



(١) انظر مزيداً في بيان منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن » للدكتور أحمد البريدي (٥٧ ١٤٦) .



المبحث الثالث

مفهوم الدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها

من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

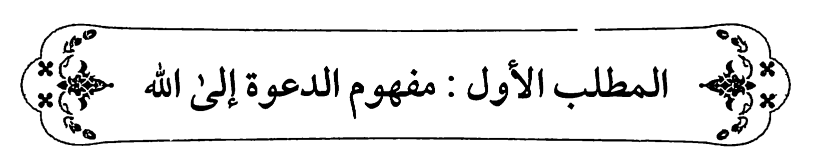
ويشتمل علىٰ أربعة مطالب :

المطلب الأول : مفهوم الدعوة إلىٰ الله .

المطلب الثاني : أهمية الدعوة إلىٰ الله .

المطلب الثالث : حكم الدعوة إلىٰ الله .

المطلب الرابع : مصادر الدعوة إلىٰ الله .



المطلب الأول : مفهوم الدعوة إلىٰ الله

لقد عني علماء الإسلام بالدعوة ومفهومها وما يتعلق بها منذ القِدَم ، إذ أنها وظيفة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ التي بها تصل الرسالة للأمم ، واجتهد علماء الأمة في بيان مفهوم الدعوة نظراً ، وتسطيره علىٰ أرض الواقع عملاً ، فجاءت كتبهم موضحة لمفهوم الدعوة وما يتعلق بها ، وتراجمهم مبيِّنة كيف تُطبَّق الدعوة علىٰ منهاج الرسالة المحمدية ، وممن اعتنىٰ بالدعوة علماً وعملاً شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ، في كتبه وتفسيره علىٰ وجه الخصوص ؛ وذلك لورود كثير من آيات القرآن الكريم تدور حول الدعوة ومفهومها ، وما قام به الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من دعوة أقوامهم ، وليتضح مفهوم الدعوة نُعرِّف بالدعوة لغةً واصطلاحًا .

الدعوة في اللغة :

الدعوة مشتقة من : « دعا : يدعو ، دعاء ودعوة ، وبعض العرب يؤنث الدعوة بالألف فيقول : الدعوىٰ[(1)] .

والدال والعين والحرف المعتل : أصل واحد ، وهو أن تُميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك ، تقول : دعوت ، أدعو ، دعاء[(2)] .

وللدعوة في اللغة معانٍ أخرىٰ ، منها :

الاستغاثة ، والدعاء ، والنداء ، والسؤال ، وتداعىٰ القوم ؛ أي : دعا بعضهم بعضًا حتىٰ يجتمعوا . والدَّعوة إلىٰ الطعام بالفتح ، والدِّعوة في النسب بالكسر .

---

(١) « تاج العروس من جواهر القاموس » للزبيدي (٣٨/ ٤٦) مادة (دعو) .

(٢) « معجم مقاييس اللغة » لابن فارس (٢/ ٢٧٩) مادة (دعو) .

والدُّعاة : قوم يَدْعُون إلىٰ بيعة هدىً أو ضلالة ، واحدهم داعٍ . ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلىٰ بدعة أو دين ، أدخلت الهاء فيه للمبالغة . والنبي ﷺ ، داعي الله تعالىٰ ... وداعي الأمة إلىٰ توحيد الله وطاعته . قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرا عن الجن الذين استمعوا القرآن : ولوا إلىٰ قومهم منذرين قالوا : ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف : ٣١][١] .

ومعاني الدعوة تدور علىٰ معنىٰ الطلب ، والداعية يطلب من المدعوين الامتثال لأمر الله تعالىٰ وأمر رسوله ﷺ .

الدعوة في الاصطلاح :

ذكر أهل العلم للدعوة في الاصطلاح الشرعي عدة تعريفات وكلها ترجع إلىٰ مفهومين :

الأول : تُطلق الدعوة علىٰ الإسلام نفسه .

والثاني : الدعوة بمعنىٰ النشر والبلاغ[٢] .

أما علىٰ المعنىٰ الأول : فقد عُرِّفت الدعوة ببعض التعريفات ، ومنها :

الدعوة إلىٰ الله هي : النظام العام ، والقانون الشامل لأمور الحياة ، ومناهج السلوك للإنسان ، التي جاء بها محمد ﷺ من ربه ، وأمره بتبليغها إلىٰ الناس ، وما يترتب علىٰ ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة .

الدعوة هي : الدين الذي ارتضاه الله للعالمين ، وأنزل تعاليمه وحيًا علىٰ

---

(١) انظر : « لسان العرب » لابن منظور (١٤/ ٢٥٧ ٢٥٩) و« تاج العروس » للزبيدي (٣٨/ ٤٦) ، مادة (دعو) .

(٢) انظر « المدخل إلىٰ علم الدعوة » للبيانوني (١٦ ١٨) .

رسول الله ﷺ وحفظها في القرآن الكريم ، وبينتها السنة النبوية[١] .

وأما علىٰ المعنىٰ الثاني فقد عرفت الدعوة بتعريفات عدة ، منها :

الدعوة إلىٰ الله هي الدعوة إلىٰ الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا وذلك يتضمن الدعوة إلىٰ الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والدعوة إلىٰ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره والدعوة إلىٰ أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ..[٢] .

الدعوة هي : تبليغ الإسلام للناس ، وتعليمه إياهم ، وتطبيقه في واقع الحياة[٣] .

الدعوة هي : حث الناس علىٰ الخير والهدىٰ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل[٤] .

ومما سبق : يتضح أن هذه التعريفات الاصطلاحية متقاربة يُكَمِّلُ بعضها الآخر ، وأن الدعوة تشمل كل ما ذُكر ؛ لأنها ذات معنىٰ شمولي يستوعب الإسلام والدعوة إليه أجمع من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وآداب وسائر ما يشمله الإسلام ، لا تختص بمسار دون آخر ولا بقطر ولا زمان ، بل الدعوة إلىٰ أمور الخير الدينية والدنيوية ، وإلىٰ هذا المفهوم العام أشار الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران :١٠٤] حيث قال : « كل ما جاء به الشرع فهو خير ، ويشمل ما كان خيراً في الدين وما كان خيراً في الدنيا ، أما ما كان خيراً في الدين فأمره ظاهر ﴿فَمَن يَعْمَلْ

(١) « الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها » أحمد غلوش(١٠) .

(٢) « مجموع الفتاوىٰ » (١٥ / ١٧٥) .

(٣) « المدخل إلىٰ علم الدعوة » (١٧) .

(٤) « هداية المرشدين إلىٰ طريق الوعظ والخطابة » علي محفوظ (١٧) .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة :٧] ، وأما ما كان من أمر الدنيا فلأن ما كان من مصالح الدنيا التي لا تعارض الدين فهو من الأمور الخيرية المطلوبة »[١] .



(١) « تفسير سورة آل عمران »(٢ / ٦) .

المطلب الثاني : أهمية الدعوة إلىٰ الله

لقد أولىٰ الإسلام الدعوة عناية فائقة وجعلها هي السبيل للتبليغ منذ تكليف الإنسان ، حيث دُعي الإنسان في الأرض منذ القِدَم إلىٰ توحيد الله تعالىٰ وإفراده بالعبادة ، وتتابعت هذه الدعوة عمادها الدعوة إلىٰ التوحيد واستمرت إلىٰ هذه الأمة ثم إلىٰ قيام الساعة ، وشأن التوحيد مرتبط بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وهي وظيفة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في أقوامهم ، ممتثلين قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨] ، فمنذ بدء رسالات الدعوة إلىٰ التوحيد وتتابعها ، والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ترافق الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في أقوامهم ، فبعد حصول الانحراف في البشرية عن عقيدة التوحيد في قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والله سبحانه يرسل الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لدعوة الخلق إلىٰ التوحيد والإيمان كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل :٣٦] ، وبيَّن مهمتهم الدعوية في قوله تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء :١٦٥] ، وقوله : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل :٢] .

ولما كانت رسالة محمد ﷺ خاتم الرسالات ، جعله الله تعالىٰ نبيَّ هذه الأمة مبعوثـاً للناس كافة بما أوحىٰ الله إليه من كتاب هيمن علىٰ الكتب السماوية كلها كما قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر :٣٢] ، وعلىٰ الأمة حينئذ من واجب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ أكثر مما يجب علىٰ من سبقها من الأمم ؛ ذلك لأن الله تعالىٰ ميَّزها وأعطاها ما لم يعط أمة من الأمم ، وجعل خيريتها مناطة بشأن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران :١١٠] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية : « هذه الأمة فَضَلَت غيرها بالخيرية لوصفٍ ليس في غيرها ، وهي أنها تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ، وأما من سبقها فلا ، يقول الله تعالىٰ في بني إسرائيل : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة :٧٩] »[1] .

وقد كُلِّفَت هذه الأمة بما كُلِّفَ به رسولها ﷺ من القيام بدعوة البشرية إلىٰ الله ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨] .

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يقول الله تعالىٰ لعبد ورسوله إلىٰ الثقلين : الإنس والجن ، آمرا له أن يخبر الناس : أن هذه سبيله ، أي طريقه ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلىٰ الله بها علىٰ بصيرة من ذلك ، ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه ، يدعو إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ علىٰ بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي »[2] .

وأخبر سبحانه وتعالىٰ أن الدعاة إلىٰ الله هم أحسن الناس قولاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فُصِّلَت :٣٣] .

قال الحافظ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يقول تعالىٰ ذكره : ومن أحسن أيها الناس قولا ممن قال ربنا الله ثم استقام علىٰ الإيمان به ، والانتهاء إلىٰ أمره

---

(١) « تفسير سورة آل عمران »(٢ / ٥٣).

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٤ / ٤٢٢) .

ونهيه ، ودعا عباد الله إلىٰ ما قال وعمل به من ذلك »[١] .

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والأولىٰ حمل الآية علىٰ العموم كما يقتضيه اللفظ ويدخل فيها من كان سببا لنزولها دخولا أوليا ، فكل من جمع بين دعاء العباد إلىٰ ما شرعه الله ، وعمل عملاً صالحاً ، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه ، وكان من المسلمين دينا لا من غيرهم فلا شيء أحسن منه ، ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثوابا من عمله »[٢] .

ولقد جاءت نصوص متضافرة في بيان أهمية الدعوة ، وفي بيان فضل الدعوة وذلك لسمو مكانتها وأهميتها في الشريعة ، ويتضح ذلك بتأمل ما يلي :

* **أن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ جهاد في سبيل الله** : فعَنْ عبد اللهِ بن مَسْعُودٍ ، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوارِيُّونَ ، وأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بسُنَّتِهِ ويَقْتَدُونَ بأمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، ويَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بيَدِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ ، ومَنْ جَاهَدَهُمْ بلِسَانِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ ، ومَنْ جَاهَدَهُمْ بقَلْبِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ ، ولَيْسَ ورَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ »[٣] .

وفي تفسير قول الله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٧] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي في الجهاد في سبيل الله ، ويحتمل أن يكون المعنىٰ أعم من الجهاد في سبيل الله بالدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والعلم ، فمن قتل

---

(١) « جامع البيان » (٢٠ / ٤٢٩) .

(٢) « فتح القدير » (٤ / ٥٩١) .

(٣) أخرجه مسلم (٥٠) .

لكونه داعية فإنه مقتول في سبيل الله ؛ لأنه كالمجاهد بسلاحه »[١] .

* **الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ سبيل خيرية الأمة** : كما قال تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية : « من فوائد الآية : أنه متىٰ زال هذا الوصف الذي به فُضِّلت هذه الأمة وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال كونها خير أمة أخرجت للناس ، وذلك لأن الحكم المعلل بعلة يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها ، ويقوىٰ بقوتها ويضعف بضعفها .

ومنها : أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن تَرَتُّب الخيرية عليه يدل علىٰ أهميته .

ومنها : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما وجد في الأمة وجد الخير فيها ، وكلما ضعف فيها ضعف فيها الخير ، ولهذا لما كانت الأمة قوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بلادنا كانت البلاد علىٰ خير ما يرام ، ولما ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فات هذه البلاد من الخير بقدر ما فاتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٢] .

* **الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ سبيل لتحصيل الأجور العظيمة** : عن أَبِي هُرَيرةَ ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ، قال : « مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ

---

(١) « تفسير سورة آل عمران »(٢ / ٣٥٨) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران »(٢ / ٥٣) .

آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا »(١) .

وعن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ ، قال رسولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ »(٢) .

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « سواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك »(٣) .

* **الدعوة إلىٰ الله أحسن الأعمال عند الله تعالىٰ** : قال تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت :٣٣] ، وهذا النص يقرر : أن الدعوة إلىٰ الله المقرونة بالعمل الصالح ، من أجلِّ الأعمال ، وأفضل العبادات ، وهي شهادة لصاحبها : أنه من أحسن الناس دينـًا ، وأقومهم طريقا .

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فجمع بين الدعوة إلىٰ الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك ، مما يبتغىٰ به وجه الله ، وعمل هو في نفسه صالحًا ، وقال قولًا صالحًا ، فلا أحد أحسن حالًا من هذا »(٤) .

* **الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ سبيل الفلاح** : قال تعالىٰ : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران :١٠٤] .

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية من فوائد هذه الآية : « فضيلة الدعوة إلىٰ الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففي الآية

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٣) .

(٣) « شرح مسلم » (١٦ / ٢٢٧) .

(٤) « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٦٨) .

دليل علىٰ فضيلة هذه الخصال ، قوله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، إذا خسر الناس فهؤلاء هم المفلحون الرابحون »(١) .

* **ترك الدعوة إلىٰ الله سبيل للتفرق :** لأن الله تعالىٰ أعقب الآية السابقة قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران :١٠٥] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ ﴾، أتىٰ بها بعد قوله : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ لأن الأمة إذا تركت الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا بد أن تتفرق ؛ لأنه لا يكون لهم في هذه الحال كلمة جامعة ، كل واحد يعمل علىٰ هواه ؛ لأنه ما يُدعىٰ إلىٰ الخير ، والنفوس لها نزعات متباينة مختلفة ، وكذلك أيضا إذا لم يكن أمر بمعروف ولا نهي عن منكر تفرق الناس ولابد ؛ لأن هذا يريد الزنا ، وهذا يريد شرب الخمر ، وهذا يريد السرقة ، وهذا يريد أشياء غير الأولىٰ فيحصل التفرق ، فإذا أمروا بالمعروف صاروا كلهم علىٰ المعروف ، وإذا نهوا عن المنكر صاروا كلهم علىٰ ترك المنكر »(٢) .

* **وترك الدعوة كما أنه سبب للتفرق فهو سبب للتعرض للعقوبة واللعن والإبعاد عن رحمة الله تعالىٰ والعياذ بالله ،** قال تعالىٰ : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة :٧٨-٧٩] ، فعدم تناهيهم عن المنكر أحل بهم اللعنة والبوار ، والذي لعن بني إسرائيل رسولان كريمان داود وعيسىٰ ابن مريم) ، وداود من

---

(١) « تفسير سورة آل عمران »(٢ / ٢٤) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران »(٢ / ٨-٩) .

أنبياء بني إسرائيل، لكنه ليس آخرهم، آخرهم هو عيسىٰ ابن مريم)، فتكون لعنتهم في أول الرسالات، وفي آخر الرسالات[١].

* **والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ دعوة إلىٰ اتباع الصراط المستقيم**، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، صراط الله الذي وضعه لعباده موصلاً إليه ومصلحاً لأمور دينهم و دنياهم، وبهذا الاتباع تنقطع طرق الابتداع التي يضلل مبتدعوها بعضهم بعضاً، وتتفرّق بهم الأهواء عن دين الله ويتبعون غير ما أمرهم به مولاهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويقعون فيما نهاهم الله عنه من التفرّق، حيث يقول سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣] »[٢].

* **والدعوة إلىٰ الله هي طريق المؤمنين الصادقين، وضدها سبيل المنافقين وهديهم**: قال تعالىٰ في مدح المؤمنين علىٰ هذا السبيل وبيان ثوابهم: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١-٧٢]، وقبلها بآيات بيَّن الله تعالىٰ أن السير علىٰ غير هذا الهدي هو هدي المنافقين والمنافقات الذين وصفهم الله تعالىٰ بالمخالفة في هذا الباب، وتوعدهم باللعنة والعذاب الشديد فقال تعالىٰ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ

---

(١) انظر: « تفسير سورة المائدة » للشيخ ابن عثيمين (٢ / ٢٣٧).

(٢) « رسالة في الدعوة إلىٰ الله » للشيخ ابن عثيمين (٨).

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٧-٦٨].

وما استودع الله تعالىٰ في الشريعة الغراء هذه الفضائل والأهمية في شأن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ إلا لأن بها تُقَام الشريعة، وتُحْفظ الحدود، ويستقيم الحال، ويؤمَّن المآل، وترتفع راية الإسلام، وتعظُم دولة أهله؛ لأنهم ساروا علىٰ منهج الحق، وورثوا وظيفة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقاموا بها حق قيام، ولئن كانت الحاجة للدعوة ظاهرة علىٰ الإطلاق علىٰ مرِّ العصور بنصِّ النصوص الشرعية، فهي في زماننا اليوم أكثر حاجة وأهمية؛ فالدعوة في زمن كثرت فيه الفتن، واشتدت المحن، وتكالبت صروف الدهر ونوائبه علىٰ أمة الإسلام، وماجت عهود الناس ومواثيقهم، واستشرىٰ الجهل بالدين، وتميعت عقيدة المسلمين؛ تبرز أهميتها أكثر، لاسيما مع نشاط دعاة الشر والضلالة، عبر وسائل التواصل المتعددة المسموعة والمرئية والمقروءة، ببث شبهات التضليل والإلحاد والتشكيك في العقائد تارة، وفتح نار الشهوات والمجون واستباحة الأعراض تارة أخرىٰ مستخدمين كل وسيلة للصد عن سبيل الله، والواقع خير شاهد علىٰ ذلك، مما يستدعي نشاط دعاة الإسلام اليوم، واستشعارهم لخطورة افتقار بعض أقطار وأحوال المسلمين وحاجتهم الماسة، فيقوموا بالدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ بصيرة، وإصلاح أوضاع الناس بالحكمة، وتصحيح معتقداتهم، وغرس القيم والمفاهيم الصحيحة في قلوبهم، وسد الطريق علىٰ المفسدين في الأرض، والمنتسبين للإسلام زوراً ليشككوا في عقائد الناس وينشروا البدع والخرافات، فيحفظ دعاة اليوم علىٰ الناس

عقائدهم ، ويرشدونهم لما فيه صلاحهم ، فيشرفوا بوظيفة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، ويفوزوا بثمرتها ، سائرين علىٰ منهاجهم الذي قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل :١٢٥] ، وقال : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨] .



المطلب الثالث : حكم الدعوة إلىٰ الله

لما كان شأن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ عظيماً احتفت بكثير من النصوص الدالة علىٰ فضلها وأهميتها -كما تقدم- وجاءت النصوص بالأمر بها كقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل :١٢٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج : ٦٧] ، وقوله : ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [القصص : ٨٧] ، وقوله : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ [الشورىٰ : ١٥] ، وقوله : ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران :١٠٤] ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سَعِيدٍ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ رَأىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »[1] .

واتفق العلماء علىٰ وجوب الدعوة إلىٰ الله ، واختلفوا في نوعية الوجوب ، هل هو علىٰ التعيين أو الكفاية :

القول الأول : أن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ واجبة وجوبا عينياً ، فيلزم كل مكلف أن يقوم بها .

واستدلوا بأدلة منها :

١ . قوله تعالىٰ : ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) .

﴿ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران :١٠٤] ، ووجه الدلالة : أن (من) هي للبيان والتبيين ، وليست للتبعيض ، وعليه فتوجيه الخطاب بالدعوة إلىٰ جميع المكلفين ، فتكون الدعوة واجبة علىٰ كل فرد مسلم بقدر استطاعته .

٢ . عموم قوله تعالىٰ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران :١١٠] ، ووجه الدلالة : أن الآية دلت علىٰ أن الدعوة سمة من سمات الأمة المسلمة قامت عليها الخيرية ، والخيرية مرادة ومقصود الأمة ، فتكون واجبة عليها جميعا .

٣ . قول النبي ﷺ : « مَنْ رَأىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »[1] ، ووجه الدلالة : أن (من) من ألفاظ العموم فيعم الحكم جميع المكلفين . »

وأصحاب هذا القول قيَّدوا الوجوب بالاستطاعة ، كما هي الواجبات تسقط بالعجز لقوله تعالىٰ : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ، وعليه فمن لم يكن عالِمًا بحكم المنكر لا يُعدُّ مستطيعًا بالاتفاق ، وكذلك من كان عاجزًا عن تغيير المنكر سقط عنه الوجوب ، فلا يترتب علىٰ القول بالوجوب العيني حرج علىٰ أحد لم يستطع .

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يتفق المسلمون علىٰ أهمية الدعوة إلىٰ الله ، ويتحدث كثيرون عن وجوبها علىٰ المسلمين ، ونحن مع هؤلاء في وجوب الدعوة إلىٰ الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة ، وتذكير الناس ووعظهم ونصحهم ... إن هذا واجب علىٰ جميع المسلمين ، علىٰ اختلاف مستوياتهم ، ولكن هذا الواجب يتفاوت بتفاوت

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) .

المسلمين علماً وفطنة وأسلوباً ومركزاً وعملاً ووقتاً . . وهذا الوجوب مستفاد من آيات كثيرة صريحة في القرآن . كما في قول الله تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾، وقوله تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، وقوله تعالىٰ : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾، وقوله سبحانه : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾[لقمان :١٧] »(١) .

والقول الثاني : أن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ واجبة وجوبا كفائياً ، فلا تلزم كل مكلف أن يقوم بها ، يكفي أن يقوم بها بعض من يكفي فيسقط الحكم عن البقية ، وبه قال جمهور العلماء .

واستدل العلماء القائلون بالوجوب الكفائي بأدلة ، منها :

١ . قوله تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران :١٠٤]، ووجه الدلالة : أن (من) في الآية ، هي للتبعيض ، وعليه قيام بعض من يكفي يُسقط الحكم عن البقية .

٢ . قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة :١٢٢] ، ووجه الدلالة : أن الآية صريحة في أن قيام طائفة بالتفقه في الدين وإنذار القوم كافٍ في إيصال الدعوة .

٣ . عللوا : بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمل يحتاج إلىٰ علم

---

(١) « الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة » للشيخ عبد العزيز ابن باز (١٤-١٥) .

وبصيرة بالشروط والأحوال ، وهذا لا يتوفر في جميع المسلمين ، فيكون الواجب علىٰ من توفر فيه الشرط ، فإذا قام بواجب الدعوة من توفرت فيهم الشروط سقط الإثم عن الباقين .

وأصحاب هذا القول يتفقون مع أصحاب القول الأول بأنه إذا لم تحصل الكفاية لم يسقط الحكم عن الباقين ، ويبقىٰ الخطاب متوجهًا إلىٰ الجميع حتىٰ تتحقق الكفاية ، وإذا لم تتحقق الكفاية أثم الجميع ، ويرىٰ الباحث : أنْ ليس ثمة بُعْد كبير بين القولين -لاسيما في واقعنا المعاصر الذي فشت فيه كثير من المنكرات- فالجميع متفقون علىٰ الوجوب ، والجميع متفق علىٰ وجوبه في حق من يستطيع لاسيما مع عدم كفاية القائمين[1] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد قوله تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران :١٠٤] : « وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لقوله : ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وهل هو فرض كفاية أو فرض عين؟ ينبني علىٰ الخلاف في (مِنْ) هل هي تبعيضية أو لا؟ ولا شك أننا إذا رأينا منكراً وجب علينا أن ننكره وننهىٰ عنه ، لكن لا يجب علىٰ كل واحد أن ينهىٰ عن منكر معيَّن ، مثلاً لو أن شخصـًا اغتاب عندنا ونحن عشرة ، هل نقول : كلنا ننهىٰ عنه أو إذا نهىٰ واحد وحصلت به الكفاية كفىٰ؟ لكن لو أنه نهاه ولم ينته وجب علىٰ الآخرين أن يكونوا معه »[2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وكل واحد من الأمة يجب عليه أن

---

(١) انظر أيضـًا في هذه المسألة ما يلي : « أحكام القرآن » لابن العربي (١ / ٣٤٩) ، و« الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٤ / ١٦٥) ، و« روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » للألوسي (٢ / ٢٣٨) .

(٢) « تفسير آل عمران »(٢ / ١٢) .

يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره فما قام به غيره سقط عنه وما عجز لم يطالب به . وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ... وقد تبين بهذا أن الدعوة إلىٰ الله تجب علىٰ كل مسلم ؛ لكنها فرض علىٰ الكفاية وإنما يجب علىٰ الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره »(1) .

والمتأمل بعين البصيرة لواقعنا اليوم يدرك حجم المسؤولية الكبيرة للقيام بالدعوة إلىٰ الله وصد المنكرات التي فشت في المجتمعات ، وقيام فرضية العين في كثير منها ، وهذه الفرضية تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فواجب العامة يختلف عن واجب العلماء والمسؤولين ، وهذا ما يقتضيه فقه هذه الشعيرة العظيمة ؛ لاختلاف العلم والسلطة الذي تختلف باختلافه القدرة المناطة بهذه الشعيرة .

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وفي وقتنا اليوم قد يسر الله عَزَّوَجَلَّ أمر الدعوة أكثر ، بطرق لم تحصل لمن قبلنا ، فأمور الدعوة اليوم متيسرة أكثر ، من طرق كثيرة ، وإقامة الحجة علىٰ الناس اليوم ممكنة بطرق متنوعة : عن طريق الإذاعة ، وعن طريق التلفزة ، وعن طريق الصحافة ... ومن طرق شتىٰ .

فالواجب علىٰ أهل العلم والإيمان ، وعلىٰ خلفاء الرسول أن يقوموا بهذا الواجب ، وأن يتكاتفوا فيه ، وأن يبلغوا رسالات الله إلىٰ عباد الله ، ولا يخشوا في الله لومة لائم ، ولا يحابوا في ذلك كبيرا ولا صغيرا ولا غنيا ولا فقيرا ، بل يبلغون أمر الله إلىٰ عباد الله ، كما أنزل الله ، وكما شرع الله ، وقد يكون ذلك فرض عين إذا كنت في مكان ليس فيه من يؤدي ذلك سواك ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه يكون فرض عين ، ويكون فرض كفاية ، فإذا كنت في

---

(1) « مجموع الفتاوىٰ » (١٥ / ١٦٦) ، وانظر : « أحكام القرآن » لابن العربي (١ / ٣٨٣) .

مكان ليس فيه من يقوىٰ علىٰ هذا الأمر ، ويبلغ أمر الله سواك ، فالواجب عليك أنت أن تقوم بذلك ، فأما إذا وجد من يقوم بالدعوة والتبليغ ، والأمر والنهي غيرك ، فإنه يكون حينئذ في حقك سنة ، وإذا بادرت إليه وحرصت عليه كنت بذلك منافسا في الخيرات ، وسابقا إلىٰ الطاعات ، ومما احتج به علىٰ أنها فرض كفاية قوله جل وعلا : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية وجماعة ما معناه : ولتكن منكم أمة منتصبة لهذا الأمر العظيم ، تدعو إلىٰ الله ، وتنشر دينه ، وتبلغ أمره سبحانه وتعالىٰ ، ومعلوم أيضـًا أن الرسول ﷺ دعا إلىٰ الله ، وقام بأمر الله في مكة حسب طاقته ، وقام الصحابة كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم- بذلك حسب طاقتهم ، ثم لما هاجروا قاموا بالدعوة أكثر وأبلغ ، ولما انتشروا في البلاد بعد وفاته (قاموا بذلك أيضا رضي الله عنهم وأرضاهم كل علىٰ قدر طاقته وعلىٰ قدر علمه ، فعند قلة الدعاة ، وعند كثرة المنكرات ، وعند غلبة الجهل كحالنا اليوم تكون الدعوة فرض عين علىٰ كل واحد بحسب طاقته ، وإذا كان في محل محدود كقرية ومدينة ونحو ذلك ، ووجد فيها من تولىٰ هذا الأمر ، وقام به وبلغ أمر الله كفىٰ ، وصار التبليغ في حق غيره سنة ؛ لأنه قد أقيمت الحجة علىٰ يد غيره ونفذ أمر الله علىٰ يد سواه .

ولكن بالنسبة إلىٰ بقية أرض الله ، وإلىٰ بقية الناس ، يجب علىٰ العلماء حسب طاقتهم ، وعلىٰ ولاة الأمر حسب طاقتهم ، أن يبلغوا أمر الله بكل ما يستطيعون ، وهذا فرض عين عليه علىٰ حسب الطاقة والقدرة .

وبهذا يعلم أن كونها فرض عين ، وكونها فرض كفاية أمر نسبي يختلف ، فقد تكون الدعوة فرض عين بالنسبة إلىٰ أقوام وإلىٰ أشخاص ، وسنة بالنسبة

إلىٰ أشخاص وإلىٰ أقوام؛ لأنه وجد في محلهم وفي مكانهم من قام بالأمر وكفىٰ عنهم [١].



(١) «الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة» (١٦-١٨).

المطلب الرابع : مصادر الدعوة إلىٰ الله

للدعوة إلىٰ الله تعالىٰ مكانة كبيرة في الإسلام، والدعاة إلىٰ الله تعالىٰ لابد لهم من مورد يستقون منه الدعوة إلىٰ الله، وهو الذي يصدرون عنه في الدعوة ومعالجة قضاياها، والمصادر: جمع مصدر، وهو مصدر ميمي من الصَدَر بالتحريك من قولك صَدَرْتُ عن الماء وعن البلاد، ويكون أيضًا اسم مكان أي الموضع الذي يُصدر منه، ومنه مصادر الأفعال أي الأصول التي أُخِذَتْ منها، و(الصدر) بفتح الدال الاسم من قولك : (صدر) عن الماء وعن البلاد من باب نصر ودخل[1]، ومصادر الدعوة هي الأصول التي تؤخذ منها الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وهي كما يلي :

المصدر الأول : القرآن الكريم :

لاشك أن كتاب الله تعالىٰ هو الـمَعِيْنُ الأَوَّلُ الذي يصدر عنه الداعية، ويأخذ منه زاد دعوته، وكلما كانت الدعوة مستندة إلىٰ كتاب الله تعالىٰ كانت أكثر تأصيلاً وعمقًا وتأثيراً في المدعوين، وكانت العاقبة الحسنة للداعية لتمسكه بكتاب الله تعالىٰ، وكان الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤكد هذا المعنىٰ في تفسيره مبيِّنًا أن هذا هو طريق الاهتداء في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، حيث قال : « ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة علىٰ جميع الخلق، ولهذا فإني أحثكم علىٰ أن تمسكوا بهذا القرآن العظيم، وإذا تمسكتم به عقيدة وعملاً، وهديًا فستكون العاقبة لكم، ولا تظنوا أنكم قليلون -لو كنتم قليلين-

---

(١) انظر : « لسان العرب » لابن منظور (٤ / ٤٤٨) و« مختار الصحاح » للرازي (١ / ١٧٤) مادة (صدر).

فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن ينجذب الناس للمهتدي به حتىٰ يكثروا شيئًا فشيئًا، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتىٰ يشمل اليم كله، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور علىٰ جميع الخلق »[١].

وفي موضع آخر يبيِّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية التزود والصدور عن كتاب الله تعالىٰ وسنة نبيِّه للدعاة علىٰ وجه الخصوص وأنه أول زاد يستقي منه الداعية، وأن الانكفاف عن التزود من كتاب الله تعالىٰ يحوِّل مسار الداعية من مِعْول بناء وهداية إلىٰ مِعْوِل هدم وضلالة، فيقول: « وإن أول زاد يتزود به الداعية إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون علىٰ علم مستمد من كتاب الله تعالىٰ، ومن سنة رسوله ﷺ، الصحيحة المقبولة، وأما الدعوة بدون علم فإنها دعوة علىٰ جهل، والدعوة علىٰ الجهل ضررها أكبر من نفعها، لأن هذا الداعية قد نصب نفسه موجهًا ومرشداً فإذا كان جاهلاً فإنه بذلك يكون ضالاً مضلاً والعياذ بالله، ويكون جهله هذا جهلاً مركبًا، والجهل المركب أشد من الجهل البسيط، فالجهل البسيط يمسك صاحبه ولا يتكلم، ويمكن رفعه بالتعلم، ولكن المشكلة كل المشكلة في حال الجاهل المركب، إن هذا الجاهل المركب لن يسكت بل سيتكلم ولو عن جهل وحينئذ يكون مدمراً أكثر مما يكون منوراً »[٢].

وكذا كتب التفسير تعدُّ من المصادر الملازمة لكتاب الله تعالىٰ يستقي منها الداعية البيان والتوضيح، وجمع المتفرقات من الأدلة في موضوع واحد، وكذا الأخبار وأقوال المفسرين من السلف ومن بعدهم، لتكون زاداً للداعية

(١) « تفسير سورة يس » (٢٤٨-٢٤٩) عند تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ٤٤].

(٢) « زاد الداعية إلىٰ الله » ضمن كتاب « الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين » (١١).

في موضوعاته الدعوية ، ويزداد بها المدعو تبصرةً وإيضاحـًا لكلام الله تعالىٰ ، ويعتبر تفسير شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثريًّا بالجوانب الدعوية كما سيظهر في هذه الدراسة- ولقد اعتنىٰ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتفسير عناية خاصة ، وكثيرا ما يحثُّ ويدعو إلىٰ الاهتمام بالتفسير ، ومن ذلك قوله : « وتعلُّم التفسير واجبٌ لقوله تعالىٰ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص :٢٩] ، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد :٢٤] ، وجه الدلالة من الآية الأولىٰ أنّ الله تعالىٰ بيَّن أنّ الحكمة من إنزال القرآن المبارك أن يتدبر الناس آياته ، ويتعظوا بما فيه .

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلىٰ معانيها فإذا لم يكن ذلك ، فاتت الحكمة من إنزال القرآن ، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها ؛ ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه ، ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالىٰ وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن ، وأشار إلىٰ أن ذلك من الإقفال علىٰ قلوبهم ، وعدم وصول الخير إليها »[1] .

وقال أيضـًا ناصحـًا الدعاة أن يرجعوا إلىٰ التفسير مبيِّنـًا أهميته : « ويجب علىٰ أهل العلم أن يبيِّنوه للناس عن طريق الكتابة أو المشافهة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران :١٨٧] ، وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه ، فيكون تفسير القرآن ، مما أخذ الله العهد علىٰ أهل العلم ببيانه ، والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلىٰ الغايات الحميدة والثمرات الجليلة ، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه علىٰ الوجه الذي أراده الله ؛ ليعبد الله بها علىٰ بصيرة »[2] .

---

(١) « أصول في التفسير » لشيخنا ابن عثيمين(٢٣) .

(٢) « أصول في التفسير » (٢٤) .

ولقد تعاهد العلماء هذا المصدر المهم من عصر السلف إلىٰ يومنا هذا بالنهل من كتاب الله تعالىٰ وتفسيره ، واستخراج المضامين والموضوعات والجوانب الدعوية ، ولا تكاد تجد داعية إلا وهو يتردد علىٰ هذا المصدر ليأخذ منه دلالات الآيات لما فيه مصلحة المدعوين في دينهم ودنياهم .

المصدر الثاني : السنة النبوية :

السنة النبوية هي المصدر التشريعي والوحي الثاني من مصادر الدين الإسلامي ، وما أجمله القرآن من الشريعة فبيانه تفصيلاً في السنة ، ولقد اهتم الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره بالكتاب والسنة ، سواء كان ذلك في ذات تفسيره حين يفسر القرآن بالقرآن أو القرآن بالسنة ، أو فيما تضمنته الآيات من دلائل شرعية ودعوية فإن أول ما يستشهد لها من الكتاب والسنة ، وكثيرا ما يربط في تفسيره ويرشد لربط حياة الناس دعاة ومدعوين بالكتاب والسنة ، وأن فيهما بيان كل شيء فيقول : « قال تعالىٰ : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل :٨٩]فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وجد في القرآن ، لكن وجوده في القرآن : إما أن يكون علىٰ وجه صريح ، أو علىٰ وجه ظاهر ، أو علىٰ وجه الإيماء والإشارة ، أو علىٰ وجه الشمول والعموم ، أو علىٰ وجه اللزوم ، فالمهم أن القرآن مبيِّن لكل شيء ، تارة يذكر الدليل علىٰ المسألة ، وتارة يذكر التوجيه إلىٰ الدليل ، فمثلاً : هناك مسائل لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الركعات في الصلوات ، وتقدير أنصبة الزكاة ، وما يجب فيها ، وما أشبهها لكن في القرآن ما يشير إليه مثل قوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر :٧] ، فهذه الآية إذا وجهتها إلىٰ السنة شملت

جميع السنة ، وشرعنا كله لا يعدو الكتاب والسنة »(١) .

ويبيِّن في موضع آخر أن الدعوة لن تكون صحيحة ولن ينتصر الداعية فيها إلا إذا كان علىٰ منهاج الكتاب والسنة ، فيقول : « فمن قام بالدعوة إلىٰ الله مخلصـاً لله متبعـاً لشريعة الله ثم مات أو قُتِل ، لكن بقيت الدعوة وانتصر بها من بعده ، فهو في الحقيقة انتصار له »(٢) .

المصدر الثالث : أقوال السلف :

لأقوال السلف أهمية بالغة فيما يتعلق بالكتاب والسنة ؛ ذلك أنهم أقرب للتنزيل فهم أقرب للحق والإصابة واتباع السنة والفهم الصحيح لكتاب الله تعالىٰ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ :. « وحينئذ ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلىٰ أقوال الصحابة ، فإنهم أدرىٰ بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم »(٣)

ولقد عني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره بهذا المصدر عناية منقطعة النظير ، لاسيما في الدعوة إلىٰ مسائل الاعتقاد وتقريرها ، فهو يناقش المخالفين لاسيما في آيات الصفات ويردُّ بفهم سلف الأمة ولا أحسب أن تفسيراً أوسع من تفسيره ولا أطول نفسـاً منه في هذا الباب- وقد قرَّر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الصحابة أقرب إلىٰ الحق ممن بعدهم في التفسير وفي أحكام المكلفين والعقائد حيث قال : « ولهذا كان الصحابة أقرب إلىٰ الحق ممن بعدهم لا في التفسير ، ولا في أحكام أفعال المكلفين ، ولا في العقائد أيضـاً ؛ لأن

---

(١) « تفسير سورة يس »(٢٥٠) .

(٢) « تفسير سورة المائدة »(١ / ١٨٣) .

(٣) « مقدمة في أصول التفسير » لابن تيمية(٤٠) .

الهداية للحق علقت بالإيمان ؛ ولا شك أن الصحابة أقوى الناس إيمانـًا ؛ قال الرسول ﷺ : « خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ »[(١)] »[(٢)] .

ويقرر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر كيف يكون العبد وكذا الداعية على المنهج الصواب في طريقه إلى الله تعالى ، وأن علامة الصواب هو الأخذ بالمصادر الثلاثة السابقة ، فيقول : « إذا قال قائل : ما الذي يدل الإنسان على كونه على صواب أم لا؟

الجواب : أن يرجع إلى الكتاب والسنة وإلى هدي السلف الصالح ومنهجهم ، فيعرف أنه على صواب أو على خطأ »[(٣)] .

المصدر الرابع : اللغة :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم :٤] ، والنبي ﷺ عربيٌّ ، ولذا نزل القرآن يخاطب العرب بلغتهم التي يفهمونها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف :٢] ، ولأهمية اللغة في أن تكون مصدرا للدعوة أهمية بالغة ، فأشرف العلوم التي يدعو لها الداعية كتاب الله تعالى وما يتعلق به كالتفسير ؛ لأن القرآن هو المستقى الأول في الدعوة إلى الله كما تقدم- ولن يستخرج الداعية عميق دلالات القرآن ومعانيه حتى يكون عالما باللغة ، يقول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لا يحلُّ لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمـًا بلغات العرب »[(٤)] ، ويقول مالك بن أنس :

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٥) .

(٣) « تفسير سورة الأنعام »(١٤٤) .

(٤) « البرهان في علوم القرآن » للزركشي (١/ ٢٩٢) .

« لا أُوتَىٰ برجُلٍ يفسِّرُ كتاب الله غيرَ عالمٍ بلغة العرب إلا جعلته نكالاً »(١) .

ولقد عني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره باللغة أيُّما عناية ، ويظهر هذا من خلال بيان الأوجه الإعرابية في الآيات التي يختلف معناها باختلاف إعرابها ، والأمثلة في تفسيره كثيرة ، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة :٢٣٦] ، حيث قال : « اختلف أهل الإعراب في إعراب (ما) فقال بعضهم : إن (ما) مصدرية ظرفية ، أي : مدة دوام عدم مسْكِهم لهنَّ ؛ وقال بعضهم : إن (ما) شرطية ، فهو من باب دخول الشرط علىٰ الشرط ؛ أي : لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إنْ لم تمسّوهنّ ؛ وهذا يأتي في اللغة العربية كثيراً ... (ثم اختار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعنىٰ الثاني »(٢) .

وكذا له عناية بالاستشهادات الشعرية في اللغة والنحو والصرف ، ومن أمثلة ذلك عند تفسيره قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[النساء :١٧] ، قال : « المراد بالجهالة هنا السفاهة ، ومنه قول الشاعر :

ألا لا يجهلــن أحــدٌ علينــا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا(٣)

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام :١٠١] ، قال : « قوله تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ﴾ فَعِيل بمعنىٰ مُفْعِل ؛ أي مُبْدِع ؛ ولها نظير في اللغة

(١) المرجع السابق .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ١٦٦) ، ولمزيد من الأمثلة : انظر « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٤٢٥) ، و« تفسير سورة النساء »(١ / ٣٥) ، و« تفسير سورة الصافات »(١٦٣) .

(٣) « تفسير سورة النساء »(١ / ١٣٧) ، ولمزيد من الأمثلة انظر : « تفسير سورة البقرة »(١ / ٨٢ ، ٣٥٨) و (٣/ ٧٦ ، ٢٤٦) ، و« تفسير سورة الصافات »(١٥٦) و« تفسير سورة جزء عم »(٣٠٢) .

العربية ، مثل قول الشاعر :

أَمِنْ ريحانةِ الداعي السميعُ ... يؤرقني وأصحابي هجوعُ

فالسميعُ بمعنىٰ المُسْمِع [١] .

وهو في تفسيره أيضاً يهتم ببيان المعنىٰ اللغوي مع بيانه للمعنىٰ الشرعي ومن أمثلة ذلك : عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة :٢١٨] ، قال : « والهجْرُ في اللغة التركُ ، ومنه : (هجرتُ فلاناً) إذا لم تكلِّمْهُ ، وفي الشرع له معنيان : عام ، وخاص ، فأما العام فهو هجر ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ ، كما قال النبي ﷺ : « والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ »[٢] ، وأما الخاص فهو أن يهجر الإنسان بلده ووطنه لله ورسوله ... والمراد بالهجرة في الآية ما يشمل المعنيين : العام والخاص »[٣] .

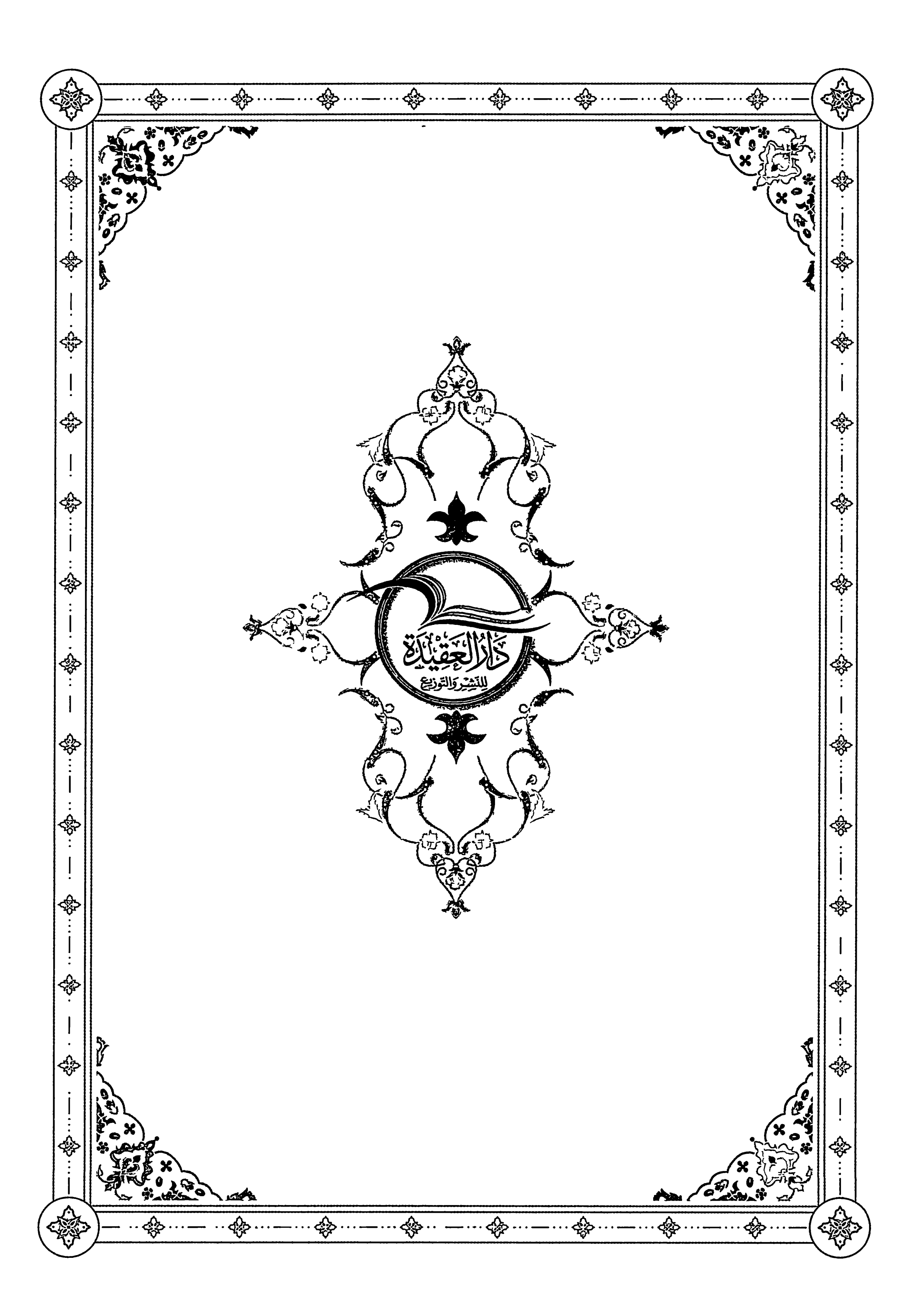


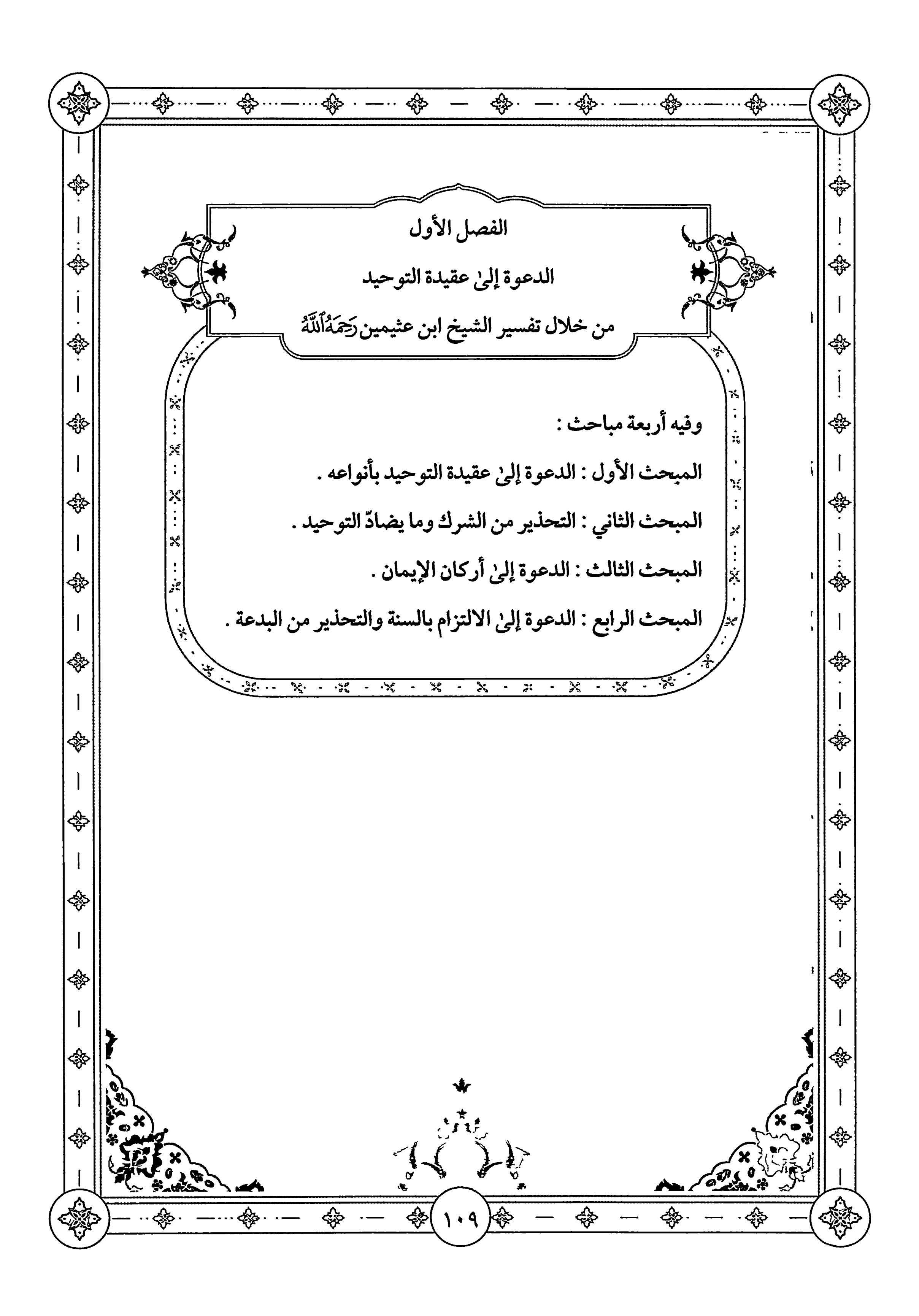
---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ١٦) .

(٢) أخرجه البخاري (١٠) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٦٢) ، ولمزيد من الأمثلة انظر : « تفسير سورة البقرة » (١ / ٩١ ، ٢٦١ ، ٣٢٨) و (٢ / ٢٤٧) و (٣ / ٦٣ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦) .


دار العقيدة
للنشر والتوزيع



الفصل الأول

الدعوة إلىٰ عقيدة التوحيد

من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الدعوة إلىٰ عقيدة التوحيد بأنواعه .

المبحث الثاني : التحذير من الشرك وما يضادّ التوحيد .

المبحث الثالث : الدعوة إلىٰ أركان الإيمان .

المبحث الرابع : الدعوة إلىٰ الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة .

الفصل الأول : الدعوة إلىٰ عقيدة التوحيد من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

التوحيد هو الأساس الذي من أجله خلق الله الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وهو الأصل الذي قامت عليه الدعوة وبدأت به، وأرسل الله تعالىٰ الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لتكون دعوتهم إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، أي: قلنا للجميع لا إله إلا الله، فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له، والنقل عن جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ موجود، والدليل إما معقول وإما منقول، وقال قتادة: لم يرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك علىٰ الإخلاص والتوحيد»(١).

والتوحيد هو الذي من أجله أنزل الله تعالىٰ الكتب، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١-٢].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا، عن عظمته وجلالته واشتماله علىٰ كمال الحكمة، وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: لأجل إخلاص

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٨٠).

الدين كله لله ، وأن لا يشرك به أحد من خلقه »[١] .

وكما أنَّ التوحيد هو أول ما أُمر الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بالدعوة إليه ، فهو أول ما أمر النبي ﷺ الدعاة من بعده أن يدعو إليه ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا : أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمَّا بعثَ مُعاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ اليمنِ ، قال : « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمِ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ ولَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوالِهِمْ وتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ ، فَإِذَا أَطَاعُوا بهَا ، فَخُذْ مِنْهُمْ وتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوالِ النَّاسِ »[٢] .

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقـًا علىٰ هذا الحديث وأهمية البداءة بالشهادتين في الدعوة : « ووقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما ، فمن كان منهم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين علىٰ التعيين ، ومن كان موحدا فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة ، وإن كانوا يعتقدون ما يقتضي الإشراك أو يستلزمه كمن يقول ببنوة عزير أو يعتقد التشبيه فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفي ما يلزم من عقائدهم »[٣] .

وسار علىٰ هذه الأَوَّلِيَّة في الدعوة دعاة الإسلام في كل زمان ، يدعون إلىٰ التوحيد ، ويحذرون من كل ما ينافيه ، ومن أولئك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد كانت الدعوة في مجال العقيدة بارزةً بجلاء في جميع كتبه ، وفي تفسيره علىٰ وجه الخصوص ، بل أحْسِب أن تفسيره هو أوسع التفاسير في الدعوة إلىٰ موضوعات العقيدة ومعالجة القضايا المتعلقة بالتوحيد ، ولقد برز هذا الجانب

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٣٧٦) .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

(٣) « فتح الباري » (٣/ ٣٥٨) .

في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بشكل قلَّ نظيره ، فقد كان في تفسيره يذكر ما تدل عليه الآيات من موضوعات عقدية سواء كان بدلالة المطابقة أو دلالة الالتزام أو دلالة التضمن ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في تفسير سورة الفاتحة حيث قال :

« في هذه السورة العظيمة سورة الفاتحة- التي سماها رسول الله ﷺ أم الكتاب ، وأم القرآن دليل علىٰ مضمون ما جاء به القرآن ؛ فهي أمٌّ وفاتحة ؛ لأنها تشتمل علىٰ أنواع التوحيد ، وتشتمل علىٰ الإشارة إلىٰ الشرائع ، وتشتمل علىٰ الإشارة إلىٰ الرسل والملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وعلىٰ اليوم الآخر ، وعلىٰ أقسام الناس ؛ فكل معاني القرآن تتضمنها هذه السورة ، بالإشارة والدلالة التضمنية والالتزامية :

ففيها من توحيد الألوهية قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة :٢] ؛ فإن الله هو ذو الألوهية علىٰ خلقه أجمعين .

وفيها من توحيد الربوبية قوله : ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ والربوبية تكون عامة وتكون خاصة ، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالىٰ : ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[الأعراف :١٢١-١٢٢] ؛ فربوبية الله تعالىٰ لموسىٰ وهارون) ، وأمثالهما من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ليست كربوبيته لفرعون وهامان وقارون ؛ لأن ربوبيته لموسىٰ وهارون) ، وأمثالهما من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ربوبية خاصة ، بها عناية وتوفيق لأمر لم يُوفَّق له أكثر الخلق .

أما الأسماء والصفات ففيها أي سورة الفاتحة- الألوهية والرحمة والوصف بالحمد والثناء ، كل هذا من أجل كمال صفات الله عَزَّوَجَلَّ .

أما اليوم الآخر ففي قوله : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة :٤] .

وأما العبادة والاستعانة ففي قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة :٥] ، وهي تشمل جميع الشريعة من أقوال وأفعال واعتقادات ؛ إما شيء يُطلب إيجاده ، وإما شيء يُطلب اجتنابه ، وكلها داخلة ضمن قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسۡتَعِينُ ﴾؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يدع شيئاً إلا بمعونة الله ، ولا يقوم بشيء إلا بمعونة الله .

وأما الإيمان بالملائكة؛ فإنه يؤخذ من قوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة :٧] ؛ لأن الذين أنعم الله عليهم هم الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ، والواسطة بين الله وبين رسله هو جبريل (لأنه موكل بالوحي ، ثم إن صراط هؤلاء الذين أنعم الله عليهم متضمن للإيمان بالملائكة .

وأما الإيمان بالقدر فيؤخذ من قوله : ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ؛ لأن مقتضىٰ الربوبية أن يكون كل شيء بتقديره ، وقضائه ، وقدره .

وأما أقسام الناس فيما أوحىٰ الله إلىٰ رسله فقد تضمنها قوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1] .

هذا وغيره مما سيأتي في المضامين الدعوية يبيِّن أهمية العقيدة والدعوة إليها ، وجعل موضوعها أول ما يُدعىٰ إليه ، ويُهتمّ به ، ويُحذَّر مما ينافيه من الشرك بأنواعه ، وسيأتي في المباحث القادمة تفصيل وبيان لما يتعلَّق بالدعوة إلىٰ العقيدة .



(١) انظر : « أحكام من القرآن » (١ / ٣٩) .



المبحث الأول : الدعوة إلىٰ عقيدة التوحيد بأنواعه

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره أنواع التوحيد وما يتعلق بها والدعوة إليها في مواضع عدة ، وأنواع التوحيد كما يلي :

النوع الأول : توحيد الربوبيَّة :

جاء في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ توحيد الربوبيَّة وما يتعلَّق به في آيات عديدة ، واشتمل تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ تعريف لتوحيد الربوبية وتأصيل وتقعيد .

- المضامين الدعوية في توحيد الربوبيَّة :

أولاً : عرَّف الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ توحيد الربوبيَّة بقوله : « هو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالخلْقِ ، والملْكِ ، والتدبير »[١] .

وقال في موضع آخر : « وأما الإيمان بربوبيَّته : فهو الإيمان بأنه وحده الخالق لهذا الكَوْنِ المالكُ له المدبِّر له »[٢] .

ثانيـًا : هذا النوع من التوحيد لم تنكره طائفة معروفة من بني آدم ، جميع الطوائف استجابت لدعوة توحيد الربوبيَّة[٣] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ بل كانوا مُقرِّين به ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن

---

(١) « القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد » لشيخنا ابن عثيمين (١ / ١٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٨٣) ، وعرَّف توحيد الربوبية في « تفسير سورة الحديد »(٣٩٦) ، بقوله : « الإيمان بربوبيته ، أي أنه وحده الخالق المالك المدبر لجميع الأمور ، فلا خالق إلا الله ، ولا مدبر للكون إلا الله ، ولا مالك للكون إلا الله عَزَّوَجَلَّ » .

(٣) انظر : « مجموع الفتاوي » لابن تيمية (٣ / ٩٦) .

سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف :٩] . فهم يقرون بأن الله هو الذي يدبر الأمر ، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، ولم ينكره أحد معلوم من بني آدم ، فلم يقل أحد من المخلوقين : إن للعالم خالقين متساويين ، فلم يجحد أحد توحيد الربوبية ، لا علىٰ سبيل التعطيل ولا علىٰ سبيل التشريك ، إلا ما حصل من فرعون ؛ فإنه أنكره علىٰ سبيل التعطيل مكابرة ، فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده ، قال تعالىٰ حكاية عنه : ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات :٢٤] ، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص :٣٨] ، وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الربَّ غيره ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : من الآية١٤] ، وقال تعالىٰ حكاية عن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يناظره : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الاسراء : من الآية١٠٢] فهو في نفسه مُقرٌّ بأن الربَّ هو الله عَزَّوَجَلَّ .

وأنكر توحيد الربوبية علىٰ سبيل التشريك المجوس ، حيث قالوا : إن للعالم خالقين هما الظلمة والنور ، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين . فهم يقولون : إن النور خير من الظلمة؟ لأنه يخلق الخير ، والظلمة تخلق الشر ، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر ، وأيضـًا : فإن الظلمة عدم لا يضيء ، والنور وجود يضيء ، فهو أكمل في ذاته ، ويقولون أيضا بفرق ثالث ، وهو : أن النور قديم علىٰ اصطلاح الفلاسفة ، واختلفوا في الظلمة : هل هي قديمة ، أو محدثة ؛ علىٰ قولين »[1] .

ثالثـًا : استدل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتوحيد الربوبيَّة بأدلة متنوعة ، فقال مستدلاً علىٰ وجود الله تعالىٰ بالشرع والحسِّ ، والعقل ، والفطرة ، ثم بيَّن أن هذه أدلة علىٰ ربوبيَّة

---

(١) « القول المفيد » (١ / ٨-١١) ، وانظر : « تفسير سورة الأنعام »(١٣٠) ، و« تفسير سورة ص »(٢٣ ، ٧٨) .

الله تعالىٰ أيضـًا ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة :١٧٧] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أما الإيمان بوجوده : فإنه دل عليه الشرع ، والحس ، والعقل ، والفطرة :

أ- **دلالة الشرع** علىٰ وجوده سبحانه وتعالىٰ واضحة من إرسال الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وإنزال الكتب .

ب- **دلالة الحس** : فإن الله سبحانه وتعالىٰ يدعىٰ ، ويجيب ؛ وهذا دليل حسي علىٰ وجوده تبارك وتعالىٰ- كما في سورة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وغيرها من إجابة دعوة الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فور دعائهم ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ [الأنبياء : ٧٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤] .

ج- **دلالة العقل** : أنّ ما من حادث إلا وله مُحْدِث ، كما قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[الطور : ٣٥] ؛ هذا الكون العظيم بما فيه من النظام ، والتغيرات ، والأحداث لا بد أن يكون له موجِد مُحدِث يُحدث هذه الأشياء وهو الله عَزَّوَجَلَّ ؛ إذ لا يمكن أن تَحدث بنفسها ؛ لأنها قبل الوجود عدم ؛ والعدم كاسمه لا وجود له ؛ ولا يمكن أن يحدثها مخلوق لِما فيها من العِظَمْ والعِبَر .

د- **دلالة الفطرة** : فإن الإنسان لو تُرك وفطرته لكان مؤمنـًا بالله ؛ والدليل علىٰ هذا قوله تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء : ٤٤] ؛ حتىٰ غير الإنسان مفطور علىٰ معرفة الرب عَزَّوَجَلَّ .

وأما الإيمان بربوبيته : فهو الإيمان بأنه وحده الخالق لهذا الكون المالك له المدبر له ؛ وقد دل عليه ما سبق من الأدلة علىٰ وجوده »[١] .

رابعـًا : الاستجابة لدعوة توحيد الربوبيّة والإقرار بها لا يكفي في تصحيح العقيدة ودخول الإسلام ، بل صاحبه وإن أقرَّ بالربوبيّة فهو باقٍ علىٰ كفره حتىٰ يستجيب لدعوة توحيد الألوهية كما سيأتي .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الإقرار بالربوبية لا يُخرج الإنسان من الكفر إذا كان لم يقرّ بتوحيد الألوهية ؛ لأن هؤلاء أي المشركين- مُقرُّون بالربوبيَّة ، وأن الله هو الخالق الرازق والمنفرد بالخلق والرزق ، لكنهم يشركون به في العبادة ، يعبدون معه غيره ، فلم يدخلهم ذلك في الإسلام »[٢] .

خامسـًا : الربوبيَّة علىٰ قسمين : ربوبيَّة خاصة وربوبيَّة عامة ، وأورد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذين القسمين في أكثر من موضع في تفسيره ، حيث قال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ : « ومن فوائدها : إثبات الربوبية الخاصة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ ؛ واعلم أن ربوبية الله تعالىٰ تنقسم إلىٰ قسمين : عامة ؛ وخاصة ؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق ، وتقتضي التصرف المطلق في العباد ؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له ، وتقتضي عناية خاصة ؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالىٰ : ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف : ١٢١ ، ١٢٢] : فالأولىٰ ربوبية عامة ؛ والثانية خاصة بموسىٰ ، وهارون) »[٣] .

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٨٢-٢٨٣) .

(٢) « تفسير سورة ص »(٧٨) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(١ / ٩٩) ، وانظر : « تفسير سورة يس » (٩٢ ، ١٦٥ ، ٢٠٩) .

سادسًا : ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من المسائل والضوابط المتعلقة بتوحيد الربوبيّة يحسُن بالدعاة معرفتها وتعليمها الناس ، ومن ذلك :

- إضافة الربوبيَّة إلىٰ شخص معيَّن تعني أن الربوبيَّة ربوبيَّة خاصة .

قال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [الذاريات :٣٠-٣١] : « ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ حيث أضاف الربوبية هنا إلىٰ هذه المرأة العجوز العقيم الكبيرة ، إشارة إلىٰ أن هذا من عناية الله بها ؛ لأن إضافة الربوبية إلىٰ الشخص المعين تكون ربوبية خاصة ، والربوبية العامة لكل أحد »[1] .

- ربوبيَّة الله تعالىٰ مبنيَّة علىٰ الرحمة الواسعة الواصلة للخلق .

قال في تفسير سورة الفاتحة : « ومن فوائدها : أن ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ مبنية علىٰ الرحمة الواسعة للخلق الواصلة ؛ لأنه تعالىٰ لما قال : ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كأن سائلاً يسأل : « ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ ، وانتقام ؛ أو ربوبية رحمة ، وإنعام؟ « قال تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ »[2] .

- من أعظم أنواع التوسل إلىٰ الله تعالىٰ التوسل بربوبيَّته ، وهو توسل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ .

- كل ما يتعلق بأفعال الربّ هو من مقتضيات الربوبيَّة .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[البقرة :٢٦٠] : « من فوائد الآية : أن التوسل إلىٰ الله بربوبيته من آداب الدعاء التي يتوسل بها الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿رَبِّ﴾؛ لأن إجابة

---

(١) تفسير سورة الذاريات ، ضمن « تفسير الحجرات إلىٰ الحديد »(١٣٨) .

(٢) « تفسير سورة الفاتحة والبقرة »(١ / ١١) .

الدعاء من مقتضيات الربوبية ؛ إذ إنه فعل ؛ وكل ما يتعلق بأفعال الرب فهو من مقتضيات الربوبية ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر يمد يديه إلىٰ السماء : « يقول : يا رَبِّ! يا رَبِّ! »[(١)] ؛ ولو تأملت أكثر أدعية القرآن لوجدتها مصدرة بـ « الرب » ؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية »[(٢)] .

- جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضىٰ الربوبيَّة .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة :١٤٢] .

« ومن فوائد الآية : جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضىٰ الربوبية لإسكات الناس حتىٰ لا يحصل منازعة ؛ إذا قال أحد : لماذا كذا؟ قلت : الله ربك يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ؛ لماذا أحل كذا ، وحرم كذا؟ تقول : لأنه ربك ؛ لماذا توجه الناس من المشرق إلىٰ المغرب ؛ من المغرب إلىٰ المشرق ؛ من بيت المقدس إلىٰ الكعبة؟ » قلت : لأن ذلك بمقتضىٰ ربوبية الله : ﴿قُل لِّلَّهِ

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١٥) ، ولفظه : عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا ، وإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ ، فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون :٥١] ، و قال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة :١٧٢] ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، ومَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وغُذِيَ بالحَرَامِ ، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ »

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٠٢-٣٠٣) ، وقال في موضع آخر : « ينبغي للإنسان أن يتوسل في الدعاء بالوصف المناسب ، مثل الربوبية التي بها الخلق ، والتدبير ؛ ولهذا كان أكثر الأدعية في القرآن مصدرة بوصف الربوبية ، مثل : « ربنا » ، ومثل : « ربِّ »اهـ « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٤٥٧) .

﴿ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ »(١) .

- النظر في مقام الربوبيَّة يختلف عن النظر في مقام الألوهية

قال في تفسير آية الدَّيْن : « ومن فوائد الآية : أنه يجب على هذا الذي اؤتمن ألا يغتر بثقة الناس به ، فيفرط فيما يجب عليه من أداء الأمانة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ ؛ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يتقي الله : قال تعالى : ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ ، وأردفها بقوله تعالى : ﴿رَبَّهُۥ﴾ ؛ فيه فائدة وهي أن الإنسان في هذه المقامات ينظر إلى مقام الربوبية كما ينظر إلى مقام الألوهية ؛ فبنظره إلى مقام الألوهية يفعل هذا تعبداً لله سبحانه وتعالى ، وتقرباً له ؛ وبنظره إلى مقام الربوبية يحذر المخالفة ؛ لأن الرب هو الذي له الخلق ، والملك ، والتدبير ؛ فلا بد أن يقرن الإنسان بين مقام الألوهية ، ومقام الربوبية »(٢) .

وهذه المضامين الدعويَّة في توحيد الربوبيَّة تبيِّن أهمية توحيد الربوبيَّة في حياة المسلم وعقيدته ؛ لأن إفراده الله تعالى بالخلق والملك والتدبير ، يقوده لتعظيم الله جل وعلا -وعبوديته ، ولِعِظَم هذا النوع من التوحيد جاءت سائر الدلالات مثبتةً له شرعـًا وحسًّـا وعقلاً وفطرةً ، وعلى العبد أن يسعى لتحقيق الربوبيَّة الخاصة فبها تتحقق الرعاية والحفظ والولاية والعناية الخاصة للعبد ، وهو ما ينشده العبد في هذه الحياة ، ولن يكون كذلك حتى يُخَلِّص اعتقاده من كل شائبة ، ويحقق كمال التوحيد لله تعالى .

وعلى العبد داعية أو مدعوًّا- أن يتعرَّض لرحمات الله تعالى ، فإن ربوبيَّته جل وعلا مبنية على الرحمة الواسعة ولقوة هذا المعنى في ربوبيَّة الله تعالى أثبته جل

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ١٠٧) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٤٠٢) .

وعلا في أعظم سورة من كتابه جل وعلا، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وذِكْرُ الرحمة بعد الربوبيَّة دلالة واضحة لاشتمال الربوبية عليها.

ومن خلال المضامين السابقة تبيَّن أن الربوبية هي أعظم توسُّلٍ توسَّلَ به الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وللعبد لا سيما الداعية في دعوته- في الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أعظم أسوة حيث كان توسلهم بربوبيَّة الله تعالىٰ ملازمًا لهم في دعوة أقوامهم إلىٰ الله تعالىٰ.

والدعوة إلىٰ توحيد الربوبيَّة دعوة لها مستلزماتها، فلا يمكن أن تصحَّ عقيدة مسلم إلا بالإيمان بما يستلزمها من توحيد الألوهية والأسماء والصفات كما سيأتي.

النوع الثاني: توحيد الألوهيَّة:

توحيد الألوهية هو مِفتاح دعوة الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ومَقصد رسالتهم، ومَحَطُّ اهتمامهم الأوَّل، ومَحَكُّ الخلاف بينهم وبين أُممهم، ومن تتبُّع قَصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في القرآن بانت له هذه الدعوة من التوحيد؛ فقد زاغت كثير من الطوائف بعد دعوة رسلهم لتوحيد الألوهية، وقد تكرَّرت علىٰ لسان الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كلمةُ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، كما أنَّ الله سبحانه- جعل الدعوة لتوحيد الألوهية هي رسالة كلِّ الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكذا رسالة نبيِّنا محمدٍ ﷺ فقد كانت الدعوةُ إلىٰ التوحيد وعبادة الله أوَّلَ ما بدأ به ﷺ وبَقِي ثلاثة عشر عامًا في مكَّةَ لا هَمَّ له بالليل أو النهار إلاَّ غَرْسُ

توحيد الألوهية في القلوب ، وإخلاص العبادة لله وحْده ؛ امتثالاً لأمْر الله ، كما قال سبحانه عن نبيِّه : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر : ١١] .

وحينما بَعث ﷺ أصحابَه إلىٰ البلاد مُعلِّمين ودُعاةً إلىٰ الله تعالىٰ ، كان أوَّل وأهمُّ ما أمرَهم به هو الحِرصَ علىٰ دعوة الناس إلىٰ توحيد الألوهية الذي هو توحيد العبادة ؛ ففي قصة بَعْث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن قال النبي ﷺ : « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّه »(١) ، ولـمَّا نزل به مرض الموت ﷺ كان من أهمِّ ما يَشغله صيانةُ جانب التوحيد ، وسدُّ الذرائع المؤدية إلىٰ الشِّرك ، عن عَائِشَةَ ، وعبد اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ ، قَالاَ : « لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وجْهِهِ ، فَقَالَ وهُو كَذَلِكَ : « لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا »(٢) .

- **المضامين الدعوية في توحيد الألوهية :**

أولاً : عرَّف الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ توحيد الألوهية بقوله : « وأما الإيمان بألوهيته : فهو الإيمان بأنه لا إله في الوجود حق إلا الله عَزَّوَجَلَّ وكل ما سواه من الآلهة باطلة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج : ٦٢] ، فالله سبحانه وتعالىٰ هو الإله الحق »(٣) .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥) ، ومسلم (٥٣١) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٨٣) ، وعرَّفه في « تفسير سورة الحديد » (٣٩٦) بقوله : « الألوهية : هي أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله ، أي : لا معبود بحق إلا الله عَزَّوَجَلَّ وعبادة الأصنام غير حق ، كما قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ إذن=

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ذكر توحيد الألوهية وما يتعلق به من مسائل في مواضع كثيرة كما سيأتي- وما ذاك إلا لأهمية هذا النوع من التوحيد ؛ ذلك أن كثيراً من الطوائف اليوم إنما زاغوا عنه ، ووقعوا فيما ينافيه من حيث لا يشعرون ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لآية الكرسي : « وتوحيد الألوهية أخلَّ به كثير من الناس اليوم ، فتجدُ الرجل يقول : إنه مسلم ، وتجده يصلي ، ويصوم ، ويحج ويعتمر ، لكن لا يُقبل منه ؛ لأنه مشرك ، ولهذا لا يغفر الله الشرك إلا بتوبة ، ولا يقبل الله عملاً مع الشرك إلا بتوبةٍ من الشرك »[1] .

ثانيـًا : قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنـًا أهمية توحيد الألوهية والدعوة إليه : « ومن العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون علىٰ توحيد الربوبية ، وكأنما يخاطبون أقواما ينكرون وجود الرب وإن كان يوجد من ينكر الرب- لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة!!

ولهذا ينبغي أن يركز علىٰ هذا النوع من التوحيد ؛ حتىٰ نخرج إليه هؤلاء المسلمين الذين يقولون بأنهم مسلمون ، وهم مشركون ولا يعلمون »[2] .

ثالثـًا : ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره أركان توحيد الألوهية ، وأن له ركنين أساسيين هما : النفي والإثبات ، فلا يتم الإيمان بتوحيد الألوهية إلا بهذين الركنين اللذين اشتملت عليهما كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس :٦٠] : « التوحيد مبني علىٰ نفي

الألوهية أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله ، أي لا معبود حق إلا الله عَزَّوَجَلَّ وما عبد من دونه فهو باطل ، وعليه فلا تصرف العبادة إلا لله » ا.هـ .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٥٠) .

(٢) « القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد » (١ / ١٦) .

وإثبات ؛ لأن النفي المجرد تعطيل محض وعدم ، والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة ... التوحيد لابد له من هذين الأمرين : النفي ، والإثبات ، ولكن بماذا يبدأ؟ يبدأ أولاً بالنفي ليَرِدَ الإثبات علىٰ مكان خالٍ من الشوائب ، خالص صالح لاستقرار الإثبات فيه ، ولهذا يُبدأ بالنفي ثم بالإثبات وهذا في القرآن الكريم كثير ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزُّخرُف :٢٦-٢٧] ، فتبرأ أولاً من كل معبود ، ثم أثبت العبادة لله وحده الذي فطره »[1] .

رابعـًا : ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من المسائل والضوابط المتعلقة بتوحيد الألوهية والدعوة إليه ينبغي للدعاة التنبه لها والدعوة إليها ، ومن ذلك ما يلي :

- توحيد الألوهية هو توحيد العبادة

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « العبادة والألوهية معناهما واحد ؛ لكن العبادة باعتبار العابد ؛ والألوهية باعتبار المعبود ؛ ولهذا كان أهل العلم يسمون التوحيد توحيد العبادة ؛ وبعضهم يقول : توحيد الألوهية »[2] .

---

(١) « تفسير سورة يس »(٢١٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ٨٠) ، وذكر هذا التقرير أيضـًا في « تفسير سورة يس »(٧٥) ، كما ذكره بشيء من التفصيل في « القول المفيد » (١ / ١٤-١٥) حيث قال : « القسم الثاني : توحيد الألوهية :

ويقال له : توحيد العبادة باعتبارين ؛ فباعتبار إضافته إلىٰ الله يسمىٰ : توحيد الألوهية ، وباعتبار إضافته إلىٰ الخلق يسمىٰ توحيد العبادة . وهو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة . فالمستحق للعبادة هو الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [لقمان : من الآية٣٠] ، والعبادة تطلق علىٰ شيئين :

الأول : التعبد بمعنىٰ التذلل لله عَزَّوَجَلَّ بفعل أوامره واجتناب نواهيه ؛ محبة وتعظيما .

الثاني : المتعبد به ؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : اسم جامع لكل ما يحبه=

- **التفسير الصحيح لمعنىٰ لا إله إلا الله :**

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة :١٦٣] : « وقوله تعالىٰ : ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود حق إلا هو ؛ وعلىٰ هذا تكون (لا) نافية للجنس ؛ وخبرها محذوف ؛ والتقدير : لا إله حق إلا هو ؛ وإنما قدرنا « حق » ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾[الحج : ٦٢] ؛ ولهذا قال الله تعالىٰ عن هذه الآلهة : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : ٢٣] ؛ وقد زعم بعضهم أن تقدير الخبر « موجود » ؛ وهذا غلط واضح ؛ لأنه يختل به المعنىٰ اختلالاً كبيراً من وجهين :

الوجه الأول : أن هناك آلهة موجودة سوىٰ الله ؛ لكنها باطلة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [الحج : ٦٢] ، وكما قال تعالىٰ : ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾[هود : ١٠١] ، وكما قال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

الوجه الثاني : أنه يقتضي أن الآلهة المعبودة من دون الله هي الله ، ولا يخفىٰ فساد هذا ؛ وعليه فيتعين أن يكون التقدير : « لا إله حق » ، كما فسرناه »[1] .

= الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

مثال ذلك : الصلاة ؛ ففعلها عبادة ، وهو التعبد . ونفس الصلاة عبادة ، وهو المتعبد به .

فإفراد الله بهذا التوحيد : أن تكون عبدا لله وحده تفرده بالتذلل ؛ محبة وتعظيماً » اهـ ، وانظر قول شيخ الإسلام ابن تيمية في « العبودية » (٤٤) .

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٠٧) .

وقد ردَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ قول من يقول أن معنىٰ لا إله إلا الله هو : « إخراج اليقين الصادق عن ذات الأشياء ، وإدخال اليقين الصادق علىٰ ذات الله » ، فقال : « هذا التفسير باطل لم يعرفه السلف الصالح ، وليس المراد به أن تتيقن بالله عَزَّوَجَلَّ وتخرج اليقين من غيره لأن هذا لا يمكن فإن=

وقد ردَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ المتكلمين وبيَّن فساد تفسيرهم لكلمة التوحيد موضحـاً ما وقعوا فيه من خلل في ذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[ص :١٦] ، حيث قال : « ومن فوائد الآية : بطلان ما ذهب إليه كثير من المتكلمين في تفسير التوحيد ، حيث قالوا في تفسير التوحيد : « أن تؤمن بأن الله واحد في ذاته لا قسيم له ، واحد في أفعاله لا شريك له ، واحد في صفاته لا شبيه له » ، فإن هذا لم يتعرضوا فيه لذكر الألوهية إطلاقـاً ، قالوا : إن الله واحد في ذاته لا قسيم له ... إلخ هذا هو التوحيد عند عامة المتكلمين ، ولاشك أن هذا التوحيد لم يدخل فيه توحيد الألوهية الذي جاءت الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بتحقيقه وإثباته والقتال عليه ، لم يقولوا واحد في ألوهيته لا يُعبد غيره ، أسقطوا هذا نهائيـاً ، ولاشك أن هذا قول باطل في أن هذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، بل هذا من التوحيد الذي دعت إليه الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وليس هو التوحيد كله ، بل فيه أيضـاً إجمال في قولهم : واحد في صفاته لا شبيه له »[1] .

ـ توحيد الربوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة متلازمان :

فمن آمن بتوحيد الربوبيَّة لزمه أن يؤمن بتوحيد الألوهيَّة ، ولذا استدل أهل العلم علىٰ المشركين الذين لم يستجيبوا لدعوة توحيد الألوهيَّة بإيمانهم بتوحيد الربوبيَّة ، فإن آمنوا وإلا فإن إيمانهم بالربوبيَّة دون الألوهية إيمان متناقض ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى

= اليقين ثابت في غير الله ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [سورة التكاثر ، الآيتان ٦ ، ٧] . وتيقن الأشياء الواقعة الحسية المعلومة لا ينافي التوحيد »اهـ « شرح كشف الشبهات » لشيخنا ابن عثيمين (٣٢) ، وانظر : « مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ ابن عثيمين » (١ / ٨٣) .

(١) « تفسير سورة ص »(٧٨-٧٩) .

﴿خَلَقَكُمْ﴾[البقرة :٢١] : « الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم للإقرار بتوحيد الألوهية ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[1] ، ويقول في فوائد قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات :٤ – ٥] : « ومن فوائدها : التلازم بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، فإن قوله : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ، بعد قوله : ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ ، كالدليل علىٰ توحُّده بالألوهية ، وذلك أنه إذا كان متوحداً بالربوبية لزم أن يكون متوحداً في الألوهية ، كما قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[البقرة :٢١] ، فكيف تعبدون غيره ممن لم يخلقكم ولا خلق أحداً؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾[الحج :٧٣] .

ولهذا قال أهل العلم : من أقرَّ بتوحيد الربوبية لزمه أن يُقرَّ بتوحيد الألوهية وإلا كان متناقضاً ؛ لأنه يقال له : كيف تقرُّ بأن الله وحده هو الرب الخالق ثم تعبد معه من لا يخلق؟ وهل هذا إلا تناقض؟!

وهذه الآية وما شابهها من آيات الكتاب العزيز تدل علىٰ التلازم بين توحيد الألوهية والربوبية ، ووجه ذلك أنه يلزمه أن يُقرَّ بتوحيد الألوهية ولكن كيف تلزمه؟ لأنه إذا قال : إن الله سبحانه وتعالىٰ واحد في الخلق فيجب ألا يعبد غيره »[2] .

– أقسام العبودية والفرق بينهما :

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قسمي العبودية والفرق بينهما فقال : « تنقسم إلىٰ عبودية عامة ، كما في قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[مريم : ٩٣] ؛ وخاصة كما في قوله تعالىٰ : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(١ / ٧٣) .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (٢٣) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة »(٣ / ٤٣٠) .

عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان : ١] ؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني ؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي ؛ وعلىٰ هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة ؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة ، والخاصة »[1] .

وفي تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مضامين كثيرة في توحيد الألوهية ، وما تقدَّم نماذج علىٰ أهم ما يتعلَّق بتوحيد الألوهية الذي هو أصل دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وهو الفاصل بين أهل الحق والباطل عند جميع الملل ، وهو التوحيد الذي ذكر الله تعالىٰ من أجله قصص دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والأمم السابقة ، وزلَّت دونه ملل الشرك ، وقاتل من أجله المؤمنون الصادقون ، ولئن كانت الحكمة من وجود البشرية علىٰ هذه الأرض هو إقامة العبودية لله تعالىٰ ، فإن توحيد الألوهية هو توحيد العبادة فهو المقصود بعمارة الأرض ، ولا يتمُّ التوحيد الخالص لله تعالىٰ إلا بنفي العبودية عن كل معبود والكفر بكل طاغوت ، مع إثبات العبودية لله تعالىٰ وحده لا شريك له ، والزلل في توحيد الألوهية زللٌ يوقع المرء في أوحال الشرك والشرك أعظم الظلم ، ومن لا يعرف الشرك يقع فيه لا محالة ؛ ولذا خافه الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والصالحون علىٰ أنفسهم وذرياتهم وأقوامهم ، بدءاً من إمام الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، قال الله تعالىٰ عنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم :٣٥] ، وقال تعالىٰ عن لقمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان :١٣] ، والحذر من منافاة توحيد الألوهية هي وصية الله تعالىٰ للأولين والآخرين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزُّمَر :٦٥] ، نسأل الله تعالىٰ أن يعيذنا من الشرك وغوائله ، وأن يحفظ علينا التوحيد الخالص لله تعالىٰ .

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٠٠) .

النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات :

الإيمان بأسماء الله تعالىٰ وصفاته ركن من أركان التوحيد الذي لا يتحقق إلا به[١] ، بل الإيمان بكتاب الله لا يتحقَّق إلاَّ بالإيمان بالأسماء والصِّفات ؛)لأنَّ القرآن المجيد عُمْدته ومقصوده الإخْبار عن صفات الرَّبِّ سبحانه- وأسمائه وأفعاله وأنواع حمدِه والثَّناء عليه ، والإنباء عن عظمتِه وعزَّته وحكمتِه ، وأنواع صنعه والتقدُّم إلىٰ عباده بأمرِه ونَهْيه علىٰ ألسِنة رسله)[٢] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أهمية توحيد الأسماء والصفات : « والقُرآن فيه مِن ذِكْر أسماء الله وصفاته وأفعاله أكثرُ ممَّا فيه من ذكر الأكْل والشُّرب والنكاح في الجنَّة ، والآيات المتضمِّنة لذكر أسماء الله وصفاته أعظم قدرًا من آيات المعاد ، فأعظم آيةٍ في القرآن آيةُ الكرسي المتضمِّنة لذلك ، وأفضل سورة سورة أمّ القرآن ، وفيها مِن ذكر أسماء الله وصفاته أعظم ممَّا فيها من ذكر المعاد »[٣].

ولقد اعتنىٰ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتقرير توحيد الأسماء والصفات والدعوة إليه والرد علىٰ المخالفين فيه ، ويظهر هذا بجلاء في تفسيره علىٰ وجه الخصوص ؛ لكثرة التأويل في أسماء الله تعالىٰ وصفاته عند المفسِّرين ، مما جعله يقرر مذهب أهل السنة والجماعة في مواطن كثيرة من تفسيره ويبيِّن بطلان تأويل بعض المفسرين ويردُّ عليهم ، بالإضافة إلىٰ تنكُّبِ البعض من المسلمين في هذا النوع من التوحيد عن سواء الصراط ، الأمر الذي جعل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يهتم به وببيان مذهب أهل السنة والجماعة ، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وهذا القسم من التوحيد هو

---

(١) انظر « تفسير سورة الصافات »(١٦) .

(٢) « طريق الهجرتين وباب السعادتين » لابن القيم (١٤٥) .

(٣) « درء تعارض العقل والنقل » لابن تيمية (٥ / ٣١٠) .

الذي ضلت فيه بعض الأمة الإسلامية ، وانقسموا فيه إلىٰ فرق كثيرة »[١]

ويقول أيضـًا في موضع آخر : « لكن الذي كثر فيه النزاع بين أهل القبلة هو : القسم الثالث وهو توحيد الأسماء والصفات ، هذا هو الذي كثر فيه الخوض ، فانقسم الناس فيه إلىٰ ثلاثة أقسام ، وهم : مُمَثِّلْ ، ومُعَطِّلْ ، ومُعْتَدِلْ ، والمُعَطِّلُ : إما مُكَذِّبٌ أوْ مُحَرِّف »[٢] .

- المضامين الدعوية في توحيد الأسماء والصفات :

أولاً : عرَّف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ توحيد الأسماء والصفات مبيِّنـًا ركني هذا التوحيد فقال : « هو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بما له من الأسماء والصفات ، وهذا يتضمَّن شيئين :

الأول : الإثبات ، وذلك بأن نثبت لله عَزَّوَجَلَّ جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو سنة نبيه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم .

الثاني : نفي المماثلة ، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلا في أسمائه وصفاته ، كما قال تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ : ١١] »[٣] .

ثانيـًا : قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان حقيقة الإيمان بالأسماء والصفات : « وأما الإيمان بأسمائه ، وصفاته : فهو الإيمان بما أثبته الله سبحانه وتعالىٰ لنفسه ، أو أثبتته له رسله من الأسماء والصفات إثباتـًا بلا تمثيل ، وتنزيهـًا بلا تعطيل علىٰ حد قوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ؛ ودليل ذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف : ١٨٠] ؛ ... وقوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل : ٦٠] ووجه الدلالة : تقديم الخبر

---

(١) « القول المفيد » (١ / ١٧) .

(٢) « شرح العقيدة الواسطية » لشيخنا ابن عثيمين (٢٩) .

(٣) « القول المفيد » (١ / ١٦) ، وانظر : « فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية » (٣ / ٣ ، ٧٤) .

في الآيتين ؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر »(١) .

ثالثًا : ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره جملة من المسائل والقواعد المتعلقة بتوحيد الأسماء والصفات التي تهم الداعية والمدعو ، ومن ذلك :

- باب الصفات كالأسماء الأصل فيه التوقيف ، يجب تلقيه من كتاب الله وصحيح سنة رسوله ﷺ ليس للعقول مدخل في تفصيله .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أسماء الله عَزَّوَجَلَّ توقيفية ، فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص ، فإذا سميت الله بما لم يسم به نفسه ، فقد ألحدت وملت عن الواجب ، وتسمية الله بما لم يسم به نفسه سوء أدب مع الله وظلم وعدوان في حقه ، لأنه لو أن أحداً دعاك بغير اسمك أو سماك بغير اسمك ، لاعتبرته قد اعتدىٰ عليك وظلمك هذا في المخلوق ، فكيف بالخالق؟!

إذاً ، ليس لك حق أن تسمي الله بما لم يسم به نفسه ، فإن فعلت ، فأنت ملحد في أسماء الله »(٢) .

وقال أيضـًا : « إذا قال قائل : هل الصفات توقيفية كالأسماء ، أو هي اجتهادية ، لمعنىٰ أن يصح لنا أن نصف الله سبحانه وتعالىٰ بشيء لم يصف به نفسه .

فالجواب أن نقول : إن الصفات توقيفية علىٰ المشهور عند أهل العلم ، كالأسماء ، فلا تصف الله إلا بما وصف به نفسه »(٣) .

وقرَّر هذا المعنىٰ في تفسيره أثناء الكلام علىٰ أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ الواردة في الآيات في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله : « أما القول علىٰ

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٨٣) .

(٢) « شرح العقيدة الواسطية »(١٢٠) .

(٣) المرجع السابق (١٤٢) .

الله في أسمائه : فيشمل أن يُثبت الإنسان لله أسماءً لم يُسمِّ بها نفسه »(١) .

وقال أيضـاً : « وإذا لم يضف الله شيئـاً إلىٰ نفسه حرم أن نضيفه إليه ؛ لأنا لو أضفناه إليه وهو لم يضف إليه لكنا نقول علىٰ الله بلا علم »(٢) .

وقال أيضـاً : « هاهنا شيئان : الأول : ما يتعلق بذات الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته ، والثاني : ما يتعلق بمخلوقاته ، وكلاهما لا نعلمه إلا بما علَّمناه عَزَّوَجَلَّ ولذلك يجب علينا الكفُّ عن الكلام في ذات الله تعالىٰ وصفاته إلا ما وصل إلينا علمه »(٣) .

- الإسم المتعدي لا يتم الإيمان به إلا بإثباته إسمـاً من أسماء الله تعالىٰ ، وإثبات ما تضمنه من صفة ، وإثبات الأثر المترتب عليه .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل :١١٥] : « من فوائد الآية : إثبات اسمين من أسماء الله ؛ وهما « الغفور » و « الرحيم » ، وما تضمناه من صفة .

- ومنها : إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالىٰ المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها ؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم ، والصفة ، والأثر الذي هو الحكم المترتب عليه- والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية ثبوت الأثر وهو الحكم - لأنه لكونه غفوراً رحيمـاً غفر لمن تناول هذه الميتة لضرورته ، ورحمه بحلها ؛ فيكون في هذا دليل واضح علىٰ أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تدل علىٰ « الذات » الذي هو المسمىٰ ؛ و« الصفة » ؛

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم »(١ / ٤٤١) ، وانظر : « تفسير سورة الحديد » (٣٩٤-٣٩٨) .

(٢) « تفسير سورة يس »(٢٦٥) .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم »(٢ / ٢٥٢) .

و « الحكم » ، كما قال بذلك أهل العلم[١] رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ »[٢] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[يس :٣٨]، ذكر من فوائدها : « إثبات اسمين من أسماء الله وهما : ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ ، ويؤخذ منهما أيضاً : إثبات صفتين تتضمنهما وهما العزة والعلم ، ويؤخذ منهما أيضاً : إثبات الأثر ، أو الحكم وهو أنه غالب لكل أحد ، وعليم بكل شيء »[٣] ، وهذه القاعدة عمل بها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواطن عدة في تفسيره[٤] .

- صفات الله تعالىٰ تُثبَتُ علىٰ حقيقتها بإجماع السلف

الله تعالىٰ له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ التي نثبتها علىٰ حقيقتها من غير تحريف ، ومن غير تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل كما هي طريقة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وقد أجمعوا علىٰ هذه الطريقة .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وأجمع سلف الأمة وأئمتها علىٰ أن الرب تعالىٰ بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شيء »[٥] .

---

(١) انظر : « مجموع الفتاوىٰ » لابن تيمية (١٣ / ٣٣٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٥٩) .

(٣) « تفسير سورة يس »(١٤٠) .

(٤) انظر فقط في : « تفسير سورة البقرة »(١ / ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٩٠) و (٢ / ١٥ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ١٢١ ، ١٩٨ ، ٣١١ ، ٤٣١) و(٣ / ١١ ، ٩٢ ، ١٨٨ ، ٣٠٧ ، ٣٥٠) وغيرها كثير .

(٥) « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان »(١٢٣) ، وقال في الصفدية : « ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله سبحانه وتعالىٰ بما وصف به نفسه وبما وصفه=

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ والكلام علىٰ صفة الرضا: «فالرضا من صفات الله عَزَّوَجَلَّ التي يثبتها أهل السنة والجماعة علىٰ وجه الحقيقة، يقولون: إن الله يرضىٰ ويكره ويغضب، ورضاه من صفات كماله عَزَّوَجَلَّ، وهو سبب للثواب، إذا رضي الله عن العبد أثابه، وحمل أهل التعطيل الرضوان علىٰ أنه الثواب، وقالوا: إنه مجاز عن الثواب عُبِّر به لأنه سببه، فهو من التعبير عن بالسبب عن المسبب، فيقال: ما المانع أن نثبت الرضا لله عَزَّوَجَلَّ، وقد أثبت الله لنفسه الرضا في القرآن، وأثبته النبي ﷺ في السنة «إِنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثًا»[1]

والنصوص في هذا كثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة، وطريق إجماعهم أنه لم يرد عنهم ما يخالف ذلك وهم يقرؤون الكتاب والسنة ولم يرد عن واحد منهم أنه فسَّر الرضا بالثواب، وهذا طريق ينبغي أن يتفطن له الإنسان؛ لأنه قد يقول قائل: ما الدليل علىٰ أن السلف أجمعوا علىٰ أن الرضا علىٰ معناه الحقيقي؟ نقول: الدليل هو أنهم يتلون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بهذا اللفظ،

= به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل يثبتون له الأسماء والصفات وينفون عنه مماثلة المخلوقات إثبات بلا كمثيل وتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورىٰ: ١١]» (١/ ١٠٣)، وانظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية» (٢/ ١٤٢) و (٣/ ١٧).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنه سبحانه مستو علىٰ عرشه وفوق جميع خلقه كما أخبر في كتابه وعلىٰ ألسنة رسله ﷺ من غير تشبيه ولا تعطيل، ولا تحريف ولا تأويل، وكذلك كل ما جاء من الصفات نمره كما جاء من غير مزيد عليه، ونقتدي في ذلك بعلماء السلف الصالح رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ونسكت عما سكتوا عنه ونتأول ما تأولوا وهم القدوة في هذا الباب». «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (٢/ ١٧٦)، وانظر له: «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٢/ ٤٢٦).

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥).

ولم يرد عنهم حرف واحد يدل علىٰ أنه غير مراد »[١] .

- باب الأخبار عن الله تعالىٰ أوسع من باب الصفات ، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة :١٤٣] ، من فوائدها : « إثبات اسمين من أسماء الله ، وهما (الرؤوف) و(الرحيم) ، وإثبات ما تضمَّناه من صفة ؛ فإن كل اسم من أسماء الله ، فإنه متضمن لصفة من صفاته ، ولهذا نقول : الصفات أوسع من الأسماء ؛ لأن كل اسم من أسماء الله متضمن لصفة من صفاته ، وليس كل صفة من صفات الله يُشتق له منها اسم ، فباب الصفات أوسع من باب الأسماء ، وباب الأخبار عن الله أوسع من باب الصفات أيضـًا ؛ فالأسماء والصفات أخبار ، فمثلاً : الاسم يتضمن الصفة ، والصفة لا يُشتق منها الاسم ، والأخبار يُخبر بها عن الله بالشيء الذي لا يمكن أن يُوصف به ، فتقول مثلاً : إن الله شيء ، لكن لا تَصِفُه بذلك ؛ قال الله تبارك وتعالىٰ- : ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾[الأنعام :١٩] »[٢] .

- أقسام المضاف إلىٰ الله تعالىٰ ومتىٰ يكون صفة من صفاته .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة :١١٤] ، من فوائد الآية : « شرف المساجد ؛ لإضافتها إلىٰ الله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ والمضاف إلىٰ الله ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام : إما أن يكون أوصافـًا ؛ أو أعيانـًا ؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة ؛ فإذا كان المضاف إلىٰ الله

---

(١) « تفسير سورة المائدة »(١ / ٢٨-٢٩) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم »(١ / ٣٨٥) .

وصفاً فهو من صفاته غير مخلوق ، مثل كلام الله ، وعلم الله ؛ وإذا كان المضاف إلىٰ الله عيناً قائمة بنفسها فهو مخلوق وليس من صفاته ، مثل مساجد الله ، وناقة الله ، وبيت الله ؛ فهذه أعيان قائمة بنفسها إضافتها إلىٰ الله من باب إضافة المخلوق لخالقه علىٰ وجه التشريف ؛ ولا شيء من المخلوقات يضاف إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلا لسبب خاص به ؛ ولولا هذا السبب ما خُصَّ بالإضافة ؛ وإذا كان المضاف إلىٰ الله ما يتعلق بأعيان مخلوقة فهو أيضاً مخلوق ؛ وهذا مثل قوله تعالىٰ : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر : ٢٩] ؛ فإن الروح هنا مخلوقة ؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة »[١] .

- كل صفة مُرَتَّبة علىٰ سبب فهي من الصفات الفعلية ؛ لأنها توجد بوجود هذا السبب وتنتفي بانتفائه .

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه القاعدة في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء :٩٣] ، قال من فوائدها : « إثبات الغضب لله عَزَّوَجَلَّ ، والغضب صفة من الصفات الفعلية التي تقع بمشيئة الله تعالىٰ ، وكل صفة مرتبة علىٰ سبب فهي من الصفات الفعلية ؛ لأنها توجد بوجود ذلك السبب وتنتفي بانتفائه »[٢] .

وقال في موضع آخر : « كل صفة لله تكون لسبب فهي من الصفات الفعلية »[٣] .

-كل ما نفاه الله تعالىٰ عن نفسه من الصفات فلا يُراد به مجرَّد النفي وإنما إثبات كمال ضدِّه .

وهذه القاعدة قررها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أكثر من موطن في تفسيره ، ومن ذلك

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٨-٩) .

(٢) « تفسير سورة النساء »(٢ / ٨٦-٨٧) .

(٣) « تفسير سورة المائدة »(١ / ٢٩) .

قوله : « صفات الله تعالىٰ ثبوتية ، ومنفية ؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالىٰ ؛ وإنما النفي الواقع في صفاته لبيان كمال ضد ذلك المنفي ؛ ففي قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] إثبات كمال العدل مع نفي الظلم عنه ؛ وفي قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨] إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه ؛ وعلىٰ هذا فقس ؛ فالضابط في الصفات التي نفاها الله تعالىٰ عن نفسه أنها تدل علىٰ نفي تلك الصفة ، وعلىٰ ثبوت كمال ضدها »(١) .

وقال أيضـًا في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥] : « ومن فوائدها إثبات الصفات المنفيَّة في صفات الله عَزَّوَجَلَّ بمعنىٰ أن الله موصوف بالإثبات وموصوف بالنفي ، في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، لكن ليُعْلَم أن الصفات المنفية عن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُراد بها مجرد النفي ؛ وإنما يُراد بها بيان كمال ضدها ؛ فإذا قال : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، كان دالًّا علىٰ كمال علمه ، وكمال مراقبته لعباده عَزَّوَجَلَّ وأنه ليس بغافل عنهم »(٢) .

وقال أيضـًا : « وكل ما نفاه الله عن نفسه ، فالمراد به نفي ما نفاه مع إثبات ما

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(١ / ٢٧٩) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم »(١ / ٢٤٢) ، وقال أيضـًا في الفوائد عند تفسيره لآية الكرسي : « إثبات الصفات التي يُسمونها الصفات السلبية ، يعني : المنفيَّة ؛ لقوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، ومعنىٰ إثباتها : أن الله يُوصف بالنَّفي كما يوصف بالإثبات ، ولكن يجب أن نعلم أن النفي الذي يتصف الله به ، إنما يُنْفَىٰ عنه لكمال ضدِّه ، فمثلاً : إذا قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ، فالمعنىٰ : أنه لا يظلم لكمال عدله ، لا لأنه عاجزٌ عن الظلم ، لو شاء الظلم ، لكن لكمال عدله لا يظلم ، ولهذا جاء في الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرمـًا فلا تظالموا » ، كذلك حين يقول هنا : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، هل المراد نفي النوم عن الله عَزَّوَجَلَّ والسِّنة التي هي النعاس؟ أو المراد لكمال حياته وقيوميَّته لا تأخذه سنة ولا نوم عَزَّوَجَلَّ؟ الثاني هو المتعيِّن ؛ يعني : أنه لكمال حياته وقيُّوميِّته لا تأخذه سنة ولا نوم عَزَّوَجَلَّ » . « أحكام من القرآن الكريم »(٢ / ٢٥١) .

تضمَّنه من كمال الصفة التي هي ضد ذلك النفي ، فلم يَنْفِ عن نفسه الظلم إلا لكمال عدله ، ولا العجز إلا لكمال علمه وقدرته ، ولا الغفلة عن أعمال العباد إلا لكمال علمه ومراقبته ، وهلمَّ جرًّا »(١) .

- **التلازم بين أنواع التوحيد الثلاثة الربوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصفات .**

فلا يكمل إيمان عبد وتوحيده إلا بالإيمان بها جميعـًا ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة :٢٨٣] : « ومن فوائد الآية : إثبات ما دلّ عليه هذان الاسمان ؛ وهما « الله » ، و « الرب » ؛ فالأول فيه إثبات الألوهية ؛ والثاني فيه إثبات الربوبية ؛ لأن المعبود لابد أن يكون أهلاً للعبادة ؛ والرب لابد أن يكون أهلاً للربوبية ؛ ولا يتحقق ذلك إلا بكمال الصفات ؛ ولهذا نقول : توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ؛ والتوحيدان يستلزمان كمال الأسماء ، والصفات ؛ ولهذا قال إبراهيم ﷺ لأبيه : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم :٤٢] »(٢) .

وفي موضع آخر قال : « فمن لم يؤمن بوجود الله فهو ليس بمؤمن ، ومن آمن بوجوده ولم يؤمن بربوبيته علىٰ وجه عام شامل ، فهو لم يؤمن بالله . ومن آمن بالله وربوبيَّته ولكن لم يؤمن بالألوهية فليس بمؤمن ، ومن آمن بذلك كله ولم يؤمن بأسمائه وصفاته فليس بمؤمن ، لكن الأخير فيه تفصيل ، قد يخرج من الإيمان بالكلية ، وقد لا يخرج »(٣) .

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٩١) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣ / ٤٣٠) .

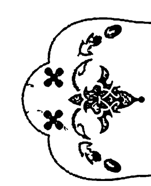
(٣) « تفسير سورة آل عمران »(١ / ٤٨٣) ، وقال في موضع آخر : « الذين يؤمنون بوجود الله ، وربوبيته ، وألوهيته لكن في الأسماء والصفات لا يؤمنون -إما أن ينكروا الأسماء ، والصفات ؛ وإما أن ينكروا الأسماء دون الصفات ؛ وإما أن ينكروا بعض الصفات هؤلاء لم يؤمنوا بالله حق=

هذه المضامين الدعوية في توحيد الأسماء والصفات اشتملت علىٰ أصول لابد للعبد من فقهها واعتقادها ، وما ضَلَّ مَنْ ضَلَّ من أهل البدع والمذاهب المنحرفة إلا بعدما خاضوا في هذا الباب وأدخلوا فيه ما ليس منه ، وأمسكوا عما فيه مما أثبته الله تعالىٰ لنفسه ، وتقدَّم في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يشير إلىٰ أن عقيدة الأسماء والصفات تسلتزم إثباتا ونفيا ، إثبات ما أثبته الله تعالىٰ في كتابه أو سنة نبيه ﷺ من الأسماء والصفات علىٰ حقيقته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، ونفي ما نفاه عن نفسه جل وعلا من الصفات وإثبات كمال ضدها له جلَّ وعلا- وفي الخوض في هذين الأصلين جارت كثير من الفرق الضالة عن الصواب المراد ، وإن من قواعد الاعتقاد بالأسماء والصفات أن الأصل في هذا الباب هو التوقيف ، وليس للعقل فيه أي اجتهاد .

ولقد تعددت مذاهب الفرق المنحرفة وتباينت في بعدها عن الصواب بقدر بعدها عن الإيمان بهذا الأصل العظيم توحيد الأسماء والصفات بما جاء في الكتاب والسنة ، وحينما أرخىٰ كثير منهم لعقله أن يستحسن ما استحسنه في هذا الباب جار عن الحق الذي أراده الله تعالىٰ في هذا التوحيد ، والذي لا يكمل إيمان عبد وتوحيده إلا به ، فتوحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات أنواع متلازمة لابد من الإيمان بها جميعا .



= الإيمان ، وإيمانهم ناقص » . « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٨٩) .

المبحث الثاني : التحذير من الشرك وما يضادّ التوحيد

إن الغاية التي خلق الله من أجلها الخلق هي إفراده جلَّ وعلا- بالعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات :٥٦] ، وإن أظلم الظلم أن يشرك العبد مع الله غيره بعد أن خلقه واصطفاه ، وسخر له المخلوقات ، وأرسل إليه الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وأنزل عليه الكتب ، وإن من شفقة الدعاة علىٰ عباد الله اهتمامهم بهذا الشأن بتحذير الناس من الوقوع في أعظم الظلم وهو الشرك ، ودعوتهم إلىٰ التوحيد الخالص السالم من كل شائبة .

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يقول تعالىٰ مخبرا عن وصية لقمان لولده ... وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا ، ثم قال محذرا له : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان :١٣] ،أي : هو أعظم الظلم »(١) .

ولقد أنزل القرآن العظيم وفيه أعظم رسالة وهي الدعوة للتوحيد والتحذير من الشرك ، وفيه تحذير المشركين من شركهم ؛ ليأخذ بأيديهم إلىٰ التوحيد والهداية والنجاة ، ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الذاريات :٥٠-٥١] ، وكل رسول كان يأمر بالتوحيد ، ويحذِّر من الشرك وأن يُعدَل بالله تعالىٰ مخلوقاته ، فكل رسول يقول لقومه : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء :٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ

(١) تفسير القرآن العظيم » (٦ / ٣٣٦) .

أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل :٣٦] .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالىٰ مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده فإنه لم يعدل أحد بالله شيئًا من المخلوقات في جميع الأمور فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك »(١) .

ولم يقتصر التحذير من الشرك علىٰ الكفار فقط ؛ بل حذَّر الله المؤمنين منه ، وأمرهم بالإيمان مع إيمانهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء :١٣٦] .

ولعظيم أمر الشرك ، لا يكتفي القرآن بتحذير المشركين والمؤمنين منه ؛ بل يحذِّر الله الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من الوقوع في الشرك ، وهم معصومون منه : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾[الحج :٢٦] .

وبعد أن ذكر الله تعالىٰ جملة من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في كتابه قال : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام :٨٨] ؛ ذلك أن الله تعالىٰ تولىٰ قلوبهم فهداها لسواء الصراط وجعلها مشغولة بتبليغ رسالة التوحيد والتحذير من غوائل الشرك .

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام :٨٨] ، أي : إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام :٨٨] ، تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملابسته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزُّمَر :٦٥] ، وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع ، كقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ

(١) « الاستقامة » (١/ ٣٤٤) .

فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[الزُّخرُف :٨١] »(١) .

وهذا إمام الحنفاء إبراهيم (يخبر الله تعالىٰ عنه فيقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[إبراهيم :٣٥] . إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي كسر الأصنام بيده ، وتبرأ من قومه من أجل تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك ، فجعله الله تعالىٰ أسوة للموحدين فقال تعالىٰ : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة :٤] ، وقد أخبر الله تعالىٰ أنه أمة وحده ، ونفىٰ عنه الشرك : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل :١٢٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[البقرة :١٣٥] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومن فوائد الآية : أن الشرك ممتنع في حق الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾»(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة :١٣٣] : « من فوائد الآية : أن التوحيد وصية الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾ [البقرة :١٣٣] ... ومن فوائدها : أهمية التوحيد ، والعناية به ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ »(٣) .

إن الاهتمام بشأن التوحيد والتحذير من الشرك كان ظاهرا في تفسير الشيخ

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٢٩٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ٨٥) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ٧٩) .

ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ولقد احتوىٰ علىٰ مضامين عدَّة في هذا الباب .

- **المضامين الدعوية في التحذير من الشرك :**

الجانب الأول : التحذير من شأن الشرك عمومًا وبيان خطره وعاقبته ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لسورة (ق) : « الشرك أمره عظيم ، وخطره جسيم ، حتىٰ الرجل إذا تصدق بدرهم وهو يلاحظ لعل الناس يرونه ليمدحوه ويقولون : إنه رجل كريم . يعتبر مشركًا مرائيًا ، والرياء شرك ، وأخوف ما خاف النبي ﷺ علىٰ أمته الشرك الخفي ، وهو الرياء[١] »[٢] .

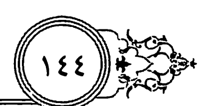
وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أهمية التوحيد والحذر من الشرك : « (علم التوحيد) أشرف العلوم ، وأجلها قدرا ، وأوجبها مطلبا ؛ لأنه العلم بالله تعالىٰ ، وأسمائه ، وصفاته ، وحقوقه علىٰ عباده ؛ ولأنه مفتاح الطريق إلىٰ الله تعالىٰ ، وأساس شرائعه ؛ ولذا أجمعت الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ علىٰ الدعوة إليه ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء :٢٥] .

وشهد لنفسه تعالىٰ بالوحدانية ، وشهد بها له ملائكته ، وأهل العلم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران :١٨] ، ولما كان هذا شأن التوحيد ، كان لزاما علىٰ كل مسلم أن يعتني به تعلما ، وتعليما ، وتدبرا ، واعتقادا ، ليبني دينه علىٰ أساس

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٧ / ٣٥٤) (١١٢٥٢) ، وابن ماجه (٤٢٠٤) من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، مرفوعًا بلفظ : « ألا أُخْبِرُكُمْ بمَا هُو أَخْوفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ » قال : قُلْنَا : بَلَىٰ ، فقال : « الشِّرْكُ الخَفِيُّ ، أنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي ، فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ ، لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » (١ / ٥٠٩) .

(٢) « تفسير سورة ق » (١٠٢) .



سليم، واطمئنان، وتسليم يسعد بثمراته، ونتائجه»[١].

الجانب الثاني: في التحذير من أنواع الشرك وبيانها، وما يضاد التوحيد، ففي تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اهتمام بالغ في التحذير من أنواع الشرك حيث ذكر جملة من أنواع الشرك وحذّر منها، ومن ذلك:

أولاً: التحذير من الشرك بدعاء غير الله تعالىٰ.

قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: ١٨]: «﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود حق إلا هو عَزَّوَجَلَّ فكل المعبودات من دونه فهي باطلة، قال الله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢]، فمن دعا ملكا من الملائكة، أو رسولا من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، أو نبيا من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، أو صديقا من الصديقين، أو شهيد من الشهداء، أو وليًّا من الأولياء، أو صالحـًا من الصلحاء، فقد أشرك بالله؛ لأنه جعل الله إلهـًا آخر، وتعلَّق بباطل لا ينفعه، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[سبأ: ٢٢-٢٣]»[٢].

ثانيـًا: دعاء الموتىٰ لجلب النَّفع أو دفع الضُّر.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ

(١) «مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين» (٥/ ٩٩)، وانظر تفسير الآية في «تفسير سورة آل عمران» (١/ ١٢٢).

(٢) «أحكام من القرآن الكريم» (٢/ ٤٣١).

أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧].

« ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: أن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يلجأون إلا لله سبحانه وتعالى وإذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لا ملجأ لهم إلا الله؛ فما بالك بمن دونهم؟! ويتفرع عن هذا قطع الشرك الذي يقع فيه كثير من الناس، حينما يلتجئون إلى الموتى من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، أو ممن يزعموهم أولياء، يلتجئون إليهم، ويستعيذون بهم، ويستعينون بهم؛ فإن الاستعاذة بغير الله عَزَّوَجَلَّ في أمر لا يقدر عليه المستعاذ به من الشرك، وكذلك الاستغاثة بغير الله في أمر لا يقدر عليه المستغاث به هو من الشرك أيضا »[1].

ثالثًا: بناء القبور في المساجد وسيلة من وسائل الشرك.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[البقرة:١١٤]: « ومن فوائد الآية: أنه لا يجوز أن يوضع في المساجد ما يكون سببًا للشرك؛ لأن (مساجد الله) معناها موضع السجود له؛ فإذا وضع فيها ما يكون سببًا للشرك فقد خرجت عن موضوعها، مثل أن نقبر فيها الموتى؛ فهذا محرم؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك »[2].

وقال في تفسير سورة الكهف: « قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ ﴾ [الكهف:٢١]، وهم أمراؤهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾، بدل من أن نبني بنيانًا نحوطهم به ونسترهم به ولا يكون لهم أثر أي لنجعلن عليهم مسجداً نتخذه مصلى، والظاهر أنهم فعلوا لأن القائل هم الأمراء الذين لهم الغلبة.

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٠٦).

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٩).

هذا الفعل، اتخاذ المساجد على القبور، من وسائل الشرك وقد جاءت شريعتنا بمحاربته حتى أن النبي ﷺ قال وهو في سياق الموت: « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يُحذِّر ما صنعوا[١] »[٢].

رابعًا: اتخاذ الأنداد لله تعالى.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]: « ومن فوائد الآية: تحريم اتخاذ الأنداد لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾؛ وهل الأنداد شرك أكبر، أو شرك أصغر؛ وهل هي شرك جلي، أو شرك خفي؛ هذا له تفصيل في علم التوحيد؛ خلاصته: إن اتخذ الأنداد في العبادة، أو جعلها شريكة لله في الخلق، والملك، والتدبير فهو شرك أكبر؛ وإن كان دون ذلك فهو شرك أصغر، كقول الرجل لصاحبه: « ما شاء الله وشئت »[٣].

خامسًا: الاستعانة بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (١ / ٣٧٧) برقم (٥٣١) من حديث عائشة، وعبد اللَّه بن عبَّاسٍ ي، قَالاَ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ه طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بهَا كَشَفَهَا عن وجْهِهِ، فَقال وهُو كَذَلِكَ: « لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا.

(٢) « تفسير سورة الكهف »(٤١).

(٣) « تفسير سورة البقرة »(١ / ٧٩).

قادراً عليها ؛ وأما إذا لم يكن قادراً فإنه لا يجوز أن تستعين به : كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام ؛ بل شرك أكبر ؛ لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئًا ؛ فكيف يعينه! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه ، مثل أن يعتقد أن الوليّ الذي في شرق الدنيا يعينه علىٰ مهمته في بلده ، فهذا أيضـًا شرك أكبر ؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك »[١] .

سادسـًا : الاستغاثة بغير الله تعالىٰ فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالىٰ .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة :١٦٦] : « ومن فوائد الآية : أن من استغاث بالرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، أو غيرهم من المخلوقات فيما لا يقدر عليه إلا الله ، فقد ضل في دينه ، وسفه في عقله ، وأتىٰ الشرك الأكبر »[٢] .

ومواضع التحذير من الشرك وما يتعلق به ووسائله في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عديدة مما يدل علىٰ اهتمامه ببيان خطورة هذا الأمر الذي يُذهب برأس الدين وهو التوحيد ، وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرا يؤكد علىٰ تزكية النفس وتطهيرها من الشرك ، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[الأعلىٰ :١٤] : « إذن ﴿تَزَكَّىٰ﴾ ، يعني تطهر ظاهره وباطنه ، يتزكىٰ أولاً من الشرك بالنسبة لمعاملة الله ، فيعبد الله مخلصـًا له الدين ، لا يرائي ، ولا يسمع ، ولا يطلب جاهـًا ، ولا رئاسة فيما يتعبد به الله عَزَّوَجَلَّ ، وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة . تزكىٰ في اتباع الرسول ﷺ بحيث لا يبتدع في شريعته لا بقليل ولا كثير ، لا في الاعتقاد ، ولا في الأقوال ولا في الأفعال ، وهذا أعني التزكي بالنسبة للرسول ﷺ ، وهو اتباعه من غير ابتداع لا ينطبق تمامـًا إلا علىٰ الطريقة السلفية طريقة أهل السنة

---

(١) « تفسير جزء عم »(١٩) ، وذكر نحواً من هذا في « تفسير سورة البقرة »(١ / ١٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٣٠) .

والجماعة »[١] .

وقال في تفسير سورة الشمس : « ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾[الشمس :٩] ، أي : من زكىٰ نفسه ، وليس المراد بالتزكية هنا التزكية المنهي عنها في قوله : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[النجم :٣٢] ، المراد بالتزكية هنا : أن يزكي نفسه بإخلاصها من الشرك وشوائب المعاصي[٢] .

ومن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صلاح القلب وسلامته بالتوحيد والبعد عن الشرك وشوائبه ، ما ذكره في تفسير سورة الطارق حيث قال : « الإيمان إذا وقر في القلب حمل الإنسان علىٰ العمل ، لكن العمل الظاهر قد لا يحمل الإنسان علىٰ إصلاح قلبه ، فعلينا أن نعتني بقلوبنا وأعمالها ، وعقائدها ، واتجاهاتها ، وإصلاحها وتخليصها من شوائب الشرك والبدع ، والحقد والبغضاء ، وكراهة ما أنزل الله علىٰ رسوله وكراهة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ، وغير ذلك مما يجب تنزيه القلب عنه »[٣] .

والتحذير من الشرك وأنواعه سار عليه علماء الإسلام اقتداء بالأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ إلىٰ عصرنا الحاضر ، ولقد كانت دعوة الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ كما ذكرها الله تعالىٰ في كتابه إنما هي لإنقاذ الأمم من غوائل الشرك ودقائقه التي ربما لا يشعر بها العبد ، وكثير من الناس يظن أن الشرك إنما هو في قوم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وفي الأمم السابقة وما علم أن سريان الشرك إلىٰ القلوب التي لم تتشبث بالتوحيد الخالص سريع وخفي[٤] ، ولذا خافه الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ علىٰ أنفسهم وذرياتهم وأقوامهم ،

---

(١) « تفسير جزء عم » سوة الأعلىٰ (١٦٧) .

(٢) « تفسير جزء عم » سورة الشمس (٢٢٣) .

(٣) « تفسير جزء عم » سورة الطارق (١٥٠) .

(٤) انظر : « مدارج السالكين » لابن القيم (١ / ٣٥١) ، وانظر : « الشرك في القديم والحديث »

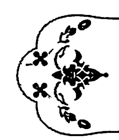
ولا زالت الأمة تحارب الشرك وأهله حتىٰ قيام الساعة ، وعيش الإنسان في هذه الحياة وابتلاؤه حتىٰ يفارقها إنما هو من أجل إقامة التوحيد الخالص والهرب من الشرك ولو دقَّ ؛ حتىٰ تقوم العبودية الخالصة لله تعالىٰ ، ولقد امتلأت كتب العلماء في بيان الشرك وأنواعه ، ومنها تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما تقدَّم ، وما هذه المضامين إلا دعوة للعبد أن يفقه عقيدته ، ويؤمن بها كما أراد الله تعالىٰ ، ويتفحصها ويراقبها ألا تزيغ عن الصواب ويقع في فتنة الشرك الذي هو أعظم الظلم وأرداه .



لأبي بكر محمد زكريا (٢ / ٦٤٧) .



المبحث الثالث : الدعوة إلىٰ أركان الإيمان



الإيمان هو أصل الدين ، وبه يخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور ، ويُفَرَّق بين السعداء والأشقياء ؛ ولذا تكرر في القرآن والسنة أكثر من سائر الألفاظ ، وجاء بيانه وما يتعلق به أعظم بيان وأوضحه ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : « فالنبي ﷺ قد بين المراد بلفظ الإيمان- بيانا لا يحتاج معه إلىٰ الاستدلال علىٰ ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك ؛ فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلىٰ بيان الله ورسوله فإنه شاف كاف ؛ بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنىٰ الإيمان علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول »[1] .

ولقد اعتنىٰ العلماء ببيان معنىٰ الإيمان وتوضيح متعلقاته أيُّما عناية في كتبهم ، ومن ذلك ما جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ .

- المضامين الدعوية المتعلِّقة بالإيمان وأركانه .

الجانب الأول : معنىٰ الإيمان وما يتعلَّق به .

أولاً : معنىٰ الإيمان :

لقد عرَّف أهل السنة والجماعة الإيمان بأنه قول وعمل ، قول القلب وقول اللسان وعمل القلب وعمل الجوارح ، وقد حكىٰ غير واحد منهم الإجماع علىٰ ذلك كابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ في « التمهيد » وغيره[2] .

---

(١) « مجموع الفتاوىٰ » (٧/ ٢٨٧) .

(٢) « التمهيد » (٩/ ٢٤٣) .

وانظر : « مجموع الفتاوىٰ » لابن تيمية (٧/ ٣٠٨ ، ١٢/ ٤٧٢) و« تفسير القرآن العظيم »=

وقد تلقىٰ أهل السنة هذا التعريف بالقبول والتسليم ؛ اتباعـًا لنصوص الكتاب والسنة الصحيحة الدالة علىٰ أن الإيمان تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح .

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أما الإيمان في اللغة فيطلق علىٰ التصديق المحض ، وقد يستعمل في القرآن ، والمراد به ذلك ، كما قال تعالىٰ : ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[التوبة :٦١] ، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[يوسف :١٧] ، وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال ؛ كقوله : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ، فأما إذا استعمل مطلقا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا ، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة ، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعـًا : أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص »[(١)] .

ولقد حرَّر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ الإيمان وأنه لا يُكتفىٰ بالمعنىٰ اللغوي وهو التصديق ، فقال عند تفسيره قوله تعالىٰ : ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[البقرة :١٢٦] ، قال : « والإيمان في اللغة : التصديق ؛ وفي الشرع : التصديق المستلزم للقبول ، والإذعان »[(٢)] .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[النساء :١٦٢] .

= لابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١ / ١٦٥) و« فتح الباري » لابن حجر (١ / ٤٧) و« شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » للالكائي (١ / ١٩٧) و« شرح السنة » للبغوي (١ / ٣٨) .

(١) « تفسير القرآن العظيم » (١ / ١٦٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٥٢) .

« قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[النساء:١٦٢]، الإيمان بالله ليس هو التصديق فقط؛ لأن مجرد التصديق لا يُسمىٰ إيمانـًا، ولهذا لم يكن أبوطالب مؤمنـًا مع كونه مصدقـًا للرسول (بل الإيمان هو: الإقرار التام المستلزم للقبول والإذعان، فلابد من إقرار القلب الإقرار التام، ولا بد من قبول ما جاءت به الشريعة، ولابد من الإذعان حتىٰ يتم الإيمان »(١).

وبيَّن أن مجرد التصديق لا يكفي لصحة الإيمان وتحقيقه، فقال في تفسير قوله تعالىٰ: قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة:٢٥]: « قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله؛ وقد بيَّن الرسول ﷺ أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان »(٢).

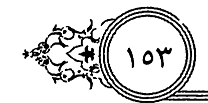
ثانيـًا: يرىٰ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ دخول الأعمال في مسمىٰ الإيمان:

من المسائل التي قررها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتباعـًا لعلماء السلف وبيان منهجهم دخول الأعمال في مسمىٰ الإيمان، ومن ذلك قوله عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[المائدة:٥]، ذكر من فوائدها: « أن

---

(١) « تفسير سورة النساء »(٢/ ٤٧١)، وكرَّر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التَّنبيه في أكثر من موضع في تفسيره، انظر مثلاً: « تفسير سورة البقرة »(٢/ ٨٦) و (٣/ ٣٠)، و (٣/ ٦٢)، و« تفسير جزء عم » سورة الإنشقاق (١٢١).

(٢) « تفسير سورة البقرة »(١/ ٩٠)، وانظر مزيداً في معنىٰ الإيمان: « نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف » لمحمد الوهيبي(٣١) و« نواقض الإيمان القولية والعملية » لعبدالعزيز العبداللطيف (١٤).



الأعمال داخلة في الإيمان ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ ، والمذكور في هذه الآية أعمال ، فدل ذلك علىٰ أن الأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان ، وهذا هو ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة ، أن الأعمال من الإيمان ، وله دليل من الكتاب والسنة ، دليله من القرآن قال الله تبارك وتعالىٰ حين ذكر توجيه الناس إلىٰ المسجد الحرام بعد أن كانوا يتجهون إلىٰ بيت المقدس : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾[البقرة :١٤٣] ، قال المفسرون : أي صلاتكم إلىٰ بيت المقدس .

وأما من السنة فقال النبي ﷺ : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » هذا قولٌ ، « وأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ » وهذا فعلٌ ، « والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ »[١] ، وهذا انفعال النفس من أثر القلب وهو من أعمال القلوب ، فدل هذا علىٰ أن الأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان ، لكن إذا قُرنت الأعمال بالإيمان صارت الأعمال علانية والإيمان في القلب ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة : ٢٧٧] »[٢] .

وأراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا بيان منهج السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وتقرير معتقدهم والردّ علىٰ من خالفهم ، وهم المرجئة الذين يرون أن الإيمان هو التصديق ، وأن الأعمال غير داخلة في مسمىٰ الإيمان ، وقد ردَّ عليهم علماء الإسلام ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وذكر أدلة أهل السنة والجماعة علىٰ أن العمل داخل في مسمىٰ الإيمان ، ووضح منهج أهل السنة والجماعة والرد علىٰ مخالفيهم بجلاء وتفصيل[٣] .

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥) .

(٢) « تفسير سورة المائدة »(١ / ٨٣) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة »(٢ / ١٢١) عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ .

(٣) انظر : « مجموع الفتاوىٰ »(٧ / ٢٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٦٩ ، ٤٤٠ ، ٥٥١ ، ٥٦٣) و(١٠ / ٤٣٩) .

ثالثاً : زيادة الإيمان ونقصانه .

وهذه من مسائل الإيمان التي ذكرها شيخنا ونصرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ففي تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ [البقرة :٢١٧] .

قال : « ومن فوائد الآية : تفاوت الذنوب ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ؛ وبتفاوت الذنوب يتفاوت الإيمان ؛ لأنه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر ، كما قال النبي ﷺ : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهُو مُؤْمِنٌ »[1] ؛ فيكون في ذلك رد علىٰ من أنكروا زيادة الإيمان ، ونقصانه ؛ وللناس في ذلك ثلاثة أقوال ؛ منهم من قال : إن الإيمان يزيد ، وينقص ؛ ومنهم من قال : إن الإيمان لا يزيد ، ولا ينقص ؛ ومنهم من قال : إن الإيمان يزيد ، ولا ينقص ؛ وبحث ذلك علىٰ وجه التفصيل ، والترجيح في كتب العقائد ؛ والراجح أن الإيمان يزيد ، وينقص »[2] .

وقال في موضع آخر أكثر بياناً للزيادة والنقصان في الإيمان مستنداً إلىٰ أدلة الكتاب والسنة النبوية : « إثبات زيادة الإيمان في القلب ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ [البقرة :٢٦٠] ؛ ففيه رد علىٰ من قال : إن الإيمان لا يزيد ، ولا ينقص ؛ ولا ريب أن هذا القول ضعيف ؛ لأن الواقع يكذبه ؛ والنصوص تكذبه أيضاً : ففي القرآن قال الله تعالىٰ : ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٤] ؛ وفي السُّنة : « مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ ودِينٍ أذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣ / ٥٨-٥٩) .

إِحْدَاكُنَّ »[١] ؛ فالإيمان يزيد كمية ، وكيفية ؛ فمثال زيادة الكمية : أن الذي يسبح عشراً أزيد إيماناً من الذي يسبح خمساً ؛ والذي يصلي عشر ركعات أزيد إيماناً من الذي يصلي ستاً ؛ وأما زيادة الكيفية فمثالها : رجل صلىٰ ركعتين بطمأنينة ، وخشوع ، وتأمل فإيمانه أزيد ممن صلاهما بسرعة ؛ كذلك يزداد الإيمان بحسب إقرار القلب : كلما كثرت الآيات لدىٰ الإنسان فلا شك أن إيمانه يزداد قوة ، ورسوخاً ؛ اقرأ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ [الحج : ١١] أي علىٰ طرف ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١] : هذا إيمانه ضعيف مهزوز : إن لم تأته فتنة فهو مستقر ، وإن أتته فتنة شبهة ، أو شهوة- انقلب علىٰ وجهه »[٢] .

الجانب الثاني : بيانه لأركان الإيمان علىٰ وجه التفصيل في تفسيره .

وكما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ معنىٰ الإيمان وحرَّره ، وبيَّن المقصود به وما يتعلَّق به ، فقد ذكر أركان الإيمان وما يتعلَّق بها علىٰ وجه التفصيل ، وهي كما يلي :

أولاً : الإيمان بالله :

الإيمان بالله تعالىٰ يتضمن الإيمان بأربعة أمور ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده ، وبربوبيته ، وألوهيته ، وأسمائه وصفاته ، وتفرده في ذلك »[٣] .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ « ﴿ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، ومسلم (٧٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٠٥-٣٠٦) .

(٣) « تفسير سورة النساء »(٢/ ٤٧١) ، وتقدَّم الكلام علىٰ الإيمان بأنواع التوحيد الثلاثة في الفصل السابق .

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْﵞ،أي آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، وقد بيَّن النبي ﷺ ذلك في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمان ، فقال : « أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ ، ومَلَائِكَتِهِ ، وكُتُبِهِ ، ورُسُلِهِ ، واليَوْمِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ »[1] ، أن تؤمن بالله : أي تؤمن به عَزَّوَجَلَّ ربًّا ، وتؤمن به إلهـًا ، وتؤمن به موصوفـًا بصفات الكمال ، وهذه الأركان الثلاثة للإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ فهو الرب الإله الكامل الأوصاف »[2] .

ومدار أركان الإيمان علىٰ الإيمان بالله تعالىٰ فهو أصلها ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لابد من الإيمان بالله ، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فالإيمان بالله متضمن لخمسة أركان من الإيمان »[3] .

وقال ضمن فوائد قوله تعالىٰ : ﵟلَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِﵞ [النساء :١٦٢] .

« من فوائد الآية فضيلة الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ لقوله : ﵟوَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِﵞ ، ونص علىٰ الإيمان بهذا مع أنه داخل في قوله : ﵟيُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَﵞ [البقرة :٤] ، لأهميته ؛ لأن مدار الإيمان كله علىٰ الإيمان بالله ؛ لأنَّا نؤمن بأن الرسل رسل الله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وأن الكتب كتب الله ، وأن الملائكة عباد الله ، وهلمَّ جراً ، فالركيزة الأولىٰ هي الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ، وما بعده يعتبر فروعـًا

(١) أخرجه مسلم (٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٢٤) .

(٣) « تفسير سورة المائدة »(٢ / ١٦٦) .

أو جهات متعددة من الإيمان بالله »[١] .

ثانيًا : الإيمان بالملائكة .

وهو الركن الثاني من أركان الإيمان ، وقد قرَّره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره في مواضع عدة ، فعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [الكهف : ٥٠] .

قال : « وقوله : ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾هم عالم غَيْبِيٌّ خلقهم الله من نور كما أعلمنا النبي ﷺ أن الله خلقهم من نور[٢] ، وأعلمنا الله تعالىٰ في القرآن أنه خلق الجنَّ من نار ، وأنه خلق البشر من طين[٣] ، إذاً المخلوقات التي نعلمها هي ، الملائكة من نور ، والجن من نار ، والإنسان من طين ، فالملائكة إذاً عالم غيبي والإيمان بهم أحد أركان الإيمان ، والملائكة علىٰ خلاف الشياطين كما يتبين من الآية ، وهم أقدر من الشياطين وأطهر من الشياطين ، ولهم من النفوذ ما ليس للشياطين ، فالشياطين لا يمكن أن يَلِجُوا إلىٰ السماء ، بل من حاول أُتبع بالشهاب المحرق ، والملائكة يصعدون فيها ، فهم يصعدون بأرواح بني آدم إلىٰ أن تصل إلىٰ الله ، وهم أيضـًا قد ملأوا السموات ، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إيمانـًا لا شك فيه ، وأنهم عالم غيبي ، لكن قد يكونون من العالم المحسوس بقدرة الله ، كما

---

(١) « تفسير سورة النساء »(٢ / ٤٧٦) .

(٢) الحديث الدال علىٰ هذا أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ، قالت : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ » .

(٣) قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[الحجر : ٢٦-٢٧] .

كان جبريل ، فقد رآه النبي ﷺ مرتين له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق[١] وهو واحد وهذا يدل علىٰ عظمة خِلقته ، وعظمة خِلقة جبريل تدل علىٰ عظمة الخالق جلَّ وعلا ، أحيانـًا يأتي جبريل الذي هذا وصفه وهذا خلقه علىٰ صورة إنسان ، ولكن ليس تقلبه هكذا بقدرته هو ، ولكن بقدرة خالقه جلَّ وعلا ، والله أعطاه القدرة علىٰ التقلب والتكيف بقدرة الله جلَّ وعلا- »[٢] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة :١٧٧] ، قال : « ومن فوائد الآية : أن الإيمان بالملائكة من البر ، ويشمل الإيمان بذواتهم ، وصفاتهم ، وأعمالهم إجمالاً فيما علمناه إجمالاً ، وتفصيلاً فيما علمناه تفصيلاً ، واعلم أن الملائكة عليهم الصلاة السلام منهم من عُيِّن لنا ، وعرفناه باسمه ، ومنهم من لم يُعَيَّن ، فمن عُيِّن لنا وجب علينا أن نؤمن باسمه كما عُيِّن ، مثل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وإسرافيل ؛ ومالك خازن النار- ، ومنكر ونكير إن صح الحديث بهذا اللفظ ففيه نظر- ، وميكائيل ؛ وملك الموت ولكننا لا نعرف اسمه- بعض الناس يقولون : عزرائيل ، ولكن لم يصح هذا ؛ وهاروت ، وماروت ، ثم كذلك أعمالهم منهم من علمنا أعماله ، ومنهم من لم نعلم ، لكن علينا أن نؤمن علىٰ سبيل الإطلاق بأنهم عباد مكرمون ، وممتثلون لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ، لهم نصيب من تدبير الخلق بإذن الله ، منهم الموكل بالقطر ،

---

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه الترمذي (٣٢٧٨) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت : « ولَكِنَّهُ رَأَىٰ -أي النبي- ﷺ -جِبْرِيلَ ، لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ إِلاَّ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ ، ومَرَّةً فِي جِيَادٍ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ » وقد ورد الحديث بدون لفظ « مرتين » وأخرجه البخاري (٤٨٥٦) ، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

(٢) « تفسير سورة الكهف » (٨٧-٨٨) .

والنبات، والموكل بالنفخ في الصور، وفيهم ملائكة موكلة بالأجنَّة، وملائكة موكلة بكتابة أعمال بني آدم، وملائكة موكلة بحفظ بني آدم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ لكن كل هذا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وبإذنه، وليس لهم منازعة لله عَزَّوَجَلَّ، ولا معاونة في أي شيء من الكون، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] فنفىٰ جميع ما يتعلق به المشركون: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [سبأ: ٢٢] انفراداً؛ ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ [سبأ: ٢٢] مشاركة؛ ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢] معاونة؛ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]: فنفىٰ الشفاعة، والوساطة إلا بإذنه، ثم قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ: ٢٣]: وهم الملائكة إذا سمعوا الوحي صعقوا؛ فليس لهم أي شيء في التصرف في الكون، لكنهم يمتثلون أمر الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

وقال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠]: «ومن فوائد الآية: أن الملائكة ذوو عقول، ووجهه أن الله تعالىٰ وجه إليهم الخطاب، وأجابوا؛ ولا يمكن أن يوجه الخطاب إلا إلىٰ من يعقله، ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلامَ، والجوابَ عليه، وإنما نبَّهْنا علىٰ ذلك؛ لأن بعض أهل الزيغ قالوا: إن الملائكة ليسوا عقلاء»[2].

وقال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الصافات: ١]: «المراد بالصافات الملائكة ... فإذا قال قائل: من الملائكة؟

فالجواب: أنهم عالم غيبي خلقوا من نور، واستعبدهم الله سبحانه وتعالىٰ في

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ٢٨٥ ٢٨٧)، وانظر: «تفسير جزء عمَّ» (٣٠٩).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (١/ ١١٦).

طاعته، فقاموا بها على أتم وجه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإن قال قائل: هذا التعريف يرد عليه أن الملائكة قد تُرى، فإن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها، وله ستمائة جناح قد سدَّ الأفق[1]، وأحياناً يأتي جبريل بصورة بشر؟

فالجواب: أن هذا على سبيل الندرة، وما كان نادراً فإنه لا يخرم القاعدة، أو لا يبطل التعريف، والنادر كما يقول العلماء: ليس له حكم»[2].

ما تقدَّم هو مجمل ما ذكره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدة الإيمان بالملائكة على مذهب أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: الإيمان بالكتب المنزَّلة.

وهو الركن الثالث من أركان الإيمان الستة، وقد بيَّنه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وما يتضمنه، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال: «قوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾؛ المراد به الجنس؛ فيشمل كل كتاب أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ على كل رسول.

ومن فوائد الآية: أن الإيمان بالكتب من البر، وكيفيته أن نؤمن بأن كل كتاب أنزله الله على أحد من رسله فهو حق: صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام، ولكننا لا نكلف بالعمل بما فيها فيما جاءت شريعتنا بخلافه، واعلم أنه ما من رسول إلا معه كتاب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «تفسير سورة الصافات» (١٠-١١).

وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥] أي مع هؤلاء الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقوله تعالىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فما من رسول إلا معه كتاب؛ والكتب المعروفة لدينا هي التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصحف موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والقرآن الكريم، وصحف موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اختلف العلماء أهي التوراة أو غيرها، فمنهم من قال: إنها غيرها، ومنهم من قال: إنها هي، وأما ما لم نعلم به فنؤمن به إجمالاً، فتقول بقلبك، ولسانك: آمنت بكل كتاب أنزله الله علىٰ كل رسول، ثم إن المراد أن نؤمن بأن الله أنزل علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كتاباً يسمىٰ التوراة، وعلىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كتاباً يسمىٰ الإنجيل؛ وعلىٰ داود كتاباً يسمىٰ الزبور، أما أن تؤمن بالموجود منها الآن فليس بواجب عليك؛ لأنه مُحَرَّف، ومُغَيَّر، ومُبَدَّل، لكن تؤمن بأن له أصلاً نزل علىٰ هؤلاء الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، قال: «قوله تعالىٰ: ﴿ وَكُتُبِهِۦ ﴾؛ وفي قراءة: (وكتابه)، ولا منافاة؛ لأن المفرد المضاف يعم، والكتب المنزلة علىٰ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الذي يظهر من نصوص الكتاب والسنة أنها بعدد الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ ولكن مع ذلك فنحن لا نعرف علىٰ التعيين إلا عدداً قليلاً منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصحف موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إن كانت غير التوراة، وإن كانت هي التوراة

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ٢٧٥-٢٧٦).

فالأمر ظاهر، نعرف هذه الكتب، ونؤمن بها علىٰ أعيانها؛ والباقي نؤمن بها علىٰ سبيل الإجمال؛ ولكن كيف الإيمان بهذه الكتب؟ نقول: الإيمان بالقرآن هو الإيمان بأنه كلام الله منزل علىٰ محمد ﷺ بلسان عربي مبين؛ ونصدق بكل أخباره، ونلتزم بكل أحكامه، وأما الإيمان بالكتب السابقة فهو أن نؤمن بأن الله أنزل التوراة علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والإنجيل علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وآتىٰ داود الزبور، وأنزل صحفًا علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن كل ما جاء فيها من خبر فهو حق صدق، وأما الأحكام فما جاءت شريعتنا بخلافه فالعمل علىٰ ما جاءت به شريعتنا؛ لأنه منسوخ، وأما ما لا يخالف شريعتنا فاختلف العلماء في العمل به، والصحيح أنه يعمل به، وبسط ذلك في أصول الفقه، وليعلم أن التوراة التي بأيدي اليهود اليوم، والإنجيل الذي بأيدي النصارىٰ لا يوثق بهما؛ لأنهم حَرَّفوا، وبدلوا، وكتموا الحق »(١).

وقد سُئِل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عقيدة السلف الصالح في القرآن الكريم؟

فأجاب قائلا: « عقيدة السلف في القرآن الكريم كعقيدتهم في سائر أسماء الله وصفاته وهي عقيدة مبنية علىٰ ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكلنا يعلم أن الله سبحانه وتعالىٰ وصف القرآن الكريم بأنه كلامه، وأنه منزل من عنده قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]. والمراد بلا ريب بكلام الله هنا القرآن الكريم وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]، فالقرآن كلام الله تعالىٰ لفظًا ومعنىٰ، تكلم الله به حقيقة وألقاه إلىٰ جبريل الأمين، ثم نزل به جبريل علىٰ قلب النبي، ﷺ، ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين.

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٤٤٤-٤٤٥).

ويعتقد السلف أن القرآن مُنَزَّل نزله الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ محمد ﷺ، منجمًا أي مفرقًا- في ثلاث وعشرين سنة حسب ما تقتضيه حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، ثم إن النزول يكون ابتدائيًا، ويكون سببيًا بمعنىٰ أن بعضه ينزل لسبب معين اقتضىٰ نزوله، وبعضه ينزل بغير سبب، وبعضه ينزل في حكاية حال مضت للنبي ﷺ، وأصحابه، وبعضه ينزل في أحكام شرعية ابتدائية علىٰ حسب ما ذكره أهل العلم في هذا الباب، ثم إن السلف يقولون: إن القرآن من عند الله ابتداء وإليه يعود في آخر الزمان هذا قول السلف في القرآن الكريم، ولا يخفىٰ علينا أن الله تعالىٰ وصف القرآن الكريم بأوصاف عظيمة، وصفه بأنه حكيم، وبأنه كريم، وبأنه عظيم، وبأنه مجيد، وهذه الأوصاف التي وصف الله بها كلامه تكون لمن تمسك بهذا الكتاب وعمل به ظاهرًا وباطنًا فإن الله تعالىٰ يجعل له من المجد، والعظمة، والحكمة، والعزة، والسلطان، ما لا يكون لمن لم يتمسك بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ولهذا أدعو من هذا المنبر جميع المسلمين حكاما ومحكومين، علماء وعامة إلىٰ التمسك بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا وباطنًا حتىٰ تكون لهم العزة، والسعادة، والمجد، والظهور في مشارق الأرض ومغاربها، وأسأل الله تعالىٰ أن يعيننا علىٰ تحقيق ذلك»[1].

ما تقدَّم هو مجمل ما ذكره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدة الإيمان بالكتب المنزَّلة علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة.

رابعـًا: الإيمان بالرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

والإيمان بالرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ هو الركن الرابع من أركان الإيمان، وقد جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقرير هذا الركن كما هي عقيدة أهل السنة

---

(١) «مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ ابن عثيمين» (١/ ٣٠٥-٣٠٦).

والجماعة ، وذكر مسائل متعلقة بهذا الركن ، وهي كما يلي :

- الفرق بين الرسول والنبيّ .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « و(الرسول) كما قال العلماء هو من أوحي إليه بشرع ، وأُمِر بتبليغه ؛ هذا الذي عليه أكثر أهل العلم ، و(النبي) هو الذي لم يؤمر بتبليغه[1] ما لم يدل الدليل علىٰ أن المراد به الرسول ؛ ففي القرآن الكريم كل من وصف بالنبوة فهو رسول ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ [النساء : ١٦٣] إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء : ١٦٥] ؛ ولقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [غافر :٧٨] »[2] .

---

(١) بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كيف يُوحىٰ إليه بشرعٍ ولا يؤمر بتبليغه بقوله : « أوحىٰ الله إلىٰ النبي بالشرع من أجل إحياء الشرع بمعنىٰ أن من رآه واقتدىٰ به واتبعه دون أن يلزم بإبلاغه » . « مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ ابن عثيمين » (١ / ٣١٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣ / ٤٤٢) ، وفي مسألة التفريق بين الرسول والنبي أقوال ، ويرىٰ الباحث أن أظهرها والله أعلم : أن الرسول والنبي كلاهما مأمور بالتبليغ ، فكلاهما مُرسَل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج :٥٢] ، وأن الفرق بين الرسول والنبي : أن الرسول أُرسل بشرع جديد ، وأُنزل عليه كتاب ، فإن أُرسل بشريعة من قبله فهو نبي ، واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فقال : « فالنبي هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبئ بما أنبأ الله به ؛ فإن أُرسل مع ذلك إلىٰ من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه ؛ فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يُرسل هو إلىٰ أحد يُبَلِّغه عن الله رسالة ؛ فهو نبي ، وليس برسول ... »

إلىٰ أن قال : « فقوله : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ ، دليلٌ علىٰ أن النبيّ مرسل ، ولا يسمىٰ رسولاً عند الإطلاق ؛ لأنّه لم يرسل إلىٰ قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين=

- **وجوب الإيمان بجميع الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ .**

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] : « ومن فوائد الآية : أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، علىٰ حد سواء في أصل الإيمان ، وأما الشرائع فلكلٍّ منهم جعل الله شرعة ومنهاجًا ، كما قال تعالىٰ : ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾ [المائدة : ٤٨] ، فنحن مأمورون باتّباع شريعة محمد ﷺ التي نسخت جميع الأديان ، أما في الإيمان بأنهم رسل من عند الله ، وأنهم صادقون بما جاءوا به فإنا لا نفرق بين أحد منهم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] »(١)

وقال عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة :١٧٧] : « فالذين علمناهم من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يجب علينا أن نؤمن بهم بأعيانهم ؛

= بما يعرفونه أنّه حقّ ؛ كالعالِم » . « النُّبوات » لابن تيمية (٢ / ٧١٤-٧١٨) .

وهو اختيار الشيخ الشنقيطي حيث قال : « وآية الحج هذه يقصد قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ تبين أن ما اشتهر علىٰ ألسنة أهل العلم من أن النبي هو من أوحي إليه وحي ، ولم يؤمر بتبليغه ، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه ، وأمر بتبليغ ما أوحي إليه غير صحيح ؛ لأن قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ ، يدل علىٰ أن كلا منهما مرسل ، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير واستظهر بعضهم أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته ، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول ، هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلىٰ شريعة رسول قبله ، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة » . « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » (٥ / ٢٩٠) .

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٩٠) .

والذين لم نعلمهم نؤمن بهم إجمالاً ، كما قال تعالىٰ : ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وقد ذكر في القرآن أربعة وعشرون رسولاً ، قال تعالىٰ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ [الأنعام : ٨٤] أي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٨٤-٨٦] ؛ فهؤلاء ثمانية عشر ، ويبقىٰ شعيب ، وصالح ، وهود ، وإدريس ، وذو الكفل ، ومحمد ﷺ »[١] .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾ [الحديد :١٩] : « أما الإيمان بالرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فإنه يتضمن تصديقهم كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم بما أخبروا به ، إذا صح عنهم ، وأما العمل بشرائعهم فإننا لا يلزمنا العمل إلا بشريعة النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- وذلك لأن الشرائع السابقة كلها نسخت بهذه الشريعة ، لقول الله تعالىٰ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة :٣] ، وقوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران :٨٥] ، وقول النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يعني أمة الدعوة- يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار »[٢] (أولئك) ، أي : الذين آمنوا بالله ورسله (هم الصديقون) »[٣] .

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٨٨) .

(٢) أخرجه مسلم (١ / ١٣٤) برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ت ، بلفظ : « والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لا يَسْمَعُ بي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ، ولا نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » .

(٣) « تفسير سورة الحديد » (٣٩٨ ٣٩٩) .

- إثبات رسالة محمد ﷺ .

عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء :٨٠] ، قال : « من فوائد الآية : إثبات رسالة النبي ﷺ من وجهين :

أولاً : وصفه بالرسول .

ثانيًا : جعل طاعته كطاعة الله عَزَّوَجَلَّ »[١] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[يس :٣] ، قال : « من فوائد الآية :

العناية بإثبات رسالة النبي ﷺ ؛ لأن الله تعالىٰ أقسم عليها ، وأكدها زيادة علىٰ القسم بإن واللام .

ثبوت رسالة النبي ﷺ فمن أنكرها فهو كافر ؛ لأنه مكذب لله ، ورسوله ، وإجماع المسلمين »[٢] .

- عموم رسالة النبي ﷺ .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾ [النساء :٧٩] : « من فوائد الآية : عموم رسالة النبي ﷺ لجميع البشر ، لقوله : ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ﴾ ، ويتفرع علىٰ ذلك الرد علىٰ النصارىٰ الذين زعموا أن محمداً ﷺ رسول إلىٰ العرب خاصة ؛ لأننا نقول لهم : أنتم الآن تؤمنون بأنه رسول ، وأنه من عند الله ، وقد قال الله عنه : ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ﴾ ، فيلزمكم علىٰ إقراركم بأنه رسول بأن تقروا بأن رسالته عامة ، وإلا فقد كذبتموه ، فمتىٰ أقررتم بأنه رسول ولو إلىٰ العرب لزمكم أن تقروا بأنه رسول إلىٰ كافة الناس »[٣] ، هذا

---

(١) « تفسير سورة النساء »(٢ / ٨) .

(٢) « تفسير سورة يس »(١٦) .

(٣) « تفسير سورة النساء »(١ / ٥٦٥-٥٦٦) .

إجمال ما قرره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإيمان بالرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ(١) .

خامسًا : الإيمان باليوم الآخر .

والإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، وقد تطرَّق إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره من خلال المحاور الآتية :

- أهمية الإيمان باليوم الآخر .

عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة :٣-٤] .

قال : « نص علىٰ الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته ؛ لأن الإيمان بها يحمل علىٰ فعل المأمور ... [ثم قال :.ومن فوائد الآيتين] أهمية الإيمان بالآخرة ؛ لأن الإيمان بها هو الذي يبعث علىٰ العمل ؛ ولهذا يقرن الله تعالىٰ دائمًا الإيمان به عَزَّوَجَلَّ ، وباليوم الآخر ؛ أما من لم يؤمن بالآخرة فليس لديه باعث علىٰ العمل ؛ إنما يعمل لدنياه فقط : يعتدي ما دام يرىٰ أن ذلك مصلحة في دنياه : يسرق مثلاً ، يتمتع بشهوته ، يكذب ، يغش ... ، لأنه لا يؤمن بالآخرة ، فالإيمان بالآخرة حقيقة هو الباعث علىٰ العمل »(٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة :٦٢] .

قال : « لابد من الإيمان بالله ، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بملائكته وكتبه

---

(١) للشيخ كلام مفصَّل عن الإيمان بالرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ انظره في « مجموع الفتاوىٰ » (٥ / ١٢٤) ، و (٥ / ٢٩٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » »(١ / ٣٤) .

ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فالإيمان بالله متضمن لخمسة أركان من الإيمان ، والحكمة من ذلك أن الأركان الأربعة أجملت تحت الإيمان بالله ، وخُصَّ الإيمان باليوم الآخر ؛ لأنه هو الذي يحمل الإنسان علىٰ العمل ، إذا كان الإنسان في شك من اليوم الآخر والعياذ بالله ، لن يعمل ، ماذا يرجو وماذا يخاف؟ فلا يمكن الإيمان حقيقة إلا بالإيمان باليوم الآخر ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يحمل علىٰ القيام بشريعة الله »[١] .

وقال أيضـاً : « وكثيراً ما يقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحدو بالإنسان أن يعمل العمل الصالح ، وأن يبتعد عن العمل السيء لأنه يؤمن أن هناك يومـاً آخر يجازىٰ فيه الإنسان المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته »[٢] .

ومواضع بيان أهمية الإيمان باليوم الآخر كثيرة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ لما تضمنه اليوم الآخر من مراحل غيبيَّة يمر بها الإنسان جاءت فيها نصوص كثيرة ، ولذا كان الوعظ به مؤثراً بالنفوس داعيـاً لها للعمل بما أمر الله تعالىٰ ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة :٢٣٢] : « من فوائد الآية : أهمية الإيمان باليوم الآخر ، وأنه هو الذي تحصل به الموعظة ، بل هو الذي يحصل به الاتعاظ ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ ؛ لأن من آمن بالله حقـاً – خاف منه ، فكل من كان بالله أعرف كان منه أخوف »[٣] ، وبيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب

---

(١) « تفسير سورة المائدة »(٢ / ١٦٦) .

(٢) « تفسير سورة الحديد »(٣٢٧) . .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١٦٣-١٦٤) .

تسمية يوم القيامة باليوم الآخر ؛ لأنه لا يوم بعده[1] .

- دلالة العقل على الإيمان باليوم الآخر .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران :٢٥] .

« الله عَزَّوَجَلَّ يخبر عن هذا اليوم بأنه لا ريب فيه ، أي : لا ريب في وقوعه ، وهذا اليوم قد دلَّ عليه الكتاب والسنة والعقل :

أما الكتاب : فما أكثر الآيات التي فيها إثبات اليوم الآخر ، وما أكثر الأمثال التي يضربها الله عَزَّوَجَلَّ لإثبات هذا اليوم يبعث الخلائق ، وأما في السنة فكثير أيضـاً إثبات هذا اليوم .

وأما في العقل : فلأن العقل يدل بالضرورة على أن هذه الخليفة لابد أن يكون لها معاد تحاسب فيه على ما أمرت به ؛ لأنه ليس من المعقول أن ينشئ الله الخليقة ، يأمرها وينهاها ، ويبعث إليها الرسل ، وينزل عليها الكتب ، وتستباح دماء من لم يُنَفِّذ هذه الكتب ، ويتَّبع هؤلاء الرسل ، ثم تكون النتيجة أن تموت هذه البشرية ولا تُبعث ، وتكون تراباً ، لو وقع هذا الفعل من أي أحد لقيل هذا سفه ، من أسفه السفه ، ولو أن الإنسان صنع ثوباً ثم خاطه وأتقنه ، ثم في النهاية أحرقه ، فتلف ولم يبق له أثر ؛ لعدَّ الناس كلهم هذا سفهاً ، فكيف بهذه الخليقة التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ وأنزل عليها الكتب وأرسل إليها الرسل »[2] .

وأما حكم من كفر باليوم الآخر أو شكَّ فيه : قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض فوائد الآية السابقة : « ومن فوائد الآية : أن من كفر باليوم الآخر أو شك فيه فهو

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(١ / ٣٤) ، وانظر : « تفسير جزء عم »(٢٩) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران »(١ / ١٥١-١٥٢) .

كافر ؛ لأنه مكذب لقوله تعالىٰ : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة :٢] »[١] .

– معنىٰ الإيمان باليوم الآخر وما يتضمنه .

قال عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة :١٧٧] : « ومن فوائد الآية : أن الإيمان باليوم الآخر من البر ، ويشمل كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت ، كفتنة القبر ، ونعيمه ، وعذابه ، وقيام الساعة ، والبعث ، والحساب ، والصراط ، والميزان ، والكتب باليمين ، أو الشمال ، والجنة ، وما ذُكر من نعيمها ، والنار ، وما ذكر من عذابها ، وغير ذلك مما جاء في الكتاب ، والسنة عن هذه الأمور مفصلاً أحيانـاً ، ومجملاً أحيانـاً .

والإيمان باليوم الآخر يستلزم الاستعداد له بالعمل الصالح ، ولهذا يقرن الله سبحانه وتعالىٰ الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به تعالىٰ كثيراً لأن نتيجة هذا الإيمان أن يقوم العبد بطاعته سبحانه وتعالىٰ ، فالذي يقول : إنه مؤمن باليوم الآخرة ، ولكن لا يستعد له فدعواه ناقصة ، ومقدار نقصها بمقدار ما خالف في الاستعداد ، كما أنه لو قيل مثلاً لإنسان عنده حَبٌّ : إنه سينزل اليوم مطر ، فظَلَّل الحَبّ ، معلوم أن الذي لا يؤمن بهذا الكلام لن يغطيه ، كذلك لو قيل : سيأتي اليوم عدو ، فشدد في الحراسة ، إذا آمن بأنه سيأتي عدو شدَّد في الحراسة بجميع ما يمكن ؛ فإذا لم يشدد في الحراسة علمنا أنه لم يؤمن به »[٢] .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم :٢٧] : « فالإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور : الأول :

---

(١) « تفسير سورة آل عمران » »(١٥٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٨٤ ٢٨٥) .

الإيمان بوقوع اليوم الآخر أنه لابد كائن ، الثاني : الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من : أهوال ، وحساب ، وموازين ، وصراط ، وجنة ، ونار لابد من هذا ، الثالث : الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في القبر من فتنة القبر ، سؤال الملكين الميت عن ثلاثة أشياء : من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ، هل أحد من الناس لا يؤمن بالآخرة؟ نعم كثير من الناس ، أكثر الناس لا يؤمنون بالآخرة ، حتىٰ إن الله سبحانه وتعالىٰ قال في الإنسان : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ [يس :٧٧ - ٧٨] ، يعجزنا فيه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس :٧٨] ، ما أحسن قوله : ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ قبل أن يقول مقالة هذا الإنسان ، يعني هذا الإنسان قال : ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ، ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ، ما هو خلقه؟ إنه لم يكن شيئًا ، خلق من ماء دافق ، فصار عظامًا وعصبًا ولحمًا ، وصار إنسانًا ينطق ويخاصم ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس :٧٨-٧٩] ، وذكر الأدلة علىٰ إمكان ذلك ، فمن الناس من ينكر اليوم الآخر ، ويقول : لا بعث! وهذا من سفهه في عقله وضلاله في دينه ، وإلا فهل من الحكمة أن تخلق هذه الخليقة وتبتلىٰ بالأمر والنهي ، ويحصل الجهاد وقتال الأعداء ، واستحلال دمائهم وأموالهم ، ونسائهم ثم يكون نتيجة هذا لا شيء ، هذا لا يمكن ، وتأباه الحكمة »[1] .

وقد جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتضمنه اليوم الآخر مما يجب علىٰ المؤمن اعتقاد والإيمان به ، ومما تناوله الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

- حياة البرزخ ، نعيم القبر وعذابه :

فقال عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ

---

(١) « تفسير سورة الحديد »(٢٢١) ، وانظر : « تفسير سورة النساء »(١ / ٤٤٩) ، و(٢ / ٤٧١) .

﴿ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٥٤]: «ومن فوائد الآية: إثبات الحياة البرزخية؛ لقوله تعالى: ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه إذا دفن الإنسان رد الله عليه روحه، وجاءه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه.

- ومنها: إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾.

- ومنها: أن أحوال البرزخ، وعالم الغيب غير معلومة لنا، ولا نشعر بها إلا ما علمنا الله ورسوله»(١)

وقال في نعيم القبر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ [يس:٢٦]: «يستفاد من هذه الآية الكريمة إثبات نعيم القبر، لقوله: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ ﴾، مع أن الساعة لم تقم بعد، ولم يدخل الناس الجنة، ويدل على ذلك آيات من القرآن كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ ﴾ [النحل:٣٢]، توفاهم الملائكة ﴿ طَيِّبِينَ ﴾، حال من الهاء، و﴿ يَقُولُونَ ﴾، حال من الملائكة، يعني حال كون الملائكة يقولون حين توفاهم ادخلوا الجنة، فيُستفاد من هذه الآية نعيم القبر»(٢).

- وإثبات البعث:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:٢٨]، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ضمن فوائد هذه الآية:

«ومن فوائد الآية: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾؛ والبعث أنكره من أنكره من الناس، واستبعده، وقال: ﴿ مَن يُحْيِي

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ١٧٧).

(٢) «تفسير سورة يس» (٩٥-٩٦).

﴿ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس : ٧٨] ؛ فأقام الله تبارك وتعالىٰ علىٰ إمكان ذلك ثمانية أدلة في آخر سورة « يس » :

الدليل الأول : قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس : ٧٩] : هذا دليل علىٰ أنه يمكن أن يحيي العظام وهي رميم ؛ وقوله تعالىٰ : ﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ، دليل قاطع ، وبرهان جليّ علىٰ إمكان إعادته كما قال الله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

الدليل الثاني : قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس : ٧٩] يعني : كيف يعجز عن إعادتها وهو سبحانه وتعالىٰ بكل خلق عليم : يعلم كيف يخلق الأشياء ، وكيف يكونها ، فلا يعجز عن إعادة الخلق .

الدليل الثالث : قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس : ٨٠] : الشجر الأخضر فيه البرودة ، وفيه الرطوبة ، والنار فيها الحرارة ، واليبوسة ؛ هذه النار الحارة اليابسة تخرج من شجر بارد رطب ، وكان الناس فيما سبق يضربون أغصاناً من أشجار معينة بالزند ، فإذا ضربوها انقدحت النار ، ويكون عندهم شيء قابل للاشتعال بسرعة ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس : ٨٠] تحقيقاً لذلك ، ووجه الدلالة : أن القادر علىٰ إخراج النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر مع ما بينهما من تضاد قادر علىٰ إحياء العظام وهي رميم .

الدليل الرابع : قوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس : ٨١] ، ووجه الدلالة : أن خلْق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، والقادر علىٰ الأكبر قادر علىٰ ما دونه .

الدليل الخامس : قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس : ٨١] ؛ فـ(الخلاق) صفته ، ووصفه الدائم ، وإذا كان خلّاقاً ، ووصفه الدائم هو الخلق فلن يعجز

عن إحياء العظام وهي رميم .

الدليل السادس: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس :٨٢] : إذا أراد شيئـًا مهما كان ، و(شيئـًا) : نكرة في سياق الشرط ، فتكون للعموم ؛ (أمره) أي شأنه في ذلك أن يقول له كن فيكون ، أو (أمره) الذي هو واحد « أوامر » ؛ ويكون المعنىٰ : إنما أمره أن يقول : « كن » ، فيعيده مرة أخرىٰ ، ووجه الدلالة : أن الله سبحانه وتعالىٰ لا يستعصي عليه شيء أراده .

الدليل السابع: قوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس :٨٣] : كل شيء فهو مملوك لله عَزَّوَجَلَّ : الموجود يعدمه ، والمعدوم يوجده ؛ لأنه رب كل شيء ، ووجه الدلالة : أن الله سبحانه وتعالىٰ نزه نفسه ، وهذا يشمل تنزيهه عن العجز عن إحياء العظام وهي رميم .

الدليل الثامن: قوله تعالىٰ : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، ووجه الدلالة : أنه ليس من الحكمة أن يخلق الله هذه الخليقة ، ويأمرها ، وينهاها ، ويرسل إليها الرسل ، ويحصل ما يحصل من القتال بين المؤمن ، والكافر ، ثم يكون الأمر هكذا يذهب سدًىٰ ، بل لابد من الرجوع ، وهذا دليل عقلي .

فهذه ثمانية أدلة علىٰ قدرة الله علىٰ إحياء العظام وهي رميم جمعها الله عَزَّوَجَلَّ في موضع واحد ، وهناك أدلة أخرىٰ في مواضع كثيرة في القرآن ، وكذلك في السنة »(١) .

- والنفخ في الصور .

عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس :٥١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومن فوائد الآية : إثبات النفخ في

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(١ / ١٠٦-١٠٨) ، وفسَّر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآيات في آخر سورة يس بتفصيل أكثر ، انظر : « تفسير سورة يس »(٢٩٤) وما بعدها .

الصور، وهو من الأمور الغيبيَّة التي يجب علينا أن نؤمن بها دون التعرض لكيفيتها »[١] .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [ق :٤١] : « أي انتظر لهذا النداء الذي يكون عند النفخ في الصور وحشر الناس ، ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [ق :٤٢] ، من القبور »[٢]

وما تقدَّم أمثلة علىٰ ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يدخل ضمن الإيمان باليوم الآخر ، كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الميزان[٣] والشفاعة[٤] والجنة[٥] والنار[٦] ، ورؤية الله تعالىٰ[٧] وغيرها من أحوال يوم القيامة المتعلِّقة باليوم الآخر .

سادسًا : الإيمان بالقدر خيره وشره

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان ، وقد قرره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة ، وتناوله بما يلي :

- تعريف القضاء والقدر عند الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « القدر في اللغة ؛ بمعنىٰ : التقدير[٨] ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُلَّ

---

(١) « تفسير سورة يس »(١٨٣) .

(٢) « تفسير سورة ق »(١١٢) .

(٣) انظر : « تفسير جزء عم » سورة الزلزلة(٢٩٢ ٢٩٤) .

(٤) انظر : « تفسير سورة البقرة »(١ / ١٧٣ ، ١٧٤) ، و(٢ / ٣٨-٤٠) ، و(٣ / ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠) .

(٥) انظر : « تفسير سورة البقرة »(١ / ٢٦٣ ، ٢٦٦) ، وجزء عم ، سورة النازعات (٥٤) .

(٦) انظر : « تفسير سورة البقرة »(١ / ٨٥) وما بعدها .

(٧) انظر : « تفسير جزء عم » سورة المطففين (١٠٠) .

(٨) انظر : « معجم مقاييس اللغة » لابن فارس (٥ / ٦٢) ، و« لسان العرب » لابن منظور (٥ / ٧٤) ، مادة (قدر) .

﴿شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر :٤٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات : ٢٣] .

وأما القضاء ، فهو في اللغة : الحكم[1] .

ولهذا نقول : إن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا ، ومترادفان إن تفرقا ؛ علىٰ حد قول العلماء : هما كلمتان : إن اجتمعتا افترقتا ، وإن افترقتا اجتمعتا .

فإذا قيل : هذا قدر الله ؛ فهو شامل للقضاء ، أما إذا ذكرا جميعا ؛ فلكل واحد منهما معنىٰ .

فالتقدير : هو ما قدره الله تعالىٰ في الأول أن يكون في خلقه .

وأما القضاء ؛ فهو ما قضىٰ به الله سبحانه وتعالىٰ في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير ، وعلىٰ هذا يكون التقدير سابقا .

فإن قال قائل : متىٰ؟ قلنا : إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالىٰ في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير ، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا ؛ فإن هذا يعارض قوله تعالىٰ : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان :٢] ؛ فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق؟

فالجواب علىٰ ذلك من أحد وجهين :

-إما نقول : إن هذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي ، وإنما قدم الخلق علىٰ التقدير لتتناسب رؤوس الآيات ، ألم تر أن موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أفضل من هارون ، لكن قدم هارون عليه في سورة طه في قوله تعالىٰ عن السحرة : ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه : ٧٠] ؛ لتتناسب رؤوس الآيات ، وهذا لا يدل علىٰ أن المتأخر في اللفظ متأخر في الرتبة .

---

(١) انظر : « معجم مقاييس اللغة » (٥/ ٩٩) و« لسان العرب » (١٥/ ١٨٦) و« القاموس المحيط » للفيروز آبادي (١/ ١٣٢٥) ، مادة (قضي) .



-أو نقول : إن التقدير هنا بمعنىٰ التسوية ؛ أي خلقه علىٰ قدر معين ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلىٰ : ٢] ؛ فيكون التقدير بمعنىٰ التسوية ، وهذا المعنىٰ أقرب من الأول ؛ لأنه يطابق تماما لقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ؛ فلا إشكال »[١] .

- مراتب القضاء والقدر .

مراتب القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة أربعة هي : العِلْمُ ، والكتابة ، والمشيئة ، والخَلْقُ .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الركن السادس من أركان الإيمان : الإيمان بالقدر خيره وشره ، والإيمان بالقدر لابد فيه من أمور أربعة :

١- أن تؤمن بأن الله عليم بكل شيء .

٢- أن تؤمن بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء .

٣- أن تؤمن بأن كل شيء بمشيئة الله ، لن يخرج عن مشيئته شيء .

٤- أن تؤمن بأن كل شيء خَلْقٌ لله عَزَّوَجَلَّ أي مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ فلا يتم الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة ، وإذا تمَّ الإيمان بهذه الأربعة فقد تم الإيمان بالقدر .

وقوله (خيره وشره) ؛ لأن المقدور قسمان : قسم فيه خير ، وقسم فيه شر ، فتؤمن بهذا وهذا ، وأن كله من عند الله عَزَّوَجَلَّ »[٢] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة :١٨١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « في الآية ردٌّ علىٰ القدرية ،

---

(١) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٨/ ٥٣٩-٥٤٠) ، وانظر « شرح العقيدة الواسطية » (٢/ ١٨٧) وما بعدها .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢/ ٣٢٧) .

والجبرية، وكل منهم غلا في جانب من جوانب القدر، فالجبرية غلو في إثبات القدر، وفرطوا في أفعال العباد، والقدرية غلو في إثبات فعل العبد، وفرطوا في علم الله، وإرادته، والوسط هو الخير، فأهل السنة، والجماعة يثبتون لله العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، كما يثبتون للإنسان إرادة، وقدرة لكن ذلك تابع لإرادة الله، وخلقه- ، وتفاصيل ذلك مبسوط في علم العقائد »[1] .

- المخالفون لأهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر والردّ عليهم .

المخالفون لأهل السنة والجماعة في القَدَر هم القَدَريَّة والجبريَّة وهما طائفتان غالِيَتَان في هذا الباب وعلىٰ طرفي نقيض، وردَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ المخالفين في هذا الباب كثيرا في تفسيره[2]، ويُسهب أحيانًا ويختصر في مواضع، وعند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ [البقرة:١٨١]، قال: « ومن فوائد الآية: الرد علىٰ الجبرية، وعلىٰ القدرية، فالجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر علىٰ عمله، ولا قدرة له، ولا اختيار، فأنكروا حكمة الله تعالىٰ؛ لأنه إذا قيل بهذا القول الباطل انتفت حكمة الأمر، والنهي، والثواب، والعقاب، وصار من فعل ما أمر به، أو ترك ما نُهي عنه ليس أهلاً للمدح؛ لأنه كالآلة ليس عنده قدرة، ولا اختيار، وكذلك أبطلوا حكمة الله في الجزاء؛ لأنه علىٰ أصلهم- يجزي المحسن وهو غير محسن، ويعاقب العاصي وهو غير عاصٍ، والرد عليهم في قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ ﴾؛

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ٣١٢)، وللاستزادة والتفصيل في مراتب القضاء والقدر انظر: « شرح العقيدة الواسطية » (٢/ ١٩٣) وما بعدها، و« مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ ابن عثيمين » (٢/ ٨٠) وما بعدها.

(٢) قال في أحد المواضع: « وليعلم أن مثل هذا الدليل في الرد علىٰ الجبرية كثير في القرآن، وإنما نذكره عند كل آية لينتفع بذلك من يريد إحصاء الأدلة علىٰ هؤلاء؛ وإلا فالدليل الواحد كافٍ لمن أراد الحق » اهـ. « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٤٢).

فأضاف التبديل إلىٰ الإنسان .

وأما القدرية فيقولون : « إن الإنسان مستقل بعمله ، ولا تتعلق به إرادة الله ، ولا قدرته ، ولا خلقه » ، وغلاتهم ينكرون العلم والكتابة ، يقولون : « إن أفعال العباد غير معلومة لله ، ولا مكتوبة عنده » ؛ وقالوا : « إن الأمر أُنُف أي مستأنف لم يكن الله يعلم شيئًا مما نفعله ، إلا إذا وقع علمه بعد رؤيته ، أو سمعه » ؛ وجه الرد عليهم إثبات العلم لله .

قال الشافعي ، وغيره من السلف : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خُصموا ، وإن أنكروه كفروا ، فإما إذا قالوا : إن الله لا يعلم فكفرهم واضح لتكذيبهم القرآن ، وأما إذا قالوا : إنه يعلم لكن لا يقدرها ، ولا يخلقها ، قيل لهم : هل وقعت علىٰ وفق معلومه ، أو علىٰ خلاف معلومه؟ سيقولون : « علىٰ وفق معلومه » ، وإذا كان علىٰ وفق معلومه لزم أن تكون مرادةً له ، وإلا لما وقعت .

فالحاصل أن في الآية رداً علىٰ القدرية ، والجبرية ، وكل منهم غلا في جانب من جوانب القدر ؛ فالجبرية غلو في إثبات القدر ، وفرطوا في أفعال العباد ، والقدرية غلو في إثبات فعل العبد ، وفرطوا في علم الله ، وإرادته ، والوسط هو الخير ، فأهل السنة ، والجماعة يثبتون لله العلم ، والكتابة ، والمشيئة ، والخلق ، كما يثبتون للإنسان إرادة ، وقدرة لكن ذلك تابع لإرادة الله ؛ وخلقه- ، وتفاصيل ذلك مبسوط في علم العقائد »[1] .

- أقسام الناس في العمل وعلاقته بالقدر .

عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة :١٤٩] ، قال : « ومن

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٣١١) .

فوائد الآية : إضافة العمل إلىٰ الإنسان ، فيكون فيه رد علىٰ الجبرية ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ؛ ولا شك أن الإنسان يضاف إليه عمله ، وعمله : كسبه إن كان في الخير واكتسابه إن كان في الشر كما قال تعالىٰ : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

والناس في هذه المسألة أعني مسألة أعمال العباد- ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأول : من يرون أن الإنسان مجبر علىٰ العمل ؛ لا يفعل شيئـًا باختيار أبداً ، وما فعله الاختياري إلا كفِعله الاضطراري : فمن نزل من السطح علىٰ الدرج درجة درجة هو كمن سقط بدون علمه من أعلىٰ السطح ؛ وهذا مذهب الجبرية من الجهمية ، وهو مذهب باطل ترده الأدلة السمعية ، والعقلية .

القسم الثاني : من يرون أن الإنسان مستقل بعمله ، وأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يصرِّف العبد إطلاقـًا ، فالعبد له الحرية الكاملة في عمله ، ولا تعلق لمشيئة الله به ، ولا تعلق لتقدير الله ، وخلقه بعمل الإنسان ، وهذا مذهب المعتزلة القدرية ، وهو مذهب باطل للأدلة السمعية ، والعقلية .

وكلا القسمين مع بطلانهما يلزم عليهما لوازم باطلة .

القسم الثالث : يرون أن فعل العبد باختياره ، وله تعلق بمشيئة الله ، فمتىٰ فعل العبد الفعل علمنا أن الله تعالىٰ قد شاءه ، وقدره ، وأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لا يريد ، بل كل ما وقع فهو مراد لله مخلوق له ، ووجه كون فعل العبد مخلوقـًا لله : أن الإنسان مخلوق لله ؛ وفعله كائن بأمرين : بعزيمة صادقة ، وقدرة ، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلق العزيمة الصادقة ، والقدرة ؛ فالإنسان بصفاته ، وأجزائه ، وجميع ما فيه كله مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ .

هذا القول الوسط هو الذي تجتمع فيه الأدلة جميعـًا ؛ لأن الذين قالوا : « إن

الإنسان مجبر » أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا من أيديهم الدليل الآخر، والذين قالوا: « إنه مستقل » أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا الدليل الثاني من أيديهم؛ لكن أهل السنة، والجماعة والحمد لله- أخذوا بأيديهم بالدليلين، وقالوا: الإنسان يفعل باختياره، ولكن تصرفه تحت مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا إذا وقع الأمر بغير اختياره رُفع عنه حكمه: فالنائم لا حكم لفعله، ولا لقوله، والمكره على الشيء لا حكم لفعله، ولا لقوله، بل أبلغ من ذلك: الجاهل بالشيء لا حكم لفعله مع أنه قد قصد الفعل، لكنه لجهله يعفى عنه، كل ذلك يدل على أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده »[1].

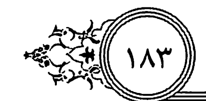
ما تقدَّم هو مجمل كلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أركان الإيمان والدعوة إليها وما يتعلق بها، وعند تأملها وغيرها من المواضع نجد عناية الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفائقة فيما يتعلق بتقرير أركان الإيمان على مذهب أهل السنة والجماعة وبيان ما يتعلق بها من مسائل تهم المؤمن، مع الرد على المخالفين ببيان ما وقعوا فيه من خلل، وتوجيه أقوالهم بموضوعية مستندة لنصوص الكتاب والسنة.

ومن خلال هذه المضامين في معنى الإيمان وأركانه تبيَّنَ أن المفهوم الحقيقي للإيمان هو الإيمان الجازم بهذه الأصول الستة وما يتفرع عنها مما يجب على المسلم اعتقاده في حق الله تعالى، من الأمور الغيبية وجميع ما ورد في الكتاب والسنة، فليس الإيمان مجرد التصديق القلبي، ولا الكلام اللفظي، دون عمل وتطبيق مع الاعتقاد الجازم، فالأعمال هي دليل الإيمان؛ لأن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولا بالدعاوى الجوفاء التي يطلقها الزاعمون، فإن الله تعالى سمى أولئك مخادعين لأنفسهم بعدما نفى عنهم الإيمان بمجرد زعمهم، وفي هذا دلالة على أهمية العمل بالاعتقاد الجازم،

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ١٥٢-١٥٣).





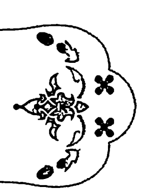
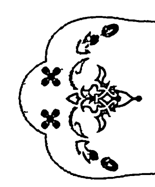
فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونحن نقول الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقادا صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدا رسول الله كما يعرفون أبناءهم مؤمنين مصدقين»[1].

والإيمان بأصول الإيمان الستة وما يتعلق بها التي جاء تفصيلها في المضامين السابقة هي المحكُّ الحقيقي لصدق العبد في إيمانه؛ لأن المؤمن ينعقد قلبه علىٰ الحق ولو كان غيباً، وذلك لتصديقه بما جاء في كتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه ﷺ، والإيمان هو الحياة الحقيقة للإنسان، وهو الذي بسببه يكون له وزن ومنزلة عند الله تعالىٰ، فعلىٰ العبد معرفة حقيقة الإيمان، وما يكمله وما يزيده، وما ينقضه، وما يدخل فيه وما يخرج منه، والعلم بتفاصيل أركانه الستة، ومدارسة الإيمان ما أمكن، فإن الإنسان ما خُلِقَ إلا ليبتلىٰ بالإيمان، وما كانت الدنيا والآخرة والبعث والجزاء إلا لأجل الإيمان، وما أنزل القرآن إلا ليدلنا الله تعالىٰ به علىٰ الإيمان؛ وكل آياته في الإيمان، إما دعوة إليه، أو تحذيرا من ضده، أو بيانا لأجزائه وأحكامه، أو ذكر عاقبة محققيه وتاركيه، فالإيمان هو علة وجود العبد، وسبب ابتلائه، وجزاء ثوابه أو عقابه، فلزاماً علىٰ العبد أن يحقق الإيمان ويحفظه عما يناقضه.

---

(١) «الصلاة وأحكام تاركها» (٥٠).

المبحث الرابع : الدعوة إلىٰ الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة

أكرم الله تعالىٰ الأمة الإسلامية بتمام الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه العبد في دنياه، وما يبتغيه في أخراه، فجعل تمام الشريعة من أجل النعم علىٰ العباد فقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة :٣]، وجاءت الشريعة سابغة علىٰ حياة العباد وعلاقتهم بالله تعالىٰ، فلم تترك خيرا إلا دلت العباد عليه ولا شرّاً إلا حذرتهم منه، وإن من الشرور التي جاءت الشريعة بنبذها والتحذير منها الابتداع في هذا الدين؛ ذاك أنه يخالف السمة العظيمة التي اتسمت بها الشريعة وهي الكمال فلم تدع لأحد مجالاً أن يزيد؛ إذ الزيادة نقصان؛ لأنه لا أتم من النهج الرباني الذي شرعه الله تعالىٰ لعباده، ولذا أنكر الله تعالىٰ علىٰ من يأت في الشرع بما لم يأذن به الله تعالىٰ، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ :٢١].

وجاءت نصوص السنة حاضة علىٰ التمسك بالسنة ونبذ البدعة والتنفير منها وجعلت غياهب الضلالة ملازمة للبدعة، عن عائشة قالت: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُو رَدٌّ»(١)، ولمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ»(٢)، وفي حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قول النبي ﷺ في خطبة الجمعة: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وخَيْرُ الهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ، وشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلُّ بدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٣)، وعن العِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧).

رَسُولُ اللهِ ﷺ قال : « ... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بهَا وعَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ وإِيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بدْعَةٌ وكُلَّ بدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ »[١] .

وعلىٰ هذا النهج سار علماء الصحابة ومن بعدهم من علماء الإسلام إلىٰ عصرنا الحاضر ، ومن أولئك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فقد كانت الدعوة لاتباع السنة والحث عليها والتزامها ونشرها بين الناس ، ونبذ البدعة وبيان بطلانها وضلالتها سمة ظاهرة في مؤلفاته ، ومن ذلك تفسيره لكتاب الله تعالىٰ ، ومن تتبع علم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علم حرصه علىٰ ما جاءت به الشريعة والتزامه الدليل ، والبعد عن كل ما خالفه ، ومن ذلك قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ما جاءت به الشريعة شريعة محمد ﷺ - هو الحقّ ؛ وعلىٰ هذا فيكون ما سواه باطلاً ، ويتفرع علىٰ هذه الفائدة : بطلان البِدَع بجميع أنواعها ؛ لأن البدع مخالفة لما جاء به النبي ﷺ ، فإن البدعة المذمومة هي : التعبُّد لله تعالىٰ بما لم يشرعه ، من عقيدة أو قول أو عمل ، فكل بدعة فهي باطلة ؛ لأنها مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ »[٢] ، وتعددت المواضع في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحث علىٰ التزام السنة والتحذير من البدعة .

- المضامين الدعوية في الدعوة للالتزام بالسنة والتحذير من البدعة .

أولاً : تعريف البدعة .

بضدها تتمايز الأمور ، فمن عرف حدَّ البدعة وأمثلتها واجتنبها ، سار علىٰ سنة المصطفىٰ ﷺ .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، الترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) ، وصححه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (٤٦٠٧) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٠٠) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٢) .

والبدعة في اللغة : تأتي مادة (بدع) في اللغة[١] بمعنىٰ الشيء المخترع علىٰ غير مثال سابق ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف :٩] .

وأما البدعة في الشرع فقد جاء تعريفها في كتب العلماء بمضمون متقارب ، ومن ذلك :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « البدعة في الدين هي ما لم يشرعه الله ورسوله وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب »[٢] .

وقال الإمام الشاطبي : « البدعة طريقة في الدين مخترعة ، تضاهي الشرعية ، يُقصد بالسلوك عليها ما يُقصد بالطريقة الشرعية »[٣] .

وقال ابن رجب الحنبلي : « والمراد بالبدعة : ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه ، فأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه ، فليس ببدعة شرعا ، وإن كان بدعة لغة »[٤] .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « البدعة شرعًا ضابطها : التعبد لله بما لم يشرعه الله ، وإن شئت فقل : التعبد لله تعالىٰ بما ليس عليه النبي ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون ، فالتعريف الأول مأخوذ من قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ

---

(١) انظر : « مختار الصحاح » للرازي (١ / ٣٠) و« معجم مقاييس اللغة » لابن فارس (١ / ٢٠٩)و « لسان العرب » لابن منظور ، (٨ / ٦) و« النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير ، (١ / ١٠٦) ، مادة (بدع) .

(٢) « مجموع الفتاوىٰ (٤ / ١٠٧) .

(٣) « الاعتصام » (١ / ٤٧) .

(٤) « جامع العلوم والحكم » (٢ / ١٢٧) ، وانظر تعريف ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للبدعة في « فتح الباري » (١٣ / ٢٥٣) ، وانظر مزيداً في معنىٰ البدعة وضوابطها : « أقسام البدعة وأحكامها » لأحمد عبدالكريم نجيب(٢٥) ، و« معيار البدعة » للجيزاني (١٥) ، و« البدع العملية المتعلقة بالقرآن الكريم » لأحمد آل عبدالكريم (١٦) .

لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورىٰ :٢١] ، والتعريف الثاني مأخوذ من قول النبي ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور »[١] فكل من تعبد لله بشيء لم يشرعه الله ، أو بشيء لم يكن عليه النبي ﷺ ، وخلفاؤه الراشدون فهو مبتدع سواء كان ذلك التعبد فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته أو فيما يتعلق بأحكامه وشرعه . أما الأمور العادية التي تتبع العادة والعرف فهذه لا تسمىٰ بدعة في الدين وإن كانت تسمىٰ بدعة في اللغة ، ولكن ليست بدعة في الدين وليست هي التي حذر منها رسول الله ﷺ ، وليس في الدين بدعة حسنة أبدًا »[٢] .

وقال أيضـًا : « كل من تقرَّب إلىٰ الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم ، لا يقبل الله منه تعبده ، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[٣] »[٤] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحُجُرات :١] ، قال : « ومن التقدُّم بين يدي الله ورسوله البدع بجميع أنواعها ، فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله ؛ بل هي أشد التقدم ؛ لأن النبي ﷺ قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، وإياكم ومحدثات الأمور » ، وأخبر بأن « كل بدعة ضلالة »[٥] ، وصدق (فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك علىٰ الله ورسوله ما فات ، مما يدعي أنه شرع ، كأنه يقول : إن الشريعة

---

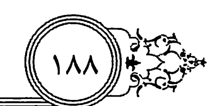
(١) تقدم تخريجه .

(٢) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٢ / ٢٩٢) .

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨) .

(٤) « تفسير سورة الحجرات »(١١) .

(٥) تقدم تخريجه .



لم تكمل ، وأنه كملها بما أتىٰ به من البدعة ، وهذا معارض تماماً لقوله تعالىٰ : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة :٣] .

فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع : أهذا الذي فعلته كمال في الدين؟ إن قال : نعم ، فإن قوله هذا يتضمن أو يستلزم تكذيب قوله تعالىٰ : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة :٣] ، وإن قال : ليس كمالاً في الدين ، قلنا : إذن هو نقص ؛ لأن الله يقول : ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس :٣٢] ، فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله ، وأنه ناقص ، وأن هذا المبتدع كمله بما ادعىٰ أنه من شريعة الله عَزَّوَجَلَّ فالمبتدعون كلهم تقدموا بين يدي الله ورسوله ، ولم يبالوا بهذا النهي حتىٰ وإن حسن قصدهم ، فإن فعلهم ضلالة ، وقد يُثاب علىٰ حسن قصده ، ولكنه يؤزر علىٰ سوء فعله ، ولهذا يجب علىٰ كل مبتدع علم أنه علىٰ بدعة أن يتوب منها ، ويرجع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ويلتزم سنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده »(١) .

ثانياً : ما يتحقق به اتباع السنة .

أكثر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره من الحث علىٰ ما يتعلَّق بالتمسك بالشريعة واتباع السنة استناداً للدليل ، ليتحقق البعد عن الابتداع في الدين ، وبذلك تُحفظ الشريعة من زيادات المبتدعة وإضلالهم ، فقال في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة :٩] ، بعدما ذكر شرطي قبول العمل الصالح : الإخلاص والمتابعة ، قال : « ولا تتحقق المتابعة إلا إذا وافق العمل الشريعة في أمور ستة ، الأول : السبب ، والثاني : الجنس ، والثالث :

---

(١) « تفسير سورة الحجرات » (٩٨) .

النوع، أو الكيفية والتعبير بالكيفية أوضح، والرابع: القَدْر، والخامس: المكان، والسادس: الزمان، فلابد أن تكون الموافقة للشريعة هذه الأمور الستة.

فمن تعبَّد لله عبادةً علَّقها بسبب لم يجعله الله ورسوله سبباً، فالعبادة باطلة؛ لأنها بدعة مردودة، مثال ذلك: أن يقول المرء كلما لبس ثوباً: اللهم صلِّ علىٰ محمد، فقيل له: لماذا؟ قال: أتذكر لبس النبي ﷺ للثوب فأصلي عليه، فنقول له: هذه العبادة بدعة؛ لأنها لم تَرِد عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه أنهم كانوا يصلون علىٰ النبي إذا أرادوا اللباس.

ولابد أيضاً أن يكون موافقاً للشرع في جنس العبادة، فإن تعبَّد لله بما لم يشرع جنسه فالعبادة مردودة عليه، ومثال ذلك: أن يضحي بفرس بدلاً عن البقرة، فنقول: هذه الأضحية غير مقبولة؛ لأنها ليست من جنس ما شرع الله ورسوله فلا تُقبل.

وأيضاً لابد أن يكون موافقاً في النوع أو الكيفية، وهو أخص من الجنس، فمن تعبَّد لله عَزَّوَجَلَّ بعبادة لم يشرع نوعها، فإنها لا تُقبل، كما لو أحدث أذكاراً مشروعة من حيث الجنس، لكنها لنوع آخر فإنها لا تُقبل؛ لقول الرسول ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[1]، وكما لو سجد قبل الركوع فإنها لا تُقبل؛ لمخالفة الشريعة في الكيفية، وتقدَّم أننا أحياناً نُعَبِّر بالنوع وأحياناً بالكيفية، فالنوع هو الكيفية.

كذلك أيضاً لابد أن يكون العمل موافقاً للشرع علىٰ قَدْر العبادة، فلو تعبَّد الله تعالىٰ بعبادة زائدة أو ناقصة لم تُقبل منه، كما لو صلىٰ الظهر خمساً أو صلاها ثلاثاً لم تُقبل؛ لمخالفة الشريعة في العدد.

---

(١) تقدم تخريجه.

ولابد من أن يكون العمل موافقاً للشرع في مكان العبادة ، كما لو اعتكف الإنسان في بيته بدلاً عن المسجد وانقطع للعبادة في البيت ، فإنها لا تُقبل ؛ لأنها غير موافقة للشرع في المكان .

ولابد من موافقة العمل للشرع في زمان العبادة ، كما لو صام الإنسان في غير رمضان عن رمضان ، لم تُقبل ؛ لأنه في غير الزمن المشروع ، وكذلك لو وقف بعرفة في غير يوم عرفة ، أو رمى الجمرات في غير موسم الحج وما أشبه ذلك ، إذاً العمل الصالح هو ما وافق الشريعة في هذه الأمور الستة »[1] .

وقال في تفسيره مبيناً علامة اتباع الحق والسنة في العمل الصالح - لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٧] : « ومن فوائدها : أن العمل لا يفيد حتىٰ يكون صالحاً ، والصلاح أن ينبني العمل علىٰ أمرين : الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ وضده الشرك ؛ والمتابعة- وضدها البدعة ، فمن أخلص لله في شيء ، ولكنه أتىٰ بعمل مبتدع لم يقبل منه ، ومن أتىٰ بعمل مشروع لكن خلطه بالشرك لم يقبل منه ، وأدلة هذا معروفة »[2] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[الكهف :٢] ، قال : « ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

---

(١) « تفسير سورة المائدة »(١ / ١٥٣ ١٥٥) ، وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأمور الستة في موضع آخر مع ذكر أمثلة أخرىٰ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء :١٢٢] ، « تفسير سورة النساء »(٢ / ٢٤٨ ٢٥٠) ، وانظر : « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٧ / ٣٣٤ ٣٣٧) ، و« الاعتصام » للشاطبي (٢ / ٦٩ ٧٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣ / ٣٨١) .

ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، يعني يعملون الأعمال الصالحات ، ومتىٰ يكون العمل صالحـًا؟

الجواب : لا يمكن أن يكون صالحـًا إلاَّ إذا تضمن شيئين :

١ . الإخلاص لله تعالىٰ : بإلاَّ يقصد الإنسان في عمله سوىٰ وجه الله والدار الآخرة .

٢ . المتابعة لشريعة الله : ألاّ يخرج عن شريعة الله سواء شريعة محمد ﷺ أو غيره .

ومن المعلوم أن الشرائع بعد بعثة الرسول ﷺ كلها منسوخة بشريعته ﷺ .

وضد الإخلاص : الشرك ، والاتباع ضد الابتداع ، إذاً البدعة لا تقبل مهما ازدانتْ في قلب صاحبها ومهما كان فيها من الخشوع ومهما كان فيها من ترقيق القلب لأنها ليست موافقة للشرع ؛ ولهذا نقول : كُل بدعة مهما استحسنها مبتدعها فإنها غير مقبولة ، بل هي ضلالة كما قاله النبي ﷺ ، فمن عمل عملاً علىٰ وفق الشريعة ظاهراً لكن القلب فيه رياء فإنه لا يقبل لفقد الإخلاص ، ومن عمل عملاً خالصـًا علىٰ غير وفق الشريعة فإنه لا يقبل ، إذاً لا بد من أمرين : إخلاصٍ لله ، واتباعٍ لرسول الله ﷺ وإلاَّ لم يكن صالحـًا »[1] .

ثالثـًا : أنواع البِدَع .

بعدما قرَّر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن البدعة لا تكون إلا مذمومة فليس هناك بدعة حسَنَة كما يردد البعض ، وتقدَّم قوله : « وليس في الدين بدعة حسنة أبدًا »[2] ، ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره أنواع البدع من حيث موضوعها ، فقال : « والبدعة

---

(١) « تفسير سورة الكهف » (١١) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٣٢٣) .

(٢) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٢ / ٢٩٢) ، وانظر : « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٨٨-١٨٩) ، و« تفسير سورة الكهف »(١١) .

أنواع كثيرة : بدع في العقيدة ، وبدع في الأقوال ، وبدع في الأفعال .

أما البدع في العقيدة ، فإنها تدور علىٰ شيئين :

إما تمثيل ، وإما تعطيل . فالتمثيل أن يثبت لله تعالىٰ الصفات ، لكن علىٰ وجه المماثلة ، فإن هذا بدعة ؛ لأنه لم يكن من طريق النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- وخلفائه الراشدين ، فيكون بدعة ، فمثلاً يثبت أن لله وجهاً ويجعله مماثلاً لأوجه المخلوقين ، أو أن لله يداً ويجعلها مماثلة لأيدي المخلوقين ، وهلم جرا ، فهؤلاء مبتدعة بلا شك ، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ :١١] ، ولقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص :٤] ، ولقوله تعالىٰ : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم :٦٥] .

أما التعطيل فهو أن ينكر ما وصف الله تعالىٰ به نفسه ، فإن كان إنكار جحد وتكذيب ، فهو كفر ، وإن كان إنكار تأويل فهو تحريف وليس بكفر إذا كان اللفظ يحتمله ، فإن كان لا يحتمله فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب ، فمثلاً إذا قال إنسان : إن الله سبحانه وتعالىٰ قال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة :٦٤] ، والمراد باليدين النعمة نعمة الدين ونعمة الدنيا ، أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة ، فهذا تحريف ؛ لأن النعمة ليست واحدة ، ولا ألف ولا ملايين ، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل :١٨] ، فليست النعمة اثنتين لا بالجنس ولا بالنوع ، فيكون هذا تحريفاً وبدعة ، لأنه علىٰ خلاف ما تلقاه النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم وأصحابه ، والأئمة الهداة من بعدهم .

أما البدعة في الأقوال : فمثل أولئك الذين يبتدعون تسبيحات أو تهليلات أو تكبيرات ، لم ترد بها السنة ، أو يبتدعون أدعية لم ترد بها السنة ، وليست من الأدعية المباحة .

وأما بدع الأفعال : فمثل الذين يصفقون عند الذكر ، أو يهزون رؤوسهم

عند التلاوة تعبداً، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني، وكذلك الذين يتمسَّحون بحجرة النبي ﷺ، حجرة قبره الشريف، وكذلك الذين يتمسَّحون بالمنبر الذي يقال إنه منبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وكذلك الذين يتمسحون بجدران مقبرة البقيع أو بغير ذلك.

والبدع كثيرة: العقدية والقولية والفعلية، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله، وكلها معصية لله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحُجُرات: ١]، والنبي ﷺ يقول: «إياكم ومحدثات الأمور»[١].

ومن البدع ما يُصنع في رجب، كصلاة الرغائب التي تُصلَّىٰ ليلة أول جمعة من شهر رجب، وهي صلاة ألف ركعة يتعبدون لله بذلك، وهذا بدعة لا تزيدهم من الله إلا بعداً؛ لأن كل من تقرَّب إلىٰ الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم، لا يقبل الله منه تعبده، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢]»[٣].

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره نماذج من البدع الاعتقادية والعملية غير ما تقدَّم، واجتهد في التحذير منها بمنهج علمي مقرون بالدليل والمثال؛ ليكون المسلم منها علىٰ بال، فيحذرها، ومن جملة البدع التي حذَّر منها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره قوله ما يلي:

- «وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة سورة الفاتحة- بدعة،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «تفسير سورة الحجرات» (١٠ ١١).

فصاروا يختمون بها الدعاء، ويبتدئون بها الخُطب ويقرؤونها عند بعض المناسبات، وهذا غلط، تجده مثلاً إذا دعا، ثم دعا قال لمن حوله: «الفاتحة»، يعني اقرؤوا الفاتحة؛ وبعض الناس يبتدئ بها في خطبه، أو في أحواله، وهذا أيضـًا غلط؛ لأن العبادات مبناها علىٰ التوقيف، والاتِّباع»[١].

- «ومن ابتدع في دين الله ما ليس منه كما لو رتب أذكاراً معينة في وقت معين فإن ذلك لا يقبل منه، حتىٰ ولو كان ذكر الله لو كان تسبيحـًا، أو تحميداً، أو تكبيراً، أو تهليلاً ولكنه رتبه علىٰ وجه لم ترد به السنة فإن ذلك ليس مقبولاً عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه عمل عملاً ليس عليه أمر الله ورسوله»[٢].

- «أيضـًا ما أحدثه بعض الناس عند الدفن وذلك بأن يقوم أحدهم خطيبـًا، ويخطب ويعظ الناس هذا أيضـًا من البدع؛ لأن الرسول ﷺ لم يفعل هذا، وغاية ما ورد عن الرسول ﷺ أنه انتهىٰ إلىٰ القبر مع أصحابه ولـمَّا يلحد، يعني: ما تم تلحيد القبر، فجلسوا وجلس النبي ﷺ معهم، وجعل ينكت بمخصرة معه، ينكت بها الأرض، ويحدثهم عن حال الإنسان عند الموت وبعد الدفن[٣]، وهذه ليست خطبة، هذه موعظة وليست راتبة، لم يفعلها الرسول كلما دفن أحداً، بل فعلها لأنه ينتظر التلحيد، فبدلاً من أن يسكت أو يتكلموا في شيء غير مناسب تكلم ﷺ»[٤].

---

(١) «تفسير سورة الفاتحة والبقرة» (١/ ٣-٤)، وانظر أيضـًا: «أحكام من القرآن الكريم (١/ ٤٠).

(٢) «تفسير سورة البروج» (١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٤) «تفسير سورة المائدة» (١/ ١٥٧).

رابعـًا : التأثر بالبدعة لا يسوِّغها .

قد يغتر بعض الـمُبْتَلين بالبدعة إلىٰ استحسانها بسبب ما تحدثه في القلب من تأثير وخشوع ، فيزيِّن الشيطان بدعته في قلب المبتدع من هذا الباب ، حتىٰ يظن أن هذه علامة حقٍّ لصحة العبادة التي تعبَّد بها من غير دليل ، وفي تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحذير من هذا المدخل الشيطاني ، وأن التأثر بالبدع لا يسوِّغ قبولها أو يدل علىٰ صحتها ، والشريعة ردَّت هذا الباب وجعلت الأصل في العبادة المنع إلا بدليل ؛ لأن تسويغ صحة العبادة بناء علىٰ استحسانها قدح في كمال الشريعة ، وسبب في تفرُّق الناس وتناحرهم ، ولقد بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عاقبة هذا الأمر الذي قد يصدر ممن حسنت نيتهم فيوردهم المهالك ، وعدم توفيق الله تعالىٰ لهم ، وأوضح وجوب الإنكار علىٰ المبتدع ، وبيان طريق السنة واتباعها لمن وقع في مثل هذا المنزلق ، ففي تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[آل عمران :١٩] ، ذكر من فوائدها : « أن من عمل عملاً يتعبد به لله علىٰ غير وفق الشرع فهو مردود ؛ لأنه إذا لم يكن موافقـًا للشرع لم يكن من الإسلام فلا يُقبل ، ولكن لا يعني ذلك أن فاعله يكفر ؛ لأن هذا له تفاصيل معروفة عند أهل العلم ، ويؤيد هذا الحكم قول النبي ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[1] ... وعلىٰ هذا فما يحدثه أهل البدع من عبادات قولية أو فعلية يجب أن نعرضها علىٰ السنة ، فإن كانت السنة تؤيدها فهي حق بالسنة ، وإن لم تكن تؤيدها فهي باطلة مردودة علىٰ صاحبها لا تزيده من الله إلا بُعداً ؛ لأن النبي ﷺ حذَّر من البدع وقال : « كل بدعة ضلالة »[2] قد يزيِّن

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

الشيطان لأهل البدع بدعهم ، ويُحدث في قلوبهم رقَّة ، وفي أعينهم دمعة ، ولكن ذلك لا ينفعهم ؛ لأنهم علىٰ خلاف الشرع .

فإذا قال قائل : ما تقولون : هل الأصل في العبادات أن يتعبد الإنسان لله تعالىٰ بما يستحسنه؟ أو الأصل في العبادات المنع والتحريم حتىٰ يثبت أنها مشروعة من عند الله إما في الكتاب أو السنة أو الإجماع؟

الجواب : أن الأصل في العبادات المنع ، فلا يُتعبد لله إلا بما علمنا أنه شرعه أو غلب علىٰ ظننا أنه شرعه بمقتضىٰ طرق الاستدلال : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون :٧١] لو كان كل إنسان يستحسن شيئًا يتعبد الله به صار عبادة لتفرق الناس ، وصار كل طائفة لهم دين ، وكل أهل بلد لهم دين ، وكل أهل زمان لهم دين ، ومسخ الدين الإسلامي ، لكن هنا قواعد .

وعلىٰ هذا فلو رأيت شخصـًا يتعبد لله عَزَّوَجَلَّ بخلاف ما تعرف أنه شرع قل له : لماذا تفعل كذا؟ لماذا تفعل كذا؟ هل هذا وارد؟ إذا قال : نعم وارد ، نقول له : هل ورد علىٰ وجه صحيح؟ إن ثبت ذلك علىٰ وجه صحيح ، قلنا : الحمد لله جزاك الله خيراً ، وزادك من التمسك بدين الله ، وأرشدتنا إلىٰ شيء كنا نجهله .

أما إذا كان ما أورده لا يصح عن النبي ﷺ أو كان يصح عنه لكنه فهمه علىٰ غير ما أراد الرسول ﷺ ؛ فإننا لا نقبله ، وما أكثر الأحاديث الموضوعة الباطلة التي يحتج بها بعض أهل البدع وهي لا أصل لها .

فعليك يا أخي بهذا الأصل ، أي إنسان يتعبد لله بشيء قل له : ما الدليل؟ فإن أتىٰ بدليل فعلىٰ العين والرأس ، ويجب علينا قبول ذلك ، وإن لم يأت بدليل نصحناه وخوفناه من الله عَزَّوَجَلَّ ، وقلنا : لا تجعل نفسك شريكـًا مع الله تُشَرِّع العبادة بدون إذن من الله ، والواجب علىٰ كل مسلم تَبَيَّن له الحق أن يتبعه ،

وتبيَّن له الضلال يجتنبه ، حتىٰ يكون مسلماً حقاً مستسلماً لله عَزَّوَجَلَّ »[1] .

وقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[المائدة :٦٩] : « من فوائد هذه الآية : أن العمل الذي لا يكون موافقاً لشريعة الرسول ﷺ لا يُقْبَل حتىٰ وإن كان بنيَّة خالصة ، ليس فيها شرك ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[2] .

وبناء علىٰ ذلك فإن جميع العبادات البدعية التي يتعبد بها أهلها ، مهما كثرت ، ومهما أثَّرت من لين القلب ودمع العين فإنها لا تنفعهم عند الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لأنها علىٰ غير صراط الله ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام : ٥٣] ، فأي إنسان يتعبد لله عبادة قولية كانت أم فعلية فعليه الدليل علىٰ أن هذه العبادة ثابتة عن رسول الله ﷺ وإلا فإن عمله سيكون هباء ، ويكون وبالاً عليه ؛ لأنه ابتدع في دين الله ؛ فقد النبي ﷺ : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »[3] .

والبدع مهما حُسِّنت في قلوب مبتدعيها- فإنها سيئة ؛ لأن النبي ﷺ قال كلمة عامة شاملة : « كل بدعة ضلالة » ، ولم يستثن النبي ﷺ شيئاً ، والبدع وإن حُسِّنت في قلوب مبتدعيها- فإنها شر ؛ تفرِّق الناس في دين الله ، وتجعل كل طائفة من الناس تضلل الأخرىٰ ، ويكون كل حزب بما لديهم فرحون ، كما هو الواقع الآن ؛ لما انتشرت البدع في الأمة الإسلامية ، ومنذ زمن بعيد

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٤٣٧-٤٣٩) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

صارت الأمر الإسلامية متفرقة يُضَلِّل بضعها بعضاً ، وربما يصل الأمر إلىٰ أن يُكَفِّر بعضهم بعضاً ، فقد قال الله تعالىٰ : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ :١٣] ، وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام :١٥٩] .

وإنني بهذه المناسبة أوجه النصيحة إلىٰ إخواني المسلمين أن يحرصوا علىٰ أن تكون أعمالهم كلها مبنية علىٰ شريعة الله ، علىٰ ما جاء عن رسول الله ﷺ ، فإن هذه خير الهدي ، وما خرج عن هديه فهو ضلال ، وفتنة ، وبدعة ، وأن يحرصوا أيضاً- علىٰ الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ فلا يفعلوا العبادة من أجل مراءاة الخلق أو سماع الخلق ؛ لأن الخلق لا ينفعونهم ، فلا ينفعهم إلا الخالق عَزَّوَجَلَّ »[1] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد :٢٧] .

قال : « ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يعني من عند أنفسهم ، كما فعلت بعض فرق المسلمين ، ابتدعوا رهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، لكن معهم رقة ورحمة ... ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي : كثير من هؤلاء النصارىٰ فاسق ، أي : خارج عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ، وفي هذا دليل علىٰ أن الإنسان إذا ابتدع بدعة فإنه لا يوفق لإقامتها ، فيكون ضالاً في الأصل ، وضالاً في الفرع ، حتىٰ لو اجتهد ، حتىٰ لو خشع ، إنك تجد كثيراً من الناس الذين ابتدعوا أذكاراً ، أو صلوات ، أو

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٨٨-١٨٩) .

أدعية ، أو ما أشبه ذلك تجدهم خاشعين ، قلوبهم باكية ، قلوبهم خاشعة لكن لا ينفعهم ذلك ، لأنهم علىٰ ضلال ، نسأل الله السلامة والعافية »[1] .

خامسًا : ردُّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره علىٰ المبتدعة وتفنيد شبهاتهم .

إن مما تميَّز به تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بقية التفاسير المصنَّفة ، تفنيده لشبهات المبتدعة بعد بيان معتقدهم وما استندوا إليه ، لاسيما في باب الأسماء والصفات[2] ، بل إن تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أوسع التفاسير في هذا الباب ، ولربما كرَّر الرد كلما تكررت الآيات المناسبة في بيان منهج المبتدعة ، ولذا قال في أحد المواضع : « وليُعلَم أن مثل هذا الدليل في الرد علىٰ الجبرية كثير في القرآن ، وإنما نذكره عند كل آية لينتفع بذلك من يريد إحصاء الأدلة علىٰ هؤلاء ؛ وإلا فالدليل الواحد كافٍ لمن أراد الحق »[3] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة :٤٢] ، قال : « من فوائدها : تحريم لبس الحق بالباطل ؛ لأن الله تعالىٰ نهىٰ عنه بنىٰ إسرائيل ، وما نُهِيَ عنه بنو إسرائيل مما هو قبيح لذاته يُنهىٰ عنه سائر الأمم ، ويتفرع عن هذه الفائدة : التحذير مما يصنعه أهل البدع من زخارف القول التي يريدون بها أن يمكنوا بدعهم في قلوب الناس ، فإنك إذا قرأت كتبهم ظننت أن الحق معهم ، ولكن عند التأمل يتبيَّن أنهم يريدون إلباس الحق بالباطل ؛ ولهذا تجدهم يأتون بعبارات مجملة ؛ فيقولون مثلاً : إن الله تعالىٰ ليس في حيِّز ، وليس في جهة ، وليس بجسم ، وما أشبه ذلك من العبارات

---

(١) « تفسير سورة الحديد »(٤٢٨ ٤٢٩) .

(٢) وسيأتي مزيد بيان ونماذج في الفصل الرابع : أصناف المدعوين وخصائصهم وفيه : (دعوة أهل البدع) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٣٤٢) .



التي يريدون بها التوصل إلىٰ إنكار صفات الله عَزَّوَجَلَّ وإنكار علوه علىٰ خلقه، فإذا قرأ القارئ مثل هذا الكلام، وما نبهوا به من العبارات التي يحسبها الظمآن ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، إذا قرأ القارئ هذا الذي كتبوا ظنَّ أن هذا هو الصواب »[١].

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، قال: « ومن فوائدها: إبطال بدعتين ضالتين، إحداهما بدعة الحلولية القائلين بأن الله تعالىٰ في كل مكان بذاته، فإن قول هؤلاء باطل يبطله السمع، والعقل، والفطرة أيضًا، الثانية: قول النفاة المعطلة الذين يقولون: إن الله لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق العالم، ولا تحته، ولا يمين العالم، ولا شمال العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم، وهذا القول، قال بعض أهل العلم: لو قيل لنا: صفوا لنا العدم ما وجدنا وصفًا أدق من هذا »[٢].

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: « ومن فوائد الآية وأحكامها: إثبات صفتي السمع والعلم لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن السميع والعليم اسمان مشتقان من السمع والعلم، فلابد أن يتضمنا هذه الصفة، ولا نقول كما قال أهل البدع: إنه سميع بلا سمع، وعليم بلا علم »[٣].

ومما يوضحه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب هو الاستدراك علىٰ المفسرين وتنبيهه علىٰ ما وقع من بعض المفسرين من أخطاء عقدية تتعلق بتأويل الأسماء

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٤٤).

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ١٥).

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٤٢).

والصفات أوردوا فيه كلام المبتدعة ، ومن ذلك تعقُّبه علىٰ تفسير الجلالين[1] في سورة (ص) عند قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قال المؤلف : « ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ : أي أجريت » ، وكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوَّل النفخ بالإجراء ، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية ، فظاهر الآية أن الله تعالىٰ نفخ فيه من روحه ، وهذا النفخ نثبته علىٰ ظاهره ، لكن بدون أن يكون مماثلاً لنفخ المخلوقين »[2] .

ويؤخذ من هذه المضامين الدعوية المتعلِّقة بالتمسك بالسنة والحذر من البدعة ، أهمية هذا الباب عند علماء الإسلام ، وشدة منافحتهم عن السنة ، وبيانها ووجوب التمسك بها ، ونبذ البدع وطرائقه التي لازالت في كل عصر تتجدد بتجدد الفرق الضالة المستحسنة لعبادات ما أنزل الله تعالىٰ بها من سلطان ، وما إنكار العلماء للبدعة والقرب منها إلا صيانة للشريعة التي أكملها الله تعالىٰ ، فعلىٰ العبد أن يتعبد لله تعالىٰ بما شرع لا بما تمليه العقول وتستحسنه النفوس ، ولا يكون العبد علىٰ السنة حتىٰ يأتي بشرطي قبول العمل الإخلاص والمتابعة ، والمتابعة لا تتحق إلا إذا وافق العمل الشريعة في السبب والجنس والكيفية والقَدْر والمكان والزمان ، ومن لزم السنة سَلِم من ظلمات البدعة وضلالاتها التي عجَّت في أوساط كثير من الشعوب اليوم في العقائد والأقوال والأفعال وتقدَّم في المضامين أمثلتها- وكل ذلك بسبب الحَيْدة عن صراط

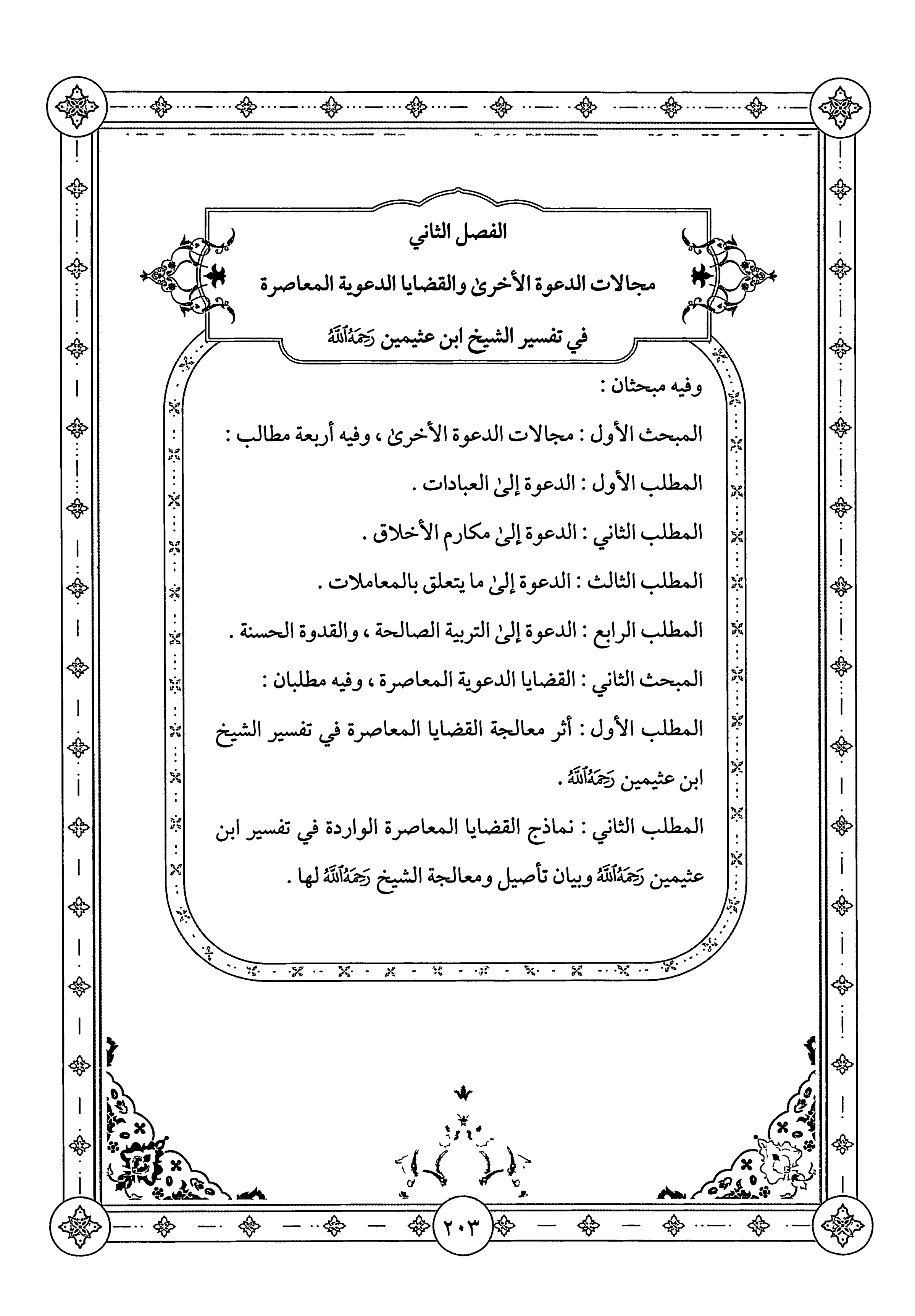
---

(١) نسبة إلىٰ مُؤلِّفيْهِ : جلال الدين المَحلِّي ، وجلال الدين السيوطي ، ابتدأ الجلال المَحلِّي : من سورة الكهف إلىٰ الناس مع سورة الفاتحة ثم مات سنة ٨٦٤ هـ ، ثم أكمله الجلال السيوطي من سورة البقرة إلىٰ آخر سورة الإسراء ، في مستهل شهر رمضان سنة ٨٧٠ هـ وانتهىٰ منه في العاشر من شوال من نفس السنة ، وتوفي سنة ٩١١هـ ، انظر : « طبقات المفسرين » للداودي (١ / ١٠١) ، و« شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لابن العماد (٩ / ٤٤٨) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٣٥) .

السنة والتزامه، والتأثر بالبدعة واستحسانها حتىٰ كثرت أنواعها وكل فرقة ضلَّت أوغلت في أصناف من البدع، وما برح علماء الإسلام يردُّون عليهم ويبيِّنون شريعة الله تعالىٰ التي أنزلها في كتابه جل وعلا وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، وواجب الردِّ علىٰ دعاة الإسلام اليوم أعظم لفشوِّ البدع وتنوِّعها لاسيما مع وسائل العصر التي أصبح نقل البدع من خلالها أكثر سهولة وأسرع انتشارا والواقع خير شاهد، فعلىٰ الدعاة نشر السنَّة وبيان أهميتها، وحث الأمة علىٰ التزامها، والتحذير من البدع ومزالق المبتدعة مع بيان عوار منهجهم وسبب انحرافهم عن جادة السلف الصالح وعقيدة أهل السنة والجماعة؛ لتستقيم حياة الناس بصواب تعبدهم لله تعالىٰ بما شرع، لا بما ابتدع من ضل عن سواء الصراط، نسأل الله تعالىٰ أن يثبتنا علىٰ السنَّة ويجنِّبنا البدع بأنواعها إنه سميع مجيب.





الفصل الثاني

مجالات الدعوة الأخرىٰ والقضايا الدعوية المعاصرة في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : مجالات الدعوة الأخرىٰ ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الدعوة إلىٰ العبادات .

المطلب الثاني : الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق .

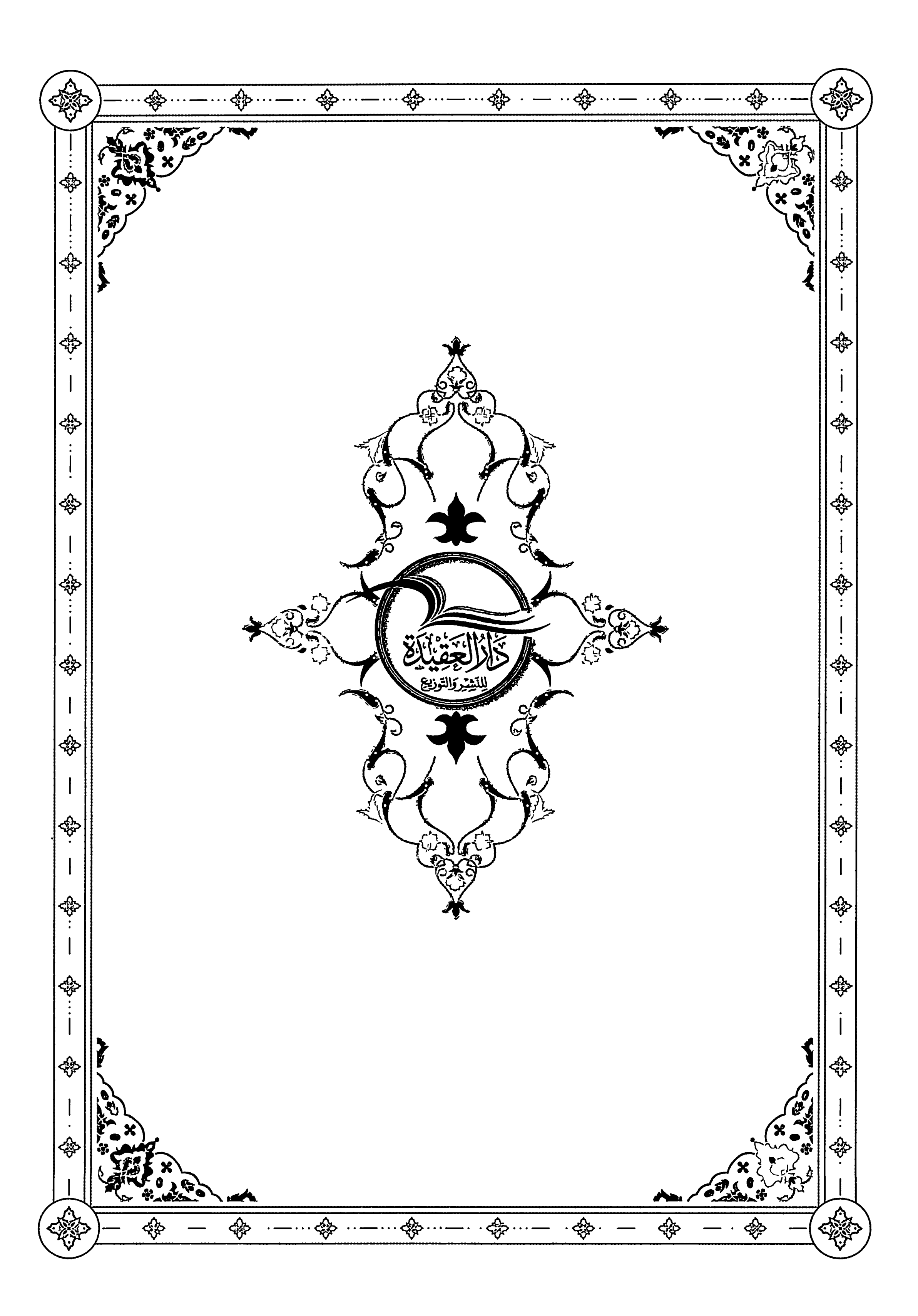
المطلب الثالث : الدعوة إلىٰ ما يتعلق بالمعاملات .

المطلب الرابع : الدعوة إلىٰ التربية الصالحة ، والقدوة الحسنة .

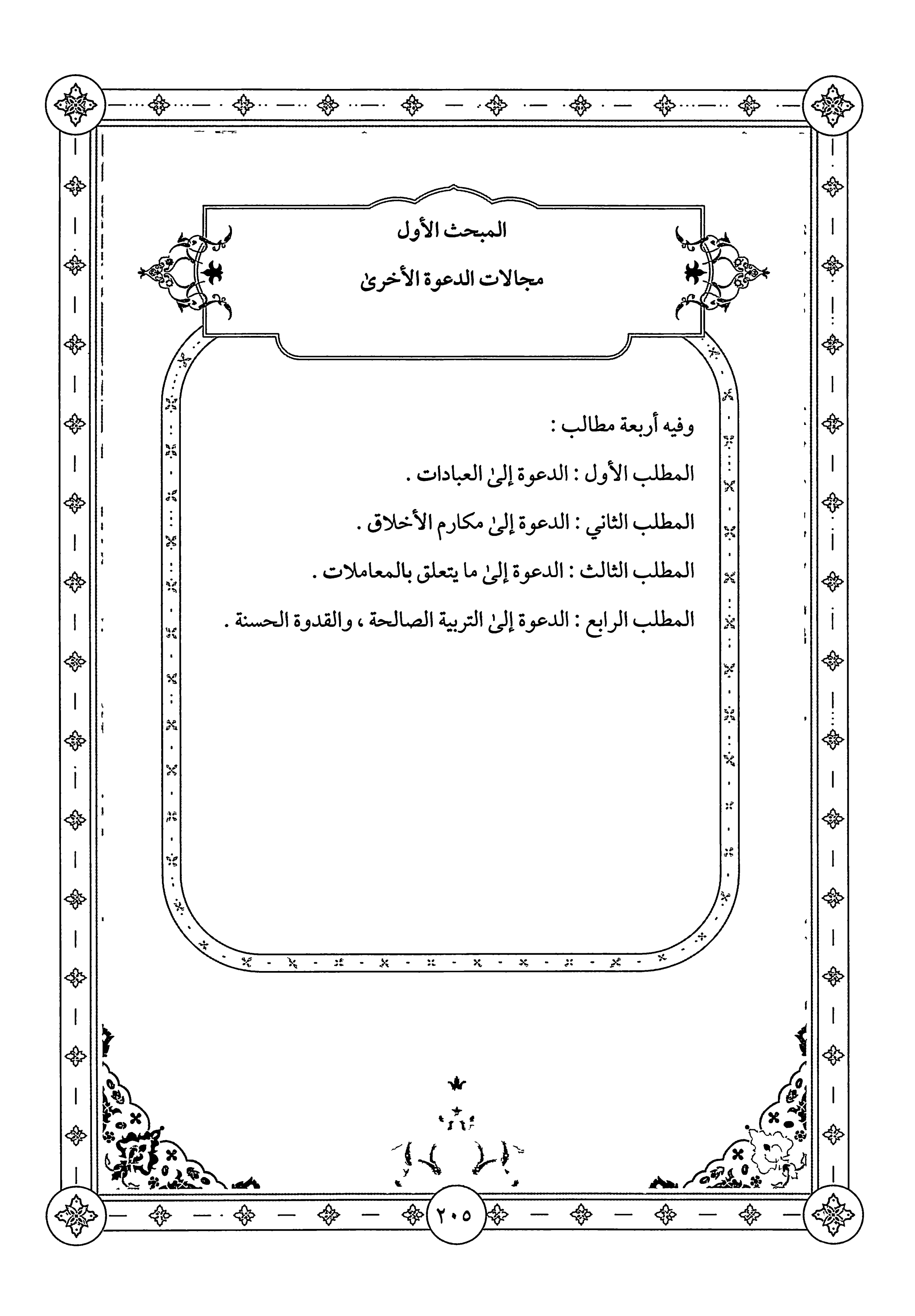
المبحث الثاني : القضايا الدعوية المعاصرة ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أثر معالجة القضايا المعاصرة في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبيان تأصيل ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها .



دار العقيدة
للنشر والتوزيع



المبحث الأول

مجالات الدعوة الأخرىٰ

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الدعوة إلىٰ العبادات .

المطلب الثاني : الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق .

المطلب الثالث : الدعوة إلىٰ ما يتعلق بالمعاملات .

المطلب الرابع : الدعوة إلىٰ التربية الصالحة ، والقدوة الحسنة .

المبحث الأول: مجالات الدعوة الأخرىٰ في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ

لم يكن تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مقصوراً علىٰ جانب من جوانب الدعوة دون غيره، فمن تأمل تفسيره عرف شمولية احتوائه علىٰ مجالات الدعوة ومناقشتها والحث عليها، فبعد ذِكْر جوانب الدعوة في العقيدة التي تناولها تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، جاء الحديث عن الجوانب الدعوية الأخرىٰ في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، ولقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره يؤكد علىٰ استيعاب القرآن لجميع مجالات الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن القرآن الكريم هو منهج حياة الإنسان، ولطالما أكد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ شمولية القرآن بل آياته لمجالات الدعوة كاملة، ومن أمثلة ذلك قوله: «وإذا نظرنا إلىٰ هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢]، وجدنا أن الله تعالىٰ بيَّن كل شيء، بيَّن ما يلزم الناس في العقيدة، وما يلزمهم في العبادة، وما يلزمهم في الأخلاق، وما يلزمهم في المعاملات، وما يجب عليهم اجتنابه في هذا كله، حتىٰ قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد توفي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم- وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما»[1]، وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي: علمكم نبيكم حتىٰ الخراءة، قال: أجل علمنا حتىٰ الخراءة[2]، يعني: حتىٰ

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٥/ ٢٩٠) (٢١٣٦١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٣): رواه أحمد والطبراني، ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة».

(٢) أخرجه مسلم (٥٧) من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ الخِرَاءَةَ قال: فقال: أَجَلْ «لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ=

آداب قضاء الحاجة علمها النبي ﷺ أمته ، ويؤيد هذا قوله تعالىٰ : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة :٣] »[1] .

ولا تكتمل الدعوة إلا بالدعوة إلىٰ مجالات الشريعة بأكملها ؛ لترابط مجالاتها من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات وتربية ارتباطا وثيقا ، ولما كانت عبادة الله تعالىٰ هي الحكمة العظمىٰ من إيجاد الخَلِيْقة علىٰ هذه البسيطة ذكرها الله جل وعلا بقوله : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذاريات :٥٦] ، وتوحيد العبادة إنما يكون بالعقائد أولاً كما تقدَّم بيانه في الفصل السابق ، ولذا كانت العقيدة رأس أركان الإسلام ثم عبادة الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وهذه العبادات وإن كانت في أصلها لتحقيق العبودية لله تعالىٰ إلا أن من ثمراتها التربية علىٰ مكارم الأخلاق ، ففي الصلاة قال تعالىٰ : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾[العنكبوت :٤٥] ، وفي الصوم قال ﷺ : « إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ ولاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ »[2] ، وفي الزكاة قال تعالىٰ : ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة :١٠٣] ، وفي الحج قال تعالىٰ : ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾[البقرة :١٩٧] ، والمعاملات الدائرة بين الخلق اليوم إنما تفسد بفساد الأخلاق ، فما انتشر الغش في البيع والشراء ، والكذب في سائر العقود وفسادها إلا بعدما فسدت الأخلاق ، وعندها كانت تربية النفس وتربية الرعيَّة التربية الحسنة من أهم ما يستقيم به

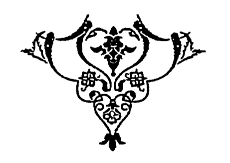
= باليَمِينِ ، أوْ أنْ نَسْتَنْجِيَ بأقَلَّ مِنْ ثَلاثَةِ أحْجَارٍ ، أوْ أنْ نَسْتَنْجِيَ برَجِيعٍ أوْ بعَظْمٍ » .

(١) « تفسير جزء عم » سورة الليل (٢٣٠) .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١٦٣) .

الحال ، ويصلح به المعْوج ، ويعمُّ به الرخاء والحياة الطيبة المنشودة في الدنيا ، وحسن المآل في الأُخرىٰ .

وإن من فريضة الأمر علىٰ الخلق استشعارهم بأن الحياة الطيبة التي يقصدونها لا تتحقق إلا بالإتيان بشرائع الله كما ينبغي ، وأن هذا الدين بجميع مجالاته نعمة عظيمة يتجلىٰ فيه أطيب العيش وأزكاه ، فهو الملاذ الذي تحتاجه القلوب والنفوس المطمئنة ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مبيناً أهمية الأخذ بمجالات الدعوة كاملة المتمثلة في الشريعة الغراء ، وربطها بحياة الناس : « لا يمكن أن تستقيم حياة الخلق التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة إلا بالشرائع : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] . فالمؤمن العامل بالصالحات هو الذي له الحياة الطيبة في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة »[١] .



---

(١) « تفسير جزء عم » سورة التكوير (٧٧-٧٨) .

المطلب الأول : الدعوة إلىٰ العبادات

العبادة في اللغة هي الطاعة مع الخضوع[١] ، وقيل : العبادة : الطاعة مع الخضوع والتذلل[٢] ، والعبودية : إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل[٣] .

وفي الاصطلاح : عرَّف العبادة جمع من العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ومنهم شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله : « العبادة : هي التذلل لله عَزَّوَجَلَّ بالطاعة ؛ وذلك بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه »[٤] .

ومن أجمع التعريفات للعبادة ، تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال : « العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه : من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة ؛ وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلىٰ الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه ؛ والتوكل عليه ؛ والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة

---

(١) انظر : « تهذيب اللغة » للأزهري (٢ / ١٣٨) ، مادة (عبد) .

(٢) انظر : « المُطلِع علىٰ ألفاظ المُقنِع » للبعلي(١١٨) ، وانظر : « الكُلِّيات » للكفوي (٩٠٣) ، وانظر : « التوقيف علىٰ مهمات التعاريف » للمُناوي(٢٣٥) .

(٣) « الكليات »(٥٨٣) .

(٤) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٤٧) .

لله ، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات :٥٦] »[1] ، ومن خلال تعريف شيخ الإسلام الشامل وما يدخل في مضمون العبادة تلحظ ذكره لجملة من العبادات الظاهرة والباطنة ودخولها في مفهوم العبادة ، وفي تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الدعوة إلىٰ العبادات الظاهرة والباطنة ، التي سيأتي الكلام علىٰ أضرب منها .

ولقد جاءت النصوص متضافرة علىٰ الحث علىٰ عبادة الله التي من أجلها قامت الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[النساء :٣٦] ، وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الحج :٧٧] ، وقال : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾[العنكبوت :٥٦] ، وقال : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[البيّنة :٥] ، وقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾[قريش :٣]

وعن أَنَسِ بن مَالِكٍ ، عَنْ مُعَاذِ بن جَبَلٍ ، قال : كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ ، فَقَالَ : « يا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ ، وسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قال : « يا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قال : « يا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ ، قال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ؟ » قال : قُلْتُ : اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال : « **فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، ولَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** » ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قال : « يا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ ، وسَعْدَيْكَ ، قال :

---

(١) « مجموع الفتاوىٰ » (١٠ / ١٤٩-١٥٠) .

« هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ » قال : قُلْتُ : اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال : « أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ »(١) .

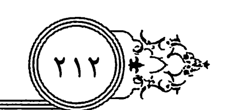
وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فِي حَدِيثِهِ هَذَا : أَنَّ أُنَاسًا مِنْ عبد القَيْسِ قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ ، إِنَّا حَيٌّ مِنْ رَبِيعَةَ ، وبَيْنَنَا وبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ ، ولَا نَقْدِرُ عَلَيْكَ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الحُرُمِ ، فَمُرْنَا بأَمْرٍ نَأْمُرُ بِهِ مَنْ ورَاءَنَا ، ونَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ إِذَا نَحْنُ أَخَذْنَا بِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « آمُرُكُمْ بأَرْبَعٍ ، وأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : اعْبُدُوا اللهَ ولَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وآتُوا الزَّكَاةَ ، وصُومُوا رَمَضَانَ ، وأَعْطُوا الخُمُسَ مِنَ الغَنَائِمِ ، وأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنِ الدُّبَّاءِ ، والحَنْتَمِ ، والمُزَفَّتِ ، والنَّقِيرِ »(٢) .

والنصوص في الحث علىٰ العبادة ومضمونها وشأنها وأنواعها وشرائطها وأركانها وما يتعلق بها أكثر من أن تُحصَر ، ولما كانت العبادة هي المقصودة في هذه الحياة لزم الصبر عليها والمجاهدة علىٰ تحقيقها كما ينبغي ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، في بيان هذا المعنىٰ : « كثير من الناس يكون فيه كسل عن الصلاة مع الجماعة مثلاً : لا يذهب إلىٰ المسجد يقول أصلي في البيت وأديت الواجب فيكسل فقال له : يا أخي أصبر نفسك ، احبسها كلفها علىٰ أن تصلي مع الجماعة . كثير من الناس إذا رأىٰ زكاة ماله كثيرة شحَّ وبخل وصار يتردد . أُخرج هذا المال الكثير ، أو أتركه وما أشبه ذلك . فيقال له : يا أخي اصبر نفسك علىٰ أداء الزكاة ، وهكذا بقية العبادات فإن العبادات كما قال الله تعالىٰ في الصلاة : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة : ٤٥] . أكثر عباد الله تجد أن العبادات عليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٧) ، ومسلم (٤٨) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦) ، وأما البخاري فرواه من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا (٥٣) .



ثقيلة، فهم يتواصون بالصبر على الطاعة »[١]

- **المضامين الدعوية المتعلِّقة بالعبادات الظاهرة والباطنة.**

١- الدعوة إلى الصلاة.

والصلاة لغة: الدعاء[٢]، وقيل: الصلاة في اللغة مشتركة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة[٣].

وفي الاصطلاح: قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « واعلم أن ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من الكلمات التي نقلها الشارع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فمعناها في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾[التوبة:١٠٣]، أي ادعُ لهم بالصلاة، فقل: صلى الله عليكم؛ ولكنها في الشرع: عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم »[٤].

- **أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بالدعوة إلى الصلاة:**

أولاً: ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية الصلاة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ﴾[النجم:٦٢]، حيث قال: « اسجدوا لله خضوعاً وذلاً، والمراد بالسجود هنا الصلوات كلها، وليس الركن الخاص الذي هو السجود، وليس أيضاً سجود التلاوة بل هو عام في كل الصلوات، ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾، هذا عام لكل

---

(١) « تفسير جزء عم » سورة العصر (٣١٢).

(٢) انظر: « مختار الصحاح » للرازي (١٧٨) وانظر: « لسان العرب » لابن منظور (١٤/ ٤٦٥)، مادة (صلا).

(٣) « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » للفيومي (١/ ٣٤٦)، مادة (صلي) وانظر: « تاج العروس » للزبيدي (٣٨/ ٤٣٩)، مادة (صلو).

(٤) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ٢٧٨)، وانظر: « تفسير جزء عم » سورة الأعلى (١٦٩).

العبادات، وخص الصلاة بالذكر وقدَّمها؛ لأنها أهم العبادات البدنية الظاهرة بعد الشهادتين، وعلىٰ هذا فيكون العطف في قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾، علىٰ قوله: ﴿فَٱسۡجُدُواْ﴾، من باب عطف العام علىٰ الخاص»[1].

ثانيًا: ذكر فضيلة الصلاة وأنها عونٌ للعبد في حياته، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥]، قال: «ومن فوائد الآية: فضيلة الصلاة، حيث إنها مما يستعان بها علىٰ الأمور، وشؤون الحياة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه؛ وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر صلىٰ[2]؛ ويؤيد ذلك اشتغاله لله في العريش يوم بدر بالصلاة، ومناشدة ربه بالنصر[3].

فإن قال قائل: كيف تكون الصلاة عونـًا للإنسان؟

فالجواب: تكون عونـًا إذا أتىٰ بها علىٰ وجه كامل، وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبِّر ينفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجيس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلِّم تنجلي عنه، وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله،

---

(١) «تفسير سورة النجم» (٢٥٨).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٨/ ٣٣٠) (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩)، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخرجه أبو داود بإسناد حسن». «فتح الباري» (٣/ ١٧٢)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٣٥).
ومدار الحديث: علىٰ محمد بن عبدالله، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «تفرَّد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليمامي، ولم يُوثقه أحد، فهو مجهول».

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٥)، ومسلم (٥٨).

وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يَسلو بها عن كل همّ ؛ لأنه اتصل بالله عَزَّوَجَلَّ الذي هو محبوبه ، وأحب شيء إليه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « جعلت قرة عيني في الصلاة »[(١)] ؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلىٰ بها ، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عونـًا له ؛ لأنها صلاة ناقصة ؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[العنكبوت :٤٥] ؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة ، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر ، هو علىٰ ما هو عليه ، لا لأنَ قلبه لذكر ، ولا تحول إلىٰ محبة العبادة »[(٢)] .

ثالثـًا : ذكر حكم تارك الصلاة ، وذلك عند تفسيره لأول الحجرات ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الحُجُرات :١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ترك الصلاة مثلاً ترتفع به التقوىٰ نهائيـًا ؛ لأن تارك الصلاة كافر ، كما دلَّ علىٰ ذلك كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ ، وأقوال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ، حتىٰ إن بعض العلماء حكىٰ إجماع الصحابة علىٰ أن تارك الصلاة كافر كفراً مخرجـًا عن الملة ، ومنهم التابعي المشهور عبد الله بن شقيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال : « كان أصحاب النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- لا يرون شيئـًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة »[(٣)] .

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٩ / ٣٠٥) (١٢٢٩٣) ، والنسائي (٣٩٣٩) وصححه ابنُ حجر « فتح الباري » (٣/ ١٥) ، وقال الألباني في « صحيح النسائي » (٧/ ٦١) : حسن صحيح .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(١ / ١٦٣-١٦٥) .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٢٢) ، وصححه الألباني .

وكذلك نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه[١] ، ولم يصح عن أي صحابي أنه قال عن تارك الصلاة : إن تارك الصلاة في الجنة ، أو إنه مؤمن ، أو ما أشبه ذلك »[٢] .

رابعًا : ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ طَرَفًا من ثمرات الصلاة فقال : « الصلاة المفروضة عندما تتوضأ وتسبغ الوضوء ثم تخرج إلىٰ الصلاة لا يخرجك من بيتك إلا الصلاة فما الثمرات التي تحصل عليها؟ كل خطوة تخطوها يرفع الله لك بها درجة ، ويحط عنك بها خطيئة ، فخطواتك لا يحصيها إلا الله عَزَّوَجَلَّ ، مع أن المقصود شيء واحد وهو الصلاة ، لكن سعيك إلىٰ الصلاة فيه أجر ما دمت خرجت من بيتك لا يخرجك إلا الصلاة ، وتأهبت في بيتك ، أسبغت الوضوء في بيتك ، فأنت لا تخطو خطوة إلا رفع الله لك بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة ، والخطوات لا يحصيها إلا الله ، ثم إذا وصلت المسجد وصليت ما شاء الله ، ثم انتظرت الصلاة ولو تأخر مجيء الإمام لصلاة الجماعة يكتب لك أجر المصلي ، (لا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة)[٣] ، وهذا أحسن من أعمالنا ولهذا قال : ﴿ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[النجم :٣١] ، أي بما هو أحسن وأكثر

---

(١) انظر : « تعظيم قدر الصلاة » للمروزي (٩٩٠) .

(٢) « تفسير سورة الحجرات » (١٢) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة »(١ / ١٢٦) ، و« تفسير جزء عم » (١٣٥) .

(٣) أخرجه البخاري (٢١١٩) ، ومسلم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « صَلاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَىٰ صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ ، وصَلاتِهِ فِي سُوقِهِ ، بِضْعًا وعِشْرِينَ دَرَجَةً ، وذلك أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَىٰ المَسْجِدَ لا يَنْهَزُهُ إِلا الصَّلاةُ ، لا يُرِيدُ إِلا الصَّلاةَ ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ ، وحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ ، حَتَّىٰ يَدْخُلَ المَسْجِدَ ، فَإِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلاةِ مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ ، والمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّىٰ فِيهِ ، يَقُولُونَ : اللهُمَّ ارْحَمْهُ ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ » .

من عملهم ، وهذا يدلك علىٰ سعة فضل الله عَزَّوَجَلَّ وإحسانه وكمال عدله »[١] .

ومن خلال هذه المضامين الدعوية يتبيَّن عِظَم شأن الصلاة في الإسلام وأهميتها ، فهي أول أركان الصلاة العملية ، وبه يتحقق فلاح العبد وصلاحه في الدنيا والآخرة ، وكلما جاء العبد في هذه الصلاة بما هو أكمل وأتمَّ كلما كانت هذه الصلاة أقوم له وأكثر عوناً في الدنيا ، وأزكىٰ لنفسه بالبعد عن الفحشاء والمنكر ، وأعظم لأجره عند الله تعالىٰ بعد قبولها قبولا حسنا ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة :٤٥] ، وقال : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت :٤٥] ، ولعِظم شأن الصلاة كان الوعيد العظيم بالحكم علىٰ تاركها بالكفر ثابتـًا بالنص والإجماع ، ولقد رتَّب الله تعالىٰ علىٰ الصلاة ثمرات عظيمة ونوائل جسيمة ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَىٰ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ ، وصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ ، بِضْعًا وعِشْرِينَ دَرَجَةً ، وذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَىٰ المَسْجِدَ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بهَا دَرَجَةٌ ، وحُطَّ عَنْهُ بهَا خَطِيئَةٌ ، حَتَّىٰ يَدْخُلَ المَسْجِدَ ، فَإِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ ، والمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّىٰ فِيهِ ، يَقُولُونَ : اللهُمَّ

(١) « تفسير سورة النجم » (٢٣٠) ، وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الصلاة وشأنها وأهميتها والدعوة إليها في مواضع كثيرة من تفسيره ، انظر مثلاً لا حصراً : « تفسير سورة البقرة »(١ / ٣٢) ، (١ / ١٥٦) ، (١ / ١٦٠) ، (١ / ١٦٥) ، (١ / ٢٧١) ، (١ / ٣٦٤) ، (٢ / ٤٥) ، (٢ / ٥٠) ، (٢ / ١٢٥) ، (٢ / ١٦٨) ، (٢ / ٢٩٠) ، (٢ / ٤٢٥) ، (٣ / ١٨١) ، (٣ / ٣٢٨) ، و« تفسير جزء الحجرات » (٣٤٩) ، (٢٥٩) و« تفسير جزء عم » (١٢) ، (١١٩) ، (١٢١) ، (١٨٧) ، (٣١٢) ، (٣٢٧) ، (٣٥١) .

ارْحَمْهُ ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ »[١] .

وعلىٰ الداعية إلىٰ الله تعالىٰ تعظيم شأن الصلاة في نفوس المدعوِّين لما احتفت به هذه العبادة من الفضائل العظيم والنصوص الدالة علىٰ شرفها وفضلها وأهميتها أسوة بنبينا ﷺ ، والصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمة الذين استفاضت نصائحهم وخطبهم ورسائلهم ومؤلفاتهم في بيان هذه الشعيرة العظيمة[٢] .

٢- الدعوة إلىٰ الزكاة .

الزكاة لغة : الطهارة والنماء والبركة[٣] ، وقال ابن الأثير : « وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح ، وكل ذلك قد استعمل في القرآن والحديث »[٤] .

وفي الإصطلاح : عرفها العلماء ، ومن أولئك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، في تفسيره حيث ذكر معنىٰ الزكاة لغة واصطلاحاً مبيِّناً فضلها وعلاقتها بالأخلاق ، فقال : « و « الزكاة » في اللغة النماء ، والزيادة ؛ ومنه قولهم : « زكا الزرع » إذا نما ، وزاد ؛ وفي الشرع هي دفع مال مخصوص لطائفة مخصوصة تعبداً لله عَزَّوَجَلَّ ؛ وسميت زكاة ؛ لأنها تزكي الإنسان ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة :١٠٣] ؛ فهي تزكي الإنسان في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧) ، ومسلم (٦٤٩) .

(٢) ومن أبرز المؤلفات وأشهرها في شأن الصلاة ، انظر : « تعظيم قدر الصلاة » ، لأبي عبد الله محمد بن نصر المَرْوزِي ، وللشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب لطيف بعنوان : « حكم تارك الصلاة » ، بيَّن فيها قدر الصلاة وشأنها وحكم تاركها .

(٣) « العين » للفراهيدي (٥/ ٣٩٤) و« المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » للفيومي (١/ ٢٥٤) ، وتاج العروس (٣٨/ ٢٢٠) ، مادة (زكو) .

(٤) « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٢/ ٣٠٧) ، مادة (زكا) .

أخلاقه، وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلىٰ حظيرة الأجواد، والكرماء؛ وتكفِّر سيئاته »[١] .

وقال في موضع آخر بعدما ذكر نحواً من التعريف السابق : « وسميت زكاة؛ لأنها تنمي الخُلق وتنمي المال، وتنمي الثواب؛ تنمي الخُلُق بأن يكون الإنسان بها كريماً من أهل البذل، والجود، والإحسان؛ وهذا لا شك من أفضل الأخلاق شرعاً، وعادة؛ وتنمي المال بالبركة، والحماية، والحفظ »[٢] .

- ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بالدعوة إلىٰ الزكاة :

أولاً : الدعوة إلىٰ عبادة الزكاة وذكر ثمراتها، وذلك في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة :٢٧٤]، حيث قال : « من فوائد الآية : الثناء علىٰ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلاً، أو نهاراً، أو سراً، أو جهاراً .

ومنها : كثرة ثوابهم؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ أضاف أجرهم إلىٰ نفسه، فقال تعالىٰ : ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾؛ والثواب عند العظيم يكون عظيماً .

ومنها : أن الإنفاق يكون سبباً لشرح الصدر، وطرد الهم، والغم؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾؛ وهذا أمر مجرب مشاهد أن الإنسان إذا أنفق يبتغي بها وجه الله انشرح صدره، وسرت نفسه، واطمأن قلبه؛

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(١ / ٣٦٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٧٨)، وانظر : (٣ / ١٣٧)، و« تفسير جزء عم » (٤٦) .

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد أن ذلك من أسباب انشراح الصدر[١] »[٢] .

ثانيـًا : بيان فضل الله تعالىٰ علىٰ عباده في تشريعه للإنفاق في سبيله ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد :٧] : « ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ ، الإنفاق البذل ، ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ ، يعني المال ؛ لأن الله جعلنا مستخلفين في المال فهو الذي ملَّكنا إياه ، فلا منة لنا علىٰ الله بما نُنفق ، بل المنة لله علينا بما أعطىٰ ، والمنة له علينا بما شرع لنا من الإنفاق ، ولولا أن الله شرع لنا أن ننفق لكان الإنفاق ضياعـًا وبدعة ، ولكن شرع لنا أن ننفق ، فلله تعالىٰ المنة أولاً فيما ملكنا من المال ، وله المنة ثانيـًا بما شرع لنا من إنفاقه ، وله المنة ثالثـًا بالإثابة عليه »[٣] .

ثالثـًا : دعا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ إنفاق الأحب والأنفس من المال وأنه علامة علىٰ قوة الإيمان ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران :٩٢] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ولكن كلما كان المال أحب كان إنفاقه أقوىٰ إيمانـًا ، وأدل علىٰ محبة الإنسان للخير ؛ لأن الشيء الذي تكون الرغبة فيه قليلة يسهل علىٰ الإنسان أن ينفقه ، لكن الشيء الذي تتعلق به النفس كثيراً هو الذي تشح النفس في إنفاقه ، فإذا أنفقه الإنسان مع قوة تعلق نفسه به كان ذلك دليلاً علىٰ قوة إيمانه ؛ لأنه لا يدفع القوي إلا بما هو أقوىٰ منه .

لما نزلت هذه الآية قام أبو طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فجاء إلىٰ رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، إن الله تعالىٰ أنزل : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ، وإن أحب

---

(١) انظر : « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم (٢/ ٢٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٧٣) .

(٣) « تفسير سورة الحديد » (٣٧٥) ، و(٣٨٥) .

مالي إلي « بيرحاء »[١] ، وكانت نخلاً مستقبلة المسجد ، يعني قريبة من مسجد النبي ﷺ ، وكان فيها ماء عذب طيب ، يأتي إليه النبي ﷺ ويشرب منه ويتطهر به ، وهذا مما يزيده رغبة أن الرسول ﷺ يأتي إليه ويشرب منه ، ويتطهر به ، قال : فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبي ﷺ : « بخ بخ ، ذاك مال رابح ، ذاك مال رابح » ، ثم قال : « أرىٰ أن تجعلها في الأقربين » ، فجعلها أبو طلحة في أقاربه ، في بني عمه ، وأقاربه[٢] . وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به ، يتأول قوله تعالىٰ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣] ، أما نحن فإذا أعجبنا شيء من مالنا جعلناه في الصناديق ، واستعملنا الرديء ، وتركنا الباقي لورثتنا ، فلا يكون لنا ، ولكن هكذا الشح نعوذ بالله- .

أما الذين يريدون الآخرة فهم يرون أن مالهم هو الذي يقدمونه . ولهذا لما سأل النبي ﷺ أصحابه ذات يوم قال : « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ » ، قالوا : يا رسول الله ، ما منَّا أحد إلا وماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « فإن

---

(١) قال ابن الأثير : « بَيرحاء : بفتح الباء وكسرها ، وبفتح الراء وضمها والمد فيهما ، وبفتحهما والقصر ، وهي اسم مال وموضع بالمدينة » . النهاية (١ / ١١٤) ، قال الحموي : « وهو قصر بني جديلة اليوم بالمدينة » . « معجم البلدان » (١ / ٥٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦١) ، ومسلم (٩٩٨) .

(٣) عن عبد الله بن أبي عثمان ، قال : كان عبد الله بن عمر أعتق جاريته التي يقال لها رميثة ، وقال : إني سمعت الله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، وإني والله إن كنت لأحبك في الدنيا ، اذهبي فأنت حرة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ .
وعن مجاهد ، عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنه قال : لما نزلت : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] دعا ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جارية له فأعتقها .
انظر : « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » لأبي نعيم (١ / ٢٩٥) ، و« صفة الصفوة » لابن الجوزي (١ / ٢١٦) .

ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر»[١]، يعني معناه أنك إذا بخلت بالمال وأبقيته فإنك سوف تذهب عنه وسوف يورث من بعدك، لكن إذا تصدقت به، وأمضيته تجده أمامك؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يتأول هذه الآية ولو مرة واحدة، إذا أعجبه شيء من ماله فليتصدق به لعله ينال هذا البر»[٢].

رابعـًا: قال في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، من فوائد الآية: «فضيلة الإنفاق علىٰ كل حال؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، فإن قال قائل: إذا كان الإنسان في ضرورة هو وعائلته فهل ينفق؟ نقول: لا ينفق علىٰ أجنبي بل ينفق علىٰ نفسه وعائلته، وهو داخل في الآية؛ لأن إنفاقه علىٰ نفسه وعلىٰ أهله صدقة.

- الثناء علىٰ من أنفق في السراء والضراء، وذلك لأن الإنفاق في السراء ليس بغريب، كل إنسان يهون عليه أن ينفق إذا كان في سراء، لكن الإنفاق في الضراء هو الذي يدل علىٰ أن الإنسان ينفق طلبـًا للأجر لا زهداً في المال»[٣].

وثناء الله تعالىٰ علىٰ أهل الإنفاق في سبيله جل وعلا تعددت فيه النصوص وتقدم شيء منها في المضامين السابقة- وما ذاك إلا لعلوِّ مرتبة المتصدقين في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

(٢) «تفسير سورة آل عمران» (١/ ٥٢٥ ٥٢٦).

(٣) «تفسير سورة آل عمران» (٢/ ١٧٧-١٧٨)، وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الزكاة وشأنها وأهميتها والدعوة إليها في مواضع كثيرة من تفسيره، انظر مثلاً لا حصرا: «تفسير سورة البقرة» (١/ ٣٣)، (١/ ١٥٦)، (١/ ٢٦٨)، (١/ ٣٦٢)، (١/ ٣٦٤)، (١/ ٣٦٥)، (٢/ ١٦٥)، (٢/ ٢٧٧)، (٣/ ٢٠٣)، (٣/ ٣٤٢)، (٣/ ٣٩٣)، و«تفسير سورة آل عمران» (١/ ١١٤)، و«تفسير سورة النساء» (١/ ٣٢٨)، (٢/ ٤٧٦)، و«تفسير سورة المائدة» (٢/ ٥٣)، و«تفسير جزء عم» (٣١٢) (٣٣٤).

سبيله جل وعلا، ووعْدِه لهم بمضاعفة الأجور، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، وللصدقة سواء كانت واجبة أو مستحبة أثرٌ علىٰ النفس بانشراحه، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤]، وعَنْ أَبِي هريرة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: « مَثَلُ المُنْفِقِ والمُتَصَدِّقِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ عَلَيْهِ جُبَّتَانِ أَوْ جُنَّتَانِ، مِنْ لَدُنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيهِمَا، فَإِذَا أَرَادَ المُنْفِقُ أَنْ يَتَصَدَّقَ سَبَغَتْ عَلَيْهِ أَوْ مَرَّتْ، وإِذَا أَرَادَ البَخِيلُ أَنْ يُنْفِقَ، قَلَصَتْ عَلَيْهِ وأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَوْضِعَهَا. »[1]، وكلما كان المال أحب للعبد كان إنفاقه في سبيل الله أعظم أجرا وأبلغ له في الوصول إلىٰ البِرِّ المنشود، كما أن الدعوة إلىٰ إنفاق العبد في سبيل الله علىٰ تنوِّع الأحوال في السر والعلن والسراء والضراء والليل والنهار دليل علىٰ حث الإسلام علىٰ هذه الشعيرة مهما اختلفت أحوال العبد مراعياً في ذلك المصلحة الشرعية في تنوُّع الحال.

٣- الدعوة إلىٰ الصيام.

الصيام لغة: الإمساك[2]، ويقال: صامت الخيل: إذا أمسكت عن السير. وصامت الريح: إذا أمسكت عن الهبوب. قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١).

(٢) انظر: « مختار الصحاح » للرازي (١٨١) و« تاج العروس » للزبيدي (٣٢/ ٥٢٨)، مادة (صوم).

(٣) « المطلع علىٰ ألفاظ المقنع » للبعلي (١٨٢).

- أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بالدعوة إلىٰ الصيام :

أولاً : تعريف الصيام لغة واصطلاحـًا ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة :١٨٣] ، فقال : « قوله تعالىٰ : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾، أي فُرض ؛ والذي فَرضه هو الله سبحانه وتعالىٰ ؛ و﴿ٱلصِّيَامُ ﴾، نائب فاعل مرفوع ؛ وهو في اللغة الإمساك ؛ ومنه قوله تعالىٰ : ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾[مريم :٢٦] ، يعني إمساكـًا عن الكلام بدليل قولها : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم :٢٦] ؛ وأما في الشرع فإنه التعبد لله بترك المفطرات من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس »[1] .

ثانيـًا : في بيان الحكمة من فرض الصوم ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة :١٨٣] : « قوله تعالىٰ : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ؛ « لعل » للتعليل ؛ ففيها بيان الحكمة من فرض الصوم ؛ أي تتقون الله عَزَّوَجَلَّ ؛ هذه هي الحكمة الشرعية التعبدية للصوم ؛ وما جاء سوىٰ ذلك من مصالح بدنية ، أو مصالح اجتماعية ، فإنها تبع .

الفوائد :

١- من فوائد الآية : أهمية الصيام ؛ لأن الله تعالىٰ صدره بالنداء ؛ وأنه من مقتضيات الإيمان ؛ لأنه وجه الخطاب إلىٰ المؤمنين ؛ وأنّ تركه مخل بالإيمان .

٢- ومنها : فرضية الصيام ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿كُتِبَ ﴾ .

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٣١٦) .

٣- ومنها : فرض الصيام علىٰ من قبلنا من الأمم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ .

٤- ومنها : تسلية الإنسان بما ألزم به غيره ليهون عليه القيام به ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ .

٥- ومنها : استكمال هذه الأمة لفضائل من سبقها ، حيث كتب الله عليها ما كتب علىٰ من قبلها لتترقىٰ إلىٰ درجة الكمال كما ترقىٰ إليها من سبقها .

٦- ومنها : الحكمة في إيجاب الصيام ؛ وهي تقوىٰ الله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

٧- ومنها : فضل التقوىٰ ، وأنه ينبغي سلوك الأسباب الموصلة إليها ؛ لأن الله أوجب الصيام لهذه الغاية ؛ إذاً هذه الغاية غاية عظيمة ؛ ويدل علىٰ عظمها أنها وصية الله للأولين ، والآخرين ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[النساء :١٣١] »[١] .

ثالثًا : في بيان وقت الصيام الشرعي ، وما يتعلق به من أحكام الاعتكاف ، قال عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾[البقرة :١٨٧] :

« من فوائد الآية : أن الصيام الشرعي من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ .

– ومنها : أن الصيام الشرعي ينتهي بالليل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ ؛ وقد فسر النبي ﷺ ذلك بقوله ﷺ : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٣١٧-٣١٨) .

وغربت الشمس فقد أفطر الصائم »[١] .

- ومنها : الإشارة إلىٰ مشروعية الاعتكاف ؛ لأن الله أقرَّه ، ورتب عليه أحكامًا ، وقوله تعالىٰ : ﴿فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ بيان للواقع ؛ لأن الاعتكاف المشروع لا يكون إلا في المساجد »[٢] .

رابعًا : من مستحبات الصيام ومتعلقاته الدعاء ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة :١٨٦] : « من فوائد الآية : أن الصيام مظنة إجابة الدعاء ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ ذكر هذه الآية في أثناء آيات الصيام ؛ ولا سيما أنه ذكرها في آخر الكلام علىٰ آيات الصيام .

وقال بعض أهل العلم : يستفاد منها فائدة أخرىٰ : أنه ينبغي الدعاء في آخر يوم الصيام أي عند الإفطار- »[٣] .

دلت هذه المضامين علىٰ جُمَلٍ تتعلق بالصيام وأحكامه وحِكَمِه ، وإن أعظم حكمة من فرضية الصيام هي تحقيق التقوىٰ لله تعالىٰ التي من حققها حقق كل ما أمر الله تعالىٰ به وانتهىٰ عما نهىٰ عنه جل وعلا ، والتي هي وصية الله تعالىٰ للأولين والآخرين ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء :١٣١] ، والله تعالىٰ فرض الصيام من أجل تحقيق

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٤) ، ومسلم (١١٠٠) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٣٥٧) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٣٤٤) ، وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصيام وشأنه وأهميته والدعوة إليه في مواضع كثيرة من تفسيره ، انظر مثلاً لا حصراً : « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٣١٩- ٣٢٠) ، (٢ / ٣٢٥) ، (٢ / ٣٦٣) ، و« تفسير الحجرات الحديد » (٢٤٤) ، و« تفسير سورة الكهف » (١٩) ، و« تفسير جزء عم » (١٨٧) ، (٢٤٩) .

هذه الغاية العظيمة ، وجعل عبادة الصيام محفوفة بكثير من الفضائل والثمرات العظيمة التي من شأنها تحقق التقوىٰ في النفس ، فمن تأمل الفضل الذي جعله الله تعالىٰ في فضل شهر رمضان ليله ونهاره صيامه وقيامه وليلة القدر علم أن عبادة الصيام حُفَّت بذلك لعظيم منزلتها عند الله تعالىٰ ، ولعِظَم منزلة الصيام اصطفاه الله تعالىٰ بقوله : « كُلُّ عَمَلِ ابن آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي وأَنَا أَجْزِي بِهِ ، والصِّيَامُ جُنَّةٌ .. »[١] .

٤ - الدعوة إلىٰ الحج .

الحج في اللغة : القصد ، وهو القصد إلىٰ كل شيء ، فخصه الشرع بقصد معين ذي شروط معلومة ، وفيه لغتان : الفتح والكسر ، والحجة بالفتح : المرة الواحدة علىٰ القياس ، وقال جماعة : إنه القصد لمعظم ، والحج قصد التوجه إلىٰ البيت بالأعمال المشروعة فرضا وسنة[٢] .

- ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بالدعوة إلىٰ الحج :

أولاً : تعريف الحج لغة واصطلاحـًا ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله تعالىٰ : ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾[البقرة :١٥٨] ؛ حج في اللغة بمعنىٰ قصد ؛ إذاً ﴿حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾ ، أي قصده لأداء مناسك الحج ؛ و﴿ٱلْبَيْتَ﴾ ، هو بيت الله ؛ أي الكعبة »[٣] .

---

(١) جزء من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ : كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلا الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي وأَنَا أَجْزِي بِهِ ، والصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ ، فَلا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ ولا يَسْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ : إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ » أخرجه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٢) انظر مادة (حجج) : « لسان العرب » (٢ / ٢٢٦) ، و« تاج العروس » (٥ / ٤٥٩) ، و« مختار الصحاح » (٦٧) ، و« النهاية في غريب الحديث والأثر » (١ / ٣٤٠) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ١٨٤) .

وفي الاصطلاح الشرعي: قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هو في اللغة: القصد، وفي الشرع: التعبُّد لله عَزَّوَجَلَّ بأداء المناسك علىٰ ما جاء في سنة رسول الله ﷺ »[(١)].

ثانيـًا: الدعوة إلىٰ الحج وبيان وجوبه وشأنه، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧]، قال في فوائد الآية:

- وجوب حج البيت علىٰ من استطاع إليه سبيلاً؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ووجه الوجوب أن ﴿عَلَى﴾، كما قال الأصوليون ظاهرة في الوجوب.

- أن الحج لا يجب علىٰ غير المستطيع؛ لقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، والاستطاعة تكون بالمال أو البدن، أو بهما جميعـًا.

- بيان رحمة الله عَزَّوَجَلَّ حيث لم يفرض علىٰ عباده ما كان شاقـًا عليهم ولا يستطيعونه؛ لقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

- أن من لم يحج فهو كافر؛ لقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، واختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في هذا الكفر، هل هو نوع من الكفر، أو هو الكفر المطلق؟ علىٰ قولين لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد »[(٢)].

ثالثـًا: ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره تعظيم شأن الحج في الإسلام، والأخلاق التي تدعو إليها عبادة الحج، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى

---

(١) « الشرح الممتع علىٰ زاد المستقنع » لشيخنا العثيمين (٧/ ٥).

(٢) ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول الراجح وأنه نوع من الكفر وليس كفراً مطلقـًا وهو قول جمهور العلماء، وقبلها ذكر الخلاف في وجوب الحج وأنه يجب مع الاستطاعة مبينـًا معنىٰ الاستطاعة، « تفسير سورة آل عمران »(١/ ٥٥٩).

﴿ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[البقرة:١٩٧]، حيث قال: «من فوائد الآية: تعظيم شأن الحج، حيث جعل الله له أشهراً مع أنه أيام ستة أيام- وقد جعل الله له أشهراً ثلاثة حتىٰ يأمن الناس، ويتأهبوا لهذا الحج؛ ولهذا ما بعد الحج أقصر مما قبله؛ الذي قبله: شهران وسبعة أيام؛ والذي بعده: سبعة عشر يوماً فقط؛ لأنه إذا حج انتهىٰ غرضه؛ فطُلب منه العودة؛ بخلاف ما إذا كان قبله ...

- ومنها: تحريم الفسوق؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾.

فإن قال قائل: الفسوق محرم في الإحرام، وغيره.

فالجواب: أنه يتأكد في الإحرام أكثر من غيره.

- ومنها: تحريم الجدال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾؛ والجدال إن كان لإثبات الحق، أو لإبطال الباطل فإنه واجب، وعلىٰ هذا فيكون مستثنىٰ من هذا العموم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل:١٢٥]؛ وأما الجدال لغير هذا الغرض فإنه محرم حال الإحرام؛ فإن قلت: أليس محرماً في هذا، وفي غيره لما يترتب عليه من العداوة، والبغضاء، وتشويش الفكر؟

فالجواب: أنه في حال الإحرام أوكد.

- ومنها: البعد حال الإحرام عن كل ما يشوش الفكر، ويشغل النفس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾؛ ومن ثم يتبين خطأ أولئك الذين يزاحمون علىٰ الحجر عند الطواف؛ لأنه يشوش الفكر، ويشغل النفس عما هو أهم من ذلك.

- ومنها: الحث علىٰ فعل الخير؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾[البقرة:١٩٧]، يدل علىٰ أنه سيجازي علىٰ ذلك، ولا يضيعه؛ قال

تعالىٰ : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه :١١٢] »(١) .

ونستنج من خلال هذه المضامين الدعوية أن أعظم مجمع إسلامي تجتمع فيه القلوب من كل فجٍّ عميق توحيداً لله تعالىٰ هو الحج إلىٰ بيت الله الحرام ، أوجبه الله تعالىٰ علىٰ عباده لمن استطاع لذلك سبيلا ، وشرع الله تعالىٰ من أوله التلبية بالتوحيد له جل وعلا- ، وجعل فيه من الأحكام الشرعية والتهذيب الأخلاقي ما يسمو بنفس المؤمن إلىٰ أعلىٰ المراتب بعد تطهيره من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فقال تعالىٰ في هذه الآية الجامعة : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة :١٩٧] ، فالحج عبادة قلبية بدنية مالية ، رفع الله شأنها ومكانتها في الأمة ؛ لتهفو إلىٰ بيت الله تعالىٰ العتيق مجددة الإيمان في قلبها ، ملبية بالتوحيد ؛ استجابة لأمر الله تعالىٰ لنبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[الحج :٢٧] ، كل ذلك ليحقق العبد بحجِّه بيت الله تعالىٰ التعظيم لله تعالىٰ والتوحيد الخالص له جل وعلا ، من خلال هذه العبادة العظيمة التي جاءت الدعوة إليها في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

ولقد دعا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره إلىٰ جملة من العبادات غير ما تقدَّم من أركان الإسلام- الظاهرة والباطنة .

---

(١) « تفسير الفاتحة والبقرة » (٢ / ٤١٥-٤١٩) ، وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحج وشأنه وأهميته والدعوة إليه في مواضع كثيرة من تفسيره ، انظر مثلاً لا حصراً : « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٤٤) ، (٢ / ٤٨) ، (٢ / ١٨٦) ، (٢ / ٣٦٩) ، (٢ / ٣٩٦٣٩٤) ، (٢ / ٤٠١) ، (٢ / ٤٠٧) ، (٢ / ٤١٦) ، (٢ / ٤٤١) ، (٣ / ٤٥٦) ، و« تفسير سورة الكهف » (١٥٢) ، و« تفسير الحجرات الحديد » (٢٣٩) ، و« تفسير جزء عم » (٢٤٩) .

- ومما جاء في تفسيره من المضامين الدعوية، الدعوة إلىٰ العبادات الآتية:

- **الدعوة إلىٰ الإخلاص**، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[البقرة:٨٣]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن فوائد الآية: أن الدعوة للإخلاص في جميع الأمم؛ لقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ وهذه الدعوة جاء بها كل الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]»[1].

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الصافات:٤٠]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية الكريمة: إشارة إلىٰ أن المخلِص والمخلَص وهما متلازمان إخلاصهم هم، وإخلاص الله لهم- إلىٰ أن عاقبتهم النجاة، وجهه الاستثناء، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فإن هؤلاء عاقبتهم النجاة وعاقبتهم حميدة.

- ومن فوائدها: حث الإنسان علىٰ أن يكون من هؤلاء العباد لينجو.

- ومن فوائدها: فضيلة الإخلاص لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾»[2].

- **الدعوة إلىٰ برّ الوالدين**، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[البقرة:٨٣]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومن فوائد هذه الآية: وجوب الإحسان إلىٰ الوالدين؛ والإحسان يكون بالقول، ويكون بالفعل؛ فالإحسان بالقول معناه أن يُلين الإنسان لهما قوله، وأن

---

(١) «أحكام من القرآن الكريم» (١/ ٢٣٤).

(٢) «تفسير سورة الصافات» (١٦٩).

يكون قولاً كريماً طيباً سمحاً ، والإحسان بالفعل يكون ببذل المال ، وبخدمة البدن ، وغير ذلك مما يكون إحساناً ، والآية مطلقة ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ ، وليعلم أن أحق الوالدين بالصحبة هي الأم ؛ كما قال النبي ﷺ حين سئل : مَنْ أحق الناس بحُسن صحابتي؟ قال : « أمك » قال : ثم من؟ قال : « أمك » قال : ثم من؟ قال : « أمك » قال : ثم من؟ قال : « أبوك »[١] ، ولكن هذا لا يعني ألا نعطي الأب حقه ، بل له حق وللأم حق ، لكن لما كانت الأم أنثىٰ والغالب عليها الضعف ، وأنها تحتاج إلىٰ لينٍ أكثر صارت أحق الناس بصحبة الولد »[٢] .

- **والدعوة إلىٰ الهجرة والجهاد في سبيل الله تعالىٰ والإخلاص فيهما ، عند** تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة :٢١٨] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « و(الهجر) في اللغة : الترك ؛ ومنه : هجرت فلاناً ، إذا لم تكلمه ؛ وفي الشرع له معنيان : عام ، وخاص ؛ فأما العام فهو : هجر ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ ، كما قال النبي ﷺ : « المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه »[٣] ؛ وأما الخاص فهو أن يهجر الإنسان بلده ووطنه لله ورسوله ، بأن يكون هذا البلد بلد كفر لا يقيم فيه الإنسان دينه ؛ فيهاجر من أجل إقامة دين الله ، وحماية نفسة من الزيغ ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه »[٤] ؛ والمراد بالهجرة في الآية ما يشمل المعنيين : العام ، والخاص .

قوله تعالىٰ : ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معطوفة علىٰ الصلة في ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١) ، ومسلم (٢٥٤٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٣٥) .

(٣) أخرجه البخاري (١٠) .

(٤) أخرجه البخاري (٥٤) ، ومسلم (١٩٠٧) .



هَاجَرُواْ ﴾؛ ولم يعد الموصول؛ لأن الهجرة والجهاد عملان مبنيان على الإيمان؛ و الجهاد في سبيل الله: هو قتال الكفار لتكون كلمة الله هي العليا؛ و(الجهاد) هو بَذْلُكَ الجهد لأمر مطلوب؛ والجهد معناه الطاقة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[التوبة :٧٩]، يعني إلا طاقتهم؛ وهو يغلب علىٰ بذل الجهد في قتال الأعداء ...»[١]، ثم ذكر فوائد الآية، وقال:

– من فوائد الآية: فضيلة الإيمان، والهجرة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة :٢١٨].

– ومنها: أن الجهاد دون مرتبة الهجرة؛ لأنه جعل الجهاد معطوفاً علىٰ الهجرة؛ ولم يجعل له اسماً موصولاً مستقلاً.

– ومنها: مراعاة الإخلاص في الهجرة، والجهاد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وأما بدون الإخلاص فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه، واعلم أنه يقال: في كذا، ولكذا، وبكذا، تقول مثلاً: جاهدت لله، وجاهدت بالله، وجاهدت في الله، فـ ﴿لِلَّهِ﴾: اللام لبيان القصد، فتدل علىٰ الإخلاص؛ و﴿بِٱللَّهِ﴾: الباء للاستعانة، فتدل علىٰ أنك جاهدت مستعيناً بالله، و(في الله): في للظرفية، فتدل علىٰ أن ذلك الجهاد علىٰ وفق شرع الله لم يتعد فيه الحدود»[٢].

– **الدعوة إلىٰ التوبة**، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[النساء :١٧]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية الكريمة:

---

(١) «تفسير سورة البقرة»(٣/ ٦٢).

(٢) «تفسير سورة البقرة»(٣/ ٦٥).

– بيان فضل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده بإيجابه التوبة علىٰ نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

– وجوب المبادرة بالتوبة، لقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، ووجهه: أن المراد بالقرب هنا الموت، والموت ليس معلوماً وقته، وإذا كان كذلك كانت المبادرة بالتوبة واجبة؛ لأن الإنسان لا يدري ما يعرض له؛ ولأن الإنسان إذا أصرَّ علىٰ المعصية فإنه يقسو قلبه، وتكون هذه الصغيرة من صغائر الذنوب كبيرة، ولهذا ذكر بعض العلماء: أن التهاون بالمعاصي والاستمرار في المعصية الصغيرة يجعلها كبيرة، فإذا فعل الإنسان صغيرة تهاونـاً بالله، وبأوامر الله؛ صارت كبيرة؛ لما قام بقلبه من التهاون بها، وإذا فعل الكبيرة مع شدة تعظيمه لله عَزَّوَجَلَّ، وخوفه منه، وخجله منه، لكن سولت له نفسه أن يفعلها، فإن ذلك يجعلها صغيرة، والرجل الذي كان يضرب في الخمر، لما لعنه أحد الصحابة قال له النبي ﷺ: «إنه يحب الله ورسوله»[(١)]، فالإنسان العاصي قد يكون في قلبه من هيبة الله تعالىٰ وإجلاله وتعظيمه؛ ما يجعله عند فعل المعصية خجلاً من الله، مستحيياً منه، فتنقلب الكبيرة صغيرة بما قارنها من خوف الله وتعظيمه وإجلاله؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات[(٢)]، والعكس بالعكس»[(٣)].

– **الدعوة إلىٰ الدعاء وآدابه**، عند تفسيره: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[النساء: ٣٢]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: سعة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

(٣) «تفسير سورة النساء» (١/ ١٣٩-١٤٠)، وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسائل متعلقة في التوبة يحسن الرجوع إليها، وانظر أيضـًا: «تفسير سورة الكهف» (١٠٣)، و«تفسير سورة الصافات» (٣٧٣)، و«تفسير سورة ق» (٩٦).

فضل الله عَزَّوَجَلَّ وكرمه ، لقوله : ﴿وَسْئَلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ ، فهو سبحانه لم يأمرنا بالسؤال إلا ليعطينا ؛ لأنه لو أمرنا بالسؤال من غير أن يعطينا لكان هذا عبثاً لا فائدة منه ، ولكنه عَزَّوَجَلَّ كريم ، هو الذي يتعرض لعباده ويقول : اسألوني .

وينبغي في السؤال أن يكون علىٰ الأدب المطلوب :

أولاً : أن تسأل الله سبحانه سؤال مفتقر لا سؤال مستغن .

ثانياً : أن تسأل الله سبحانه سؤال من يثق بربه أنه قادر ، لا سؤال تجربة ، بل سؤال من يثق بوعد الله وأنه قادر علىٰ الإعطاء يعطي السائل ما سأله .

ثالثاً : ينبغي أن يختار الإنسان الأزمان والأماكن والأحوال التي تكون سبباً في الإجابة .

مثال الأزمان : آخر الليل ، وما بين الأذان والإقامة ، ومثال الأماكن : أن يكون في الأماكن الفاضلة ، ومثال الأحوال : حال السجود ، وحال السفر ، وحال نزول المطر ، فينبغي أن يختار الإنسان ما يكون أقرب إلىٰ الإجابة .

رابعاً : أن يكون مجتنباً للحرام ؛ لأن أكل الحرام حائل يمنع من قبول الدعاء ؛ لأن النبي ﷺ قال : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[البقرة :١٧٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[المؤمنون :٥١] ، ثم ذكر « الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلىٰ السماء : يا رب! يا رب! ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنىٰ يستجاب لذلك »[1] فقوله : ﴿أَنَّىٰ﴾ ، هذه استفهام استبعاد ؛ أي : بعيد أن

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) .

يستجاب لهذا الرجل .

خامسًا : أن لا يعتدي في الدعاء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف :٥٥] ، فإن اعتدىٰ في الدعاء بأن سأل ما لا يحل له ، أو سأل ما يمتنع شرعـًا أو قدراً ؛ فإنه لا يجاب .

فلو سأل إثمـًا ، بأن قال والعياذ بالله : اللهم يسر له امرأة يزني بها ، أو كأس خمرٍ يشربه ؛ فهذا لا يستجاب له ؛ لأنه عدوان واستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ ، فهذا لا يحل شرعـًا ولا يمكن قبوله لأنه محرمٌ وممتنع شرعـًا .

والممتنع قدراً مثل أن يقول : اللهم اجعلني نبيـًا ؛ لأن هذا ممتنعٌ قدراً بخبر الله ، لا لأنه مستحيل لذاته ، فهو غير مستحيل ، لكن بخبر الله صار مستحيلاً لقوله تعالىٰ : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب :٤٠] .

كل هذه آداب ينبغي علىٰ الإنسان أن يراعيها في الدعاء »(١) .

- الدعوة إلىٰ التوكل وعلاقته بالإيمان بالله تعالىٰ وفعل الأسباب ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المائدة : ١١] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« الفائدة الرابعة : وجوب التوكل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، لقوله : ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

الفائدة الخامسة : إخلاص التوكل لله عَزَّوَجَلَّ ، وجه ذلك : تقديم المعمول ، والقاعدة عند البلاغيين : أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر .

فإن قال قائل : هل التوكل يمنع فعل الأسباب؟

---

(١) « تفسير سورة النساء »(١ / ٢٧٥-٢٧٦) .

الجواب : لا ، بل التوكل لا يتم إلا بفعل الأسباب ، وأضرب لكم مثلاً بسيد المتوكلين محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم- ، ومع ذلك كان يتوقىٰ الحر ويتوقىٰ البرد ويلبس الدروع في الحرب ، ولبس (في أُحد درعين ، كل ذلك توقياً للسهام ، فَفِعْل الأسباب النافعة الحقيقية لا ينافي التوكل ، بل هو من تمام التوكل .

ولهذا لو قال قائل : أنا لن أسعىٰ في طلب الرزق ، يرزقني الذي رزق الثعابين في جحورها ، أنا متوكل علىٰ الله؟

قلنا : هذا عجز وكسل . التوكل علىٰ الله : التفويض إذا لم تستطع الأسباب ، فإذا عجز الإنسان عن الأسباب فليس عنده إلا التفويض ، ولهذا تجد الكفار إذا غشيهم موجٌ كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين أي : فوضوا الأمر إلىٰ الله ، وكذلك الإنسان إذا ألمَّ به شيء لا يستطيع دفعه تجده ليس له حول ولا قوة ، أما مع القدرة علىٰ فعل الأسباب فإنه لا بد من فعلها ، لو أن الإنسان قال : أنا أريد أن أسافر إلىٰ مكة للحج ، قلنا : خذ معك نفقة قال : لا حاجة لذلك أنا متوكل علىٰ الله ، ماذا نقول في هذا؟ هذا عجز وتواني وكسل ، إذا كنت متوكلاً علىٰ الله حقيقة فافعل السبب ، خذ معك ما يكفيك للنفقة أو أجِّرْ نفسك علىٰ بعض الناس تكون معهم ويكفونك المؤنة أو ما أشبه ذلك .

الفائدة السادسة : أن التوكل من الإيمان ، لقوله : ﴿ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، فوجه الأمر إلىٰ المؤمنين ؛ لأنهم هم أهل التوكل .

الفائدة السابعة : أن ترك التوكل علىٰ الله نقص في الإيمان ، ولكن هل ينافي كمال الإيمان أو ينافي أصل الإيمان؟ فيه تفصيل فمن توكل علىٰ نبي ميِّت ، وكل الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أموات إلا عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فهو حي في السماء فهذا

ينافي أصل الإيمان ، من توكل علىٰ قبر فهذا ينافي أصل الإيمان ، فمن اعتمد علىٰ سبب معلوم وهو سبب شرعي أو قدري فذلك لا ينافي الإيمان ، لكن لا تجعل عمدتك هذا السبب بل اجعله سبباً والمسبِّب هو الله عَزَّوَجَلَّ ، ولهذا نجد الأسباب كثيراً ما تتخلف مسبباتها ؛ لأن الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ ، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾» [(١)] .

- والدعوة إلىٰ الرجاء ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأنعام :١٧] .

« من فوائد الآية : قوة رجاء العبد بالله عَزَّوَجَلَّ إذا أصابه الضرر أن يزول عنه الضرر ، وجه ذلك قوله : ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، وكم من أضرار حدثت للإنسان حتىٰ أوصلت إلىٰ اليأس والقنوط فكشفها الله عَزَّوَجَلَّ ، وكم من إنسان أصيب بمرض حتىٰ وصل إلىٰ حافة القبر ثم شفاه الله عَزَّوَجَلَّ ، وكم من إنسان أصيب بالفقر حتىٰ وصل إلىٰ أن لا يجد قوت يومه فأغناه الله عَزَّوَجَلَّ ، وكم من إنسان كان وحيداً فرزقه الله ، وهلمَّ جرًّا ؛ لأن الله علىٰ كل شيء قدير »[(٢)] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾[ص :١٠] .

قال : « لا ينبغي للإسان أن يعلق رجاءه إلا بالله عَزَّوَجَلَّ ، ولا يعلق رجاءه بمخلوق إلا في الحدود الضعيفة المرسومة . يجعل الرجاء كله والتعلق كله بالله عَزَّوَجَلَّ ، وإذا جعل هذا في الله ، سخر الله له المخلوقات ، حتىٰ البشر يسخرهم له ، لكن إذا تعلق

(١) « تفسير سورة المائدة »(١ / ١٦٧-١٦٨) .

(٢) « تفسير سورة الأنعام »(٨٤) .

بغير الله وُكِلَ إلىٰ من تعلق به وضاع »[١] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾[البقرة :٢١٨] ، قال : « ومن فوائد الآية : أنه لا ينبغي للإنسان أن يكون جازمًا بقبول عمله ؛ بل يكون راجيًا ؛ ولكنه يرجو رجاءً يصل به إلىٰ حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ؛ لأنهم لا يغترون بأعمالهم ؛ ولا يُدْلُون بها علىٰ الله ؛ وإنما يفعلونها وهم راجون رحمة الله »[٢] .

– والدعوة إلىٰ تدبّر القرآن ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص :٢٩] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد هذه الآية : أن أعظم الحِكَم في إنزال القرآن ؛ تدبر القرآن ، لقوله تعالىٰ : ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ .

– ومن فوائدها : حثّ الإنسان علىٰ تدبر الآيات ، وأن لا يُقرأ القرآن قراءة لفظية فقط ، فإن الله تعالىٰ قد ذمَّ هذا الجنس من الناس ، أعني الذين يقرؤونه قراءة لفظية ، فقال تعالىٰ : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[البقرة :٧٨] ، ﴿أَمَانِيَّ﴾ : يعني قراءة لفظية فقط ، فوصفهم الله بأنهم أميون ؛ لأنهم لم ينتفعوا بالقرآن ، إذ لا يمكن أن يُنتفع بالقرآن إلا بفهم معانيه ، فإذا لم تُفهم معانيه ، صار العربي والعجمي علىٰ حدٍّ سواء .

–ومن فوائد هذه الآية الكريمة : أن تدبُّر القرآن فرض ؛ لأن العمل بالقرآن فرض ، ولا يتم العمل إلا بالتدبر ، وما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض .

ولكن هل التدبر فرض عين ، أم فرض كفاية؟ حسب الحال ، قد يكون فرض عين ، وقد يكون فرض كفاية ، فما لا يتم دين العبد إلا به ، فهو فرض

---

(١) « تفسير سورة ص »(٥٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٦٥) .

عين ، وما زاد علىٰ ذلك ، فهو فرض كفاية ، ولابد أن يكون في الأمة الإسلامية مَن يفهم القرآن »[١] .

ولقد دعا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ حضور القلب وتدبر الذكر ليس في القرآن فحسب ، بل سائر الأذكار ، وذلك في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف :٢٨] .

« قوله تعالىٰ : ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي ما تهواه نفسه ، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ أي شأنه ، ﴿فُرُطًا﴾ أي منفرطًا عليه ، ضائعًا ، تمضي الأيام والليالي ولا ينتفع بشيء ، وفي هذه الآية إشارة إلىٰ أهمية حضور القلب عند ذكر الله ، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزَع البركة من أعماله وأوقاته حتىٰ يكون أمره فُرطا عليه ، تجده يبقىٰ الساعات الطويلة ولم يحصل شيئًا ، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله »[٢] .

- **والدعوة إلىٰ الافتقار وحسن اللجوء لله تعالىٰ والاستعانة به ،** عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة :٦] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : لجوء الإنسان إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بعد استعانته به علىٰ العبادة أن يهديه الصراط المستقيم ؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص ؛ يدل عليه قوله تعالىٰ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة :٥] ؛ ومن استعانة يتقوىٰ بها علىٰ العبادة ؛ يدل عليه قوله تعالىٰ : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة :٥] ؛ ومن اتباع للشريعة ؛ يدل عليه قوله تعالىٰ : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة :٦] ؛ لأن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الشريعة

---

(١) « تفسير سورة ص » (١٤٦-١٤٧) .

(٢) « تفسير سورة الكهف » (٦٢) .

التي جاء بها الرسول ﷺ »(١) .

وقال عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٧] « إذا كان الله غنيـًا عن العالمين ، لزم أن يكون العالمون مفتقرين إليه ، وليس بهم غنىٰ عن الله وهو كذلك ، فإن الخلق مفتقرون إلىٰ الله تعالىٰ غاية الافتقار ، ولهذا ينبغي لك أن تسأل ربك بلسان الحال أو لسان المقال ، في كل أمورك ، واستعن بالله في كل أمورك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة :٥] ، لا يغفل عن بالك تعلقك بالله سبحانه وتعالىٰ في كل شيء ، وقد جاء في الحديث : « ليسأل أحدكم ربَّه حاجته كلها حتىٰ يسأله شسع نعله إذا انقطع »(٢) ، أي شراك النعل الزهيد الذي لا يساوي شيئـًا ، لا تغفل عن سؤال الله إياه ، إما بلسان الحال ، وإما بلسان المقال »(٣) .

– والدعوة إلىٰ الرضا ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾[النساء : ١٣٠] .

« من فوائد الآية : إثبات الحكمة لله عَزَّوَجَلَّ ، ويتفرع علىٰ هذا فائدة عظيمة مسلكية منهجية ، وهي الرضا بقضاء الله وشرع الله ، ترضىٰ لأنك تعلم أن هذا عن حكمة ، حتىٰ وإن كان فيه فوات مالك أو ولدك ، فاعلم أنه لحكمة ، وأنت إذا آمنت بهذا فسوف تسهل عليك كل مصيبة ، إذا علمت أن ما أصابك من الله ،

---

(١) « تفسير جزء عم » سورة الفاتحة (١٦) .

(٢) أخرجه الترمذي (٥ / ٥٨٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وصححه ابن حبّان في صحيحه (٣ / ١٤٨) ، واستشهد به ابن حجر في « الفتح » (٢ / ٣٠٠) ، وقال الهيثمي : « رجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم ، وهو ثقة » . « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » (١٠ / ١٥٠) ، وضعَّفه الألباني في « ضعيف سنن الترمذي » (٤٧٩) ، وفي « صحيح الجامع الصغير وزيادته » (٢ / ٩٥٨) .

(٣) « تفسير سورة آل عمران »(١ / ٥٦١) .

وأن الله ذو حكمة عظيمة فيما يُقَدِّر »[1] .

وفي سورة النجم عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[النساء :١٣١] ، قال في فوائد الآية : « الفائدة الأولىٰ : الرضا بقضاء الله ، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لو قضىٰ عليك مرضـًا فلا تعترض ، ولو قضىٰ عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ، فهو كما يتصرف في السحاب يمطر أو لا يمطر ، يمضي أو لا يمضي ، ويتصرف في الشمس والقمر ، ويتصرف في المخلوقات ، يتصرف فيك أيضـًا كما يشاء ، إن شاء أعطاك صحة ، وإن شاء سلبها ، إن شاء أعطاك عقلاً ، وإن شاء سلبك ، إن شاء أعطاك مالاً ، وإن شاء سلبك ، أنت ملكه ، فإذا آمنت بهذا رضيت بقضائه .

الفائدة الثانية : الرضا بشرعه وقبول شرعه والقيام به ، لأنك ملكه ، إذا قال لك : افعل . فافعل ، وإذا قال : لا تفعل ، فلا تفعل ، أرأيت لو كان لك عبد رقيق فأمرته ، ولكنه لم يفعل ، أو نهيته ففعل ، فالسيادة ناقصة ، إذاً أنت إذا عصيت ربك : إما بفعل محرم وإما بترك واجب ، فإنك خرجت عن مقتضىٰ العبودية التامة ؛ لأن مقتضىٰ العبودية التامة أن تخضع لشرعه ، كما أنك خاضع كرهـًا أو طائعـًا لقضائه وقدره ، فانتبه ليس معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[النساء :١٣١] ، أن يخبرنا أنه مالك فقط ، لكن لأجل أن نعتقد مقتضىٰ هذا الملك ، وهو الرضا بقضائه ، والرضا بشرعه ، هذه حقيقة الملك »[2] .

ما تقدَّم ذكره أمثلة علىٰ الدعوة إلىٰ العبادة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ومن أراد حصر ما ذكره في تفسيره- من أنواع العبادة وما يتعلق بها طال به المقام ،

---

(١) « تفسير سورة النساء »(٢ / ٣٠٧) .

(٢) « تفسير سورة النجم » (٢٢٨-٢٢٩) .

لما تميَّز به الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التفصيل في ذكر العبادات الواردة في الآيات وتعدادها وما يتعلَّق بها، ولربما كرَّر الحديث عن العبادة بإسهاب كلما جاء ذكرها في الآيات[1]، وهذا يدل علىٰ اهتمام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الجانب من الدعوة؛ لأن العبادة هي الحكمة التي خلق الله من أجلها الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، ولأنها هي حق الله تعالىٰ علىٰ عباده، قال ﷺ: «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»[2].

وما تقدَّم من مضامين دعوية في عبادات متنوعة إنما هي نماذج من الدعوة إلىٰ العبادات الظاهرة والباطنة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبتأمل المضامين السابقة نجد أن تفسيره احتوىٰ علىٰ الدعوة إلىٰ عبادات كثيرة وعظيمة تتفاوت مراتبها في الدين بين أركان وشروط وأعمال عظيمة واجبة وأخرىٰ مستحبة، والعبد المؤمن يُسَلِّمُ لشرع الله تعالىٰ وينقاد لأمره، ويتجنب نهيه، مبتغيـًا ما عند الله تعالىٰ بمسابقته لطاعة الله تعالىٰ، مستجيبـًا لأمر الله تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣]، وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[الحديد: ٢١]، وكلما كان العبد أكثر استجابة لأمر الله تعالىٰ، ودعوته لعبادته جل وعلا-، وأعمر الأرض بالحكمة المقصودة من الخلق وهي العبادة، كلما كان لله تعالىٰ أقرب، وعيشه في دنياه أهنأ وأطيب، ومآله في أخراه في أعلىٰ الرتب؛ لأن حقيقة العبادة هي كمال الذل مع كمال المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، ونهاية الخضوع والانقياد والاستسلام والتواضع والخوف والخشية

---

(١) انظر مثلًا الإحالات السابقة عند الحديث عن عبادة الصلاة والصيام والزكاة والصيام والحج.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٤٨).

والإنابة والرجاء والإذعان للعزيز المنان ، والجزاء من جنس العمل ، والشكور جل وعلا- يجازي عبده بأفضل مما يؤمِّل ، وعلىٰ العبد داعية ومدعوًّا- أن يعلم بأن مفهوم العبادة شامل ومعناها واسع ، ولا يقتصر علىٰ بعض الطاعات والأفعال والفرائض ، فكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة إذا صحت النية وأحبها الله وارتضاها فهي عبادة ، فالعبادة معنىٰ عظيم يعيشه العبد في هذه الحياة يشاركه في جميع شؤونه وأحواله ، والعبد في غدوِّه في ميدان العبادة بين مسابق فيه ومقتصد وظالم لنفسه ، وليس له في أخراه إلا بما سعىٰ .



المطلب الثاني : الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق

لَقد امتن الله تعالىٰ علىٰ هذه الأمة بأن جعل الأخلاق رسالة وعلامة بُعِث بها هذا الدين ، وبهذا جاءت رسالات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وحياتهم في أقوامهم ودعوتهم تتمثل فيها أخلاق الفضلية والدعوة إلىٰ تزكية النفوس من أوائلهم إلىٰ دعوة نبينا محمد ﷺ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة :١٢٩] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أن ما جاء به النبي ﷺ يزكي الأخلاق ، ويطهرها من كل رذيلة ، كما قال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] ؛ وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ : تنمية للأخلاق الفاضلة ، وتطهيراً من كل رذيلة ؛ فهو يأمر بالبر ، ويأمر بالمعروف ، ويأمر بالإحسان ، ويأمر بالصلة ، ويأمر بالصدق ، ويأمر بكل خير ، كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به وهذه تزكية- ، وينهىٰ عن ضد ذلك ، ينهىٰ عن الإثم ، والقطيعة ، والعدوان ، والعقوق ، والكذب ، والغش ، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق وهذه أيضـًا تزكية- .

وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تَسأل! شرك ، وكفر ، وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تَسأل أيضـًا عن حالهم! القوي يأكل الضعيف ، والغني يأكل الفقير ، ويأكلون الربا أضعافـًا مضاعفة ، يُغِير بعضهم علىٰ بعض ، يتعايرون بالأنساب ، يدعون بدعوىٰ الجاهلية ... إلخ .

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٤ / ٥١٢) (٨٩٥٢) ، بلفظ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ » وقال الهيثمي : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » . « مجمع الزوائد » (٨ / ١٨٨) .

جاء الإسلام ، وهدم كل هذا ، ومن تدبر التاريخ قبل بعثه ﷺ وبعده ، علم الفرق العظيم بين حال الناس قبل البعثة ، وحالهم بعدها ، وظهر له معنىٰ قوله تعالىٰ : « ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ »(١) .

ولقد تضافرت النصوص الدالة علىٰ عظيم منزلة الأخلاق في الدين ، فحسن الخُلُق من أكثر الأسباب الموصلة للجنة ، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ ، فَقَالَ : « تَقْوىٰ اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ »(٢)

وهو أثقل شيء في الميزان : عن أَبِي الدَّرْدَاءِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ ، وإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ »(٣) .

بل جعل البرَّ كلَّه في حسن الخلق ، عَنِ النَّوَّاسِ بن سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ ، قال : سَالتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، عَنِ البِرِّ والإِثْمِ فَقَالَ : « البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ ، والإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ »(٤) .

ولعظيم شأن الأخلاق كان من مأثور دعاء النبي ﷺ قوله : « اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ

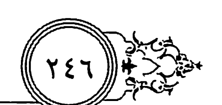
---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٦٧-٦٨) .

(٢) أخرجه أحمد (١٥ / ٤٣٥) (٩٦٩٦) والترمذي (٢٠٠٤) ، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أخرجه الترمذي وابن حبان وصحَّحاه ، وهو عند البخاري في « الأدب المفرد » . « فتح الباري » (١٠ / ٤٥٨) وحسنه الألباني « صحيح الأدب المفرد » (١٢٣) ، وانظر : « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (٢ / ٦٦٩) برقم (٩٧٧) .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢) وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) .



عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ »[١] .

والنصوص في الحث علىٰ مكارم الأخلاق كثيرة ، ورأسها ما جاء في « مسند الإمام أحمد » : من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ »[٢] .

قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ : « وهذا حديث مدني صحيح ويدخل في هذا المعنىٰ الصلاح والخير كله والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل فبذلك بعث ليتممه ﷺ »[٣] .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ معلِّقًا علىٰ هذا الحديث : « فالشرائع السابقة التي شرعها الله للعباد كلها تحث علىٰ الأخلاق الفاضلة ، ولهذا ذكر أهل العلم أن الأخلاق الفاضلة مما طبقت الشرائع علىٰ طلبه ، ولكن الشريعة الكاملة جاء النبي ﷺ فيها بتمام مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال »[٤] .

ولقد جعل الله تعالىٰ من أهم ثمرات العبادات التي يقوم عليها الدين

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) .

(٢) أخرجه أحمد في « المسند » (١٤/ ٥١٢) (٨٩٥٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٢٢١) ، وقال : حديث صحيح علىٰ شرط مسلم . وقال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ : « حديث مدني صحيح » . « التمهيد » (٢٤/ ٣٣٤) ، وقال الهيثمي : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح . « مجمع الزوائد » (٨/ ١٨٨) .

(٣) « التمهيد » (٢٤/ ٣٣٤) .

(٤) « مكارم الأخلاق » لشيخنا ابن عثيمين (١١) ، وهو كتاب لطيف في خمسٍ وخمسين صفحة ، تكلم فيه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأخلاق وكمال الشريعة من ناحية الأخلاق ، ومجالات حسن الخلق ، وقسَّم الكتاب إلىٰ قسمين : الأول : حسن الخُلُق في معاملة الخالق وذكر تحته أنواعا ، والثاني : حسن الخُلُق في معاملة الخَلْق وذكر تحته أنواعاً .

هي تزكية الأخلاق ففي الصلاة قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت:٤٥]، وفي الصوم قال ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ ولاَ يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»(١)، وفي الزكاة قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة:١٠٣]، وفي الحج قال النبي ﷺ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[البقرة:١٩٧].

ولقد كان القرآن الكريم خير مربي علىٰ الأخلاق الفاضلة، ففي صحيح مسلم عن قتادة قال: قُلْتُ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟» قُلْتُ: بَلَىٰ، قالتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ القُرْآنَ»(٢).

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خُلقه يعني أخلاقه التي يتخلق بها يأخذها من القرآن»(٣).

وقال في موضع آخر مبيناً أهمية الأخلاق في القرآن: «القرآن ليس كتاب فقه؛ ولكنه كتاب تربية، وتهذيب للأخلاق»(٤).

ولربما جمعت الآية الواحدة أصول الأخلاق كما في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، (١٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦) (١٣٩).

(٣) «تفسير جزء عم» سورة الماعون (٣٣٠).

(٤) «تفسير سورة البقرة»(٢/ ٤٥٠).

يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٩٠].

قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قالت العلماء إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٩٠] »(١).

وقال فخر الدين الرازي: « وأما علم الأعمال فهو إما أن يكون عبارة عن علم التكاليف المتعلقة بالظواهر وهو علم الفقه ومعلوم أن جميع الفقهاء إنما استنبطوا مباحثهم من القرآن، وإما أن يكون علما بتصفية الباطن أو رياضة القلوب، وقد حصل في القرآن من مباحث هذا العلم ما لا يكاد يوجد في غيره، كقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النمل: ٩٠] »(٢).

وفي تعريف الأخلاق يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « والخُلُق: هو السجيةُ والطبع، وهو كما يقول أهل العلم: صورةُ الإنسان الباطنة، لأن الإنسان صورتين:

صورة ظاهرة: وهي شكل خلقته التي جعل الله البدن عليه، وهذه الصورة الظاهرة منها جميل حسن، ومنها ما هو قبيح سيء، منها ما بين ذلك.

وصورة باطنة: وهي حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو

---

(١) « التمهيد » (٢٤ / ٣٣٤).

(٢) « تفسير الرازي » (١٧ / ٢٥٣).

شر ، من غير حاجة إلىٰ فكر وروية[١] .

وهذه الصورة أيضًا منها ما هو حسن إذا كان الصادر عنها خلقًا حسنًا ، ومنها ما هو قبيح إذا كان الصادر عنها خلقًا سيئًا ، وهذا ما يُعبر عنه بالخلق ، فالخلق إذن هو الصورة الباطنة التي طبع الإنسان عليها »[٢] .

ومما دعا إليه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره مكارم الأخلاق عند تفسيره للآيات التي تضمنت الحث علىٰ الأخلاق الحميدة أو التحذير من الأخلاق الذميمة كما سيأتي .

- المضامين الدعوية المتعلِّقة بمكارم الأخلاق :

١ - خُلُق الصبر .

الصبر من أعظم العطايا والهبات ، ومن أُعطي الصبر فقد أُعطي خيرا كثيرا ، ففي « الصحيحين » من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « ومَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، ومَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وأَوْسَعُ

---

(١) قال ابن الأثير : « الخلق - بضم اللام وسكونها - : الدين والطبع والسجية ، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة ، والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة ، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع » . « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٢/ ٧٠) مادة (خلق) وقال القسطلاني : « اعلم أن الأخلاق جمع خلق . بضم الخاء واللام ويجوز إسكانها . قال الراغب : الخلق -بالفتح وبالضم في الأصل بمعنىٰ واحد ، كالشرب والشرب لكن خص الخلق الذىٰ بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر ، وخص الخلق الذىٰ بالضم بالقوىٰ والسجايا المدركة بالبصيرة . انتهىٰ » « المواهب اللدنية بالمنح المحمدية » (٢/ ١٠٠) .

(٢) « مكارم الأخلاق » لابن عثيمين (٩-١٠) .

مِنَ الصَّبْرِ »[١]، وحث الله تعالىٰ علىٰ الصبر في كتابه العزيز، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر:٢-٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وقد ذكر الله الصَّبْر فِي كِتَابه فِي أكثر من تسعين موضعاً »[٢].

وعن أَبِي مَالِكٍ الأشعرِيِّ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ، وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآَنِ أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، والصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ والصَّبْرُ ضِيَاءٌ ... »[٣].

- **من أبرز المضامين المتعلِّقة بالصبر:**

أولاً: ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره تعريف خُلُق الصبر فقال: « والصبر في اللغة: الحبس؛ ومنه قولهم: فلان قُتل صبراً أي حبساً-؛ وأما في الشرع فإنه حبس النفس علىٰ طاعة الله، أو عن معصيته، أو علىٰ أقداره المؤلمة »[٤].

ثانيًا: حثَّ علىٰ الصبر مبينًا فضيلته وأقسامه، فقال عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة:٤٥]: « ومن فوائد الآية: فضيلة الصبر، وأن به العون علىٰ مكابدة الأمور؛ قال أهل العلم:

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) « التحفة العراقية » (٥٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٤) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ٢٧٩) و(٣/ ٩٥).



والصبر ثلاثة أنواع ؛ وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء ؛ الأول : الصبر علىٰ طاعة الله ؛ والثاني : الصبر عن معصية الله ؛ والثالث : الصبر علىٰ أقدار الله ؛ فالصبر علىٰ الطاعة هو أشقها ، وأفضلها ؛ لأن الصبر علىٰ الطاعة يتضمن فعلاً وكفًا اختياريًا : فعل الطاعة ؛ وكفّ النفس عن التهاون بها ، وعدم إقامته ؛ فهو إيجادي إيجابي ؛ والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقط ؛ لكنه أحيانًا يكون شديداً علىٰ النفس ؛ ولهذا جعل النبي ﷺ الشاب الذي دعته امرأة ذات منصب ، وجمال ، فقال : « إني أخاف الله »[1] في رتبة الإمام العادل من حيث إن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . وإن كان الإمام العادل أفضل ؛ لأن قوة الداعي في الشباب ، وكون المرأة ذات منصب وجمال ، وانتفاء المانع فيما إذا كان خاليًا بها يوجب الوقوع في المحذور ، لكن قال : « إني أخاف الله » ؛ ربما يكون هذا الصبر أشق من كثير من الطاعات ؛ لكن نحن لا نتكلم عن العوارض التي تعرض لبعض الناس ؛ إنما نتكلم عن الشيء من حيث هو ؛ فالصبر علىٰ الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية ؛ والصبر عن المعصية أفضل من الصبر علىٰ أقدار الله ؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله »[2] .

ثالثًا : يرىٰ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الصبر إذا لازمه حسن نية وانتظار للفرج كان ذلك عاملاً علىٰ تحمُّله ؛ لأن الإخلاص روح العبادة ، وانتظار الفرج عبادة ، فقال : « والصبر ثقيل جداً علىٰ النفس ؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق ، أو بلاء ثقل عليه تحمله ، فاحتاج إلىٰ الصبر ؛ ولهذا قال الله تعالىٰ للنبي ﷺ : ﴿تِلْكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(١ / ١٦١ ١٦٢) و« تفسير سورة آل عمران »(١ / ١١٠) و (٢ / ١٣٦) (٢ / ٥٢٣) ، و« تفسير جزء عم » سورة العصر (٣١٢) .

مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[هود: ٤٩]؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، إشارة إلىٰ أن هذا الوحي الذي نزل علىٰ الرسول ﷺ يحتاج إلىٰ صبر، وتحمل؛ لأنه سيجد من ينازع، ويضاد، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[الإنسان: ٢٣، ٢٤]؛ إذاً الصبر شاق علىٰ النفوس، لكن يجب علىٰ الإنسان أن يصبر؛ ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثير، والذي يصبر أيضاً غالباً ينتظر الفرج لا سيما إذا صبر بإخلاص، وحسن نية، وانتظار الفرج عبادة، وباب للفرج؛ لقول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر؛ وأن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً»[1]؛ لأنه إذا كان منتظراً للفرج هان عليه الصبر؛ لأنه يؤمل أن الأمور ستزول، وأن دوام الحال من المحال، فإذا كان يؤمل الأجر في الآخرة، ويؤمل الفرج في الدنيا هان عليه الصبر كثيراً، وهذه لا شك من الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل علىٰ أن الأمور تسهل بالصبر، مهما بلغتك الأمور اصبر، فتهون؛ ولهذا جعل الله الصبر عوناً»[2].

والمؤمن من خلال هذه المضامين يعرف أن للصبر منزلة رفيعة في الشريعة وأن كثيرا من الفضائل معلَّقة بهذا الخُلُق، الذي تكرر في النصوص فضله والحث عليه، وعلىٰ العبد أن يجاهد نفسه لأن يكون في عداد الصابرين الذين وعدهم الله تعالىٰ بوافر الفضل العميم بقوله جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزُّمَر: ١٠]، وتقدَّم كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أنواع الصبر الثلاثة

---

(١) أخرجه أحمد (٥ / ١٨)(٢٨٠٣)، وصححه الألباني «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥ / ٤٩٦) برقم (٢٣٨٢)، و«صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢ / ١١٥١) برقم (٦٨٠٦).

(٢) «تفسير سورة البقرة»(٢ / ١٧٣-١٧٤).

وتفاضلها ومراتبها، والعبد إن جمع مع صبره حسن ظنه بالله تعالىٰ وانتظار الفرج منه جل وعلا كان ذلك أعظم لأجره، وأبلغ لصبره، وأقرب لنيله مراده.

٢- خُلُق الإحسان.

والإحسان في المعاملة من أهم ما ينبغي للمؤمن أن يتخلق به، والإحسان مما أمر الله تعالىٰ به في الآية الجامعة للأخلاق، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾[النحل:٩٠]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هذا الخُلُق: «و(المحسن) اسم فاعل من: أحسَنَ أي قام بالإحسان، وعمل به-، ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾هنا ما كان موافقـًا للشرع، فإذا قرن ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ صار المراد بـ﴿ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾الفضل الزائد علىٰ العدل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾[النحل: ٩٠]؛ فـ﴿ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ تارة يراد به موافقة الشرع ولو كان شيئـًا واجبـًا-، وتارة يراد به ما زاد علىٰ الواجب، وهذا إذا قُرن ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ كما سبق»[(١)]، وهذا المثال الأول علىٰ مضمون خلق الإحسان.

ثانيـًا: من المضامين الدعوية بيان معنىٰ الإحسان وأنواعه وفضله، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ٥٨]: «و﴿ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ نوعان:-

الأول: إحسان في عبادة الله؛ وقد فسره رسول الله ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٢)].

والنوع الثاني: إحسان في معاملة الخلق وهو بذل المعروف، وكفُّ الأذىٰ»..

(١) «تفسير سورة البقرة» (٣/ ١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

ومن فوائد الآية : أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحسانـًا في عبادة الله ، أو إحسانـًا إلىٰ عباد الله ؛ فإن الإحسان سبب للزيادة ؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال : « الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[1] ؛ وقال : « ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته »[2] »[3] .

ثالثـًا : قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان فضله أيضـًا وحكمه ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] : « قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالإحسان ، ولو لم يكن من الإحسان إلا هذا لكان كافيـًا للمؤمن أن يقوم بالإحسان ...

ومن فوائد الآية : الأمر بالإحسان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ ؛ وهل الأمر للوجوب ، أو للاستحباب؟

الجواب : أما الإحسان الذي به تمام الواجب فالأمر فيه للوجوب ، وأمّا الإحسان الذي به كمال العمل فالأمر فيه للاستحباب »[4] .

رابعـًا : خُلُق الإحسان إلىٰ عباد الله يتنوَّع بتنوع حال الـمُحسَن عليه ، ولأهمية الإحسان ذكر الله تعالىٰ أصنافـًا مما ينبغي للمؤمن أن يتخلَّق بالإحسان معهم ، سواء كان ذلك بالفعل أو القول الحسن ، فقال تعالىٰ : ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾[البقرة :٨٣] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(١ / ٢٠١ ، ٢٠٤) .

(٤) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٣٨٩ ، ٣٩١) .

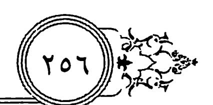
قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد هذه الآية :

« ومن فوائد هذه الآية : وجوب الإحسان إلىٰ الوالدين ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وإنما أوجب ذلك ؛ لأن نعمة الوالدين علىٰ ولدهما هي التي تلي نعمة الله عَزَّوَجَلَّ ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالىٰ في سورة لقمان : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[لقمان : ١٤] ؛ فهما سبب وجودك ، وإمدادك ، وإعدادك ، وإن كان أصل ذلك من الله ، فلولا الوالدان ما كنت شيئًا ، والإحسان إلىٰ الوالدين شامل للإحسان بالقول ، والفعل ، والمال ، والجاه ، وغير ذلك من أنواع الإحسان ، وضده أمران : أحدهما أن يسيء إليهما ، والثاني : أن لا يحسن ، ولا يسيء ؛ وكلاهما تقصير في حق الوالدين مناف لبرهما ، وفي الإساءة زيادة الاعتداء .

- ومن فوائد الآية : وجوب الإحسان إلىٰ ذوي القربىٰ أي قرابة الإنسان- وهم من يجتمعون به بالأب الرابع ، فما دون ، ولكن يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت ، فكل من كان أقرب فهو أولىٰ بالإحسان ؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف قوي بحسب قوة ذلك الوصف ، فمثلاً يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم ، ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال .

- ومنها : وجوب الإحسان إلىٰ اليتامىٰ ، وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم ، والإحسان في أموالهم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

- ومنها : وجوب الإحسان إلىٰ المساكين ، وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة ، ودفع الضرورة ، وما أشبه ذلك .



- ومنها : وجوب القول الحسن ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ؛ وضد القول الحسن قولان : قول سوء ، وقول ليس بسوء ، ولا حسن ، أما قول السوء فإنه منهي عنه ، وأما القول الذي ليس بسوء ، ولا حسن فليس مأموراً به ، ولا منهيًا عنه ؛ لكن تركه أفضل ، ولهذا وصف الله عباد الرحمن بأنهم : ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾[الفرقان : ٧٢] ؛ وقال الرسول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً ، أو ليصمت »[1] »[2] .

وتبيِّن من المضامين السابقة أن الإحسان مفهوم واسع يدخل فيه أنواعٌ من البِّر ، منها الواجب والمستحب ، وبه ينال العبد محبَّة الله تعالىٰ وكفىٰ بهذه فضيلة ، وبالإحسان يسود بين المسلمين التوادُّ والتراحم والتعاطف ، والشارع الحكيم حث علىٰ الإحسان إلىٰ أصنافٍ من الناس بدأ بالوالدين ثم بذي القربىٰ ثم اليتامىٰ ثم المساكين ، والإحسان يكون بالفعل ويكون بالقول كما قال تعالىٰ : ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ، وإذا جمع العبد بين الإحسان بالفعل والإحسان بالقول فقد أخذ بحظٍّ وافر من الإخلاق التي حث عليها الإسلام .

٣- خُلُق العفو .

لقد أمر الله جلَّ وعلا نبيه ﷺ بالعفو والصفح ، فقال تعالىٰ : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف :١٩٩] ، وأمر الله تعالىٰ المؤمنين ، بما أمر به المرسلين ، فقال جل وعلا : ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة :١٠٩] ، ورغَّب الله تعالىٰ عباده بالعفو بأن تكفل بأجره دون بيان مقدار الأجر ، فقال تعالىٰ : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الشورىٰ :٤٠] .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(١/ ٢٧٠ ٢٧١) .

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « يجزيه أجراً عظيمـاً، وثوابـاً كثيراً.. وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل »[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام »[2].

- من أبرز المضامين المتعلِّقة بالعفو:

أولاً: بيَّن الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى العفو ومفهومه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤]، فقال: « وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، العفو ترك المؤاخذة على الذنب، والمعنى هم الذين إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالعفو، وخير من ذلك أن يقابلوه بالإحسان لكن بشرط أن يكون لديهم قدرة على الانتقام، أما من عفا لعدم القدرة على الانتقام فهذا عفو العاجز الذي لا يحمد عليه، بل يكون عفوه هذا عجزاً مذمومـاً، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، فأنتم إن عفوتم عن السوء قد تعفون عن قدرة وقد تعفون عن عجز. أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يعفو عن قدرة »[3].

ثانيـاً: للعفو فضله الذي جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٧٦٠).

(٢) « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » (٢/ ٣٠٣).

(٣) « تفسير آل عمران » (٢/ ١٧٣).

اللهِ ﷺ ، قال : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، ومَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بعَفْوٍ ، إِلَّا عِزًّا ، ومَا تَواضَعَ أحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفعَهُ اللهُ »(١) .

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان العفو في الحديث وأهمية التخلُق به وتربية النفس عليه : « ثم قال ﷺ : « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » ، إذا جنىٰ عليك أحد وظلمك في مالك ، أو في بدنك ، أو في أهلك ، أو في حق من حقوقك ، فإن النفس شحيحة تأبىٰ إلا أن تنتقم منه ، وأن تأخذ بحقك ، وهذا لك . قال تعالىٰ : ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[البقرة : ١٩٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾[النحل : ١٢٦] .

ولا يلام الإنسان علىٰ ذلك ، لكن إذا هم بالعفو وحدث نفسه بالعفو قالت له نفسه الأمارة بالسوء : إن هذا ذل وضعف ، كيف تعفو عن شخص جنىٰ عليك أو اعتدىٰ عليك؟!

فيقول الرسول ﷺ : « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » والعز ضد الذل ، والذي تحدثك به نفسك أنك إذا عفوت فقد ذللت أمام من اعتدىٰ عليك ، فهذا من خداع النفس الأمارة بالسوء ونهيها عن الخير ، فإن الله تعالىٰ يثيبك علىٰ عفوك هذا ، فالله لا يزيدك إلا عزاً ورفعة في الدنيا والآخرة »(٢) .

ثالثًا : من ثمرات العفوِ عفوُ الله تعالىٰ عن العافين عن الناس ، ففي تفسير قول الله تعالىٰ : ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾[النساء : ١٤٩] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائدها : « من فوائد الآية : الإشارة إلىٰ أنك إذا عفوت عن الخلق عفواً في محله فأبشر بعفو الله ؛ لقوله : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ يعني : فمتىٰ عفوتم عفا الله عنكم ، وهذا له شواهد كثيرة في الشريعة ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

(٢) « شرح رياض الصالحين » لشيخنا ابن عثيمين (٣/ ٤٠٨) .

منها قول الرسول ﷺ: « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[١]، ومنها: « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته »[٢]، ومنها: « الجزاء من جنس العمل »[٣]، والشواهد علىٰ هذا كثيرة »[٤].

رابعـًا: يرىٰ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العفو ليس محموداً علىٰ الإطلاق، بل له فقه وتفصيل ينبغي مراعاته، فيقول: « ولكن لا نقول: إن العفو أفضل مطلقـًا، بل تبع المصلحة، ولهذا قيد الله العفو في مكان آخر بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَـا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) لم يرد بهذا اللفظ، ولكنَّ معناه صحيح، قال العامري: « الجزاء من جنس العمل » لم يرد هكذا ولكن معناه صحيح ففي التنزيل ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وفي الحديث « كما تدين تدان » إلىٰ غير ذلك » ا.هـ « الجِدُّ الحثيث في بيان ما ليس بحديث » (٨٢) وقال ابن تيمية: « الجزاء بذلك من جنس العمل كما قال ﷺ: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحمُوا ترحَمُوا، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »، وكما قال ﷺ: « من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر علىٰ مُعسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمـًا ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ». وفي الحديث الصحيح الإلهي: « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منه، ومن تقرَّب إلي شبراً تقربت منه ذراعـًا، ومن تقرب إلي ذراعـًا تقربت منه باعـًا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة »، وقال ﷺ: « من كان له لسانان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة »، وقال: « من استمع إلىٰ حديث قوم وهم له كارهون صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة »، وقال: « لا تزال المسألة بالرجل حتىٰ يجيء يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم ». وقال تعالىٰ: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾[النور: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، ومثل هذا في الكتاب والسنة كثير يبين فيهما أن الجزاء من جنس العمل ». « مجموع الفتاوىٰ » (٦ / ٤٨٢).

(٤) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٩١).

﴿وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى : ٤٠] فإذا كان في العفو إصلاح فهو أفضل ، وإن كان في العفو إفساد فالانتصار أفضل ، فمثلاً لو كان هذا الرجل شريراً ، فلو عفونا عنه لازداد في شره واعتدائه علىٰ الناس ، فهنا الانتصار أفضل ، أولاً : لإعطاء النفس حظها ؛ لأن النفس تحب أن تنتصر ولا شك .

وثانيـًا : لكف شره عن الناس ، فيكون هنا الانتصار أفضل ، وأما إذا تساوىٰ الأمران فلا شك أن العفو أفضل ، أولاً : لما فيه من الإحسان إلىٰ المسيء .

وثالثـًا : أن الله تعالىٰ يحب العافين عن الناس »(١) .

وهذه المضامين الدعوية في العفو دلت علىٰ أهمية امتثال المسلم لهذا الخُلُق العظيم الذي من أعظم ثمراته نيل محبة الله تعالىٰ ، وإذا استشعر العبد هذه الثمرة ومحبة الله تعالىٰ لخُلُق العفو ، وتسمي الله تعالىٰ بالعَفُوْ كان ذلك باعثـًا له في تطبيق هذا الخُلُق في سائر حياته وعلىٰ الوجه الذي يكون في العفو محموداً ؛ لأنه تقدَّم في المضامين أنْ ليس كل عَفْوٍ محمود ، وبالعفو يرتفع العبد في الدنيا وعند ربه جل وعلا عزَّةً ومكانةً ، وينال به عفو الله تعالىٰ .

٤- خُلُق الصدق .

إن من أعظم الأخلاق التي أمر الله تعالىٰ بها عباده في كتابه خُلُق الصدق ، فقال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[التوبة :١١٩] .

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ، ومخرجا »(٢) .

---

(١) « تفسير سورة النساء »(٢ / ٣٩٠) .

(٢) « تفسير القرين العظيم »(٤ / ٢٣٠) .

وجاء الأمر الإلهي بالصدق والحث عليه ؛ لأن الصدق يقود لسائر الأخلاق والخير الكثير الذي يتضمنه البرِّ كما أخبر النبي ﷺ بذلك ، عَنْ عبد اللهِ بن مَسْعُوْدٍ ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ البِرِّ ، وإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا ، وإِيَّاكُمْ والكَذِبَ ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الفُجُورِ ، وإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا »(١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « بيَّن النبي ﷺ عندما أمر بالصدق عاقبته فقال : « إن الصدق يهدي إلىٰ البر ، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة » ، البر كثرة الخير ، ومنه من أسماء الله : ﴿ٱلْبَرُّ﴾ أي كثير الخير والإحسان عَزَّوَجَلَّ ، فالبر يعني كثرة الخير ، وهو من نتائج الصدق »(٢) .

– ومن أبرز المضامين المتعلِّقة بالصدق :

أولاً : عرَّف الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصدق في تفسيره ، فقال : « والصدق هو مطابقة الشيء للواقع ؛ فالمخبر بشيء إذا كان خبره موافقـًا للواقع صار صادقـًا »(٣) ، وبيَّن أن ما يَرِدُ في القرآن بلفظ الحق إذا أُضيف إلىٰ الخبر فالمراد به الصدق ، وإذا أُضيف إلىٰ الحكم فالمراد به العدل ، وهي قاعدة كرّرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أكثر من موضع في تفسيره ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « و(الحق) معناه الشيء الثابت ؛ فإن أضيف إلىٰ الخبر فهو الصدق ؛ وإن أضيف إلىٰ الحكم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٧) .

(٢) « شرح رياض الصالحين » (١ / ٢٩٤) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٢٨٠) .

فهو العدل ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[الأنعام :١١٥] »(١) .

ثانيًا : دعا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ خُلُق الصدق مبيِّنًا درجة الصديقيَّة عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة :١١٩] ، فقال : « الفائدة الخامسة : الحث علىٰ الصدق والترغيب فيه ؛ لأن ذكر كونه نافعًا في ذلك الوقت الحَرِج يدل علىٰ الترغيب فيه والحث عليه ، وقد حث عليه النبي ﷺ في قوله : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلىٰ البر ، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقًا »(٢) والصدِّيقيَّة : أعلىٰ مراتب البشر بعد النبوة ، ويكفيك اقتناعًا بفائدته وثمرته ما حصل للثلاثة الذين خلفوا ، أي خلف أمرهم ولم يقضَ فيه بشيء حتىٰ جاء الوحي وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، هؤلاء الثلاثة تخلفوا عن غزوة تبوك ، ولما رجع النبي ﷺ منها ، جاء المعذرون يعتذرون إلىٰ النبي ﷺ ، وقد أخبر الله عنهم قبل وصول النبي ﷺ إلىٰ المدينة ، وقال : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة : ٩٥- ٩٦] ، أما الثلاثة فصدقوا وأخبروه بالصدق ، وأنزل الله سبحانه وتعالىٰ فيهم آيات تتلىٰ في الصلاة وخارج الصلاة ويثاب علىٰ قراءتها ، وحث علىٰ أن نكون مثلهم فقال له بعد ذكر الآيات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] »(٣) .

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ١٢٥) ، وانظر فيها مثلًا : (١/ ٣٥٨) ، (٢/ ٢٧) ، (٣/ ٢٣٤) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك ، أخرجها البخاري (٤٤١٨) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

لو قال قائل: أحياناً إذا أراد الإنسان أن يصدق فإن الصدق قد يدخله في إحراج، كأن يطلب منه رجل مالاً قرضاً فيقول له: ما عندي لأنه يخاف المماطلة؟

الجواب: هذه سهلة، يتأول، وفي التأويل مَنْدُوحةٌ عن الكذب، يقول: ما عندي شيء أقرضك إياه، ينوي هذا، والنية تخصص العام، وليأخذ طالب العلم هذه الفائدة وينتفع بها، أن في التأويل لمندوحة عن الكذب»[1].

ثالثاً: أسهب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان مواضع الصدق، وبيَّن أن الصدق يكون بالقصد وبالقول وبالفعل وبيَّن ذلك بالأمثلة، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، فقال: «﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾، أي: الذين آمنوا بالله ورسله ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: البالغون في الصدق مبلغاً كبيراً؛ لأن الصديق صيغة مبالغة، والصدق يكون بالقصد وبالقول وبالفعل.

فأما الصدق بالقصد فأن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله تبارك وتعالىٰ لا يقصد غيره، وإذا قصد بعبادته شيئاً غير الله فقد أشرك ولا يقبل عمله، لقوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- في الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالىٰ: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[2].

الثاني: الصدق في القول بأن يكون الإنسان صادقاً فيما يخبر به، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ الصادقين، وأمرنا أن نكون معهم، فقال جل وعلا-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩]، وأثنىٰ علىٰ المهاجرين الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، وأمر النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ

---

(١) «تفسير سورة المائدة»(٢ / ٥٦٩-٥٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

آله وسلم- بالصدق وحث عليه، ورغَّب فيه، فقال: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، ولايزال الرجل يصدق ويتحرَّىٰ الصدق حتىٰ يُكتب عند الله صدِّيقـًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، ولايزال الرجل يكذب ويتحرَّىٰ الكذب حتىٰ يُكتب عند الله كذابـًا»(١).

أما الصدق بالفعل فمتابعة النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم؛ لأن من كان صادقـًا فيما يدعي من محبة الله تعالىٰ ورسوله ﷺ فليتبع الرسول صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، وقد سمىٰ بعض السلف هذه الآية آية المحنة، يعني الامتحان، فمن ادعىٰ حب الله ورسوله قلنا له: عليك باتباع الرسول ﷺ، فإن اتبعه فهو صادق، وإن خالفه فليس بصادق»(٢).

والمضامين في الصدق كثيرة، وأهمية هذا الخُلُق في حياة العبد ظاهرة البيان، دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، وحاجة الواقع والمواقف التي تعتري العبد فيجد ثمرة صدقه في حياته، وانشراحه، وما عند الله من منزلة الصديقية خير وأبقىٰ، بخلاف من كان علىٰ ضده فإنه يسوء حاله ومعاشرته والحديث معه، ويعظم ريب الناس فيه، وكفىٰ بهذه مذمة، والصدق يكون بالقصد والقول والفعل وتحت كل نوع منها للعبد مواقف يعظم فيها حال الصدق كما تقدَّم في المضامين.

٥- خُلُق الأمانة.

من الأخلاق التي حثَّ عليها الإسلام خُلُق الأمانة، أمر الله تعالىٰ بأداء

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «تفسير سورة الحديد» (٣٩٩-٤٠٠).

الأمانات إلىٰ أهلها فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء :٥٨] ، وأثنىٰ علىٰ المؤمنين الذين من أخلاقهم رعاية الأمانة فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[المؤمنون :٨] ، وحذَّر الشارع الحكيم من الإخلال بهذا الخُلُق ، وجَعَلَهُ علامة من علامات النفاق ، عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذَا وعَدَ أَخْلَفَ ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »[(١)] .

- ومن أبرز المضامين المتعلِّقة بالأمانة :

أولاً : عرَّف الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأمانة وبيَّن مفهومها عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ ، فقال: « قوله: ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾ الأمانات جمع أمانة ، وهي كل ما اؤتمن الإنسان عليه من أمتعة ، ونقود ، وأقوال ، وأفعال وغير ذلك ، تؤَدَّىٰ إلىٰ أهلها ، والضابط في أهلها هم الذين أُمِرْت بأدائها إليهم ، فمثلاً : إذا قال لك شخص : خذ هذه الدراهم وأدِّها إلىٰ فلان ، فالمؤتمن صاحب الدراهم ، وأهلها الذين أُمِرْت أن تؤديها إليه ، يعني : فلا تؤدها إلىٰ أحد غيره ، وقد تكون الأمانة بالقول ، فأقول لك مثلاً : بلغ سلامي فلانـًا ، فإذا قلت : نعم ؛ فقد تحملت ، فلا بد أن تؤدها لي السلام ، أما إن قلت : إن ذكرت أو لا أتحمل فأنت بالخيار ، لكن إذا قال : بلغ سلامي فلانـًا فقلت : نعم أبلغه فلا بد أن تبلغه ؛ لأن هذه أمانة ، وقد أمرك الله أن تؤديها إلىٰ أهلها »[(٢)] .

ثانيـًا : حكم أداء الأمانة فواجب ؛ لأمر الله تعالىٰ المؤمنين بأدائها بذلك ، وفي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .

(٢) « تفسير سورة النساء »(١ / ٤٣٩) .

قوله تعالىٰ : ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة :٢٨٣] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومن فوائد الآية : وجوب أداء الأمانة علىٰ من اؤتمن ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ ؛ فإذا وجب أداء الأمانة حرمت الخيانة .

– ومنها : أنه لو تلفت العين بيد الأمين فإنه لا ضمان عليه ما لم يَتَعَدَّ ، أو يُفَرِّط ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ ؛ فسماها الله سبحانه وتعالىٰ أمانة ؛ والأمين يده غير متعدية ؛ فلا يضمن إلا إذا حصل تعدٍّ ، أو تفريط ؛ ومن التعدي إذا أعطي الإنسانُ أمانة للحفظ تصرف فيها كما يفعل بعض الناس– ببيع ، أو شراء ، أو نحو ذلك ؛ وهذا حرام لا يجوز ؛ وإذا أردت أن تفعل فاستأذِن من صاحبها ؛ فإن أذن لك صارت عندك قرضـاً .

– ومن فوائد الآية : أنه يجب علىٰ هذا الذي اؤتمن ألا يغترَّ بثقة الناس به ، فيفرط فيما يجب عليه من أداء الأمانة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ »(1) .

ثالثـاً : في بيان ضابط حفظ الأمانة قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء :٥٨] : « من فوائد الآية : وجوب حفظ الأمانات فيما تحفظ به عادة ، فإذا أعطاك إنسان دراهم وجب عليك أن تحفظها فيما تُحفظ به عادة ، ووجه ذلك : أنه من لازم أدائها حفظها ؛ لأن من لم يحفظها لا يمكن أن يؤديها ، فإذا أعطاك دراهم ووضعتها في فرجة أو في رف وسرقت فأنت ضامن ؛ لأن هذا تفريط في الواجب ، فالواجب أن تحفظها في الصناديق .

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٤٢٩) .

وإذا أودع عندك بهيمة وتركتها للبرد أو للحر ، أو للجوع أو للعطش ، فأنت ضامن ؛ لأنك فرطت ، فإن الله أمرك أن تؤدي الأمانات إلىٰ أهلها ومن لازم أدائها حفظها حتىٰ تُؤدىٰ كما أُخذت »[١] .

رابعـًا : أداء الأمانة لا يختص بالأموال والأشياء العينيّة التي يتركها الناس عند الأمين ، بل هو لفظ عام يدخل تحته عدة أنواع ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد الآية السابقة : « وجوب حفظ السر فيما يكون بينك وبين صاحبك من قول ، لقوله : ﴿ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ وهو عام في أمانات الأموال ، وأمانات الأقوال ، وأمانات الأحوال أيضـًا ؛ ولهذا ورد الوعيد الشديد فيمن تفضي إليه زوجه وهو يفضي إليها ثم يصبح يتحدث بما جرىٰ بينهما ، وأن هذا شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة .

- وجوب أداء الشهادة علىٰ الشاهد كما تحملها ؛ لأن الشاهد مؤتمن ، فيجب عليه أن يؤدي الشهادة كما تحملها من غير زيادة ولا نقص ، وهل يجوز أن يؤديها بالمعنىٰ ؟

الجواب : نعم ، إذا كان عالمـًا بالمعنىٰ ، ولم يحدث ما يتغير به المعنىٰ فإنه لا بأس أن يؤديها بالمعنىٰ »[٢] .

دلت هذه المضامين علىٰ أن الأمانة خُلُق من الأخلاق التي يحتاجها المسلمون فيما بينهم في حفظ حقوقهم ومما يحفظ روح التعاون والتكافل بين المسلمين ، وتكون الأمانة في الأعيان والأقوال والأفعال ، وتحمُّلها مستحب عند القدرة ، وأداؤها واجب أوجبه الله تعالىٰ بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن

---

(١) « تفسير سورة النساء »(١ / ٤٤١) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٤٢) .

تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ ، وحفظ الأمانة يكون بما يُحفظ به في عادة الناس فمن تعدّىٰ أو فرّط ضمن ، ومن محاسن الشريعة مشروعية الأمانة والحث عليها وجعلها من صفات المؤمن ، وخيانتها خُلَّةٌ من خلال النفاق .

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره كثيراً من مكارم الأخلاق ، وتتبُّع كل ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مكارم الأخلاق يطول به المقام ، وحسبك أن القرآن كله تربية علىٰ الأخلاق والقِيَم .

- ومن المضامين المتعلِّقة بمكارم الأخلاق في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

٦- محبة المرء الخير للغير كما يحبه لنفسه ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾[البقرة :٢٦٧] ، قال :

« ومن فوائدها : الإشارة إلىٰ قاعدة إيمانية عامة ؛ وهي قول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(١) ، ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالىٰ قال : ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ ، فالإنسان لا يرضىٰ بهذا لنفسه فلماذا يرضاه لغيره؟!! فإذا كنت أنت لو أُعطيت الرديء من مال مشترك بينك وبين غيرك ما أخذته إلا علىٰ إغماض ، وإغضاء عن بعض الشيء ، فلماذا تختاره لغيرك ، ولا تختاره لنفسك؟!! وهذا ينبغي للإنسان أن يتخذه قاعدة فيما يعامل به غيره ؛ وهو أن يعامله بما يحب أن يعامله به ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ وليأت إلىٰ الناس ما يحب أن يؤتىٰ إليه »(٢) ،

---

(١) أخرجه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) .

هذه قاعدة في المعاملة مع الناس ، ومع الأسف الشديد أن كثيراً من الناس اليوم لا يتعاملون فيما بينهم علىٰ هذا الوجه ؛ كثير من الناس يرىٰ أن المكر غنيمة ، وأن الكذب غنيمة »[١] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة :٢٣٧] ، قال :

« ومن فوائدها : أنه ينبغي للإنسان ألا ينسىٰ الفضل مع إخوانه في معاملته ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ؛ وقد جاء في الحديث : « رحم الله عبداً سمحاً إذا باع ؛ سمحاً إذا اشترىٰ ؛ سمحاً إذا اقتضىٰ »[٢] ؛ فإن هذا فيه من حسن المعاملة ما هو ظاهر ، والدين الإسلامي يحث علىٰ حسن المعاملة ، وعلىٰ حسن الخلق ، وعلىٰ البر كله »[٣] .

٧- **وخُلُق المعاشرة بالمعروف** ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[البقرة :٢٣١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائدها :

« ومن فوائد الآية : وجوب المعاشرة بالمعروف حتىٰ بعد الطلاق ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ لئلا يؤذي الإنسان زوجته بالقول ، أو بالفعل ، أو بمنع الحقوق ، أو ما أشبه ذلك ؛ ومما هو معروف أن ما يجري بين الأزواج أحياناً من المشاحنة ، وادعاء الزوج ما يكون لزوجته من

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٤٥) ، و« تفسير آل عمران »(١/ ٥٩٢) ، و« أحكام من القرآن الكريم (٢/ ٢٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٦) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ١٧٦) .

الأمتعة التي أعطاها إياها في المهر ، أو فيما بعد ذلك حتىٰ يطالبها بالحلي الذي أعطاها ؛ خلاف المعروف الذي أمر الله به .

- ومنها : عناية الله عَزَّوَجَلَّ بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف سواء في حال الاتفاق ، أو في حال الاختلاف ؛ لأن ذلك هو الذي يُقِيْمُ وحدة الأمة ، فإن الأمة إذا لم تتعامل بالمعروف بل بالمنكر ، والإساءة- تفرَّقَت ، واختلفت ، فالأمة الإسلامية أمة واحدة ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٠٣] »[1] .

٨- **الإصلاح بين الناس وترك النميمة ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ :** ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[البقرة :٢٢٤] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« ومن فوائد الآية : فضيلة الإصلاح بين الناس ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ؛ فنص عليه مع أنه من البر ؛ والتنصيص علىٰ الشيء بعد التعميم يدل علىٰ العناية به ، والاهتمام به ، ولا ريب أن الإصلاح بين الناس من الأمور الهامة لما فيه من رأب الصدع ، ولمّ الشعث ، وجمع الشمل ، وهذا خلاف من يفعلون ما يوجب القطيعة بين الناس ، مثل النميمة فهي توجب القطيعة بين الناس- ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام »[2] »[3] .

٩- **معاملة الناس بالظاهر وحسن الظن بهم ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ :** ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ١٢٧) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠٥) ، والبخاري (٦٠٥٦) بلفظ : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ » كلاهما من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٩١) .

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾[النساء :٩٤] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« من فوائد الآية : أن الواجب علينا معاملة الخلق بالظاهر ، لقوله : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ ولم يقل : لست مسلماً ؛ لأنه ألقىٰ السلام واستسلم ، لكن لا تقولوا : لست مؤمناً ، يعني : لم يدخل الإيمان في قلبك .

- ومنها التحذير من هؤلاء الناس الذين يتهمون المسلمين بأن عملهم رياء ، فبعض الناس والعياذ بالله! إذا كره شخصاً وأُثني عليه عنده بأنه يعمل العمل الصالح قال : هذا مرائي ، فيكون بهذا القول وارثاً للمنافقين ؛ لأن المنافقين هم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾[التوبة :٧٩] .

- ومنها : أنه لا يجوز لنا أن نتعدىٰ الظاهر الذي يبدو من الإنسان ، حتىٰ وإن وجدت قرائن تدل علىٰ خلاف ظاهره ، والدليل : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ .

وقد وقع مثال تطبيقي لهذا في عهد النبي ﷺ ، فإن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه وهو حب رسول الله ﷺ - أدرك رجلاً من المشركين فعلاه بالسيف ، فقال الرجل لما غشيه أسامة وأدركه : لا إله إلا الله ، ولكن أسامة قتله ؛ يظن أنه قالها خوفاً من القتل ، ولم يقلها من قلبه ، فأخبر بذلك النبي ﷺ ، فجعل يقول : « أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله؟ كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة » الله أكبر! جعل يكرر هذا حتىٰ قال أسامة : « تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ »[1] يعني : تمنيت أن يكون هذا في حال كفري حتىٰ أسلم فيغفر لي ما قد سلف ؛ لأن من أسلم غفر الله له ما سلف في كفره مهما كان .

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧) .

فأقول : إن هذا يدل على التحذير من الحكم على الناس بما يخالف الظاهر ، ونحن لا نكلف ما لا نطيق ، ووالله! لو أن الله جعل حكمنا على الناس على حسب الباطن لهلكنا ، فمن يحقق الباطن ، لا يمكن أن يحققه أحد ، فنحن ليس لنا إلا الظاهر »[1] .

١٠- الإيفاء بالعهد والنذر ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾[البقرة : ٤٠] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد الآية :

« من فوائد الآية : أن من وفى لله بعهده وفى الله له ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ ، بل إن الله أكرم من عبده ، حيث يجزيه الحسنة بعشر أمثالها ، وفي الحديث القدسي : « إِذَا تَقَرَّبَ العبد إِلَيَّ شِبْراً تقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعـاً ؛ وإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعـاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعـاً ؛ وإِذَا أَتَانِي مَشْيـاً أَتَيْتُهُ هَرْولَةً »[2] .

- ومن فوائد الآية : أن من نكث بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رتب الله تعالى على الوفاء بالعهد ، وذلك ؛ لأن المنطوق في الآية أن من وفى لله وفى الله له ، فيكون المفهوم أن من لم يفِ فإنه يعاقب ، ولا يعطى ما وُعِد به ، وهذا مقتضى عدل الله عَزَّوَجَلَّ .

- ومنها : وجوب الوفاء بالنذر ؛ لأن الناذر معاهد لله ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[التوبة :٧٥] »[3] .

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره كما دعا إلى الأخلاق الحميدة من مكارم

---

(١) « تفسير سورة النساء »(٢ / ٩٥-٩٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(١ / ١٤٤) .

الأخلاق ، فإنه دعا إلىٰ التحذير من الأخلاق الذميمة من مساوئ الأخلاق حيث قال في ختام تفسير سورة الهمزة : « حكىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ذلك علينا وبينه لنا في هذه السورة لا لمجرد أن نتلوه بألسنتنا ، أو نعرف معناه بأفهامنا ، لكن المراد أن نحذر من هذه الأوصاف الذميمة : عيب الناس بالقول ، وعيب الناس بالفعل ، والحرص علىٰ المال حتىٰ كأن الإنسان إنما خلق للمال ليخلد له ، أو يخلد المال له ، ونعلم أن من كانت هذه حاله فإن جزاءه هذه النار التي هي كما وصفها الله ، الحطمة ، تطلع علىٰ الأفئدة ، مؤصدة ، في عمد ممدة . نسأل الله تعالىٰ أن يجيرنا منها ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والاستقامة علىٰ دينه »[1] .

– ومن مضامين الأخلاق الذميمة التي جاء التحذير منها :

– **خُلُق الكذب** ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[البقرة:١٠] ، قال : « من فوائد قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ معرفة سوء النتائج والعواقب للكذب ، وأن الكذب سبب للعذاب ، ولكن لاشك أن الكذب تتفاوت مراتبه ، وإذا تفاوتت مراتبه تفاوتت عقوباته ، فالكذب علىٰ الله ورسوله مثلا أعظم من الكذب علىٰ غير الله ورسوله ، والكذب الذي يترتب عليه إتلاف مال أو إتلاف أنفس أعظم من الكذب الذي لا يترتب عليه ذلك »[2] .

– **خُلُق الحسد** ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[البقرة:١٠٩] ، حيث قال : « ومن فوائد الآية : تحريم الحسد ؛ لأن مشابهة الكفار بأخلاقهم محرمة ؛

---

(١) « تفسير جزء عم » سورة الهمزة (٣١٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٦١) .

لقول النبي ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم »[(١)] ؛ واعلم أن الواجب علىٰ المرء إذا رأىٰ أن الله أنعم علىٰ غيره نعمة أن يسأل الله من فضله ، ولا يكره ما أنعم الله به علىٰ الآخرين ، أو يتمنىٰ زواله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء : ٣٢] ؛ والحاسد لا يزداد بحسده إلا ناراً تتلظىٰ في جوفه ، وكلما ازدادت نعمة الله علىٰ عباده ازداد حسرة ، فهو مع كونه كارهـاً لنعمة الله علىٰ هذا الغير مضاد لله في حكمه ؛ لأنه يكره أن ينعم الله علىٰ هذا المحسود ، ثم إن الحاسد أو الحسود مهما أعطاه الله من نعمة لا يرىٰ لله فضلاً فيها ؛ لأنه لابد أن يرىٰ في غيره نعمة أكثر مما أنعم الله به عليه ، فيحتقر النعمة »[(٢)] .

– وخُلُق الفخر ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء :٣٦] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قال الله عَزَّوَجَلَّ في ختام الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي : إن الله لا يحب الذي كان مختالاً ، و﴿كَانَ﴾ هنا فعل ماض لكنها مسلوبة الزمنية ، والمراد لا يحب من اتصف بالاختيال والفخر ، والمختال في هيئته ، والفخور بلسانه ، فالاختيال يكون بالفعل ، والفخر يكون باللسان ، فمن كان مختالاً في فعله فإن الله لا يحبه ، ومن كان فخوراً بقوله فإن الله لا يحبه أيضـاً .

وختم الآية بهذه الجملة لأن الغالب أن من يستكبر عن عبادة الله ، وعن هذه

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٩/ ١٢٦) (٥١١٥) ، وأبوداود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أخرجه أبو داود بسند حسن » . « فتح الباري » (١٠/ ٢٧١) ، وقال الألباني : « حديث حسن صحيح » انظر : « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (١٤/ ٢٤) ، و« صحيح الجامع الصغير » (٢/ ١٠٥٩) (٦١٤٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(١/ ٣٥٩) .

الوصايا النافعة ، فالغالب عليه أنَّ فيه اختيالاً ، وفيه فخراً واستنكافًا واستكباراً ، فلهذا ختم الله هذه الآية المشتملة على هذه الوصايا العظيمة بهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ، فهذه الآية فيها بيان حقوق : حق الله ، وحق غيره من الناس ، وغير الناس »[1] .

– **وخُلُق البخل** ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾[النساء :٣٧] ، قال :

« البخل هو إمساكُ ما يجب بذله من مال أو علم أو جاه أو عمل ، فكل ما يجب بذله من هذه الأشياء فمنعه بخل ، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل علي »[2] اللهم صل وسلم عليه ، فهذا بخل بما يجب من عمل ، وما يجب من جاه ؛ كالشفاعة الواجبة إذا بخل بها الإنسان فإن هذا بخل ، وما يجب من مال وأعلاه الزكاة ، فهذا بخل بما يجب من المال ، والرابع : ما يجب من العلم ، فمنعه بخل ، وهو من أشد أنواع البخل قال الله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران : ١٨٧] وفي الحديث : « من سُئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة »[3] ، فهذه أنواع البخل .

---

(١) « تفسير سورة النساء »(١ / ٣٠٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٣ / ٢٥٧) (١٧٣٦) ، والترمذي (٣٥٤٦) من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » « المستدرك » (١ / ٧٣٤) ، وقال الألباني : « الحديث صحيح بلفظ : « البخيل من ذكرت ... » ؛ لشواهد له خرجتها في « إرواء الغليل » (١ / ٣٥ / ٥) انظر : « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (١٤ / ١١٧٨) ، و« صحيح الجامع الصغير » (١ / ٥٥٧) (٢٨٧٨) .

(٣) أخرجه أحمد (١٣ / ١٧) (٧٥٧١) ، وأبوداود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال الحاكم : « استحسنه أبو علي واعترف=

وأيضاً : البخل بالبدن إذا وجب عليك إعانة مسلم ؛ كإنقاذه من حريق أو غرق أو هدم أو غير ذلك فلم تفعل ، فإنك تكون من أهل البخل .

إذاً : تعريف البخل : هو منع ما يجب بذله من مال أو علم أو عمل أو جاه أو بدن .

وإن شئنا أدخلنا كلمة البدن بالعمل ؛ لأنه في حقيقة الأمر هو عمل .

قوله : ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي : فيتعدىٰ ضررهم إلىٰ غيرهم ، فإذا جاءهم من يستشيرهم في أمر فيه بذل قالوا : ليس له داع ، ادخر مالك فربما تحتاجه في المستقبل! ...

- من فوائد الآية الكريمة : ذم البخل ، وهو أنواع ، والبخل بما يجب شرعاً أعظم من البخل بما يجب عرفاً ، والبخل بالفضل دون البخل بالواجب ، فالضيافة مثلاً تجب يوماً وليلة ، فالبخل فيها أشد من البخل في كامل الضيافة وهو ثلاثة أيام ، فمن بخل بيوم وليلة أشد ذماً ممن بخل بثلاثة أيام »[1] .

- وخُلُق الخيانة ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[النساء :١٠٧] ، حيث قال : « من فوائد الآية : أن الخيانة من كبائر الذنوب ، يؤخذ من قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ؛ لأنه إذا رتب علىٰ العمل عقوبة خاصة فهو من الكبائر ، وهذا أحسن ما قيل في حد الكبيرة ، وذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ[2] ، فكل شيء يرتب عليه عقوبة خاصة

= لي به ، ثم لما جمعت الباب وجدت جماعة ذكروا فيه سماع عطاء من أبي هريرة ، ووجدنا الحديث بإسناد صحيح لا غبار عليه ، عن عبد الله بن عمرو » . « المستدرك » (١ / ١٨٢) ، وصححه الألباني « صحيح الجامع الصغير » (٢ / ١٠٧٧) (٦٢٨٤) .

(١) « تفسير سورة النساء »(١ / ٣١٧-٣١٩) ، و« تفسير سورة يس » (٢ / ١٧١) .

(٢) انظر « مجموع الفتاوىٰ » (١١ / ٦٥٠) وما بعدها ، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : « أمثل الأقوال فيها هو=

فهو من الكبائر ، سواء كانت العقوبة لعنة ، أو غضباً أو نفي إيمان ، أو تبرءاً منه ، أو غير ذلك .

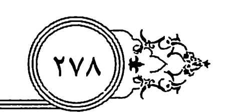
– ومنها : التحذير من الخيانة ، لكون الله تعالىٰ نفىٰ محبته للخائن الأثيم ، والترغيب في أداء الأمانة ؛ لأنه إذا وقع الذم علىٰ وصف لزم أن يكون المدح في ضده »[1] .

– وخُلُق اللمز ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[الحُجُرات :١١] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ :« وقوله : ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فسَّر بمعنيين :

المعنىٰ الأول : لا يلمز بعضكم بعضاً ، لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان ، أخوك بمنزلة نفسك ، فإذا لمزته فكأنما لمزت نفسك .

= المأثور عن السلف كابن عباس وأبي عبيد وأحمد بن حنبل وهو أن الصغيرة ما دون الحدَّين : حدّ الدنيا وحد الآخرة ، وهو معنىٰ قول القائل : كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار فهو من الكبائر ... وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة علىٰ غيره فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة ... وإنما قلنا : إن هذا الضابط أولىٰ من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه :
أحدها : أنه المأثور عن السلف ...
الثاني : أن الله تعالىٰ يقول : ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[النساء :٣١] ، فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات واستحقاق المدخل الكريم ، وكل من وعد بغضب أو لعنة أو نار أو حرمان من جنة أو ما يقتضي ذلك فإنه خارج عن الوعد فلا يكون من مجتنبي الكبائر ، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر ...
الثالث : أن هذا الضابط مرجعه إلىٰ ما ذكره الله ورسوله في الذنوب ؛ فهو حد يتلقىٰ من خطاب الشارع . .
الرابع : أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر بخلاف غيره ... » وانظر مزيداً : « مدارج السالكين » لابن القيم (١ / ٣٢١-٣٢٧) .

(١) « تفسير سورة النساء »(٢ / ١٨٥) .



والمعنىٰ الثاني : إن المعنىٰ لا تلمز أخاك ، لأنك إذا لمزته لمزك ، فلمزك إياه سبب لكونه يلمزك ، وحينئذ تكون كأنك لمزت نفسك ، وعليه قول النبي ﷺ : « لعن الله من لعن والديه » فقالوا : يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »[1] وعلىٰ كل حال في الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضاً ، فلا يجوز لك أن تعيب أخاك بصفة خَلْقية أو صفة خُلُقية ، أما الصفة الخَلْقية التي تعود إلىٰ الخلقة فإن عيبك إياه في الحقيقة عيب لخالقه عَزَّوَجَلَّ فالذي خلق الإنسان هو الله عَزَّوَجَلَّ ، والذي جعله علىٰ هذه الصفة هو الله عَزَّوَجَلَّ ، والإنسان لا يمكن أن يكمل خِلقته فيكون الطويل قصيراً ، أو القصير طويلاً ، أو القبيح جميلاً ، أو الجميل قبيحاً؟ فأنت إذا لمزت إنساناً وعبته في خلقته فقد عبت الخالق في الواقع ، ولهذا لو وجدنا جداراً مبنيًّا مائلاً وعبنا الجدار فعيبنا لباني الجدار ، إذن إذا عبت إنساناً في خلقته فكأنما عبت الخالق عَزَّوَجَلَّ فالمسألة خطيرة ، أما عيبه بالخُلُق بأن يكون هذا الرجل سريع الغضب ، شديد الانتقام ، بذيء اللسان ، فلا تعبه ؛ لأنه ربما إذا عبته ابتلاك الله بنفس العيب ، ولهذا جاء في الأثر : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك »[2] .

لكن إذا وجدت فيه سوء خُلُق فالواجب النصيحة ، أن تتصل به إن كان يمكن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠) ، ولفظه : عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بن العَاصِ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « مِنَ الكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ والِدَيْهِ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، وهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ؟ قال : « نَعَمْ يَسُبُّ أبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أبَاهُ ، ويَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب » من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وضعفه الألباني ، « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (١١ / ٧٠٧) ، و« ضعيف الجامع الصغير » (٩٠١) (٦٢٤٥) .

الاتصال به، وتبين له ما كان به من عيب، أو أن تكتب له كتابًا: رسالة باسمك أو باسم ناصح مثلا »[١].

- وخُلُق التدابر، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « نهىٰ النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- عن التدابر[٢]، والتدابر يشمل التدابر القلبي بحيث يكون كل واحد متجه إلىٰ وجه، والتدابر البدني إلا عند الحاجة أو الضرورة، وإلا فمتىٰ أمكن التقابل فهو أفضل، فلو أن أحداً يكلمك وقد ولاَّك ظهره هل يكون سماعك له ومحبتك له كما لو كان يحدثك مستقبلاً إياك؟ وهذا شيء مشاهد معلوم »[٣].

ومما تقدَّم من المضامين المتعلِّقة بالأخلاق نلْحَظُ منهجًا رصينًا في الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق، وما ينبغي أن يكون عليه خُلُق المؤمن، وتبيَّن كيف أن القرآن الكريم وسع مكارم الأخلاق ودعا لها بأسلوب بليغ مقرون بالترغيب وجذب الأفئدة لمحاسن الأخلاق، وبكلمات بالغة التأثير في التحذير من مساوئ الأخلاق، إشارة إلىٰ أن المؤمن يتخذ من هذا القرآن منهج حياة لم يقتصر فيه علىٰ العقائد والأحكام فحسب، بل فيه كما ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ- تربية النفس وتزكيتها، والدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق[٤]، والعبد إذا تخلَّق بأخلاق القرآن كان أقرب أسوة بالنبي ﷺ الذي كان خلُقه القرآن، فالأخلاق شأنها رفيع، والأمم إنما تسمو بأخلاقها، والعبد فرد من

---

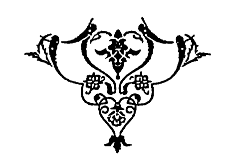
(١) « تفسير سورة الحجرات » (٤٠-٤١).

(٢) عن أَنَس بن مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: « لاتَبَاغَضُوا، ولاتَحَاسَدُوا، ولاتَدَابَرُوا، وكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوانًا، ولايَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ » أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٨).

(٣) « تفسير سورة الواقعة » (٣٣٢).

(٤) « تفسير سورة البقرة »(٢/ ٤٥٠).

أمته ينشر أخلاق الإسلام بفعله وقوله ؛ لينال بذلك عظيم الفضائل ، وسمو الرُّتَب ، ويكون داعية بفعله قبل قوله لأخلاق الإسلام ، وإذا تأمل العبد التأثير الحاصل علىٰ الناس بسبب الأخلاق أدرك بُعْد النظر في قول سيد البشر ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ »(١) ، فجعل من الأخلاق رسالة عظيمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وكم تحتاج الأمة إلىٰ دعاة مخلصين يُرىٰ عليهم أثر الأخلاق الإسلامية السامية ، والتي هي أقوىٰ رسائل الدعوة إلىٰ هذا الدين العظيم بما يحمله من مصالح للأمة ، وإن نشر مكارم الأخلاق في المجتمع من أعظم وسائل الترابط والتراحم وحلول الأمن والإيمان ، وعناية الله تعالىٰ للأمة وحفظها ، وما زاغت كثير من المجتمعات إلا بعد أن ابتعدت عن هذه الأصل العظيم من أصول الرسالة ، ومن تأمل أصل الأخلاق وجدت مضامينه متعددة في كثير من أبواب الشريعة كما تقدَّم بيانه ، نسأل الله تعالىٰ أن يهدينا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو ، ويصرف عنا سيئها لا يصرف عنها سيئها إلا هو ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .



(١) تقدَّم تخريجه.

المطلب الثالث : الدعوة إلىٰ المعاملات

المعاملات : جمعُ معاملةٍ ، وهي مصدر عَامَلَ علىٰ وزن فَاعَلَ ، وفَاعَلَ صيغةٌ تدلُّ علىٰ المُشاركة كثيراً : ضَارَبَ ، وقَاتَلَ ونحوها ، وفي المصباح المنير : وعاملتُه في كلام أهل الأمصار يُرادُ به : التَّصرُّفُ من البيع ونحوه .

وأما في الاصطلاح : فإنهم يُطلِقونَ هذه الكلمة « معاملات » علىٰ الأحكام الشرعية المتعلقة بأمر الدنيا كالبيع والشراء والإجارة والشركة والرهن والسلم والوكالة والكفالة وغير ذلك(١) .

- وللمعاملات ضوابط تُبْنَىٰ عليها أحكامها ، وأشهر هذه الضوابط هي :

الضابط الأول : الأصل في المعاملات الحل .

الضابط الثاني : الأصل في الشروط في المعاملات الحل .

الضابط الثالث : منع الظلم .

الضابط الرابع : منع الغرر .

الضابط الخامس : منع الربا .

الضابط السادس : منع الميسر(٢) .

---

(١) انظر : « المصباح المنير » للفيومي (٢/ ٤٣٠) ، و« المعجم الوسيط » (٢/ ٦٢٨) مادة (عمل) ، و« القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا » للدكتور سعدي أبو حبيب (٢٦٣) .

(٢) وذكر هذه الضوابط الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواضع متفرقة من كتابه : « الشرح الممتع علىٰ زاد المستقنع » ، انظر (٨/ ٢٣٦) ، (٩/ ١٨) ، (٩/ ٩٢) ، (٩/ ٤٤٤) ، وقال في (٩/ ١٣٤) : « المعاملات الممنوعة - كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقوله صحيح - مبناها علىٰ ثلاثة أشياء : الظلم ، والغرر ، والميسر » .

والمتأمل لتفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَلْحَظُ بروز مجال الدعوة إلىٰ المعاملات ، وذلك عند تفسيره للآيات المتعلِّقة بالمعاملات وغيرها كما سيأتي .

- المضامين الدعوية المتعلِّقة بالمعاملات :

أولاً : أهمية المعاملات والدعوة إليها في القرآن الكريم ، وردٌّ شبهة المعترضين علىٰ ذلك .

وذلك عند تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لآية الدَّين ، قال في أول فائدة منها : « في هذه الآية الكريمة فائدة عظيمة جداً ، وهي عناية القرآن الكريم بالبيع والشراء والدُّيون ، فيكون فيه ردٌّ لقول من يقول : « إن الإسلام إنما جاء لإصلاح ما بين العبد وبين ربه ، وهو العبادة ، وأما المعاملات الجارية بين الناس ، فإن الناس أعلمُ بما يصلح دنياهم) ، فإن هذا كذب وافتراءٌ علىٰ القرآن .

القرآن فيه تفصيل كل شيء ، والسنَّة بيَّنت الـمُجْمَل منه وفصَّلته ، فنقول لهؤلاء الذين ادَّعوا هذه الدعوىٰ الكاذبة الباطلة ، نقول لهم : إنَّ أطولَ آية في كتاب الله جاءت في المعاملات ، مما يدل علىٰ عناية القرآن بالمعاملات »[1] .

وفي موضع آخر قال : « ومن فوائد هذه الآية : بيان أن الدين الإسلامي كما يعتني بالعبادات التي هي معاملة الخالق- فإنه يعتني بالمعاملات الدائرة بين المخلوقين .

- ومنها : دحر أولئك الذين يقولون : إن الإسلام ما هو إلا أعمال خاصة بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ ، وبالأحوال الشخصية ، كالمواريث ، وما أشبهها ؛ وأما المعاملات فيجب أن تكون خاضعة للعصر ، والحال ؛ وعلىٰ هذا فينسلخون

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٤٦) .

من أحكام الإسلام فيما يتعلق بالبيوع، والإجارات وغيرها، إلىٰ الأحكام الوضعية المبنية علىٰ الظلم، والجهل.

فإن قال قائل: لهم في ذلك شبهة؛ وهو أن الرسول ﷺ حين قدم المدينة، ورآهم يلقحون الثمار قال: «لو لم تفعلوا لصلح» فخرج شيصاً أي فاسداً- ؛ فمرَّ بهم فقال: «ما لنخلكم؛ قالوا: قلت كذا، وكذا؛ قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1]؛ قالوا: والمعاملات من أمور الدنيا، وليست من أمور الآخرة؟!

فالجواب: أنه لا دليل في هذا الحديث لما ذهبوا إليه؛ لأن الحادثة المذكورة من أمور الصنائع التي من يمارسها فهو أدرىٰ بها، وتُدْرك بالتجارِب؛ وإلا لكان علينا أن نقول: لا بد أن يعلِّمنا الإسلام كيف نصنع السيارات والمسجلات، والطوب، وكل شيء!! أما الأحكام الحلال، والحرام- فهذا مرجعه إلىٰ الشرع؛ وقد وفىٰ بكل ما يحتاج الإنسان إليه»[2].

ثانيًا: الدعوة إلىٰ الكسب الطيِّب في المعاملات.

عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: الإشارة إلىٰ أنه يجب أن يكون كسب الإنسان لهذا الحلال علىٰ وجه طيِّب، والطيِّب هنا ضد الخبيث، والخبيث: كل ما يحرم ما يَحْرُم مِنْ تَصَرُّفٍ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وكسب الحجَّام خبيث»، فيُستفاد من هذا كما قلت أنه يجب أن يكون ما تأكله مما في الأرض من الحلال، مُكْتَسَبًا علىٰ وجه مشروع»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٣/ ٤١٠-٤١١).

(٣) «أحكام من القرآن الكريم» (١/ ٤٣٩).

ثالثـًا : التحذير من الكسب الخبيث في المعاملات وبيان أنواعه وأوجه كسبه .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[الأعراف :١٦٠] : « من فوائد الآية : تحريم أكل الخبيث ، والخبيث نوعان : خبيث لذاته ، وخبيث لكسبه ، فالخبيث لذاته كالميتة ، والخنْزير ، والخمر ، وما أشبهها ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾[الأنعام : ١٤٥] أي نجس خبيث ، وهذا محرم لذاته ، محرم علىٰ جميع الناس ، وأما الخبيث لكسبه فمثل المأخوذ عن طريق الغش ، أو عن طريق الربا ، أو عن طريق الكذب ، وما أشبه ذلك ، وهذا محرم علىٰ مكتسبه ، وليس محرمـًا علىٰ غيره إذا اكتسبه منه بطريق مباح ، ويدل لذلك أن النبي ﷺ كان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يأكلون السحت ، ويأخذون الربا ، فدلّ ذلك علىٰ أنه لا يحرم علىٰ غير الكاسب »(١) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة :٨٦] : « ومن فوائدها : التحذير من اختيار الدنيا علىٰ الآخرة ، ومن ذلك أن يتعامل الإنسان مع الناس بمعاملات محرمة ؛ كالربا ، والغش ، والكذب ، وغير ذلك من أجل أن ينال عَرَضـًا من الدنيا ؛ فإن هذا من السفه والخطأ ؛ لأن الدنيا زائلة فانية ، والآخرة هي الباقية ، وقد حَذَّر النبي ﷺ من هذه الفتنة في قوله ﷺ : « إنها ستكون فتن ؛ كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافراً ، أو يمسي

---

(١) « تفسير سورة والبقرة » (١ / ١٩٨) .

مؤمنـًا ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا »[1] »[2] .

رابعـًا : سدّ باب الحِيَل في المعاملات ، وأنه من التشبه باليهود .

وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة :٦٥] .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومن فوائد الآية : تحريم الحِيَل ، وأن المتَحَيِّل علىٰ المحارم لا يخرج عن العدوان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ ؛ بل الحِيَل علىٰ فعل محرم أعظم إثمـًا من إتيان المحرم علىٰ وجه صريح ؛ لأنه جمع بين المعصية ، والخداع ، ولهذا كان المنافقون أشد جرمـًا وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء ، قال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المتَحَيِّلِيْن : « إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان ؛ ولو أتوا الأمر علىٰ وجهه لكان أهون » ؛ وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ وللحيل مفاسد كثيرة . راجع إن شئت كتاب « إغاثة اللهفان » لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [3] وغيره[4] .

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٤٢) .

(٣) انظر : « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » لابن القيم (١ / ٣٣٨) وما بعدها ، حيث قال : « فصلٌ : ومن مكايده التىٰ كاد بها الإسلام وأهله : الحيل والمكر والخداع الذىٰ يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادته فىٰ أمره ونهيه ، وهىٰ من الرأىٰ الباطل الذىٰ اتفق السلف علىٰ ذمه ... »ثم أسهب في بيان ذلك .
وانظر : « إعلام الموقعين عن رب العالمين » (٣ / ١٢٩) .

(٤) قال ابن تيمية في « مجموع الفتاوىٰ » (٣٠ / ٢٢٣) : « وهذا يعلم من قاعدة إبطال الحيل فإن كثيرا منها يتضمن من الفساد والضرر أكثر مما في إتيان المنهي عنه ظاهرا كما قال أيوب السختياني : يخادعون الله . كأنما يخادعون الصبيان لو أتوا الأمر علىٰ وجهه لكان أهون علي » .

وأنت إذا تأملت حِيَل اليهود في السبت، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم، ثم أذابوها، وباعوها، وأكلوا ثمنها؛ وتأملت حِيَل بعض المسلمين اليوم علىٰ الربا وغيره وجدت أن حيل بعض المسلمين اليوم علىٰ ما ذُكر أشدُّ حِيْلَة من حِيَل اليهود ومع ذلك أحل الله بهم نقمته، وقد نهانا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنىٰ الحِيَل»[(١)]؛ فالمتَحَيِّل علىٰ المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة»[(٢)].

خامسًا: التحذير من الربا في المعاملات، والمسائل المعاصرة فيه.

تقدَّم في الضوابط بيان الأبواب الكبيرة من المحرمات التي يندرج تحتها المحظورات في المعاملات، ولما كان الربا من أعظمها، وأيسرها وقوعًا، وكثرة من يُفتتن بماله، جاءت الآيات في التحذير منه أكثر، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٧٨]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائدها: «ومن فوائد الآية: وجوب ترك الربا وإن كان قد تم العقد عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾؛ وهذا في عقد استوفي بعضه، وبقي بعضه.

– ومنها: أنه لا يجوز تنفيذ العقود المحرمة في الإسلام وإن عقدت في حال الشرك؛ لعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، ولقول النبي ﷺ في خطبته في عرفة عام حجة الوداع: «وربا الجاهلية موضوع؛ وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله»[(٣)]؛ ولكن يجب أن نعلم أن

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١).
(٢) «تفسير سورة البقرة» (١/ ٢٣٠-٢٣١).
(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨).

العقود التي مضت في الكفر علىٰ وجه باطل، وزال سبب البطلان قبل الإسلام فإنها تبقىٰ علىٰ ما كانت عليه، مثال ذلك: لو تبايع رجلان حال كفرهما بيعـًا محرمـًا في الإسلام، ثم أسلما فالعقد يبقىٰ بحاله، ومثال آخر: لو تزوج الكافر امرأة في عدتها، ثم أسلما بعد انقضاء عدتها فالنكاح باق، ولهذا أمثلة كثيرة.

- ومن فوائد الآية: تحريم أخذ ما يسمىٰ بالفوائد من البنوك؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾؛ وزعم بعض الناس أن الفوائد من البنوك تؤخذ لئلا يستعين بها علىٰ الربا، وإذا كان البنك بنك كفار فلئلا يستعين بها علىٰ الكفر، فنقول: أأنتم أعلم أم الله!! وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾؛ والاستحسان في مقابلة النص باطل.

فإن قال قائل: إذا كان البنك بنكـًا غير إسلامي، ولو تركناه لهم صرفوه إلىٰ الكنائس، وإلىٰ السلاح الذي يقاتَل به المسلمون، أو أبقوه عندهم، ونما به رباهم؛ فنقول: إننا مخاطبون بشيء، فالواجب علينا أن نقوم بما خوطبنا به، والنتائج ليست إلينا، ثم إننا نقول: هذه الفائدة التي يسمونها فائدة هل هي قد دخلت في أموالنا حتىٰ نقول: إننا أخرجنا من أموالنا ما يستعين به أعداؤنا علىٰ كفرهم، أو قتالنا؟

والجواب: أن الأمر ليس كذلك، فإن هذه الزيادة التي يسمونها فائدة ليست نماءَ أموالنا، فلم تدخل في ملكنا، ثم إننا نقول له: إذا أخذته فأين تصرفه؟ قال: أصرفه في صدقة، في إصلاح طرق، في بناء مساجد تخلصـًا منه، أو تقربـًا به، نقول له: إن فعلت ذلك تقربـًا لم يقبل منك، ولم تسلم من إثمه؛ لأنك صرفته في هذه الحال علىٰ أنه ملكك، وإذا صرفته علىٰ أنه ملكك لم يقبل منك؛ لأنه صدقة من مال خبيث، ومن اكتسب مالاً خبيثـًا فتصدق به لم يقبل منه؛ لقول

النبي ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً »[1] ؛ وإن أخرجته تخلُّصاً منه فأي فائدة من أن تلطخ مالك بالخبيث ، ثم تحاول التخلص منه ، ثم نقول أيضاً : هل كل إنسان يضمن من نفسه أن يخرج هذا تخلُّصاً منه؟! فربما إذا رأى الزيادة الكبيرة تغلبه نفسه ، ولا يخرجها ، أيضاً إذا أخذت الربا ، وقال الناس : إن فلاناً أخذ هذه الأموال التي يسمونها الفائدة ، أفلا تخشى أن يقتدي الناس بك؟! لأنه ليس كل إنسان يعلم أنك سوف تخرج هذا المال ، وتتخلص منه .

ولهذا أرى أنه لا يجوز أخذ شيء من الربا مطلقاً ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ [البقرة :٢٧٨] ؛ ولم يوجه العباد إلى شيء آخر »[2] .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة :٢٧٨] ، وقوله : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة :٢٨٠] ، قال : « تبيَّن مما ذكر من الآيتين أن المعاملة بالدَّين ثلاثة أقسام :

الأول : أن يأخذ به رباً ، وهذا محرم ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

الثاني : أن يكون الـمَدِيْنُ مُعْسِراً ، فلا تجوز مطالبته ، ولا طلب الدّين منه حتى يوسر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ ﴾ .

الثالث : أن يبرئ الـمُعْسِر من دَينه ، وهذا أعلى الأقسام ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ »[3] .

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٨٣ ٣٨٥) .

(٣) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٩٥) .

سادساً: الدعوة إلى حسن التعامل في المعاملات الدائرة بين الناس.

روى البخاري في «صحيحه» من حديث جَابِرِ بن عبد اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وإِذَا اشْتَرَى، وإِذَا اقْتَضَى»[1].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ جمع فقال: رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى، وكذلك سمحاً إذا قضى، فقوله (: «رحم الله امرءاً» أو: قال «رجلاً» هذا خبر بمعنى الدعاء؛ يعني: يدعو له بالرحمة إذا كان سمحاً في هذه المواضع الأربعة: سمحاً إذا باع لا يشتد على المشتري ويكون سهلاً يواضعه ويضع عنه، سمحاً إذا قضى إذا قضى غيره كان سمحاً يعطيه في وقته ولا يماطل، كذلك سمحاً إذا اشترى، وكذلك سمحاً إذا اقتضى إذا أخذ حقَّه فهذه الأحوال الأربعة، ينبغي للإنسان أن يكون سمحاً فيها حتى ينال دعاء رسول الله ﷺ»[2].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو أن الناس مشوا على تقوى الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الباب لسلمت أحوال الناس من المشاكل؛ لكن نجد الغني يماطل: يأتيه صاحب الحق يقول: اقضني حقي، فيقول: غداً، ويأتيه غداً فيقول: بعد غد، وهكذا، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مطل الغني ظلم»[3]، ونجد أولئك القوم الأشحاء ذوي الطمع لا يُنظرون المعسر، ولا يرحمونه؛ يقول له: أعطني، وإلا فالحبس، ويحبس فعلاً وإن كان لا يجوز حبسه إذا تيقنا أنه معسر، ولا مطالبته، ولا طلب الدين، بل يعزر الدائن إذا ألح عليه في الطلب وهو معسر؛ لأن طلبه مع الإعسار معصية،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٦).

(٢) «شرح رياض الصالحين» (٥/ ٤٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤).

والتعزير عند أهل العلم واجب في كل معصية لا حدّ فيها ، ولا كفارة »[1]

وعند تفسيره لآية الدَّيْن وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة :٢٨٢] ، قال من فوائدها : « ومنها الإشارة إلىٰ تحريم الـمُضارَّة ، ووجوب إزالة الضرر ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ ، والضرر منفِيٌّ شرعـًا ، والضِّرارُ أشدُّ ، يجب أن يُمْنَع ، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار »[2] ، فنفي النبي ﷺ الضرر والضِّرار ، والفرق بينهما أنَّ الضرر يحصل بلا قصد ، والضِّرار يحصل بقصد ، ومَنْ ضارَّ ضارَّ الله به ، والعياذ بالله »[3] .

ما تقدَّم هي مضامين دعوية ، وأما ما يتعلَّق بأحكام البيع والشراء وغيرهما من عقود المعاملات والتفصيل فيهما فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقيه هذا الميدان ، ومن رام تقسيماته وإسهابه في البيان والتوضيح فمظانُّها كتبه في الفقه ، رحمه الله رحمة واسعة .

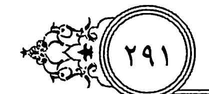
ومن خلال المضامين الدعوية السابقة يتضح كيف أن الإسلام أعطىٰ المعاملات مكانة وعناية واضحة انفرد بها عن باقي المذاهب والأديان ، فالملكية الحقيقية للمال في الإسلام إنما هي لله جل شأنه ، قال تعالىٰ : ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور:٣٣] ، وفي الوقت ذاته أعطىٰ الله تعالىٰ لعباده حرية التصرف في هذا المال ، ومنحهم إرادة الاختيار في ضوء الأحكام الشرعية والمقاصد الكلية والقواعد الفقهية التي تضبط التعامل به ،

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(٣/ ٣٩٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه الألباني« صحيح الجامع الصغير » (٢/ ١٢٤٩) ، و« سلسلة الأحاديث الصحيحة » (١/ ٤٩٨) ، والنووي في « الأربعين النووية » (٩٧) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وحسَّنه .

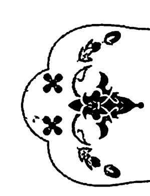
(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (٢/ ٣٥٥) .



كي لا يتحول نقمة، أو يكون أداة قهر وظلم للناس بين بعضهم البعض، أو غرر في كسبهم وأرزاقهم، بل يكون نعمة كما أراد الله تعالىٰ، ينعم بها الإنسان في الدنيا، وتدخر له الأجر يوم الحساب، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[النساء:٢٩]، في مجال التعامل بين الناس بالأموال نسب الله تعالىٰ المال إلىٰ البشر فقال: ﴿أَمْوَٰلَكُم ﴾؛ كي يحرصوا عليه ويراعوا حق الله وحق الناس فيه، بلا ظلم ولا غرر ولا ربا، ولا تصرُّفٍ محرمٍ فيه بتبذير أو إسراف أو كسب خبيث ونحوه مما يناقض حفظ هذه النعمة، والحفاظ علىٰ المقصود الشرعي في إباحتها، ومن المشروع الذي حث عليه الإسلام الكسب الطيب لهذا المال كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[البقرة:١٧٢]، وحفظ الإسلام للأمة حسن التعامل بينهم في المعاملات وذلك بسدِّ كل ما يفضي للنزاع وسلب الحقوق والحِيَل، ودعا إلىٰ السماحة في البيع والشراء فقال ﷺ: « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وإِذَا اشْتَرَىٰ، وإِذَا اقْتَضَىٰ »[1]، وإذا سادت السماحة وحسن التعامل في المعاملات بين الناس، حُققت مصالحهم، وحُفظت أموالهم، وبذلوا أسباب عيشهم ورزقهم في هذه الأرض علىٰ الوجه الذي أراده الله تعالىٰ وحث عليه، مستجيبين لأمره جل وعلا في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[البقرة:١٦٨].

---

(١) تقدم تخريجه.

المطلب الرابع : الدعوة إلى التربية الصالحة ، والقدوة الحسنة

التربية الصالحة هي الأساس المتين في بناء الفرد الصالح والأسرة السليمة والمجتمع الفاضل ، وتخريج القدوة الحسنة في المجتمع ، والحاجة لها ماسّة لاسيما والمربون اليوم- من آباء ومعلمين وعلماء وغيرهم يواجهون حرباً إعلامية ضارية ، ومؤثرات مجتمعية وفكرية داخلية وخارجية جديدة تعرقل مسيرة التربية الصحيحة ، ولقد حثَّ الإسلام على هذه التربية وحمَّل الآباء أمانة تربية الأبناء وتأديبهم وتعليمهم ما أوجبه الله عليهم ، وتهيئتهم للغاية التي خلقهم الله لأجلها ، دون تمييز بين الذكر والأنثى ، فقال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم :٦] ، وقال تعالى أيضـاً : ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه :١٣٢] .

ولأهمية التربية الصالحة جعل الإسلام كل فرد في المجتمع على اختلافهم واختلاف طبقاتهم- له نصيب من هذه التربية والمسؤولية سواء لنفسه أو لمن تحت يده ، قال رَسُولَ اللهِ ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، والرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وهُو مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، والمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ومَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، والخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »(١) ، وحذَّر الإسلام من تضييع هذه التربية وجعَلَها من ضمن الأمانات الواجب حفظها ، قال رسُولَ اللهِ ﷺ : « مَا مِنْ عبد يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وهُو غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ » ، ولفظ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٩) ، ومسلم (١٨٢٩) .



البخاري: «مَا مِنْ عبد اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»(١).

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخطاب للأمة جميعًا يبين فيه الرسول ﷺ أن كل إنسان راع ومسؤول عن رعيته. والراعي هو الذي يقوم على الشيء ويرعى مصالحة فيهيئها له، ويرعى مفاسده فيجنبه إياها، كراعي الغنم ينظر ويبحث عن المكان المربع حتى يذهب بالغنم إليه، وينظر في المكان المجدب فلا يتركها في هذا المكان، هكذا بنو آدم كل إنسان راع»(٢).

ولقد حثَّ الله تعالى على التربية الصالحة في النفس وفي الغير بقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[آل عمران: ٧٩].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ نسبة إلى الربِّ، ونسبة إلى التربية، فالرباني هو من كان عبداً للرب عَزَّوَجَلَّ، الرباني هو الذي يربي الناس على شريعة الله بالعلم والدعوة والعبادة والمعاملة، فالرباني منسوب إلى التربية وإلى الربوبية، فباعتباره مضافًا إلى الله ربوبية، وباعتباره مضافًا إلى الإصلاح تربية.

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: أي مخلصين للرب متعبدين له.

﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: أي مربين للخلق على ما تقتضيه الشريعة.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الباء هنا للسببية، أي بسبب تعليمكم الكتاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأن الذي يعلم الكتاب مربٍّ، ولهذا كلما كثر

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).

(٢) «شرح رياض الصالحين» (٣/ ١٤٩).

الطلبة عند شخص كثرت تربيته للناس ؛ لأن المفروض في المعلم أن لا يكون معلماً للناس تعليماً نظرياً جدلياً ؛ لأن هذا يمكن أن يدركوه بالكتب ، لكنه ينبغي أن يعلمهم تعليماً نظرياً وتعليماً تربوياً ، وهذا هو هدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه- ، إذا نظرنا إلىٰ السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول ﷺ يعلم الناس تعليماً مقروناً بالتربية مصحوباً بها ، وإذا تأملنا سيرة الخلفاء الراشدين وجدناها كذلك ، فلننظر مثلاً إلىٰ سيرة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد رفع عقوبة الخمر إلىٰ ثمانين ليردع الناس ، ومنع المطلق ثلاثاً من الرجوع إلىٰ زوجته من أجل أن يردع الناس . فالحقيقة أن المعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علماً فحسب ، ولكن الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علماً وأخلاقهم تربية »[١] .

والقرآن الكريم بأوامره ونواهيه ، وأحكامه وقصصه وعِبره كتاب تربية يستقي منه المتربون والمربون مناهج تربيتهم الصالحة ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ : « فالقرآن ليس كتاب فقه ؛ ولكنه كتاب تربية ، وتهذيب للأخلاق »[٢] .

- ومن أبرز المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ والتي تساعد علىٰ تزكِّية النفس وتسمو بها نحو التربية الصالحة لتكون قدوة حسنة في المجتمع ، ما يلي :

أولاً : استشعار مراقبة الله تعالىٰ لحياة العبد في كل جليلة ودقيقة ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[آل عمران :٥] :

---

(١) « تفسير سورة آل عمران »(١ / ٤٥٣-٤٥٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة »(٢ / ٤٥٠) .

« وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهي صفة سلبية المراد بها بيان كمال علمه ؛ لأن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي ، وإنما يراد بها بيان كمال ضد ذلك المنفي .

والغرض من هذه الجملة تربية الإنسان نفسه في امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، وأنك لا تظن أن عملك يخفىٰ علىٰ الله ، بل هو معلوم له ، فعليك أن تقوم بطاعته وتجتنب معصيته . لا تقل : أنا في بيتي أو في غرفتي لا يطلع عليّ أحد ، فالله تعالىٰ مطلع عليك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[1] .

ثانيـًا : إدراك أهمية التربية الصالحة وعِظَم المسؤولية ، والقيام بواجبها ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾[المائدة :٦٣] : « الفائدة السابعة : عظم مسؤولية المربين والعلماء لقوله : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ فجعل الله اللوم علىٰ الربانيين والأحبار ؛ لأنهم لم يقوموا بما أوجب الله عليهم من نهي هؤلاء عن قولهم الإثم وأكلهم السحت .

الفائدة الثامنة : أن الواجب علىٰ العلماء والمربين النهي عن المحرم ، لكن هل عليهم أن يهدوا الناس؟

الجواب : لا ؛ لقول الله تبارك وتعالىٰ للنبي ﷺ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[البقرة : ٢٧٢] ، ولقول الله تعالىٰ : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية : ٢٢] ، ولقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، فالإنسان إذا نهىٰ أبرأ ذمته سواء امتثل من نهاه أم لم يمتثل »[2] .

---

(١) « تفسير سورة آل عمران »(١ / ٢٤) .

(٢) « تفسير سورة المائدة »(٢ / ١٠٣) .

ثالثًا : تربية النفس علىٰ مخالفة الهوىٰ وتذكُّر انحطاط وسوء عاقبة مرتبته ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[النساء :٢٧] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائدها : « الإشارة إلىٰ انحطاط مرتبة الذين يتبعون الشهوات ، حيث جعلهم الله أتباعًا تقودهم الشهوات ، ومن الذل أن يكون الإنسان تابعًا للشهوات ؛ لأن العزة أن يكون الإنسان متبوعًا ، فإذا كان تابعًا فمعناه أن شهواته ملكته حتىٰ صار تابعًا ، وكأنه مجبر علىٰ ذلك .

– أن إرادة المتبعين للشهوات بنا لا تقتصر علىٰ أدنىٰ ميل ، وتؤخذ من قوله : ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ ، فإذا كان كذلك فإننا إذا ملنا قليلاً تابعوا حتىٰ نميل ميلاً عظيمًا ، نسأل الله السلامة!! »[1] .

رابعًا : التأسي بالقدوات الصالحة ، والتسلية بحالهم ومصابهم ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[آل عمران :١٨٤] : « من فوائد الآية الكريمة :

– تسلية الرسول ﷺ ، ويتفرَّع عليها أن يتسلىٰ الإنسان في كل ما أصاب غيره ، فمثلاً : الآمر بالمعروف أو الناهي عن المنكر قد يؤذىٰ فليتسلىٰ بأذيَّة غيره ؛ لأن الإنسان إذا علم أن غيره أُصيب بما أُصيب به لا شك أنه ينسىٰ الحزن ، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً :

ولولا كثرة الباكين حولي ... علىٰ إخوانهم لقتلت نفسي

(١) « تفسير سورة النساء »(١ / ٢٤٨) .

وما يكون مثل أخي ولكن أُسلِّي النفس عنه بالتأسي[(١)]

الشاهد هنا قولها : « أُسلِّي النفس عنه بالتأسي » ، فالإنسان إذا نظر يميناً وشمالاً ، وإذا هذا مصاب بعقله ، وهذا مصاب ببدنه ، وهذا مصاب بأهله ، وهذا مصاب بماله ؛ يتسلَّىٰ .

كذلك الرسول ﷺ إذا قال الله له : ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ ، لا شك أنه تهون عليه المصيبة وأنه يتسلىٰ بذلك ؛ لأنه بشر يلحقه من أحكام البشرية ما يلحق غيره »[(٢)] .

خامساً : الإيمان بأسماء الله الحسنىٰ التي ختمت بها الآيات واستشعارها ، وتأمل آثارها الإيمانية والمسلكية .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وهذه الأسماء التي تختم بها الآيات ينبغي للإنسان ألا يكون جامداً فيفهم منها المعنىٰ فقط ، بل ينبغي أن يتربىٰ عليها ، ويكون مسلكه علىٰ حسب ما تقتضيه هذه الأسماء ، فمثلاً : إذا علمت أن الله علام الغيوب ، ليس معناه أن تدرك بأن الله يعلم بكل شيء فقط ، فهذا الإدراك يستوي فيه الكافر والمسلم ، حتىٰ الكفار الذين يعرفون اللغة العربية يعرفون مثل هذا اللفظ ، لكن المهم هو التربي بمقتضىٰ هذا الوصف وهو علم الغيب ، وهذه مسألة مهمة لا يفطن لها كثير من الناس »[(٣)] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا

---

(١) انظر : « ديوان الخنساء »(٦٨) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران »(٢ / ٥٠٩) .

(٣) « تفسير سورة النساء »(١ / ٢٨٦) .

﴿ تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[البقرة :١٢٧] ، قال : « ما الذي نستفيده من هذين الاسمين الكريمين : السميع ، والعليم؟

نستفيد من الناحية المسلكية فائدة ؛ وهي أن نحذر من أن نتكلم بما لا يرضي الله ؛ لأننا إن تكلمنا سمعه الله عَزَّوَجَلَّ ، ونحذر من أن نضمر في نفوسنا أو نعمل بجوارحنا ما لا يرضي الله سبحانه وتعالىٰ عنا ؛ لأنه سوف يعلمه ، ثم ينبئنا بما عملنا يوم القيامة »[1] .

سادساً : النظر للنفس بعين النقص والتقصير سبب في استدراك الخلل التربوي ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾[آل عمران :٢٤] : « من فوائد الآية : أن الإنسان قد يغره ما هو عليه من الدين ؛ لقوله : ﴿ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ ، فيغترُّ بأنه يصلي ويزكي ويصوم ويحج ، ثم يقول في نفسه : لن أعذب ، وهذا قصور في النظر ؛ لأنه ليس الشأن أن تصلي أو تزكي أو تصوم أو تحج ، الشأن كل الشأن أن يقبل منك هذا العمل ، كم من عامل ليس له من عمله إلا التعب لوجود مبطل سابق أو لاحق .

فالسابق كعدم الإخلاص مثلاً ، واللاحق : كالإعجاب بالعمل ، والإدلال به علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، وأن يرىٰ الإنسان لنفسه حقًّا علىٰ ربِّه .

وقد يبتلىٰ الإنسان بالبدعة!! كم من أناس يحبون الخير وعندهم رغبة ومحبة لله ورسوله ، ولكن لجهلهم يبتدعون في دين الله ما ليس منه ، فيكون عملهم مردوداً ؛ لأن من شرط قبول العمل أن يكون موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ؛

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٤٣) .

لقوله ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[1] »[2] .

سابعـًا : حمل النفس علىٰ التواضع في معاملة الآخرين ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[المائدة :٥٤] : « الفائدة السابعة والثامنة : الثناء علىٰ من كان ذليلاً علىٰ المؤمنين ، وهو الذي يخفض جناحه لهم ويتطامن ويتواضع ، فإن هذه من الصفات التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ ، عكس ذلك يؤخذ منه فائدة ثانية ، وهي أن ترفُّع الإنسان علىٰ إخوانه المسلمين ، ليس محموداً عند الله بل ولا عند الخلق ، ولذلك اعلم أنه كلما ازداد إيمانك ازددت تواضعـًا ، وكلما ازداد علمك ازددت تواضعـًا ، بعض الناس ، نسأل الله أن لا يجعلنا منهم ، إذا ازداد علمه انتفخ وتكبر وصار لا يكلم الناس إلا بأنفه ، وصار إذا كلمه الناس يتجاهل ، يقول : ماذا تقول ، وهو يدري ، قد ملأ سمعه كلامه ، لكن من باب الاستكبار ، وهذا لا شك أنه نقص عظيم ؛ لأنه كلما كثر علمك ينبغي أن يكثر تواضعك »[3] .

هذه أبرز المعالم التي نصَّ عليها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التربية الصالحة ، وأما الجوانب الإيمانية ، والآثار المسلكية التي احتوىٰ عليها كتاب الله تعالىٰ وبيَّنها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره فكثير ، ذلك أن القرآن الكريم هو منهج التربية الصحيحة لمن رام تنشئة قدوة حسنة في المجتمع ، وكان المقصود من إيراد النماذج السابقة الوقوف علىٰ مضامين دعوية تتعلَّق بالتربية الصالحة ، وربما ناقش الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض نظريات

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران »(١ / ١٥٠) .

(٣) « تفسير سورة المائدة »(٢ / ٤٣) .

التربية التي يوردها المعاصرون ، ومن ذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾[النساء :٣٤] ، قال : « من فوائد الآية : بطلان قول بعض علماء التربية المعاصرين الذين يقولون : إنه لا تحصل التربية بالضرب ، تؤخذ من قوله : ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ ، وفي السنة شاهد علىٰ ذلك أيضاً ، وهو قوله ﷺ : « واضربوهم عليها لعشر »[(١)] ، وبهذا يبطل قول علماء التربية الذين قالوا : إن الضرب لا يفيد وإنما يقسي القلب »[(٢)] .

والمسلم من خلال هذه المضامين يعرف أن تهيئة القدوة الحسنة في المجتمع لابد أن يسبقها تربية صالحة ؛ لأن القدوة الحسنة ثمرة التربية الصالحة ، وأشارت المضامين السابقة إلىٰ أن القدوة لها دورٌ كبير في إعلاء الهِمم وإصلاح المسلمين ، فمَن كان عالي الهِمَّة اقتَدىٰ به غيره ، فأصلَح نفسه وأصلَح غيره ، ولن يتم له بنيان الاقتداء الحسن إلا بعد أن يهذِّب النفس بما يحبه الله تعالىٰ ويرضاه مستشعراً مراقبة الله تعالىٰ له في حياته ، مربياً نفسه علىٰ مخالفة الهوىٰ ، واستشعار سوء عاقبته ، وانحطاط منزلته ، متأسياً بالقدوات الصالحة في واقعه أو في كتب التراجم التي تزخر بقدوات الأمة ، ومتأسياً بما لاقوه من الكبَدِ والعناء للوصول بالنفس إلىٰ أعلىٰ الرتب ، مدركاً أن هذا لا ينال إلا بالصبر واليقين ، وهو في إصلاحه لنفسه يجتهد في سدِّ خللها وما

---

(١) أخرجه أحمد (١١ / ٢٨٤) (٦٦٨٩) ، وأبوداود (٤٩٥) قال الألباني : « إسناده حسن صحيح . وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إسناده حسن » انظر : « صحيح أبي داود » (٢ / ٤٠١) ، و« صحيح الجامع الصغير وزيادته » (٢ / ١٠٢١) (٥٨٦٨) ، و« إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل » (١ / ٢٦٦) (٢٤٧) .

(٢) « تفسير سورة النساء »(١ / ٢٩٩) .

يعتريها من النقائص في مسيرته التربوية ، حاملاً نفسه علىٰ التواضع في معاشرة الآخرين ، داعيـًا الله جل وعلا أن يجعله قدوة صالحة كما قال تعالىٰ عن عباد الرحمن في دعائهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان :٧٤] .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾أي : أوصلنا يا ربنا إلىٰ هذه الدرجة العالية ، درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين وهي درجة الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدىٰ بأفعالهم ، ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون .

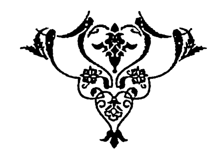
ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به ، وهذه الدرجة درجة الإمامة في الدين- لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة :٢٤] ، فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر علىٰ طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلىٰ درجة اليقين ، خيرا كثيرا وعطاء جزيلا وأن يكونوا في أعلىٰ ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل »(١) .

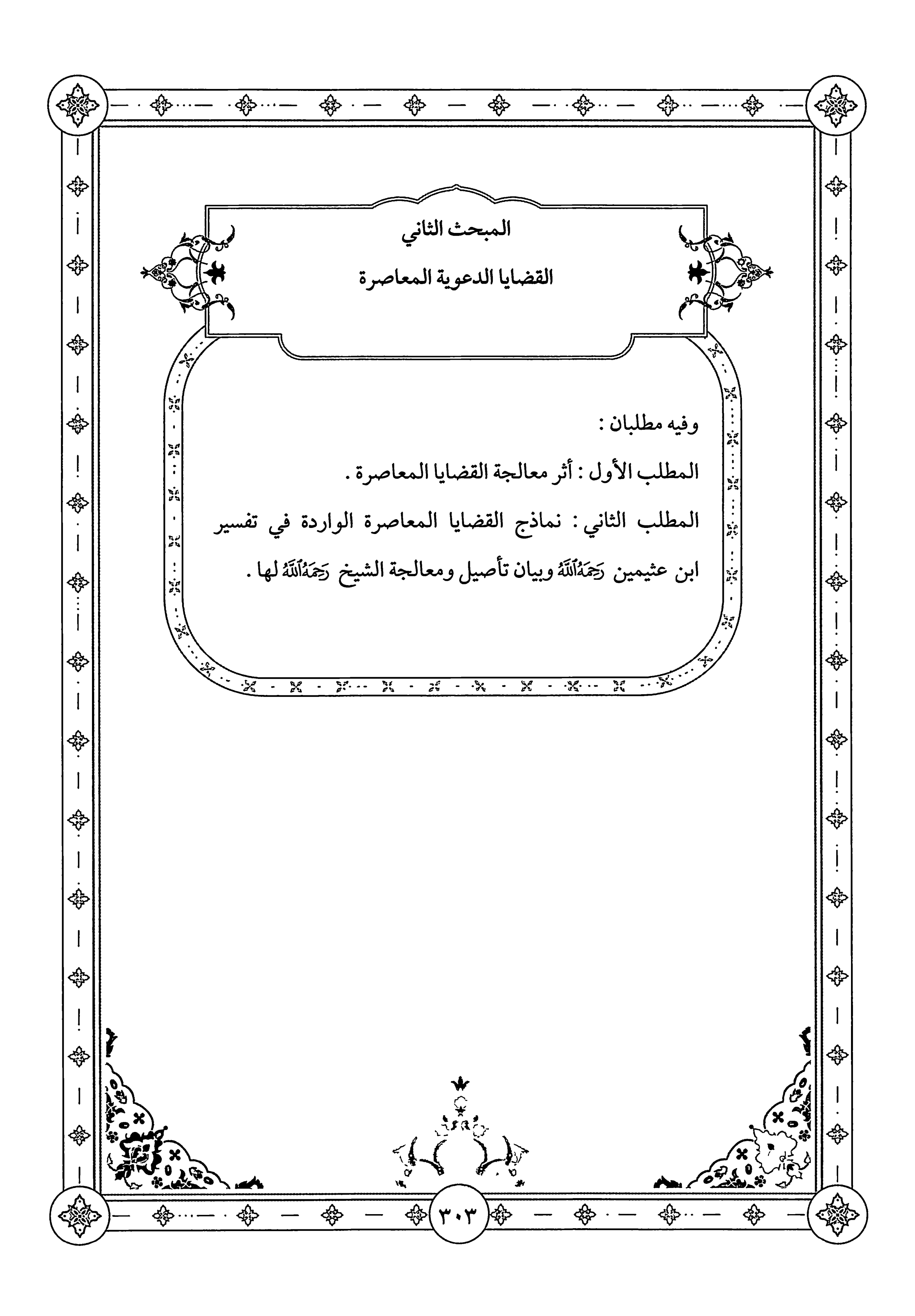
وإذا أدرك العبد حاجة الأمة إلىٰ القدوات الحسنة ، وعرف أن طريق ذلك لا يكون إلا بتهذيب النفس في علاقتها مع الله أولاً ، ثم في معاشرتها للخلق ، وذلك علىٰ نهج قدوات الأمة وهم الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، سار إلىٰ هذا الهدف العظيم ؛ ليجعل من نفسه أداة بناء في مجتمعه ، فالقدوة الحسنة نموذج إنساني حيٌّ ، يعيش ممثِّلاً ومُطبِّقًا لذلك المنهج الرباني الذي جاء به القرآن ،

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٥٨٨) .

وتقدَّم من خلال الآيات السابقة مضامين مهمة في بناء القدوة الحسنة في المجتمع الإسلامي .





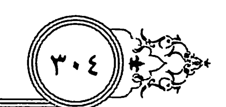
المبحث الثاني

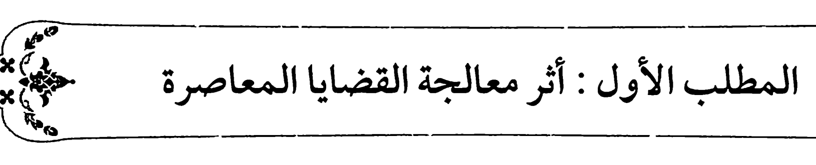
القضايا الدعوية المعاصرة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أثر معالجة القضايا المعاصرة .

المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبيان تأصيل ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها .





المطلب الأول: أثر معالجة القضايا المعاصرة

أنزل الله تعالىٰ كتابه تبياناً وهداية لكل ما يحتاجه العباد من شأن الدنيا والآخرة، وجعل الهداية والرحمة والبِشْرَ مناطة بالتمسك بهذا الكتاب فقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:٨٩]، أي كُلَّ شَيْءٍ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم بيَّنَّاه في القرآن بياناً بليغاً لا التباس معه[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بيَّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل علىٰ كل علمٍ نافعٍ من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[٢].

فما من نازلةٍ إلا في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ حكمُها، عَلِم ذلك مَنْ علمه، وجَهِله مَنْ جهله، إما بنصِّ الكتاب والسنة أو استنباط المجتهدين منهما، أو مما تفرّع عنهما من أصول الشريعة بالقياس، أو بالتخريج علىٰ القواعد والأصول، أو بردِّه إلىٰ المقاصد العامّة للشريعة؛ تحصيلاً للمصالح، ودفعاً للمفاسد.

يقول الماوردي: «ليس من حادثةٍ إلا ولله فيها حكمٌ قد بيَّنه من تحليلٍ أو تحريم، وأمر ونهي»[٣].

---

(١) انظر: «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (٢/ ٥٧٨)، و«محاسن التأويل» للقاسمي (٦/ ٤٤٧).

(٢) «تفسير القرين العظيم» (٤/ ٥١٠).

(٣) «أدب القاضي» (١/ ٥٦٥).

ويقول الشاطبي : « فلا عمل يُفْرض ولا حركة ولا سكون يُدّعىٰ إلا والشريعة عليه حاكمةٌ إفراداً وتركيباً »[1] .

والقضايا : جمع قضية وهي مأخوذة من قضىٰ ، وهي الأمر المتنازع عليه ، وتعرض علىٰ المجتهد أو القاضي ليقضي فيها[2] .

والقضايا الدعوية المعاصرة هي وقائع ، تنزل بالفرد أو المجتمع ، وهي إما وقائع معروفة من قبل واعتراها تغيير حادث ، أو لم تكن معروفة قبل ذلك ؛ نظرًا لتطور العصر في المجالات الحياتية المختلفة ، وبالتالي تتطلب تناولاً شرعياً يعتمد علىٰ الكتاب والسنة ، لتعالج ما يحتاجه الناس من منظور دعوي ، وأعلم الناس في هذا الباب هم العلماء الربانيون الذين أمرنا الله تعالىٰ بالرجوع إليهم عند نزول أمر بالمؤمنين ؛ لما عندهم من العلم وبعد النظر ، وقوة الاستنباط ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء :٨٣] .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق ، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين ، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر ، بل يردونه إلىٰ الرسول وإلىٰ أولي الأمر منهم ، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة ، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها ... وفي هذا دليل لقاعدة أدبية وهي أنه إذا حصل بحث في

---

(١) « الموافقات » (١ / ١٠٨)

(٢) انظر : « لسان العرب » لابن منظور(١٥ / ١٨٧) ، و« النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير (٤ / ٧٨) . مادة (قضىٰ) .

أمر من الأمور ينبغي أن يولَّىٰ مَنْ هو أهل لذلك ويجعل إلىٰ أهله ، ولا يتقدم بين أيديهم ، فإنه أقرب إلىٰ الصواب وأحرىٰ للسلامة من الخطأ »(١) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقوله : ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ ، أولوا الأمر هنا يتعيَّن أنهم العلماء ؛ لأنهم هم أهل العلم الذين ورثوا النبي ﷺ بعد موته ، والذين شاركوه فيما شاركوه فيه في حال حياته »(٢) .

إن من أمثل الشخصيات المعاصرة التي أولت القضايا الدعوية المعاصرة اهتمامـًا بالغـًا الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وذلك في سائر مجالسه العلمية والدعوية وكتبه ولقاءاته ، وغالبـًا لا تكاد تقرأ في شيء من ميراثه العلمي إلا وجدت ربطه بواقع الناس ، مما جعل لشيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأثر البالغ في واقع الناس وما ينزل بهم من وقائع حتىٰ بعد وفاته ، ويظهر هذا جليًّا في تفسيره للقرآن الكريم ، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحثُّ علىٰ ربط القرآن بحياة وواقع الناس ؛ ليجنوا أثر وبركة كتاب الله تعالىٰ في الحياة إن عقلوه وجعلوه منهج حياة ، وعزا تخلُّف الناس اليوم في حياتهم إلىٰ بعدهم عن كتاب الله تعالىٰ وتطبيقه ، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة :٧٨] : « من فوائد الآية : الحثُّ علىٰ فهم كتاب الله ، وأنه ينبغي للإنسان أن يتعلم معاني الكتاب كما يتعلم لفظه ، وأن من المؤسف أن واقع أكثر المسلمين اليوم علىٰ غير هذا المنهج ؛ أي : أنهم يقرأون القرآن للتعبد بلفظه فقط ، دون أن يفهموا معناه ، أو أن يطبقوا أحكامه ، وهذا بلا شك قصور عظيم ؛ ولذلك ظهر أثر هذا علىٰ المسلمين ؛ حيث تخلفوا كثيرا عما كان عليه السلف الصالح من

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن »(١٩٠) .

(٢) « تفسير سورة النساء »(٢ / ٢٣) .

تطبيق القرآن لفظاً ومعنىً وعملاً ، ففاتهم بذلك خير كثير »[1] .

ولا يقتصر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تناوله للقضايا المعاصرة في تفسيره- علىٰ محيطه أو مجتمعه ، بل يربط واقع الأمة الإسلامية المعاصر وما يعتريه بكتاب الله تعالىٰ ، ويبيِّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثر الابتعاد عن القرآن وتطبيقه علىٰ الأمة الإسلامية كما هو واقع المسلمين اليوم ، ففي تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[آل عمران :١٢] ، قال : « الذين آمنوا إيماناً حقيقاً مصدقاً بالعمل سوف يغلبون بلا شك الكفار .

ولكن إذا قال قائل : ماذا تقول في الأمة الإسلامية اليوم ، فإنها مغلوبة علىٰ أمرها ، والكفار يستذلونها غاية الذل ، ويحاربونها من كل وجه بكل أنواع السلاح؟

فجوابنا أن نقول : إن الأمة الإسلامية ليس لهم من الإسلام إلا اسمه فقط ، ولا من القرآن إلا رسمه ، ولذلك تجد الواحد منهم يُعَظِّم القرآن تعظيماً متعدياً لحدود الشرع ، ولكنه تعظيم رسم ؛ يُقبِّلُ القرآن ، يضعه علىٰ جبهته ، لكن لا يعمل بما فيه إلا نادراً ، حتىٰ إنه ربما يفعل ذلك وهو يشرك بالله ويدعو غير الله ، أين العمل بالقرآن؟!

وإذا نظرت نظرة فاحصة في العالم الإسلامي اليوم وجدت أنه لا يمثل الإسلام حقيقة ، وجدت أنواعاً كثيرة من البدع العقدية والعملية ، وجدت أنواعاً كثيرة من نقض العهد والغدر والخيانة والكذب والغش ؛ فأين الإسلام؟ ليس هو إلا اسم ، ومن ثَمَّ لم نغلب الذين كفروا ، بل الذين كفروا هم الذين غلبونا في الواقع ، وهم الذين لهم الآن السيطرة علىٰ العالم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، فنحن

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٢٤-٢٢٥) .

لم نصْدق حتىٰ يكون لنا النصر : ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[محمد :٢١] »(١) .

وكان لقرب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الواقع الدعوي ، وما يعتريه من مسائل نازلة أثر في توضيح المنهج الشرعي للقضايا العصرية النازلة كما سيأتي في النماذج- وسواء كانت هذه النوازل علىٰ الدعاة أو المدعوين ، وكثيرا ما يحث الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ التسلُّح بالعلم والاستعداد لما ينزل بالمسلمين وما يستحدث من مسائل ، ونقاش مع المخالفين ، مشيراً إلىٰ مظاهر الإلحاد الحادثة التي تعصف بالشباب ، والتي يلزم التحصُّنُ لها ليس بالدليل فقط ، وإنما أيضا بإعمال الأدلة العقلية التي تثري الأدلة وتوافق النص ، ومن ذلك قوله : « أنا أرىٰ أنه يجب علىٰ شباب المسلمين اليوم أن يتسلحوا بسلاح العلم المبني علىٰ الأثر والنظر ؛ لأن أولئك القوم يشبهون بما يدعون أنه عقل ، ولا يكفي الآن أن نتعلم الأثر فقط ، بل لابد من أثر ونظر ، فالأثر إنما يكفي للمؤمن الذي قال الله عنه : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب :٣٦] ، لكن المكذب لا يكفيه الأثر ؛ لأنه لا يؤمن أصلا بالأثر ويحتاج إلىٰ نظر وعقل تدحض به حجته »(٢) .

وبالجملة فإن أحكام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل العصرية النازلة وآراءه في القضايا الدعوية المعاصرة أخذت من المجتمع مأخذها ، من حيث الاتباع ، والاطمئنان ، والامتثال ؛ لما للشيخ من تمسك بنص الكتاب والسنة وإجلالهما ، ومراعاته للجوانب الأخرىٰ التي تتطلبها النازلة ، ولعل سبب تميُّز الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأثره في تناوله للقضايا المعاصرة راجع إلىٰ عدة أمور :

---

(١) « تفسير سورة آل عمران »(١ / ٧٢-٧٣) .

(٢) « تفسير سورة يس » (١٠٢-١٠٣) .

أ- **التأصيل الشرعي للقضايا النازلة**، وذلك بربطها بالكتاب والسنة، وقلَّما يورد رأياً في نازلة إلا وهي مقرونة بالأدلة، مع اتباعها بدلالة العقل؛ لطمأنة القلب بتوافر الأدلة، وبيان عدم التعارض بين المنقول والمعقول.

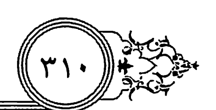
ب- **ربط المسائل المعاصرة بأصولها**، فكل نازلة في الأعم الأغلب لها أصول شرعية وقواعد، فيُرجِع هذه النازلة لأصولها مراعياً المصالح والمفاسد والمآلات التي ربما تحصل في المستقبل.

جـ- **مراعاة حال الواقع المعاصر**، وذلك أثناء الحكم علىٰ النوازل بما يتناسب مع المصالح والمفاسد والمقاصد الشرعية، والاستفادة مما ثبت بالتجربة والنظر في النتائج الحادثة، مما جعل أحكامه محل قبول واطمئنان في المجتمع؛ لأنها صادرة عن بَصَر وبُعد نظر للقضايا النازلة بما يوافق الحال.

د- **حسن التقرير والتفصيل والتقسيم**، ففي عرض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمسائل المعاصرة لا تكاد تجد تداخلاً بين الأقسام التي يذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن كانت النازلة تحتمل أكثر من وجه، بما تقتضيه الأدلة، مراعياً التدرج في عرض المسألة وتقريرها، وحسن التفريع عليها، بأسلوب ميسَّر جامع مانع.

هـ- **الاستفادة من أهل الخبرة والنظر في النازلة**، فقد راعىٰ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الجانب في أحكامه وآرائه تجاه القضايا النازلة، فيستفيد من أهل الاختصاص سواء كان في الطب أو الفلك أو أهل أي فنٍّ نزلت فيه نازلة تتطلب حكماً أو نهجاً شرعيا.

و- **منهجه في الرد علىٰ المخالفين**، سواء كان ذلك في القضايا المعاصرة أو غيرها، منهج أهل الحق والعدل دون تشهير بالمخالف أو تنقُّص منه، بأسلوب



علمي مُحْكَم مقترن بالعدل والإنصاف، وإجلال النص[١].

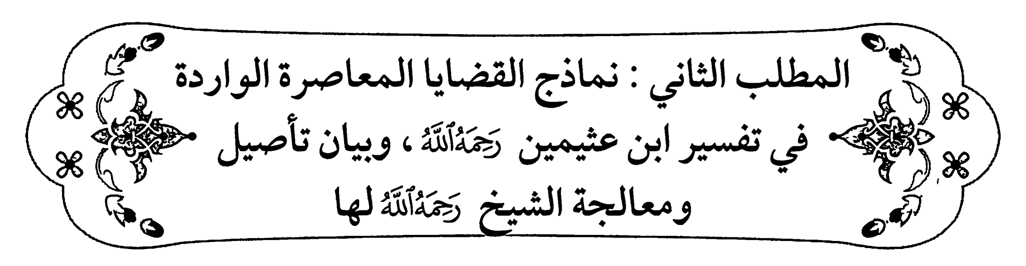
هذا وغيره جعل لاختيارات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تميزاً وأثراً في القضايا المعاصرة، مما حدا بكثير من الناس على اختلاف مستوياتهم يصدرون عنه في نوازلهم، حتى ظهرت جملة من المؤلفات تتناول القضايا المعاصرة التي تناولها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من خلال كتبه وفتاواه ولقاءاته ومجالسه العلمية والدعوية[٢].



---

(١) انظر: بحث محكم بعنوان: «النوازل العقدية عند الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المنهج والجهود» (١١)، للدكتور علي السحيباني، و«جهود الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العقيدة» مقال للدكتور أحمد القاضي، مجلة البيان عدد (١٦٠)، وبحث محكم بعنوان: «منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرد على المخالفين في مسائل الاعتقاد»، للدكتور علي القرعاوي، و«جهود الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن» (٥٤٤)، للدكتور أحمد البريدي.

(٢) وفي هذا دلالة على وفرة القضايا المعاصرة التي تناولها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن ذلك: «فتاوى معاصرة» لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٩٥ صفحة)، جمع وترتيب: صلاح الدين محمود، و«إعلام المعاصرين بفتاوى ابن عثيمين» (٥١١ صفحة)، جمع وترتيب: يحيى مراد، و«الفتاوى المهمة لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين» (١٠٤٣ صفحة)، جمع وترتيب: صلاح محمود السعيد، وأما تناول القضايا المعاصرة المتفرقة للشيخ في بطون كتبه الفقهية والعقدية والحديثية وكذا التفسير ومجموع فتاويه فكثيرة جداً، يظهر ذلك جليًّا لمن قرأ فيها.



المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وبيان تأصيل ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها

اهتم الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقضايا عصره ، وما يلامس حاجة الناس ، وذلك بإيراده للقضايا المعاصرة بالتأصيل والتفصيل ، وحسن العَرض ، والتأكيد علىٰ أن القرآن الكريم هو المنهج الأسمىٰ لتجاوز عقبات العصر وقضاياه الحادثة ، ومعالجتها معالجة ناجعة ، ويظهر ذلك من خلال النماذج والتي يتبيَّن من خلالها تنزيل الآيات وربطها بواقع الناس في موضوعات معاصرة مختلفة ، ومن ذلك ما يلي :

- **المضامين الدعوية المتعلِّقة بالقضايا المعاصرة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :**

أولاً : مضامين القضايا الدعوية المعاصرة المتعلقة بالدعاة ودعوتهم .

ظهر في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاهتمام الواضح بالقضايا المعاصرة التي تؤرق الدعاة وتعترض دعوتهم ومن ذلك :

- مسألة طلب العلم من أجل الشهادة الدنيوية ، ففي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة :٤١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يشكل علىٰ كثير من الطلبة من يدخل الجامعات لنيل الشهادة : هل يكون ممن اشترىٰ بآيات الله ثمناً قليلاً؟

والجواب : أن ذلك حسب النية ؛ إذا كان الإنسان لا يريد الشهادة إلا أن يتوظف ويعيش ، فهذا اشترىٰ بآيات الله ثمناً قليلاً ؛ وأما إذا كان يريد أن يصل إلىٰ المرتبة التي ينالها بالشهادة من أجل أن يتبوأ مكاناً ينفع به المسلمين فهذا

لم يشتر بآيات الله ثمناً قليلاً ؛ لأن المفاهيم الآن تغيرت ، وصار الإنسان يوزن بما معه من بطاقة الشهادة »[1] .

– ومسألة هجرة الداعية من بلد لا يتمكن فيه من الدعوة ، قال عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[النساء :٩٧] : « وهل الدعوة من شعائر الدين التي يهاجر الإنسان بسببها إن لم يتمكن منها؟

الدعوة محل نظر ، فقد يقال : إن من أساسيات الدين الإسلامي الدعوة إلىٰ

---

(١) « تفسير سورة البقرة »(١/ ١٥٠) .
وسئل فضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : يتحرج بعض طلبة العلم الشرعي عند قصدهم العلم والشهادة فكيف يتخلص طالب العلم من هذا الحرج؟
فأجاب بقوله : يجاب عن ذلك بأمور :
أحدها : أن لا يقصدوا بذلك الشهادة لذاتها ، بل يتخذون هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق ؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية علىٰ الشهادات ، والناس لا يستطيعون الوصول إلىٰ منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة وبذلك تكون النية سليمة .
الثاني : أن من أراد العلم قد لا يجده إلا في هذه الكليات فيدخل فيها بنية طلب العلم ولا يؤثر عليه ما يحصل له من الشهادة فيما بعد .
الثالث : أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين حسنىٰ الدنيا ، وحسنىٰ الآخرة فلا شيء عليه في ذلك ؛ لأن الله يقول : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق :٢ – ٣] ، وهذا ترغيب في التقوىٰ بأمر دنيوي .
فإن قيل : من أراد بعمله الدنيا كيف يقال : بأنه مخلص؟
أجيب : أنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقًا فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم علىٰ عبادته بل قصد أمرًا ماديًا من ثمرات العبادة فليس كالمرائي الذي يتقرب إلىٰ الناس بما يتقرب به إلىٰ الله ويريد أن يمدحوه به ، لكنه بإرادة هذا الأمر المادي نقص إخلاصه فصار معه نوع من الشرك وصارت منزلته دون منزلة من أراد الآخرة » . « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٢/ ٢٠٧-٢٠٨) .

الله عَزَّوَجَلَّ ، فإذا عجز الإنسان عنها فهو آثم ، وقد يقال : لا ، بل الدعوة فرض كفاية ، وأيضـًا ليست متعلقة بشخص الإنسان ، فهي عندي محل نظر . والله أعلم .

وإذا كان المسلم لا يستطيع أن يقيم شعائر دينه في بلاده لكن يستطيع أن يقيمها في بلاد الكفر فهل يهاجر؟ نقول : الأولىٰ ألا يهاجر ؛ لأن هذه الحال ربما لا تدوم ، فقد يغير الله الحال ، وهي إن شاء الله ليست دائمة بإذن الله ، وإذا هاجر أهل الخير عن البلد ، ولم يبق إلا المستضعف صار الأمل ضعيفـًا في إصلاح البلاد ، لكن إذا بقي هؤلاء الأخيار وعالجوا الأمور بحكمة ، فالغالب أن الله يجعل لهم فرجـًا ، نسأل الله تعالىٰ أن يصلح أحوال المسلمين »[1] .

- ومسألة تعامل الدعاة مع مَنْ يؤلِّب علىٰ ولاة الأمور ويتمنون زوالهم ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لو قال قائل : بعض الناس خاصة من غير طلبة العلم ، هم ملتزمون ويريدون إظهار غيرتهم علىٰ الإسلام ، يتكلمون في ولاة الأمر ويتمنون زوالهم ، وما أشبه ذلك من الأمور التي تخالف الأدلة ، وتخالف مقتضىٰ العقل ، فما هو الموقف السليم لطلبة العلم؟

فالجواب : الواجب علىٰ طالب العلم أن يبيِّن ما يقتضيه الدليل مع السمع والطاعة لولاة الأمور إلا إذا أمروا بمعصية ، وكذا يبيِّن ما تقتضيه الأدلة من وجوب الكف عن مساوئهم ، ومن أراد النصيحة فطريقها مفتوح ، لكن لو قيل : أنا إذا منعتهم تعودوا علىٰ الجبن وعلىٰ الذل .

فالجواب : لا بأس ، عزُّ النفس واجب لكن عزُّ النفس لابد أن يكون علىٰ مقتضىٰ الشريعة حتىٰ يكون متزنـًا وإلا لكان هذا يريد عزَّة النفس ، وهذا يريد عزَّة النفس ، وهذا يريد عزَّة النفس ، وتكون فوضىٰ عارمة يترتب منها فساد

---

(١) « تفسير سورة النساء »(٢ / ١١٥-١١٦) .

عظيم ، فإذا واجه الإنسان أناساً على هذه الحال فالواجب النصيحة وأن تُضرب الأمثال لهؤلاء بما حصل من البلاء وإراقة الدماء وانتهاب الأموال فيمن سلك هذا المسلك منهم »[(١)] .

– ومسألة المحاجَّة التي يواجهها الدعاة من العامة بغير علم ، وهي مسألة كَثُرَ وقوعها في زماننا ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[آل عمران :٦٦] : « من فوائد الآية : ذم المحاجة بغير علم ؛ لقوله : ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ وما أكثر هذا الواقع المؤسف المر في زمننا هذا ، كثير من الناس اليوم يحاجون فيما ليس لهم به علم ، بل بما تقتضيه عقولهم القاصرة ، فيقول مثلاً : لم صار كذا؟ ولم صار كذا؟ لماذا كان هذا حراماً وكان هذا حلالاً؟ لماذا كان هذا واجباً وكان هذا غير واجب؟ وما أشبه ذلك ، فيحاجون فيما ليس لهم به علم . وكثير من العامة الذين عندهم لَسَن وبيان ، وإن من البيان لسحراً– يجادل طالب العلم في أمر لا يعلمه هو ، بل مجرد مجادلة ومراء »[(٢)] .

– ومسألة تعامل الدعاة مع كتب الـمُحدَثِيْن المعاصرين ، ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة :٨] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يجب على طالب العلم إذا رأى بعض كتب المُحْدَثِين المعاصرين يقولون : الدين الإسلامي دين المساواة ، يقول : قف ، من قال هذا؟ هاتِ آية في إثبات التسوية ، وأنا آتي لك بآيات كثيرة

(١) « تفسير سورة الأنعام »(١٢٥) .

(٢) « تفسير آل عمران »(١ / ٣٨٣-٣٨٤) .

في نفي التسوية ، لكن بدلاً من أن تقول هذا هاتِ الكلمة الحبيبة التي ترد علىٰ القلب ورود الماء البارد علىٰ كبد العطشان وهي العدل »[1] .

– ومسألة أخذ الأجرة علىٰ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس :٢١] ، قال : « هل يستفاد من الآية : أنه لا يجوز أخذ رَزْق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب : لا يستفاد ، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولىٰ ، فكون الإنسان يذهب يدعو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بدون أن يأخذ مقابلاً ولا من الحكومة ، لا شك أن هذا أفضل ، وأقرب إلىٰ الإخلاص ، وأشد وقعًا في نفوس الناس ، حتىٰ وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ ؛ لأن الله تعالىٰ يلقي ذلك في قلوب الناس ، أي يلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي ، وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ شيئًا »[2] .

وفي موضع آخر يذكر مزيداً من التفصيل لهذه المسألة ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص :٨٦] ، فيقول : « من فوائد هذه الآية : أن النبي ﷺ لا يسأل الناس أجراً علىٰ دعوة الخلق إلىٰ الحق ، وهل هذا خاص به أو عامٌّ له وللأمة ، أي : أنه يحرم علىٰ الإنسان أن يأخذ شيئـاً علىٰ تبليغ الشريعة؟

الجواب : أنه متىٰ وجب الإبلاغ حَرُم أخذ الأجر عليه ؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجراً علىٰ قيامه بالواجب ، أما إذا كان ليس بواجب فلا بأس أن يأخذ أجراً ؛ لأنه يكون تطوعـاً إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، فإذا قال : أنا لا أحبس نفسي إلا بأجر ، قلنا له : لا حرج ما دام الإبلاغ ليس بواجب ، ويدل لهذا قول

(١) « تفسير سورة المائدة »(١ / ١٤٩) .

(٢) « تفسير سورة يس » (٧٨) .

النبي ﷺ: « إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ »[١] لكن متىٰ وجب تعليم القرآن علىٰ شخص فإن أخذه أجرة علىٰ هذا التعليم يكون حرامـًا »[٢].

ثانيـًا: مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بعلاقة أمة الدعوة بالعلماء.

إن من أهم الروابط التي ينبغي أن تبقىٰ وثيقة بعيدة عن الانتقاص والخلل هي رابطة أهل الدعوة دعاة ومدعوِّين بالعلماء، لأنهم سراج الأمة، ومصابيح الدجىٰ، المبيِّنين ما في كتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه ﷺ من واجبات الأمة أفرادا ومجتمعات مما شرعه الله تعالىٰ وأمر به عباده، وفي العصور المتأخرة شاب هذه الوثيقة ما شابها من بعض أفراد المجتمع، وجاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ معالجة هذه القضية، ومما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- مسألة الخلل في فهم مراد العالِم، وعدم التثبت في النقل لاسيما في زمن كثرة الأهواء، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « بعض الناس قد يفهم من العالِم كلمة علىٰ غير مراد العالِم بها، وقد يسأل العالِم سؤالاً يتصوره العالم علىٰ غير ما في نفس هذا السائل، ثم يجيب علىٰ حسب ما فهمه، ثم يأتي هذا الرجل وينشر هذا القول الذي ليس بصحيح، وكم من أقوال نسبت إلىٰ علماء أجلاء، لم يكن لها أصل؛ لهذا يجب التثبُّت فيما يُنقل عن العلماء أو غير العلماء، ولا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الأهواء، وكثر فيه التعصب، وصار الناس كأنهم يمشون في عمىٰ »[٣].

- ومسألة استغلال أخطاء العلماء والتشهير بها عبر وسائل الإعلام الحديث، وبيان مضرة ذلك، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٧).

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٥٦).

(٣) « تفسير سورة الحجرات » (٢٧).

سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران :٦٤] .

« بعض الناس إذا زلَّ بعض العلماء مثلاً ، ووقعوا في أخطاء أخذ هؤلاء يكتبون في المجلات والصحف أخطاءهم بحجة أنهم يبينون الحق ، وهذا من الغلط ، والحقيقة أن هذا الفعل فيه مضرة من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أنها مضرة على الكاتب ؛ لأن الذين يثقون بالشخص الآخر يرون أن هذا مخطئ ويقل وزنه عندهم .

الوجه الثاني : أن فيه أيضًا إضعافًا للثاني المردود عليه ، ومعلوم أنه إذا ضعفت منازل العلماء في الأمة ضاعت الأمة ؛ لأن العلماء هم القادة ، فإذا ضعفت منازلهم عند العامة ضاعوا ، وصاروا كالإبل التي ليس لها راعٍ ، أو كالغنم التي ليس لها راعٍ .

الوجه الثالث : أن فيها إضعافاً للشرع ؛ لأن العالم الذي ردّ ، أو المردود عليه إذا قال قولاً غير هذه المسألة شك الناس فيه وقالوا : لعل هذه من خطأ فلان ، فصار فيه مضرة من ثلاثة وجوه ، والواجب على العلماء فيما بينهم إذا أخطأ أحدهم أن يتصلوا به فيناقشوه ، فإن كان الصواب معه تبعوه ، وإن كان الصواب معهم يتبعهم ، ثم لو فُرِض أنه أصرَّ على ما هو عليه وله وجه لأن المسألة مسألة اجتهاد- فلا أرى أن يُرَدَّ عليه أبداً ؛ لأن الردَّ والأخذ والمناقشة في مسائل الاجتهاد بين العامة لا شك- أنه ضرر ، خصوصاً في هذا الوقت حيث يوجد أناس يَدْعُون إلى التقليل من شأن العلماء ، والكلام فيهم في المجالس ؛ لأنهم فقدوا الزعامة التي يريدونها ، فصاروا مثل الزعماء الآخرين الذين عارضوا دعوة الرسول ﷺ لما فقدوا الزعامة التي يريدونها ، ليس لهم سبيل إلى ما

يريدون إلا أن يُضْعفوا الجانب الآخر ، وهذا علىٰ خطر عظيم جداً ، فأنا أرىٰ أنه إذا وجد خطأ من أي عالم- والإنسان غير معصوم ، فقد يخطئ ولا يتبين له خطأ إلا بالمناقشة أن يتصل به ويبحث معه ، فإن تبين الحق وجب علىٰ من تبين له الحق أن يتبعه ، وإن لم يتبين وصارت المسألة فيها مساغ للاجتهاد فالواجب عدم الرد عليه »[1] .

ثالثًا : مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بدعاة الضلالة وغزوهم الفكري .

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره هذه القضية وما يتعلق بها في مواطن عدة ، ومن ذلك :

- مسألة دعاة الضلالة وتنوِّع غزوهم المعاصر ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ [النساء :٧١] ، قال : « قوله : ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ من أعدائكم من المنافقين ، ومن الكافرين المصرحين بالكفر ، ومن الفاسقين الذين يغرونكم في الوقوع في المعاصي التي دون الكفر ، ومن كل أحد يصدكم عن دين الله .

فعلينا أن نأخذ الحذر من غزو هؤلاء لنا ، سواء كان بالسلاح ، أو كان بالفكر ، أو كان بالخُلُق ، ومعلوم أن أعداء المسلمين يغزون المسلمين بكل سلاح ، وينظرون السلاح المناسب للأمة فيغزونها به ، فإذا كان من المناسب للأمة أن يغزوها بالسلاح فعلوا وقاتلوا وهاجموا ، وإذا كان من غير الممكن فإنهم يغزون بالأفكار فيأتون بأفكار منحرفة إلحادية إذا أمكنهم ذلك ، وإذا لم يمكن بأن كانت الأمة علىٰ جانب كبير من الوعي والتوحيد والارتباط بالله عَزَّوَجَلَّ قالوا : إذاً نغزوا بطريق ثالث وهو الخُلُق ، فسلَّطُوا عليها كل ما يفسد أخلاقها :

---

(١) « تفسير سورة آل عمران »(١ / ٣٧٤-٣٧٥) .

من المجلات ، والإذاعات وغير ذلك .

ولهذا انظر الآن ماذا فعلوا بالناس بواسطة المحطات الدولية التي تلتقط عن طريق الدشوش ، فالأقمار مرسلة والدشوش مستقبلة ، وهذه الأشياء التي يبثونها لا شك كما سمعنا ولم نشاهد والحمد لله- أن فيها شراً عظيماً ، وهم يجعلون فيها أشياء مفيدة ؛ لأنهم يعلمون أنها لو كانت مفسدة بكامل عناصرها ما قبلها الناس ، إلا من زاغ قلبه ، والعياذ بالله ، لكن يجعلون فيها أشياء مفيدة من أجل أن يضعوا الحَبَّ للصيد .

فأقول : هذا الغزو الآن غزو خُلُقي ، وربما يكون فيه غزو فكري وأنا أسمع أحياناً إذاعة عالية صافية من أحسن ما يكون من إذاعات العالم التي نسمع ، وتبث الدعوة إلىٰ النصرانية ، لكن الحمد لله كل شيء تدعو إليه وهو خير نجد أن شريعتنا متضمنة له ، وأنه لا حاجة إلىٰ دعوتهم هذه ؛ لأن الشريعة الإسلامية والحمد لله قد تضمنت أكثر مما عندهم »[1] .

- ومسألة فتنة استعمار الأفكار وخطورتها ، وأنها أعظم أسلحة دعاة الضلالة ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[البقرة :١٩١] ، قال : « ومن فوائد الآية : أن الفتنة بالكفر ، والصدّ عن سبيل الله أعظم من القتل ، فيتفرع علىٰ هذه الفائدة : أن استعمار الأفكار أعظم من استعمار الديار ؛ لأن استعمار الأفكار فتنة ؛ واستعمار الديار أقصىٰ ما فيها إما القتل ، أو سلب الخيرات ، أو الاقتصاد ، أو ما أشبه ذلك ؛ فالفتنة أشد ؛ لأنها هي القتل الحقيقي الذي به خسارة الدين ، والدنيا ، والآخرة »[2] .

---

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٥١١-٥١٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٧٨ ٣٧٩) .

وقال عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[البقرة :٢١٧] :

« ومن فوائد الآية : حرص المشركين علىٰ ارتداد المؤمنين بكل وسيلة ولو أدىٰ ذلك إلىٰ القتال ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ ؛ ولهذا كان الغزو الفكري ، والغزو الأخلاقي أعظم من الغزو السلاحي ؛ لأن هذا يدخل علىٰ الأمة من حيث لا تشعر ؛ وأما ذاك فصدام مسلح ينفر الناس منه بالطبيعة ؛ فلا يمكنون أحداً أن يقاتلهم ؛ أما هذا فسلاح فتاك يفتك بالأمة من حيث لا تشعر ؛ فانظر كيف أفسد الغزو الفكري والخلقي علىٰ الأمة الإسلامية أمور دينها ، ودنياها ؛ ومن تأمل التاريخ تبين له حقيقة الحال »[1] .

وقال مبيِّنًا مدىٰ خطورة الغزو الفكري علىٰ البيوت : « أعداء المسلمين يتسلطون عليهم أحيانـًا بالغزو المسلح بالقتال وهذا يمكن التحرز منه ، وأحيانـًا بالغزو الفكري وهو أشد وأنكىٰ من الغزو المسلَّح ؛ لأنه يصيب المسلمين في قعر بيوتهم ولا يعلمون به ، ربما يخرجون من الإسلام ويمسح الإسلام من أفئدتهم مسحـًا كاملاً ... فأنا أحثكم بارك الله فيكم- وأحث نفسي علىٰ أن نعدَّ العدَّة لمكافحة أعدائنا الذين يريدون أن يغزونا في بيوتنا بأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الملوثة ، وبأفكارهم المنحرفة حتىٰ نحمي المسلمين من شرِّ هؤلاء ؛ لأن سلاحهم أعظم فتكـًا وأشد من سلاح الحديد والنار »[2] .

- ومسألة تحديد النسل وأنها من دسائس دعاة الباطل لإضعاف المسلمين ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[البقرة :٢٢٣] ، قال : « ومن فوائد

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٦٠) ، و« تفسير سورة ص » (١٢٩) .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (٣٧-٣٨) .

الآية : أنه ينبغي للإنسان أن يحاول كثرة النسل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ ؛ وإذا كانت حرثـًا فهل الإنسان عندما يحرث أرضـًا يقلل من الزرع ، أو يكثر من الزرع؟

فالجواب : الإنسان عندما يحرث أرضـًا يكثر من الزرع ، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ : « تَزَوَّجُوا الودُودَ الولُودَ »[1] ؛ وأما القول بتحديد النسل فهذا لا شك أنه من دسائس أعداء المسلمين يريدون من المسلمين ألا يكثروا ؛ لأنهم إذا كثروا أرعبوهم ، واستغنوا بأنفسهم عنهم : حرثوا الأرض ، وشغَّلوا التجارة ، وحصل بذلك ارتفاع للاقتصاد ، وغير ذلك من المصالح ، فإذا بقوا مستحسرين قليلين صاروا أذلة ، وصاروا محتاجين لغيرهم في كل شيء ، ثم هل الأمر بيد الإنسان في بقاء النسل الذي حدده؟! فقد يموت هؤلاء المحدَّدون ، فلا يبقىٰ للإنسان نسل »[2] .

- ومسألة دعاة الاشتراكية ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[النساء :١٣٥] ، قال : « تحريم ما يسمىٰ بالاشتراكية ؛ لأن دعاة الاشتراكية والحمد لله أنها خمدت نارهم- يقولون : إننا نريد أن نرحم الفقير ، فنأخذ من مال الغني ونعطيه الفقير رحمة به ، فيقال : إن الله أولىٰ به منكم ، والله عَزَّوَجَلَّ له الحكمة في جعل الناس بعضهم فقير وبعضهم غني ، وقد أشار الله إلىٰ ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) ، والنسائي (٣٢٢٧) ، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَال : إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وجَمَالٍ ، وإِنَّهَا لا تَلِدُ ، أَفَأَتزَوَّجُهَا ، قال : « لا » ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاهُ ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ ، فقال : « تَزَوَّجُوا الودُودَ الولُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بكُمُ الأُمَمَ » ، وصححه ابن حجر في فتح الباري (٩ / ١١١) ، وحسَّنه الهيثمي : انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٤ / ٢٥٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٨٨) .

سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: يُسَخِّر بعضهم بعضًا؛ لأنه لو كان الناس على حدٍّ سواء ما استقامت الأمور، فمن يبني لك بيتك إذا كان الناس كلهم أغنياء؟! ومن يبني لك بيتك إذا كانوا كلهم فقراء؛ لأنك ليس عندك شيء تبني به، فالله عَزَّوَجَلَّ له الحكمة في اختلاف الطبقات، لكن مع ذلك لم يضيِّع حق الفقير، فأوجب الزكاة، وأوجب دفع الضرورة، وأوجب النفقة على الأقارب، وأوجب النفقة على الأزواج، وما أشبه ذلك، وهذا كله يسد حاجات كثير من الفقراء»[1].

رابعًا: مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بمدَّعي الحضارة والمدنيَّة ودعاة الحريَّة وتحرير المرأة.

لا يفتأ أعداء الإسلام عن محاربة الإسلام ولمزه، والانتقاص من شعائره بحجة الحضارة والتقدُّم، زاعمين أن الإسلام يُعيق عجلة المدنية والتحضر، وهي قضية لازلنا نرى آثارها على بعض أفراد المجتمع متأثرين بشعارات الغرب الذي يريد هدم القِيَم والأخلاق، وتشويه صورة الإسلام، وإظهاره بصورة المتأخر عن ركب الحضارة وعجلة التقدم، وجاء في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معالجة هذه الظاهرة، ومن ذلك ما يلي:

- مسألة الطعن في الحجاب في وسائل الإعلام، وضرورة الاختلاط في حقل التعليم وغيره، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نجد بعض الذين يتكلمون عن الحجاب من الذين يكتبون في الصحف إذا تكلموا عنه، تكلموا عنه وكأنه أمر تقليدي، أي: يقلِّد الناس فيه بعضهم بعضًا، دون أن يرجعوا فيه إلى حكم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا شك أن هذا إما جهل بالشريعة الإسلامية، وإما تجاهل بها، والواقع أن هذه المسألة ليست من باب التقاليد، ولكنها من باب التعبّد الذي

---

(١) «تفسير سورة النساء» (٢/ ٣٢٩)، وانظر «تفسير سورة المائدة» (١/ ٤٣١).

نتعبَّد الله تعالىٰ باتباعه وامتثاله ، وكذلك الاختلاط بين الرجال والنساء في حقل التعليم ونحوه ، يقول بعض الناس : إن منع الاختلاط من باب التقاليد ، وهذا غلط عظيم ، بل هو من باب الأمور المشروعة ؛ لأن القاعدة الشرعية : أن كل شيء يؤدي إلىٰ الفتنة بين الرجال والنساء فإنه ممنوع ، وقد حذَّر النبي ﷺ من حيث قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَىٰ الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاء »[(١)] ، وقال : « إنما كانت أول فتنة بني إسرائيل في النساء ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء »[(٢)] »[(٣)] .

- ومسألة المساواة بين الرجل والمرأة وأن هذا ما تتطلبه الحضارة والمدنية ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم :٤٥-٤٦] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فالله تعالىٰ خلق الزوجين من شيء واحد ، وهذا يدل علىٰ كمال قدرته جل وعلا- إذ إنه خلق صنفين مختلفين في كل الأحوال : في القوة البدنية والعقلية ، والفكرية ، والتنظيمية يختلف الذكر عن الأنثىٰ ، وبذلك نعرف ضلال أولئك القوم الذين يريدون أن يُلحقوا المرأة بالرجل في أعمال تختص بالرجل ، فإنهم سفهاء العقول ، ضُلَّالُ الأديان ، فكيف يمكن أن نُسَوِّي بين صنفين ، فرَّق الله بينهما خِلْقَةً وشرعـًا ، فهناك أحكام يُطالب بها الرجل ولا تُطالب بها المرأة ، وأحكام

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤١) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، ولفظه : أن النَّبِيَّ ﷺ ، قال : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ » .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (٢/ ١٣٤) ، وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ « رسالة الحجاب » أَلَّفها عام ١٣٩٨هـ ، وتوالت طبعاتها منذ ذلك العام ، وهي رسالة ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها بعد المقدمة أدلة القرآن علىٰ وجوب الحجاب ، ثم أدلة السُّنة ، ثم أدلة القياس ، ثم أدلة المُبيحين لكشف الوجه ، ثم الردَّ عليهم .

تُطالب بها المرأة ولا يُطالب بها الرجل ، وأما قدراً وخِلْقَةً فالأمر واضح ، لكن هؤلاء الذين لم يوفَّقُوا ، وسلب الله عقولهم وأضعف أديانهم ، يحاولون الآن أن يُلحقوا النساء بالرجال ، وهذه لا شك أنها فكرة خاطئة مخالفة للفطرة ، ومخالفة للطبيعة كما أنها مخالفة للشريعة »[1] .

وقال في موضع آخر : « لقد ضلَّ قومٌ يريدون أن يساووا بين النساء والرجال في الأمور التي فرَّق الله بينهما فيها ، وظنُّوا أن ذلك هو المدنية والحضارة ، ولكنه في الحقيقة الجاهلية المحضة ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ فرَّق بين الرجال والنساء خلْقـاً وشرعـاً ، فطبيعة الرجل في خِلْقته وخُلُقِه ليست كطبيعة المرأة ، وكذلك الأحكام الشرعية فرَّق الله فيها بين الرجال والنساء ، فيما اقتضت الحكمة التفريق بينهما فيه »[2] .

وقال في موضع آخر مبيِّنـاً ما يترتب عليه القول بالمساواة : « فالقول بأن الإسلام دين المساواة في الحقيقة قد ينبني عليه مبدأ خطير ، وهو :

أولاً : تسوية الذكور مع الإناث ، وأن تفضيل الذكور علىٰ الإناث يعتبر مخالفـاً لدين الإسلام .

ثانيـاً : الاشتراكية ، بتسوية الناس في الرزق ، بحيث نأخذ من مال الغني ونعطيه الفقير ؛ لأن الدين دين المساواة ، ولو قالوا : الدين دين المواساة لكان صحيحـاً ؛ ولهذا تشرع التعازي في المصائب ، وما أشبه ذلك »[3] .

- ومسألة تغيير الاصطلاح الشرعي والتعبير بما يخالفه ، ومن ذلك التعبير بالمساواة دون العدل ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ

---

(١) « تفسير سورة النجم » (٢٤٩) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١٣٥) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ١٠٣) .

إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [النساء :٥٨] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الغريب أن كثيراً من الناس العصريين تجدهم شغوفين في التعبير بالمساواة دون العدل ، بل قد لا تكاد تجد أحداً منهم يقول : الدين الإسلامي دين العدل ، بل يقول : الدين الإسلامي دين المساواة ، ولا أدري والله أعلم- لماذا استُخْدِمت هذه الكلمة « المساواة » ، هل هي واردة علينا من الخارج؟ لأنك إذا قلت : المساواة دون العدل قالت الأنثىٰ : أنا لا بد أن أُعَامل كما يُعَامل الرجل ، وقال الرجل الساقط الذي لا خير فيه : لا بد أن أُعَامل كما يُعَامل الشريف ، وهلمَّ جرا ، لكن إذا استعملنا العدل فمعناه أن ننزل كل إنسان منزلته »[(١)] .

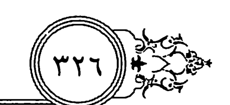
وقال في موضع آخر زيادةً في التحرير والرد علىٰ من ينادي بالمساواة دون العدل : « وإذا تدبرت القرآن وجدت نفي المساواة فيه أكثر من إثباته ، وأنَّ الذي في القرآن هو العدل : وهو إعطاء كل ذي حق ما يستحق ، ولذلك العبارة السليمة أن نقول : الدين الإسلامي دين العدل ، وهو الذي أمر الله به في قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النحل : ٩٠] ، نعم إذا اتفق الناس في الحقوق صحَّ أن نقول : إنه دين المساواة ، إذا اجتمعوا في سبب الحكم وغاياته حينئذٍ نقول : هو دين المساواة ، يعني إذا سرق الشريف وسرق الوضيع ، هنا نقول : لا بأس ألاَّ يُفَرَّق بين الشريف والوضيع وأنه يُسَوَّىٰ بينهما ؛ لأن التسوية هنا عدل .

وعلىٰ هذا فنقول : إذا كانت المساواة هي العدل فنعم ، أما المساواة التي يرمي إليها هؤلاء فهذا ليس بصحيح ، فالدين يفرق تماماً ، في كل موطن تكون الحكمة فيه هي التفريق »[(٢)] .

---

(١) « تفسير سورة النساء » (١/ ٤٤٤) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (١/ ١٤٩) ، وانظر « تفسير سورة الحديد » (٣٨١) .



- ومسألة تحرير المرأة والدعوة إلىٰ السفور، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[البقرة:١٣٥]، قال: «ومن فوائد الآية: أنَّ كلَّ دَاعٍ إلىٰ ضلال ففيه شبه من اليهود، والنصارىٰ؛ دعاة السفور الآن يقولون: اتركوا المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاءِ، وتركِ التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل دَاعٍ إلىٰ ضلالة سوف يَطلي هذه الضلالة بما يَغرُّ البَلِيْد فهو شبيه باليهود، والنصارىٰ»[١].

- ومسألة ولاية المرأة وتوليها مناصب رئاسية، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا ولاية للنساء علىٰ الرجال، لا في قضاء، ولا إمارة، ولا أي شيء لقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء:٣٤]، فمن جعل للمرأة الولاية فقد خالف سنة الله.

فإن قال قائل: أليست الأمُّ تكون وليَّة علىٰ أولادها وعلىٰ أموالهم؟ قلنا: هذه ولاية خاصة، وولاية طارئة، بخلاف الولاية العامة، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ ولَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[٢].

فإن قال قائل: نجد بعض النساء تكون رئيسة للوزراء، أو رئيسة الجمهورية،

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ٨٥)، وقضية تحرير المرأة وتبرجها وخلطتها بالرجال، واستخدامها أداة لهدم المجتمع بتعريضها للفتنة، ناقشها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عدة مواضع من كتبه، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان أعداؤنا أعداء الإسلام بل أعداء الله ورسوله من اليهود والنصارىٰ والمشركين والشيوعيين وأشباههم وأذنابهم وأتباعهم كل هؤلاء يحرصون غاية الحرص علىٰ أن يفتنوا المسلمين بالنساء يدعون إلىٰ التبرج يدعون إلىٰ اختلاط المرأة بالرجل يدعون إلىٰ التفسخ في الأخلاق يدعون إلىٰ ذلك بألسنتهم وأقلامهم وأعمالهم والعياذ بالله؛ لأنهم يعلمون أن الفتنة العظيمة التي ينسىٰ بها الإنسان ربه ودينه إنما تكون في النساء». «شرح رياض الصالحين» (١/ ٩٥)، و(١/ ٥٢٥ - ٥٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٥).

أو تكون ملكة؟

قلنا : ولكن انظر إلىٰ حال المولىٰ عليهم ، لو لم تقم عليهم هذه المرأة لكانوا أصلح حالاً بلا شك ، ولكانوا أفلح وأنجح ، ولكن تأخروا بمقدار ما تولت عليهم هذه المرأة ، وانظر مثلاً إلىٰ بريطانيا ، فقد كانت أكبر دول المستعمرين استعماراً ، حتىٰ قيل : إنها لا تغيب الشمس عن مستعمراتها ، والآن تقلصت حتىٰ صارت في المرتبة الثالثة ، كل ذلك لأنها تستولي عليها النساء »[1] .

- ويبيِّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقيقة الدعوة إلىٰ الحرية التي ينادون بها ، فيقول عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾[آل عمران : ١٠٠] : « لا يستطيعون أن يقولوا للمسلمين : اكفروا ؛ لأنهم لو قالوا : اكفروا ، ما كفروا بل لقالوا : نعم نكفر بالطاغوت ، ونؤمن بالله ، ونضرب هامك ، لكنهم يأتون بهذه الأساليب التي توجب أن ينزلق الناس بالفسوق ، والفسوق بريد الكفر .

ثانيـاً : يلقون الأفكار الرديئة الإلحادية الكفرية بين المسلمين باسم (الناس أحرار ، دعوا كل أحد يعتنق ما شاء ، دعوا كل أحد يقول ما شاء ، لا تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) ، وما أشبه ذلك من الكلمات الرنَّانة التي إذا سمعها الإنسان قال : هذا هو الدين ، ثم تحلَّل الناس وصار كلٌّ يعمل علىٰ ما يُريد ، ولكن ما هي الطريق التي يتوصَّلون بها إلىٰ هذا؟ الطريق : أن يضربوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويجعلوا الناس لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ؛ لأنهم يعرفون أنه إذا أُمر بالمعروف قام المعروف ، وإذا نُهي عن المنكر غاب المنكر ، فيحاولون أن يُقلِّلوا ويُضعفوا هذه الناحية ، حتىٰ يبقىٰ

---

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٢٩٧) .

الناس لا آمر ولا ناهي ، كلٌ يركب ما شاء »(١) .

- ويبيِّن مفهوم الرجعيَّة ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة :١٤٣] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ : « ومن فوائد الآية : أن التقدم حقيقة إنما يكون بالإسلام ، وأن الرجعية حقيقة إنما تكون بمخالفة الإسلام ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ؛ فإن هذا حقيقة الرجوع علىٰ غير هدًىٰ ؛ لأن الذي ينقلب علىٰ عقبيه لا يُبْصر ما وراءه ؛ فمن قال للمتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله رجعيون ، قلنا له : بل أنت الرجعي حقيقة ؛ لأن الله سمَّىٰ مخالفة الرسول ﷺ انقلابـاً علىٰ العقب ؛ ولا أبلغ من هذا الرجوع أن الإنسان يرجع علىٰ عقبيه رجوعـاً أعمىٰ والعياذ بالله- لا يدري ما وراءه »(٢) .

- ويبيِّن حكم المنتقصين للدين من دعاة الحرية- في الإسلام ، فيقول : « المستهزئ الذي يرىٰ أن الشرع عبث ، أو أنه لأناس انقرضوا ، ومضوا ، وأن هذا العصر لا يصلح للعمل بهذا الشرع ؛ فهذا لا شك أنه كافر ؛ وإذا استهزأ مستهزئ بحامل الشريعة ، أو العامل بها من أجل حمله الشريعة ، أو عمله بها فهو كافر ؛ لأنه استهزأ بشريعة من شرائع الله ؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ في أولئك النفر الذين قالوا : « ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء يعنون الرسول ، وأصحابه- أرغب بطونـاً ، ولا أكذب ألسنـاً ، ولا أجبن عند اللقاء »(٣) ؛ قال الله سبحانه وتعالىٰ

---

(١) « تفسير آل عمران »(٢ / ٥٧٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١١٩) .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في « جامع البيان » (١٠ / ١٧٢) عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبدالله بن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونـاً ولا أكذب ألسنـاً ولا أجبن عند اللقاء . فقال رجل في المسجد : كذبت ،=

فيهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٥ ، ٦٦] ؛ أما الذين يقولون عن حملة الشرع ، والعاملين به : (هؤلاء دراويش لا يعرفون المجتمع ولا الدنيا) ، وما أشبه ذلك من الكلمات ؛ فهؤلاء أيضـًا كفار ؛ لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين : ٢٩ ٣٢] ؛ وفي معنىٰ ذلك قولهم : (هؤلاء رجعيون) ، وقد ذكر الله في آخر الآيات ما يدل علىٰ كفرهم في قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤] ؛ فدل هذا علىٰ أن أولئك الذين يسخرون بالمؤمنين من أجل إيمانهم كفَّار »[1] .

خامسـًا : مضامين القضايا المعاصرة في أقوال العامة وأفعالهم .

تنتشر بين العامة ألفاظٌ وأفعالٌ كثيرة ، ويعتقد البعض صوابها ، ولربما خالفت الشرع ، فيكون انتشاراها مسوِّغـًا للسير عليها ، ولقد كان الشيخ ابن

= ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن فقال عبدالله بن عمر : أنا رأيته متعلقـًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، ورسول الله ﷺ يقول : « ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ » [التوبة ٦٥-٦٦] . قال الشيخ مقبل الوادعي في « الصحيح المسند من أسباب النزول » (١٠٩) : « الحديث رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد كما في « الميزان » وأخرجه الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من طريقه (١٠ / ١٧٢) ، وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم (٤ / ٦٤) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ » .

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ١٣٠-١٣١) .

عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذو اهتمام بالغ بتحسين الألفاظ(١) وكذا الأفعال ، والاستدراك علىٰ ما اشتهر علىٰ ألسن الناس مما ينافي أخلاق المسلم وما فيه مصلحة لهم ، ومن ذلك :

- مسألة تقسيم الكذب إلىٰ أسود وهو المحرم وأبيض وهو جائز ؛ لأنه لا يترتب عليه مضرَّة ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ولا يصح من قسَّم الكذب من العامة إلىٰ كذب أبيض وكذب أسود ، ويقولون : إن الكذب الأبيض هو الكذب الذي لا يترتب عليه إتلاف مال ، ولا إتلاف نفس ، وإن الكذب الأسود هو الذي يترتب عليه شيء من ذلك ، فنقول : إن الكذب كله أسود ، وليس في الكذب شيء ممدوح ، سواء ترتب عليه إتلاف مال أو أنفس ، أو ظلم لأحد أم لم يترتب عليه شيء ؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ جعل الكذب من صفات المنافقين ، ومن علاماتهم فقال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذَا وعَدَ أَخْلَفَ ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »(٢) »(٣) .

- ومسألة التعبُّد لله تعالىٰ بالأذكار والرُقىٰ من باب التجربة في نفعها لا اليقين ، عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة :١١٨] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : الإشارة إلىٰ أن الناس ينقسمون في آيات الله تعالىٰ إلىٰ قسمين : قسم موقن ؛ فهذا ينتفع بالآيات التي آتاها الله الرسل ، وقسم غير موقن ، بل هو في شك ، وأقبح منه من

---

(١) وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب « المناهي اللفظية » ، جمع وإعداد : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، فيه (١٠٥) سؤال تتعلق بالمناهي اللفظية .

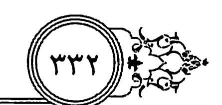
(٢) أخرجه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٦١-٦٢) .

كان في عناد وإنكار ؛ فإن هذا لا ينتفع بالآيات ؛ لأن الله تعالىٰ خصَّ الانتفاع بالآيات لقوم يوقنون ، ومن ذلك ما يقوم بقلوب بعض الناس من الشك في نفع بعض الآيات التي رُتِّب عليها فوائد ، مثل قول النبي ﷺ في آية الكرسي : « من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتىٰ يصبح »[1] ، وإن بعض الناس يقرأ هذه الآية لكنه في شك من هذا الخبر ، أو يقول : أقرؤها وأجرِّب ؛ فإن هذا لا ينتفع بها أبداً ، فلا ينتفع بها إلا من أيقن بأنه إذا قرأها لا يزال عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتىٰ يصبح ، وهكذا بقية الآيات التي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١) ، ولفظ الحديث : عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال : وكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ ، وقلت : واللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قال : إِنِّي مُحْتَاجٌ ، وعَلَيَّ عِيَالٌ ولِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ ، قال : فَخَلَّيْتُ عَنْهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ » ، قال : قلت : يَا رَسُولَ اللهِ ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً ، وعِيَالًا ، فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قال : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ ، وسَيَعُودُ » ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ ، فَرَصَدْتُهُ ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ ، فَقلت : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قال : دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وعَلَيَّ عِيَالٌ ، لاأَعُودُ ، فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ » ، قلت : يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً ، وعِيَالًا ، فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قال : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وسَيَعُودُ » ، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ ، فَقلت : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ، وهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لاتَعُودُ ، ثُمَّ تَعُودُ قال : دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا ، قلت : مَا هُوَ؟ قال : إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، حَتَّىٰ تَخْتِمَ الآيَةَ ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، ولايَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ » ، قلت : يَا رَسُولَ اللهِ ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قال : « مَا هِيَ » ، قلت : قال لِي : إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّىٰ تَخْتِمَ الآيَةَ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال لِي : لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، ولايَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ -وكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَىٰ الخَيْرِ فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وهُو كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ » ، قال : لَا ، قال : « ذَاكَ شَيْطَانٌ » .



أخبر النبي ﷺ بشيء من فوائدها »[١] .

- ومسألة تتبع الرُّخص في الفتاوىٰ ، والانتقاء من الفتاوىٰ ما يناسبه ، وكثرتها في العصر الحاضر عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [البقرة :٢١٧] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : حرص الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ التفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ ، وذلك بما يوردونه علىٰ النبي ﷺ من الأسئلة ، ثم اعلم أن أسئلة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ليست كأسئلة كثير من المعاصرين اليوم ، كثيرٌ من المعاصرين اليوم يسألون عن الحكم ؛ ليَعْلَموا الحكم فقط ، ومنهم من يطبِّق ، ومنهم من لا يطبِّق .

منهم من يطبِّق إذا كان الحكم الشرعي مناسبا له ، ومنهم من لا يطبِّق فيذهب إلىٰ عالم وآخر ، لعله يجد من الفتوىٰ ما يناسبه ، ولا شك أن هذا أعني : تتبع الرخص- أمر منكرٌ ، حتىٰ أن أهل العلم قالوا : إن من تتبع الرُّخص فقد فسق ، والواجب علىٰ المرء أن يختار لدينه من يرىٰ أنه أوثق في علمه ودينه فيسأله ، ثم لا يلتفت إلىٰ غيره »[٢] .

- ومسألة قول بعض العامة عن الميِّت : انتقل أو حُمل إلىٰ مثواه الأخير ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾[النساء :٣٨] ، قال : « وقوله : ﴿ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ : اليوم الآخر هو يوم القيامة ، وسمي يومـاً آخر لأنه لا يوم

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١/ ٣١٤-٤١٥) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢/ ٨٥) ، وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام عن حرص الصحابة علىٰ تطبيق أوامر الله تعالىٰ ، واجتنابه نواهيه ، وذم تتبع الرُّخص وانتقاء الفتاوىٰ بما يناسب الهوىٰ ، وفقه تتبع الأيسر أو الأحوط في المسائل ذات الخلاف السائغ ، انظره في : « شرح رياض الصالحين » (٤/ ٣٠٧) ، و« مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٢٦/ ٣٨٩) .

بعده ، فكل ما سبق فإن بعده شيئـًا ، فالدار الأولىٰ البطن ، وبعدها الخروج إلىٰ الدنيا ، وبعد الخروج إلىٰ الدنيا البرزخ ، ثم اليوم الآخر النهاية ، ولهذا نقول : إن القول عن الميت « إنه حُمِل إلىٰ مثواه الأخير » ، كلمة خطيرة جداً ، مضمونها إنكار البعث ؛ لأنه إذا كان القبر مثواه الأخير فمعناه أنه ليس بعده بعث ، وهذه الكلمة يكثر ذكرها في الجرائد والمجلات ، وعلىٰ ألسنة بعض من يدَّعون أنهم مثقفون ، لكنها في الواقع غير صحيحة إلا لإنسان لا يؤمن بالبعث »[(١)] .

– ومسألة التذرُّع بما كان عليه أكثر الناس عند الإنكار عليه ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « كثير من الناس تنهاه عن المنكر فيقول : هذا الذي يمشي عليه الناس ، وهذا ليس بحجة ، وهذا كما أنه سابق فهو أيضـًا لاحق ، فمن الناس مَن إذا أنكرت عليه المنكر قال : هذا ما زال الناس عليه ، أو يقول : ما سمعنا بهذا ، ومنه قول بعض العامة إذا نُبِّهوا علىٰ شيء لم يكونوا يعرفونه ، قالوا : هذا دين جديد ، ما سمعنا بهذا ، وهذا ليس بحجة ، وإنما الحجة الدليل القائم من كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ »[(٢)] .

– ومسألة استقدام العمالة الكافرة مع توفُّر المسلم ، عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة :٢٢١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أن العبد المؤمن خير من المشرك ، ولو أعجبك ، وبناء علىٰ ذلك نقول في مسألة العمالة الآن : إن الأولىٰ أن يجلب للعمل عنده من كان مسلمـًا ، فإنه خير من المشرك ، ولو أعجبك المشرك ، نعم لو فُرِض أن رجلا محسنـًا يقول : أنا أجلب عاملاً كافراً للخدمة في البيت ، أو قيادة السيارة ، وأدعوه إلىٰ

---

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٣٢٢) ، وانظر أيضـًا : « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٣/ ١٣٣) ، (١٧ / ٣٠٦) ، (١٧ / ٤٥٣) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٤٤) .

الله عَزَّوَجَلَّ لعل الله يهديه ، فنقول : إذا علم الله تعالىٰ من نيَّته أن هذا هو الغرض فإنه قد يُعينه علىٰ ذلك ، لكن إذا كان لمجرد العمل فنقول : اختر المسلم فإن الله يقول : ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾(١) .

– ومسألة دبلجة الصور وتركيبها بما يخالف الحقيقة ، وهل تثبت الشهادة بالصورة ، عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾[النساء :١٥] .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « إن قال قائل : هل يمكن أن نثبته بالتقاط الصورة أي (الشهادة علىٰ الزاني)؟ فنقول : كنا نقول بذلك لكن لما تبيَّن لنا دبلجة المصورين قلنا : لا نثبته ، والدبلجة أنهم يلفقون صورة ، ويجعلون رجلاً علىٰ امرأة قد جامعها وليس الأمر كذلك والدبجلة هذه مشكلة كبيرة نسأل الله أن يكفينا شرها ، فقد بدؤوا يدبلجون الكلام ويأخذون مثلا من بعض كلامي حرفا في كلمة من الكلمات وحرفـًا من كلمة أخرىٰ ، ويركبون بعضها علىٰ بعض ، فينشئون خطبة بصوتي علىٰ ما يريدونه ، والصوت صوتي ونبرات الكلام نبرات كلامي ، فأي إنسان يريد أن يتقوَّل علىٰ شخص فإنه يمكنه ذلك ، لكن أسال الله أن يسخر فيروسـًا لهذه الآلات كما أن هناك فيروسا للكمبيوتر حتىٰ نسلم ويسلم الناس من شرها »(٢) .

– ومسألة الاعتماد علىٰ التوقيت بالأشهر الإفرنجية ، وترك التوقيت العالميّ وهو التوقيت بالأهلة ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة :١٨٩] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومن فوائد الآية : أن

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١١٣) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (١ / ١٢٧) .

ميقات الأمم كلها الميقات الذي وضعه الله لهم وهو الأهلة- ؛ فهو الميقات العالميُّ ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ ؛ وأما ما حدث أخيراً من التوقيت بالأشهر الإفرنجية فلا أصل له من محسوس ، ولا معقول ، ولا مشروع ؛ ولهذا تجد بعض الشهور ثمانية وعشرين يومـًا ، وبعضها ثلاثين يومـًا ، وبعضها واحداً وثلاثين يومـًا من غير أن يكون سبب معلوم أوجب هذا الفرق ؛ ثم إنه ليس لهذه الأشهر علامة حسية يرجع الناس إليها في تحديد أوقاتهم ، بخلاف الأشهر الهلالية فإن لها علامة حسية يعرفها كل أحد »[1] .

سادسـًا : مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بواقع المسلمين .

إن أكثر ما يؤرق المسلمين في الواقع المعاصر ما اعتراهم من الذُّل والاستضعاف في أصقاع المعمورة ، ومحاولة الأعداء تشتيت المسلمين ، وإلصاق التهم بهم ، واضطهادهم ، وتفريقهم ، ولقد كانت هذه القضية من القضايا التي جاءت في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وبيَّن أسباب الذُّل وتأخر النصر ، وعلاج الواقع المنكوب في بعض بلدان المسلمين للوصول إلىٰ عزَّة المسلمين ، وذلك في مواطن من تفسيره ومن ذلك :

- من أسباب النصر علىٰ أعداء الله قوة اليقين والإيمان بالله تعالىٰ ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة :١٣] ، قال : « ومن فوائد الآية : تحقيق ما وعد الله به من الدفاع عن المؤمنين ، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج :٣٨] ؛ فإذا ذموا بالقول دافع الله عنهم بالقول ؛ فهؤلاء قالوا : ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي جادل عن المؤمنين ،

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٧١) .

فقال : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعني هم السفهاء لا أنتم ؛ فهذا من تحقيق دفاع الله تعالىٰ عن المؤمنين ؛ أما دفاعه عن المؤمنين إذا اعتُدي عليهم بالفعل ، فاستمع إلىٰ قول الله تعالىٰ : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال :١٢] : هذه مدافعة فعلية ، حيث تنْزل جنود الله تعالىٰ من السماء لتقتل أعداء المؤمنين ؛ فهذا تحقيق لقول الله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ؛ ولكن الحقيقة أن هذا الوعد العظيم من القادر جل وعلا الصادق في وعده يحتاج إلىٰ إيمان حتىٰ نؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ ، ولا نخشىٰ أحداً سواه ، فإذا ضعف الإيمان أصبحنا نخشىٰ الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ؛ لأننا إذا كنا نراعيهم دون أوامر الله فسنخشاهم أشد من خشية الله عَزَّوَجَلَّ ؛ وإلا لكنا ننفذ أمر الله عَزَّوَجَلَّ ، ولا نخشىٰ إلا الله سبحانه وتعالىٰ »[1] .

وفي موضع آخر قال : « فنحن لو آمنا حقيقة الإيمان بهذا الوعد الصادق الذي لا يُخلَف لكنا منصورين في كل حال ؛ لكن الإيمان ضعيف ؛ ولهذا صرنا نخشىٰ الناس أكثر مما نخشىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، وهذه هي المصيبة ، والطامة العظيمة التي أصابت المسلمين اليوم ؛ ولذلك تجد كثيراً من ولاة المسلمين مع الأسف ، لا يهتمون بأمر الله ، ولا بشريعة الله ؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان ، وفلان ، أو الدولة الفلانية ، والفلانية . ولو علىٰ حساب الشريعة الإسلامية التي من تمسك بها فهو المنصور ، ومن خالفها فهو المخذول ، وهم لا يعرفون أن هذا هو الذي يبعدهم من نصر الله ، فبدلاً من أن يكونوا عبيداً لله أعزة صاروا عبيداً للمخلوقين أذلة ؛ لأن الأمم الكافرة الكبرىٰ لا ترحم أحداً في سبيل مصلحتها ؛ لكن لو أننا ضربنا بذلك عُرض الحائط ، وقلنا : لا نريد

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٥٢) .

إلا رضى الله ، ونريد أن نطبق شريعة الله سبحانه وتعالى على أنفسنا ، وعلى أمتنا ؛ لكانت تلك الأمم العظمى تهابنا ؛ ولهذا يقال : من خاف الله خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء »[1] .

- ومن أسباب النصر ، التمسك بكتاب الله تعالى والعمل به ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[البروج :٢١-٢٢] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « هذه السورة العظيمة التي ابتدأها الله تعالى بالقسم بالسماء ذات البروج وأنهاها بقوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[البروج : ٢١ - ٢٢] ، فمن تمسك بهذا القرآن العظيم فله المجد والعزة والكرامة والرفعة ، ولهذا ننصح أمتنا الإسلامية بادئين بأفراد شعوبها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم ، ونوجه الدعوة على وجه أوكد إلى ولاة أمورها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم ، وأن لا يغرهم البهرج المزخرف الذي يرد من الأمم الكافرة التي تضع القوانين المخالفة للشريعة ، المخالفة للعدل ، المخالفة لإصلاح الخلق ، أن يضعوها موضع التنفيذ ، ثم ينبذوا كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ، وراء ظهورهم ، فإن هذا والله سبب التأخر ولا أظن أحداً يتصور أن أمة بهذا العدد الهائل تكون متأخرة هذا التأخر ، وكأنها إمارة في قرية بالنسبة للدول الكافرة ، لكن سببَ ذلك لا شك معلوم هو أننا تركنا ما به عزتنا وكرامتنا وهو : التمسك بهذا القرآن العظيم ، وذهبنا نلهث وراء أنظمة بائدة فاسدة مخالفة للعدل ، مبنية على الظلم والجور »[2] .

- ومن أسباب النصر الإخلاص لله تعالى، وترك المعاصي وانتشارها

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٥١ ٥٢) ، وانظر : « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٥٦) .

(٢) « تفسير جزء عم » سورة البروج (١٤٨-١٤٩) .

في المجتمعات، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة:٦١]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن فوائد الآية: أن بني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربُوهم من قِبَل الإسلام؛ لأن ضَرْب الذِّلَةِ بسبب المعصية؛ فإذا حوربوا بالطاعة والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبال عليهم؛ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]؛ وما يُشَاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين:

الأول: قِلَّة الإخلاص لله تعالىٰ؛ فإن كثيراً من الذين يقاتلون اليهود أو أكثرهم لا يقاتلونهم باسم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ وإنما يقاتلونهم باسم العروبة؛ فهو قتال عَصَبِيٌّ قَبَلِيٌّ؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود.

والسبب الثاني: كثرة المعاصي من كبيرة، وصغيرة؛ حتىٰ إن بعضها ليؤدي إلىٰ الكفر؛ وقد حصل للمسلمين في أُحُد ما حصل بمعصية واحدة مع ما انْضَمَّ إليها من التنازع، والفشل، كما قال الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران:١٥٢]»[1].

- ومن أسباب النصر العودة إلىٰ ما كان عليه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والسير بقيادة حكيمة تسير بشرع الله تعالىٰ، وبيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما تحتاجه الأمة للعودة لعزِّها، فقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو أن الأمة الإسلامية عادت إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح لعاد النصر إليهم، والغنىٰ، والعزة، والقوة ولكن مع الأسف أن الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر كل منها ينظر إلىٰ حظوظ نفسه بقطع النظر عما يكون به نصرة الإسلام أو خذلان الإسلام.

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (١/ ٢١٩)، وانظر أيضاً: (١/ ٥٢) و(٢/ ٢٣١).



ولا يخفى على من تأمل الوقائع التي حدثت أخيراً أنها في الحقيقة إذلال للمسلمين، وأنها سبب لشر عظيم كبير يترقب من وراء ما حدث، ولاسيما من اليهود والنصارى الذين هم أولياء بعضهم لبعض كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[المائدة:٥١]، وهم أعني اليهود والنصارى- متفقون على عداوة المسلمين، كل لا يريد الإسلام، ولا يريد أهل الإسلام، ولا يريد عز الإسلام، ولكن سينصر الله تعالى دينه مهما كانت الأحوال، فالله تعالى ناصر دينه وكتابه، وإن حصل على المسلمين ما يحصل فإن الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٤٠]، وسيأتي اليوم الذي يجاهد فيه المسلمون اليهود يختبئ اليهودي خلف الشجر فينادي الشجر يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي، فيأتي المسلم ويقتله(١)، وما ذلك على الله بعزيز. ولكن المسلمين يحتاجون إلى قيادة حكيمة عليمة بأحكام الشريعة قبل كل شيء، لأن القيادة بغير الاستفادة بنور الشريعة عاقبتها الوبال، مهما علت ولو علت إلى أعلى قمة فإنها سوف تنزل إلى أسفل قعر، الهداية بالإسلام، بنور الإسلام، لا بالقومية، ولا بالعصبية، ولا بالوطنية ولا بغير ذلك، بالإسلام فقط.

فالإسلام وحده هو الكفيل بعزة الأمة، لكن تحتاج إلى قيادة حكيمة تضع الأشياء مواضعها، وتتأنى في الأمور ولا تستعجل، لا يمكن أن يصلح الناس بين عشية وضحاها، ومن أراد ذلك فإنه قد أراد أن يغير الله سنته، والله سبحانه

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قال: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّىٰ يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وراءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فَيَقُولُ الحَجَرُ أوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إلا الغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ». أخرجه مسلم (٢٩٢٢).

وتعالىٰ لا يغير سنته ، فهذا نبي الله (بقي في مكة ثلاث عشرة سنة ينزل عليه الوحي ، ويدعو إلىٰ الله بالتي هي أحسن ، ومع ذلك في النهاية خرج من مكة خائفاً مختفياً لم تتم الدعوة في مكة ، فلماذا نريد أن نغيِّر الأمة التي مضىٰ عليها قرون وهي في غفلة وفي نوم بين عشية وضحاها ، هذا سفه في العقل ، وضلال في الدين ، الأمة تحتاج إلىٰ علاج رفيق هادئ يدعو بالتي هي أحسن ، الأمة الإسلامية تحتاج بعد الفقه في دين الله والحكمة في الدعوة إلىٰ الله ، تحتاج إلىٰ العلم بالواقع والفطنة والخبرة ، ونظر في الأمور التي تحتاج إلىٰ نظر بعيد ، لأن النتائج قد لا تتبين في شهر ، أو شهرين ، أو سنة ، أو سنتين ، لكن العاقل يصبر وينظر ويتأمل حتىٰ يعرف ، والأمور تحتاج أيضاً إلىٰ عزم وتصميم وصبر ؛ لأنه لابد من هذا لابد من عزم يندفع به الإنسان ، ولابد من صبر يثبت به الإنسان وإلا لفاتت الأمور أو فات كثير منها والله المستعان »[1] .

- ومن أسباب النصر توحيد القصد وذلك باسم الإسلام لا العروبة ، وهو الذي به تُستردُّ أرض فلسطين ، عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[البقرة :١٢٢] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لن ينجح العرب فيما أعتقد والعلم عند الله في استرداد أرض فلسطين باسم العروبة أبداً ؛ ولا يمكن أن يستردوها إلا باسم الإسلام علىٰ ما كان عليه النبي ﷺ ، وأصحابه ، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[الأعراف :١٢٨] ؛ ومهما حاول العرب ، ومهما ملؤوا الدنيا من الأقوال والاحتجاجات ، فإنهم لن يفلحوا أبداً حتىٰ ينادوا بإخراج اليهود منها باسم دين الإسلام بعد أن يطبقوه في أنفسهم ؛ فإن هم فعلوا ذلك فسوف يتحقق لهم ما أخبر به النبي ﷺ : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ

---

(١) « تفسير جزء عم » سورة الضحىٰ (٢٤١-٢٤٣) .

اليَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّىٰ يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وراءِ الحَجَرِ، والشَّجَرِ، فَيَقُولُ الحَجَرُ، أوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عبد اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»[1]؛ فالشجر، والحجر يدل المسلمين علىٰ اليهود يقول: «يا عبد الله» باسم العبودية لله، ويقول: «يا مسلم» باسم الإسلام؛ والرسول ﷺ يقول: «يقاتل المسلمون اليهود»، ولم يقل: «العرب»[2].

- ومن أسباب النصر، نصرة النبي ﷺ والدفاع عنه، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران: ٨١]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن فوائد الآية: أنه إذا كان واجبًا علىٰ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والأمم السابقين أن يؤمنوا برسول الله ﷺ وينصرونه، كان إيماننا نحن به ونصرته من باب أولىٰ؛ لأننا ننتسب إليه، وننتمي إليه، ونعتقده إمامنا، ﷺ، فكان واجبًا علينا أن ننصره، ومن المعلوم أن نصره في حياته هو الجهاد معه جنبًا إلىٰ جنب، وأما نصره بعد وفاته فهو نصر سنته ونشرها، وبيانها للناس، والدفاع عنها، والجهاد في نصرتها، كل هذا واجب علىٰ الأمة الإسلامية، وبناء علىٰ ذلك يجب علىٰ الأمة الإسلامية أن ترفض كل وارد إليها من أعداء الله إذا كان مخالفًا للسنة؛ كل شيء يرد علينا من الكفار من عقائد وأخلاق وأعمال ومعاملات وغيرها إذا كان مخالفًا لسنة الرسول ﷺ، فإن أقل ما يقال في النصرة أن يرفض هذا الشيء، وأن يضرب به وجه مورده، وأن لا يكون له مكان بين الأمة الإسلامية؛ لأنه كيف يكون نصره ونحن نستورد من أعداء هذه النصرة ما يخالف هذه النصرة؟

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «تفسير سورة البقرة» (١/ ١٦٩-١٧٠)، وانظر: (١/ ٢١٩).

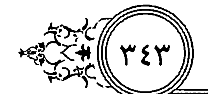
من ادعىٰ ذلك فهو كاذب ، فإن فعله يُكذِّب قوله ، ولو كان قوله صادقاً لكان أول ما يقوم به من نصرة شريعة الله أن يرفض كل ما خالف شريعة الله »[١] .

– وذكر أساليب أعداء الله في إضعاف المسلمين ، ومن ذلك التنفير من أولياءه بأوصاف توجب التنفير ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة :١٣] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أن أعداء الله يصفون أولياءه بما يوجب التنفير عنهم لقولهم : ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ ؛ فأعداء الله في كل زمان ، وفي كل مكان يصفون أولياء الله بما يوجب التنفير عنهم ؛ فالرسل وصفهم قومهم بالجنون ، والسحر ، والكهانة ، والشعر تنفيراً عنهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[الذاريات :٥٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾[الفرقان :٣١] ، وورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ مثلهم يجعل الله لهم أعداء من المجرمين ، ولكن ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[الفرقان :٣١] ؛ فمهما بلغوا من الأساليب فإن الله تعالىٰ إذا أراد هداية أحد فلا يمنعه إضلال هؤلاء ؛ لأن أعداء الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يسلكون في إبطال دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ مَسْلكين ؛ مسلك الإضلال ، والدعاية الباطلة في كل زمان ، ومكان ؛ ثم مسلك السلاح ، أي المجابهة المسلحة ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿هَادِيًا﴾ في مقابل المسلك الأول الذي هو الإضلال ، وهو الذي نسميه الآن بالأفكار المنحرفة ، وتضليل الأمة ، والتلبيس علىٰ عقول أبنائها ؛ وقال تعالىٰ : ﴿وَنَصِيرًا﴾ في مقابل المسلك الثاني . وهو المجابهة المسلحة »[٢] .

---

(١) « تفسير آل عمران »(١ / ٤٧٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٥٠) ، وانظر « تفسير سورة يس » (١٧٢-١٧٣) ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ =



وقال أيضاً في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[البقرة:١١٨]: «ومن فوائد الآية: أن أقوال أهل الباطل تتشابه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[الذاريات:٥٢-٥٣]، وأنت لو تأملت الدعاوىٰ الباطلة التي ردَّ بها المشركون رسالة الرسول ﷺ من زمنه إلىٰ اليوم لوجدت أنها متشابهة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾[المطفِّفين:٣٢]؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن، والسنة هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئاً»(١).

- وبيَّن الحكمة مما يصيب المسلمون اليوم من تسلط الكافرين، والتشريد، والتجويع، والانتهاك، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[البروج:١٠]، فقال: «في هذه الآيات من العبر: أن الله سبحانه وتعالىٰ قد يسلط أعداءه علىٰ أوليائه، فلا تستغرب إذا سلط الله عَزَّوَجَلَّ الكفار علىٰ المؤمنين وقتلوهم وحرقوهم، وانتهكوا أعراضهم، لا تستغرب فلله تعالىٰ في هذا حكمة، المصابون من المؤمنين أجرهم عند الله عظيم، وهؤلاء الكفار المعتدون أملىٰ لهم الله سبحانه وتعالىٰ ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، والمسلمون الباقون لهم عبرة وعظة فيما حصل لإخوانهم، فمثلاً نحن نسمع ما يحصل من الانتهاكات العظيمة، انتهاك الأعراض، وإتلاف الأموال، وتجويع الصغار والعجائز، نسمع أشياء تبكي، فنقول:

= أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧]، وتفسير «سورة المطففين» (١٠٧)، عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾[المطفِّفين:٣٢].

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ٢٤).

سبحان الله ما هذا التسليط الذي سلطه الله علىٰ هؤلاء المؤمنين؟ نقول يا أخي لا تستغرب فالله سبحانه وتعالىٰ ضرب لنا أمثالاً فيمن سبق يحرقون المؤمنين بالنار ، فهؤلاء الذين سلطوا علىٰ إخواننا في بلاد المسلمين هذا رفعة درجات للمصابين ، وتكفير السيئات ، وهو عبرة للباقين ، وهو أيضاً إغراء لهؤلاء الكافرين حتىٰ يتسلطوا فيأخذهم الله عَزَّوَجَلَّ أخذ عزيز مقتدر »(١) .

- ومسألة محبتنا انتصار الكافر علىٰ كافر آخر ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره فقال : « في قوله : ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة :٧] دليل علىٰ أنه يجب علينا معاداة هؤلاء ، وبغضهم ، وعدم مناصرتهم ، سواء ناصرنا بعضهم علىٰ بعض أو ناصرناهم علىٰ أحد من المسلمين ، فكل ذلك حرام ، لكن الثاني أشد وأعظم ، أما محبتنا أن ينتصر بعضهم علىٰ بعض فإن هذا لا بأس به إذا كان هذا المنتصر أهون علىٰ المسلمين وعلىٰ الإسلام من الآخر ؛ ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم : ١-٥] يعني : بنصر الله الروم علىٰ الفرس ، ومن المعلوم أنهم لم يفرحوا بذلك إلا لأنهم يحبونه ؛ لأن الإنسان لا يفرح بشيء إلا وهو محبوب إليه ، فلا حرج علينا إذا أحببنا أن ينتصر بعض الكفار علىٰ بعض ؛ لكونهم أهون من الآخرين ، وأقل خطراً علىٰ الإسلام والمسلمين ، لكن الجميع يجب علينا أن نتبرأ منهم ، وأن نعاديهم ، وألا يكون بيننا وبينهم ولاء »(٢) .

- ومسألة تولية الكافر قيادة أو سلطة تخصُّ المسلمين ، عند تفسيره لقوله

---

(١) « تفسير سورة البروج » (١٣٠-١٣١) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٢-٣٣) .

تعالىٰ : ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة :١٠٥] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومنها : أنه يحرم علىٰ المسلمين أن يُولُّوا هؤلاء الكفار أيّ قيادة ؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأيّ خير مهما كان الأمر ؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة علىٰ المسلمين لا في تخطيط ، ولا في نظام ، ولا في أي شيء ؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين ، وتحت تدبيرهم ما أمكن ؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا ؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا ؛ إذاً فيجب علينا الحذر من مخططاتهم ، وأن نكون دائمـاً علىٰ سوء ظن بهم ؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله ؛ وإنما يحمل عليه الذل ، وضعف الشخصية ، والخور ، والجبن ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة :١٠٥] ؛ وهي شاملة لخير الدنيا ، والآخرة ؛ فاليهود حسدوا المسلمين لما آمنوا بمحمد ﷺ ، ونزل عليهم هذا الكتاب »[(١)] .

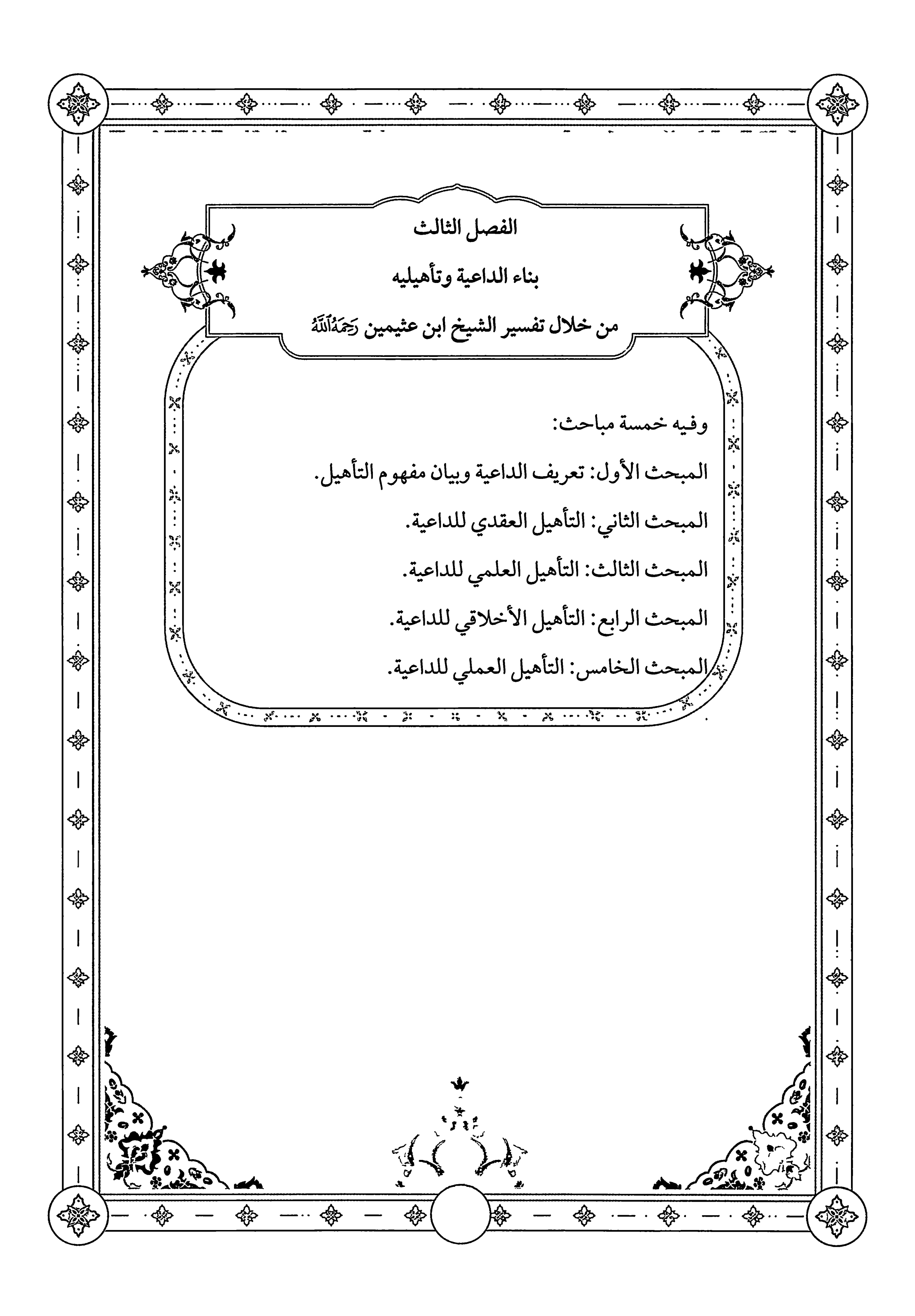
ما تقدَّم جملة من النماذج علىٰ مضامين القضايا العصرية النازلة بالمسلمين دعاة ومدعوين ، في فروع شتىٰ من الدين ، تبيِّن احتواء تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ جوانب عدة من القضايا العصرية التي تخصُّ الدعوة ، وتبيِّن اهتمام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بواقع المسلمين ، ومعالجته لقضاياهم وربطها بكتاب الله تعالىٰ ، وتنزيل الآيات علىٰ الوقائع الحاضرة إشارة إلىٰ ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن وأهل الدعوة عموما ، والدعاة خصوصـاً من الرجوع إلىٰ كتاب الله تعالىٰ ، والبدء به فيما ينزل بالمسلمين من نوائب أو مسائل معاصرة ، ففيه حياة القلوب واهتدائها إلىٰ سواء الصراط ، ولقد كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره مميِّزاً

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٤٢) .

بهذا الجانب ، متنوعــًا في طرح القضايا المعاصرة وفي تناولها بما يتناسب مع الآيات ، رحمه الله رحمة واسعة ، فكثيرا ما يقع في الواقع قضايا تهمُّ الدعاة أو المدعوِّين أو الدعوة عموما ، ويلتبس عليهم المنهج الشرعي تجاه هذه النازلة لاسيما ونحن في عصر متسارع الأحداث والوقائع فيحتاج الناس معها إلىٰ بيان شافٍ علىٰ نهج الكتاب والسنة يرفع عنهم ما حارت عقولهم تجاهه ، عندها يبرز دور العلماء الربانين والدعاة الصادقين في توجيه الأمة فيما نزل بها ، وكان تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أبرز التفاسير المتناولة للقضايا الدعوية العصرية سواء كان ذلك علىٰ محيط الدعاة أو المدعوين أو الميدان الدعوي ، كما في نماذج المضامين السابقة ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها مستنداً إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه ﷺ .



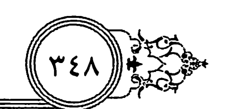


الفصل الثالث

بناء الداعية وتأهيليه

من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وفيه خمسة مباحث:





المبحث الأول : تعريف الداعية وبيان مفهوم التأهيل

أولاً : التعريف بالداعية :

الداعية لغة : مشتق من الدعوة ، والدعوة لغة : تأتي علىٰ عدة معانٍ منها : إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك ، والدعوة إلىٰ الطعام ، والنداء ، والحث علىٰ قصد الشيء[١] .

والدعوة في الاصطلاح جاءت علىٰ عدة تعريفات تدور علىٰ الإسلام ونشره بالقول والفعل بين الناس .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الدعوة إلىٰ الله هي الدعوة إلىٰ الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا وذلك يتضمن الدعوة إلىٰ الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، والدعوة إلىٰ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره ، والدعوة إلىٰ أن يعبد العبد ربه كأنه يراه . »[٢] .

والداعية في اللغة : الذي يدعو إلىٰ دين أو فكرة[٣] ، والدُّعاةُ قومٌ يَدْعُونَ إلىٰ

---

(١) انظر هذه المعاني في : « لسان العرب » (١٤ / ١٥٧-١٥٩) ، مادة (دعو) ، و« القاموس المحيط » (١٢٨٣) ، مادة (الدعاء) ، و« المعجم الوسيط » (١ / ٢٨٦-٢٨٧) ، مادة (دعا) .

(٢) « مجموع الفتاوىٰ » ، (١٥ / ١٥٧) ، وتقدَّم في التمهيد ، المطلب الأول : مفهوم الدعوة إلىٰ الله ، تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً .

(٣) « المعجم الوسيط » (١ / ٢٨٦) ، مادة (دعا) .

بيعة هُدىً أو ضلالة ، واحدُهم داعٍ ورجل داعِيةٌ إذا كان يَدْعُو الناس إلىٰ بدْعة أو دينٍ ، أُدْخِلَت الهاءُ فيه للمبالغة والنبي ﷺ داعي الله تعالىٰ وكذلك المُؤَذِّنُ ، وفي التهذيب المُؤَذِّنُ داعي الله ، والنبيّ ﷺ داعي الأُمَّةِ إلىٰ توحيدِ الله وطاعتهِ[١] .

إذن لفظ الداعية في أصله لفظ عام يشمل دعاة الحق ودعاة الباطل ، فكل من دعا إلىٰ أمر فهو داعية لغة ، سواء دعا إلىٰ خير أو إلىٰ شر ، ويشهد لهذا قول الله تعالىٰ عن المشركين : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة :٢٢١] وفي السنة ما يدل علىٰ ذلك ، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ومَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا »[٢] .

والمراد في هذا البحث الداعية إلىٰ الحق : وهو المبلِّغ للإسلام والمعلم له ، والساعي لتطبيقه[٣] .

ثانيـًا : مفهوم تأهيل الداعية .

اهتمت الشريعة الإسلامية بتأهيل الداعية التأهيل المناسب ؛ لتصنع منه شخصية قادرة علىٰ تحمُّل أعظم مسؤولية ووظيفة وهي وظيفة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، والمقصود بالتأهيل هو : النهج الشرعي الذي يحمل الداعية علىٰ القيام بوظيفة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وفق كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ ، ولعمر الله إن الداعية لا سيما في وقتنا المعاصر الذي ماجت في كثير من

---

(١) « لسان العرب » (١٤ / ١٥٧) ، مادة (دعا) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) .

(٣) « المدخل إلىٰ علم الدعوة »(٤٠) .

أصقاعه الفتن والمتغيِّرات- بحاجة أن يتعاهد نفسه بالترقي والتأهيل وفق هذا المنهج القويم الذي جاءت به النصوص ، وإن من أعظم ما ينبغي مراعاته في قضية تأهيل الداعية إلىٰ الله تعالىٰ أن تكون دعوته علىٰ علم وبصيرة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨] ، ففي الآية تأهيل للداعية وحثّه علىٰ المنهج العلمي القويم الرصين المبني علىٰ بصيرة ، ويقين وبرهان عقلي وشرعي[١] ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت علىٰ علم وبيان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

والداعية لا يكون علىٰ بصيرة إلا إذا دعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة في ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن يكون علىٰ بصيرة فيما يدعو إليه ، وذلك بالعلم لا بالجهل .

الأمر الثاني : أن يكون علىٰ بصيرة في حال المدعو ، فلا بد من معرفة حال المدعو ؛ ليدعوه بالطريقة والكيفية التي تناسبه ، وتكون أكثر فائدة له ، وتأثيرا فيه .

الأمر الثالث : أن يكون علىٰ بصيرة في كيفية الدعوة[٢] .

وعلىٰ الداعية أن يراعي في تأهيله الطرائق الشرعية التي أمر الله تعالىٰ بها في الدعوة إليه ، والموصلة إليه كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل :١٢٥] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يشمل الرسول ﷺ وغيره ، وقوله : ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ما هو سبيل الله؟ سبيل الله تعالىٰ شرعه ؛ لأنه طريق يوصل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ؛ ولأن الله تعالىٰ هو الذي شرعه فأضيف إليه ، فيكون الشرع مضافًا إلىٰ الله لوجهين : الوجه الأول : أنه موصل إلىٰ الله . والوجه

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٢ / ٤٩٦) .

(٢) انظر : « زاد الداعية إلىٰ الله » للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٧) .

الثاني: أنه هو الذي شرعه لعباده وبينه لهم حتىٰ يصلوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ »(١).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكرهم بها في تنزيله »(٢).

وللداعية في تأهيله جوانب عقدية وعلمية وأخلاقية وعملية ينبغي مراعاتها والأخذ بها، ليكتمل الجانب التأهيلي في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وتأهيل الداعية التأهيل الكامل إنما ينطلق من كتاب الله تعالىٰ، والامتثال لما فيه، ولذا كان استنباط الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للقرآن ما فيه غُنيَة للداعية للوصول إلىٰ شرف السيادة بحُسن التأهيل، يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة علىٰ جميع الخلق، ولهذا فإني أحثكم علىٰ أن تمسكوا بهذا القرآن العظيم، وإذا تمسكتم به عقيدة، وعملاً، وهدياً فستكون العاقبة لكم، ولا تظنوا أنكم قليلون لو كنتم قليلين- فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن ينجذب الناس للمهتدي به حتىٰ يكثروا شيئاً فشيئاً، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتىٰ يشمل اليم كله، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور علىٰ جميع الخلق »(٣).

والقارئ لتفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجد اهتمامه بهذا الجانب، وتخصيصه الدعاة بمزيد من التوجيه والتأهيل الذي ينبغي أن يكون عليه الداعية وفق المنهج الشرعي القويم، وهو ما سنتناوله في المباحث القادمة.

---

(١) مادة صوتية بعنوان: (من دروس وفتاوىٰ الحرم المدني لعام ١٤١٦هـ).

(٢) « جامع البيان » (١٤/ ٤٠٠).

(٣) « تفسير سورة يس » (٢٤٨-٢٤٩) عند تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[الزُّخرُف: ٤٤].

المبحث الثاني : التأهيل العقدي للداعية

العقيدة في اللغة[١] : من العَقْدِ ؛ وهو الرَّبطُ ، والإبرامُ ، والإحكامُ ، والتَّوثُقُ ، والشَدُّ بقوة ، والتماسُك ، والمراصةُ ، والإثباتُ ؛ ومنه اليقين والجزم ، والعَقْد نقيض الحل ، ويقال : عَقَده يعقِده عَقْدا ، ومنه عُقْدَة اليمين والنكاح ، قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة : ٨٩] والعقيدة : الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدىٰ معتقده ، والعقيدة في الدِّين ما يُقْصَدُ به الاعتقاد دون العمل ؛ كعقيدة وجود الله وبعث الرسل . والجمع : عقائد[٢] .

والعقيدة في الشرع[٣] : هي الإيمان الجازم بربوبية الله تعالىٰ وأُلوهيته وأسمائه وصفاته ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وسائر ما ثَبَتَ من أُمور الغيب ، وأصول الدِّين ، وما أجمع عليه السَّلف الصَّالح ، والتسليم التام لله تعالىٰ في الأمر ، والحكم ، والطاعة ، والاتباع لرسوله ﷺ - .

والعقيدة الإِسلاميَّة : إِذا أُطلقت فهي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة ؛ لأنَّها هي الإِسلام الذي ارتضاه الله دينا لعباده ، وهي عقيدة القرون الثلاثة المفضَّلة من

---

(١) الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة (١ / ٢٣) ، عبد الله بن عبد الحميد الأثري .

(٢) انظر مادة (عقد) في : « مختار الصحاح » (٢١٤) ، « لسان العرب » (٣ / ٢٩٦) ، « القاموس المحيط » (٣٠٠) .

(٣) « الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة » (١ / ٢٤) ، وانظر : « شرح العقيدة السفارينية » لشيخنا ابن عثيمين (١ / ٧٤) « شرح العقيدة الواسطية » لشيخنا (٥٠) .

الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .

وتأهيل الداعية التأهيل العقدي يأتي في أولويات تكوين الداعية وتأسيسه التأسيس الشرعي المؤصل ؛ لأن الداعية وارث الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم التي ابتدأوها بالدعوة إلىٰ التوحيد .

ولقد عني الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتأهيل العقدي وتضمَّنَ تفسيره مواطن عدَّة ، وحثَّ علىٰ ما ينبغي للداعية مراعاته في تأصيله العقدي ، كما سيأتي .

- المضامين الدعوية المتعلِّقة بالتأهيل العقدي للداعية .

أولاً : الإخلاص لله تعالىٰ ، والمتابعة لرسوله ﷺ ؛ لأن أهم ما ينبغي للداعية مراعاته في تعبده لله تعالىٰ بالدعوة شرطا العبادة : الإخلاص والمتابعة ، فبهما ينجو من غوائل الشرك وغياهب البدعة ، فالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ عبادة من أجل العبادات ، وأنفس ما ينبغي مراعاته روح العبادة بالإخلاص لله تعالىٰ ، وحُسْنُها بالمتابعة للنبي ﷺ .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وإذا كانت جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين : أن يراد بها وجه الله ؛ وأن تكون موافقة للشريعة . فهذا في الأقوال والأفعال ؛ في الكلم الطيب ؛ والعمل الصالح ؛ في الأمور العلمية والأمور العبادية »[1] .

والنصوص في بيان شرطية الإخلاص والمتابعة كثيرة ، قال تعالىٰ : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف : ١١٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء : ١٢٥] ، وقال تعالىٰ :

---

(١) « مجموع الفتاوىٰ » (٢٨ / ١٧١) .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك :٢] .

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ، ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتىٰ يكون خالصا صوابا ، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان علىٰ السنة ».

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذين الأمرين في التأهيل العقدي ؛ لأن بهما يتحقق التوحيد فقال : « وبالجملة فمَعَنَا أصلان عظيمان أحدهما : أن لا نعبد إلا الله . والثاني : أن لا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بعبادة مبتدعة . وهذان الأصلان هما تحقيق » شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله « كما قال تعالىٰ : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ »(١) .

وإذا كان قبول عمل العبد مرهون علىٰ تحقق هذين الأصلين ، فإن الداعية أولىٰ الناس اهتماما بهذين الأصلين لأنه من حملة أمانة الدين وتبليغه إلىٰ عباد الله تعالىٰ ، فلابد له من نية صالحة خالصة ، ولذا استفتح البخاري صحيحه بقول ﷺ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوىٰ ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »(٢) .

وفي صحيح مسلم ، ذكر رسول الله ﷺ أول من تُسعَّر بهم النار ثلاثة ، ومنهم : « رَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ ، وعَلَّمَهُ وقَرَأ القُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قال : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال : تَعَلَّمْتُ العِلْمَ ، وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ ، قال : كَذَبْتَ ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ : هُو قَارِئٌ ،

---

(١) « مدارج السالكين » (١ / ١٠٤) و « التفسير القيم » كلاهما لابن القيم (٧٨) .

(٢) « مجموع الفتاوىٰ » (١ / ٣٣٣) .

فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وجْهِهِ حَتَّىٰ القِيَ فِي النَّارِ »(١).

فلم ينفعه تبليغه للعلم مع اجتهاده في ذلك؛ بل عوقب بنقيض المرتبة المأمولة لأهل العلم؛ لأنه ناقض نيته وإخلاصه لله تعالىٰ فصار من أوائل من تُسعر بهم النار.

ودلَّت علىٰ المتابعة لرسول الله ﷺ نصوص كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفتح: ١٧].

وعن عائشة قالت: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُو رَدٌّ »(٢)، ولمسلم: « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ »(٣).

وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول النبي ﷺ في خطبة الجمعة: « أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وخَيْرُ الهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ، وشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ »(٤).

وعن العِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: « ... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وإِيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ

---

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٤) أخرجه مسلم (١٧١٨).

مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ »(1) .

ومن المضامين الدعوية في أهمية أصْلَي الإخلاص والمتابعة في التأهيل العقدي للداعية ، ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره ، حيث قال : « إن الإنسان إذا وثق بنفسه لما معه من تقوىٰ الله والإحسان في عبادة الله ، فليبشر بأن الله تعالىٰ معه وأن الله ناصره ، ثم ليُعلم أنه ليس من الضروري أن ينصر الإنسان في حياته ، بل إذا نصر ما يدعو إليه بعد موته فهو انتصار له بلا شك ، ولهذا نحن نؤمن بأن انتصار الصحابة بفتحهم مشارق الأرض ومغاربها انتصاراً للرسول ﷺ ، فمن قام بالدعوة إلىٰ الله مخلصاً لله متبعاً لشريعة الله ثم مات أو قتل ، لكن بقيت الدعوة وانتصر بها من بعده ، فهو في الحقيقة انتصار له ، فيصدق قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل :١٢٨] »(2) .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلىٰ :١٤] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « ﴿تَزَكَّىٰ﴾ يعني تطهَّر ظاهره وباطنه ، يتزكىٰ أولاً من الشرك بالنسبة لمعاملة الله ، فيعبد الله مخلصاً له الدين ، لا يرائي ، ولا يسمع ، ولا يطلب جاهاً ، ولا رئاسة فيما يتعبد به الله عَزَّوَجَلَّ ، وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة ، تزكىٰ في اتباع الرسول ﷺ بحيث لا يبتدع في شريعته لا بقليل ولا كثير ، لا في الاعتقاد ، ولا في الأقوال ولا في الأفعال ، وهذا أعني التزكي بالنسبة للرسول (، وهو اتباعه من غير ابتداع لا ينطبق تماماً إلا علىٰ الطريقة السلفية طريقة أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه ، أو علىٰ لسان رسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- ، علىٰ الطريقة السلفية الذين لا يبتدعون

---

(1) أخرجه مسلم (٨٦٧) .

(2) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٢) ، وصححه الألباني في« صحيح أبي داود » (٤٦٠٧) .

في العبادات القولية ، ولا في العبادات الفعلية شيئاً في دين الله ، تجدهم يتبعون ما جاء به الشرع »(١) .

وعند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم :٤٢] قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي : المنتهىٰ في أمور الدين والدنيا ، فإلىٰ الله المنتهىٰ في مسائل العلم ، فعندما تشكل علينا مسألة من مسائل العلم فننتهي إلىٰ الله ورسوله ، كما قال تعالىٰ : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء :٥٩] والنبي ﷺ لا يقول شيئاً من عنده ، إنما هو من عند الله عَزَّوَجَلَّ فيكون المنتهىٰ إلىٰ الله في الحكم بين الناس وفي الحكم للناس »(٢) .

وفي تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران :٥٢] ، قال : « من فوائد الآية : أنه إذا اشتبه الأمر فينبغي أن ينادي الداعية بالإخلاص فيقول : من المخلص؟ أي : أن ينتدب الصفوة من القوم ؛ لقوله : ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، فهو لما رأىٰ أن القوم تمردوا وأحس منهم الكفر وظهر ؛ انتدب من يرىٰ أنه من صفوتهم »(٣) .

وبيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المداخل الخفية علىٰ النفس التي يشوبها منازعة الإخلاص لله تعالىٰ عند الدعاة ، ومن ذلك قوله : « لو قال قائل : أحياناً يجد الإنسان انشراحاً في العبادة أكثر من طلب العلم والقراءة؟

الجواب : السبب في ذلك : لأن إخلاصنا في طلب العلم فيه شيء من الخدوش ، وإلا لو شعرنا أننا نطلب العلم ونحن مجاهدون في سبيل الله ،

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٨٢) .

(٢) « تفسير جزء عم » سورة الأعلىٰ (١٦٧) .

(٣) « تفسير سورة النجم » (٢٤٧) .

لصارت صدورنا أشد انشراحاً ، لكن مع الأسف أن كثيراً من طلاب العلم يقصدون بالعلم أو بطلب العلم التوسع في طلب العلم فقط ، وهذا لا شك أنه نقص ، أنا أقول : طالب العلم يجب أن يقصد بطلب العلم نصرة هذا الدين ، وحماية هذا الدين من أعدائه وبهذا ينشرح صدره ، ولهذا تجد الإنسان إذا لاحظ هذا الملحظ ، إذا فهم مسألة من مسائل العلم رآها غنيمة ، درة غواص لا يمكن أن يفرط فيها إطلاقاً »[1] .

وإذا تحوَّلت النيَّة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ من نصرة الحق إلىٰ نصرة النفس ، ذهب الإخلاص واشتغل القلب بما لا يرضي الله تعالىٰ ، وهذا ما نبَّه عليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[آل عمران :٦٩] ، قال : « يقول عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني بمحاولتهم وودهم هذا لا يضلون إلا أنفسهم ، المعروف عند أكثر المفسرين أن المعنىٰ : وما يهلكون إلا أنفسهم ، وذلك لأنهم إذا تمنوا لكم الضلال أثموا علىٰ ذلك فصاروا هم كالضالين . وقيل : بل المعنىٰ : ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ أنهم إذا اشتغلوا بمحاولة إضلالكم اشتغلوا عما فيه هداهم ، كما هو الواقع أن الإنسان إذا أراد أن يرد الحق ، وأن يضل غيره اشتغل بمحاولة إضلال غيره عن محاولة هداية نفسه ، فيكون المعنىٰ : وما يضلون إلا أنفسهم لأنهم اشتغلوا بمحاولة إضلالهم إياكم عن طلب هدايتهم ؛ لأن العادة أن الإنسان إذا اشتغل بمحاولة إضلال غيره تجده يطرق كل باب ويسلك كل طريق يحاول به إضلال الغير وينسىٰ نفسه . وهذا واقع كثيراً ، حتىٰ بين طلبة العلم أحياناً ، يريد الإنسان أن ينتصر لنفسه ولقوله ، ولو كان علىٰ خطأ ، فتجده يحاول أن يلتمس الأعذار والتحريفات والتأويلات

---

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٣٠٧) .

وصرف النصوص عن ظاهرها من أجل أن توافق قوله، وينسىٰ أن يكون الواجب عليه إذا عورض أن يطلب الحق، وأن يراجع نفسه، لعل الصواب مع غيره. كما يقع كثيراً عندما يختار الإنسان قولاً أو يقول قولاً ثم يراجع فيه فيتبين له أن الصواب خلاف ما كان يعتقده أولاً »[1].

ثانيًا: من تأهيل الداعية عقديًا اعتزازه بعقيدته ودينه؛ لأن غرس كلمة التوحيد ومقضياتها ونيل الشرف والرفعة بها، أهم ما ينبغي مراعاته في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾[البقرة: ١٣٩].

« ومن فوائد الآية وأحكامها: أنه ينبغي للمؤمن أن يكون له قوة شخصية يعتز بها في دينه وفي شرعه وفي منهاجه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ »[2].

ثالثًا: مما ينبغي أن يراعيه الداعية في تأهيله العقدي، أن تكون العقيدة هي أول اهتماماته الدعوية، كما هو هدي الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦]، وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص: ٥]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من فوائد هذه الآية: وجوب تقديم الأهم فالأهم في الدعوة إلىٰ الله؛ لأن الرسول ﷺ أول ما دعا هؤلاء إلىٰ التوحيد، لم يقل: صلّوا ولا زكّوا ولا صوموا ولا حجّوا، بل دعاهم إلىٰ التوحيد، وهذا هو شأن القرآن، وهذا هو شأن سنة الرسول ﷺ العملية،

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (١/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١/ ٣٩٩).

فإنه لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن أمره أن يدعوهم أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[1] »[2] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٤٠] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية وأحكامها : وجوب نشر الإنسان ما علَّمه الله عَزَّوَجَلَّ من العلم لا سيما في أعظم الأمور وهو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ »[3] .

ويؤكد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية نشر العقيدة لما يتحتمه واقع الأمة الإسلامية اليوم من الوقوع في أنواع الشرك ، وفشوِّ الجهل في ذلك قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والعجب أنه يوجد من المسلمين مَنْ يؤمن بأن الله في كل مكان نسأل الله العافية–ولا أدري كيف يستسيغ الإنسان أن يقول : إن الله في كل مكان ، وهو يعرف أنه سوف يدخل المرحاض وبيت الخلاء ، فهل يمكن لإنسان عنده مسكة عقل أن يعتقد مثل هذا ، لا والله ، لكن ختم الله علىٰ قلوبهم وعلىٰ سمعهم وعلىٰ أبصارهم غشاوة ، فلا يهتدون ، نسأل الله العافية .

فالواجب علىٰ طلبة العلم نشر العقيدة الصحيحة حول هذا الموضوع

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٧٢) .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦) ، ومسلم (١٩) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بن جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَىٰ اليَمَنِ : « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ ، فَادْعُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَإِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ واتَّقِ دَعْوةَ المَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ » .

(٣) « تفسير سورة ص » (٣٢) .

المهم، أنا أخشىٰ إن لاقىٰ الإنسان ربه علىٰ هذه العقيدة أن لا يتولاه الله، ولا يكلمه الله؛ لأنها عقيدة من أبطل العقائد والعياذ بالله ومع ذلك فهي موجودة، كما أحسسنا بذلك في دروس الحرم، حتىٰ إن الواحد من الناس لو قلت له: أين الله؟ قال بلا تردد: في كل مكان، وكأنه شيء ثابت عنده، ولهذا يجب علىٰ طلاب العلم أن يعتنوا بهذه المسألة.

نحن في بلادنا والحمد لله لا نعرف هذه العقيدة الباطلة، ولا يمكن أن يدور في فكر أي إنسان أن الله في كل مكان، لكن في بعض البلدان التي أشربت عقيدة الضلال والعياذ بالله- وصاروا يقرؤونها في الكتب ويتعلمونها صغاراً، ويشيخون عليها كباراً هم الذين تأثروا بها، فعلينا أن نعتني بهذه المسألة وبغيرها من المسائل التي شاعت في العالم الإسلامي، وهي خلاف الصواب»[1].

رابعـًا: الإيمان وعلاقته بتكوين الداعية في استقامته وتعليمه وولاية الله تعالىٰ له، والإيمان من أبرز ركائز الاعتقاد، ولذا كان تأثيره علىٰ الداعية عظيمـًا إن هو حقق الإيمان كما يجب، وفي بيان هذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]: «في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

- بشرىٰ للمؤمنين: أن الله تعالىٰ وليُّهم لقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولو لم يكن من آثار الإيمان إلا هذا لكفىٰ أن يتولاك الله في الدنيا والآخرة.

- أن الإيمان سبب للعلم وسبب للاستقامة، لقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾»[2].

---

(١) «أحكام من القرآن الكريم» (٢/ ٣٧٥).

(٢) «تفسير سورة المائدة» (٢/ ٢٥٤-٢٥٥).

وعند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد :٢٨] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ ، أي : أنكم إذا آمنتم وحققتم الإيمان مع التقوىٰ يثبكم ثوابين (ويجعل لكم نوراً تمشون به) أي : علماً تسيرون به إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ بصيرة ، وفي هذا دليل علىٰ أن التقوىٰ من أسباب حصول العلم ، وما أكثر الذين ينشدون العلم ، وينشدون الحفظ ، ويطلبون الفهم ، فنقول : إن تحصيله يسير ، وذلك بتقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وتحقيق الإيمان ، الذي هو موجب العلم ، فاعمل بما علمت يحصل لك علم ما لم تعلم ، فتقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من أسباب زيادة العلم ولا شك ، ولهذا قال : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ أي : تسيرون به ، أي : بسببه سيراً صحيحاً يوصلكم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ »(١) .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [النساء :١٦٢] ، قال : « من فوائد الآية : أن العلم سبب للإيمان ، لقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولا شك أنه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد إيماناً وبصيرة بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ ، فعليك بالعلم واحذر الشبهات والجدال . قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : « ما أوتي قوم الجدل إلا ضلوا »(٢) ، ولهذا نجد أن أهدىٰ الناس طريقاً ، وأقلهم تكلفاً هم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ؛ لأن الجدال عندهم قليل ، ولا يلجأون إليه إلا عند الضرورة ، أما كون الإنسان كلما فهم مسألة ذهب يورد فيها علىٰ قلبه أو علىٰ غيره ما لا يكون وارداً ، فهذا من التكلف

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٦١) .

(٢) « تفسير سورة الحديد » (٤٣٠) .

والتنطع، وهو سبب للحرمان»[1].

خامسًا: الحث على قرن الاعتقاد والإيمان بالعمل الصالح، وأن العقيدة المجرَّدة عن العمل لا تنفع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾[البروج: ١١]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير الآية: «المهم أن الله اشترط مع الإيمان العمل الصالح، وبهذا نعرف أنه لا ينبغي لنا أن نركز دائمًا على العقيدة، ونقول: نحن على العقيدة الإسلامية وعلى كذا، وعلى كذا، ولا نذكر العمل؛ لأن مجرد العقيدة لا يكفي لابد من عمل، فينبغي عندما تذكر أننا على العقيدة الإسلامية ينبغي أن تقول ونعمل العمل الصالح؛ لأن الله يقرن دائمًا بين الإيمان المتضمن للعقيدة وبين العمل الصالح، حتى لا يخلو الإنسان من عمل صالح، أما مجرد العقيدة فلا ينفع، لو أن الإنسان يقول أنا مؤمن بالله لكن لا يعمل فأين الإيمان بالله؟»[2].

سادسًا: العناية بما عقد عليه القلب من أعمال القلوب، ذلك أن الاعتقاد ركيزة قلبية مقترنة بالعمل، وينبغي للداعية أن يعتني بقلبه قبل اعتنائه بأعمال الجوارح التي تتطلبها دعوته، ومن ذلك قوة التعلُّق بالله تعالى ورجاؤه، وكلما كان الداعية متعلِّقًا بالله تعالى ازدانت دعوته بما يرضي الله تعالى وكتب له التوفيق والسداد في الدعوة، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأنعام: ١٧]:

---

(١) وفي الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨) من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلا أُوتُوا الجَدَلَ» وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وحسنه الألباني «صحيح الجامع الصغير» (٢/ ٩٨٤) (٥٦٣٣).

(٢) «تفسير سورة النساء» (٢/ ٤٧٥).

« الفائدة الأولىٰ : أنه ينبغي للإنسان أن يعلق رجاءه بالله عَزَّوَجَلَّ ؛ لأنه إذا علم بمضمون هذه الآية فسوف يعتمد في أموره كلها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ .

الفائدة الثانية : تقوية النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- في الدعوة إلىٰ الله ، وأنه مهما حاول هؤلاء أن يصيبوه بضرر فإنهم لا يملكون ذلك إذا لم يكن الله أراده »[١]

وفي تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق :٩] حثٌّ علىٰ الاهتمام بالقلب ، حيث قال : « ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي تختبر وهذا كقوله : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۞ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات :٩-١٠] ولهذا يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمل الجوارح ، عمل الجوارح علامة ظاهرة ، لكن عمل القلب هو الذي عليه المدار ، ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم - يعني أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة لكن قلوبهم خالية والعياذ بالله - لا يتجاوز الإسلام حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية »[٢] ، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة ولا صوم ، وإنما سبقهم بما وقر في قلبه من الإيمان »[٣] والإيمان إذا وقر في القلب حمل الإنسان علىٰ العمل ، لكن العمل الظاهر قد لا يحمل الإنسان علىٰ إصلاح قلبه ، فعلينا أن نعتني بقلوبنا وأعمالها ، وعقائدها ، واتجاهاتها ، وإصلاحها وتخليصها من شوائب الشرك والبدع ، والحقد والبغضاء ، وكراهة

---

(١) « تفسير جزء عم » سورة البروج (١٣٥) .

(٢) « تفسير سورة الأنعام » (٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

ما أنزل الله علىٰ رسوله وكراهة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ، وغير ذلك مما يجب تنزيه القلب عنه »[١] .

من خلال هذه المضامين نستنتج أن أبرزها في تأهيل الداعية عقدياً وأهمها وأوَّلها هو الإخلاص لله تعالىٰ الذي ينفي عن صاحبه الشرك بالله تعالىٰ ، ثم المتابعة التي تخلِّصه من ظلمات البدع ، وبالإخلاص والمتابعة يتحقق تمام الاتباع والسير علىٰ النهج العقدي القويم ، فإذا تحقق ذلك للداعية حافظ علىٰ رأس التأهيل وهو صواب الاعتقاد- واعتزَّ به واهتمَّ له ودعا إليه ، فتكونت لديه شخصية عقدية قوية لا تلوِّثها الظنون ومواطن زعزعة الاعتقاد ؛ لأنه يعتقدها علىٰ نهج قويم أساسه الكتاب والسنة ، مخلصاً لله تعالىٰ متبعاً لسنة النبي ﷺ ، فيتحصل له الإيمان العظيم بسبب سلامة اعتقاده ، ثم هو يقرن إيمانه وما عقد عليه قلبه بالعمل الصالح ؛ لأن عمل الجوارح ركن في سلامة الاعتقاد وبنائه البناء الصحيح ، والذي يتطلب قوة تعلُّق القلب بالله تعالىٰ ورجائه وحسن اللجوء إليه جل وعلا ؛ ليحقق الداعية معيَّة الله تعالىٰ له ، وتوفيقه وامتنانه ، وليكن أداة فاعلة في مجتمعه يدعوهم إلىٰ العقيدة الصحيحة ، وكم يحتاج الناس لداعية ذي تأهيل عقدي قويم ، يذود عن عقيدته وينشرها في مجتمعه ،

---

(١) المشهور في هذا الأثر عن بكر بن عبدالله المزني كما نقله السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٥٨٤) ، قال بكر بن عبدالله المزني : « مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ ولا صَلاةٍ ، ولَكِنْ بشَيْءٍ وقَرَ فِي قَلْبِهِ » ، وكذا ذكره الألباني في « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (٢ / ٣٧٨) ، حيث قال : « لا أصل له مرفوعاً ، قال الحافظ العراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ٣٠ و ١٠٥) : رواه الترمذي الحكيم في « النوادر » من قول بكر بن عبد الله المزني ، ولم أجده مرفوعاً . وأقرَّه الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٩٧٠) ، ونقله عن بكر بن عبدالله بنفس لفظ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وابن تيمية في « منهاج السنة النبوية » (٦ / ٢٢٣) ، وكذلك ابن القيم في « مفتاح دار السعادة » (١ / ٨٢) .

ويصحح الضلالات التي عمَّت في بعض ميادين الأمة، والتي سببها سوء الاعتقاد والبعد عن منهاج الكتاب والسنة، فيخلِّصها من كل شائبة؛ لأن بالعقيدة الصحيحة صلاح دين العبد في الدنيا والآخرة، فعلىٰ الدعاة حِمْلٌ ثقيلٌ، ومسؤولية كبيرة، وأمانة عظيمة في تأهيل أنفسهم التأهيل العقدي الذي يريده الله تعالىٰ لهم، ودعوة الأمة إلىٰ التوحيد الخالص لله تعالىٰ، والتحذير من كل ما من شأنه أن يُخلَّ بالاعتقاد قلبيًّا كان أو قوليـًا أو عمليـًا؛ لينفوا عن الأمة ضلالات الشرك وخزعبلات البدع التي فتكت ببعض الشعوب حتىٰ ظنَّوا الباطل حقـًا، والشرك عقيدة صحيحة.



المبحث الثالث : التأهيل العلمي للداعية

يعتبر العلم أهم ركيزة يعتني بها الداعية ، وهي أداته التي يدعو بها ، فلا تصح دعوة بلا علم ، بل الدعوة بلا علم يترتب عليها من الأثر السلبي والعواقب الوخيمة التي أشنعها القول على الله بلا علم كما سيأتي– ، قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[محمد :١٩] ، بوَّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ هذه الآية بـــ (باب : العلم قبل القول والعمل)[1] ، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قال ابن المنير : أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما ؛ لأنه مصحح للنية المصححة »[2] .

ولقد تضافرت نصوص كثيرة في بيان فضل العلم منها قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّمَر :٩] ، وقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر :٢٨] ، وقال : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة :١١] ، وأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ بالاستزادة منه فقال : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه :١١٤] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله تعالىٰ : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ [الواقعة :٣] يعني هي خافضة رافعة ، أي : يخفض فيها الناس ويرفع فيها آخرون . ولكن من الذي يرفع؟ قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ فأهل العلم والإيمان هم الذين لهم الرفعة في الدنيا والآخرة ، ومن

---

(١) « تفسير جزء عم » سورة الطارق (١٤٩ ، ١٥٠) .

(٢) « صحيح البخاري » (١ / ٢٤) .

سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان والعلم، وتخفض أهل الجهل والعصيان»[١].

وفي سنة النبي ﷺ من النصوص ما يستحث المسلم علىٰ أن يكون من أهل العلم، ومن ذلك قوله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[٢]، وقوله: «ومَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ»[٣]، وقوله: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الهُدَىٰ، والعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وسَقَوْا ورَعَوْا، وأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، ولَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، ونَفَعَهُ بمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذَلِكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[٤].

- المضامين الدعوية في التأهيل العلمي للداعية.

جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الضوابط المهمة التي تساعد في تكوين الداعية وتأهيله علميًّا، استنباطًا من آيات القرآن الكريم، ومما ذكره الشيخ ما يلي:

أولاً: النية الصالحة في العلم، والنية الصالحة وإن كان تقدَّم الكلام علىٰ الإخلاص في التأهيل العقدي، إلا أن مراعاة النية علىٰ وجه الخصوص في

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٦٠).

(٢) «تفسير سورة الواقعة» (٣٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

العلم دلت عليه النصوص ، والتي تبيِّن أن من أخلَّ بجانب النية الصالحة في العلم فقد تعرَّض للوعيد الشديد ، والخوف من عدم الإخلاص في العلم هو دأب السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ، قال الذهبي : « قال عون بن عمارة : سمعت هشام الدستوائي يقول : والله ما أستطيع أن أقول إني ذهبت يوما قط أطلب الحديث ، أريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ .

قلت - أي الذهبي - : والله ولا أنا ، فقد كان السلف يطلبون العلم لله ، فنبلوا ، وصاروا أئمة يقتدىٰ بهم ، وطلبه قوم منهم أولا لا لله ، وحصلوه ، ثم استفاقوا ، وحاسبوا أنفسهم ، فجرهم العلم إلىٰ الإخلاص في أثناء الطريق ، كما قال مجاهد ، وغيره : طلبنا هذا العلم ، وما لنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله النية بعد »[١] .

ومن قرأ في كتب السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ علىٰ مرِّ العصور علم أهمية هذا الأمر عليهم من نقلهم لمواقف لهم وحثِّهم لغيرهم علىٰ الإخلاص ، ومن أولئك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾[البقرة :٤١] حيث قال : « من فوائد هذه الآية الكريمة : أنه لا يجوز طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا ؛ لأن طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا نوع من الاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً ؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « من طلب علماً وهو مما يبتغىٰ به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عَرَضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة »[٢] »[٣] .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » للذهبي (٧/ ١٥٢) .

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٢) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يَتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا ، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ » يَعْنِي رِيحَهَا . قال الحاكم : هذا حديث صحيح سنده ، ثقات رواته علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه . « المستدرك » (١/ ١٦٠) ، وصححه=

ثانيًا : استشعار أهمية العلم ، من لوازم تأهيل الداعية علميًّا ؛ لأن معرفة ثمنية أي شيء لا تكون إلا بإدراك أهميته ، والداعية إذا استشعر أهمية العلم وحاجة المدعوين للداعية العالم ، كان ذلك دافعًا للحرص علىٰ طلب العلم والاجتهاد فيه ، والبعد عن منازل المغضوب عليهم والضالين ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة :٧] : « ينبغي للإنسان أن يتعلم ؛ حتىٰ لا يكون من الضالين ، وأن يتعبد حتىٰ لا يكون من المغضوب عليهم ، وطلب العلم قد يكون فرضًا علىٰ الأعيان ، وقد يكون فرضًا علىٰ الكفاية ، وقد يكون مستحبًا ، فهو فرض علىٰ الأعيان في كل ما يتوقف عليه العلم بالعبادة التي يتعبد بها الإنسان ، فالطهور والصلاة يجب علىٰ الإنسان أن يتعلم منهما ما يحصل به الواجب ، وكذلك الأمر في الصيام ، وكذلك في الحج ، وكذلك في الزكاة ، وفرض علىٰ الكفاية فيما لا يتعيَّن علىٰ الإنسان العمل به ، فتعلمُهُ فرض كفاية إذا قام به من يكفي ؛ لأنه في هذه الحالة يسقط عن الباقين .

وأما القسم الثالث وهو السنة ، فهو ما يكون فرض كفاية ، إذا قام به من يكفي فإنه يكون سنة في حق الباقين .

وإنني بهذه المناسبة- أحث إخواني ولا سيما الشباب منهم علىٰ أن يحرصوا علىٰ العلم الشرعي ؛ لأن الناس الآن في حاجة ماسة بل في ضرورة إليه ؛ لكثرة الجهل الجهل البسيط والجهل المركب- ؛ لأن كثيراً من الناس لا علم عندهم ، وكثير من الناس عندهم علمٌ لكن ليس عندهم فهم »[1] .

= الألباني« صحيح الجامع الصغير » (٢/ ١٠٦٠) رقم (٦١٥٩) .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١/ ١٤٢) .

وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[البقرة: ٩٠]، قال: « من فوائدها: بيان أن العلم الذي يهبه الله تعالىٰ للشخص في شريعة الله من فضله، بل هو أعظم فضل يمن الله به علىٰ العبد بعد هدايته لدينه أن يرزقه الله تعالىٰ العلم، والعلم أفضل من المال؛ لما فيه من النفع الكثير الواسع، وقد جاءت آيات كثيرة، بل وأحاديث كثيرة تدل علىٰ بيان فضل العلم، وأنه أعظم نعمة مَنَّ الله بها علىٰ العبد »[1].

وأهم ما يتعلمه الداعية من العلم ويبدأ به هو كتاب الله تعالىٰ، فهو أساس كل علم مقرِّبٍ إلىٰ الله تعالىٰ، نافعٍ في الأمة، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨]: « من فوائد الآية: الحث علىٰ تعلُّم معاني كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٣-٣٤)، وفي « مجموع فتاويه ورسائله » (٢٦ / ٣٣١ ٣٣٢)، بيَّن أهمية العلم وأنه لا تعارض بينها وبين الدعوة، فقال: « ومن ظن أنه لا يمكن الجمع بين العلم والدعوة فقد أخطأ، فن الإنسان يمكنه أن يتعلم ويدعو أهله وجيرانه وأهل حارته وأهل بلدته وهو في طلب العلم.

والناس اليوم في حاجة بل في ضرورة إلىٰ طلب العلم الراسخ المتمكن في النفوس المبني علىٰ الأصول الشرعية، وأما العلم السطحي الذي يعرف الإنسان به شيئًا من المسائل التي يتلقاها كما يتلقاها العامة دون معرفة لأصولها وما بنيت عليه فإنه علم قاصر جدًا لا يمكن الإنسان به من الدفاع عن الحق وقت الضرورة وجدال المبطلين.

فالذي أنصح به شباب المسلمين أن يكرسوا جهودهم لطلب العلم مع القيام بالدعوة إلىٰ الله بقدر استطاعتهم، وعلىٰ وجه لا يصدهم عن طلب العلم؛ لأن طلب العلم جهاد في سبيل الله تعالىٰ، ولهذا قال أهل العلم: إذا تفرغ شخص قادر علىٰ التكسب من أجل طلب العلم فإنه يعطىٰ من الزكاة؛ لأن ذلك من الجهاد في سبيل الله، بخلاف ما إذا تفرغ للعبادة، فإنه لا يعطىٰ من الزكاة، لأنه قادر علىٰ التكسب » ا.هـ.

فقد كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين يقرؤون القرآن لا يتجاوزون عشر آيات حتىٰ يتعلموها وما فيها من العلم والعمل ؛ فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعًا .

– ومن فوائدها : الحثُّ علىٰ فهم كتاب الله ، وأنه ينبغي للإنسان أن يتعلم معاني الكتاب كما يتعلم لفظه ، وأن من المؤسف أن واقع أكثر المسلمين اليوم علىٰ غير هذا المنهج ؛ أي : أنهم يقرءون القرآن للتعبد بلفظه فقط ، دون أن يفهموا معناه ، أو أن يطبقوا أحكامه ، وهذا بلا شك قصور عظيم ؛ ولذلك ظهر أثر هذا علىٰ المسلمين ؛ حيث تخلفوا كثيرا عما كان عليه السلف الصالح من تطبيق القرآن لفظًا ومعنىً وعملاً ، ففاتهم بذلك خير كثير »[1] .

ثالثًا : اقتران الدعوة إلىٰ الله بالعلم والبصيرة ، وهذا من الأسس المهمة

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٥٢) ، وذكر الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ نحو هذه المقارنة بين العلم والمال في تفسيره لسورة الصافات (٢٦٥) .

ولابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ كلام جميل في المقارنة بين العلم والمال في « مفتاح دار السعادة » (١ / ١٢٩) ، حيث قال : وفضل العلم علىٰ المَال يعلم من وُجُوه : أحدها أن العلم مِيرَاث الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ والمَال مِيرَاث المُلُوك والأغنياء ، والثَّانِي : أن العلم يحرس صَاحبه ، وصَاحب المَال يحرس مَاله ، والثَّالِث : أن المَال تذهبه النَّفَقَات والعلم يزكوا علىٰ النَّفَقَة ، الرَّابِع : أن صَاحب المَال إِذا مَاتَ فَارقه مَاله ، والعلم يدْخل مَعَه قَبره ، الخَامِس : أن العلم حَاكم علىٰ المَال والمَال لا يحكم علىٰ العلم ، السَّادِس : أن المَال يحصل لِلْمُؤمنِ والكَافِر والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل الا لِلْمُؤمنِ ، السَّابِع : أن العَالم يحْتَاج اليه المُلُوك فَمن دونهم ، وصَاحب المَال إِنَّمَا يحْتَاج إليه أهل العَدَم والفاقة ، الثَّامِن : أن النَّفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها ، والمَال يزكيها ولا يكمله ولا يزيدها صفة كَمَال بل النَّفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عَلَيْهِ ، فحرصها علىٰ العلم عين كمالها ، وحرصها علىٰ المَال عين نَقصهَا ، التَّاسِع : أن المَال يدعوها الىٰ الطغيان والفَخْر والخُيَلَاء ، والعلم يدعوها إِلَىٰ التوضع والقِيَام بالعبودية ، فَالمَال يدعوها الىٰ صِفَات المُلُوك ، والعلم يدعوها الىٰ صِفَات العبيد ، العَاشِر : ان العلم جاذب موصل لَهَا الىٰ سعادتها الَّتِي خلقت لَهَا ، والمَال حجاب بَينهَا وبَينهَا ... » وذكر أكثر من ثلاثين وجهًا لهذه المقارنة .

التي ينبني عليها تأهيل الداعية، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ففي الآية تأهيل للداعية وحثِّه على لمنهج العلمي القويم الرصين المبني على بصيرة، ويقين وبرهان عقلي وشرعي[١]، وكم جرَّت دعوة الداعية بلا علم من ويلات على الأمة أفرادا ومجتمعات، ومفاسد ذلك كثيرة شاهدة للعيان، ولذا جاء التحذير من ذلك كما سيأتي بيانه-، وقد أمرنا الله تعالى باتباع من اهتدى بنور العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢١-٢٢]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على بصيرة وعلى علم؛ لأن هذا هو وصف الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فهم يدعون إلى الله على هدى منه، وأما من يدعو على غير هدى فإنه قد يفسد أكثر مما يصلح؛ لأن الذي يدعو على غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالاً، والحلال حراماً وهو لا يدري، فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة ...

ومنها: أنه من كمال الدعوة والتسليم قرن الحكم بدليله، أو علته؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإن هذا كتعليل لقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾»[٢].

وإن من الدعوة على علم وبصيرة السير على أصول الدعوة وضوابطها التي جاءت بها النصوص، وأهم ما ينبغي أن يتبصَّر به الداعية من ذلك فقه وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضوابطاً لهذه الشعيرة التي هي من ركائز عمل الداعية، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٩٦)، وتقدَّم في أول هذا الفصل بيان كيف يكون الداعية على بصيرة من كلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) «تفسير سورة يس» (٧٩).

مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران :١٠٤] ، حيث قال : « من فوائد الآية : أنه لا بد من العلم يعني الحث علىٰ العلم ؛ لأنه لا يمكن أن يدعو إلىٰ الخير من لا يعلم الخير ، ولا يمكن أن يأمر بالمعروف من لا يعرف المعروف ، ولا يمكن أن ينهىٰ عن المنكر من لا يعرف المنكر ، فلا بد من العلم ، فيستفاد من هذه الآية الكريمة الحث علىٰ العلم ؛ لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

- **ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يلي :**

الشرط الأول : العلم بالشرع ، والعلم بالحال ، العلم بالشرع بأن أعرف أن هذا مما أمر الله به حتىٰ آمر به ، أما إذا كنت لا أدري هل هو مأمور به أو لا ؛ فلا يحل لي أن آمر به ؛ لأن الله يقول : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف :٣٣] ، ويقول عَزَّوَجَلَّ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء :٣٦] .

والعلم بالحال بأن أعلم أن هذا الرجل ترك المعروف أو فعل المنكر ، أما أن آمره بالمعروف وأنا لا أدري هل فعله أو لا ، فهذا لا يجوز ؛ لأن هذا من قَفْوِ ما ليس لي به علم ، وكذلك لو نهيته عن منكر وأنا لا أدري هل ارتكب المنكر أو لا ، فإن ذلك لا يجوز ؛ لأنه من قَفْوِ ما ليس لي به علم ...

الشرط الثاني : أن لا يتغير المنكر إلىٰ ما هو أنكر منه ؛ لأن النهي عن المنكر يُراد به تقليل المنكر ، فإذا كان يترتب عليه أن يقع المنهي عن المنكر في منكر أعظم ؛ فإنه لا ينهىٰ عنه ...

الشرط الثالث : أن يعلم أن هذا مفيد ، بمعنىٰ أنه يحتمل عنده أن هذا الفاعل للمنكر أو التارك للواجب كان علىٰ جهل ، وأنه قريب الرجوع إلىٰ الحق ، فإن

كان يعلم أن صاحبه عالم بالحكم لكنه متمرِّدٌ مستكبرٌ فإنه لا يجب حينئذٍ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

وهذه المسألة في النفس منها شيء ، قد نقول : إن عليه أن يأمر وينهىٰ وأن ذلك لا يخلو من فائدة لو لم يكن من فائدته إلا علم الناس بأنه معروف أو بأنه منكر لكفىٰ ، لأننا إذا سكتنا بحجة أن الأمر لا ينفع أو أن النهي لا ينفع ؛ بقيت المنكرات علىٰ ما هي عليه ، وبقي التهاون بالواجبات علىٰ ما هو عليه ، وصار الشباب الذين يخرجون من جديد يظنون أن هذا المنكر معروف ، وأن المعروف ليس بمعروف ، ولهذا في هذا الشرط نظر ، بل نقول : يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء ظننت أنه مفيد أم لم يفد . لكن في حدود الاستطاعة ...

الشرط الرابع : أن يكون الآمر بالمعروف فاعلاً له ، والناهي عن المنكر تاركًا له ، يعني لا تأمر بالمعروف وأنت لا تفعله ، ولا تنه عن منكر وأنت تفعله . فإذا كان هذا الرجل مثلاً يتعامل بالربا ووجد إنسانًا يتعامل بالربا فإنه لا يلزمه ولا يجب عليه أن يقول للثاني : يا فلان اترك الربا ، فإن الربا حرام ملعون فاعله ، لأنه هو يفعله ، فكيف ينهىٰ عن شيء يفعله هو؟

واستُدل لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة :٤٤] فوبّخ الله هؤلاء علىٰ أمرهم بالبر ، ونسيان أنفسهم . وبيَّن أن هذا خلاف العقل ، كيف تأمر الناس وتترك نفسك؟ هذا ليس بمعقول! فأنتم خالفتم الشرع وأنكرتم العقل ، واستُدل أيضًا بما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه « يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيلقىٰ في النار حتىٰ تندلق أقتاب بطنه (يعني أمعاءَه) فيدور عليها كما يدور الحمار علىٰ رحاه ، فيجتمع عليه أهل النار ويقولون : ما لك يا فلان؟ ألست تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر

وآتيه »[١] . قالوا : وهذا يدل علىٰ شدة عقابه إذا أمر بالمعروف ولم يأته أو نهىٰ عن منكر وأتاه . فلا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ من لا يفعل المعروف ولا يترك المنكر ، **وأبىٰ هذا أكثر أهل العلم** وقالوا : إن هذا خلاف الأدب لكنه محرم ، يعني كونه يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهىٰ عن المنكر ويفعله ، وخلاف العقل لكنه حرام عليه ، فيجب أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ويبدأ بنفسه ، فإذا فَرَّط في حق نفسه فليس له الحق في أن يُفَرِّط في حق غيره ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عليه ولو كان هو لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن المنكر ؛ لأنه لو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن منكر فقد أتىٰ محذورين : ترك الواجب علىٰ نفسه لنفسه ، وترك الواجب علىٰ نفسه لغيره ، الواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ولو كان هو لا يأتمر بالمعروف ولا ينتهي عن المنكر ، وهذا القول هو الصحيح[٢] ، وعليه أن يوبِّخ نفسه ويقول : كيف آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه؟ هذا خلاف المعقول والمنقول ، وخلاف الأدب مع الله ، وخلاف الأدب عند عباد الله »[٣] .

ومن البصيرةِ البصيرةُ بكتب العلم ومعرفة الجيد من غيره ، فعلىٰ الداعية أن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) .

(٢) وانتصر شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا القول أيضـًا في « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٠٤) عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة :٦٣] .

(٣) « تفسير آل عمران »(٢ / ١٢-١٩) ، وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفصيل أيضا بنحو ما سبق مع إيضاحات لبعض ما يشكل من فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ساقه في « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢٤١-٢٤٤) ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[المائدة :٧٩] .

يحسن انتقاء مصارده من كتب أهل العلم، ويتنبه من الكتب التي تحتوىٰ علىٰ شبهات أو استدلالات ضعيفة، ولا يكن همُّ الداعية تعليم الناس ووعظهم بما استحسنه مما قرأه بغض النظر عن صوابه، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنه يوجد في كتب الوعظ من الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة في أحوال القبر والقيامة ما ينبغي للقارئ أن يحترز منها، ولا أحسن من الرجوع إلىٰ الكتب الصحيحة في هذا الباب لئلا نضل الناس؛ لأن بعض الوعاظ يختار مثل هذه الأحاديث من أجل الترغيب أو الترهيب، وفي الحقيقة أن هذا مسلك ليس بجيد؛ لأن كوننا نملأ أدمغة الناس بأحاديث ضعيفة أو موضوعة خطأ حتىٰ لو كان فيها ترغيب وترهيب، وفيما صحَّ عن النبي ﷺ كفاية، والناس سوف يأخذون كل ما ذكر علىٰ أنه صحيح، يقولون: ما قيل في المحراب فهو صواب، والواجب علىٰ من ألّف في الترغيب والترهيب أن لا يذكر إلا ما كان حجة من صحيح أو حسن، أما الضعيف فلا حاجة لذكره لأننا في غنىٰ عن الضعيف الذي لم يثبت عن النبي ﷺ»[1].

رابعًا: الرسوخ في العلم المبني علىٰ الكتاب والسنة، فالحاجة ماسّة للرسوخ في العلم لاسيما مع تجدد المسائل والقضايا المعاصرة، والمراد بالرسوخ هو علم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة وحفظهما والعمل بهما، وضبط الأصول والقواعد المبنيَّة عليهما، والعمق في مسائل العلم واستحضار أدلتها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم جهاد في سبيل الله ولا سيما في وقتنا الحاضر؛ فإن الناس قد انفتح بعضهم علىٰ بعض، واختلط بعضهم ببعض، وصاروا يأخذون الثقافات من يمين ويسار، واحتاج الناس الآن للعلم الراسخ

(١) «تفسير آل عمران» (٢/ ٧٨).

المبني على الكتاب والسنة حتى لا يقع الناس في ظلمات بعضها فوق بعض؛ لذلك تجد رجلاً يمر به حديث، أو حديثان، ثم يقال: أنا ابن جلا، وطلاع الثنايا! من ينال مرتبتي! أنا الذي أفتي بعشرة مذاهب! ثم مع ذلك يندد بمن خالفه ولو كان من كبار العلماء؛ وربما يضخم الخطأ الذي يقع منه- ولو كان ممن يشار إليه بالفضل، والعلم، والدِّين؛ وهذه خطيرة جداً؛ لأن العامي وإن كان وثق بشخص لا يهمه هذا الكلام؛ لكن كلما كرر الضرب على الحديد لابد أن يتأثر؛ لذلك نرى أن طلب العلم من أهم الأمور خصوصاً في هذا الوقت»[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[آل عمران: ٧]، قال: «من فوائد الآية: فضيلة الرسوخ في العلم، وهو الثبات فيه والتعمق فيه، حتى نصل إلى جذوره؛ لقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وضد الرسوخ في العلم السطحية في العلم، وما أكثر السطحية اليوم فينا!! أكثر الناس اليوم علومهم سطحية. ولهذا تجدهم إذا ألَّفوا أو كتبوا يكثرون من النقول، بسبب أنه ليس عندهم حصيلة علمية، فيجعل نفسه في حل من الكلام. وأما أهل العلم حقاً فتجدهم يتكلمون بالعلم من صدورهم بدون نقل، ولهذا عباراتهم أحياناً تخالف عبارات العلماء الآخرين، ومن أوضح ما يكون كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، تجد أنهما يتكلمان عن علم راسخ، وأمثالهما كثير.

- أنه ينبغي للإنسان أن يحرص أن يكون راسخاً في العلم، لا جامعاً كثيراً منه، لأن العبرة بالرسوخ في العلم؛ لأن الإنسان إذا كان عنده رسوخ في العلم صار عنده مَلَكَة يستطيع أن يقرب العلم بعضه من بعض، ويقيس ما لم يُنَصّ

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (٣/ ٤٢٢-٤٢٣).

عليه على ما نُصَّ عليه، ويكون العلم لديه كالطبيعة الراسخة.

- أن الراسخين في العلم يعلمون أن الذي يكون من عند الله لا يكون فيه تناقض، لقوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ »[1].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[النساء:١٦٢]: « من فوائد الآية: فضيلة الرسوخ في العلم، وانتبه لكلمة « الرسوخ »، ومعناها الثبوت والاستقرار، وذلك لأن العلم علمان: علم راكد، بمعنى أنه على السطح، وأي ريح تزعزعه، وهذا ما يكون عند كثير من الطلبة، فتجد كثيراً من الطلبة يجمع العلوم دفعه واحدة، فيكون كالطبيب العام، ليس له اختصاص في شيء، وبعض الطلبة يركز ويحرص، فهذا هو الذي يدرك العلم، ويكون عنده قدرة وملكة، حتى إن بعض العلماء زعم أن من نبغ في فن من الفنون كان مدركـًا لجميع الفنون ...

أقول: إنَّ الرسوخ في العلم هو العلم، ومن ثم كنت أقول دائمـًا لطلاب العلم احرصوا على قواعد العلم وضوابط العلم، وذلك لأن الجزئيات لا حصر لها، فكل يوم يخرج للناس معاملة جديدة، أو حدث جديد في العبادات، ولا يمكن للإنسان أن يحكم عليه الحكم الصحيح إلا إذا كان عنده قواعد وأصول يلحق بها هذه الجزئيات، أما من يأخذ العلم مسألة مسألة فهو كالذي يلقط الجراد من الصحراء؛ لأنه سيتعب دون أن يملأ الكيس، لكن الذي يحرص على القواعد هو الذي يدرك العلم بإذن الله »[2].

خامسـًا: الحذر من كتمان العلم، وهذا مما ينبغي للداعية معرفته بعدما يمنُّ الله تعالى عليه بالعلم، فإن واجب العلم بذله عند السؤال، وعدم التعرُّض

---

(١) « تفسير آل عمران »(١ / ٤٧-٤٨).

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٧٣-٤٧٤).

للوعيد الشديد المترتب على كتمان العلم ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٤٠] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« ومن فوائد الآية : عظم كتم العلم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران :١٨] ؛ فكل إنسان يكتم علماً فقد كتم شهادة عنده من الله ؛ ثم إن في هذا عِظَمُ إثمه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ »(١) .

ومن شديد الوعيد لكاتم العلم أنه يتعرَّض للعنة التي جاءت في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة :١٥٩] .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أن كتم العلم من كبائر الذنوب ؛ يؤخذ من ترتيب اللعنة علىٰ فاعله ؛ والذي يُرَتَّبُ عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب ...

- ومنها : قُبْحُ هذا الكتمان الذي سلكه هؤلاء ؛ لأنه كتمان بعد بيان ؛ ليس لهم أن يقولوا : « ما تكلمنا ؛ لأنّ الأمر مشتبه علينا » ؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لاشتباه الأمر عليه قد يُعذر ؛ لكن الذي لا يتكلم مع أن الله بيَّنه للناس يكون هذا أعظم قبحاً والعياذ بالله- ...

- ومنها : أن هؤلاء الكاتمين ملعونون ؛ يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ ...

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢/ ١٠٣) .

- ومنها: جواز الدعاء باللعنة على كاتم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾؛ لأن من معنى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ الدعاء عليهم باللعنة؛ تقول: اللهم العنهم؛ ولا يُلعن الشخص المعين؛ بل على سبيل التعميم؛ لأن الصحيح أن لعن المعيَّن لا يجوز ولو كان من المستحقين للعنة؛ لأنه لا يُدرى ماذا يموت عليه؛ قد يهديه الله، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[آل عمران:١٢٨][1]؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز، أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم

---

(١) وبيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حكم لعن المعيَّن في موضع آخر في «تفسير سورة البقرة» (١/ ٢٩٣)، وانظر: «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٩/ ٢١٩)، (٩/ ٢٩٥)، وجاء في «معجم المناهي اللفظية» د. بكر أبو زيد (٤٥٧)، ما نصُّه: «وقد بالغت الشريعة في سد باب اللعن عن من لم يستحقه، فنهى النبي ﷺ عن لعن الديك، وعن لعن البرغوث، فعلى المسلم الناصح لنفسه حفظ لسانه عن اللعن، وعن التلاعن، والوقوف عند حدود الشرع في ذلك، فلا يُلعن إلا من استحق اللعنة بنص من كتاب أو سنة، وهي في الأُمور الجامعة الآتية:
١- اللعن بوصف عام مثل: لعنة عامة على الكافرين. وعلى الظالمين. والكاذبين.
٢- اللعن بوصف أخص منه، مثل: لعن آكل الربا. ولعن الزناة. ولعن السُّرَّاق والمرتشين. والمرتشي. ونحوذلك.
٣- لعن الكافر المعين الذي مات على الكفر. مثل: فرعون.
٤- لعن كافر معين مات، ولم يظهر من شواهد الحال دخوله في الإسلام فيلعن.
وإن توقَّى المسلم، وقال: لعنه الله إن كان مات كافراً، فحسن.
٥- لعن كافر معيَّن حي؛ لعموم دخوله في لعنة الله على الكافرين، ولجواز قتله، وقتاله. ووجوب إعلان البراءة منه.
٦- لعن المسلم العاصي -مُعيَّنًا أو الفاسق بفسقه، والفاجر بفجوره. فهذا اختلف أهل العلم في لعنه على قولين، والأكثر بل حُكي الاتفاق عليه، على عدم جواز لعنه؛ لإمكان التوبة، وغيرها من موانع لحوق اللعنة، والوعيد مثل ما يحصل من الاستغفار، والتوبة، وتكاثر الحسنات وأنواع المكفرات الأخرى للذنوب. وإن ربي لغفور رحيم».

قد أفضوا إلىٰ ما قدموا »[1] ؛ وهذا عام ؛ ثم إنه قد يثير ضغائن ، وأحقاد من أقاربه ، وأصحابه ، وأصدقائه ؛ فيكون في ذلك مفسدة ؛ ثم إن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[2] ؛ وأيّ خير في كونك تلعن واحداً كافراً قد مات ؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها ، والقدح فيها ، وذمها ، أما هو شخصياً فإنه لا يظهر لنا جواز لعنه ، وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات علىٰ الكفر .

- ومن فوائد الآية : عظم كتم العلم ، حيث كان من الكبائر ، وكتم العلم يتحقق عند الحاجة إلىٰ بيانه إما بلسان الحال ، وإما بلسان المقال ، فإن من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار إلا أن يكون السائل متعنتاً ، أو يريد الإيقاع بالمسؤول ، أو ضرب آراء العلماء بعضها ببعض ، أو يترتب علىٰ إجابته مفسدة ، فلا يجاب حينئذ ، وليس هذا من كتم العلم ، بل هو من مراعاة المصالح ، ودرء المفاسد »[3] .

وللشيخ رحمة الله تعالىٰ عليه- تقسيم بديع لنوعي السؤال الذي يتلقاه الداعية من المدعوين ودخولهما في كتمان العلم إذالم يؤدِّ الداعية حقَّهما من البيان ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة :٤٢] ، قال :

« ومن فوائد هذه الآية الكريمة : تحريم كتمان الحق ، وكتمان الحق يكون في حالتين : الحالة الأولىٰ : أن يسأل سائل عن الحق فيُكتمُ الحق عنه ولا يُجاب

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٩٠ ١٩٤) ، وانظر : « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢١٢) .

به ؛ لغرض من أغراض الدنيا ، والحالة الثانية : أن يحتاج الناس إلىٰ بيان الحق وإن لم يسألوا ، فإذا رأىٰ العالم الناس محتاجين إلىٰ الحق وجب عليه بيانه ، وإن لم يسألوه ، والفرق بين الحالتين : أن الحالة الأولىٰ التي يكون فيها الكتمان عند سؤال السائل يقع السؤال فيها بلسان المقال ، أما الثانية فيقع السؤال فيها بلسان الحال .

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة : أنه إذا كتم الحق مع العلم به كان أشد قبحـًا ، أما إذا لم يعلم به الإنسان فإنه لا يجوز أن يتكلم به أصلاً ؛ لأنه إذا تكلم بما لا يعلم فقد قال علىٰ الله ما لا يعلم ، وهذا من المحرم الذي حرمه الله في كتابه في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف :٣٣] »(١) .

سادسـًا : الحذر من القول علىٰ الله بلا علم ، وهو ما يقع فيه بعض الدعاة لاسيما من له في كل موقف قول ورأي- وهو بهذا تقحَّم أمراً عظيمـًا ، وإن من تمام التأهيل العلمي للداعية أن يرعىٰ حق العلم ، فالعلم عزيز في فضله ومرتبته ومكانته وإن من عزَّته أن يكون الداعية حَذِراً من كتمانه وقَفْوِ ما ليس له به علم ، فكما جاء التحذير من كتمان العلم فقد جاء التحذير من القول علىٰ الله بلا علم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[الإسراء :٣٦] ، والقول علىٰ الله بلا علم من غوائل الشيطان للداعية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة :١٦٩] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « قوله تعالىٰ : ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف :٣٣] ... يشمل أيضـًا القول علىٰ الله بلا علم في أحكامه ؛

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم »(١ / ١٤٤) ،وانظر :(١ / ٣٩٦) ،و« تفسير آل عمران »(١ / ٤٠٦) (٢ / ٥٢٧) ،و« تفسير سورة المائدة »(١ / ٢١٢) .

مثل أن يقول : « هذا حرام » وهو لا يعلم أن الله حرمه ؛ أو « واجب » وهو لا يعلم أن الله أوجبه ؛ وهم كثيرون جداً ؛ ومنهم العامة ، ومنهم أدعياء العلم الذي يظنون أنهم علماء وليس عندهم علم ؛ ومن الأشياء التي مرت عليّ قريبًا ، وهي غريبة : أن رجلاً ذهب إلىٰ إمام مسجد ليكتب له الطلاق ؛ فقال له : « طلق امرأتك طلقتين ؛ أنا لا أكتب طلقة واحدة ؛ لأن الله يقول : (الطلاق مرتان) » ؛ فقال له الرجل : « اكتب أني طلقت امرأتي مرتين » ؛ وهذا جهل مركب منافٍ لمعنىٰ الآية ؛ لأن معناها أن الطلاق الذي يملك فيه الرجعة هو الطلقة الأولىٰ ، والطلقة الثانية ؛ فإن طلقها الثالثة لم تحل له حتىٰ تنكح زوجًا غيره »[1] .

وقال أيضـًا : « وأما القول علىٰ الله بما لا يعلم الإنسان في الأحكام الشرعية : فما أكثرها اليوم ، ما أكثر الذين يتصدون للفتوىٰ ، وهم من أجهل الناس!! فيكونون قد قالوا علىٰ الله بلا علم ، والمفتي لعباد الله بما يزعم أنه شريعة الله ، هو معبِّر عن الله في الحقيقة ؛ لأنه يقول : هذا حكم الله ...

وعلىٰ هذا فإننا نحذر إخواننا طلبة العلم والعامة- أيضا أن يفتوا بلا علم ، بل عليهم أن يلتزموا الورع ، وأن يقولوا لم لا يعلمون : لا نعلم ، فإن هذا والله هو العلم ، لكن إذا كان الإنسان عالمـًا بحكم المسألة من عالم يثق بقوله ، وأراد أن ينقل قول هذا العالم المستفتي فإن هذا لا بأس به »[2] .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران :٧٥] ، قال في فوائد الآية : « من فوائد الآية : أن من افترىٰ علىٰ الله الكذب وهو يعلم ، أشد إثمـًا وعدوانـًا ممن لا يعلم ،

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢/ ٢٤٠) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١/ ٤٤٢) .

وإن كان كلٌ منهم علىٰ خطأ ، لكن ليس المتعمِّد كغير المتعمد ؛ لذلك قال النبي ﷺ : « من كذب علي متعمِّداً فليتبوأ مقعده من النار »[1] .

– الإشارة إلىٰ أن الجهل المركب أقبح من الجهل البسيط ؛ لأن الذي يكذب وهو يعلم أقبح من الذي يكذب ولا يعلم . فالجاهل المركب الذي يتقدم بالشيء وهو يعلم أنه ليس عنده علم ، أقبح من الشخص الذي يرىٰ أن هذا هو العلم »[2] .

وإن من واجب الداعية الذي جانب الصواب واستعجل بقول باطلٍ ، أن يصحح ما قاله بعد التبيِّن له– عند المدعوِّين ، فإن هذا من البيان الذي أمر الله تعالىٰ به وحذَّر من نقيضه في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومن فوائد الآية : أنه يجب علىٰ من قال قولاً باطلاً ، ثم تبين له بطلانه أن يبيِّنه للناس إلا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبين بطلان ما سبق ؛ لأنه لا يدري أيّ الاجتهادين هو الصواب »[3] .

ومن تمام التأهيل العلمي فيما لا يعلمه الداعية أن يقول : (الله أعلم) فالداعية إلىٰ الله تعالىٰ لامتثال ذلك أشد حاجة ؛ لأن الناس يرجعون إليه في قِطْرِهِ الذي هو فيه في كثير من المسائل ، ولربما حمله ذلك علىٰ أن يقول بالحدس والظن الذي يظنه ، فليحذر الداعية من ذلك وليعلم أن الكلام في الشرع عموما لا سيما الأمور العظيمة لا يُسعف معه حدس بل ربما يُهلك ويُضِل .

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٣٣) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٩٥) .

وليعلم الداعية أن قول (لا أعلم) هي بحدِّ ذاتها علم ، وأن هذا نهج السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ، وهو المنهج الشرعي عند جهل أمر ما ، عَنْ مَسْرُوقٍ قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كِنْدَةَ فَقَالَ : يَجِيءُ دُخَانٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُنَافِقِينَ وأَبْصَارِهِمْ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَام فَفَزِعْنَا فَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ ، وكَانَ مُتَّكِئًا فَغَضِبَ فَجَلَسَ فَقَالَ : مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ ، ومَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ لاَ أَعْلَمُ ... الحديث »[1] ، والأخبار في إمساك السلف عما لا يعلمون كثيرة[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤) ، ومسلم (٢٧٩٨) .

(٢) وللمُناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام جميل عن قول « الله أعلم » حيث قال :« علىٰ العالم إذا سئل عما لا يعلمه أن يقول لا أدري ، أو لا أحققه ، أو لا أعلمه ، أو الله أعلم ، وقول المسؤول لا أعلم لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهلة ؛ لأن العالم المتمكن لا يضر جهله ببعض المسائل ، بل يرفعه قوله لا أدري ؛ لأنه دليل علىٰ عظيم محله ، وقوة دينه ، وتقوىٰ ربه ، وطهارة قلبه ، وكمال معرفته ، وحسن نيته ، وإنما يأنف من ذلك من ضعفت ديانته ، وقلت معرفته ؛ لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين ، ولا يخاف من سقوطه من نظر رب العالمين ، وهذه جهالة ورقة دين ، ومن ثم نقل « لا أدري » و« لا أعلم » عن الأئمة الأربعة والخلفاء الأربعة ، بل عن المصطفىٰ ﷺ وجبريل) ، كما مر في حديث « خير البقاع المساجد » وفي « مسند الدارمي » موصولاً من عدة طرق أن علياً : سئل عن مسألة فقال : لا علم لي بها . ثم قال : وأبردها علىٰ كبدي ، سئلت عمَّا لا علم لي به ، فقلت : لا أعلم .

وفيه : أن رجلاً سأل ابن عمر عن مسألة فقال : لا علم لي بها ، فولَّىٰ الرجل ، فقال ابن عمر : نِعْم ما قال ابن عمر . وأخرج أبوداود في « الناسخ والمنسوخ » وابن مردويه : عن خالد بن أسلم : خرجنا نمشي مع ابن عمر فلحقنا أعرابي فسأله عن إرث العمَّة فقال : لا أدري . قال : أنت ابن عمر ولا تدري! قال : نعم اذهب إلىٰ العلماء ، فلما أدبر قبَّل ابن عمر يديه وقال : نِعْم ما قلت .

وأخرج البخاري عن ابن مسعود : من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، فإنَّ من عِلْم الرجل أن يقول لما لا يعلم الله أعلم . والدارمي بلفظ : إذا سئل العالم عما لا يعلم قال : الله أعلم .

وأخرج الهروي عن ابن مسعود :إذا سئل أحدكم عما لا يدري ، فليقل : لا أدري ، فإنه ثلث العلم .=

ونستنتج من المضامين الدعوية السابقة أهمية ركيزة العلم في تأهيل الداعية، فالعلم هو قوت دعوته، وبه يُعرَف الداعية الذي يدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة، وأهم ما ينبغي في تأهيل الداعية العلمي أن يطلب العلم مخلصًا به لله تعالىٰ، فإن خلوص القلب في طلب العلم لله تعالىٰ كفيل بالتوفيق والسداد واستكمال مراتب التأهيل العلمي الأخرىٰ، ذلك أن الإخلاص روح التعبد بطلب العلم، ومن طلب العلم لحظ دنيوي فقد تعنَّىٰ واستكثر علىٰ نفسه الحجج، وأبعد عن صواب التأهيل العلمي، والنية تتقلب علىٰ طالب العلم وعليه تعاهدها، وسؤال الله تعالىٰ الإخلاص.

ومن أهم ما يعين الداعية علىٰ تأهيله العلمي كما تقدَّم في المضامين - استشعاره أهمية العلم، وضرورة رفع الجهل عن نفسه، وحاجة الناس إليه، ومدىٰ انتفاع الناس به بسبب العلم، والعائد من الثواب وعظيم الأجور عليه، واقتفائه أثر الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ حين دعوا إلىٰ الله تعالىٰ بعلم الوحي الذي أنزله الله تعالىٰ، والداعية إلىٰ الله كلما نهل من العلم أدرك ظلمات الجهل التي طغت في المجتمعات، ولن يصل الداعية إلىٰ الدعوة علىٰ منهاج النبوة إلا بعد منهج علمي رصين مبني علىٰ بصيرة ويقين، وسير علىٰ أصول الدعوة وضوابطها التي جاءت بها النصوص سواء كان ذلك في ما يختصُّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو قواعد الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ عموما، ويحرص علىٰ الرسوخ في العلم وأخذه عن الراسخين فيه الذين بنوا علمهم علىٰ الكتاب والسنة، وليحذر

= وأخرج الحازمي في «سلسلة الذهب عن أحمد عن الشافعي»: عن مالك عن ابن عجلان: إذا أخطأ العالم لا أدري أصيب في مقاتله، والأخبار والآثار في هذا كثيرة، وإنما أطلت بإيراد هذه النُّبذة؛ لما تطابق عليه فقهاء زماننا من التحاشي عن ذلك، والمبادرة إلىٰ الجواب باللسان والقلم كيف كان». «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٤ / ٣٨٧).



طالب العلم من نقيضين للتأهيل العلمي القويم، أولاهما: القول على الله تعالى بلا علم، فإن العلم أمانة، وتوقيعٌ عن الشريعة الغراء، والقول على الله تعالى بلا علم من أكبر الكبائر، حيث عطفه الله تعالى على الشرك به جل وعلا-، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، والقول على الله تعالى بلا علم من شأنه أن يورد الداعية إلى المهالك، وعِظَم التبعة يوم القيامة، والآخر: هو كتمان العلم، فإن كتمان العلم تَعَرُّضٌ للوعيد الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وكتمان العلم مع ما فيه من الوعيد فإنه يمحق بركة العلم، ويجعله حجة على صاحبه، والداعية الحصيف هو الذي يأخذ العلم متعبداً بطلبه وتبليغه ليعمَّ نفعه، ويكتب أثره، ويعظم أجره، لأنه سار على جادة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، واتبع طريقتهم في الدعوة إلى الله تعالى.



المبحث الرابع: التأهيل الأخلاقي للداعية

إن أهم ما يراعيه الداعية في دعوته ما يتحلىٰ به من أخلاق؛ ذلك أن الدعوة التي تؤثر في المدعوين تعتمد كثيرا بالدرجة الأولىٰ علىٰ حسن الأخلاق، وأولىٰ الناس تطبيقـًا لما يمليه علىٰ المدعوين هو الداعية، فهو القدوة في مجتمعه، والأخلاق جزء كبير من الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ولذا قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ»[1]، وكم من شخصٍ متأثرٍ بداعية وهو لم يدعوه إلىٰ الله بقوله وإنما بفعله حين طبَّق أخلاق الإسلام، ورُبَّ عالمٍ صدَّ الناس عن دين الله تعالىٰ بسوء خلقه وطبعه المنفِّر، وكل ذلك مداره علىٰ الأخلاق التي تشكل جانبا كبيراً من الدعوة إلىٰ الله؛ ولذا جاءت أهمية تأهيل الداعية أخلاقيًّا؛ لأنها أول ما يحتاجه في دعوته.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويجب علىٰ كل طالب علم أن يكون أول من يمتثل أمر الله عَزَّوَجَلَّ ويجتنب نهيه؛ لأنه مسؤول عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه كغيره من المكلفين.

والثاني: أن طالب العلم قدوة، أي عمل يعمله فسوف يقتدي به الناس، ويحتجون به، فإذا كان طالب العلم هو الذي يسخر من العلماء أو من دون العلماء فهذه بلية في الواقع»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٤/ ٥١٢) (٨٩٥٢)، والحاكم في «مستدركه» (٤٢٢١) وقال: «حديث صحيح علىٰ شرط مسلم»، وصححه ابن عبدالبر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٤)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٨).

(٢) «تفسير سورة الحجرات» (٣٩).

وتقدَّم الكلام علىٰ (الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق) كمجال من مجالات الدعوة[1] ، وفيها أخلاق عديدة جاءت في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ استنباطـًا من آيات القرآن الكريم ، وأولىٰ الناس بتطبيقها الداعية ، والكلام هنا علىٰ أخلاق الداعية المتعلِّقة بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وما ينبغي أن يراعيه في ميدان الدعوة ليتأهل التأهيل الأخلاقي المطلوب في الدعوة .

- المضامين الدعوية في التأهيل الأخلاقي للداعية تنقسم إلىٰ قسمين :

القسم الأول : أخلاق عامة يمتثلها الداعية كسائر المسلمين

وهي ما تقدَّم الكلام عليها في مجالات الدعوة ، ومنها : (الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق) ، وجاء فيها الأخلاق الآتية :

الصبر ، والإحسان ، والعفو ، والصدق ، والأمانة ، ومحبة المرء لأخيه ما يحبه لنفسه ، والأخوة ، والمعاشرة بالمعروف ، إصلاح ذات البين ، ومعاملة الناس بالظاهر ، وحسن الظن ، والإيفاء بالعهد والنذر ، والحذر من النميمة ، والكذب ، والخيانة ، والحسد ، والفخر ، والبخل ، واللمز ، والتدابر ، وغيرها من الأخلاق التي جاءت ضمنـًا في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

القسم الثاني : أخلاق الداعية المتعلِّقة بميدانه الدعوي ، وهي علىٰ جانبين :

الأول : أخلاقه مع المدعوِّين . والثاني : أخلاقه مع الدعاة .

فقد خصَّ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره الداعية بمزيد حثٍّ واهتمام بما يتعلق بالأخلاق ذات العلاقة بعمله الدعوي ؛ ليكتمل بذلك تأهيله الأخلاقي ، ومما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره :

---

(١) انظر : الفصل الثاني ، المبحث الثاني ، المطلب الثاني : الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق .

الجانب الأول : أخلاق الداعية مع المدعوِّين

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخلاقـًا ينبغي للداعية أن يراعيها أثناء عمله في مجال الدعوة ، وتعامله مع المدعوِّين مما تساعده علىٰ تقديم الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ كما ينبغي ، وتعكس الأثر الإيجابي علىٰ المدعوِّين .

- أبرز المضامين الدعوية في أخلاق الداعية مع مدعوِّيه :

أولاً : اللين والرفق عند تغيير المنكر ، قال الله تعالىٰ مبيِّنًا أثر خلُق اللين والرفق الذي امتثله الرسول ﷺ مع الناس : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران :١٥٩] ، وعَنْ عَائِشَةَ ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « يا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، ويُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ العُنْفِ ، ومَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ مَا سِواهُ »[١] ، وعنها أن النَّبِيِّ ﷺ ، قال : « إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، ولَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ »[٢] ، بل جعل النبي ﷺ الخير منوط بالرفق ، ففي حديث جرير بن عبدالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، يَقُولُ : « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ ، يُحْرَمِ الخَيْرَ »[٣] .

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وفي هذه الأحاديث فضل الرفق والحث علىٰ التخلُّق ، وذم العنف ، والرفق سبب كل خير ، ومعنىٰ (يعطي علىٰ الرفق) أي يثيب عليه مالا يثيب علىٰ غيره ، وقال القاضي : معناه يتأتىٰ به من الاغراض ويسهل من المطالب مالا يتأتىٰ بغيره »[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) .

(٤) « شرح مسلم » (١٦/ ١٤٥) .

ولقد امتثل النبي ﷺ بما شهد له ربه جل وعلا من الرفق في سائر دعوته، فكان هيِّنًا ليِّنًا، رفيقًا بأصحابه، والوقائع في هذا كثيرة، ومنها حديث أَنَسٍ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُ القَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « دَعُوهُ وَلَا تُزْرِمُوهُ » قال: فَلَمَّا فَرَغَ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ[1]. وفي رواية مسلم ما يبيِّن إحسان النبي ﷺ في توجيهه ودعوته: « ... فدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: « إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ، ولَا القَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والصَّلَاةِ وقِرَاءَةِ القُرْآنِ » .

وعَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ، قال: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، نَظَرْتُ إِلَىٰ صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وقَدْ أَثَّرَتْ بها حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ، مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قال: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بعَطَاءٍ[2].

قال العيني: « فِيه دلَالَة علىٰ قُوَّة حلمه وشدَّة صبره علىٰ الأذىٰ فِي النَّفس والمَال، والتجاوز عَن جفَاء من يُرِيد تألفه علىٰ الإِسْلَام، وليتأسىٰ بِهِ الوُلَاة بعده فِي خلقه الجَمِيل من الصفح والإغضاء والدَّفْع بالَّتِي هِيَ أحسن »[3].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٣) « عمدة القاري شرح صحيح البخاري » (٢٢ / ١٥١).

« ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا الواجب ، أن يكون لينـًا في أمره لينـًا في نهيه ؛ لأن اللين خلق كريم يعطي الله سبحانه وتعالىٰ به ما لا يعطي علىٰ العنف كما قال النبي ﷺ ذلك[1] ، وكما أرشد الله إليه موسىٰ وهارون) حين أرسلهما إلىٰ فرعون ، فقال : ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه :٤٤] ، يتذكر فيما تأمرانه به ، أو يخشىٰ فيما تنهيانه عنه ، مع أنه مِن أعتىٰ أهل الأرض ، إن لم يكن أعتىٰ أهل الأرض ، فعلىٰ كل حال من الآداب أن يكون الإنسان لينـًا في أمره ونهيه »[2] .

ثانيـًا : الصبر علىٰ أذىٰ المدعوِّين عند المحاجة والمخاصمة منهم ، وتقدَّم في (الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق) بيان فضل الصبر ونصوصه الدالة علىٰ فضله ، والمراد هنا ما يلقاه الداعية من أذىٰ المدعوِّين كما هو الحال مع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الأذىٰ الحسي والمعنوي والمجادلة والمخاصمة ، فللداعية خُلُق ينبغي أن يمتثله اقتداءً بالأنبياء قدوة الدعاة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، قال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف :٣٥] ، وقال : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام :٣٣-٣٤] ، فعلىٰ الداعية ألا يملَّ ويترك طريق الدعوة لأذىً أصابه ، أو لإعراض عن دعوته ، أو لعدم تمكين له من أن يدعو إلىٰ الله تعالىٰ ، أو لأجل أي أذىً حسي أو معنوي أو إعراض .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « ومن الآداب أيضـًا أن يصبر علىٰ الأذىٰ

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) « تفسير آل عمران »(٢ / ٢١-٢٢) .

والمحاجة والمخاصمة لا سيما إذا كثر الجدل في الناس فليصبر ؛ لأن الله تعالىٰ حكىٰ عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه : ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[لقمان :١٧] ، لا بد لكل آمر من أن يصاب بأذىٰ ، وبعض الناس ربما يثقل عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم يصب بأذىٰ لكن لم تتقبل دعوته ، أو لم يتقبل أمره ، أو نهيه فيضيق صدره ولا يأمر ولا ينهىٰ ، هذا ليس بصحيح ، مُرْ بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر علىٰ ما أصابك ، وانظر إلىٰ الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ماذا أصابهم من الأذىٰ ، أصابهم أذىٰ عظيم ، طعن في أجسادهم ، وطعن في عقولهم ، وطعن في أهدافهم ، كل شيء طعن فيه ومع ذلك هم صابرون ، أوذي موسىٰ (بأنواع من الأذىٰ ، وأوذي أول الأنبياء نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه : ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾[هود :٣٨-٣٩] ، وأوذي خاتم الأنبياء ﷺ ، أوذي أذىٰ عظيماً من أقرب الناس إليه ، هل قريش فعلت بأي واحد من الناس دخل المسجد الحرام وجعل يصلي تحت الكعبة وسجد لله عَزَّوَجَلَّ ، هل آذوا أحداً من الناس بأن أتوا بسلا الجزور ووضعوه عليه وهو ساجد؟ أبداً ، لكن الرسول فعلوا به هذا وصبر ، هل كانوا يأتون بالأذىٰ والقذر والأنتان يضعونها علىٰ أبواب الناس في مكة؟ لا ، لكن الرسول فعلوا به هذا وصبر[1] .

---

(١) القصة وردت في « صحيح مسلم » (١٧٩٤) ، من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ، قال : بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ ، وأَبُو جَهْلٍ وأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ ، وقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بالأَمْسِ ، فَقال أَبُو جَهْلٍ : أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَىٰ سَلا جَزُورِ بَنِي فُلانٍ ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَىٰ القَوْمِ فَأَخَذَهُ ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، قال : فَاسْتَضْحَكُوا ، وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَىٰ بَعْضٍ ...الحديث .

فالواجب أن يصبر الإنسان وأن يحتسب هذا الصبر علىٰ الله ، وهذا الصبر علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعظم أجراً من الصبر علىٰ أعظم مصيبة تنال الإنسان في أقرب الناس إليه ؛ لأن هذا صبر علىٰ أذىٰ في الله ليس صبراً علىٰ أقدار الله »(١) .

وقال أيضـًا : « يجب علىٰ الدعاة إلىٰ الحق أن يصبروا علىٰ ما ينالهم من الناس من السخرية ؛ لأن أعداء الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أكثر من أولياء الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، فالدعاة إلىٰ الحق يجب عليهم الصبر إذا سمعوا من يسخر بهم ، سواء كان هؤلاء الساخرون من الكفار أو من أولياء الكفار ؛ لأنه يوجد من المسلمين من هو من أولياء الكافرين ، فالواجب علىٰ الدعاة أن يصبروا ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الذين هم أهل الحق وقادة الحق وأئمة الحق قد سخر الناس منهم ، فكيف بك أنت؟ »(٢) .

ثالثـًا : أخذ الناس بالظاهر والبعد عن تصنيفهم ، فما كان التصنيف في شيء إلا أحدث انشقاق الصف داخل الميدان الدعوي ، والحاجز بين الدعاة والمدعوِّين ، فعلىٰ الداعية ألا يعامل الناس بما يظنه من سرائرهم ، فهذا خلاف الهدي النبوي في معاملة النبي ﷺ أصحابه كما سيأتي- ، فقد كان يعاملهم بالظاهر ، ولا يحكم بشيء من بواطنهم إلا ما أظهره الوحي ، وفي هذا الهدي

---

(١) « تفسير آل عمران »(٢ / ٢٣-٢٤) ، وللشيخ كلام عن صبر الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وأتباعهم من الدعاة في « تفسير سورة الأنعام » (١٨١) ، وأيضـًا في « تفسير سورة ص » ، عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص :١٧] وما بعدها ، وأيضـًا في « تفسير سورة ق » ، عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[ق :٣٩] .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (٤٣) .

يَقُولُ عُمَرُ بن الخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بالوحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وإِنَّ الوحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآنَ بمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أظْهَرَ لَنا خَيْرًا، أمِنَّاهُ، وقَرَّبْنَاهُ، ولَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، ومَنْ أظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، ولَمْ نُصَدِّقْهُ، وإِنْ قال: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ »[1].

وفي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨- ٩] يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من فوائد الآية: أن أحكام الدنيا تجري علىٰ الظاهر؛ أي: علىٰ ما يظهر من حال الإنسان دون الأمر الباطن الذي في قلبه؛ لأن الأمر الباطن لا يعلمه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، أما الأمر الظاهر فيعلمه كل من ظهر له؛ ولهذا لم يقتل النبي ﷺ المنافقين، وقال حين استؤذن في قتلهم: « لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه »[2]؛ ويتفرع علىٰ ذلك أننا نجري الناس في أحكام الدنيا علىٰ ظاهر حالهم، ولا نسيء الظن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية تذيِّل هذا الأصل، ومن ثَمَّ قال الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنه يحرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة، ومن هنا أحذِّر بعض الإخوة الذين يطلقون مثل قولهم: هذا منافق، هذا كافر، هذا كذا ... إلخ[3]، ويصفونه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن جالسني يعلم ذلك مني: أني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلىٰ تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً أخرىٰ وعاصياً أخرىٰ وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها: وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم علىٰ أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية ». « مجموع الفتاوىٰ » (٣/ ٢٢٩).

بأوصاف تخالف ظاهر حاله بناء علىٰ ما يظنونه في قلبه ، وهذا خطأ ؛ لأنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر ، قال النبي ﷺ : « إنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له علىٰ نحوٍ مما أسمع منه ... »[1] »[2] .

رابعـًا : العفو والتسامح ، والعفو عند المقدرة من أمثل الأخلاق النبوية التي يحتاجها الداعية ، في دعوته للناس ، لاسيما وسيواجه من الأذىٰ والاعتداء الفعلي والقولي من الناس وزلاتهم ، ثم هو يعاملهم بالحسنىٰ ويعفو عن زلاتهم ، ولقد أمر الله جلَّ وعلا- نبيه ﷺ بالعفو والصفح ، فقال تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف :١٩٩] ، وأمر الله تعالىٰ المؤمنين بقوله جل وعلا- : ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة :١٠٩] ، وتكفَّل بأجر العافي ، فقال تعالىٰ : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورىٰ :٤٠] ، والعفو سبيل من سُبُل العزَّة للداعية ، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ومَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بعَفْوٍ ، إِلَّا عِزًّا ، ومَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ »[3] .

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وفي الصفح والعفو والحلم : من الحلاوة والطمأنينة والسكينة ، وشرف النفس ، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام : ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام »[4] .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أما عفوه ﷺ وتسامحه مع المقدرة بأمر يوقعه الله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠) ، ومسلم (١٧١٣)

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٥٦) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

(٤) « مدارج السالكين » (٢ / ٣٠٣) .

سبحانه وتعالىٰ فيهم ، فإنه لما رجع من الطائف بعد أن فعل به أهل الطائف ما فعلوا أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، وقال : إن الله يقرئك السلام وهذا ملك الجبال يفعل ما تأمر به ، فقال له ملك الجبال : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت ، ولكن الرسول ﷺ قال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئًا »[1] اللهم صل وسلم عليه- .

انظر إلىٰ العفو وإلىٰ النظر البعيد ، فأخرج الله ولله الحمد- من أصلاب هؤلاء مَن عبد الله ولم يشرك به ، وكانوا أئمة يهدون بأمر الله »[2] .

خامسًا : خفض الجناح للمدعوين والتواضع لهم ، فهذا الخُلُق أدعىٰ لقبول دعوته لقربه من المدعوِّين بتواضعه ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ حاثًّا علىٰ هذ الخُلُق للداعية : « تواضع يا طالب العلم ، الناس الآن يثنون علىٰ الذي يكون متواضعًا ، نسمع أنهم يثنون علىٰ فلان وفلان لأنه متواضع ، لكن ليس معنىٰ ذلك أن تجعل نفسك ذليلاً أمامه ، فالتواضع غير الذل ، من تواضع لله رفعه الله ، ومن تواضع للحق وفق للحق ، وعلامة ذلك : أنك إذا بان لك الحق اتبعته فوراً بدون تردد وبدون جدال ، إن ترددت أو جادلت فهو خطر عليك عظيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾[الأنعام : ١١٠] لماذا؟ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، ولذلك إذا بان لك الحق لا تجادل ، ولا تحاول أن تذهب يمينًا ويساراً لتبرر رأيك ، فإنك علىٰ خطر ، وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق :٥] ، ﴿مَّرِيجٍ﴾ يعني مختلط أي : يختلط عليهم الحق بالباطل ، إذ كذبوا بالحق لما جاءهم »[3] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ، ومسلم (١٧٩٥) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٨٠) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢/ ٢٧٩) .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة :٥٤] .

« من فوائد الآية : الثناء علىٰ من كان ذليلاً علىٰ المؤمنين ، وهو الذي يخفض جناحه لهم ويتطامن ويتواضع ، فإن هذه من الصفات التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ ، عكس ذلك يؤخذ منه فائدة ثانية ، وهي أن ترفُّع الإنسان علىٰ إخوانه المسلمين ، ليس محموداً عند الله بل ولا عند الخلق ، ولذلك اعلم أنه كلما ازداد إيمانك ازددت تواضعـًا ، وكلما ازداد علمك ازددت تواضعـًا ، بعض الناس ، نسأل الله أن لا يجعلنا منهم ، إذا ازداد علمه انتفخ وتكبَّر وصار لا يكلم الناس إلا بأنفه ، وصار إذا كلمه الناس يتجاهل ، يقول : ماذا تقول ، وهو يدري ، قد ملأ سمعه كلامه ، لكن من باب الاستكبار ، وهذا لا شك أنه نقص عظيم ؛ لأنه كلما كثر علمك ينبغي أن يكثر تواضعك »(١) .

- وضدُّ ذلك خُلُق الاعتزاز بالدين وعلىٰ الكافرين ، فإن هذا من أخلاق الداعية ؛ لأن من اعتزَّ بشيء دعا إليه ، وهكذا من جعل الدين عزيزاً في نفسه فإنه لا يفتأ عن الدعوة إليه وإظهار معالمه ، وإظهار عزَّة النفس به لاسيما أمام الكافرين ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة :٥٤] :

« ومن فوائدها : الثناء علىٰ عزة النفس وقوة الشخصية أمام الكفار وأن نكون أعزة عليهم ، نرىٰ في أنفسنا العلو عليهم والظهور عليهم لا بذواتنا ، ولكن بما معنا من الدين ؛ لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [التوبة :٣٣] ، لماذا؟ ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾أي : الدين أو الرسول صاحب الدين ،

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٤٣) .

فيجب علينا نحن المسلمين أن نعرف قيمتنا في المجتمع الأممي ، وأننا أحق الناس بالبقاء علىٰ الأرض وأحق الناس برزق الله وأحق الناس أن نعلو عليهم ، هذا إذا كان لنا شخصية إسلامية ، لكن لضعف الإيمان وضعف التوكل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ صرنا أذناباً لغيرنا ، أعزاء علىٰ قومنا أذلاء أمام الكافرين ، نسأل الله السلامة والعافية ، نسأل الله أن يهيئ لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة ويذل فيه أهل المعصية »[١] .

وهل من خُلُق الداعية أن يكون عزيزاً علىٰ فُسَّاق المسلمين؟

أجاب الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله :

«الجواب : الذي لم يخرج من الإيمان لا ترىٰ نفسك عزيزاً عليه ولا ذليلاً عليه ؛ لأن معه إيماناً يقتضي أن تكون ذليلاً عليه ، ومعه معصية تقتضي أن تكون عزيزاً ، لكن لا كعزتك علىٰ الكافر ، بل أحبه لما معه من الإيمان واكرهه لما معه من المعاصي ، وحاول أن تصلحه ، فإن كثيراً من الفساق الآن يبتعدون عن الاستقامة ؛ لأنهم يجدون من بعض الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر شدة وصعوبة وتنفيراً ، لكن لو أنهم سلكوا سبيل الرفق لحصل خير كثير ، فأحياناً يقع الإنسان مع أحد العصاة ويدعوه بأسلوب طيب ، لكن يكون رده شديداً فيقول للداعي : لماذا تتدخل ، الأمر لا يهمك ، أنت فضولي ، فإذا قال : الأمر لا يهمك ، لماذا تتدخل ، قل : يا أخي ، أنت أخي والرسول ﷺ يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[٢] ، واصبر علىٰ ما أصابك ، أما أن تقول : بل الأمر يهمني ، أنت فاسق يجب أن نربيك ، يجب أن نؤدبك ، هذا لا يستقيم »[٣] .

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢/ ٤٣-٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢/ ٤٤) .

سادسًا : البعد عن العُجْبِ بالنفس والاعتداد بها ، فلا يعني إظهار العزَّة أن يعتدَّ الداعية بنفسه ويُعْجَب بها علىٰ الآخرين ، فإن هذا خُلُقٌ مذمومٌ ومردودٌ علىٰ صاحبه ، فالعزة بالدين لا بالنفس ، الداعية إلىٰ الله تعالىٰ يعلم أنه ما به من نعمة الهداية والدعوة إنما هو من فضل الله تعالىٰ لا من تلقاء نفسه ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة :٢١٣] .

« - ومن فوائد الآية : أنه يجب علىٰ المرء الذي هداه الله ألا يُعجب بنفسه ، وألا يظن أن ذلك من حوله ، وقوته ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ﴾ ، ثم قال تعالىٰ : ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي أمره الكوني القدري ؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردوا الحق بغيًا وعدوانًا .

- ومنها : الإيماء إلىٰ أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الهداية من الله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ »(١) .

فالداعية إلىٰ الله تعالىٰ يدفعه امتنان الله تعالىٰ عليه إلىٰ حمده وشكره ، والاعتراف بفضله ، والازدياد من العمل الصالح الذي به يستنير هداية علىٰ هدايته ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد :١٧] ، لا أن يُعجب بنفسه علىٰ الآخرين ، فيتعدىٰ حدود الله تعالىٰ بما امتن الله عليه .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « احفظ الله يحفظك في دينك وأهلك ومالك ونفسك لأن الله سبحانه وتعالىٰ يجزي المحسنين بإحسانه وأهم هذه الأشياء هو أن يحفظك في دينك ويسلمك من الزيغ والضلال لأن الإنسان كلما اهتدىٰ زاده الله عَزَّوَجَلَّ هدىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد :١٧] ، وعُلِمَ من

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٣٦) .

هذا أن من لم يحفظ الله فإنه لا يستحق أن يحفظه الله عَزَّوَجَلَّ وفي هذا الترغيب علىٰ حفظ حدود الله عَزَّوَجَلَّ »(١) .

سابعـًا : الترفع عن أخذ الأموال من الناس مقابل الدعوة ، فالداعية عزيز النفس بما أعزَّه الله تعالىٰ من دين وعلم ، يرجو ثواب الله تعالىٰ ، ولا يتخذ دعوته غرضـًا دنيويًّا يتكسب به من أيدي المدعوين ، فليس هذا من أخلاق الداعية ، بل لأخذه من أيدي الناس مقابل دعوته أثر سلبي علىٰ قبول دعوته ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس :٢١] :« من فوائدها : أنه ينبغي للداعية إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أن يترفع عن أخذ ما في أيدي الناس من الأموال حتىٰ وإن أعطوه ؛ لأنه ربما تنقص منزلته إذا قبل ما يُعطَىٰ من أجل دعوته وموعظته ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يسألون الناس أجراً لا بلسان الحال ولا بلسان المقال »(٢) .

---

(١) « شرح الأربعين النووية » لشيخنا ابن عثيمين (٢٢٥)

(٢) « تفسير سورة يس » (٧٦) ، وينبغي التفريق بين هذه المسألة ومسألة أخذ الرزْق من بيت مال المسلمين الذي يصرفه الحاكم في مصالح المجتمع ، والذمَّ الذي أراده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما هو الأخذ من أيدي المدعوِّين ، وأما أخذ الرزْق من بيت مال المسلمين فقد تقدَّم كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه في المسائل المعاصرة علىٰ هذه المسألة وغيرها فلتُراجع ، ومن ذلك قوله بعد الكلام السابق في تفسير الآية : « هل يستفاد من الآية : أنه لا يجوز أخذ رَزْق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب : لا يستفاد ، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولىٰ ، فكون الإنسان يذهب يدعو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بدون أن يأخذ مقابلاً ولا من الحكومة ، لا شك أن هذا أفضل ، وأقرب إلىٰ الإخلاص ، وأشد وقعًا في نفوس الناس ، حتىٰ وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ ؛ لأن الله تعالىٰ يلقي ذلك في قلوب الناس ، أي يلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي ، وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ شيئًا » .

=

ثامنًا: الاستقامة في معاملة الخلق وهي التوسط في سائر الأخلاق، قال

= ولابن تيميَّة تفصيل يوافق ما سبق في «مجموع الفتاوىٰ» (٣٠/ ٢٠٤) وما بعدها: فقد سئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن رجل امتنع من تعليم العلم الشرعي إلا بأجرة، فهل يجوز له ذلك؟
فأجاب: «الحمد لله، أما تعليم القرآن والعلم بغير أجرة فهو أفضل الأعمال وأحبها إلىٰ الله، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ليس هذا مما يخفىٰ علىٰ أحد ممن نشأ بديار الإسلام، والصحابة والتابعون وتابعو التابعين وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقه إنما كانوا يعلمون بغير أجرة، ولم يكن فيهم من يعلم بأجرة أصلا.
«فإن العلماء ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر» والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إنما كانوا يعلمون العلم بغير أجرة، كما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] وكذلك قال هود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم، وكذلك قال خاتم الرسل: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] وقال: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥٥].
وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء في أنه عمل صالح، بل هو من فروض الكفاية، كما قال النبي في الحديث الصحيح: «بلغوا عنىٰ ولو آية»، وقال: «ليبلغ الشاهد الغائب».
وإنما تنازع العلماء في جواز الاستئجار علىٰ تعليم القرآن والحديث والفقه علىٰ قولين مشهورين هما روايتان عن أحمد: إحداهما: وهو مذهب أبىٰ حنيفة وغيره، أنه لا يجوز الاستئجار علىٰ ذلك. والثانية: وهو قول الشافعي أنه يجوز الاستئجار.
وفيها قول ثالث في مذهب أحمد: أنه يجوز مع الحاجة دون الغنىٰ، كما قال تعالىٰ في ولي اليتيم: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ٦].
ويجوز أن يعطىٰ هؤلاء من مال المسلمين علىٰ التعليم، كما يعطىٰ الأئمة والمؤذنون والقضاة، وذلك جائز مع الحاجة.
وهل يجوز الارتزاق مع الغنىٰ؟ علىٰ قولين للعلماء ...
ومأخذ العلماء في عدم جواز الاستئجار علىٰ هذا النفع: أن هذه الأعمال يختص أن يكون فاعلها من أهل القُرَب بتعليم القرآن والحديث والفقه والإمامة والأذان لا يجوز أن يفعله كافر، ولا يفعله إلا مسلم بخلاف النفع الذي يفعله المسلم والكافر كالبناء والخياط والنسج ونحو ذلك، وإذا فعل العمل بالأجرة لم يبق عبادة لله، فإنه يبقىٰ مستحقا بالعوض، معمولاً لأجله،=

الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلاماً جامعاً في هذا الشأن عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير :٢٨] قال :

« والاستقامة كما تكون في معاملة الخالق عَزَّوَجَلَّ وهي العبادة تكون أيضاً في معاملة المخلوق ، فكن مع الناس بين طرفين ، بين طرفي الشدة والغلظة والعبوس ، وطرف التراخي والتهاون وبذل النفس وانحطاط الرتبة ، كن حازماً من وجه ، ولينا من وجه ، ولهذا قال الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في القاضي : (ينبغي أن

= والعمل إذا عمل للعوض لم يبق عبادة كالصناعات التي تعمل بالأجرة ، فمن قال : لا يجوز الاستئجار علىٰ هذه الأعمال قال : إنه لا يجوز إيقاعها علىٰ غير وجه العبادة لله ، كما لا يجوز إيقاع الصلاة والصوم والقراءة علىٰ غير وجه العبادة لله ، والاستئجار يخرجها عن ذلك .
ومن جوَّز ذلك قال : إنه نفع يصل إلىٰ المستأجر فجاز أخذ الأجرة عليه كسائر المنافع .
ومن فَرّق بين المحتاج وغيرِهِ وهو أقرب قال : المحتاج إذا اكتسب بها أمكنه أن ينوي عملها لله ، ويأخذ الأجرة ليستعين بها علىٰ العبادة ، فإن الكسب علىٰ العيال واجب أيضاً ، فيؤدي الواجبات بهذا ، بخلاف الغني لأنه لا يحتاج إلىٰ الكسب ، فلا حاجة تدعوه أن يعملها لغير الله ، بل إذا كان الله قد أغناه ، وهذا فرض علىٰ الكفاية ، كان هو مخاطبا به ، وإذا لم يقم إلا به كان ذلك واجبا عليه عينا ، والله أعلم » انتهىٰ باختصار .
وللشنقيطي كلام أيضاً نحو هذا في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [هود :٢٩] ، قال : « ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة : أن الواجب علىٰ أتباع الرسل من العلماء ، وغيرهم : أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً ، من غير أخذ عوض علىٰ ذلك ، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة علىٰ تعليم كتاب الله تعالىٰ ، ولا علىٰ تعليم العقائد ، والحلال والحرام ...ثم قال : « الذي يظهر لي -والله تعالىٰ أعلم- : أن الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضرورية : فالأولىٰ له ألا يأخذ عوضاً علىٰ تعليم القرآن ، والعقائد ، والحلال والحرام ؛ للأدلة الماضية ، وإن دعته الحاجة : أخذ بقدر الضرورة ، من بيت مال المسلمين ؛ لأن الظاهر أن المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة علىٰ القيام بالتعليم ، لا من قبيل الأجرة .
والأولىٰ لمن أغناه الله : أن يتعفف عن أخذ شيءٍ في مقابل التعليم للقرآن ، والعقائد ، والحلال والحرام » اهـ ، « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » (٢ / ١٧٩ ، ١٨٢) .

يكون لينـاً من غير ضعف ، قويًّا من غير عنف) ، فلا يكون لينه يشطح به إلىٰ الضعف ، ولا قوته إلىٰ العنف ، يكون بين ذلك ، ليِّنـاً من غير ضعف ، قويًّا من غير عنف حتىٰ تستقيم الأمور ، فبعض الناس مثلاً يعامل الناس دائمـاً بالعبوس والشدة وإشعار نفسه بأنه فوق الناس وأن الناس تحته ، وهذا خطأ ، ومن الناس من يحط قدر نفسه ويتواضع إلىٰ حد التهاون وعدم المبالاة بحيث يبقىٰ بين الناس ولا حرمة له ، وهذا أيضـاً خطأ ، فالواجب أن يكون الإنسان بين هذا وبين هذا كما هو هدي النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، فإنه (يشتدّ في موضع الشدة ، ويلين في موضع اللين ، فيجمع الإنسان هنا بين الحزم والعزم ، واللين والعطف والرحمة »[1] .

تاسعـاً : إجابة السائل عن العلم وعدم نهره، وهي من أهم الأخلاق للداعية ، في جوابه عن سؤالات المدعوِّين أو حلِّه لمشكلاتهم وما نزل بهم ، وبيانه للمخرج أو للحكم الشرعي ، يجب أن يكون مفتاحـاً لهم لا مغلاقـاً فيما يعرضونه عليه من سؤال أو مشورة ، كما هو فعل النبي ﷺ ، يأتيه المستفهم عن الدين ، ويأتيه من يقول له (هلكت) يا رسول الله فما يخرج منه إلا وقد أخذ المخرج الشرعي لما نزل به ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾[الضُّحىٰ :١٠] :

« ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ أول ما يدخل في السائل ، السائل عن الشريعة عن العلم لا تنهره ؛ لأنه إذا سألك يريد أن تبيِّن له الشريعة ، وجب عليك أن تبيّنها له ؛ لقول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران :١٨٧] .

---

(١) « تفسير جزء عم » سورة التكوير (٨٥) .

لا تنهره إن نهرته نفرته ، ثم إنك إذا نهرته وهو يعتقد أنك فوقه ؛ لأنه لم يأت يسأل إلا أنه يعتقد أنك فوقه ، إذا نهرته وهو يشعر أنك فوقه أصابه الرعب واختلفت حواسه ، وربما لا يفقه ما يلقي إليك من السؤال ، أو لا يفقه ما تلقيه إليه من الجواب ، وقس نفسك أنت لو كلمت رجلاً أكبر منك منزلة ثم نهرك ضاعت حواسك ، ولم تستطع أن ترتب فكرك وعقلك ، لهذا لا تنهر السائل ، وربما يدخل في ذلك أيضاً سائل المال ، يعني إذا جاءك سائل يسألك مالاً فلا تنهره ، لكن هذا العموم يدخله التخصيص : إذا عرفت أن السائل في العلم إنما يريد التعنت ، وأخذ رأيك وأخذ رأي فلان وفلان حتىٰ يضرب آراء العلماء بعضها ببعض ، فإذا علمت ذلك فهنا لك الحق أن تنهره ، وأن تقول : يا فلان اتق الله ألم تسأل فلاناً كيف تسألني بعدما سألته؟! أتلعب بدين الله؟! أتريد إن أفتاك الناس بما تحب سكتّ ، وإن أفتوك بما لا تحب ذهبت تسأل؟! . هذا لا بأس أن تنهره ؛ لأن هذا النهر تأديب له . وكذلك سائل المال إذا علمت أن الذي سألك المال غني فلك الحق أن تنهره ولك الحق أيضاً أن توبخه علىٰ سؤاله وهو غني ، إذاً هذا العموم ﴿ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ مخصوص فيما إذا اقتضت المصلحة أن ينهر فلا بأس »[1] .

الجانب الثاني : مضامين أخلاق الداعية مع الدعاة والعلماء .

جاء في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخلاقاً ينبغي للداعية أن يراعيها مع غيره من الدعاة والعلماء ، فإن الداعية ذو ارتباط وثيق بعلمائه يتردد عليهم بالاستفادة منهم ومشاورتهم ، والصدور عن رأيهم ، وبالدعاة معه يتعاون معهم ويستفيد منهم .

- أبرز المضامين الدعوية في أخلاق الداعية مع الدعاة والعلماء :

أولاً : البعد عن النزاع والحث علىٰ اجتماع الكلمة ، وهذا مهم بين الدعاة ؛

---

(١) « تفسير جزء عم » سورة الضحىٰ (٢٣٩-٢٤٠) .

ذلك أنهم أصحاب دعوة واحدة، وفي ميدان واحد، وهدف واحد وهو الدعوة إلىٰ الحق وإزهاق الباطل، ومتىٰ كانت الفرقة بين الدعاة، وظهر النزاع بينهم وتعدىٰ إلىٰ العامة من المدعوِّين كان ذلك له أثر سلبي، ولقد جعل الله تعالىٰ الاجتماع من مواطن القوة المؤثرة في أي عمل للخير، كما أن الافتراق والتحزُّب سبب في الضعف والفشل، وفرصة للأعداء في نيل مآربهم فقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

وأول مَن نحتاج إلىٰ الالتفاف حولهم ورصِّ الصف معهم هم العلماء الربانيُّون والعاملون معهم من الدعاة الصادقين، والمجاهدين في سبيل الله، وكلَّما كانت القيادات الموجِّهة أقلَّ، كانت الوحدة والجماعة أكثر، أما قيادات العمل والتفعيل والتنفيذ فهذه من طبيعتها أن تكثر لتستوعب الأمة، فالإجتماع هو أساس من أسس ظهور الحق وقوته، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٢]: «الحثُّ علىٰ اجتماع الكلمة، وجهه أن النزاع سبب للخذلان، فيكون الاتفاق سبب للنصر وهو كذلك، الاجتماع اجتماع الناس علىٰ كلمة واحدة لا شك أنه سبب للنصر، ولهذا ينبغي لطلبة العلم وللعلماء أن لا يظهر خلافهم ونزاعهم أمام العامة، اختلاف الآراء لا بد أن يكون، لكن كون كل واحد منهم يعيب علىٰ الآخر إن خالفه، هذا خطر عظيم جدًّا؛ لأن العامة ترىٰ هذا النزاع فلا تثق بواحد منهم، علىٰ أن العامة أيضـًا سوف يتفرقون، فالنزاع لا شك أنه سبب للخذلان والفشل وتمزق الأمة»[1].

---

(١) «تفسير آل عمران» (٢/ ٣١٤).

ثانيًا : فقه الخلاف ، والحذر من تغيُّر القلوب لمجرد الاختلاف في مسائل الاجتهاد السائغة ، فإن من أهم ما ينبغي للداعية معرفته ، حسن الظن بأخيه المختلف معه في مسألة فرعية يسوغ فيها الخلاف ، وإن من حسن الظن به أن يظن بأنه لم يختلف معه إلا للوصول إلىٰ الحق ، فلا يُهدم أصل الإخوة لمجرد خلاف سائغ عند أهل العلم ، فمازال الصحابة يختلفون باجتهاداتهم ، ويجتمعون بقلوبهم تحت سقف الإخوة ، ولكم اشتكت ساحة الدعوة اليوم من قلة الفقه للخلاف ، وعدم التفريق بين الخلاف السائغ وغيره ، أو بين مسائل الإصول والعقائد وبين مسائل الفروع ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[آل عمران :١٠٣] :

« من فوائد الآية : تحريم التفرق في القلوب ، لأن المدار علىٰ التفرق في القلوب ، أما التفرق في الأبدان فضروري أن يتفرق الناس ، كلٌّ الآن في بيته ، وفي الأقوال أيضـًا يتفرقون ، وما أكثر الخلاف بين أهل العلم قديمـًا وحديثـًا في المسائل العلمية ، لكن الذي يجب علىٰ المسلمين أن يبعدوا عنه ، هو التفرق بينهم في القلوب لأنه هو الذي عليه المدار ، ولهذا قال الرسول ﷺ : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم »[1] فالمدار علىٰ القلوب ، إذن في هذه الآية دليل علىٰ تحريم التفرق في القلوب حتىٰ لو تفرقت الأبدان أو تفرقت الأقوال ، فالواجب أن القلوب لا تتفرق ، وكان اختلاف الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في الاجتهاد المؤدي إلىٰ التفرق في الأقوال لكن القلوب واحدة ، لا يكره بعضهم بعضـًا إذا خالفه في الرأي . بل إني أؤكد ما ذكرت سابقـًا : إنه ينبغي للإنسان العاقل أنه إذا خالفه أخوه في رأيه بمقتضىٰ الدليل عنده أن يكون ذلك أدعىٰ إلىٰ قوة المحبة له لأنه خالفه للدليل ، والثاني أيضـًا خالفه للدليل ، فكان ينبغي عليه أن

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٢) .

تكون محبته أقوىٰ ؛ لأن الرجل لم يحابني في ذات الله ، وإنما قدَّم محبة الله . وأنا حينما أخالفه تقديماً لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ ، فالإنسان العاقل المؤمن هو الذي لا تزيده مخالفة أخيه له في الرأي تلك المخالفة المبنية علىٰ الاجتهاد إلا محبة له وتمسكاً به . خلافاً لما يفعله بعض الناس الآن ومع الأسف أنهم طلبة علم إذا خالفه أخوه في الرأي ، مع أنه لا يعلم الصواب عنده أو عند أخيه أبغضه وكرهه وهجره ، وربما يلاقيه فاسق فيسلم عليه ، ويلاقيه أخوه الذي خالفه في الرأي ولا يسلم عليه ، وما ذاك إلا من الشيطان ، الشيطان هو الذي يريد أن يوقع العداوة بين المسلمين ولا سيما بين طلبة العلم حتىٰ ينبذ بعضهم بعضاً ؛ لأن الشيطان يعلم أن الشريعة لا تقوم إلا بالعلم وبالعلماء ، فإذا تنابذوا وتقاطعوا فيما بينهم ، وصار بَعضهم يكره بعضاً ؛ ارتكبوا مخالفة لنصوص الكتاب والسنّة التي تأمر العباد بالاجتماع والألفة ، وتنهاهم عن الاختلاف والفرقة . ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[آل عمران :١٠٣] »[١] .

ومن فقه الخلاف أن ينتصر الداعية للحق لا للنفس في الدعوة إلىٰ الله ، وإلىٰ هذا أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله : « انتبه لهذه الفائدة وأنت طالب علم ، وربما يخالفك من يخالفك من الناس بمقتضىٰ الدليل ولكن تريد أن تفرض رأيك ، هذا غلط كبير ، اتبع الحق أينما كان ، يتبعك الناس أينما كنت ؛ لأن الناس يطلبون الحق ، فإذا رأوا منك أنه متىٰ بان لك الحق رجعت ، رجعوا ، إذاً : التواضع للحق هو في الحقيقة علو ، كما قال النبي ﷺ : « من تواضع لله رفعه »[٢] ، وضد ذلك الاستكبار ، الاستكبار والعياذ بالله يوجب أن لا يقبل الحق ولا يتبع »[٣] .

---

(١) « تفسير آل عمران »(١ / ٦٠١-٦٠٢) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢٧٩) .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، قال: «من فوائد الآية: الإشارة إلىٰ أنه يجب علىٰ الإنسان إذا خالفه غيره، ألا يتطاول عليه، وألا يقصد بسوق الأدلة المؤيدة لقوله البغي علىٰ غيره، والتطاول عليه، بل يقصد إظهار الحق، لينتفع هو وينفع غيره، أما أن يأتي بالأدلة من أجل أن يعلو علىٰ أخيه، ويكون قوله هو الأعلىٰ، فهذا خطأ عظيم»[1].

ومن فقه الخلاف، التماس العذر للمخالف مريد الحق، وعدم لمزه والسخرية منه، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالواجب علىٰ الإنسان إذا خالف غيره أن يلتمس له العذر، ثم يتصل بهذا المخالف ويبحث معه، فربما يكون الحق مع من خالفه ويناقشه بأدب واحترام وهدوء، حتىٰ يتبين الحق، وأما سخريته بما خالف رأيه أو رأي شيخه فهذا غلط، وكل إنسان يخالفك في قولك فإن الواجب عليك أن تحمله علىٰ أحسن المحامل وأن هذا اجتهاده، وأن الله عَزَّوَجَلَّ سيأجره علىٰ اجتهاده إذا أخطأ، وإن أصاب فله أجران»[2].

ومن فقه الخلاف، التشاور والتناصح لا التفاضح والتنافر، يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبلادنا ولله الحمد- اليوم من آمن بلاد العالم، وهي من أشد بلاد العالم رغداً وعيشاً. أطعمنا الله تعالىٰ من الجوع، وآمننا من الخوف، فعلينا أن نشكر هذه النعمة، وأن نتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وعلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلىٰ الدعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة وتأنٍ وتثبت، وأن نكون إخوة متآلفين، والواجب علينا ولاسيما علىٰ طلبة العلم إذا اختلفوا

---

(١) «تفسير آل عمران» (١ / ١٢٩).

(٢) «تفسير سورة الحجرات» (٣٩).

فيما بينهم أن يجلسوا للتشاور، وللمناقشة الهادئة التي يقصد منها الوصول إلىٰ الحق، ومتىٰ تبين الحق للإنسان وجب عليه اتباعه، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه؛ لأنه ليس مشرعـًا معصومـًا حتىٰ يقول إن رأيه هو الصواب، وأن ما عداه هو الخطأ، الواجب علىٰ الإنسان المؤمن أن يكون كما أراد الله منه، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، أما كون الإنسان ينتصر لرأيه ويصر علىٰ ما هو عليه، ولو تبين له أنه باطل فهذا خطأ، وهذا من دأب المشركين الذين أبوا أن يتبعوا الرسول وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٣]»[1].

ثالثـًا: الحذر من التفاخر بالأعمال الدعوية أو بالعلم الشرعي، وهذا الخُلُق من شأنه أن يمحق بركة العمل الدعوي ويبدد الجهود، ويفسح للشيطان مدخلاً بتغيير النيّة الصالحة إلىٰ منافسة مذمومة، واعتدادٍ بالنفس، ويوغل في الصدور، ويثير الشحناء، حتىٰ ينسىٰ الداعية فضل الله عليه بالدعوة وامتنانه عليه بهذه الوظيفة العظيمة، بسبب تفاخره بما عنده من جهود دعوية أو علم شرعي، وهو ما أشار إليه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير لقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، حيث قال: «﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: كل واحد يفخر علىٰ الثاني، إما بالقبيلة، أو بالعلم، يكون هذا عنده علم بالطب، وهذا لا يعرف، وهذا علمه بالهندسة وهذا لا يعرف، فيفخر عليه، وأقبح من ذلك التفاخر بالعلم الشرعي؛ لأن العلم الشرعي يجب علىٰ الإنسان إذا اكتسبه ومنَّ الله عليه به أن يزداد تواضعـًا، وأن يعرف نفسه وقدر نفسه، ومن ذلك ما يحصل بين الشعراء في بعض الأحيان

---

(١) «تفسير جزء عم» آخر تفسير سورة قريش (٣٢٤).

من التطاول علىٰ الآخرين ومن التفاخر كما يوجد في بعض الأفراح وبعض المناسبات مما نسمع »(١) .

رابعـًا : حسن تعامل الداعية وتلطفه مع شيخه ، فإن هذا الخُلُق من رَحِمِ الوصل ، والامتنان لأهل الفضل ، وللداعية في تعامل موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الخضر أسوة حسنة ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف :٦٦] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ أي قال موسىٰ للخضر : هل أتبعك ، وهذا عرض لطيف وتواضع ، وتأمّل هذا الأدب من موسىٰ (مع أن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أفضل منه وكان عند الله وجيهـًا ، ومع ذلك يتلطف معه لأنه سوف يأخذ منه علمـًا لا يعلمه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وفي هذا دليل أنَّ علىٰ طالب العلم أن يتلطف مع شيخه ومع أُستاذه وأن يُعامله بالإكرام »(٢) .

وقال في موضع آخر : « قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف :٧٠] أي : إلىٰ أن أذكر لك السبب ، وهذا توجيه من معلم لمن يتعلم منه ، ألا يتعجل في الرد علىٰ معلمه ، بل ينتظر حتىٰ يحدث له بذلك ذكراً ، وهذا من آداب المتعلم ألا يتعجل في الرد حتىٰ يتبين الأمر »(٣) .

ومن خلال المضامين السابقة تتضح أهمية الأخلاق في حياة الداعية وتأهيله ، وكيف أن الداعية من أكثر الناس خُلْطَة بالناس علىٰ اختلاف أصنافهم ، فهو بحاجة إلىٰ تأهيل يتناسب مع جميع فئات المجتمع ، مع المدعوِّين وإخوانه

---

(١) « تفسير سورة الحديد » (٤٠٣) .

(٢) « تفسير سورة الكهف » (١١٣) .

(٣) « تفسير سورة الكهف » (١١٥) .

الدعاة، ومع علمائه الذين يتردد عليهم وينفذ عن رأيهم، فهو سيتعامل مع مختلف طبائع الناس، فلا بد أن يكون هيِّنًا في غير ضعف، ورفيقا ليِّنًا عند توجيه الناس والإنكار عليهم، مشفقًا علىٰ حالهم، راغبًا في هدايتهم، والداعية لابد أن يواجه أذىٰ في وسطه الدعوي؛ لأنه سيدعو الناس إلىٰ ما يخالف أهواءهم، ومظنَّة الأذىٰ في ذلك واردة سواء كان حسيًّا أو معنويا، وعليه استعمال العفو والصفح والتسامح ما لم يترتب علىٰ ذلك مفسدة، وإن من أرجىٰ الأخلاق قبولاً من المدعوِّين هو خفض الجناح والتوضع لهم، مبتعداً عن الكِبْرِ والعُجْب والاعتداد بالنفس، فإن هذا من أفتك الأخلاق التي تُخِلُّ بتأهيل الداعية إلىٰ الله تعالىٰ، بل عليه مخالطة الناس والصبر علىٰ أذاهم، وبذل النفس والعلم لهم وهذا من كرم الداعية كما تقدَّم في المضامين، فإن البذل يكون بالنفس والمال والعلم، والداعية إلىٰ الله تعالىٰ كلما بذل نفسه للمدعوِّين بالإجابة عن أسئلتهم وحل إشكالاتهم، وتوضيح المخارج الشرعية لما حلَّ بهم، كان رحمة للناس ومنفِّسًا لكروباتهم وهمومهم وما أشكل عليهم.

ومما دلت عليه المضامين السابقة أهمية حسن تعامل الداعية مع إخوانه الدعاة وعلمائه، والحرص علىٰ جمع الكلمة وتوحّد القلوب، والبعد عن كل ما يثير النزاعات والشقاق والتصنيف، والتراشق واتهام النيَّات، وتغيّر القلوب لاسيما عند الاختلاف في مسائل الاجتهاد السائغة، أو الأفكار الدعوية ونحوها مما جرت العادة فيه بتبادل الآراء والأقوال، وعلىٰ الداعية أن ينشد الحق وينتصر له لا ينتصر لنفسه، ويلتمس العذر لمن خالفه، وبثِّ روح التناصح والتعاون والتشاور لا التفاضح والتنافر والافتراق؛ لتثمر دعوته، ويحسن تأهيله، ويبلغ بجميل قصده التأهيل المنشود، ويكون بذلك داعية بفعله قبل قوله، وهو ما يحتاجه واقعنا اليوم.

المبحث الخامس: التأهيل العملي للداعية

عمل الداعية في ميدان الدعوة هو وظيفته الذي إن أحسن فيه دخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت:٣٣]، وإن من دواعي الإحسان في العمل الدعوي الاستمرار فيه، إذ أن المداومة علىٰ العمل الصالح من أحب الأعمال إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن الانقطاع الكلي أو الجزئي في الأعمال الدعوية يؤدي إلىٰ الإخفاق فيه وتأخره، وضعف مخرجاته، «وواجب الدعوة إلىٰ الله ليس له وقت محدَّد كالصلاة والصيام، ولهذا فإنَّ هذا الواجب يؤدِّيه المسلم في جميع الأحوال والظروف، وفي كلِّ وقتٍ يتيسَّر له فيه أداؤه، قال تعالىٰ مخبرًا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٥-٩]، وكذلك كان رسولنا محمد ﷺ يدعو قومه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، ولم يشغله شيء عن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، والواقع أن الداعي إذا كان صادقًا في دعوته منشغلًا بها، لا يفكِّر إلّا فيها، ولا يتحرَّك إلّا من أجلها، ولا يبخل عليها بشيء من جهده ووقته، لم يشغله عنها شاغل أبدًا حتىٰ في أحرج الساعات وأضيق الحالات وأدق الظروف، وهكذا كان رسولنا محمد ﷺ، فعندما هاجر إلىٰ المدينة ومعه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لقي في طريقٍ بريدةَ بنَ الحصيب الأسلمي، في ركبٍ من قومه فيما بين مكة والمدينة، فدعاهم إلىٰ الله، حتىٰ وهو في طريقه مهاجرًا إلىٰ المدينة والقوم يطلبونه. ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما دخل السجن مظلومًا لم يشغلها السجن وضيقه عن واجب الدعوة إلىٰ الله، ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن

رؤيا رأياها، فقال لهما قبل أن يجيبهما ما أخبرنا الله به: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠] »[١].

والاستمرارية في العمل كان هدياً للنبي ﷺ وعامة أهل بيته في سائر شؤونهم، وهو أحب الأعمال إلىٰ الله تعالىٰ، قال ﷺ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا، وإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ، وإِنْ قَلَّ »، قالت عائشة: وكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ[٢].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قوله (وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملا أثبتوه) أي: لازموه وداوموا عليه، والظاهر أن المراد بالآل هنا أهل بيته وخواصه ﷺ من أزواجه وقرابته ونحوهم »[٣].

ثم إذا ثبت الداعية واستمر في العمل الدعوي، عليه أن ينظر إلىٰ الجوانب الأخرىٰ في تأهيله العملي، ولقد ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ جوانب عملية في تفسيره ينبغي للداعية مراعاتها، ويمكن تقسيم الجوانب العملية المهمة للداعية إلىٰ قسمين:

١- ما يتعلَّق بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه.

٢- ما يتعلَّق بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوِّين.

الجانب الأول: ما يتعلَّق بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه.

---

(١) « أصول الدعوة » لعبدالكريم زيدان (٣٢١)

(٢) أخرجه مسلم (٧٨٢).

(٣) « شرح مسلم » (٦ / ٧٢).

هناك أعمال ذاتية للداعية تعتبر مغذيَّات إيمانية عملية مهمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ينبغي للداعية أن يراعيها عمليًّا ؛ ليكتمل تكوينه الدعوي .

- المضامين الدعوية المتعلِّقة بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه .

أولاً : اشتغال الداعية بالعبادة ، والعبادة من الأعمال المهمة في التأهيل الدعوي ، فلئن كان الداعية يدعو الناس إلىٰ الحكمة من وجودهم علىٰ هذه الأرض ، وهي عبادة الله تعالىٰ فإنه أكثر الناس استزادة من هذا المؤَهَّل العملي ؛ لما حباه الله تعالىٰ من العلم والبصيرة ، ولقد كان النبي ﷺ أعبد الناس ، وهكذا سائر المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ لأن العبادة هي الزاد الإيماني الذي يستنير به القلب ، فيزداد نشاطـًا في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، والتضحية لدينه .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة :٩٠] : « ومن فوائد الآية : أن هذا الفضل الذي نزَّله الله لا يجعل المفضَّل به ربـًا يُعْبد ؛ بل هو من العباد ...

ويتفرع عنها أن من آتاه الله من فضله من العلم ، وغيره ينبغي أن يكون أعبد لله من غيره ؛ لأن الله تعالىٰ أعطاه من فضله ؛ فكان حقه عليه أعظم من حقه علىٰ غيره ؛ فكلما عظم الإحسان من الله عَزَّوَجَلَّ استوجب الشكر أكثر ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقوم في الليل حتىٰ تتورم قدماه ؛ فقيل له في ذلك ؛ فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[١] .

ويتفرع عنها : أن بعض الناس اغتر بما آتاه الله من العلم ، فيتعالىٰ في نفسه ، ويتعاظم حتىٰ إنه ربما لا يقبل الحق ؛ فحُرِم فضل العلم في الحقيقة »[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٩٥) ، وانظر : « تفسير سورة المائدة » (١ / ٤٣٣) .

فينبغي للداعية أن يتفرغ للعبادة ملازماً لها، قائماً بين يدي الله تعالىٰ متضرعاً له أن يثبته علىٰ الدين، ويعينه علىٰ تحمل أعباء الدعوة والقيام بها علىٰ أكمل وجه، فيدعو الناس إلىٰ دين الله تعالىٰ وعبادته كما كان الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولاسيما أيام الفتن التي ينشغل فيها الناس عن العبادة والقرب من الله تعالىٰ، فمن واجبات الداعية التحصُّن بالعبادة ودعوة الناس لها، وتذكيرهم بفضلها وأثرها وأهميتها، وعِظَم أجرها، قال ﷺ: « العِبَادَةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ »[1]، وسبب كون العبادة في الفتن فضلها عظيم كهجرة إلىٰ النبي ﷺ، هو انشغال الناس عنها[2]، ولذا الداعية أكثر الناس تمسُّكاً بهذا الجانب العملي، وأحرصهم تذكيراً بالعبادة وأهميتها وفضلها.

وكلما كان الداعية أكثر تعبُّداً لله تعالىٰ واتبع رضوانه كان أبعد عن مضلات فتن الدنيا ومطامعها، وأقرب إلىٰ الله تعالىٰ ورضوانه، فكان ذلك سبباً في ازدياد تفقهه في دين الله تعالىٰ.

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة: ١٦]:

« من فوائد الآية: أنه كلما اتبع الإنسان ما يرضي الله ازداد معرفة بشريعة الله، لقوله: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾، واذكرها بالعكس من أعرض عن رضوان الله فإنه لا يهدىٰ سبل الله؛ لأنه ليس أهلاً للهداية، وعلىٰ هذا فنقول لكل طالب علم: أتريد أن يهديك الله ويرزقك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨).

(٢) انظر: « شرح مسلم » للنووي (١٨ / ٨٨).

علماً؟ سيقول: بلى، نقول: عليك باتباع رضوان الله، كلما رأيت شيئاً يرضي الله فافعله، وكلما رأيت شيئاً يغضب الله فاجتنبه»[1].

وعلى الداعية أن يتعوَّذ من فتنة الدنيا[2]، وسائر الفتن كما كان النبي ﷺ يفعل ويأمر[3]، وأن يشكر الله تعالى أن منَّ عليه بالدعوة. والعلم والعبادة فإن الشكر أدعى لقرار النعم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠]: «من فوائد الآية: التنصيص على النعمة بالعلم والشرع والحكمة، وأنها أخص من مطلق النعمة؛ لأن مطلق النعمة سبق في قوله تعالى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ لكن العلم خصه فقال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾، وعلى هذا فيجب على طالب العلم أن يشكر الله تعالى على نعمته عليه، حيث خصَّه بالعلم الذي حَرَمَهُ كثيراً من الناس، وإذا منّ الله عليه بالعبادة والدعوة إلى الله صار نعمة فوق نعمة، فكم من أناس ضلوا عن سواء السبيل، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦]، والإنسان إذا شعر بنعمة الله عليه بالعلم والعبادة والدعوة

---

(١) «تفسير سورة المائدة» (١ / ٢١٥).

(٢) عن سَعْدِ بنِ أَبِي وقَّاصٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ، كَمَا تُعَلَّمُ الكِتَابَةُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وأَعُوذُ بكَ مِنَ الجُبْنِ، وأَعُوذُ بكَ مِنْ أَنْ نُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ، وأَعُوذُ بكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وعَذَابِ القَبْرِ» أخرجه البخاري (٦٣٩٠).

(٣) في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النبي ﷺ: «تَعَوَّذُوا باللهِ مِنَ الفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ» قَالُوا: نَعُوذُ باللهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ... »الحديث. أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

فإنه يزداد فرحًا وسروراً ومثابرة وصبراً علىٰ ما هو عليه من طلب العلم وازدياد العبادة وقوة الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ »[(١)] .

ثانيًا : البعد عن المعاصي ، قد لا يدرك الداعية عظيم أثر المعاصي والران الذي يغطِّي القلب ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله ، فمنها : حرمان العلم ، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعصية تطفئ ذلك النور .

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأىٰ من وفور فطنته ، وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إني أرىٰ الله قد ألقىٰ علىٰ قلبك نورا ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

شكوت إلىٰ وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلىٰ ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتاه عاصي[(٢)]

ومنها : الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ، ولاسيما أهل الخير منهم ، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم ، وحرم بركة الانتفاع بهم ، وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما بعد من حزب الرحمن ، وتقوىٰ هذه الوحشة حتىٰ تستحكم ، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه ، وبينه وبين نفسه ، فتراه مستوحشا من نفسه »[(٣)] .

ويقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أثر المعاصي ، وحثِّ الداعية علىٰ تركها :

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٥١٠) .

(٢) « ديوان الإمام الشافعي »(٣٣) .

(٣) « الداء والدواء » لابن القيم (٥٢) .

« قد يكون عند الإنسان علم ، وفهم ، وجلد ، وتدبر ؛ لكن هناك ذنوباً تحول بينه ، وبين وصوله للحق ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين :١٣-١٤] ؛ لأن المعاصي تُظلم القلب ؛ وإذا أظلم القلب لا يستنير ؛ وكيف يتبين له الحق وهو مظلم؟! ولهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء :١٠٥] ، ثم قال تعالىٰ : ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء :١٠٦] ، أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أنه ينبغي لمن سئل عن علم أن يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ حتىٰ تزول عنه الذنوب باستغفاره[1] ، ويتبين له الحق ؛ وعلىٰ هذا فنقول : إن جميع الأحكام التي تتعلق بالعبادات ، أو المعاملات قد بينها الله لكن العيب عيب المستدل ؛ فالأدلة واضحة كافية ؛ لكن المستدل قد تخفىٰ عليه الأحكام للأسباب التي ذكرناها ، وغيرها »[2] .

ثالثاً : الدعاء بالثبات والعلم النافع ، وهو من الجوانب العملية ذات الأثر الكبير ، فينبغي للداعية أن يدعو الله تعالىٰ لنفسه بالعلم النافع والعمل الصالح والثبات علىٰ الحق ، لاسيما عند كثرة المليهات وأزمان الفتن ، عَنْ أَنَسٍ قال : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : « يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ » ،

---

(١) وأشار إلىٰ معنىٰ الاستغفار عند استغلاق العلم والفتوىٰ في موضع آخر ، فقال : « ... إن بعض العلماء يقول إذا استفتاك شخص فاستغفر الله قبل أن تفتيه ، لأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين الهدىٰ واستنبط ذلك من قول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء :١٠٥-١٠٦]. وهذا استنباط جيد، ويمكن أيضاً أن يستنبط من قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد :١٧] . والاستغفار هو الهدىٰ ، لذلك أوصيكم بالمراقبة ، وكثرة الاستغفار ، ومحاسبة النفس حتىٰ نكون علىٰ أهبة الاستعداد خشية أن يفجأنا الموت - نسأل الله أن يحسن لنا الخاتمة »اهـ. تفسير سورة عم (٥٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ١٢١) .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، آمَنَّا بكَ وبِمَا جِئْتَ بهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قال : « نَعَمْ ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ »(١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة :٢٣٩] :« من فوائد الآية : حث الإنسان علىٰ طلب العلم ، وأن يسأل الله من فضله ؛ لأنه تبارك وتعالىٰ هو المعلِّم ، فلا يعتمد علىٰ حوله وقوته وذكائه وفطنته ، فكم من إنسان ذكي فَطِنٍ حُرم الوصول إلىٰ العلم النافع ، وكم من إنسان دونه وفِّق للوصول إلىٰ العلم النافع .

فعليك يا أخي المسلم باللجوء إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ لطلب العلم ، قل : اللهم يا معلِّم إبراهيم علِّمني ، ويا مُفهِّم سليمان فهِّمني »(٢) .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس :١٠] ، قال : « ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي من أرداها في المهالك والمعاصي ، وهذا يحتاج إلىٰ دعاء الله سبحانه وتعالىٰ أن يثبت الآنسان علىٰ طاعته ، وعلىٰ القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة . فعليك دائماً أن تسأل الله الثبات والعلم النافع ، والعمل الصالح فإن الله تعالىٰ قال : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة :١٨٦] »(٣) .

وكما يدعو الداعية لنفسه ، فإنه يدعو لمدعوِّيه بالهداية وسلوك طريق

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وحسَّنه ، وصحح إسناده الحاكم « المستدرك » (١ / ٧٠٦) ، وله شاهد من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا صححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير » (٢ / ٨٧١) (٤٨٠١) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١٩٧-١٩٨) .

(٣) « تفسير جزء عم » سورة الشمس (٢٢٣) .

الاستقامة ، كما كان يفعل ﷺ ، ففي « صحيح مسلم » ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وأنَا أَبْكِي ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَىٰ الإِسْلَامِ فَتَأْبَىٰ عَلَيَّ ، فَدَعَوْتُهَا اليَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هريرة فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ » فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بدَعْوةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ ، ثم كان إسلامها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [(١)] .

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : قَدِمَ الطُّفَيْلُ وأَصْحَابُهُ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وأَبَتْ ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا فَقِيلَ : هَلَكَتْ دَوْسٌ فَقَالَ : « اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وائْتِ بِهِمْ »[(٢)] .

وإلىٰ هذا الجانب العملي أشار الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[النساء :٨٨] حيث قال : « من فوائد الآية : الإشارة إلىٰ اللجوء إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ في طلب الهداية ؛ لقوله : ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ، وعليه : فإذا دعونا أحداً إلىٰ الحق فأبىٰ وتردد فإننا نلجأ إلىٰ الله أن يهديه ؛ لأن الله علىٰ كل شيء قدير ، وكم من أناس كانوا أشقىٰ القوم فصاروا أسعدهم ، وكانوا أفسد القوم فصاروا أصلحهم ، وما أمر عمر بن الخطاب الرجل الثاني من أتباع الرسول ﷺ ببعيد! وهذا خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، كانوا في أحد كفاراً معادين للإسلام ، يريدون القضاء علىٰ أهل الإسلام ، ويريدون قتل الرسول ﷺ ، وقتل الصحابة ، ومع ذلك كانوا بعد هذا قادة وشجعانـًا في نصرة الإسلام وهزيمة الكفار »[(٣)] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩١) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٣٧) ، ومسلم (٢٥٢٤) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٧٠) .

رابعًا : أن يمتثل ما يأمر به وينهىٰ عنه ، فيبدأ بنفسه قبل دعوة الآخرين لما يأمر به أو ينهىٰ عنه ؛ لأن هذا أدعىٰ للقبول منه ، وكم من داعيةٍ امتثل الناس لأمره ونهيه دون أن يدعوهم بقوله وإنما بفعله ، وربّ داعية أكثر التوجيه ولكنه جعل بينه وبين المدعوِّين حاجز التقصير لما يدعو إليه ، ولقد نهىٰ الله تعالىٰ عباده عن ذلك باستفهام إنكاري ، فقال تعالىٰ : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة :٤٤] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« من فوائد الآية : أن هذا المنهج يوجب ألا يأتمر الناس بأمر الآمر ولا ينتهوا بنهيه ؛ لأنهم سيقولون : لو كان هذا خيراً لكان أول من يفعله ، ولو كان شرّاً لكان أول من يجتنبه ، فكيف يأمرنا ولا يفعل أو ينهانا ويفعل؟ فيكون في هذا منع لسلوك الناس سبيل البر .

– ومن فوائد الآية الكريمة : الإشارة إلىٰ أن الإنسان ينبغي له إن لم نقل يجب عليه–أن يبدأ بنفسه ، وقد دلت السنة علىٰ ذلك قال النبي ﷺ : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك »[1] ، ولا ريب أن أقرب شيء إليك هو نفسك ، فكونك تسعىٰ لإصلاح غيرك مع فساد نفسك ، لاشك أن هذا خلاف الشرع وخلاف العقل .

– ومن فوائد هذه الآية الكريمة : أن العالم يلحقه من اللوم ومن الذم أكثر مما يلحق الجاهل ؛ لقوله هنا : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ »[2] .

وقال في موضع آخر : « – من فوائد الآية : توبيخ هؤلاء الذين يأمرون بالبر ، وينسون أنفسهم ؛ لأن ذلك منافٍ للعقل ؛ وقد ورد الوعيد الشديد علىٰ من كان

---

(١) أخرجه مسلم (٩٩٧) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٤٩) .

هذا دأبه ؛ فقد أخبر النبي ﷺ « أنه يؤتىٰ بالرجل فيلقىٰ في النار فتندلق أقتابه » . و »الأقتاب » هي الأمعاء . « فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، أليس كنت تأمرنا بالمعروف ، وتنهانا عن المنكر ، فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[1] ؛ فهو من أشد الناس عذاباً والعياذ بالله– فإن قال قائل : بناءً علىٰ أنه مخالف للعقل ، وبناءً علىٰ شدة عقوبته أنقول لمن لا يفعل ما أمَر به ، ومن لا يترك ما نهىٰ عنه : « لا تأمر ، ولا تنهَ »؟

فالجواب : نقول : لا ، بل مُرْ ، وافعل ما تأمر به ؛ لأنه لو ترك الأمر مع تركه فِعلَه ارتكب جنايتين : الأولىٰ : ترك الأمر بالمعروف ؛ والثانية : عدم قيامه بما أمر به ؛ وكذلك لو أنه ارتكب ما ينهىٰ عنه ، ولم يَنْهَ عنه فقد ارتكب مفسدتين : الأولىٰ : ترك النهي عن المنكر ؛ والثانية : ارتكابه للمنكر .

ثم نقول : أينا الذي لم يسلم من المنكر! لو قلنا : لا ينهىٰ عن المنكر إلا من لم يأت منكراً لم يَنهَ أحد عن منكر ؛ ولو قلنا : لا يأمر أحد بمعروف إلا من أتىٰ المعروف لم يأمر أحد بمعروف ؛ ولهذا نقول : مُرْ بالمعروف ، وجاهد نفسك علىٰ فعله ، وانْهَ عن المنكر ، وجاهد نفسك علىٰ تركه ...

– ومن فوائد الآية : توبيخ العالِم المخالف لما يأمر به ، أو لما ينهىٰ عنه ؛ وأن العالِم إذا خالف فهو أسوأ حالاً من الجاهل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ؛ وهذا أمر فُطر الناس عليه . أن العالِم إذا خالف صار أشد لوماً من الجاهل ؛ حتىٰ العامة تجدهم إذا فعل العالِم منكراً قالوا : كيف تفعل هذا وأنت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) .

رجل عالِم؟! أو إذا ترك واجباً قالوا: كيف تترك هذا وأنت عالِم؟!»[1].

الجانب الثاني: ما يتعلق بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوِّين.

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره عدة جوانب تتعلَّق بتأهيل الداعية عمليًّا في ميدانه الدعوي، وهي كما يلي:

- المضامين الدعوية المتعلِّقة بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوِّين.

أولاً: التنوُّع في الطرح الدعوي، وسواء كان هذا التنوُّع في الأسلوب أو في الموضوع، أو في الجوانب العلمية والتربوية والإيمانية والمسلكية، فإن تنوُّع الداعية في طرحه من شأنه أن يستوعب شريحة كبيرة من المجتمع ويعالج مشكلاتهم، فيبدأ بأهم ما يحتاجونه كالعقائد والأحكام، والفضائل، ويطرحها بأسلوب مراوح فيه بين الترغيب والترهيب حسب ما يقتضيه الحال؛ لما في هذه المراوحة من أثر على المدعوِّين.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للداعية إلى الله أن تكون دعوته تارة بالترغيب، وتارة بالترهيب، بل الأفضل أن يجعل دعوته مشتملة على الترغيب والترهيب، وذلك لأنها أي: الدعوة إذا كانت مقتصرة على الترغيب صارت سبباً للأمن من مكر الله، وأن يتمادى الإنسان في معصية الله، ويرجو الله، وإذا كانت مشتملة على الترهيب صارت سبباً للقنوط من رحمة الله، واستبعاد الرحمة، وهذا ضرر، بل

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (١/ ١٥٨-١٦٠)، وأكَّد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الجانب العملي في عدة مواضع، انظر مثلاً: «أحكام من القرآن الكريم» (٢/ ٤٥١-٤٥٢)، تفسير قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٤]، وانظر: «تفسير آل عمران»(١/ ٥٢٠) تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٨٩].

ينبغي أن يكون الداعية جامعـًا بين هذا وهذا ؛ ليحمل الناس علىٰ الرجاء وعلىٰ الخوف ، ولهذا قال الإمام أحمد : ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً ، فأيهم غلب هلك صاحبه . وقال بعض أهل العلم : الرجاء والخوف كالجناحين للطائر إن انخفض أحدهما سقط الطائر ، وإن تساويا صار طيرانه متزنـًا[(١)] »[(٢)] .

والداعية إذا انتهج الأسلوب العلمي البحت فات عليه كثير من جوانب الدعوة التي يحتاجها الناس ، بل لابد أن يقرنه بالآثار الإيمانية والمسلكية ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يجب أن يركز طالب العلم علىٰ الفوائد المسلكية التي تستفاد من أسماء الله وصفاته ، لا علىٰ أقسامها وتقسيمها وعمومها وشمولها ، وأهم شيء أن تُعدل من منهجك ومسلكك ، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف :١٨٠] ، أن تعبدوه بمقتضىٰ هذه الأسماء ، وقال النبي ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسمـًا من أحصاها دخل الجنة »[(٣)] ، ومن إحصائها التعبد لله بمقتضاها ، وفقنا الله إلىٰ ذلك . »[(٤)] .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[آل عمران :٧٩] ، قال : « المفروض في المعلم أن لا يكون معلمـًا للناس تعليمـًا نظريـًا جدليـًا ؛ لأن هذا يمكن أن يدركوه بالكتب ، لكنه ينبغي أن يعلمهم

---

(١) ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحو هذا الكلام في « مدارج السالكين » (١ / ٥١٣) ، حيث قال : « القلب في سيره إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتىٰ سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتىٰ قطع الرأس مات الطائر ، ومتىٰ فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر » ا.هـ .

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٢١) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ، ومسلم (٢٦٧٧) .

(٤) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٨٨) .

تعليماً نظرياً وتعليماً تربوياً . وهذا هو هدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه- ، إذا نظرنا إلىٰ السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول ﷺ يعلم الناس تعليماً مقروناً بالتربية مصحوباً بها ، وإذا تأملنا سيرة الخلفاء الراشدين وجدناها كذلك ، فلننظر مثلاً إلىٰ سيرة عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقد رفع عقوبة الخمر إلىٰ ثمانين ليردع الناس ، ومنع المطلق ثلاثاً من الرجوع إلىٰ زوجته من أجل أن يردع الناس . فالحقيقة أن المعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علماً فحسب ، ولكن الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علماً وأخلاقهم تربية »(١) .

ثانياً : الحرص علىٰ بيان الحق للناس وتوجيههم ، ومتىٰ وجِدَ الحرْصُ من الداعية استمر في دعوته ، واستمر مواطن الدعوة بشكل مناسب ، فيدعو الناس لما فيه هدايتهم ، كما كان النبي ﷺ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة :١٤٥] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أن الرسول ﷺ كان حريصاً علىٰ هداية الخلق ؛ لأن قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ ﴾ دليل علىٰ أنه ﷺ كان يعرض الآيات ، ويبين الحقائق ؛ ولكن لا ينتفعون بها »(٢) .

ولا يتوقف الداعية في توجيهه للناس علىٰ ما سألوا عنه ، بل الزيادة علىٰ المسؤول عنه حسن ، وهو هدي عملي نبويٌّ ، وجاء في كتاب الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[البقرة :٢١٥] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ :« من فوائد الآية : حرص الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ السؤال عن العلم ؛ وقد وقع سؤالهم

---

(١) « تفسير آل عمران »(١ / ٤٣٥-٤٣٦) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٣٦) .

لرسول الله ﷺ في القرآن أكثر من اثنتي عشرة مرة .

- ومنها : أن من حسن الإجابة أن يزيد المسؤول علىٰ ما يقتضيه السؤال إذا دعت الحاجة إليه ؛ فإنهم سألوا عما ينفقون ، وكان الجواب عما ينفقون ، وفيما ينفقون ؛ ونظير ذلك أن النبي ﷺ سئل عن الوضوء بماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »[1] »[2] .

ثالثـًا : التماس الداعية ما يؤثر علىٰ المدعو ، وكلٌّ بحسبه ، وهذا من الحكمة التي يراعيها الداعية فيما يلقيه ، والتأثير بالمدعو مطلوب لكنه ليس مقياسـًا علىٰ نجاح الدعوة كما سيأتي- ومن تأمل دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علم ذلك ، ولأهمية التأثير بالمدعو رتَّب عليه الشارع فضلاً عظيمـًا ، قال ﷺ : « فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ »[3] ، وفي بيان هذا النهج العملي يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات :١٢٦-١٢٧] .

- من فوائد قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أنه ينبغي للداعية أن يذكر الإنسان بما يكون سببـًا لاتعاظه لقوله : ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فيذكرهم بأن آباءهم قد فنوا وذهبوا ، وأنكم أنتم سوف تذهبون كما ذهب الآباء .

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٣) ، والترمذي (٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وهُو قَوْلُ أَكْثَرِ الفُقَهَاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، منهم : أَبُو بَكْرٍ ، وعُمَرُ ، وابن عَبَّاسٍ ، لَمْ يَرَوْا بَأْسًا بمَاءِ البَحْرِ ، وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « حديث صحيح » . « شرح مسلم » (١٣ / ٨٦) ، وصححه الألباني « إرواء الغليل » (١ / ٤٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٥) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

- ومن فوائد قوله تعالىٰ : ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [أنها][1] دليل علىٰ أن الإنسان مهما بلغ في عرض الدعوة إلىٰ الله وبيانها والبلاغة في العظة فإنه لا يستلزم أن يؤثر فيمن وجه الخطاب إليه ؛ لأن إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض الدعوة عليهم عرضاً رقيقاً ، وبيَّن لهم الأدلة علىٰ أن الله وحده المستحق للعبادة ومع ذلك كذبوه .

ويتفرع علىٰ هذه الفائدة : أنه ينبغي للداعية إذا رُدَّ قوله ألا يعتبر نفسه مقصِّراً أو فاشلاً ؛ لأنه أدىٰ ما عليه وهو البلاغ ، والهداية علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة :٢٧٢] فلو أراد الله بهؤلاء خيراً لانقادوا للهدىٰ ، أما أنت فقد أراد الله بك خيراً لأنك بلَّغت ما عليك »[2] .

رابعـًا : التدرج في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، فلقد كان ﷺ يقبل مِنْ كل مَنْ جاء يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط ، ويعصم دمه بذلك ، فإذا ذاق حلاوة الدين ، طابت نفسه بفعل كل ما أمر الله ورسوله به ، فتعلَّم الدين ، وقوي إيمانه ، وذاق حلاوة الدين ، وتمسَّك بالدين وكان من أهله ودعاته ، وبهذا التدرج أوصىٰ النبي ﷺ دعاة الإسلام ، حين حثَّ معاذ بن جبل علىٰ التدرج ليرسم جانبا عمليًّا مهما للدعاة من بعده ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَىٰ اليَمَنِ ، قال : « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ ولَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ ، فَإِذَا أَطَاعُوا بهَا ، فَخُذْ مِنْهُمْ وتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوالِهِمْ »[3] .

---

(١) ليست من كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ، ربما سقطت أو بمعناها من السياق ، أضفتها ليستقيم المعنىٰ .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (٢٨٣-٢٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ، ومسلم (١٩) .

وإن من نقص التأهيل العملي ألا يراعي الداعية التدرج في دعوته ، بأن يبدأ بما دون الأهم ، أو يحدِّث الناس بما لا تستوعبه أفهامهم ، ففي صحيح البخاري ، قال عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « حَدِّثُوا النَّاسَ ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ »[1] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « أثر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « حدثوا الناس » . أي : كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ ، قوله : « بما يعرفون » . أي : بما يمكن أن يعرفوه ، وتبلغه عقولهم حتىٰ لا يفتنوا »[2] .

خامسًا : ذكر المخارج والحلول الشرعية لما ينهاهم عنه ، فالداعية إلىٰ الله تعالىٰ ليس كتابا ناطقًا بالحلال والحرام فحسب ، بل هو دليل خير للأمة ، يبيِّن لهم حكم ما نزل بهم ، ويفرِّج همومهم ، ويكشف كروبهم ، ويرون فيه ملاذاً بعد الله تعالىٰ- يدلهم علىٰ ما يرضي الله جل وعلا- ، ويفتح لهم أفق المباح الذي أوسعه الله تعالىٰ علىٰ عباده ، كما كان النبي ﷺ ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : هَلَكْتُ ، يَا رَسُولَ اللهِ ، قال : « ومَا أَهْلَكَكَ؟ » قال : وقَعْتُ عَلَىٰ امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ ، قال : « هَلْ تَجِدُ مَا

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تدرُّج النبي ﷺ في أصناف المدعوِّين ، فقال : « فصل في ترتيب الدعوة ولها مراتب :

المرتبة الأولىٰ : النبوة . الثانية : إنذار عشيرته الأقربين . الثالثة : إنذار قومه . الرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة .

الخامسة : إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلىٰ آخر الدهر » . « زاد المعاد في هدي خير العباد » (١/ ٨٤) .

(١) أخرجه البخاري (١٢٧) .

(٢) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (١٠/ ٧٧٤) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة » (١/ ١٥٤) ، و« تفسير جزء عم » سورة الفاتحة (٢٢) .

تُعْتِقُ رَقَبَةً؟ » قال : لَا ، قال : « فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ » قال : لَا ، قال : « فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟ » قال : لَا ، قال : ثُمَّ جَلَسَ ، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ ، فَقَالَ : « تَصَدَّقْ بهَذَا » قال : أَفْقَرَ مِنَّا؟ فَمَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَحْوجُ إِلَيْهِ مِنَّا ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ أَنْيَابُهُ ، ثُمَّ قال : « اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ »[1] ، أنت ترىٰ كيف أن النبي ﷺ أجلسه وبدأ يعرض عليه من الحلول للخروج مما نزل به ، ثم لم يزل به حتىٰ خرج من النبي ﷺ بزاد يطعمه أهله ، وفي كتاب الله تعالىٰ ما يدل علىٰ هذا المعنىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء :٨٣] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« من فوائد الآية : ما جرت به العادة في أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا نهىٰ عن شيء بين وجهاً آخر غير منهي عنه ، يؤخذ من قوله : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ ، وهذه الآية قاعدة جاءت في القرآن الكريم وجاءت في السنة النبوية ، ففي القرآن الكريم في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾[البقرة :١٠٤] فجاء بكلمة مباحة بدلها .

وفي السنة لما جيء إلىٰ النبي ﷺ بتمر جيد ، وسأل : « من أين هذا؟ » قال : كنا نأخذ الصاع من هذا بصاعين ، والصاعين بثلاثة ، فقال : « لا تفعل » ، ثم أرشدهم ، فقال : « بع الجمع بالدراهم ثم ابتغ بالدراهم جنيباً »[2] .

إذاً : لا ينبغي للإنسان المبيِّن للناس أحكام شريعة الله أن ينهاهم عن شيء حتىٰ يفتح لهم باب الحل .

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٣٦) ، ومسلم (١١١١) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٠١) ، ومسلم (١٥٩٣) .

مثلاً : إنسان يعامل معاملة ربوية فقلت له : هذا حرام لا يجوز ، ومعاملته كلها علىٰ هذا المنوال ؛ أي : أنها ربوية ، ولم ينهه أحد قبلك ، فإذا قلت : هذا حرام ، وهذا ربا فلا بد أن تفتح له باب البيع الحلال ؛ حتىٰ يهون عليه ترك ما كان معتاداً له ، وينتقل إلىٰ الحلال بسهولة ؛ لأن صرف الإنسان عما كان يعتاده صعب جداً ، وهكذا ينبغي لطالب العلم إذا ذكر للناس شيئاً محرماً أن يذكر لهم ما يستغنون به عن هذا المحرم من الشيء الحلال »(١) .

وقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة :٥٤] : « من فوائد الآية : أن ينبغي للداعية أن يتلطف مع من يدعوه ، وأن يذكر الألفاظ التي تكون سبباً في إقبال المدعو علىٰ الداعي وتقبله ما يوجهه إليه من النصيحة ؛ لأنه قال لقومه : (يَا قَوْمِ) .

– ومن فوائدها أيضاً : أنه ينبغي لمن ذكر الداء أن يذكر الدواء ؛ فإن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما ذكر أنهم ظلموا أنفسهم عرض عليهم الدواء بالتوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، وهكذا ينبغي للداعية إذا ذكر الداء والأمراض التي في المجتمع أن يذكر لهم الدواء وطريق الخلاص منها حتىٰ يجمع بين الأمرين »(٢) .

سادساً : ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة تنبيهات عملية في الدعوة ينبغي مراعاتها :

– لا يتحمل الداعية إعراض المدعوِّين بعد نصحهم ؛ لأن وظيفته البلاغ لا هداية الناس ، فالنتائج ليست مقياساً للدعوة ، ولقد ذكر الله تعالىٰ هذا المفهوم العملي لنبيه ﷺ في دعوة أقرب الناس إليه وهو عمه ، عن سَعِيدِ بن

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٢٤) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٦٠) .

المُسَيِّبِ، عَنْ أبيهِ، قال: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوفاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وعبد اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بن المُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بها عِنْدَ اللهِ»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وعبد اللهِ بن أبي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عبد المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، ويُعِيدُ لَهُ تِلْكَ المَقَالَةَ حَتَّىٰ قال أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُو عَلَىٰ مِلَّةِ عبد المُطَّلِبِ، وأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا واللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣]، وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال النَّبِيُّ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ومَعَهُ الرُّهَيْطُ، والنَّبِيَّ ومَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلَانِ، والنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ...»[(٢)] الحديث، وأشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ هذا المفهوم في غير ما موضع، ففي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾[البقرة: ١١٩]، قال:

«من فوائد الآية وأحكامها: أن الإنسان إذا أدَّىٰ ما عليه من إبلاغ الشرع والدعوة إليه، فإنه لا يناله من ضلال الضالين شيء، إنما يضلون علىٰ أنفسهم، قال الله تعالىٰ لنبيه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

﴿إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الشورى : ٤٨] ، وقال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية :٢١-٢٦] »[١] .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة : ٢٦] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« من فوائد الآية : إرشاد الإنسان أن لا يحزن علىٰ الفاسق ؛ لأنه إذا بذل جهده فيما يجب من الدعوة ، فإن هداية الخلق ليست إليه بل إلىٰ الله ، فلا يحزن ، ولهذا قال الله : ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء :٣] ، وقال : ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف :٦] والآيات في هذا متعددة ، فالإنسان إذا بذل الجهد بقدر المستطاع ، فلا ينبغي أن يحزن ويشتغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه ، ولا يأس علىٰ القوم الفاسقين ، وكثير من الناس يكون عنده غيرة ، فتجده يشتغل بمعاصي غيره وعيوب غيره وينسىٰ نفسه وهذا خطأ ، أهم شيء عليك نفسك ، عدِّلها ثم اسعَ في إصلاح الآخرين »[٢] .

وبنحو ما سبق ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة :٦٨] ، وزاد فيها : « فإن قال قائل : وهل هذا أيضـًا يوجه إلىٰ الداعي إلىٰ الله بمعنىٰ : أنه لو جاء أحد يشكو إليك يقول : أنا نصحت هؤلاء القوم ولكنهم لم يأخذوا بنصيحتي ، بل كابروا واستهزءوا وسخطوا ، هل لك أن تقول : يا أخي لا تأسَ ، ولا تحزن ،

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣١٨) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٨٣) ، وانظر أيضـًا : « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٠٣- ١٠٤) ، (٢ / ٣٦١) ، و« تفسير سورة الذاريات » (١٥٠) .

ولا يضيق صدرك أو لا؟ نعم ، تقول هذا حتىٰ تفرج عنه وتفسح له ، لئلا يقنط ، فلذلك ينبغي للإنسان إذا جاءه أحد من دعاة الخير ، أو من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يشكو إليه ، أن يوسع له ويفسح له ويقول : لا تأسَ علىٰ هؤلاء ، لكن بعض الناس إذا جاءه أحد يشكو يقول : والله الناس خراب من يستطيع يقدرهم إلا الله نسأل الله العافية- سيحل بنا غضب ونقمة ، ثم يدخل عليه حزناً علىٰ حزن وهذا غلط ؛ لأن الداعي إلىٰ الله إذا قام بما يجب عليه ، وما وراء ذلك فهو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ »(١) .

ولا يعني عدم ضرر الداعية بإعراض المدعوِّين عنه الاستهانة بما هم عليه من الحال ، بل لابد أن يعظم في نفسه ذلك ، ويهتم لهم ، قال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام :٣٥] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الفائدة الأولىٰ : أن النبي ﷺ قد عظم عليه إعراض المدعوين إلىٰ الإسلام ، وهل هذا انتصار لنفسه ، أم رغبة في هداية عباد الله ؟ الثاني بلا شك ، وهذا من تمام نصحه ﷺ للأمة .

الفائدة الثانية : أن الإنسان ينبغي له ألا يهون عليه إعراض الناس ، بل يكون كبيراً في نفسه ، لكن لا تعصباً لما هو عليه ، ولكن من أجل مصلحة الآخرين »(٢) .

- حاجة الداعية للتسلية لما يواجهه من مشقة طريق الدعوة ، فطريق الدعوة طويل ، وفيه من عقبات الإعراض والأذىٰ القولي والفعلي ما يجعل الداعية بحاجة إلىٰ ما يسلِّيه ؛ ولذا قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ

---

(١) « تفسير المائدة » (٢ / ١٦٢) .

(٢) « تفسير سورة الأنعام » (١٨٩) .

﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: تسلية النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم-، وتقوية روحه المعنوية، فإن في هذه الآية من تسليته وتقوية روحه المعنوية ما هو ظاهر، وهكذا ينبغي للإنسان أن يسلي أخاه بما يقع لمثله حتىٰ يهوَّن عليه الأمر ...

- ومن فوائد الآية: أنه ينبغي للدعاة أن يتسلَّوا برسول الله ﷺ فيما إذا سمعوا ما يكرهون من هؤلاء المكذبين المعاندين، فليتسلَّوا به ويقولوا في أنفسهم وبألسنتهم إن الله تعالىٰ عالم بما تقولون وسيجازيكم»(١).

- أن طريق الدعوة طريق ابتلاء وامتحان وأن استبطاء النصر لا يخل بالدعوة، فالداعية يؤمِّل ثمار دعوته، أو فرجاً لأمر قد ضاق به في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وقد يتأخر النصر والتأييد من الله تعالىٰ له؛ لحكمة أرادها الله تعالىٰ، وإن استبطاء النصر ذكره الله تعالىٰ في كتابه مبيِّناً به حال أول الدعاة إلىٰ الإسلام وهم الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، قال الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خبر تعالىٰ: أنه يرسل الرسل الكرام عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالىٰ يمهلهم ليرجعوا إلىٰ الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتىٰ إنه تصل الحال إلىٰ غاية الشدة منهم علىٰ الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

حتىٰ إن الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ علىٰ كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده- ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم

---

(١) «تفسير سورة الأنعام» (١٧٣-١٧٤).

والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠] وهم الرسل وأتباعهم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ»(١).

ووقع للنبي ﷺ والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، الكرب العظيم، والامتحان الذي زلزلهم حتىٰ سألوا عن النصر، ففي «صحيح البخاري»، من حديث خَبَّابِ بن الأَرَتِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قال: شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وهُو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قال: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ باثْنَتَيْنِ، ومَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، ويُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، ومَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(٢).

ويذكر القرآن الكريم حال النبي ﷺ ومن معه من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

- تسلية الرسول ﷺ وأصحابه، بأن ما مسهم من البأساء والضراء، والزلزلة، حين كانوا في مكة قبل أن يؤذن لهم بالهجرة، قد مسَّ مثله من خلا ومضىٰ، وصبروا حتىٰ نُصِروا.

- أن من قام بالدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فسوف يُمتحَن من عند الله، فيُبْتلىٰ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

الصالحون ، الأمثل فالأمثل ، يُمْتَحَنُ لِيُنْظَر : هل في دينه صلابة ، وأنه جادٌّ في دينه ممسك به تماماً ، أو أن الأمر بالعكس ، وفي هذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ أي : عبادةً علىٰ طَرَف ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج :١١] ، نسأل الله لنا ولإخواننا الثبات .

– أن استبطاء النصر انتظار الفرج ، لا يُخِلُّ بالتوحيد ، ولا بالتصديق ؛ لأنه يقع من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ومن المؤمنين بهم ؛ لقوله : ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة :٢١٤] »[1] .

ومن خلال المضامين السابقة في التأهيل العملي اتضحت أهمية اعتناء الداعية بوظيفته العملية الدعوية ، سواء فيما يتعلق بأعماله الذاتية أو أعماله في الميدان الدعوي ، وإن أعظم ما يتهيأ به ويبدأ به هو عبادة الله تعالىٰ واشتغاله فيها ؛ لأنها غذاء روحه ، وحياة قلبه ، ومصدر طاقته وعطائه في ميدان الدعوة ؛ لأن العبادة تُعَدُّ أهم أسباب تحمّل مشاق الدعوة ، وطول طريقها ، والصبر عليها ، وهكذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم ملازمين للعبادة والاستكثار منها ، متضرعين لله تعالىٰ ، سائلين الله تعالىٰ العَوْنَ في تبليغ الرسالة ، ولن يكون الداعية مستكثراً من العبادة حتىٰ يزيل عوائقها ، وإن من أشد عوائقها مقارفة المعاصي ، فإن المعاصي شؤمها علىٰ الداعية ودعوته وخيم ، وأثرها بالغ في السلبية علىٰ عطائه ، لأن المعاصي تظلم القلب ، والقلب إذا أظلم قلَّ عطاؤه ، فعلىٰ الداعية مدافعة ران القلب بالاستغفار وكثرة الطاعات والبعد عن مواطن الشبهات والشهوات ، وسؤال

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٧١-٧٢) .

الله تعالىٰ الثبات علىٰ الحق وعلىٰ العلم النافع ، فالداعية كما يدعو لمدعوِّيه بالهداية والثبات علىٰ الاستقامة فإنه يبدأ بنفسه فيدعو بالثبات ، ويكثر اللجوء إلىٰ الله تعالىٰ لاسيما في أزمان الفتن .

وتبيَّن مما تقدَّم في المضامين العملية أهمية التدرج في الدعوة ، فيبدأ في دعوته بالأهم فالأهم ، مراعيـًا اختلاف المدعوِّين وعلاقتهم بدين الله تعالىٰ ، متبعـًا بذلك هدي النبي ﷺ في تدرجه مع مَنْ أراد الإسلام ، ومع المسلمين أنفسهم في أمره لهم ونهيه ، ومن الجوانب العملية التنوُّع في الطرح الدعوي للداعية ، فإن التنوَّع في الأسلوب والوسيلة والموضوع حسب ما يقتضيه المقام سبب مهم في قبول الداعية عند المدعوِّين واستطاعته استيعاب شرائح مجتمع الدعوة ، والتماسه مواطن التأثير بالمدعوِّين كلٌّ بحسبه ، والاهتمام بمسائل الناس ومشكلاتهم وتبصيرهم بالمخارج الشرعية تجاه ما ألمَّ بهم ، وإرشادهم لما فيه خير دينهم ودنياهم ، فالداعية إلىٰ الله تعالىٰ مُطَالَبٌ بتأهيل نفسه عمليـًا بالنظر فيما يقوِّي صلته بالله تعالىٰ ، والبعد عما ينافي ذلك ، وتأهيلها عمليًّا في الميدان الدعوي وفْقَ قواعد الدعوة وأصولها المعروفة .

هذه أبرز المضامين التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأهيل الداعية عمليًّا ، وإن المتأمل للمضامين التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تأهيل عقدي وعلمي وأخلاقي وعملي ، يدرك أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اهتم بتكوين الداعية وتأهيله كما ينبغي أن يكون علىٰ ضوء الكتاب والسنة ، فقد ربط الداعية في جميع أنواع التأهيل بكتاب الله تعالىٰ ، مستنبطـًا هذه المعالم الدعوية من قصص الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وتوجيهاتٍ قرآنيةٍ في جوانب عقدية وعلمية وأخلاقية وعملية ؛ مقرونةً بسنة النبي ﷺ ، وأستطيع القول بأن هذه الجوانب التأهيلية

لو أخذ بها الداعية كما ينبغي لأخرجت لنا صفًّا من الدعاة الذين يُحتذىٰ بهم، وتُحمد دعوتهم في شتىٰ الميادين، متصفين بالحكمة، والفهم الواعي، والاحتواء المناسب للمدعوِّين.





الفصل الرابع

أصناف المدعوين وخصائصهم

في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف المدعوّين وبيان أصنافهم وأنواعهم .

المبحث الثاني : مراعاة أحوال المدعوّين .

المبحث الثالث : دعوة المسلمين .

المبحث الرابع : دعوة أهل البدع .

المبحث الخامس : دعوة أهل الكتاب .

المبحث السادس : دعوة المجوس وسائر المشركين .

المبحث السابع : دعوة المنافقين .



المبحث الأول : تعريف المدعوّين وبيان أصنافهم وأنواعهم



بعد بيان المضامين الدعوية المتعلِّقة ببناء الداعية من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، عقدياً وعلمياً وأخلاقياً وعملياً ، يأتي الكلام على أصناف المدعوِّين الذين هم مدار الدعوة ، وعليهم يكون عمل الداعية بعد تأهيله ، ولقد أولى القرآن الكريم المدعوِّين اهتماماً ظاهراً وبيِّن أصنافهم وكيفية دعوتهم ، وطريقة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بتعاملهم الأمثل مع كل نوع من المدعوِّين حسب أحوالهم والظروف المحيطة بهم .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان ، وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكُلْفَة ، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام »(١) .

وهذا مما يبيِّن تأصيل تنوِّع المدعوّين ، حيث قرر أنواعهم القرآن الكريم ، وبيِّن لكل صنف ما يناسبه من الدعوة ، حسب اختلافهم والظروف المحيطة بهم .

وللتعريف بالمدعوّين ، يقال : المدعوّون جمع مدعو وهو : « الإنسان ، أيُّ إنسانٍ كان هو المدعو إلى الله تعالى ؛ لأنَّ الإسلام رسالة الله الخالدة ، بعث الله به محمدًا ﷺ إلى الناس أجمعين ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[الأعراف :١٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[سبأ :٢٨] ، وهذا العموم بالنسبة للمدعوّين لا يُستثنى منه أيّ إنسان مخاطب بالإسلام ومكلَّف بقبوله والإذعان له ، وهو البالغ العاقل مهما

---

(١) « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » (١ / ٣٣٦) .

كان جنسه ونوعه ولونه ومهنته وإقليمه، وكونه ذكرًا أو أنثىٰ، إلىٰ غير ذلك من الفروق بين البشر »[١].

- بيان أصناف المدعوّين.

من أهم ما ينبغي للداعية مراعاته والإلمام به أصناف المدعوّين؛ لتسير دعوته إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ خطىً راسخة، ومعالم ثابتة مستندة إلىٰ الكتاب والسنة، فإذا أنعم الله تعالىٰ علىٰ الداعية بالعلم الشرعي المؤصَّل، كان من اللوازم المهمة له في طريق الدعوة معرفة كيفية أداء هذا العلم وتنزيله علىٰ المدعوّين بما يناسب منازلهم، فإن لنجاح الدعوة وبلوغها كما ينبغي علاقة وثيقة بالإلمام بالمدعو ديانته وحاله وظروفه التي يعيش فيها؛ ليكون بصيراً بالمدعو فيستعدَّ له بما يناسبه من طرق الدعوة ووسائلها وأساليبها وأولوياتها وسائر المضامين الدعوية المتعلِّقة بالمدعو، ولنا في إمام الدعاة محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم- أسوة في إرساله للدعاة وإرشاده لهم بمعرفة أصناف المدعوّين، ومن ذلك ما جاء في حديث ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ اليَمَنِ، قال: « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْم أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ ولَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوالِهِمْ وتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوالِ النَّاسِ »[٢].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وأخبره النبي ﷺ بذلك؛ لأمرين:

---

(١) « أصول الدعوة » (٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

الأول : أن يكون بصيرًا بأحوال من يدعو .

الثاني : أن يكون مستعدًا لهم ؛ لأنهم أهل كتاب ، وعندهم علم »(١) .

وفي تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج :١٧-١٨] ، قال : « قصة فرعون ذكرها الله تعالىٰ في آيات كثيرة وفي سور متعددة كمقدمة بين يدي سلف موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكما هو معروف أن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مبعوث لبني اسرائيل ، وقص الله سبحانه علىٰ رسول الله ﷺ من نبأ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مالم يقصه من نبأ غيره ؛ لأن النبي ﷺ سوف يكون مهاجره إلىٰ المدينة التي بها ثلاث قبائل من اليهود ، فكان رسول الله ﷺ يعلم من نبأهم الشيء الكثير من أجل أن يكون علىٰ استعداد لمناظرتهم ومجادلتهم بالحق حتىٰ لا يخفىٰ عليه من أمرهم شيء »(٢) .

وكانت دعوته ﷺ شاملة لجميع أصناف المدعوِّين ؛ لأنه بُعث للناس كافَّة ، فليس صنف من أصناف المدعوِّين بمعزل عن هذه الشمولية .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية :٢١] : « ﴿فَذَكِّرْ﴾ أمره الله أن يذكر ولم يخصص أحداً بالتذكير ، أي لم يقل ذكّر فلانـًا وفلانـًا فالتذكير عام ؛ لأن الرسول صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم- بُعث إلىٰ الناس كافة ، أي ذكّر كل أحد في كل حال وفي كل مكان ، فذكر النبي ﷺ ، وذكّر خلفاؤه من بعده الذين خلفوه في أمته في العلم والعمل والدعوة »(٣) .

والداعية إلىٰ الله تعالىٰ إذا عرف أصناف المدعوّين واختلاف أحوالهم عرف

---

(١) « مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ ابن عثيمين » (٩ / ١٢١) بتصرف .

(٢) « تفسير جزء عم » سورة البروج (١٤٢) .

(٣) « تفسير جزء عم » سورة الغاشية (١٨١) .

ما يناسبهم من الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ بالأسلوب الأمثل ، وهو منهج قرآني ، فإن الأساليب الدعوية تتنوّع تبعـًا لتنوّع أصناف المدعوّين ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[النحل :١٢٥] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الناس ثلاثة أقسام : إما أن يعترف بالحق ويتبعه فهذا صاحب الحكمة ؛ وإما أن يعترف به ؛ لكن لا يعمل به فهذا يوعظ حتىٰ يعمل ؛ وإما أن لا يعترف به فهذا يجادل بالتي هي أحسن لأن الجدال في مظنة الإغضاب فإذا كان بالتي هي أحسن : حصلت منفعته بغاية الإمكان كدفع الصائل »[1] .

ويقول الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره مبيِّنـًا دلالة الآية علىٰ أصنافٍ من المدعوّين : « والأحسن علىٰ ما ذهب إليه المحققون أنه تعميم للدعوة حسب مراتب المدعوّين في الفهم والاستعداد ، فمن دعىٰ بلسان الحكمة ليفاد اليقين العياني أو البرهاني هم السابقون ، ومن دعىٰ بالموعظة الحسنة وهي الإقناعات الحكمية لا الخطابات المشهورة طائفة دون هؤلاء ، ومن دعىٰ بالمجادلة الحسنة هم عموم أهل الإسلام والكفار أيضا »[2] .

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية السابقة : « أي : ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلىٰ سبيل ربك المستقيم المشتمل علىٰ العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي : كل أحد علىٰ حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده .

---

(١) « مجموع الفتاوىٰ » (٢/ ٤٥) .

(٢) « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » (٧/ ٤٨٨) .

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلىٰ الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين ، فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة ، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب .

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها ، والنواهي من المضار وتعدادها ، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به .

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل ، فإن كان المدعو يرىٰ أن ما هو عليه حق ، أو كان داعيه إلىٰ الباطل ، فيجادل بالتي هي أحسن ، وهي الطرق التي تكون أدعىٰ لاستجابته عقلا ونقلا »[1] .

وفي بيان المفسرين لأصناف المدعوّين وما يناسبهم من دعوة تتنزل علىٰ ظروفهم المحيطة ، واختلاف تدينهم ومقداره ، بيانٌ لأهمية مراعاة الداعية ومعرفته بأصناف المدعوّين ، ولقد راعىٰ شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الجانب مراعاة واضحة ورسم منهجاً لما ينبغي أن يكون عليه الداعية كما سيتضح في المباحث القادمة- مستنبطاً ذلك من الآيات بما يناسب حال المدعو في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ .



(١) « تيسير الكريم الرحمن »(٤٥٢) .

المبحث الثاني : مراعاة أحوال المدعوّين

إن مراعاة أحوال المدعوّين من أهم أسباب نجاح دعوة الداعية في ميادينَ متعددة ، بل لا يتسم الداعية بوصفي البصيرة والحكمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ حتىٰ يكون عالمـاً بحال مَن يدعوه ؛ ليدعوه بما يناسبه ، فيمتثل الحكمة المنشودة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، فمن الحكمة مراعاة أحوال المدعوين وظروفهم وأخلاقهم وطبائعهم ، والمخاطبة علىٰ قدر عقولهم ومراعاة همومهم وحاجاتهم وبذلك ينفذ إلىٰ قلوبهم ، وهو من أهم المضامين الدعوية الميدانية .

والأمثلة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرة علىٰ هذا الأمر الدعوي المهم ، وهو مراعاة أحوال المدعوِّين ؛ لأن المغايرة في نهج الدعوة وأسلوبها ووسائلها وأولوياتها وجميع مضامينها يختلف باختلاف المدعوِّين وأحوالهم ؛ فلكل محيط دعوي ظروفه وأحواله وعاداته ومبادئه ، ومراعاة هذا من الأهمية بمكان ؛ لأنه عنصر أساسي في نجاح دعوة الداعية ، ومهم في ملائمة دعوته للمحيط الذي تنصبّ عليه الدعوة .

ويؤكد الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المعنىٰ ، فيقول في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف:١٠٨] ، قال : « قوله : ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ ، أي : علم ؛ فتضمَّنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم ؛ لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص ، أو عدم العلم ، وليس المقصود بالعلم في قوله : ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط ، بل يشمل : العلم بالشرع ، والعلم بحال المدعو ، والعلم

بالسبيل الموصل إلىٰ المقصود، وهو الحكمة .

فيكون بصيرًا بحكم الشرع، وبصيرًا بحال المدعو، وبصيرًا بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ : « إنك تأتي قومًا أهل كتاب »[١] .

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي ؛ لأن علمي أن هذا الرجل قابل للدعوة باللين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات أمر زائد علىٰ العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا والتشجيع ؛ كقوله ﷺ : « من قتل قتيلًا فله سلبه »[٢] أو بالتأليف « فالنبي ﷺ أعطىٰ المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلىٰ مائة بعير »[٣] ، فهذا كله من الحكمة ؛ فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محمودًا، وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ ؛ لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح »[٤] .

وفي موضع آخر يؤكد أن الداعية لا يكون علىٰ بصيرة إلا إذا دعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة في ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن يكون علىٰ بصيرة فيما يدعو إليه، وذلك بالعلم لا بالجهل .

الأمر الثاني : أن يكون علىٰ بصيرة في حال المدعو، فلا بد من معرفة

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٢) ، و مسلم (١٧٥١) .

(٣) أخرجه البخاري (٣١٥٠) .

(٤) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٩ / ١١٩) .

حال المدعو ؛ ليدعوه بالطريقة والكيفية التي تناسبه ، وتكون أكثر فائدة له ، وتأثيرًا فيه .

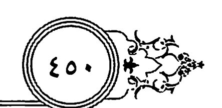
الأمر الثالث : أن يكون علىٰ بصيرة في كيفية الدعوة[1] .

- أبرز المضامين الدعوية في مراعاة أحوال المدعوِّين :

أولاً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء :١٦٥] : « من فوائد الآية : أنه ينبغي للإنسان الداعي إلىٰ الله أن يعامل الناس بما تعامل به الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أقوامها ، فتارة يبشر ، وتارة ينذر ؛ لأنه إن سلك سبيل البشارة دائمـًا أدخل الناس في الإرجاء ، وإن سلك سبيل الإنذار دائمـًا أدخل الناس في القنوط واليأس ، فلذلك يجب أن يكون الإنسان حكيمـًا يراعي أحوال الناس ، فمثلاً : إذا رأىٰ الناس قد انهمكوا في أمر محرم فالأولىٰ هنا أن لا يسلك سبيل البشارة فيوقع الناس في الأمن من مكر الله ، بل يسلك سبيل الإنذار ويشدد ، فإن لم ينفع فيهم الوعيد الديني فالرادع السلطاني ، ولهذا كان من سياسة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يستعمل الردع السلطاني إذا لم يصلح الناس بدونه ، ولهذا ورد أنه أمر بقتل شارب الخمر في الرابعة إذا لم يرتدع ، قال شيخ الإسلام : إن هذا

---

(١) انظر : « زاد الداعية إلىٰ الله » لشيخنا ابن عثيمين(٧) ، وذكر هذا المعنىٰ أيضـًا في : « شرح ثلاثة الأصول » (٢٢) .



حكم ثابت إذا لم ينته الناس بدونه[١] »[٢] .

وتأمُّلُ الداعية أثر الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم أقوامهم إلىٰ الله تعالىٰ ، واقتفاء

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : « وكذلك قد يقال في أمره بقتل شارب الخمر في الرابعة ؛ بدليل ما أخرجه أحمد في « المسند » : عن ديلم الحميري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سألت رسول الله ﷺ . فقلت يا رسول الله : إنا بأرض نعالج بها عملا شديدا وأنا نتخذ شرابا من القمح نتقوىٰ به علىٰ أعمالنا وعلىٰ برد بلادنا . فقال : « هل يسكر؟ » قلت نعم . قال : « فاجتنبوه » . قلت : إن الناس غير تاركيه . قال : « فإن لم يتركوه فاقتلوهم ») . وهذا لأن المفسد كالصائل . فإذا لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتل » . « مجموع الفتاوىٰ » (٢٨ / ٣٤٧) .

وفي موضع آخر ذكر الخلاف في المسألة ورجَّح ، وذلك حين سئل رَحِمَهُ اللَّهُ : عن المداومة علىٰ شرب الخمر وترك الصلاة وما حكمه في الإصرار علىٰ ذلك؟

فأجاب : « الحمد لله ، أما « شارب الخمر » فيجب باتفاق الأئمة أن يجلد الحد إذا ثبت ذلك عليه وحده أربعون جلدة أو ثمانون جلدة . فإن جلده ثمانين جاز باتفاق الأئمة وإن اقتصر علىٰ الأربعين ففي الإجزاء نزاع مشهور فمذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في إحدىٰ الروايتين أنه يجب الثمانون ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرىٰ عنه أن الأربعين الثانية تعزير يرجع فيها إلىٰ اجتهاد الإمام فإن احتاج إلىٰ ذلك لكثرة الشرب أو إصرار الشارب ونحو ذلك فعل وقد كان عمر بن الخطاب يعزر بأكثر من ذلك ؛ كما روي عنه أنه كان ينفي الشارب عن بلده ويمثل به بحلق رأسه .

وقد روي من وجوه عن النبي ﷺ : « من شرب الخمر فاجلدوه ثم إن شربها فاجلدوه ثم إن شربها فاجلدوه ثم إن شربها في الثالثة أو الرابعة : فاقتلوه » فأمر بقتل الشارب في الثالثة أو الرابعة . وأكثر العلماء لا يوجبون القتل ؛ بل يجعلون هذا الحديث منسوخا ؛ وهو المشهور من مذاهب الأئمة . وطائفة يقولون : إذا لم ينتهوا عن الشرب إلا بالقتل جاز ذلك كما في حديث آخر في السنن أنه نهاهم عن أنواع من الأشربة قال : « فإن لم يدعوا ذلك فاقتلوهم » . والحق ما تقدم . وقد ثبت في « الصحيح » أن رجلاً كان يُدعىٰ حماراً وهو كان يشرب الخمر ؛ فكان كلما شرب جلده النبي ﷺ فلعنه رجل فقال : لعنه الله ما أكثر ما يؤتىٰ به إلىٰ النبي ﷺ فقال : « لا تلعنه ؛ فإنه يحب الله ورسوله »وهذا يقتضي أنه جلد مع كثرة شربه » ا.هـ « مجموع الفتاوىٰ » (٣٤/ ٢١٦ ٢١٧) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٨٥) .

طريقتهم بالتنويع في الطرح الدعوي بما يقتضيه حال المدعوِّين، يوصل الداعية إلىٰ الطريق الأمثل في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ويجعل دعوته تناسب أطياف المجتمع ككل؛ لأنه نوَّع في طرحه بما يقتضيه كل مقام علىٰ حِدَة، وهي طريقة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ودعاة الإسلام من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم.

ثانيـًا: في تفسير سورة المائدة ذكر استفهامـًا يتعلَّق بمراعاة أحوال المدعو، فقال: «لو قال قائل: البشارة هل تكون وسيلة لتأليف قلوب أصحاب المنكرات، كأن يقال لهم: أبشروا أنتم علىٰ خير ونحو ذلك؟

الجواب: لكل مقام مقال، قد يكون من الحكمة أن لا تنفر الناس بذكر التخويف والوعيد، وقد يكون بالعكس، فمثلاً: إذا كنت تخاطب شخصـًا معينـًا منغمسـًا في الآثام، فهنا ربما يكون جانب التخويف أفضل، لكن مع التخويف تقول له: يا أخي باب التوبة مفتوح، واذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[الفرقان: ٦٨]، حيث ذكر أمهات العظائم، ومع ذلك قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾[الفرقان: ٧٠]، فلكل مقام مقال، لا يمكن أن تذكر شيئـًا معينـًا»(١).

والنظر بعين الحكمة في حال المدعو يوصل إلىٰ المقصود من الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ومن الحكمة المراوحة بين الوعد والوعيد حسبما يقتضيه مقام الدعوة وما انعقد عليه قلب المدعو من الإقبال والندم أو الإدبار واللامبالاة.

ثالثـًا: قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[المائدة: ٢٥]: «من فوائد الآية: جواز دعاء الإنسان ربه عَزَّوَجَلَّ أن يفصل بينه وبين أهل الفسوق والفجور، لقوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) «تفسير سورة المائدة» (١/ ٢٥١).

ويمكن أن يتفرع علىٰ هذه الفائدة جواز هجران الفسقة ؛ لأن الهجر مفارقة ، ولكننا نقول : السنة دلت علىٰ أن الهجر إن كان فيه مصلحة فافعله وإلا فلا تفعل ، فإن كان هجران العاصي أو المبتدع لا يزيد الأمر إلا شدة ، وأنت إنما هجرت للإصلاح ولأجل أن يرتدع ، وهو لن يرتدع بالهجر بل يمكن أن يزيد في الشر ، ونضرب لذلك مثلاً لو أنك رأيت رجلاً حالقاً لحيته وهجرته هل سوف ينتهي عن ذلك ، إن كان سينتهي فلا بأس ، وأما إذا كان لا ينتهي ويزداد كراهة لك ولما تدعوه إليه من الحق ويستمر فأي فائدة في هجره ، ثم عندنا الحديث الصحيح : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة »[1] . وهذا مسلم ، وما ورد عن السلف من الهجر يحمل علىٰ أنه هجر للإصلاح أو لئلا يغتر بهم الخلق ، وعلىٰ هذا إذا كنت تتألف العصاة وأهل الضلال فلا بد أن تصرِّح بأنهم علىٰ ضلال ، لئلا يغتر الناس بهم ، لكن لا تخصّهم بأعيانهم حتىٰ لا ينفروا ، لكن إذا قلت : بعض الناس قال كذا أو يقال كذا فلن ينفروا »[2] .

وبهذا نعرف أنه ليس من حسن مراعاة حال المدعوين التزام الهجر في معالجة واقع العصاة ، وإنما الهجر أسلوب متعلِّق بالمصلحة التي إن تحقق حصولها ، وغلب علىٰ الظن نفع الهجر تجاه المدعو استُخْدِمَ هذا الإسلوب ، وإلا فلا ، فمن الهجر ما يزيد في إعراض المدعو ، وكل ذلك راجع للنظر في حال المدعو .

رابعًا : في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة :٤١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٧) ، ومسلم (٢٥٦٠) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٨١) .

« من فوائد الآية : أن الإيمان محله القلب ، لقوله : ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ ، ولكن إذا قال قائل : ألسنا مأمورين بأن نأخذ الناس بظواهرهم؟

الجواب : بلىٰ ، نحن مأمورون بهذا ، لكن من تبيَّن نفاقه فإننا نعامله بما تقتضيه حاله ، كما لو كان معلناً للنفاق ، فهذا لا نسكت عليه ، أما من لم يعلن نفاقه ، فإنه ليس لنا إلا الظاهر ، والباطن إلىٰ الله ، كما أننا لو رأينا رجلاً كافراً فإننا نعامله معاملة الكافر ، ولا نقول : إننا لا نكفِّره بعينه ، كما اشتبه علىٰ بعض الطلبة الآن ، يقولون : إذا رأيت الذي لا يصلي لا تكفِّره بعينه ، كيف لا أكفره بعينه!! إذا رأيت الذي يسجد للصنم لا تكفِّره بعينه ؛ لأنه ربما يكون قلبه مطمئناً بالإيمان ، هذا غلط عظيم ، نحن نحكم بالظاهر ، فإذا وجدنا شخصاً لا يصلي قلنا : هذا كافر بملء أفواهنا ، إذا رأينا من يسجد للصنم قلنا : هذا كافر ، ونُعَيِّرُهُ ونلزمه بأحكام الإسلام ، فإن لم يفعل قتلناه ، أما في أمر الآخرة لا نشهد لأحد معين ، لا بجنَّة ولا بنار إلا من شهد له النبي ﷺ أو جاء ذلك في القرآن »(١) .

خامساً : في موضع آخر من تفسير سورة المائدة ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لو قال قائل : كيف نأمر وكيف ننهي ، هل نأمر بشدة أو نأمر بسهولة؟

نقول : هذا ينبنيٰ علىٰ حال الشخص ، فالمعاند ليس كالجاهل الأصلي ، الجاهل الأصلي نعامله بلطف ولين وبالإقناع حتىٰ يقبل الحكم ، والمعاند أو المجاهر هذا له حكم آخر ، ويدل لهذا وقائع وقعت في زمن النبي ﷺ :

منها : قصة الأعرابي الذي بال في المسجد ، فإن النبي ﷺ كلمه بلطف وقال : « إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من القذر والأذىٰ »(٢) .

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٤٠٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٥) ، ومسلم (٢٨٥) .

ومنها : قصة معاوية بن الحكم الذي تكلم في الصلاة مرتين ، فدعاه النبي ﷺ وأخبره بأن « هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس »(١) .

ومنها : لما رأىٰ في يد رجل خاتماً من ذهب أخذه النبي ﷺ ونزعه من يده ثم رمىٰ به ولم يتكلم معه ، ولما انصرف النبي ﷺ قيل له : خذ خاتمك ، قال : والله لا آخذ خاتماً رمىٰ به رسول الله ﷺ (٢) ؛ لأن هذا الرجل ليس له عذر ، فلكل مقام مقال »(٣) .

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن أن التنقُّل بين أنواع الخطاب باللطف واللين أو الحزم والزجر ونحوها من أنواع الخطاب الدعوي إنما يتم بحسب حال المدعو ، فيُفرَّق بين الجاهل والمعاند وبين المعذور من غيره ونحو ذلك من الأحوال التي يتلبس بها المدعو .

سادساً : قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفريق بين المكي والمدني وبيان أن القرآن راعىٰ أحوال المدعوِّين : « أيضاً : بالنسبة لما يهمنا من العلم بالمكي والمدني ، هو أن نعرف أن البلاغة تقتضي مخاطبة الناس بما تقتضيه أحوالهم ، ففي المكي نجد الآيات شديدة قوية ؛ لأنها تصادم أناساً أشداء أقوياء بلغاء فصحاء ، ونجد الآيات المدنية في غالبها سهلة لينة ؛ لأنها تخاطب أناساً قد رسخ في قلوبهم الإيمان ولا يحتاجون إلىٰ شدة ، وهذا ظاهر ، اقرأ سورة

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٩٠) ، ولفظه : عن عبد اللهِ بن عبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَىٰ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ ، و قال : « يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ » ، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ ، قال : لا واللهِ ، لا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢٤١) .

القمر تجد كيف كانت آياتها عظيمة تزلزل القلب في الواقع لمن تأملها جيداً ؛ لأنها تتحدث بين قوم عتاة مستكبرين ، فكانت الآيات مناسبة تماماً لمقتضىٰ الحال ، وهذا هو غاية البلاغة »[1]

سابعاً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[ص :٦٥] : « من فوائد هذه الآية : أنه ينبغي في الكلام مراعاة الحال حيث إن المقام هنا مقام تهديد ، فلهذا اقتصر علىٰ الإنذار فقط مع أن الله تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة : ١١٩] »[2] .

ثامناً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾[آل عمران :١٥٩] :

« يقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ : هذا تفريع علىٰ قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ ، فاعف عنهم إذا قصروا في حقك . والعفو : هو التسامح وعدم المؤاخذة .

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ : في حق الله عَزَّوَجَلَّ إذا قصروا فيه ، فالصحابة قد يقصرون في حق الرسول ﷺ ، وقد يقصرون في حق الله ، أما في حق الرسول ﷺ فقال : (اعف عنهم) وما أكثر ما يحصل من جفاة الأعراب أو غيرهم من الكلام المسيء إلىٰ رسول الله ﷺ ، ولكنه يصبر ويتحمل ويعفو عنهم إلىٰ حد أن رجلاً من الأنصار قال له لما حكم فيه في خصومة بينه وبين الزبير بن العوام قال له : أن كان ابن عمتك يا رسول الله؟ وهذا اتهام ، اتهام فظيع . فالزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله (، فقال هذا الرجل الأنصاري عفا الله

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٤٠١) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٢٨) .

عنه قال: أن كان ابن عمتك يا رسول الله؟[(١)] . وقال له رجل وهو يقسم فيئًا قال: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وقال له: اعدل[(٢)] . كل هذه الكلمات كان النبي ﷺ يصبر ويحتسب الأجر من الله ويعفو »[(٣)] .

وما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مهم للغاية، فإن فهم طباع المدعوين يدعو إلىٰ مراعاة المناسب حال خطابهم بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، فجفاة الأعراب يحصل منهم من الغلظة والشدة مما ليس خُلُقًا متعَمَّداً بقدر ما هو طبع اعتاد عليه وهذا يحتاج إلىٰ مزيد من المراعاة، وبالتالي يفهم الداعية ردَّة فعل المدعوِّين، ويستطيع التفريق بين مقامات الخطاب المناسبة لكل حال.

تاسعًا: في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من فوائد الآية: أن الإنسان تتغير أحواله، فيكون في حال أقرب إلىٰ الإيمان من الكفر، وفي حال أخرىٰ بالعكس؛ لقوله: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ واستدل بعض العلماء بهذه الآية علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، فما وجه الاستدلال؟ الجواب: أنه كلما قرب الإنسان من الإيمان ازداد إيمانًا، وكلما بعُد سوف ينقص، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص »[(٤)] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، و مسلم (١٠٦٢).

(٣) « تفسير آل عمران »(٢/ ٣٦٥).

(٤) « تفسير آل عمران » (٢/ ٤٢٧).

عاشراً : في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوله تعالىٰ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾[آل عمران :١٩٨] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جنات : جمع جنة ، وأصلها : البستان الكثير الأشجار ، سمي بذلك لأنه يجن مَنْ كان فيه أي يستره ، ولكننا لا نفسر « جنات » أو « جنة » التي في القرآن ، والتي يريد الله بها جنة الخلد ، بهذا التفسير (عند العامة) ؛ لأنك لو فسرتها هذا التفسير عندهم لنزلت رغبتهم في الجنة نزولاً كثيراً . بل نقول وهو المراد- : الجنة هي : الدار التي أعدَّها الله تعالىٰ للمتقين ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر .

لهذا أقول : ينبغي لطالب العلم أن يفسر القرآن بمعناه ، ولكن إذا خاف فتنة فليفسره بما يوافق العقول ولا يخالف النصوص .

فإذا قلت عند العامة : الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالىٰ للمتقين وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ، فالتفسير هذا صحيح ، لكن عندما تتكلم مع طالب علم يقول : ما معنىٰ الجنة؟ ولماذا سميت بهذا؟

نأتي إلىٰ المادة (الجيم والنون) نجد أنها كلها تدل علىٰ الاستتار ، فتقول : هي في الأصل البستان الكثير الأشجار ، ولنا أن نقول : إن الجنة في الأصل هي هذا المعنىٰ ، لكن نقلت شرعـاً إلىٰ الدار التي أعدها الله للمتقين كما نقلت الصلاة والزكاة والحج والعمرة إلىٰ معناها الشرعي »[1] .

ومن خلال المضامين السابقة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتعلِّقة بمراعاة الداعية لأحوال المدعوِّين ، ودعوتهم بما يناسب المقام ، نلْحَظ أهمية هذا

---

(١) « تفسير آل عمران »(٢ / ٥٨٨) .

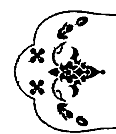
الأمر في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وهو النهج الذي سار عليه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فلم يكونوا ملتزمين لأسلوب البشارة فقط بل البشارة والنذارة حسب ما يقتضيه المقام ؛ لما في ذلك من استعمال الحكمة في الدعوة لئلا يقع المدعو في القنوط أو التهاون نتيجة عدم مراعاة حاله وما يتعلَّق به من ظروف ، بل لابد للداعية من التفريق بين المسلم والكافر والمنافق ، وبين الجاهل والمعاند ، وبين الـمُقْبِل والـمُعْرِض ، وبين طالبٍ للحق ومجادلٍ بالباطل ، وهكذا بين أحوال المدعوِّين الأخرىٰ ، وهذا من أهم ما يفقهه الداعية .

والتفريق ومراعاة الحال في الخطاب هو أسلوب قرآني ظاهر البيان لمن تأمل دعوة الأصناف التي جاءت في كتاب الله تعالىٰ ، فالمراعاة تنبني علىٰ حال المدعو وزمانه ومكانه وظروفه المحيطة به ، ومن تأمل السور المكيَّة والمدنية ظهر له بجلاء التفريق في الخطاب كما تقدَّم بيانه في المضامين ، وبهذا يسير الداعية علىٰ نهج الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم لأقوامهم ، التي ظهرت فيها أصول وقواعد الدعوة ومبادئها ومنها مراعاة أحوال المدعوِّين .





المبحث الثالث : دعوة المسلمين



لقد جاءت آيات القرآن الكريم دالة علىٰ دعوة جميع الأمم علىٰ اختلاف أجناسهم وطبقاتهم ومناهجهم علىٰ مرِّ العصور بذكر قصص الأمم السابقة وما وصلهم من دعوة ، وتعاملهم مع دعوة أنبيائهم ، وأخذ العبرة مما جرىٰ لهم ، والاتعاظ بما أنزله الله تعالىٰ علىٰ من تنكَّبَ الصراط المستقيم ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ آيات القرآن وما فيه من الأخبار لأمة محمد ﷺ كأمَّةٍ مقصودةٍ بالدعوة ، فافترقت هذه الأمة في تمسكها بالصراط المستقيم إلىٰ فِرَقٍ خالفت دعوة خاتم الرسالات ، وأمَّةٍ أجابت الدعوة ، وهي سنة الله تعالىٰ في الحياة ، فالصراع بين الحق والباطل باقٍ إلىٰ قيام الساعة ، واختصَّ الله تعالىٰ أمة الإجابة بدعوة فيها مصالحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، فأنزل الله تعالىٰ آياتٍ كثيرة في دعوة المسلمين ، ومنها ما هو مصدَّر بلفظ الإيمان (يا أيها الذين آمنوا) ثم يقرن الله تعالىٰ هذا النداء وغيره بدعوة إلىٰ شرائع الإسلام ، كل ذلك لإقامة العبودية له سبحانه وتعالىٰ كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه .

- أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بدعوة المسلمين :

أولاً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[البقرة:١٢٩] : « من فوائد الآية : أن ما جاء به النبي ﷺ يزكي الأخلاق ، ويطهرها من كل رذيلة ، كما قال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(١) ؛ وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ : تنمية للأخلاق الفاضلة ، وتطهيراً من كل

(١) تقدم تخريجه.

رذيلة ؛ فهو يأمر بالبر ، ويأمر بالمعروف ، ويأمر بالإحسان ، ويأمر بالصلة ، ويأمر بالصدق ، ويأمر بكل خير ؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به وهذه تزكية- ؛ وينهىٰ عن ضد ذلك ؛ ينهىٰ عن الإثم ، والقطيعة ، والعدوان ، والعقوق ، والكذب ، والغش ، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق وهذه أيضـًا تزكية- وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تَسأل! شرك ، وكفر ؛ وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تَسأل أيضـًا عن حالهم! القوي يأكل الضعيف ؛ والغني يأكل الفقير ؛ ويأكلون الربا أضعافـًا مضاعفة ؛ يُغير بعضهم علىٰ بعض ؛ يتعايرون بالأنساب ؛ يدعون بدعوىٰ الجاهلية »[1] .

ودعوة المسلم لأن يزكِّي أخلاقه جاءت في نصوص كثيرة ، واهتم الإسلام بها ، فجعلها مقصودا أعظم في الشريعة ، بُعِث بها محمد ﷺ ؛ ليحسن التعامل بها بين الناس في الحياة الدنيا ، وجعلها أكثر الأعمال ثقلاً في الميزان في الحياة الآخرة ، وهذه من النِعَم العظيمة لهذه الأمة .

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية : « لم يبين هنا من هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل) ، ولم يبين هنا أيضا هذا الرسول المسؤول بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة أن تلك الأمة العرب ، والرسول هو سيد الرسل محمد ﷺ ، وذلك في قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾ [الجمعة :٢-٣] ؛ لأن الأميين العرب بالإجماع ، والرسول المذكور نبينا محمد ﷺ إجماعا ، ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل) إلا نبينا محمد ﷺ وحده .

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٦٧-٦٨) .

وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، ولا ينافي ذلك عموم رسالته ﷺ إلىٰ الأسود والأحمر »[1] .

ثانيًا : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة :١٥٣] : « فوائد الآية :

ـ من فوائد الآية : فضيلة الإيمان ، وأنه من أشرف أوصاف الإنسان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ .

- ومنها : الإرشاد إلىٰ الاستعانة بالصلاة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .

- ومنها : بيان الآثار الحميدة للصلاة ، وأن من آثارها الحميدة أنها تعين العبد في أموره .

- ومنها : جواز الاستعانة بغير الله فيما يمكن أن يعين فيه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[البقرة :٤٥] وجاء في الحديث : « وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة »[2] .

- ومنها : أن الاستعانة بالصلاة من مقتضيات الإيمان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ ﴾[البقرة :١٥٣] .

- ومنها : فضيلة الصبر ؛ لأنه يعين علىٰ الأمور ؛ والصبر ثقيل جداً علىٰ النفس ؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق ، أو بلاء ثقل عليه تحمله ، فاحتاج إلىٰ الصبر ؛ ولهذا قال الله تعالىٰ للنبي ﷺ : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ

---

(١) « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » (١ / ٤٤) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٩) .

﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ﴾ إشارة إلىٰ أن هذا الوحي الذي نزل علىٰ الرسول ﷺ يحتاج إلىٰ صبر، وتحمل؛ لأنه سيجد من ينازع، ويضاد؛ ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٤]»[(١)].

ودعوة المسلم إلىٰ أن يتعبَّد لله تعالىٰ بالاستعانة بالصبر والصلاة، دعوة عظيمة تجعل نفسه تتحمَّل مكابد الحياة ويحملها علىٰ التعلُّق بالله وهو ما أراده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا الموضوع الدعوي.

ثالثًا: قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفوائد:

- من فوائد الآية: فضيلة الإيمان، حيث وجَّه الله الخطاب إلىٰ المؤمنين، فهم أهل لتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

- ومنها: الأمر بالأكل من طيبات ما رزق الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ وهو للوجوب إن كان الهلاك، أو الضرر بترك الأكل.

- ومنها: أن الخبائث لا يؤكل منها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ والخبائث محرمة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

- ومنها: أن ما يحصل عليه المرء من مأكول فإنه من رزق الله؛ وليس للإنسان فيه إلا السبب فقط؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

- ومنها: توجيه المرء إلىٰ طلب الرزق من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فإذا كان هذا الرزق من الله سبحانه وتعالىٰ فلنطلبه منه مع فعل الأسباب التي أمرنا بها.

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ١٧٣).

- ومنها : وجوب الشكر لله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾[البقرة :١٧٢] .

- ومنها : وجوب الإخلاص لله في ذلك ؛ يؤخذ ذلك من اللام في قوله تعالىٰ : ﴿لِلَّهِ﴾ .

- ومنها : أن الشكر من تحقيق العبادة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .

- ومنها : وجوب الإخلاص لله في العبادة ؛ يؤخذ ذلك من تقديم المعمول في قوله تعالىٰ : ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ »(١) .

رابعـًا : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[البقرة :٢٠٨] : « الصواب أن ﴿كَآفَّةً﴾ حال من ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ يعني ادخلوا في الإسلام كله ؛ أي نفذوا أحكام الإسلام جميعـًا ، ولا تدعوا شيئـًا من شعائره ، ولا تفرطوا في شيء منها ؛ وهذا مقتضىٰ الإيمان ؛ فإن مقتضىٰ الإيمان أن يقوم الإنسان بجميع شرائع الإسلام .

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ؛ نهي بعد أمر ؛ لأن اتباع خطوات الشيطان يخالف الدخول في السلم كافة ؛ و﴿خُطُوَٰتِ﴾ جمع خُطوة ؛ و« الخطوة » في الأصل هي ما بين القدمين عند مدِّهما في المشي .

قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ : الجملة تعليلية مؤكدة بـ« إن » ؛ فتفيد شدة عداوة الشيطان لبني آدم ؛ والعدو من يبتغي لك السوء ؛ وهو ضد الوليّ ؛ و(مبين) أي بيِّن العداوة ؛ ويجوز أن تكون بمعنىٰ مظهر للعداوة ؛ لأن « أبان » الرباعية تصلح للمعنيين ؛ ولا شك أن الشيطان بيِّن العداوة ؛ ومظهر لعداوته ؛ ألا ترىٰ إلىٰ إبائه السجود لأبينا آدم مع أن الله أمره به في جملة الملائكة .

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٤٨) .

الفوائد :

– من فوائد الآية : فضل الإيمان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ لأن هذا النداء تشريف وتكريم .

– ومنها : أن الإيمان مقتضٍ لامتثال الأمر ؛ لأن الله صدَّر الأمر بهذا النداء ؛ والحكم لا يقرن بوصف إلا كان لهذا الوصف أثر فيه ؛ وهذه الفائدة مهمة ؛ ولا شك أن الإيمان يقتضي امتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ .

– ومنها : وجوب تطبيق الشرع جملة ، وتفصيلاً ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ .

– ومنها : أن الإنسان يؤمر بالشيء الذي هو متلبس به باعتبار استمراره عليه ، وعدم الإخلال بشيء منه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ ؛ ومثل هذا قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [النساء : ١٣٦] يعني : استمروا علىٰ ذلك .

– ومنها : تحريم اتباع خطوات الشيطان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ ؛ والمعنىٰ : أن لا نتبع الشيطان في سيره ؛ لأن الله بين في آية أخرىٰ أن الشيطان يأمر بالفحشاء ، والمنكر ، وما كان كذلك فإنه لا يمكن لعاقل أن يتبعه ، فلا يرضىٰ أحد أن يتبع الفحشاء والمنكر »[1] .

ودعوة المسلم لأن يعظِّم شعائر الله علما وعملاً هي من الأعمال الباطنة التي تحيي القلب ، وتجعله منقاداً لتعاليم الإسلام كاملة ، وفي هذا دعوة لبعض المسلمين الذين يتعاملون مع أحكام الدين بانتقائية التطبيق بعد إيمانهم

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٦-٧) .

بوجوبها ، بأن يعظِّموا تعاليم الدين كافة ظاهرا وباطنا ، علما وعملا .

خامسًا : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران :١٠٢] : « من فوائد الآية الكريمة :

– وجوب تقوىٰ الله حقَّ تقاته للأمر بذلك بقوله : ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ .

– ومنها : العناية والاهتمام بالتقوىٰ ، يؤخذ من تصديره بالنداء .

– ومنها : أن التقوىٰ من مقتضيات الإيمان لتوجيه النداء إلىٰ المؤمنين .

– ومنها : أن ترك التقوىٰ من نواقص الإيمان ؛ لأنه إذا نودي الإنسان بوصف فإنه يزداد وصفه هذا بحسب زيادته فيما وجِّه إليه .

– ومنها : وجوب البقاء علىٰ الإسلام والمبادرة به ؛ لقوله : ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ .

– ومنها : أن المدار علىٰ الخاتمة ، نسأل الله حسن الخاتمة ؛ لقوله : ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ »(١) .

سادسًا : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران :١٠٣] : « من فوائد قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ :

– وجوب الاجتماع علىٰ شرع الله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿جَمِيعٗا﴾ .

– ومنها : وجوب التحاكم إلىٰ شرع الله ؛ لأن الاعتصام به يقتضي أن يكون هو المحكَّم .

---

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٥٩٠-٥٩١) .

- ومنها: أن الاجتماع عصمة؛ لقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾ فاجتماع الأمة الإسلامية عصمة لها داخليًا، وعصمة لها خارجيًا، أما خارجيًا فإن الأمة الإسلامية إذا اجتمعت هابها الأعداء ورأوا أنها أمامهم كالجبال الصم التي لا يستطيعون لها صعوداً. وإذا تفرقت تمزقت فدخل الأعداء. أيضًا عصمة داخلية لأنهم إذا اجتمعوا علىٰ شرع الله تآمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ودعوا إلىٰ الخير وصاروا أمة واحدة، كل إنسان يخشىٰ الله في أخيه لا يعتدي عليه لا علىٰ ماله ولا علىٰ عرضه ولا علىٰ دمه، لماذا؟ لأنهم أمة واحدة جميعًا، ففي الاجتماع عصمة في الداخل وعصمة في الخارج»[1].

ودعوة المسلمين عامة إلىٰ الاعتصام بكتاب الله تعالىٰ والاجتماع ونبذ الفرقة من أهم ما يحتاجه واقعنا اليوم كما أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لأن الاجتماع علىٰ الكتاب والسنة يجعل للأمة الإسلامية من القوة والمهابة ما يذعن لها معه كل متربِّص وعدو، ويكون لها في ذلك كيانها الذي من خلاله تعتزُّ بدينها وتنشره في أصقاع المعمورة، ويكون به أعظم الأثر في ثبات الأمة وقوتها.

سابعًا: في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية الكريمة:

- فضيلة الإيمان والعمل الصالح وجه ذلك: ما رتب عليها من الثواب؛ لأن كل عمل رتب عليه ثواب فإنه فاضل مأمور به.

- ومنها: أن الإيمان وحده لا يكفي بل لا بد من عمل، ولهذا نجد كثيراً من الناس يركزون علىٰ العقيدة، فيقولون: عقيدتنا سليمة والحمد لله ولا يتعرضون

---

(١) «تفسير سورة آل عمران» (١/ ٦٠٠).

للعمل وهذا قصور ، بل لا بد مع العقيدة من عمل صالح .

- ومنها : إثبات المغفرة لله عَزَّوَجَلَّ ، لقوله تعالىٰ : ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ، وقد تقدم معنىٰ المغفرة وأنها ستر الذنب والتجاوز عنه .

فإن قال قائل : المغفرة هنا مطلقة ، لم يقل : من الله؟

الجواب : هي مطلقة ، لكن الله تعالىٰ قال : ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، وهذا أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الذي بيده المغفرة والرحمة هو الله عَزَّوَجَلَّ .

- ومنها : تفضل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده ، حيث جعل الثواب بمنزلة الأجر ، كأن العامل أجير إذا وفَّىٰ العمل أعطي أجره ، مع أن المنَّة لله عَزَّوَجَلَّ أولاً وآخراً .

- ومنها : عِظَم ثواب المؤمنين العاملين الصالحات حيث عظمه الله عَزَّوَجَلَّ ، وتعظيم العظيم للشيء يدل علىٰ أنه عظيم عظمة لا يتخيلها الإنسان ولا يتصورها ، وهو كذلك »[1] .

ودعوة المسلمين بذكر الثواب المترتب علىٰ الأعمال الصالحة ، له أثر بالغ في استجابة المدعو لأمر الله تعالىٰ ، والانتهاء عما نهىٰ عنه ، ومن ذلك ما ذكره الله تعالىٰ في الآية السابقة ، فالمسلم يطمع بما عند الله تعالىٰ من الثواب الجزيل فتتحرك نفسه للاستجابة لأمره تعظيما له وطمعا بما عنده جل وعلا ، وأشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن تعظيم الله تعالىٰ لثواب عمل فيه دلالة علىٰ عِظَم العمل عند الله تعالىٰ ، وهذا باعث قوي للمؤمن أن يبادر لطاعة الله تعالىٰ .

ثامنـًا : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٥٨) .

ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
[المائدة :٣٥] :

« من فوائد الآية الكريمة :

– أن الإيمان يحمل علىٰ امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، وذلك لأنه وجَّهَ النداء إلىٰ المؤمنين ، ولا شك أن الإيمان يحمل الإنسان علىٰ فعل الأوامر واجتناب النواهي ، وكلما كان الإنسان أقوىٰ إيمانـًا ، كان أشد امتثالاً للأمر وأبعد عن النهي ، وهذا شيء مجرب ، حتىٰ الإنسان نفسه أحيانـًا يجد في قلبه قوة الإيمان فتجده يرغب في الطاعة ويحب أن يستمر فيها ، وأحيانـًا يفتر ويكسل فتجد الطاعات تثقل عليه ، فكلما كان الإنسان أكثر إيمانـًا كان أكثر امتثالاً للأمر والنهي .

– ومنها : وجوب تقوىٰ الله ، لقوله تعالىٰ : ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فالتقوىٰ واجبة وقد ذكرت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، أمراً بها وثناءً علىٰ أهلها وبيان لجزائها ، ولو أن طالب العلم جمع الآيات التي فيها التقوىٰ أمراً وثناءً وجزاءً في القرآن الكريم من أوله إلىٰ آخره ، لوجد خيراً كثيراً .

– ومنها : وجوب طلب القربة إلىٰ الله ، لقوله : ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي : اطلبوا الوسيلة إليه .

– ومنها : وجوب التعلم ، تعلم الدين ، لكن بأي وسيلة نطلب القربىٰ إليه؟ الجواب : بالعلم ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

– ومنها : أنه كلما كانت العبادة تقرب إلىٰ الله أكثر كان الاهتمام بها أكثر ؛ لأن الحكم يدور مع علته ، فإذا قيل : اسلك الطريق المقرب إلىٰ الله ، فإن من

المعلوم أن ما يكون أقرب أو أشد تقريبـًا فهو أولىٰ »[١] .

تاسعـًا : قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحُجُرات :١١] :« يقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾فيخاطبنا جل وعلا- بوصف الإيمان ، وينهانا أن يسخر بعضنا من بعض ؛ لأن المفضِّل هو الله عَزَّوَجَلَّ وإذا كان هو الله لزم من سخريتك بهذا الشخص الذي هو دونك أن تكون ساخراً بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ وإلىٰ هذا يوحي قول الرسول ﷺ : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر »[٢] .

وفي الحديث القدسي : « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار »[٣] . فلماذا تسخر من هذا الرجل الذي هو دونك في العلم أو في المال ، أو في الخُلُق ، أو في الخلقة ، أو في الحسب ، أو في النسب ، لماذا تسخر منه؟ أليس الذي أعطاك الفضل هو الله الذي حرمه هذا في تصورك- فلماذا ، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾رب ساخر اليوم مسخور منه في الغد ، ورب مفضول اليوم يكون فاضلاً في الغد ، وهذا شيء مشاهد ، وفي بعض الآثار يروىٰ : « من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتىٰ يعمله »[٤] .

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (١/ ٣٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٦) .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥) ، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل وخالد بن معدان لم يدرك معاذ بن جبل . وقال الألباني :« موضوع » . « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (١/ ٣٢٧) ، و« ضعيف الجامع الصغير وزيادته » (٨٢٣) (٥٧١٠) .

وفي الآثار أيضـاً : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك »[(١)] . إذن يجب علىٰ الإنسان أن يتأدب بما أدبه الله به ، فلا يسخر من غيره عسىٰ أن يكون خيراً منه ، ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرًا مِّنۡهُنَّ﴾ ونص علىٰ النساء والرجال بالتفصيل ، حتىٰ لا يقول أحد : إن هذا خاص بالرجال ، لو ذكر الرجال وحدهم ، أو خاص بالنساء وحدهن ، وبهذا نعرف الفرق بين القوم والنساء . إذا جمع بين القوم والنساء فالقوم هم الرجال والنساء هن الإناث ، وإن ذكر القوم وحدهم شمل الرجال والنساء ، مثل ما يذكر في الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أنهم أرسلوا إلىٰ قومهم فهو يشمل الذكور والإناث ، لكن إذا ذكر القوم والنساء صار النساء هن الإناث ، والقوم هم الذكور .

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ اللمز : العيب ، بأن تقول : فلان بليد ، فلان طويل ، فلان قصير ، فلان أسود ، فلان أحمر ، وما أشبه ذلك مما يعد عيبـاً ، وقوله : ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ فسّر بمعنيين :

المعنىٰ الأول : لا يلمز بعضكم بعضـاً ، لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان ، أخوك بمنزلة نفسك ، فإذا لمزته فكأنما لمزت نفسك .

والمعنىٰ الثاني : إن المعنىٰ لا تلمز أخاك ، لأنك إذا لمزته لمزك ، فلمزك إياه سبب لكونه يلمزك ، وحينئذ تكون كأنك لمزت نفسك ، وعليه قول النبي ﷺ : « لعن الله من لعن والديه » فقالوا : يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »[(٢)] ، وعلىٰ كل حال في

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٦) وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ . وضعفه الألباني « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (١١ / ٧٠٧) ، و« ضعيف الجامع الصغير » (٩٠١) (٦٢٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) ، ومسلم (٩٠) ، من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال : قال=

الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضـاً ، فلا يجوز لك أن تعيب أخاك بصفة خَلْقية أو صفة خُلُقية ، أما الصفة الخَلْقية التي تعود إلىٰ الخلقة فإن عيبك إياه في الحقيقة عيب لخالقه عَزَّوَجَلَّ فالذي خلق الإنسان هو الله عَزَّوَجَلَّ ، والذي جعله علىٰ هذه الصفة هو الله عَزَّوَجَلَّ ، والإنسان لا يمكن أن يكمل ، فالمسألة خطيرة ، أما عيبه بالخُلُق بأن يكون هذا الرجل سريع الغضب ، شديد الانتقام ، بذيء اللسان ، فلا تعبه ؛ لأنه ربما إذا عبته ابتلاك الله بنفس العيب ، ولهذا جاء في الأثر : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك »[(١)]

لكن إذا وجدت فيه سوء خُلُق فالواجب النصيحة .

ثم قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ يعني بئس لكم أن تنقلوا من وصف الإيمان إلىٰ وصف الفسوق ، فإذا ارتكبتم ما نهىٰ الله عنه صرتم فسقة ، فالإنسان إذا ارتكب كبيرة واحدة من الكبائر صار فاسقـاً ، وإذا ارتكب صغيرة وكررها وأصرّ عليها صار فاسقـاً ، فلا تجعل نفسك بعد الإيمان وكمال الإيمان فاسقـاً ، هذا معنىٰ قوله : ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ ...

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني من كان يفعل هذه الأشياء الثلاثة ، ولم يتب فأولئك هم الظالمون ، فالذي لا يتوب يكون ظالمـاً ، والظلم كما قال النبي ﷺ : « ظلمات يوم القيامة »[(٢)] ، وإذا كان المؤمنون يوم القيامة يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، فهؤلاء الظلمة ليس لهم نور ، فيجب الحذر

= رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والِدَيْهِ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ؟ قال : « يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، ويَسُبُّ أُمَّهُ » .

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٩) .

مما نهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لأنك أيها العبد، عبد لله تأتمر بأمره، وتنتهي عن نهيه »[١] .

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: « وهذا أيضًا، من حقوق المؤمنين، بعضهم علىٰ بعض، أن ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ بكل كلام، وقول، وفعل دال علىٰ تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام، لا يجوز، وهو دال علىٰ إعجاب الساخر بنفسه، وعسىٰ أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر، كما هو الغالب والواقع، فإن السخرية، لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحل بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ: « بحسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم »[٢] .

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يعب بعضكم علىٰ بعض، واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهُمَزة: ١] الآية، وسمي الأخ المؤمن نفسًا لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك »[٣] .

عاشراً: اهتم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ببيَّان كيفيَّة دعوة العصاة من المسلمين، وتنوّعِ الدعوة الموجهة إليهم حسبما يقتضيه المقام والحال، وذلك بذكره لعدة مسائل وأحوال تعترض الدعاة في دعوتهم لأهل المعاصي من المسلمين ومن ذلك قوله:

---

(١) « تفسير سورة الحجرات » (٣٧-٤٢)، باختصار.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) « تيسير الكريم الرحمن » (٨٠١).

لو قال قائل : أحياناً تجد شخصاً علىٰ معصية ومن شكله تعرف أنه لن يقبل فما العمل؟

الجواب : ما أكثر هذا وما أكثر انتفاعهم من الناس ، تجد الواحد منهم ليس علىٰ شكله سيما أهل الخير ، هذا صحيح ، وتظن أنه كذلك ، لكن تجد نفسه لينة وهذا مجرب ، فقد يكون حليق اللحية مسبل الثوب ووجهه ليس بوجه خير ، لكن سبحان الله تجد قلبه ليناً ، أقل ما يقول لك إذا لم تأته بعنف يقول : جزاك الله خيراً وأسأل الله الهداية وهذا مجرَّب ، خذ بيده لكن بسهولة وتنحىٰ به عن الطريق قليلاً تجد فيه خيراً كثيراً ، لكن بلاؤنا من أنفسنا إذا رأينا الرجل مخالف يغار الإنسان ولا يتحمل ثم يبتدئ يتكلم بكلام ينفر صاحبه .

لو قال قائل : أحياناً يجلس الإنسان مع العاصي ولا يستطيع نصحه ، وأيضاً قد لا تتوفر الفرصة لنصحه مرة أخرىٰ ، فماذا يصنع في هذه الحال؟

الجواب : إذا كان لا يمكنه اللقاء به إلا في هذه الجلسة فربما يسمح له في نصحه ، وأما إذا كان لا يمكنه نصحه فليقم عن المعصية ولينصحه في وقت آخر .

لكن لو قيل : قيامه يحدث مفسدة ، لا سيما إن كان جلوسه مع الأقارب يعني كونه يقوم من مجلس الضيوف؟

نقول يستطيع الإنسان أن يقوم مُورِّياً إما أن يضع يده علىٰ أنفه كأنه حصل له رعاف وإما أن يقوم ويضع يده علىٰ رأسه كأن رأسه به وجع .

لو قال قائل : في بعض الأحيان يكون الإنسان في سيارة ومعه قوم لا يريدون النصيحة ، فهل ينصحهم أم ماذا؟

الجواب : راكب السيارة لا يصح بمجرد ركوبه السيارة يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ثم يأتي بمواعظ لن يحتملوا هذا ، لكن يستطيع أن يدخل إلىٰ

عقولهم بأشياء ، إما قصصاً ولتكن قصصاً مضحكة أو مسائل علمية غريبة يلقيها عليهم حتىٰ تتهيأ أذهانهم لهذا ، وإلا فمن المعلوم أن الواحد إذا جلس مجلساً فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم يعظهم سيستثقلون هذا ، ولكل مقام له مقال .

لو قال قائل : أحياناً يجلس الإنسان مع جماعة يكونون علىٰ منكر فلو أنه قام مباشرة لم ينكر هذا المنكر ، وأيضاً لا يستطيع أن ينكر عليهم مباشرة ، فهل يجلس معهم لكي يستطيع إنكار هذا المنكر أم ماذا؟

الجواب : لا بأس كالطبيب يشق الجرح ويشم رائحة كريهة من أجل إصلاحه ، ولأحد العلماء تأثير بالغ في بعض جهات المملكة ، كان يدخل معهم في منكرهم ويحتفل معهم في احتفالاتهم .

لو قال قائل : إنسان رأىٰ رجلاً مع امرأة في سيارته ، وليست المرأة من محارمه ، ويستطيع منعها بدون فتنة ، هل له منعها أو لا؟

الجواب : والله لا أدري ، أتوقف في هذا ، إذا كان لا يحدث فتنة وهو قادر علىٰ المنع فأنا أتوقف فيه ، لو فرضنا هذه المسألة وقعت وهذا الرجل يمكنه أن يوقف السيارة ويقول : يا فلان! أنزل هذه المرأة ، مَنْ هذه المرأة؟ فإن حصلت لواحد من الناس الذين نريد أن نُغَيِّرَ عليهم قد لا تحصل للآخرين ، فنتوقف من أجل أن نخشىٰ أن العواقب قد تكون وخيمة من أناس آخرين .

لو قال قائل : إذا غلب علىٰ ظن إنسان بأن فلاناً سوف يرتكب المنكر الفلاني وأخذ يتغيب هذا الذي يريد أن يرتكب المنكر ، فهل لهذا الغالب علىٰ ظنه أن يتتبع وينظر هل سيفعل هذا المنكر أم لا ، وذلك لكي ينكر عليه؟

الجواب : يعني : هل لنا أن نبحث ونتجسس عن المنكر؟ القاعدة العامة :

إذا وجدت قرائن فلا بأس، وإن لم توجد قرائن فالأصل البراءة»[١].

والقصد من إيراد ما سبق هو الوقوف علىٰ نماذج متنوعة من المضامين الدعوية المتعلِّقة بدعوة المسلمين من تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، والتي دلَّت علىٰ المنهج الشرعي الدعوي المناسب لدعوة المسلمين، من خلال دلالات آيات القرآن الكريم، وذلك بالدعوة إلىٰ سائر شرائع الإسلام العقدية والعملية وسائر أعمال وأخلاقيات المسلم، ومصالحه الدينية والدنيوية، وبيان كيف احتوىٰ القرآن الكريم حياة المسلم وأوضح له الطريق القويم.

والمتأمل لهذه المضامين الدعوية يجد المراعاة لمراتب الدعوة حسب ما يقتضيه الحال، وذلك بالحكمة والبعد عن كل ما يحول دون قبول الدعوة مما يخالف النهج القويم في تبيان تعاليم الكتاب والسنة، ومراعاة ذلك في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ من الأهمية بمكان، وذلك لأن المسلمين ينقسمون إلىٰ قسمين:

القسم الأول: وهم الذين ينقادون للحق ولا يعاندون، فهؤلاء يكفي في دعوتهم بالقول الحكيم أن يبين لهم الحق علما وعملا واعتقادا، وحينئذ ينقادون لذلك بإذن الله تعالىٰ- .

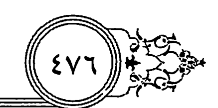
أما القسم الثاني من المسلمين: وهم الذين عندهم غفلة وشهوات وأهواء، وهم عصاة المسلمين، فهذا القسم تكون دعوتهم بالحكمة[٢] بما يناسب حالهم ومقامهم، فيراوح الداعية بين الموعظة الحسنة والترغيب والترهيب

---

(١) «تفسير سورة المائدة» (٢/ ١٠٥-١٠٧).

(٢) انظر: «هداية المرشدين إلىٰ طرق الوعظ والخطابة» لعلي محفوظ (١٤٣-١٤٥)، (٢٤١-٢٤٤)

وانظر: «الحكمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ» د. سعيد القحطاني (٢/ ٤٨١).



والمجادلة بالتي هي أحسن ونحوها من أساليب الدعوة كما سيأتي بيانه في الفصل الخامس من هذه الدراسة- ملتمساً مواضع التأثير والإقناع ، بلا إملال ولا إخلال ، بلغة تناسب ثقافة المدعو وفهمه ، وتدرُّجٍ يناسب الحال ؛ ليحصل المقصود في إرجاعه للحق الذي ابتعد عنه .

وفي بيان مراتب الدعوة وأهمية تطبيقها في دعوة المسلمين يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل :١٢٥] : « جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمتسجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه ، يُدْعَىٰ بطريق الحكمة ، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر ، يُدْعَىٰ بالموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاندُ الجاحد يجادل بالتي هي أحسن »[١] .

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلىٰ الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين ، فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة ، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب »[٢] .

ومن وقف علىٰ نماذج دعوة المسلمين في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدرك تنوّع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دعوتهم بما يلائم المرتبة الدعوية ، وفق منهج قويم مؤصَّل مستمد من الكتاب والسنة .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » (١ / ١٥٣) ، وانظر : « التفسير القيِّم » لابن القيم (٣٥٩) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (٤٥٢) .



المبحث الرابع : دعوة أهل البدع

إن مما ابتليت به كثير من بلدان المسلمين هو انتشار البدع فيها والضلالات فيما بينهم ، ولقد تتابعت أقوال السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ومَنْ بعدهم من العلماء في الذبِّ عن السنة والتحذير من البدع وأهلها ؛ واجتهد العلماء في بيان البدع في كل عصر من العصور ، منتهجين في ذلك الشريعة الغرَّاء التي أدىٰ رسالتها نبينا ﷺ وحذَّر فيها من البدعة وأخبر الأمة بظهور أصحابها من بعده[(١)] ، وفَقِهَ الصحابة ومَنْ بَعْدَهُم ذلك ، وعَمِلوا علىٰ ردِّها ، فكان بدء التصدي لأهل البدع ودعوتهم وبيان ما هم عليه من الخلل وسوء المنهج منذ عهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فلهم آثار في التحذير من البدعة وأهلها ، ولهم قصص في دعوة أهل البدع في زمانهم قولاً وفعلا ، فمن أقوالهم ، قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : « اتَّبِعُوا ولَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ ، كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ »[(٢)] ، وقال : « القَصْدُ فِي السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الاِجْتِهَادِ فِي البِدْعَةِ »[(٣)] ، ومن أفعالهم في دعوة أهل البدع ما كان من ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في مناظرة الخوراج في خلافة علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فما زال بهم حتىٰ رجع منهم ألفان إلىٰ الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة[(٤)] ، وتتابعت دعوة أهل البدع إلىٰ

---

(١) تقدَّم في الفصل الأول ، المبحث الرابع : (الدعوة إلىٰ الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة) ، وفيه تعريف البدعة لغة واصطلاحـًا ، والنصوص الواردة في هذا الباب .

(٢) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٣٤) ، والدارمي (١ / ٢٨٨) ، وابن وضاح في « البدع » (١ / ٣٧) ، وابن بطة في « الإبانة » (١ / ٣٢٨) .

(٣) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٣١) ، والدارمي (١ / ٢٩٦) ، وابن بطة في « الإبانة الكبرىٰ » (١ / ٣٢٠) ، وصححه الدارقطني في « العلل » (٥ / ٢١٣) .

(٤) ولفظ الحديث : عن عَبْدُ اللهِ بن عَبَّاسٍ قال : « لَمَّا خَرَجَتِ الحَرُورِيَّةُ اعْتَزَلُوا فِي دَارٍ ، وكَانُوا سِتَّةَ آلافٍ » فَقلت لِعَلِيٍّ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ « أَبْرِدْ بالصَّلاةِ ، لَعَلِّي أُكَلِّمُ هَؤُلاءِ القَوْمَ » قال :=

الحق علىٰ اختلاف فِرَقِهم منذ ذلك العهد، إلىٰ العصور المتأخرة، وأُلِّفت

= «إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَيْكَ» قلت: كَلا، فَلَبِسْتُ، وتَرَجَّلْتُ، ودَخَلْتُ عَلَيْهِمْ فِي دَارِ نِصْفِ النَّهَارِ، وهُمْ يَأْكُلُونَ فَقَالُوا: «مَرْحَبًا بكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَمَا جَاءَ بكَ؟» قلت لَهُمْ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ المُهَاجِرِينَ، والأَنْصَارِ، ومِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وصِهْرِهِ، وعَلَيْهِمْ نُزِّلَ القُرْآنُ، فَهُمْ أَعْلَمُ بتَأْوِيلِهِ مِنْكُمْ، ولَيْسَ فِيكُمْ منهم أَحَدٌ، لأُبَلِّغَكُمْ مَا يَقُولُونَ، وأُبَلِّغَهُمْ مَا تَقُولُونَ، فَانتَحَىٰ لِي نَفَرٌ منهم قلت: هَاتُوا مَا نَقِمْتُمْ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وابْنِ عَمِّهِ قَالُوا: «ثَلاثٌ» قلت: مَا هُنَّ؟ قال: «أَمَّا إِحْدَاهُنَّ، فَإِنَّهُ حُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَمْرِ اللهِ» وقال اللهُ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] مَا شَأْنُ الرِّجَالِ والحُكْمِ؟ قلت: هَذِهِ واحِدَةٌ قالوا: وأَمَّا الثَّانِيَةُ، فَإِنَّهُ قَاتَلَ، ولَمْ يَسْبِ، ولَمْ يَغْنَمْ، إِنْ كَانُوا كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سِبَاهُمْ، ولَئِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ سِبَاهُمْ ولا قِتَالُهُمْ قلت: هَذِهِ ثِنْتَانِ، فَمَا الثَّالِثَةُ؟ «وذَكَرَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا قَالُوا: مَحَىٰ نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، فَهُو أَمِيرُ الكَافِرِينَ» قلت: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا؟ قَالُوا: «حَسْبُنَا هَذَا» قلت: لَهُمْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وسُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا يَرُدُّ قَوْلَكُمْ أَتَرْجِعُونَ؟ قَالُوا: «نَعَمْ» قلت: أَمَّا قَوْلُكُمْ: «حُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَمْرِ اللهِ، فَإِنِّي أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِ اللهِ أَنْ قَدْ صَيَّرَ اللهُ حُكْمَهُ إِلَىٰ الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبْعِ دِرْهَم، فَأَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ أَنْ يَحْكُمُوا فِيهِ» أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] وكَانَ مِنْ حُكْمِ اللهِ أَنَّهُ صَيَّرَهُ إِلَىٰ الرِّجَالِ يَحْكُمُونَ فِيهِ، ولَوْ شَاءَ لحكم فِيهِ، فَجَازَ مِنْ حُكْمِ الرِّجَالِ، أَنْشُدُكُمْ باللهِ أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي صَلاحِ ذَاتِ البَيْنِ، وحَقْنِ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ أَوْ فِي أَرْنَبٍ؟ قَالُوا: بَلَىٰ، هَذَا أَفْضَلُ وفِي المَرْأَةِ وزَوْجِهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] فَنَشَدْتُكُمْ باللهِ حُكْمَ الرِّجَالِ فِي صَلاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ، وحَقْنِ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ مِنْ حُكْمِهِمْ فِي بُضْعِ امْرَأَةٍ؟ خَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ «قَالُوا: نَعَمْ قلت: وأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتَلَ ولَمْ يَسْبِ، ولَمْ يَغْنَمْ، أَفَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ، تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا وهِيَ أُمُّكُمْ؟ فَإِنْ قلتمْ: إِنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْهَا مَا نَسْتَحِلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ، وإِنْ قلتمْ: لَيْسَتْ بأُمِّنَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فَأَنْتُمْ بَيْنَ ضَلالَتَيْنِ، فَأْتُوا مِنْهَا بمَخْرَجٍ، أَفَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وأَمَّا مَحْيُ نَفْسِهِ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، فَأَنَا آتِيكُمْ بمَا تَرْضَوْنَ. إن نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ صَالَحَ المُشْرِكِينَ فَقال لِعَلِيٍّ: «اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا قَاتَلْنَاكَ فَقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «امْحُ يَا عَلِيُّ اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ، امْحُ يَا عَلِيُّ، واكْتُبْ=

في ذلك كتباً في بيان فِرَق المبتدعة والرد عليهم ودعوتهم ، ولا زالت الساحة الدعوية بحاجة إلىٰ التصدي للمبتدعة ومسائلهم المستجدة ، وتلبيسهم علىٰ الناس علىٰ كافة الأصعدة المقروءة والمسموعة والمرئية ، لاسيما ونحن نعيش طفرة إعلامية ، تُعَدُّ هي الأبرز تأثيرا علىٰ المجتمعات ، حتىٰ بات أهل البدع يخصصون لهم قنوات فضائية يبثون فيها سمومهم وتلبيسهم علىٰ العامة ، فالحاجة للرد عليهم ودعوتهم ماسة ، والسير علىٰ جادة العلماء السابقين في التصدي لأهل البدع ودعوتهم من أهم المهمات ، ومن أبرز طرق دعوتهم : بيان عوار معتقدهم ، والخلل الذي يعتريه ، وعدم استقامته مع نصوص الكتاب والسنة ، ولقد استفاضت كتب العلماء علىٰ مرِّ العصور إلىٰ عصرنا الحاضر- في الردِّ علىٰ المبتدعة وبيان أساليبهم الخفيَّة ، والتحذير منهم ، ودعوتهم إلىٰ العقيدة الصحيحة ، انطلاقاً من دلالات الآيات ، كما قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران :٧١] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أنه يجب الحذر من أهل الباطل إذا لبسوا الحق بالباطل ، وألا نغتر بهم لأنهم يأتون بزخرف القول غروراً ، ومن هذا ما حصل للمبتدعة من هذه الأمة ، فإنك إذا سمعت كلامهم قلت : لا أعدل بذلك شيئاً ، هذا هو الحق ولن أتجاوزه ، ولكنه كما قيل :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقًّا وكل كاسر مكسور

= هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بن عَبْدِ اللهِ » واللهِ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ ، وقَدْ مَحَىٰ نَفْسَهُ ، ولَمْ يَكُنْ مَحْوُهُ نَفْسَهُ ذلك مَحَاهُ مِنَ النُّبُوَّةِ ، أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ » قَالُوا : « نَعَمْ ، فَرَجَعَ منهم الفَانِ ، وخَرَجَ سَائِرُهُمْ ، فَقُتِلُوا عَلَىٰ ضَلالَتِهِمْ ، فَقَتَلَهُمُ المُهَاجِرُونَ والأَنْصَارُ » والحديث أخرجه النسائي « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٤٨٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٦٤) ، وقال : هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

حججهم كلها متهافتة ليس لها ما يقيمها علىٰ قدميها فضلاً عن أن تكون مهاجمة ، هي لا تدافع عن نفسها فضلاً عن أن تهاجم غيرها ، لكن مع ذلك يموِّهون ، فعلىٰ الإنسان أن يحترز من هؤلاء الذين يلبسون الحق بالباطل . »[1] .

- أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بدعوة أهل البدع :

أولاً : قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة :٣٠] : « ومن فوائد الآية : إثبات الأفعال لله عَزَّوَجَلَّ أي أنه تعالىٰ يفعل ما شاء متىٰ شاء كيف شاء ؛ ومن أهل البدع من ينكر ذلك زعماً منه أن الأفعال حوادث ؛ والحوادث لا تقوم إلا بحادث فلا يجيء ، ولا يستوي علىٰ العرش ، ولا ينْزل ، ولا يتكلم ، ولا يضحك ، ولا يفرح ، ولا يعجب ؛ وهذه دعوىٰ فاسدة من وجوه :

الأول : أنها في مقابلة نص ؛ وما كان في مقابلة نص فهو مردود علىٰ صاحبه .

الثاني : أنها دعوىٰ غير مسلَّمة ؛ فإن الحوادث قد تقوم بالأول الذي ليس قبله شيء .

الثالث : أن كونه تعالىٰ فعّالاً لما يريد من كماله ، وتمام صفاته ؛ لأن من لا

---

(١) « تفسير آل عمران »(١ / ٤٠٥) ، وفي تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[البقرة :١٢١] ذكر خطورة ما ذهب إليه المبتدعة ، فقال : « من فوائد وأحكام الآية : تحريم تفسير القرآن بالرأي والهوىٰ ؛ لأن من فعل ذلك فإنه لم يتل القرآن حق تلاوته باعتبار المعنىٰ ، ويتفرع علىٰ هذا بيان خطر ما ذهب إليه المحرِّفون لآيات الصفات ... فمن حرَّف نصوص الكتاب والسنة في آيات الصفات وأحاديثها ؛ فهو أشد خطراً ممن حرَّفها فيما يتعلَّق بالأحكام البدنية ؛ وعلىٰ هذا فالواجب إجراء نصوص الصفات في الآيات والأحاديث علىٰ ظاهرها اللائق بالله بلا تمثيل ولا تحريف » . « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٢٣) بتصرف .

يفعل إما أن يكون غير عالم، ولا مريد؛ وإما أن يكون عاجزاً؛ وكلاهما وصفان ممتنعان عن الله سبحانه وتعالىٰ.

فتَعَجَّبْ كيف أُتي هؤلاء من حيث ظنُّوا أنه تنزيه لله عن النقص؛ وهو في الحقيقة غاية النقص!! فاحمد ربك علىٰ العافية، واسأله أن يعافي هؤلاء مما ابتلاهم به من سفه في العقول، وتحريف للمنقول »[١].

والرد علىٰ أهل البدع ينبغي أن يكون مؤصَّلاً؛ لأن التأصيل العلمي يسدُّ جميع الثغرات التي يزعمها المبتدعة في بدعهم، ويبطل بدعتهم ويدعوهم للاعتقاد الصحيح؛ لاحتوائه علىٰ الأدلة النقليَّة، والمناقشات العقلية التي لا تدع لقلب طالب الحق ولا لعقله مجالاً في البقاء علىٰ البدعة، وهذا ظاهر في ردِّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما سبق وما سيأتي من نماذج.

ثانياً: في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائدها: « الرد علىٰ أهل البدع الذين حرَّفوا نصوص الكتاب والسنة إلىٰ معان لا يدل عليها ظاهرها، ووجه ذلك أننا إذا قلنا: إن المراد بهذه الآيات والأحاديث خلاف الظاهر بدون بيان من الله ورسوله صارت هذه الآيات مبهمة. مثلاً: إذا قالوا: المراد باستواء الله علىٰ عرشه استيلاؤه[٢] عليه بدون بيان من الله ورسوله نقول:

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١١٦).

(٢) وناقش الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقيدة تأويل الاستواء علىٰ العرش بالاستيلاء، وأسهب في عدة مواضع من مؤلفاته، انظر مثلاً: « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (١ / ٢٣)، (٤ / ٤٠)، و« التعليق علىٰ لمعة الاعتقاد » (٦١).
وانظر مزيداً: « الرد علىٰ الجهمية والزنادقة » للإمام أحمد (١٤٢)، و« إثبات صفة العلو » لابن قدامة (١٧٤).

كون الله يعبر باستوىٰ علىٰ العرش بدل استولىٰ إيهام . وإذا قالوا : المراد باليد النعمة والقوة[١] قلنا : سبحان الله كيف يعبر الله باليد عن النعمة والقوة وهو يريد النعمة والقوة بدون بيان ، ما هذا إلا إيهام . فالمهم أنه علىٰ طريقة ومنهاج أهل البدع وغيرهم أيضـاً ممن يحرفون الكلم عن مواضعه بدون بيان من الله ورسوله يكون القرآن ليس هدىً ولا بيانـاً للناس وكذلك السنة ، وهو خلاف هذه الآية وغيرها »[٢] .

وصرف اللفظ عن ظاهره إلىٰ معنىٰ آخر يُدخل العبد في حيرة وترددٍ بين معانٍ كثيرة ، ولن يستقرَّ علىٰ حال ؛ وهو ما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ الوهم والإبهام في المعنىٰ ، والله تعالىٰ خاطب عباده بما يفهمون ويعقلون ، وصرف المعنىٰ عن المعنىٰ الحقيقي هو صرفٌ لما فيه حرج وتكلُّف واتباع للظن الذي لا يغني من الحق شيئا .

ثالثـاً : وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة :١١٢] يبيِّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أهل البدع مع اجتهادهم فإنهم ليسوا ممن يؤجر علىٰ اجتهاده ، فيقول :« من فوائد الآية : أن أهل الجنة هم الذين جمعوا بين وصفين ؛ الأول : الإخلاص لله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ ؛ والثاني : اتباع شرعه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ...

---

(١) ناقش الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأويل المبتدعة لصفة اليد بالنعمة والقوة ، انظر مثلًا : « شرح العقيدة الواسطية » (٢٩١) ، و« شرح العقيدة السفارينية » (٢٥٥) .
وانظر مزيداً : « الرد علىٰ الجهمية » للدرامي (٢٠٢) ، و« الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة » لابن القيم (١ / ٢٧٣) .

(٢) « تفسير آل عمران »(١ / ٦٠٦) .

- ومنها : أن إخلاص النية وحده لا يكفي في تبرير التعبد لله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ؛ وعلىٰ هذا فمن قال : إنه يحب الله ، ويخلص له وهو منحرف في عبادته فإنه لا يدخل في هذه الآية لاختلال شرط الإحسان ...

ويتفرع علىٰ هذه الفائدة أن أهل البدع لا ثواب لهم علىٰ بدعهم . ولو مع حسن النية ؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة ؛ والأجر مشروط بأمرين : الأول : إسلام الوجه لله ؛ والثاني : الإحسان . »[1] .

رابعًا : ومن جملة المضامين الدعوية المتعلِّقة في الردِّ علىٰ أهل البدع في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تناوله لبعض فرق المبتدعة والردِّ عليهم ، ومن ذلك : قول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دعوة الجبريَّة[2] ، وبيان خطأ معتقدهم عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[البقرة :٥٩] : « ومن فوائد الآية : الرد علىٰ الجبرية الذين يقولون : إن الله سبحانه وتعالىٰ مجبر العبد علىٰ عمله ؛

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٧٠) بتصرف .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « مجموع فتاويه ورسائله » (١٠ / ٩٨٥) : « الجبرية الجهميَّة : أثبتوا قدر الله تعالىٰ وغلوا في إثباته حتىٰ سلبوا العبد اختياره وقدرته ، وقالوا : ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه ، فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة ولا فرق بين أن ينزل من السطح عبر الدرج مختارا وبين أن يلقىٰ من السطح مكرها » .
قال الشهرستاني في « الملل والنحل » (١ / ٨٥) : « الفصل الثاني : الجبرية .
الجبر : هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلىٰ الرب تعالىٰ ، والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة : هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة علىٰ الفعل أصلا ، والجبرية المتوسطة : هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا ، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل ، وسمي ذلك كسبا ، فليس بجبري » .

ووجه الرد أن الله سبحانه وتعالىٰ أضاف الفسق إليهم ؛ والفسق هو الخروج عن الطاعة ؛ والوجه الثاني : أنهم لو كانوا مجبرين علىٰ أعمالهم لكان تعذيبهم ظلمـاً ، والله . تبارك وتعالىٰ . يقول : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] »(١) .

خامسـاً : قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في دعوة الصوفيَّة(٢) وبيان خطأ ما ذهبوا إليه ، عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[البقرة :٢٨٦] : « ومن فوائد الآية : أن ينبغي للإنسان أن يسأل الله سبحانه وتعالىٰ العافية ، فلا يُحَمِّلُه ما لا طاقة له به ؛ ففيه رد علىٰ الصوفية الذين قالوا : نحن لا نسأل الله تعالىٰ أن يقينا ما يشق علينا ؛ لأننا عبيده ؛ وإذا حصل لنا ما يشق فإننا نصبر عليه لنكسب أجراً » (٣) .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران :١٢٨] قال : « من فوائد الآية : أن النبي ﷺ مكلف يأمره الله سبحانه وتعالىٰ وينهاه ، وعليه فيكون في هذا إبطال لدعوىٰ من يقولون : إن الإنسان إذا وصل إلىٰ حالة معينة من العبودية سقطت عنه التكاليف ، وهذا قول طائفة من الصوفية الذين يقولون : إن الإنسان يترقىٰ في اليقين حتىٰ إذا وصل إلىٰ الدرجة العليا سقط عنه التكليف ، وصار كل شيء حرامٍ حلالاً له ، وكل

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٠٥) .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في « فتاوىٰ نور علىٰ الدرب » (٤ / ٢) حين سئل عن الصوفيَّة : « الصوفية كلمة قيل إنها مشتقة من الصفا ، وقيل إنها مشتقة من الصفوة ، وقيل إنها مشتقة من الصوف ، وهو الأقرب ؛ لأنهم كانوا إبان ظهورهم يرتدون الألبسة من الصوف تقشفـاً وتزهداً ، والصوفية لها طرق متعددة تصل بهم أحيانـاً إلىٰ الكفر الصريح ، حيث إنهم يصلون إلىٰ القول بوحدة الوجود ، وأنهم لا يشاهدون إلا الرب ، ويعتقدون أن كل شيء مشاهد من آيات الله تبارك وتعالىٰ فإنه هو الله ، ولا شك أن هذا كفر صريح ومنهم من يشذ عن الإسلام دون ذلك وهم علىٰ درجات متفاوتة » .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٦٠) .

شيء واجب ليس بواجب عليه، فلا يوجبون عليه الصلاة، ولا يحرمون عليه الزنىٰ ولا شرب الخمر؛ فيقال لهم: إذا كان النبي ﷺ وهو أشرف الخلق لا يصل إلىٰ هذه المرتبة فما بالك بمن دونه؟ »(١).

سادسًا: قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دعوة الأشاعرة(٢)، وبيان خطئهم العقدي، عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]:

« من فوائد الآية: الرد علىٰ الأشعرية، وغيرهم ممن يرون أن كلام الله هو المعنىٰ القائم بنفسه؛ وأن الحروف، والأصوات عبارة عن كلام الله، وليست كلام الله؛

---

(١) « تفسير آل عمران »(٢ / ١٤٧)، وانظر: « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٩٥)، و« تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٧).

(٢) فرقة كلامية تُنسب إلىٰ أبي الحسن الأشعري الذي خرج علىٰ المعتزلة، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « تقريب التدمرية » (٢٤): « الأشاعرة ومن ضاهاهم من الماتريدية وغيرهم: وطريقتهم: أنهم أثبتوا لله الأسماء، وبعض الصفات، ونفوا حقائق أكثرها، وردوا ما يمكنهم رده من النصوص، وحرفوا ما لا يمكنهم رده، وسموا ذلك التحريف تأويلاً؛ فأثبتوا لله من الصفات سبع صفات: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، علىٰ خلاف بينهم وبين السلف في كيفية إثبات بعض هذه الصفات » وانظر: « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٩ / ٣١٨).

وقال في « تعليقه علىٰ لمعة الاعتقاد »(١٦٣): « الأشعرية أتباع الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، كان في أول أمره يميل إلىٰ الاعتزال حتىٰ بلغ الأربعين من عمره ثم أعلن توبته من ذلك وبين بطلان مذهب المعتزلة وتمسك بمذهب أهل السنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أما من ينتسبون إليه فبقوا علىٰ مذهب خاص يعرف بمذهب الأشعرية، لا يثبتون من الصفات إلا سبعًا زعموا أن العقل دل عليها، ويؤولون ما عداها ».

انظر مزيداً: « الملل والنحل » للشهرستاني (١ / ٩٤)، و« الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة » (١ / ٨٣)، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

بل خلقها الله ليعبر بها عما في نفسه ؛ والرد عليهم مفصلاً في كتب العقائد »[1] .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران :٧٦] :

« من فوائد الآية : الرد علىٰ الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل الذين أنكروا محبة الله[2] . وقالوا : (إنه لا يجوز أن تثبت أن الله (يُحب) قالوا : إذا أثبتَّ أن الله يحب فقد وصفته بالنقص والعيب ؛ لأن هذا من خصائص المحدثات ، ولأن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين .

وقالوا : (ليس المراد بإثبات المحبة نفس المحبة ، بل المراد بذلك لازِمُها وهو الإثابة ، فمعنىٰ (يحب المتقين) يعني يثيب المتقين أما أن يكون يحبهم فكلا .

ولكن نقول : هذا تحريف للكلم عن مواضعه ؛ لأن النصوص لا تكاد تحصر في إثبات محبة الله وأنه يُحِب ويُحَب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة : ٥٤] والمحبة غير الثواب ، إذا أحب الله العبد أثابه ، فالإثابة من لازم المحبة ، وقولهم : (إنها لا تكون إلا بين متناسبين) هذا غير صحيح ، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في أُحُد : « جبل يحبنا ونحبه »[3] ، ولا مناسبة بين البشر والجبل؟

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٥١) .

(٢) ناقش الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأويل المبتدعة لصفة المحبة بالإثابة ، في : « شرح العقيدة الواسطية » (٢٢٤) ، و« تقريب التدمرية » (٢٦) ، و« مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٤ / ١٢٤) . وانظر مزيداً : « مجموع الفتاوىٰ » لابن تيمية »(٢ / ٣٥٤) ، و« مدارج السالكين » لابن القيم (٣ / ١٩) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٩) ، ومسلم (١٣٦٥) .

وثبت بالواقع المحسوس أن بعض الحيوان يحب البشر، فالناقة تحب صاحبها، وتأتي إليه من بين الناس، تَبْرُكُ عنده، ولو جاء أحد غير صاحبها لنفحته برجلها، أو عضته بفمها، لكن صاحبها تحنُّ إليه وتجلس عنده، وإذا سمعت صوته وإن لم تره حنت، وكذلك بقية الحيوانات، شيء مشاهد، وهذه محبة »[١] .

سابعـًا : في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسط لمضمون الرد على المبتدعة ودعوتهم إلى المنهج الحق، في بعض المواضع، فربما في الآية الواحدة استوعب فِرَقـًا كثيرة من المبتدعة، ففي آية الكرسي تكلَّم عن إثبات الأسماء الخمسة الواردة في الآية (الله، الحي، القيوم، العلي، العظيم)، وعن إثبات صفات الله تعالى : (الحياة، والقيومية، الملك التام، السلطان الكامل، العلم، نفي السِّنَة، نفي النوم)، وذكر منهج المبتدعة في هذه الأسماء والصفات مع بيان منهج أهل السنة، ثم عرَّج على بقية الآية وهي قوله تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة :٢٥٥] وذكر في هذا الجزء فقط الرد على جملة من فِرَق المبتدعة فقال في فوائدها : « ومن فوائدها : الرد على القدرية[٢] الغلاة ؛ لقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[البقرة :٢٥٥] ؛ فإثبات عموم العلم يرد عليهم ؛ لأن القدرية الغلاة أنكروا علم الله بأفعال خلقه إلا إذا وقعت .

---

(١) « تفسير آل عمران »(١ / ٤٣٣-٤٣٤) .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « تعليقه على لمعة الاعتقاد »، (١٦٢) : « القدرية : هُم الذين يقولون بنفي القدر عن أفعال العبد وأن العبد إرادة وقدرة مستقلين عن إرادة الله وقدرته، وأول من أظهر القول به معبد الجهني في أواخر عصر الصحابة، تلقاه عن رجل مجوسي في البصرة، وهما فرقتان غلاة وغير غلاة فالغلاة ينكرون علم الله وإرادته وقدرته وخلقه لأفعال العبد وهؤلاء انقرضوا أو كادوا، وغير الغلاة يؤمنون بأن الله عالم بأفعال العباد لكن ينكرون وقوعها بإرادة الله وقدرته وخلقه وهو الذي استقر عليه مذهبهم » .

- ومنها: الرد على الخوارج والمعتزلة[(١)] في إثبات الشفاعة؛ لأن الخوارج، والمعتزلة ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأن مذهبهما أن فاعل الكبيرة مخلد في النار لا تنفع فيه الشفاعة ...

- ومنها: الرد على الممثلة؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم؛ بل بما يعلم خلافه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١] ...

- ومنها: إثبات علو الله سبحانه وتعالى أزلاً، وأبداً[(٢)]؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليق مختصر على «لمعة الاعتقاد» (١٦٢-١٦٣):
«الخوارج: وهم الذين خرجوا لقتال علي بن أبي طالب بسبب التحكيم.
مذهبهم التبرؤ من عثمان وعلي والخروج على الإمام إذا خالف السنة، وتكفير فاعل الكبيرة وتخليده في النار وهم فرق عديدة.
والمعتزلة: أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري وقرر أن الفاسق في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر وهو مخلد في النار وتابعه في ذلك عمرو بن عبيد، ومذهبهم في الصفات التعطيل كالجهمية، وفي القدر قدرية ينكرون تعلق قضاء الله وقدره بأفعال العبد، وفي فاعل الكبيرة أنه مخلد في النار وخارج من الإيمان في منزلة بين منزلتين، الإيمان والكفر، وهم عكس الجهمية في هذين الأصلين».
انظر مزيداً في التعريف بالقدرية: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٤٣)، و«الإبانة الكبرى» لابن بطة (٣/ ١٤١)، و«الشريعة» للآجري (٢/ ٧٠٢)
وفي التعريف بالخوارج: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١١٤)، و«الشريعة» للآجري (١/ ٣٢٥) و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٥٨).
وفي التعريف بالمعتزلة: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٤٣)، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٦٤)، وانظر: «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادي (ص: ٩٣).

(٢) ناقش الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المبتدعة في تأويلهم وتعطيلهم لصفة العلو في تعليقه على «لمعة الاعتقاد» (٦٥)، و«شرح العقيدة الواسطية» (١٧٨)، و«فتح رب البرية بتلخيص الحموية» (٣٩)
وانظر مزيداً: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٥/ ١٦٤)، و«الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة» (١/ ٣٩٧).



ٱلْعَلِيُّ ﴾ [الشورىٰ :٤] ؛ و﴿ٱلْعَلِيُّ ﴾ صفة مشبهة تدل علىٰ الثبوت ، والاستمرار ؛ وعلوّ الله عند أهل السنة ، والجماعة ينقسم إلىٰ قسمين ؛ الأول : علو الذات ؛ بمعنىٰ أنه سبحانه نفسه فوق كل شيء ؛ وقد دل علىٰ ذلك الكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف ، والعقل ، والفطرة ؛ وتفصيل هذه الأدلة في كتب العقائد ؛ وخالفهم في ذلك طائفتان ؛ الأولىٰ : من قالوا : إنه نفسه في كل مكان في السماء ، والأرض ؛ وهؤلاء حلولية الجهمية[1] ، ومن وافقهم ؛ وقولهم باطل بالكتاب ، والسنّة ، وإجماع السلف ، والعقل ، والفطرة ؛ الطائفة الثانية : قالوا : إنه لا يوصف بعلوّ ، ولا غيره ؛ فهو ليس فوق العالم ، ولا تحته ، ولا عن يمين ، ولا عن شمال ، ولا متصل ، ولا منفصل ؛ وهذا قول يكفي تصوره في رده ؛ لأنه يؤول إلىٰ القول بالعدم المحض »[2] .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة :١٥٩] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« ومن فوائد الآية : الرد علىٰ الجبرية ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿يَكْتُمُونَ ﴾ ؛ والكاتم مريد للكتم ...

– ومنها : الرد علىٰ أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل ؛

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه علىٰ « لمعة الاعتقاد » (١٦٢) : « الجهمية : نسبة إلىٰ الجهم بن صفوان الذي قتله سالم أو سلم بن أحوز سنة ١٢١هـ ، مذهبهم في الصفات التعطيل والنفي ، وفي القدر القول بالجبر ، وفي الإيمان القول بالإرجاء ، وهو أن الإيمان مجرد الإقرار بالقلب وليس القول والعمل من الإيمان ، ففاعل الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ، فهم معطلة جبرية مرجئة وهم فرق كثيرة » .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٢٦٠-٢٦٢) بتصرف .

لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بيانـاً للناس ؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية ، وفعلية ؛ فإذا صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان ؛ يكون الله سبحانه وتعالىٰ ذكر شيئـاً لا يريده ؛ وهذا تعمية لا بيان ؛ فيستفاد من هذه الآية الرد علىٰ أهل التأويل ؛ والحقيقة أنهم كما قال شيخ الإسلام- أهل التحريف لا أهل التأويل ؛ لأن التأويل منه حق ، ومنه باطل ؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه .

- ومنها : الرد علىٰ أهل التفويض الذين يقولون : إن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم الخلق معناها ؛ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد »[1] .

ثامنـاً : المتأمل للمضامين الدعوية في دعوة أهل البدع والرد عليهم في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجد هذه الدعوة تنتهج طريقتين لدعوة أهل البدع والردِّ علىٰ معتقدهم ، تارة بذكر الفِرقَة ومعتقدها والردِّ عليها كما تقدَّم من نماذج- وتارة بذكر معتقد أهل البدع دون نسبته ويبيِّن ضلاله ، والمنهج القويم الذي ينبغي أن يُصار إليه ، ومن أمثلة ذلك :

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] : « من فوائد الآية : إثبات إتيان الله[2] عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة للفصل بين عباده ؛ وهو إتيان

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٩٠) بتصرف .

(٢) ناقش الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المبتدعة في تأويلهم لصفة الإتيان لله تعالىٰ ، في : تعليقه علىٰ « لمعة الاعتقاد » (٥٢) ، و« شرح العقيدة الواسطية » (٢٧٤) ، و« مجموع فتاويه ورسائله » (٣ / ٢٨٣) .
وانظر مزيداً : « الرد علىٰ الجهمية » للدارمي (٩٤) ، و« مجموع الفتاوىٰ » لابن تيمية (١٦ / ٤٠٤) .

حقيقي يليق بجلاله لا تُعلَم كيفيته ، ولا يسأل عنها كسائر صفاته- ؛ قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ وقد سئل عن قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] كيف استوىٰ؟ فقال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »[1] ؛ هذا وقد ذهب أهل التعطيل إلىٰ أن المراد بإتيان الله : إتيان أمره ؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه ، وصرف للكلام عن ظاهره بلا دليل إلا ما زعموه دليلاً عقلياً وهو في الحقيقة وهمي ، وليس عقلياً ؛ فنحن نقول : الذي نسب فعل الإتيان إليه هو الله عَزَّوَجَلَّ ؛ وهو أعلم بنفسه ؛ وهو يريد أن يبين لعباده ، كما قال تعالىٰ : ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء : ١٧٦] ؛ وإذا كان يريد أن يبين ، وهو أعلم بنفسه ، وليس في كلامه عِيٌّ ، وعجز عن التعبير بما أراد ؛ وليس في كلامه نقص في البلاغة ؛ إذاً فكلامه في غاية ما يكون من العلم ؛ وغاية ما يكون من إرادة الهدىٰ ؛ وغاية ما يكون من الفصاحة ، والبلاغة ؛ وغاية ما يكون من الصدق ؛ فهل بعد ذلك يمكن أن نقول : إنه لا يراد به ظاهره؟! كلا ؛ لا يمكن هذا إلا إذا قال الله هو عن نفسه أنه لم يرد ظاهره ؛ إذاً المراد إتيان الله نفسه ؛ ولا يعارض ذلك أن الله قد يضيف الإتيان إلىٰ أمره ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل : ١] ، ومثل قوله تعالىٰ : ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] ؛ لأننا نقول : إن هذا من أمور الغيب ؛ والصفات توقيفية ؛ فنتوقف فيها علىٰ ما ورد ؛ فالإتيان الذي أضافه الله إلىٰ نفسه يكون المراد به إتيانه بنفسه ؛ والإتيان الذي أضافه الله إلىٰ أمره يكون المراد به إتيان أمره ؛ لأنه ليس لنا أن نقول علىٰ الله ما لا نعلم ؛ بل علينا أن نتوقف فيما

---

(١) أخرجه اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » (٣/ ٤٤١) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (٢/ ٣٠٥) (٨٦٧) ، والدارمي في « الرد علىٰ الجهمية » (٦٦) ، وصححه الذهبي ، انظر « مختصر العلو للعلي العظيم » (١٤١) ، وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/ ٤٠٧) .

ورد على حسب ما ورد »[١] .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة :١٥٠] ، قال : « من فوائد الآية : أن أحكام الله تعالى الشرعية ، معلَّلة ، أي لها علَّة وحِكْمَة ، وليست لمجرَّد المشيئة التي ليس لها حكمة ولا علَّة ؛ لقوله تعالى : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ﴾ ، وفيها : ردٌّ على مَنْ يقول مِنْ أهل البدع : إن أفعال الله سبحانه وتعالى وأحكامه لا تُعَلَّل بعِلَل ؛ لأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء :٢٣] ، فنقول : إن القرآن والسنة مملوءان مِنْ ذكر تعليل الأحكام بالعِلَل والمصالح ، وأما قوله تعالى : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ ، فهو لا يُسْأَلُ عما يفعل ؛ لكمال أفعاله ؛ ولكونها لا تصدر إلا عن حكمة بالغة .

ثم إن هناك أفعالاً لله تعالى وأحكاماً لا تُعْلَم عِلَلُها وحكمتها ؛ فلا مَطْعَن فيها ، ولا مُعَارَضَة لله تعالى فيها ؛ لأن عقول الخلق قاصرة عن إدراك كل حكمة لله تعالى »[٢] .

تاسعاً : من المضامين الدعوية في دعوة المبتدعة ذِكْرُ أقسام أهل البدع في بثِّ سمومهم ، قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء :٢٧] قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :« من فوائد الآية : الحذر من أهل البدع ؛ لأن أهل البدع ينقسمون إلى قسمين : قسم عندهم شبهات ، وقسم عندهم شهوات ، فالجاهل منهم عنده شبهات حتى يلتبس عليه الحق بالباطل ، والعالم منهم عنده شهوات ، فهو يريد ما لا يريد الله ورسوله ،

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ١٥) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٠٣) .

ففي الآية التحذير من هؤلاء وهؤلاء »[١] .

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة العذر بالجهل ، وهل تنطبق علىٰ المبتدعة؟ وكيفية مناظرتهم ، وحكمهم فقال : « لو قال قائل : مسألة العذر مشكلة جداً ، وأنتم ذكرتم أنه يجب علىٰ صاحب البدعة الكفرية أن يبحث إذا بلغته الحجة ، فهذا المبتدع إذا أخبره أحد من أهل السنة سيقول : هذا سني كافر ، فكيف آخذ من كافر فهو لن يقبل منَّا صرفًا ولا عدلاً ، فكيف نأمره بأن يبحث؟

الجواب : إذا بلغه الحق من القرآن والسنة ، فإن الحق فيهما واضح والحمد لله ، فإن قال : (الحق علىٰ خلاف ما أنت عليه أيها السني) قلت له : بيني وبينك كتاب الله عَزَّوَجَلَّ .

فإن قال المبتدع : ألم تقرأ قول الله تعالىٰ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[يونس :٦٢] .

قلت : بلىٰ أقرؤها لكن هذه الآية بالنسبة لهم ، ليس لك أنت .

فإن قال : لنا فهْمُنَا ولكم فهمكم ، وفهمنا هو الصواب .

قلنا : معنىٰ هذا أن هؤلاء مكابرون ، مَنْ يفهم من قوله تعالىٰ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أنَّ هذا يعني : جواز عبادتهم ، والله تعالىٰ ملأ القرآن بالنهي عن عبادة غيره .

فإن قلت : كيف نحكم علىٰ هذا المبتدع أن الحجة بلغته حقـًا أو لا؟

قلنا : المبتدع إذا كابر بعد ما أريناه الآيات ، فالسيف أمامه ، ونحكم بكفره في الدنيا ونقتله ، وإن كان ما يقوله حقـًا من أنه لم تبلغه الدعوة إلا مشوشة فأمره

---

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٢٤٨) .

إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، لا يجوز أن تقرن أحكام الدنيا بأحكام الآخرة ، أحكام الدنيا لها حال وأحكام الآخرة لها حال ؛ هذا الرجل الذي قتله أسامة بن زيد يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن أحكام الدنيا أن نرفع عنه القتل مع أنه ربما يكون قد قالها تعوذاً ولا ندري ، وعلىٰ كل حال فلا شك أن المسألة عويصة ، لكن هذا الذي تبيَّن لي هو ما قررته »[1] .

عاشراً : كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدعو لمن أساء منهم بالهداية والتجاوز عن خطئه ، ومن ذلك تعامله مع مبتدعة الأشاعرة في تأويلهم لصفة المحبة ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ تنال بهذا الشرط ، وهو شرط يسير لمن يسره

---

(١) « تفسير سورة الأنعام » (١٠٩-١١٠) .

وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام في التعامل مع أهل البدع ، ومن ذلك إجابته علىٰ هذا السؤال : فضيلة الشيخ حفظك الله : إذا كان هناك رجل عليه بعض الملاحظات ، سواء كانت في العقيدة أو في غيرها ، وفيه خير كثير ، ما هو ضابط التعامل معه والاستفادة منه إذا كان صاحب قلم سيال ، أو منصب مرموق ، أو لديه من الطاقات ما ليس عند غيره؟

الجواب : إذا كان هذا الرجل مجاهراً بما عنده من البدعة ؛ فإنه لا ينبغي للإنسان أن يتعامل معه وأن يتردد عليه ؛ لأنه وإن كان لا يتأثر به فقد يغتر به غيره ، بمعنىٰ : أن الناس ينخدعون ويظنون أن هذا المبتدع علىٰ حق ، فالذي ينبغي ألا يتردد الإنسان علىٰ أهل البدع ، مهما استفاد منهم ماليــًا أو علميــًا ؛ لما في ذلك من التغرير بالآخرين » . « لقاء الباب المفتوح » (١٠ / ٥٨) .

وسئل أيضــًا فقال السائل : رجل صاحب طريقة من طرق الصوفية يرىٰ التصوف ويقيم بعض البدع ، إلا أن هذا الرجل يساعد في إقامة أعمال الخير ، فمثل هذا الرجل إذا أُنكِر عليه بدعته وشهر بين الناس انقطع عن مساعدة أهل البر وأهل الخير ، فما رأيكم يا شيخ؟

الجواب : هل هذا الرجل مؤثر في دعوته؟ السائل : نعم يا شيخ يدعو إلىٰ بدعته .

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إذاً أيهما أعظم : الفقر ، أو الضلال؟ السائل : الضلال .

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : الضلال أعظم ، فيجب إن كان هذا الرجل داعية ومؤثراً أن يُحَذَّر منه ، حتىٰ لو قطع هو إحسان نفسه فإنما حرم نفسه ، أما أن يبقىٰ يضل عباد الله من أجل أن يكسب من ورائه درهمــًا أو درهمين لا يمكن » . « لقاء الباب المفتوح » (٣٨ / ٢٢٦) .

الله عليه، نسأل الله أن ييسره لنا، وهو: اتباع الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في العقيدة والقول والفعل، فإذا حققت ذلك فإن محبة الله سوف تنالك، وأنكر قوم محبة الله كالأشاعرة، ونسأل الله أن يعفو عن الأموات منهم وأن يهدي الأحياء، أنكروا المحبة، وقالوا: إن الله لا يحب، لكن إنكارهم إياها ليس إنكار جحود، إذ لو كان إنكار جحودٍ لكفروا؛ لأنه تكذيب لما أثبته الله لنفسه، لكنه إنكار تأويل قصدوا به تنزيه الله، لكنهم ضلوا، فقالوا: إن المحبة لا تقع إلا بين متجانسين، والله عَزَّوَجَلَّ مباين للخلق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ: ١١].

وقالوا: إن المحبة التي جاءت في الكتاب والسنة هي الإحسان، ففسروها بأمر بائن منفصل عن الله، أو هي إرادة الإحسان؛ لأن الإرادة عندهم ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ، فيقال لهم: هل الإحسان إلا ثمرة المحبة، وهل إرادة الإحسان إلا ثمرة المحبة؛ لأن الله لا يحسن إلىٰ من لا يحب إلا علىٰ سبيل الاستدراج، ولهذا إذا رأيت الله ينعم علىٰ العبد مع إقامته علىٰ معاصيه فاعلم أن ذلك استدراج: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

إذاً: عقيدتنا أن الله عَزَّوَجَلَّ يُحِب، وأنه يُحَب جل وعلا، وأن محبته أعلىٰ المراتب وأفضل المنازل»[١].

وفي موضع آخر بعدما ذكر قول المبتدعة وتأويلهم لصفة المحبة بالثواب أو إرادة الثواب، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحقيقة أننا نسأل الله لهم العفو وأن يهدي أحياءهم، أنهم حرموا لذة محبة الله عَزَّوَجَلَّ، الإنسان إذا شعر بأن الله يحبه يفرح ويزداد في محبة الطاعات وكراهة المعاصي؛ لأنه يعلم أن ربه عَزَّوَجَلَّ يحبه من

---

(١) «تفسير سورة النساء» (٢/ ٣٨٢-٣٨٣).

فوق سبع سموات ، وإذا كان المعنىٰ يثيبه ، فهو يثيب أي واحد من العباد ممن يستحق الثواب ، فحرموا لذة محبة الله ؛ لأنهم أنكروها »[١] .

والأمثلة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان المضامين الدعوية المتعلِّقة بدعوة أهل البدع وتوضيح المنهج الشرعي لدعوتهم ، وإظهار الحق ، والمنافحة عن منهج أهل السنة والجماعة وتقريره ، ومناقشة أقوال المخالفين والردِّ عليهم بفهم سلف الأمة كثيرة ولا أحسب أن تفسيراً أوسع من تفسيره ولا أطول نفساً منه في هذا الباب- وما تقدَّم هي نماذج في هذا المضمون الدعوي[٢] ، ومما سبق من المضامين نستفيد المنهج الشرعي الدعوي في دعوة أهل البدع من خلال تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وأنه علىٰ وِفْقِ ما يلي :

١- تقرير مذهب أهل السنة والجماعة ، وهذا واضح عند تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لآيات الصفات ، والبسط في توضيح ذلك .

٢- الرد علىٰ المخالفين من المبتدعة في باب الأسماء والصفات ، بإرجاعهم

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢/ ٣٠٤) .

(٢) انظر مزيداً في دعوة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأهل البدع ، وردِّه علىٰ الخوارج ، والمرجئة ، والصوفية ، والمعتزلة والجبرية والقدرية وسائر المفوِّضة وأهل البدع ما يلي : « أحكام من القرآن الكريم » (٢/ ٢٣٨-٢٣٩) ، « تفسير سورة البقرة » (٢/ ١٥٣) ، (٢/ ٢٤٩) ، (٢/ ٢٥٢) ، (٢/ ٣١١-٣١٢) ، (٢/ ٣٦٠) ، (٣/ ٢٩٦) ، (٣/ ٣٦٥) ، « تفسير سورة آل عمران » (١/ ٣٣) ، (٢/ ٣٢٥) ، « تفسير سورة النساء » (١/ ٢٥٦) ، (١/ ٣١٥) ، (١/ ٣٧٨) ، (١/ ٤٨٢) ، (٢/ ٥٣) ، (٢/ ٣٧٦) ، (٢/ ٥٤٣) ، « تفسير سورة المائدة » (١/ ٢٤٩) ، (١/ ٣٦٤) ، (٢/ ٣٥) ، « تفسير سورة الأنعام » (٢٧١) ، « تفسير سورة يس »(١٧٣) ، « تفسير سورة الصافات » (١٢٥) ، (٢١٦) ، (٢٢٠) ، « تفسير سورة ص » (٢٤٩) ، « تفسير سورة الحجرات » (٨) ، « تفسير سورة النجم » (٢٣٥) ، « تفسير جزء عم » سورة المطففين (١٠٧) .

إلىٰ فهم سلف الأمَّة وإجماعهم فهم الأقرب للتنزيل .

٣- الإكثار من إيراد نصوص الكتاب والسنة الدالة علىٰ الاعتقاد الصحيح ، وعدم الاكتفاء بنصٍّ واحد ؛ ليظهر للمخالف حجم النصوص التي خالفها ، والتي تدل علىٰ فساد اعتقاده .

٤- الاستناد إلىٰ أقوال السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في بيان المنهج الصحيح والاستشهاد بأقوالهم ، كقول الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين وقد سئل عن قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[طه : ٥] كيف استوىٰ؟ فقال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »(١) .

٥- الاستدلال علىٰ أهل البدع بأدلتهم التي يحتجُّون بها ، فإن هذا من أقوىٰ الحجج المقنعة ، وذلك ببيان أن ما يحتجُّون به باطل لا يصح الاستدلال به ، قال الشيخ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾[ص :٨] ، « من فوائد الآية : أن صاحب الباطل لا يعرف أن حجَّته حجَّةٌ عليه ؛ لأن قولهم : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾ هي حجة فيما لو نزل الذكر علىٰ من يشاؤون ، لأنه لو نزل علىٰ مَن عيَّنوه وأرادوه ، لقال غيرهم : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾ ، ويتفرع علىٰ هذه الفائدة كل مُبْطِل يحتج بحق ، لكن استدلاله به باطل ، فإنه لا حجة له ، ومن ذلك ما يحتج به أهل التحريف في باب الصفات أو غيرها من الأدلة الصحيحة التي ليس لهم فيها استدلال »(٢) .

٧- بيان خطورة البدع ومراتبها ، وأن منها ما يوقع صاحبها في الكفر .

٨- مناظرة أهل البدع ، لاسيما من يُطمع في هدايته وانتفاعه ، وذلك بالكتاب

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) « تفسير سورة ص » (٤٥) .

والسنة وآثار سلف الأمَّة(١) .

٩- إيراد الحجج العقليَّة، وأهميتها في رد الخصوم وإفحامهم، وبيان فساد معتقدهم، ومن ذلك ما قاله الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[البقرة:١٤٠]، حيث قال : « ومن فوائد الآية : الرد علىٰ أهل التحريف في أسماء الله، وصفاته الذين يقولون : « إن هذا جائز عقلاً علىٰ الله ؛ فنقر به ؛ وهذا يمتنع عقلاً علىٰ الله ؛ فلا نقر به » كالمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم ؛ نقول لهم كلهم في الجواب : ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ : أأنتم أعلم بما يجوز علىٰ الله، ويمتنع عليه، ويجب له، أم الله أعلم بما يمتنع عليه، ويجب له، ويجوز له؟!! وهذه في الحقيقة حجة ملزمة مفحمة مقحمة لهؤلاء الذين يتحكمون في صفات الله تعالىٰ بعقولهم، فيقولون : « يجب لله كذا ؛ يمتنع عليه كذا » ؛ نقول : ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾(٢) .

١٠- استعمال العدل والإنصاف عند مناظرتهم بلا ميل ولا إجحاف، والتفريق بين المجتهد طالب الحق وبين المفرِّط المتبع لهواه، فإن هذا أدعىٰ

---

(١) ومناظرة المبتدعة لها فقهها وضوابطها عند السلف تختلف باختلاف الزمان والمكان، وقوة الحجة، ونوع البدعة، والحال، فيُفرَّق مثلاً بين من ظهرت بدعته وطمَّت وتأثر بها العامة فيناظَر، وبين من كانت بدعته مغمورة فلا يناظَر ؛ لئلا يرتفع شأنه وتنتشر بدعته، ويُتَفطَّنَ له، ويُفرَّق بين المستتر ببدعته، والداعي لها، ويُفرَّق بين من جاء طالبا للحق تُرجىٰ هدايته، وبين المتعنِّت في ذلك، قال ابن عون : سمعت محمد بن سيرين، « ينهىٰ عن الجدال إلا رجلا إن كلمته طمعت في رجوعه » . « الإبانة الكبرىٰ » لابن بطة (٢/ ٥٤١)، وانظر : « الشريعة » للآجري (١/ ٤٥٠)، ولابن تيمية بسط في هذه المسألة، انظر : « مجموع الفتاوىٰ » (٢٤/ ١٧٤-١٧٥)، (٢٨/ ٢٠٦-٢١٨).

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢/ ١٠٣).

لقبولهم وعدم تعصبهم[١] .

١١- التنويع في دعوتهم بكل الوسائل الممكنة وسواء كانت مشافهة أو مراسلة ومكاتبة .

١٢- هجر أهل البدع ، لاسيما إذا غلب على الظن تأثيرهم بالهجر ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وهجران أهل البدع واجب لقوله تعالىٰ : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة : ٢٢] .

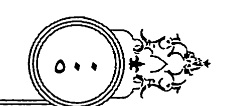
ولأن النبي ﷺ هجر كعب بن مالك وصاحبيه حين تخلَّفوا عن غزوة تبوك[٢] ، لكن إن كان في مجالستهم مصلحة لتبيين الحق لهم وتحذيرهم من البدعة فلا بأس بذلك ، وربما يكون ذلك مطلوبًا لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وهذا قد يكون بالمجالسة والمشافهة وقد يكون بالمراسلة والمكاتبة ، ومن هجر أهل البدع ترك النَّظر في كتبهم خوفًا من الفتنة بها أو ترويجها بين الناس فالابتعاد عن مواطن الضلال واجب ، لقوله ﷺ في الدجال : « من سمع به

---

(١) قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « مجموع الفتاوىٰ » (٢٧ / ٢٣٨) : « وأهل السنة والعلم والإيمان يعرفون الحق ويتبعون سنة الرسول ويرحمون الخلق ويعدلون فيهم ويعذرون من اجتهد في معرفة الحق فعجز عن معرفته ؛ إنما يذمون من ذمه الله ورسوله وهو المفرط في طلب الحق لتركه الواجب والمعتدي المتبع لهواه بلا علم لفعله المحرم . فيذمون من ترك الواجب أو فعل المحرم ؛ ولا يعاقبونه إلا بعد إقامة الحجة عليه » .
وقال في « منهاج السنة النبوية » (٥ / ١٥٧) : « أهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم ؛ فإن الظلم حرام مطلقا كما تقدم ، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض ، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض » .

(٢) والقصة بطولها رواها البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .



فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات »[١] »[٢] .

١٣- سؤال الله تعالىٰ الهداية لهم ، وأن يفتح علىٰ قلوبهم بالحق ، والدعاء لهم بالتجاوز ما لم تكن بدعته مكفِّرة ومات عليها فلا يُترحم عليه[٣] .

ويُعدُّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وغيره- من أبرز أعلام عصرنا الذين نافحوا عن السُنَّة بفهم سلف الأمَّة ، وتصدوا للمبتدعة علىٰ اختلاف أصنافهم بالحجة والبرهان ، وإعمال العقل وبَسْطِ البيان ، ومن قرأ كتاباته في باب العقائد أدرك عناية الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، واجتهاده في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة ، سواء في شروحاته العقدية أو فتاواه ، أو رسائله ، أو تفسيره لآيات العقائد ، رحمه الله رحمة واسعة .

ويُعدُّ تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أوسع التفاسير في بيان المنهج الشرعي في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩) وصححه الألباني « صحيح الجامع الصغير » (٢/ ١٠٨٠) .

(٢) تعليق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ « لمعة الاعتقاد » (١٥٩-١٦٠) .
قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « مجموع الفتاوىٰ » (٢٤ / ٢٩٢) : « ومن كان مبتدعا ظاهر البدعة وجب الإنكار عليه ومن الإنكار المشروع أن يهجر حتىٰ يتوب ومن الهجر امتناع أهل الدين من الصلاة عليه لينزجر من يتشبه بطريقته ويدعو إليه وقد أمر بمثل هذا مالك بن أنس وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة والله أعلم » ا.هـ.
وانظر أقوال السلف في هجر المبتدع ، كتاب : « شرح السنة » للبربهاري (١٣٨) ، وانظر كتاب : « ذم الكلام وأهله » للهروي (٥/ ١٤٤)

(٣) انظر مزيدا في « الرد علىٰ المبتدعة ودعوتهم » لابن البناء الحنبلي أو « دعوة أهل البدع » ، خالد بن أحمد الزهراني ، و« حقيقة البدعة وأحكامها » سعيد بن ناصر الغامدي ، و« موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع » إبراهيم الرحيلي ، و« إنصاف أهل السنة والجماعة ومعاملتهم لمخالفيهم » محمد بن صالح العلي .

دعوة أهل البدع وفق الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وما ينبغي فعله في دعوتهم لاسيما في زماننا الذي كَثُرَ فيه التنكُّب عن عقيدة أهل السنة والجماعة من فِرَق ضالة كثيرة يحتاج معها الداعية إلىٰ فقه هذا المضمون الدعوي المهم وهو دعوة أهل البدع.



المبحث الخامس : دعوة أهل الكتاب

إن من أصناف المدعوِّين الذين جاء ذكرهم في الكتاب والسنَّة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارىٰ ؛ ذلك أنهم جانبوا الحق ، فكفروا بالله تعالىٰ ، وكذَّبوا بالرسول ﷺ وما جاء به ، فكانوا لاسيما اليهود- من ألدِّ أعداء دين الإسلام وأشدهم له كراهية ، ومع ذا فديننا العظيم أعطىٰ دعوة أهل الكتاب نصيباً كبيراً من نصوص الكتاب والسنة ، وبيَّن كيف هي دعوتهم إلىٰ الحق بالحسنىٰ ، وبأسلوب مؤثر ، فقال تعالىٰ : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[العنكبوت :٤٦] .

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وهكذا ينبغي أن يكون الحال في ابتداء مجادلة أهل الكتاب ، وبقدر ما يسمح به رجاء الاهتداء من طريق اللين ، فإن هم قابلوا الحُسنىٰ بضدِّها انتقل الحكم إلىٰ الاستثناء الذي في قوله : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ ، والذين ظلموا منهم هم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبي ﷺ وللمسلمين ، وأبوا أن يتلقوا الدعوة ، فهؤلاء ظلموا النبي ﷺ والمسلمين حسداً وبغضا علىٰ أن جاء الإسلام بنسخ شريعتهم ، وجعلوا يكيدون للنبي ﷺ ونشأ منهم المنافقون وكل هذا ظلم واعتداء »[١] .

وجاءت السنَّة أيضـاً دالة علىٰ دعوة أهل الكتاب ، ولعل أبرز أحاديث دعوة أهل الكتاب هو حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ اليَمَنِ ، قال : « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ

---

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢١ / ٧) .

مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ ولَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ ، فَإِذَا أَطَاعُوا بهَا ، فَخُذْ مِنْهُمْ وتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ »[١] .

وتوجيه الدعوة إلىٰ أهل الكتاب علىٰ وجه الخصوص دليل شمولية الإسلام في دعوته لأصناف المدعوِّين ، واهتمام النبي ﷺ بدعوتهم وذلك بإرسال الدعاة إليهم ، بل كان ﷺ يغشاهم في بيوتهم لأجل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، ففي صحيح البخاري من حديث أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال : كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَمَرِضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقَالَ لَهُ : « أَسْلِمْ » ، فَنَظَرَ إِلَىٰ أَبِيهِ وهُو عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ : أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وهُو يَقُولُ : « الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ »[٢] .

وهذا يُشير إلىٰ أهمية اقتفاء هدي النبي ﷺ في ذلك ، والتصدي لأهل الباطل في دعوتهم إلىٰ الحق عبر الوسائل المتاحة ، لاسيما الوسائل العصرية التي قرَّبت البعيد وأصبح الوصول للمدعو ميسَّراً ، ولقد سطَّر لنا التأريخ أعلاماً بذلوا أنفسهم في دعوة أهل الكتاب بالمشافهة والمراسلة والمناظرة حتىٰ دخل منهم أفواجٌ في دين الحق ، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة في عصرنا ، بأن ينبري طائفة من الدعاةِ للتفرغ لدعوة أهل الكتاب وفق المنهج الشرعي في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، والاستفادة من المضامين الدعوية التي احتوتها الكتب الشرعية عموما ، والتفاسير العلمية علىٰ وجه الخصوص ، وإن من التفاسير التي احتوت علىٰ مضامين دعوية

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦) .

في دعوة أهل الكتاب تفسير شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وذلك من خلال تفسيره لآيات دعوة أهل الكتاب وبيان حالهم وصفاتهم وأعمالهم .

- أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بدعوة أهل الكتاب وما ينبغي في دعوتهم :

أولاً : مما ينبغي أن يراعيه الداعية في دعوة أهل الكتاب ، العلم بحالهم ومعتقداتهم وما يؤمنون به ؛ ليتبصَّر في ذلك ويدعوه بما يناسب المقام ، ولذا أخبر النبي ﷺ معاذاً حين أرسله إلىٰ اليمن بأنه سيأتي قوم أهل كتاب .

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله (**ستأتي قوما أهل كتاب**) هي كالتوطئة للوصية ؛ لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان »[(١)] .

وإن مما ذكره الله تعالىٰ في كتابه من حال أهل الكتاب حقيقة علمهم بمجيء النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، وأنَّ هذا مما كُتب عندهم في التوراة والإنجيل ، قال العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة :١٤٦] :

« من فوائد الآية : أن النبي ﷺ معروف عند أهل الكتاب معرفة تامة ؛ وذلك كما جاء في كتبهم[(٢)] ، كما قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ

---

(١) « فتح الباري » (٣/ ٣٥٨) .

(٢) جاء في كتاب « دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية » لسعود الخلف (٣٨٩) : (لقد بشَّر المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنبينا محمد ﷺ ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف :٦] .
وقد جدَّ النصارىٰ ، ومن قبلهم اليهود في حذف هذه البشارات من كتبهم أو صرفها عن وجهها ، ويزعمون أنه لا يوجد في كتبهم إشارة إلىٰ النبي ﷺ ، وإن وجد شيء صرفه النصارىٰ=

ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[الأعراف : ١٥٧] .

- ومنها : أنه لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة النبي ﷺ ؛ لأنهم أوتوا من وصفه ما يعرفونه به كما يعرفون أبناءهم »[١] .

ثانيـًا : التصدي لشبهاتهم ، وما يُلبِّسون به علىٰ الناس ، فإن من أبرز صفاتهم التي ينتهجونها في دعوتهم تلبيس الحق بالباطل ؛ ليظهروا باطلهم بصورة الحق الذي لا حق غيره ، ولربما استدلوا لباطلهم بآيات القرآن الكريم ، وعلىٰ الداعية التفطُّن لهذه الصفة ومعرفة شبهاتهم والتصدي لها ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران :٧١] : « من فوائد الآية : أن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب كانوا يخادعون ويمكرون بلبس الحق بالباطل ، وما أكثر ما يموّهون بالقرآن الكريم علىٰ بطلان ما ذهبوا إليه ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[المائدة : ٦٩] ، فيقول إن الذين آمنوا : أي المسلمين ، والذين هادوا والنصارىٰ والصابئين من آمن بالله منهم واليوم

= إلىٰ عيسىٰ بن مريم وصرفه اليهود إلىٰ المسيح الذي ينتظرونه ، وهي في الواقع لا تنطبق إلا علىٰ نبي هذه الأمة سيدنا محمد ﷺ وأمته ، وقد بقي من هذه البشارات الشيء الكثير مع تحريفهم لكتبهم ، وقد ذكر منها الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه « إظهار الحق » ثماني عشرة بشارة ، منها إحدىٰ عشرة بشارة في العهد القديم ، وسبع بشارات في العهد الجديد » ثم ذكر المؤلِّف هذه البشارات في العهدين القديم والجديد مع توثيقها من كتبهم .
وانظر : « هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ » لابن القيم (١ / ٢٩٦) .

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٤٢) .

الآخر فلهم أجرهم عند ربهم ، فجعلنا نحن وأنتم في صف واحد ، المؤمن منا بالله واليوم الآخر له الأجر ، ولو كنا مخالفين لكم ما كان لنا أجر! ويقولون : عيسىٰ ابن مريم) بشَّر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ولم يأتِ بعد! فالذي جاء اسمه محمد ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، فنحن ننتظر أحمد! فهم يلبسون الحق بالباطل ويمكرون . ولكن من أعطاه الله علماً وفهماً تبين له أنهم ملبسون . وقد ألف علماء المسلمين ولله الحمد- في بيان باطلهم ودحض حججهم ما هو كالشمس إضاءةً ونوراً يخفي ضوؤه كل ساطع .

والجواب عن هاتين الشبهتين أن يقال : في الآيات الأولىٰ قيد الله عَزَّوَجَلَّ من له الأجر من هؤلاء الأصناف بقوله : ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [المائدة : ٦٩] فأنتم ما آمنتم بالله واليوم الآخر بنص هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٠] ، أنتم مؤمنون لما كانت رسالة النبي الذي أرسل إليكم قائمةً ، أما وقد نسخت ، فإذا بقيتم عليها فأنتم كفار[١] .

---

(١) وانظر مزيداً من إيراد الأدلة النقلية والعقلية علىٰ هذه الشبهة : « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٣ / ١٨-٢٣) ، وجاء فيه قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ...وإني أقول : إن كل من زعم أن في الأرض ديناً يقبله الله سوىٰ دين الإسلام ، فإنه كافر لا شك في كفره ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران :٨٥] ويقول عَزَّوَجَلَّ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة :٣] .وعلىٰ هذا - وأكررها مرة ثالثة علىٰ هذا القائل أن يتوب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وأن يبين للناس جميعاً أن هؤلاء اليهود والنصارىٰ كفار ؛ لأن الحجة قد قامت عليهم وبلغتهم الرسالة ، ولكنهم كفروا عناداً » .

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (١٢ / ٤٩٦) : « وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة » . =

وقوله : ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف : ٦] إذن فأحمد جاءكم ولا نعلم أن نبياً جاء بعد عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلا محمد ﷺ . وعلىٰ هذا فيكون هذا التمويه لا يخفىٰ علىٰ الإنسان الذي يعطيه الله تعالىٰ علماً وبصيرة ، وقد ألف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاباً سماه : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »[1] والرد علىٰ النصارىٰ من أئمة المسلمين كثير »[2] .

ثالثاً : معرفة أقسامهم والتفريق بين طالب الحق منهم ومن يُطمَع في هدايته وبين المتعنِّت ، وقد بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ انقسام أهل الكتاب إلىٰ قسمين عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران :٧٥] ، فقال : « من فوائد الآية : بيان انقسام أهل الكتاب إلىٰ قسمين : أمين وخائن ، كما انقسموا إلىٰ قسمين : مؤمن وكافر ، فمثلاً عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان من أحبار اليهود فمنَّ الله عليه بالإسلام فأسلم ، وكعب بن أشرف من أشراف اليهود ولكنه بقي علىٰ كفره فلم يؤمن ، فهم كما انقسموا إلىٰ كافر ومؤمن انقسموا أيضاً إلىٰ خائن وأمين ، ولقد

= وقال أيضاً : (٣٥ / ٢٠١) : « اليهود والنصارىٰ كفار كفراً معلوماً بالاضطرار من دين الإسلام » . وانظر : « مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات » لابن حزم(١١٩) .

(١) ذكر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة أدلة في الرد علىٰ هذه الشبهة وإثبات التبشير بمحمد ﷺ ، في « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » (٥ / ١٤٧) . فقال : « وبكل حال ، فلا ريب عند علماء المسلمين أن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بُشِّر بمحمد ﷺ -كما قال تعالىٰ- : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف :٦] ... » ثم ذكر الأدلة .

(٢) « تفسير آل عمران »(١ / ٤٠٤-٤٠٥) .

عامل النبي ﷺ اليهود، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي[1]، وهذا يدل على أن من اليهود من هو أمين وإلا كيف يرهن الرسول ﷺ الدرع وهو من آلات الحرب عند هذا الرجل اليهودي؟

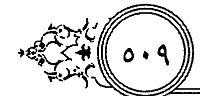
- ومنها: أنه يجب الحذر من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لأنهم ما داموا ينقسمون إلى قسمين، فإننا لا ندري حين نعاملهم من أي القسمين هؤلاء، فيجب علينا الحذر لا سيما إذا تبيَّن لنا أنهم خونة، وأهل غدر، وأنهم لا يسعون لمصالحنا أبداً كما هو الواقع، فإن الواقع في الوقت الحاضر أن اليهود والنصارى لا يسعون أبداً لمصالح المسلمين، بل يسعون للإضرار بالمسلمين والإفساد عليهم، حتى إنهم إذا رأوا الدولة متجهة إلى الإسلام من دول المسلمين فإنهم يحاولون إسقاطها، والتضييق عليها من الناحية الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، وهذا شيء يعرفه كل من تدبر وتأمل في الحوادث اليوم، إذن يجب علينا أن نحذر غاية الحذر من اليهود والنصارى، وأن نعلم أن اليهود والنصارى كل واحد منهم وليٌّ للآخر، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، مهما طال الأمد فهم أولياء ضد عدو مشترك وهم المسلمون»[2].

رابعًا: دعوة أهل الكتاب عبر الوسائل العصرية المتاحة كالإذاعات ونحوها، والتصدي لحملاتهم وإذاعاتهم التنصيريَّة، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩]: «من فوائد هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٠٩).

(٢) «تفسير آل عمران» (١/ ٤٣٠-٤٣١).



الآية : سوء القصد من أهل الكتاب ، حيث يبغون أن تكون سبيل الله عوجًا ، وهذا الوصف لأهل الكتاب لا يزال منطبقًا عليهم إلىٰ اليوم ، فللنصارىٰ دعاة يُنَصِّرون الناس ويسعون بكل جهدهم إلىٰ أن يصدوا عن سبيل الله من آمن ؛ لأنهم يريدون أن يسلك الناس السبيل العَوج ، لا يريدون أن يسلكوا السبيل السوي ، وما زالوا إلىٰ اليوم ، ولهم إذاعات خاصة تدعو الناس إلىٰ النصرانية ، والعياذ بالله ، النصرانية الباطلة التي يحاربها عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] فهم الآن يَدَّعون أن دين عيسىٰ (القولُ بالتثليث ، ويقولون : إن الله ثالث ثلاثة ، ثم يضحكون علىٰ أنفسهم وعلىٰ الناس ، ويقولون : إنه ثلاثة في واحد ، فهل هذا معقول؟!

لكن هذا من ضلال النصارىٰ ؛ لأن النصارىٰ ضالون ، حتىٰ الأمور العقلية لا يهتدون إليها فكيف يكون ثلاثة في واحد؟![(١)] هذا لا يمكن .

علىٰ كل حال : هم يريدون أن يضلوا الناس منذ عهد الرسول ﷺ وإلىٰ يومنا هذا . ومن ثَمَّ يجب علىٰ المسلمين الحذر منهم ، والتشهير بهم ، حتىٰ ينفر الناس منهم ، وأن يقابلوا دعوتهم الإلحادية الكفرية بدعوة التوحيد والإخلاص »[(٢)] .

---

(١) وقد ذكر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الإعلام بما في دين النصارىٰ من الفساد والأوهام » (٧٧) فصلاً بعنوان : الفصل الرابع : دَلِيل التَّثْلِيث ، عقده لمناقشة استدلالهم علىٰ عقيدة التثليث والرد عليهم مناقشًا ذلك بأدلة عقلية ونقلية من مصادرهم .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٥٦٨-٥٦٩) .

خامساً: التنبُّه لحرص أهل الكتاب على إضلال المسلمين بشتى الوسائل والأساليب، وقد بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، حيث قال:

«من فوائد الآية: أن الكفار ولو كانوا أهل كتاب يحاولون غاية المحاولة أن يردُّوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكفر، وقائل هذا هو الله العالم بما في صدورهم، قد يتظاهرون لنا بالمسالمة والمداهنة، وأنهم أولياء، وأنهم أصدقاء، ولكن في قلوبهم الحقد، والغل، ومحبة أن نرتد على أعقابنا كافرين، من أين نعلم هذا الذي في قلوبهم وهم يبدون لنا الود والصداقة والمحبة؟ نعلم هذا من القرآن الكريم.

فإن قال قائل: إن الله يقول: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والفريق مبهم ما ندري، ربما بعضهم على خلاف ذلك، وإذا وُجد الاحتمال بَطَل الاستدلال، فلا يمكن أن تعيِّن طائفة من أهل الكتاب تقول: هؤلاء يُحبُّون أن نرتد على أعقابنا كافرين، لا يمكن أن تُعيِّن ما دام الله يقول: «فريقاً»، الفريق مبهم، فإذا قلت: إنهم هؤلاء، قلنا لك: بل هؤلاء، بل أولئك، فما هو الميزان إذن؟ لنا على هذا جوابان:

الجواب الأول: أن الله ذكر في آيات أخرى أن جميع الكفَّار يودُّون منا أن نكفر، وهو شامل لأهل الكتاب وغيرهم: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

إذن هناك آيات تدل على أن جميع الكفار، ومن ضمنهم أهل الكتاب يودُّون منا ذلك.

الجواب الثاني : أن نقول هذا الفريق المبهم ، يُبيِّنه الواقع ، وهو أن من أهل الكتاب من آمن ، ومن آمن لا يمكن أن يُحب من غيره أن يكفر ، وحينئذٍ نقول : المراد بالفريق هنا من لم يؤمن منهم ، فكل من لم يؤمن فهو داخلٌ في هذا الفريق .

- ومن فوائد الآية : أن هؤلاء الفريق من أهل الكتاب لا يرضون منا بما دون الكفر ، إلا أن يكون وسيلة إلىٰ الكفر ؛ لأنه الغاية ، قال : ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[آل عمران :١٠٠] .

وأساليب أهل الكتاب في إضلال المسلمين كثيرة جداً ومتنوعة ، منها : أن يفتحوا عليهم باب الشهوات ، فإن باب الشهوات باب واسع ، والضيّق من أبواب الشهوات يتّسع بسرعة ، ودليل ذلك قول النبي ﷺ : « ما تركت بعدي فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء »[١] »[٢] .

سادسًا : دعوتهم للمناظرة والمحاجَّة بالحق وبالعدل والإنصاف ، كما قال تعالىٰ : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤١) .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٥٧٦-٥٧٨) ، وحرص أهل الكتاب علىٰ إضلال المسلمين جاء في أكثر من موضع من كتاب الله تعالىٰ ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران :٦٩] : « من فوائد الآية : التحذير من أهل الكتاب وأنهم يحاولون صد المسلمين عن دينهم كالمشركين ، وكل من الطائفتين تودان من المسلمين الضلال ، يقول تعالىٰ : ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[النساء : ٨٩] ، وقال تعالىٰ عن المشركين من قريش : ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[الممتحنة : ٢] ، فكل المشركين ، وكل الملحدين ، وكل من ادعىٰ أنه صاحب كتاب ، كلهم يودون من المسلمين أن يكفروا ويضلوا بعد هدايتهم وإيمانهم . وإذا كان كذلك فيجب علينا الحذر منهم ، واعتقاد أنهم أعداء ألداء ، ويودون أن يقضوا علينا ، وعلىٰ ديننا بين عشية وضحاها » « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٤٠٠) .

مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران :٦٤] .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد هذه الآية :

- أمر الرسول ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلىٰ هذه الكلمة السواء ؛ لقوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، وهنا سؤال : هل الرسول قال بذلك؟ نعم قالها حتىٰ كان يكتب بها إلىٰ الملوك ، لم يكتب إلىٰ كسرىٰ ولكنه كتب إلىٰ غيره ...

- ومنها : التنازل مع الخصم لإلزامه بالحق ، كيف ذلك؟ لأنه قال : ﴿ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ، والحق بلا شك مع الرسول ﷺ ، لكن من أجل إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه تنازل معه .

- ومنها : وجوب استعمال العدل في المناظرة حتىٰ مع العدو ؛ لأن الرسول أمر بأن يعلن هذا ، وإذا كان هذا واجباً في مناظرة المسلمين مع الكفار ، فهو في مناظرة المسلمين بعضهم مع بعض أوجب وأوكد ، ولهذا نقول : من الخطأ العظيم أن بعض الناس إذا رأىٰ رأياً قال عما سواه : خطأ ، وخطّأ غيره ، هو قد يكون خطأ باعتبار اعتقاده لا ننكر عليه ، لأنه من المعلوم إذا اختار ضده فهو عندهم خطأ ولا ينكر عليه ، لكن الإنكار أن يُخَطِّئ من قال به ، وهذا فرق دقيق ، فرق بين أن أعتقد أن هذا القول خطأ ولا آخذ به ، وبين أن أخطّئ من قال به ؛ لأني إذا خطّأته ادعيت العصمة لي والزلل له وهذا خطأ ، ولهذا يجب في المناظرة بين المسلمين كما يجب في المناظرة بين المسلمين والكفار أن تكون بالعدل ، ومن المعلوم أن الميزان العدل في ذلك كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، لكن المشكل أنه ليس كل أحد يفهم الكتاب والسنة كما ينبغي ، يعني من الناس من يكون ظاهرياً محضاً لا ينظر إلىٰ مقاصد الشريعة ومعانيها العظيمة التي

يقصد بها إصلاح الخلق »(١) .

سابعًا : يؤكد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره علىٰ الحجج العقلية عند دعوة أهل الكتاب(٢) ، وفي الدعوة عمومًا ، ومدىٰ تأثيرها في هدايتهم للحق ، ومن ذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[آل عمران :٦٥] حيث قال :

« من فوائد الآية : بيان الاحتجاج بالعقل ؛ لقوله : ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ ، فكيف تحاجون به مع أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا من بعده . وهذا خلاف العقل . ويتفرع علىٰ هذه الفائدة :

- أنه لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال ، كما لا ينبغي الاعتماد عليه وترك النص . فالناس في الاستدلال بالعقل طرفان ووسط : طرف غَلا فيه حتىٰ قدَّمه علىٰ السمع ، وذلك بالنسبة للفقهاء من أصحاب الرأي والقياسيين الذين يعتمدون علىٰ الرأي وإن خالف النص ... وفي باب العقائد جميع أهل البدع يعتمدون علىٰ العقل ويدعون السمع . مع أن العقل الذي يعتمدون عليه ليس

---

(١) « تفسير آل عمران » (١/ ٣٧٠) .

وذكر الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « زاد المعاد في هدي خير العباد » (٣/ ٥٥٨) بيان أهمية مجادلة أهل الكتاب ، وذلك ضمن فقه قصة وفد نجران حيث قال : « ومنها : جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم بل استحباب ذلك بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجىٰ إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة ... » . ا.هـ .

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « فتح الباري » (٨/ ٩٥) ، في فوائد قصة أهل نجران : « وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب وقد تجب إذا تعينت مصلحته » . ا.هـ .

(٢) انظر في الحجج العقلية التي تساق في دعوة أهل الكتاب : « كيفية دعوة أهل الكتاب في ضوء الكتاب والسنة » (٩ ، ٥٥) د . سعيد القحطاني .

إلا شبهات، وليس براهين ودلالات. لكنهم ينظرون أن العقل يقتضي كذا فيثبتونه، ويقتضي نفي كذا فينفونه، ولا يرجعون في هذا إلىٰ السمع، ومن ذلك الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم. كل من نفىٰ صفة أثبتها الله لنفسه بشبهة عقلية فإنه داخل فيمن يغالي في الاستدلال بالعقل...

الطرف الثاني: من أنكر الاعتماد علىٰ العقل بالكلية، وقال: ليس للعقل مدخل في إثبات أي حكم أو أي خبر. فأنكروا القياس. وهذا مثل أهل الظاهر، أنكروا نهائيًا، وقالوا: لا يمكن أن نرجع للعقل في شيء...

ومن الناس من هم وسط: رجعوا إلىٰ العقل فيما لا يخالف الشرع؛ لأن العقل إذا لم يخالف الشرع فإن الله تعالىٰ يحيل عليه في مسائل كثيرة مثل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ومثل هذه الآية: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥] »[1].

ثامنًا: إقامة الحجَّة عليهم من أفعالهم، فهي أدعىٰ لاضطراب عقيدتهم، وتناقضها في قلوبهم ومن ثَمَّ رجوعهم عن ضلالهم، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٩١]:

« من فوائد الآية: كذب اليهود في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ لأنهم لو آمنوا به لآمنوا بمحمد ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[الأعراف: ١٥٧] إلخ...

---

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١/ ٣٧٩).

- ومنها: عتوّ اليهود، وعنادهم؛ لأنهم يقولون: لا نؤمن إلا بما أنزل علينا[1] ...

- ومنها: إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعله؛ ووجه ذلك أن الله أقام علىٰ اليهود الحجة علىٰ فعلهم؛ لأنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم؛ فإن قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ليس بحق؛ لأنه لو كانوا مؤمنين حقيقة ما قتلوا الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[2].

تاسعًا: دعوتهم من خلال معتقداتهم التي يؤمنون بها كإيمانهم بالبعث والحساب، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٧٣]:

«من فوائد الآية: أن هؤلاء الذين صنعوا هذه الخديعة بينوا وأظهروا أن الذي حملهم علىٰ ذلك هو الحسد؛ لقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾[آل عمران: ٧٣]؛

---

(١) استكبار اليهود وعنادهم وكون هذه الصفة ملازمة لهم جاءت في نصوص كثيرة، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة: ٨٧- ٨٨]:
«من فوائد الآية: بيان عتوّ بني إسرائيل، وأنهم لا يريدون الحق؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.
ومنها: أن بني إسرائيل يبادرون بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم، ولا يتأنون؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾ ثم قال تعالىٰ: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ لأن مقتضىٰ ترتب الجزاء علىٰ الشرط أن يكون الجزاء عقيبًا للشرط: كلما وجد الشرط وجد الجزاء فوراً» «تفسير سورة البقرة» (١/ ٢٨٧) وانظر أيضًا: «تفسير سورة البقرة» (١/ ٢٩٣)، (٢/ ١٣١).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (١/ ٢٩٨-٢٩٩).

لأن اليهود من أبرز صفاتهم الحسد : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] ، ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

– ومنها : أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والحساب ؛ لقوله : ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : ٧٣] ، ولذلك اتفقت اليهودية والنصرانية والدين الإسلامي علىٰ الإيمان بالبعث ، لكن ليس كل من آمن بالبعث يعمل له ، فاليهود والنصارىٰ ما داموا علىٰ كفرهم بمحمد ﷺ فإنهم لم يعملوا لهذا البعث ، إذ لو عملوا له لآمنوا بالرسول ﷺ »(١) .

عاشراً : الوقوف علىٰ صفات أهل الكتاب التي جاء بيانها في كتاب الله تعالىٰ كالمخادعة والخيانة وتلبيس الحق بالباطل ، والحسد كما تقدَّم – وأيضاً من دأب اليهود وعادتهم التي ذكرها الله تعالىٰ في كتابه أنهم يقولوا علىٰ الله ما لا يعلمون ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٨٠] .

« من فوائد الآية : أن من دأب اليهود القول علىٰ الله بلا علم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ والقول علىٰ الله يتضمن القول عليه في أحكامه ، وفي ذاته ، وصفاته ؛ من قال عليه ما لا يعلم بأنه حلَّل ، أو حرَّم ، أو أوجب ، فقد قال علىٰ الله بلا علم ؛ ومن أثبت له شيئاً من أسماء ، أو صفات لم يثبته الله لنفسه فقد قال علىٰ الله بلا علم ؛ ومن نفىٰ شيئاً من أسمائه وصفاته فقد قال علىٰ الله بلا علم ؛ ومن صرف شيئاً عن ظاهره من نصوص الكتاب والسنة

---

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٤١٢) .

بلا دليل فقد قال على الله بلا علم »[1] .

هذه النماذج المتقدِّمة تبيِّن أموراً دلَّت عليها الآيات، وأوضحها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لابد أن تراعى أثناء دعوة أهل الكتاب[2]، ومما ينبغي مراعاته في دعوة أهل الكتاب اختيار اللفظ المناسب في دعوتهم، وهو ما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] حيث قال:

« لو قال قائل: هل يجوز للإنسان أن يقول: اليهود والنصارى إخوان القردة والخنازير؟

الجواب: لا بأس أن يقول هذا، لكن أنا عندي أنه غير مناسب، خصوصاً في مقام الدعوة تأتي مثلاً ليهودي تقول: تعال يا أخا القردة والخنازير آمن بمحمد ﷺ، هذا لا يصح، لكن على سبيل الخبر قد يقال بالجواز »[3] .

وقد كان النبي ﷺ يستخدم القول الحكيم في دعوته إلى الله عَزَّوَجَلَّ ومن ذلك ما روته عائشة، قالتْ: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ[4] عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١/ ٢٦٤).

(٢) وانظر مزيداً في دعوة أهل الكتاب من تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٢٤٢)، (١/ ٣٥٨)، و« تفسير آل عمران » (١/ ٤٠٠)، (١/ ٥٣٧) (٢/ ٥٢٢)، و« تفسير سورة النساء » (١/ ٣٧٣-٣٧٥)، و« تفسير سورة المائدة » (١/ ٤٠٤)، (٢/ ١٩١)، و« تفسير سورة ص » (٢٢٨-٢٢٩).

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢/ ٩٤).

(٤) السام: الموت، وقيل: الموت العاجل، وقيل: تسأمون دينكم. انظر: « فتح الباري » (١١/ ٤٢، ٤٣)، (١٠/ ١٣٥).

يَا عَائِشَةُ « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ » قالتْ : أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قال : « قَدْ قُلْتُ وعَلَيْكُمْ »(١) .

واختيار الأسلوب الأمثل في دعوة أهل الكتاب جاء الحث عليه في كتاب الله تعالىٰ كما جاء في سنة رسول الله ﷺ ، فقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۞ ﴾ [العنكبوت :٤٦] ، وسيأتي في الفصل الخامس الكلام علىٰ أساليب ووسائل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

ومن خلال المضامين السابقة يتبيَّن كيف أن القرآن الكريم جاءت فيه خصوصية دعوة أهل الكتاب بما يناسب حالهم وصفاتهم ، وأن أهم ما ينبغي للداعية في دعوته لأهل الكتاب معرفة حالهم ومعتقداتهم ؛ ليتمكن من الرد علىٰ شبهاتهم ومعرفة نقاط ضعفهم والطريق لتشكيكهم في عقيدتهم ، ومما ينبغي مراعاته التفريق بين طالب الحق منهم والمتعنِّت المتعصِّب لباطله ، فلكل قسم منهم خطاباً يناسبه ، فإن من أهل الكتاب وهم كثير- يحرص تمام الحرص علىٰ الطعن في الإسلام والتربص لإضلال المسلمين بشتىٰ الوسائل والأساليب كما تقدَّم في المضامين ، وما الحملات التنصيرية وما تقدِّمه من معونة إغاثية إلا مثالاً علىٰ حرصهم علىٰ جذب ضعفاء المسلمين في أصقاع المعمورة واستجلاب قلوبهم واستعطافهم بما يقدمونه من معونات يدسُّون فيها باطلهم ، مما يوجب الحذر من تسخيرهم الإمكانات الهائلة لإضلال المسلمين ، ومما ينبغي في دعوتهم التصدِّي لهم عبر الوسائل العصرية للوصول إلىٰ مختلف

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥) .

طباقتهم وذلك عبر الإذاعات والقنوات المرئية والمسموعة ، واستثمار وسائل التواصل الحديث في التأثير عليهم وإيجاد الثغرات التي تشككهم بباطلهم ، ويُعَدُّ هذا الأمر من أهم استعمالات الداعية في عصرنا الحالي ؛ لما له من الأثر البالغ في المجتمعات ، كما تنبغي مناظرتهم والتصدي لهم وتحدِّيهم ؛ لكشف عوارهم للعامة ، وبيان خللهم لكل أحد ، ودخول هذا الجانب الدعوي إنما يكون ممن أوتي علماً وعُمْقاً ونباهةً ومعرفةً بقواعد المناظرة والمحاجَّة وما ينبغي فيها من الآداب ومعرفة مواطن الضعف والقوة ، وإقامة الحجَّة عليهم من أفعالهم ، والدخول عليهم من حيث ما يؤمنون به ، وإيراد الحجج العقلية وهذا مما أكَّد عليه الشيخ في تفسيره كما تقدَّم في المضامين- لما له من الأثر البالغ ، والعُمْق في التأثير ، وينبغي للداعية أن يكون حَذِراً معهم ذو معرفة بصفاتهم التي جاءت في النصوص الشرعية ، كل ذلك أدعىٰ للتأثير عليهم حين دعوتهم .



المبحث السادس : دعوة المجوس وسائر المشركين

إن أول صنف من أصناف المدعوِّين وجِّهت إليه الدعوة هم المشركون ؛ لأن سكناهم كانت في مهبط الرسالة ، فكانوا أقرب الأصناف لرسول الله ﷺ ، فعليهم بدأت الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، ولقد عاش العرب جاهليةً منغمسةً في أوحال الشرك أزمانًا متعاقبة ، حتىٰ استنارت الأرض بمهبط الوحي علىٰ رسول الله ﷺ بنور الرسالة ، فبدأ النبي ﷺ دعوته لكفار قريش ، وأخذت الدعوة في أول ثلاث سنوات طابع السرية حفاظًا عليها ، ووُجِّهت الدعوة في هذه المرحلة إلىٰ المقربين من المؤمنين قبل غيرهم من سائر المشركين ، ثم ما لبثت الدعوة السريَّة أن انقضَت بنزول آية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء : ٢١٤] ، فدخلت الدعوة طورها الثاني ، وهو الجهر بالدعوة باللسان فقط دون قتال ، وكان موضوع الدعوة وأساسها هو الدعوة إلىٰ العقيدة الصحيحة ، والأمر بالتوحيد ، واستمرت هذه الفترة عشر سنوات ؛ حيث امتدَّت إلىٰ الهجرة المباركة إلىٰ المدينة ، لتشمل بعد ذلك طوائف أهل الكتاب .

عَنْ عَائِشَةَ ، قالتْ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء : ٢١٤] قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الصَّفَا ، فَقَالَ : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عبد المُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عبد المُطَّلِبِ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ »[1] .

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ، قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء :

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥) .

٢١٤] ورَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا ، فَهَتَفَ : « يَا صَبَاحَاهْ[(١)] » ، فَقَالُوا : مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا : مُحَمَّدٌ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي عبد مَنَافٍ ، يَا بَنِي عبد المُطَّلِبِ » ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ » قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا ، قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » ، قال : فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا ، ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وقَدْ تَبَّ[(٢)] .

وقد بدأت دعوته ﷺ بالأقربين من عشيرته ﷺ من بني هاشم وبني عبدالمطلب ، ثم توجه الخطاب إلىٰ المشركين قاطبة بقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] ، حيث جهر النبي ﷺ وأعلن ضلالة المشركين وسفاهة عُبَّاد الأصنام ، ودعاهم إلىٰ التوحيد ، وترك عبادة الأوثان ، وترك عاداتهم المذمومة ، والتحلي بمكارم الأخلاق وفضائل الخصال ، ولم يلبث أن عاند المشركون معرضين عن دعوة التوحيد ، ونصبوا العداء ، وأعلنوها حربًا صريحة علىٰ التوحيد وأهله ، وصبُّوا علىٰ النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين ألوانـًا من الأذىٰ والضرر من سبٍّ وشتم وتعذيب وتنكيل ، وإضرار بالمال والبدن والأهل والولد ، حتىٰ وصل الأمر إلىٰ قتل بعض المؤمنين والمؤمنات ، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية مما كان سببـًا مباشراً للهجرة إلىٰ المدينة[(٣)] .

---

(١) يا صباحاه : كلمة تقال عند هجوم العدو ، أي هجموا عليكم صباحـًا . « فتح الباري » لابن حجر (١/ ١٤٢) ، (٨/ ٧٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٧١) ، ومسلم (٢٠٨) .

(٣) انظر : « الرحيق المختوم » للمباركفوري (٧٠) ، و« السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية » لأكرم ضياء العمري (١/ ١٤٣) .

وأما المجوس فكان غالب سكناهم في بلاد الفرس[١]، والمجوس: هم القائلون بأن الله خالق الخير وهو النور وخرجت الظلمة من النور، ويعبدون النار ويسجدون للشمس إذا طلعت[٢].

وكان من دعوته ﷺ للمجوس أن أرسل بكتابٍ إلىٰ كسرىٰ ملك الإمبراطورية الفارسية، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: بَعَثَ بكِتَابِهِ إِلَىٰ كِسْرَىٰ، مَعَ عبد اللهِ بن حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَىٰ عَظِيمِ البَحْرَيْنِ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إِلَىٰ كِسْرَىٰ، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ، فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ المُسَيِّبِ، قال: فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ »[٣].

---

(١) قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في « هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ » (١ / ٢٣٦): « فأما اليهود فأكثر ما كانوا باليمن وخيبر والمدينة وما حولها، وكانوا بأطراف الشام مستذلين مع النصارىٰ، وكان منهم بأرض فارس مستذلة مع المجوس، وكان منهم بأرض المغرب فرقة، وأعز ما كانوا بالمدينة وخيبر وما حولها، وكان الله سبحانه وتعالىٰ قد قطعهم في الأرض أمما وسلبهم الملك والعز.
وأما النصارىٰ فكانوا طبق الأرض: فكانت الشام كلها نصارىٰ، وأرض المغرب كان الغالب عليهم النصارىٰ، وكذلك أرض مصر والحبشة والنوبة والجزيرة والموصل وأرض نجران وغيرها من البلاد.
وأما المجوس فهم أهل مملكة فارس وما اتصل بها، وأما الصابئة فأهل حران وكثير من بلاد الروم ».

(٢) انظر: « الملل والنحل » للشهرستاني (١ / ٢٣٣)، وانظر « القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد » (١ / ٩)، و« مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٤ / ٣٠٢) لشيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في « هداية الحيارىٰ » (١ / ٢٢٩): « (المجوس): وأمة المجوس منهم تستفرش الأمهات والبنات والأخوات، مع العمات والخالات، دينهم الزمزمة، وطعامهم الميتة، وشرابهم الخمر، ومعبودهم النار، ووليهم الشيطان، فهم أخبث بني آدم نحلة، وأرذلهم مذهبا، وأسوءهم اعتقاداً ».

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٢٤).

ونص الرسالة كما أوردها الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كالتالي: « بِسْمِ الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلىٰ كسرىٰ عظيم فارس، سلام علىٰ من اتَّبَعَ الهُدَىٰ، وآمَنَ باللهِ ورَسُولِهِ، وشَهِدَ أنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، وأدْعُوكَ بدُعَاءِ اللهِ، فَإِنِّي أنَا رَسُولُ اللهِ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً لأُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويَحِقَّ القَوْلُ عَلَىٰ الكافِرِينَ، فَأَسْلَمَ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْتَ، فَإِنَّ إِثْمَ المَجُوسِ عَلَيْكَ »[١].

ولقد سلك النبي ﷺ في دعوة المشركين والمجوس ما سلكه مع أهل الكتاب في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، فكان يراسلهم ويرسل لهم الدعاة، أو يغشاهم في مجالسهم، ويناظرهم، ويورد عليهم الحجج العقلية التي تجعلهم يتفكرون في آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، ويدعوهم بما يناسب المقام مذكِّراً إياهم بصدقه ﷺ الذي عرفوه عنه؛ ليكون مدخلاً مناسباً لما سيقوله، فكان يقول: « أرَأَيْتَكُمْ لَوْ أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بسَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ » قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قال: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »، لكنَّ المشركين استمروا علىٰ عنادهم وعتوِّهم واستكبارهم بعدما أسلم منهم مَن أسلم، ولقد جاءت في كتاب الله تعالىٰ- آيات دلَّت علىٰ دعوتهم وتعنتهم بحجج واهية.

- وأبرز المضامين الدعوية في دعوة المشركين والمجوس:

أولاً: قولهم بعدما وصلتهم الدعوة: ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ١٦٨-١٦٩]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من فوائدها: أن حجج الكفار حجج مكابرة ليست مبنيَّة علىٰ حق، فمثلاً قولهم: ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ماذا نقول؟ باطل، بل عندكم ذكر من

---

(١) « تاريخ الأمم والملوك » (٢/ ٦٥٤).

أفضل الأذكار على الإطلاق »[١] .

ثانيًا : لشدة عنادهم كانوا يتواصون بالثبات على باطلهم ، لئلا يتأثروا بدعوة الحق ، وفي ذلك يقول الله تعالى عنهم : ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾[ص:٦] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « في هذه الآية دليل على تخوُّف هؤلاء من تأثير دعوة الرسول ﷺ فيهم ، ولهذا كانوا يتواصون بالصبر على آلهتهم ، وكانوا يتواصون بالبقاء والثبات على طريقتهم ، وكانوا يتواصون بالهروب من الأماكن التي يُدعى فيها إلى التوحيد ، كل هذا يؤخذ من قوله : ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ .

- ومن فوائد الآية : أن أهل الباطل يَحِنُّون على باطلهم ، ويحافظون عليه ويخافون من تزعزعه ؛ لقوله : ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ ، وهكذا أهل الباطل تجدهم دائمًا يحوطون باطلهم بالسياج الذي يمنع من الوصول إليه على وجه يمزِّق هذا الباطل »[٢] .

ولقد كانت الآيات في دعوة المشركين والمجوس ذات مضمون دعوي مؤثِّرٍ غاية التأثير على معبوداتهم ومزلزلٍ لمعتقداتهم .

ثالثًا : القرآن الكريم أقام على المجوس وسائر المشركين الحجج والبراهين ليدعوهم إلى دين الله تعالى ، ومن تلك المضامين الدعوية الدالة على تلك الحجج والبراهين ما يلي :

١- **الاستدلال على صدق الرسول ﷺ** ، وهذا من أقوى الأدلة التي أقامها القرآن الكريم على الناس عمومًا والمشركين خصوصًا ، ثبوت صدق

---

(١) « تفسير سورة الصافات » (٣٥٢) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٣٣) .

النّبي ﷺ، وأنه مرسل من ربه تبارك وتعالىٰ ثبوتـًا، لا يحتمل الشك والمراء وقد دلل علىٰ ذلك من وجوه عديدة: تارة بشهادة الله تعالىٰ له كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩]. وتارة بورود صفته في التوراة والإنجيل وشهادة اليهود والنصارىٰ بمجيئه كما تقدَّم، وتارة بشهادة مشركي العرب له بالصدق والأمانة كقولهم: «مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا»، وكما شهد أمية بن خلف وزوجته بقولهما: «واللهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ إِذَا حَدَّثَ»[(١)].

٢- ومن الحجج التي أقامها القرآن الكريم علىٰ المشركين لدعوتهم، استجوابهم عن طريق معتقداتهم التي لا ينكرونها، ففيها مدخل مهمٌّ يستفيد منه الداعية في دعوة الخصم أيّـًا كان صنفه؛ لأن ذلك من دواعي قبول الدعوة والتفكُّر في جدوىٰ العقيدة الباطلة، كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية إقامة الحجة علىٰ الخصم بما لاينكره لقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأن العالم تشمل حتىٰ آلهتهم التي يعبدونها، فإذا كانت آلهتهم مربوبة فكيف يمكن أن تكون معبودة؟ هذا تناقض، وقد مرَّ علينا أن من أقرَّ بانفراد الله بالربوبية لزمه ان يُقرَّ بانفراده بالألوهية وإلا صار متناقضـًا، إذ لا يستحق العبادة إلا الرب الخالق المالك المدبِّر، ومن لم يكن كذلك فإنه لا يستحق أن يُعْبَد»[(٢)].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٣]:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٢).

(٢) «تفسير سورة الصافات» (٢٠٩).

« من فوائد الآية : الرد علىٰ المشركين الذين يعبدون مع الله إلهـًا آخر ، والعَجَب أنهم يعبدون مع الله إلهـًا آخر ، ويقولون في حق النبي ﷺ : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص :٥] ، فيُقال لهم : إن العُجاب كلَّ العُجاب ما أنتم عليه من الشرك ، كيف تعبدون مع الله غيره ، وهو خالق السموات والأرض المتفرِّد بخَلْقِهما؟! »[١] .

٣- ومن طرق دعوة المشركين الاحتجاج عليهم باعترافهم بتوحيد الربوبية وإقرارهم بتوحيد الإلهية عند الشدائد ، كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة :٢٢] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله تعالىٰ : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾ أي لا تُصَيِّروا ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي نظراء ، ومشابهين في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾أنه لا نِدَّ له في الخلق ، والرزق ، وإنزال المطر ، وما أشبه ذلك من معاني الربوبية ، ومقتضياتها ؛ لأن المشركين يقرُّون بأن الخالق هو الله ، والرازق هو الله ، والمدبر للأمر هو الله إقراراً تامـًا ، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا ؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد : يشركون ؛ يجعلون مع الله إلهـًا آخر ؛ وينكرون علىٰ من وحّد الله حتىٰ قالوا في الرسول ﷺ ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] ؛ وإقرارهم بالخلق ، والرزق أن الله منفرد به يستلزم أن يجعلوا العبادة لله وحده ؛ فإن لم يفعلوا فهم متناقضون ؛ ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ : توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ؛ وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ؛ يعني من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية ؛ ومن أقر بتوحيد الألوهية فإنه لم يقرَّ بها حتىٰ كان قد أقر بتوحيد الربوبية »[٢] .

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٢٧) ، و« تفسير سورة ص » (٢٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٧٦) .

والاحتجاج علىٰ المشركين من طريق توحيدهم للربوبية هو من أقوىٰ الحجج تأثيرا ؛ لاتفاقهم علىٰ هذا التوحيد المتضمِّن لتوحيد الألوهية ؛ ولذا جاءت دعوة المشركين للحق من هذا الباب في أكثر من موضع ، والتفريق بين التوحيدين وقوع في التناقض كما أشار الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

ومن إقرارهم بتوحيد الألوهية عند الشدائد ، قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام :٤٠-٤١] .

قال الزجاج : « أعلمهم أنهم لا يدعون في الشدائد إلاّ إياه ، وفي ذلك أعظم الحجج عليهم ، لأنهم عبدوا الأصنام »[١] .

وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[النحل :٥٣-٥٥] ، وقوله عز من قائل : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل :٦٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت :٦٥] .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[الزُّمَر :٨] .

إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين أن المشركين يجأرون إلىٰ الله تعالىٰ معترفين بألوهيته عند شدائدهم ، فإذا عادوا إلىٰ رخائهم رجعوا إلىٰ ما

(١) « زاد المسير » لابن الجوزي (٣/ ٣٧) .

كانوا عليه من الشرك .

٤- دعوتهم عن طريق إيراد الحجج العقليّة الدالّة علىٰ وحدانية الله تعالىٰ ، ومحاولة اقناعهم ببطلان باطلهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف :٣٩-٤٠] .

وفي هذا استدعاء لعقولهم أن تتحرك في التفكُّر بين إله واحد وهو الحق سبحانه- يتصرف في هذا الكون بحكمته البالغة ، وبين آلهة متعددة لا تملك صرفًا ولا عدلا ، ولا يملك العبد معها تحديداً في التصرف لو قُدِّر ، وهي حجة دامغة للمشركين والمجوس القائلين إن لهذا الكون خَالِقَيْن فالنور يخلق الخير ، والظلمة تخلق الشر ولا خير فيها ، ويعبدون النار ويسجدون للشمس .

قال الفخر الرازي : « إنّ كونه تعالىٰ واحداً يوجب عبادته ؛ لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ، ورفع الشرور والآفات عنا ، فيقع الشك في أننا هل نعبد هذا أم ذاك؟ »(١) .

وكما قال تعالىٰ : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات :٩٥] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الإنكار علىٰ أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل ، والاحتجاج علىٰ أهل الباطل ببطالهم عن طريق العقل ، أي كيف تنحتونه أنتم وتصنعونه أنتم ، ثم بعد ذلك تعبدونه أليس الأولىٰ من الناحية العقلية أن يكون هذا المنحوت هو الذي يعبدكم ؛ لأنكم أنتم الذين نحتموه وأوجدتموه ، ولكن عقولهم منتكسة فصار

---

(١) « تفسير الرازي » (١٨ / ٤٥٨) .

الأمر بالعكس يعبدون ما ينحتون »[١] .

٥- **إقامة الحجَّة عليهم بالاستدلال بالمتقابلات** ، بين خالق هذا الكون بما فيه من مخلوقات عظيمة والمتصرِّف فيه بحكمته جل وعلا- ، وبين ما يعتقده المجوس من تقسيم التصرف بأحداث الكون إلىٰ خَالِقَيْن هما الظلمة والنور ، ثم هم يصرفون العبادة للنار ، والسجود للشمس في تخبِّط عقدي عجيب ، وبين ما يعتقده المشركون في أصنامهم بأنّ لها شيئًا من التأثير كدفع ضر أو جلب نفع ، وهي مخلوقات حقيرة لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعًا ولا تدفع عنها ضراً ، ومثال ذلك المتقابلات الأربعة التي اشتمل عليها قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[الرعد :١٦] .

وكما في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل :١٧] .

جاء في تفسير أبي السعود : « ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾هذه المصنوعات العظيمة ، ويفعل هاتيك الأفاعيل البديعة ، أو يخلق كل شيء ، ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾شيئًا أصلاً ، وهو تبكيت للكفرة ، وإبطال لإشراكهم وعبادتهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالىٰ »[٢] .

وقال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قال تعالىٰ مبينًا بطلان آلهة الكفار : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . فالله تعالىٰ وحده هو الخالق خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وخَلْقُهُ يشمل ما يقع من مفعولاته ، وما يقع من

(١) « تفسير سورة الصافات » (٢١٥) .

(٢) « إرشاد العقل السليم » (٥/ ١٠٤) .

مفعولات خلقه أيضا »[١] .

والمضامين السابقة دلَّت علىٰ عناية القرآن الكريم بدعوة المجوس والمشركين عمومـًا ، وأبرز الأساليب التي اتخذها القرآن الكريم كما هو واضح من المضامين أسلوب الإقناع وإيراد الحجج العقلية ؛ لصدِّ استكبارهم وتعنُّتهم وترفّعهم عن الحق وقبوله ، واستجوابهم عن طريق معتقداتهم التي لا ينكرونها ؛ لتكون مدخلاً يستفيد منه الداعية في استجلابهم للحق ، وتقدم في المضامين كلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن استفهامهم بقوله تعالىٰ : ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الصافات :٨٧] فهم لا ينكرون العالم الذي تعيش فيه آلهتهم ، فكيف تكون آلهتهم مربوبة؟!

ومما تقدَّم من طرق دعوة المشركين : الاحتجاج عليهم باعترافهم بتوحيد الربوبية ، وإقرارهم بتوحيد الألوهية عند الشدائد ، ودعوتهم من هذا الباب كفيل باضطراب عقيدتهم ؛ لأن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية فمن أقرَّ بأحدهما لابد أن يُقرَّ بالآخر وإلا وقع في التناقض ، ودلت المضامين علىٰ أهمية دعوتهم عن طريق المتقابلات ومن خلال إيراد الحجج العقلية الدالة علىٰ وحدانية الله تعالىٰ واستدعاء عقولهم أن تتحرك في التفكر في وحدانيته جل وعلا المتصرِّفة في هذا الكون وتدبيره .

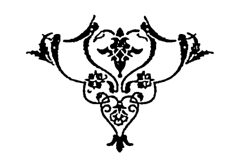
هذه أبرز الحجج والبراهين الداخلة ضمن المضامين الدعوية في دعوة المشركين والمجوس ، وفي كتاب الله تعالىٰ تنوُّعٌ في طرح الحجج والبراهين[٢] التي أخذت بلُبِّ جبابرة الفرس ، ودهاة العرب وفصحائهم ، وحيَّرت عقولهم

---

(١) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (١ / ١٨) .

(٢) انظر مزيداً من هذه الحجج والبراهين : « منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلىٰ الإسلام » للرحيلي (١ / ٣٩١ ٤٧٠) ، و« الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » لابن تيمية (١ / ٣١٥) ، (١ / ٣٥١) ، و« مجموع الفتاوىٰ » (١ / ٩٢) ، (٧ / ٧٥) .

المتبعة لأوثان لا تملك صرفا ولا عدلا ، مما حدا بهم إلىٰ أن فتح الله علىٰ قلوب كثير منهم إلىٰ طريق الهداية والدعوة الحقَّة ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، وفتح الله علىٰ رسوله ﷺ مكَّة ، والمتأمل لدعوة النبي ﷺ للمشركين في مكة من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يجد مضمون الدعوة فيها يهتم بغرس الاعتقاد الصحيح بإثبات وحدانية الله تعالىٰ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وبتعميق المعاني الإيمانية ، وغرس الصبر في النفوس ، والتربية علىٰ الأخلاق الفاضلة ، وانتزاع شوائب الجاهلية وما بقي من سلوكهم وعاداتهم ، وأمرهم بالاستعانة بالصلاة وتوثيق الصلة بالله تعالىٰ ليزاد إيمانهم ويقووا علىٰ مواجهة أعدائهم .





المبحث السابع : دعوة المنافقين

إن من أشهر أصناف المدعوِّين الذين تضافرت النصوص في توجيه الدعوة إليهم المنافقين ، فقد جاءت نصوص الكتاب والسنَّة مليئة مبيِّنة صفاتهم وأعمالهم وحال قلوبهم وقصصهم وتعاملهم مع النبي ﷺ ، ووصفهم الذي لا ينفكُّون عنه ويُعرفون به علىٰ مرِّ العصور ، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ سورة تسمىٰ (سورة المنافقون)[1] ، وعليه فإن المضامين الدعويّة المتعلِّقة بدعوة المنافقين لها معالم بارزة أوضحها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره كما سيأتي ، والنفاق لم يكن معروفاً أول الإسلام ؛ لأن سبب ظهوره هو سطوة المسلمين وظهورهم علىٰ أعدائهم عندها يتخفىٰ الكافر بلباس المنافق الذي يظهر الإسلام خوفاً من سطوة المسلمين ويبطن الكفر ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والنفاق لم يكن معروفاً قبل الإسلام ، ولا في أول الإسلام ؛ لأن أول الإسلام ليس هناك قوة للمسلمين يخافها الناس ، لكن لما صار للمسلمين شوكة ، وقوي المسلمون وذلك بعد انتصارهم في غزوة بدر في السنة الثانية بدأ النفاق يظهر ، وقال المنافقون : إن أمره قد اشتد وظهر ، فلا بد أن نداهنه ، ولا بد أن نظهر أننا معه حتىٰ لا ينالنا بسوء ، وحصل لهم ما أرادوا ، فإن الرسول ﷺ لم ينالهم بسوء ، حتىٰ أنه استؤذن في قتلهم فقال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع فتاويه ورسائله » (٣/ ٥٧) : « والمنافقون أضر علىٰ الإسلام من ذوي الكفر الصريح ، ولهذا أنزل الله تعالىٰ فيهم سورة كاملة كان من هدي النبي ﷺ أن يقرأ بها في صلاة الجمعة ؛ لإعلان أحوال المنافقين ، والتحذير منهم في أكبر جمع أسبوعي وأكثره ، وقال فيها عن المنافقين : ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون : ٤] » ا.هـ.

أصحابه »[١] لكن هذا لا ينفعهم ، إذاً : أول ما ظهر النفاق حين قوي المسلمون بعد غزوة بدر »[٢] .

ويقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ النفاق : « وقوله : ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[النساء :٦١] المنافق : اسم فاعل من نافق ، وهو مأخوذ من نافقاء اليربوع ؛ أي : جحره ، وجحر اليربوع مبني علىٰ الخداع ؛ لأن الجربوع أو اليربوع يكيد ، فيجعل له باباً في جحره يدخل منه ، ويجعل له باباً من قشرة الأرض في أقصىٰ الجحر ، فإذا زاحمه أحد من الباب المعهود المفتوح ؛ خرج من الباب الخفي ، فخادع ، فلهذا أخذ منه كلمة : « منافق »[٣] .

والنفاق في الإصطلاح الشرعي : هو إظهار الإيمان ، وكتمان الكفر بالقلب[٤] .

فالمنافق : هو الذي يظهر غير ما يُبطنه ويخفيه من التكذيب لله جل وعلا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) ، ومسلم (٢٥٨٤) ، ، وسيأتي قريبا بلفظه .
وفي « القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد » (٢ / ٢٦٩) قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم ؛ لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، لكن الآن لو علمنا أحدا بعينه من المنافقين لقتلناه ، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط » اهـ ، وانظر : « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (١٠ / ٨٥٣) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٤٣) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٦٤) ، وانظر : « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٥ / ٩٨) و« لسان العرب » (١٠ / ٣٥٩) و« تاج العروس » (٢٦ / ٤٣٥) مادة (نفق) .

(٤) « التعريفات » للجرجاني (ص : ٢٤٥) .
وفي « القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد » (٢ / ١٧٧) ، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف المنافق : « هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، وسمي منافقا من النافقاء ، وهي جحر اليربوع ، واليربوع له جحر له باب وله نافقاء -أي يحفر في الأرض خندقاً حتىٰ يصل منتهىٰ جحره ثم يحفر إلىٰ أعلىٰ ، فإذا بقي شيء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف- ، فإذا حجر عليه من الباب خرج من النافقاء » .

ولرسوله ﷺ ، والتكذيب بأصول الايمان ، وهو المنافق الخالص[١] .

ولقد جاءت المضامين الدعوية المتعلِّقة بدعوة المنافقين إلىٰ الله تعالىٰ بطابع خاص ؛ لخصوصية الصفات التي تلبَّس بها المنافقون ، وحالة التقلُّب التي يعيشونها ، فيظهرون للمسلمين بحال يوحي بأنهم منهم وليسوا كذلك ، ولذا تعامل معهم النبي ﷺ بمنهج دعوي خاصٍ[٢] يناسب حالهم المتذبذب .

– وأبرز المضامين الدعوية في دعوة المنافقين :

أولاً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[البقرة :١٢] : « من فوائد وأحكام هاتين الآيتين :

– أن المنافقين قد يأتيهم من ينصحهم ، ويبيِّن لهم حالهم ، وأنهم يفسدون في الأرض ، ووجه الإفساد من هؤلاء أهم يعطون للمسلمين ألسنة طيبة وقولا معسولاً ، فيظن المؤمن أنهم من أوليائه فيفضي إليهم بأسراره ، ولكنهم كاذبون في ذلك ، ويحصل بهذا الفساد حيث يحصلون علىٰ أسرار المؤمنين وينشرونها بين الكفار .

ومن إفساد المنافقين في الأرض أيضاً– أنهم يريدون أن تُمْحىٰ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ وأن يكون الحكم والتحاكم إلىٰ الطاغوت ، والطاغوت كل نظام يخالف شرع الله سبحانه وتعالىٰ أي : يخالف ما شرعه الله سبحانه وتعالىٰ لعباده ، فالمنافقون يحاولون بكل جهودهم أن يكون التحاكم إلىٰ غير الله

---

(١) انظر : « أصول الدعوة » (٣٩٦) .

(٢) انظر رسالة : « المنهج الدعوي في تعامل النبي ﷺ مع المنافقين » ، للباحثة : هيلة بنت عبيد الجدعاني .

ورسوله ؛ لقول الله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦٠-٦١] »[1] .

ومن هنا كانت دعوتهم للحق من أشق أصناف المدعوّين بيانـًا ووضوحـًا ؛ لأن الداعية لا يستطيع التحكُّم بمدىٰ التأثر وصدق الاستجابة عند المنافق لدعوته ؛ ولشدة طغيانهم ومكرهم ، وإعجابهم بأنفسهم وطريقتهم .

ثانيـًا : قال الله تعالىٰ مبيِّنـًا شدة طغيانهم وإعجابهم بأنفسهم : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٣] ، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « - من فوائد الآية : أن المنافق لا تنفعه الدعوة إلىٰ الخير ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ؛ فهم لا ينتفعون إذا دعوا إلىٰ الحق ؛ بل يقولون : ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ، ويؤخذ من قوله تعالىٰ : ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ ذكر من استجاب للحق ليكون مشجعـًا علىٰ قبوله ، وهنا أمر معلوم ؛ لأن الإنسان يتأسىٰ بغيره بلا شك .

- ومنها : إعجاب المنافقين بأنفسهم ؛ لقولهم : ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ .

- ومنها : شدة طغيان المنافقين ؛ لأنهم أنكروا علىٰ الذين عرضوا عليهم الإيمان : ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾ ؛ وهذا غاية ما يكون من الطغيان ؛ ولهذا قال الله تعالىٰ في آخر الآية : ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة : ١٥] »[2] .

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٦٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٤٩) .

ثالثًا : لقد كان النبي ﷺ يدعوهم كغيرهم من أصناف المدعوِّين ، ومن أهم المضامين الدعوية المتعلِّقة بطرق دعوة المنافقين كما في الهدي النبوي والتي جاء في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يدل عليها ما يلي :

- تنزيلهم منزلة المسلمين في التعامل الدنيوي ، وعدم الدخول في نياتهم وإنما التعامل معهم بالظاهر ؛ ليكون ذلك أدعىٰ لقبولهم واستجابتهم كما استجابوا لحسن تعامل النبي ﷺ ؛ ولئلا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يفرِّق بين أصحابه في التعامل فيقتل بعضا ويترك بعضا ، عن جَابِرَ بْنَ عبد اللهِ يَقُولُ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ ، فَكَسَعَ[١] رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ : يَا لَلأَنْصَارِ ، وقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا بَالُ دَعْوىٰ الجَاهِلِيَّةِ؟ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ : « دَعُوهَا ، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ » فَسَمِعَهَا عبد اللهِ بن أُبَيٍّ فَقَالَ : قَدْ فَعَلُوهَا ، واللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ . قال عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ : « دَعْهُ ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ »[٢]

وهذا التعامل الدعوي من النبي ﷺ له أبلغ الأثر لمن فتح الله علىٰ قلبه من المنافقين فانتهىٰ عن نفاقه وعاد لصوابه ، وإجراء التعامل معهم علىٰ الظاهر هو الموافق للحكمة في التعامل الدعوي معهم ؛ لئلا يكون للمنافق مدخلٌ في الطعن بالمسلمين ، ونبذ تعاملهم ؛ ولئلا يجري القتل علىٰ دماء معصومة يُظَنُّ أنها من المنافقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الفتح (١ / ١٧٩) : « الكسع هو أن يضرب بيده علىٰ شيء أو برجله ، ويكون أيضا إذا رماه بسوء ، وقال الخليل : أن يضرب بيده ورجله دبر إنسان » .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) ، ومسلم (٢٥٨٤) .

﴿٨﴾ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة :٨-٩] ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أن أحكام الدنيا تجري علىٰ الظاهر ؛ أي : علىٰ ما يظهر من حال الإنسان دون الأمر الباطن الذي في قلبه ؛ لأن الأمر الباطن لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ ، أما الأمر الظاهر فيعلمه كل من ظهر له ؛ ولهذا لم يقتل النبي ﷺ المنافقين ، وقال حين استؤذن في قتلهم : « لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه »[(١)] ؛ ويتفرع علىٰ ذلك أننا نجري الناس في أحكام الدنيا علىٰ ظاهر حالهم ، ولا نسيء الظن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية تذيِّل هذا الأصل ، ومن ثَمَّ قال الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ : إنه يحرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة ، ومن هنا أحذِّر بعض الإخوة الذين يطلقون مثل قولهم : هذا منافق ، هذا كافر ، هذا كذا ... إلخ[(٢)] ، ويصفونه بأوصاف تخالف ظاهر حاله بناء علىٰ ما يظنونه في قلبه ، وهذا خطأ ؛ لأنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر ، قال النبي ﷺ : « إنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له علىٰ نحوٍ مما أسمع منه ... »[(٣)] »[(٤)] .

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومن جالسني يعلم ذلك مني : أني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلىٰ تكفير وتفسيق ومعصية ، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة وفاسقا أخرىٰ وعاصيا أخرىٰ وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها : وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية ، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم علىٰ أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية » اهـ. « مجموع الفتاوىٰ » (٣/ ٢٢٩) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٠) ، ومسلم (١٧١٣) .

(٤) « أحكام من القرآن الكريم » (١/ ٥٦) ، وفي موضع آخر قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ولا ريب أن المنافقين كفار -وإن تظاهروا بالإسلام ولكن هل نعاملهم معاملة الكفار؟ الجواب : لا نعاملهم معاملة الكفار ؛ لأن أحكام الدنيا تجري علىٰ الظاهر ؛ وأحكام الآخرة تجري علىٰ=

– ومن طرق دعوة المنافقين التي جاءت في النصوص، بيان صفاتهم وأعمالهم دون تحديد أعيانهم وذكر أسمائهم؛ ليكون ذلك مشجعاً لرجوعهم إلىٰ الصواب وسلوك العقيدة الصحيحة والدخول في دين الله تعالىٰ، بخلاف فضحهم بأعيانهم فهو أدعىٰ لعنادهم واستكبارهم وبعدهم عن دعوة الحق، ومن أبرز صفاتهم الواردة في النصوص الكذب، فهم من أكذب الناس؛ وبهذه الصفة استطاعوا إظهار ما لا يبطنون[1]، قال الله تعالىٰ مبيّناً هذه الصفة: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[آل عمران: ١٦٧]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من فوائد الآية: أن المنافقين من أكذب الناس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ويقولون: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٧] وهم كاذبون في هذا؛ لأنهم يعلمون أنه سيكون قتال؛ لأن أعداء المسلمين جاءوا من بلادهم، وتركوا أهليهم، وتركوا بلادهم، وتركوا أموالهم، وهم في

= الباطن والسرائر، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]؛ ولأنه لو عومل الناس في الدنيا علىٰ السرائر لكان في ذلك تكليف ما لا يطاق من وجه؛ وكان في ذلك الفوضىٰ التي لا نهاية لها من وجه آخر؛ أما تكليف ما لا يطاق فلأننا لا نعلم ما في صدور الناس؛ فلا يمكن أن نحكم عليه؛ وأما الفوضىٰ فلأنه يستطيع كل ظالم له ولاية أن يعاقب هذا الرجل، أو يعدم هذا الرجل بحجة أنه مبطن للكفر؛ ولما استؤذن النبي ﷺ في قتل المنافقين قال: «لا أقتلهم؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»» «تفسير سورة البقرة» (٣/ ٣٢٤-٣٢٥).

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد» (٢/ ٣٨٤): «فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق، فيخفي في نفسه ما لا يبديه لغيره؛ لأنه يرىٰ من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان». اهـ.

غاية الحنق على الرسول ﷺ، وفي غاية الاستعداد، فهل يعقل أن قوماً جاءوا على هذه الصفة يرجعون دون قتال؟! »[1].

ويقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[النساء: ١٤٢]:

« من فوائد الآية: إثبات خداع المنافقين، وأنهم قوم أهل خداع ومكر، ولهذا كان من صفات المنافقين أنهم إذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا؛ لأن كل هذا يتضمن الخداع »[2].

وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٤٣]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « من فوائد الآية: أن حال المنافقين التردد بين الكفر والإيمان، لكن الحكم عليهم في الآخرة أنهم كفار، أما في الدنيا فيعاملون على ظواهرهم؛ لأن الأحكام في الدنيا على الظواهر »[3].

ومن صفاتهم ردّ الدعوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[البقرة: ٢٠٦]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

« ومن فوائد الآية: التحذير من رد الناصحين؛ لأن الله تعالى جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين؛ فمن رد آمراً بتقوى الله ففيه شبه من المنافقين؛ والواجب على المرء إذا قيل له: « اتق الله » أن يقول: « سمعنا، وأطعنا »

(١) « تفسير آل عمران » (٢/ ٤٢٥).

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢/ ٣٦١).

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢/ ٣٦٩).

تعظيمـاً لتقوىٰ الله »[(١)].

وهذه الصفات التي جاءت في النصوص، وتناولها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره، تبيِّن الخصوصية المتعلِّقة بالمنافقين، والتي لايسع المسلم عموما والدعاة علىٰ وجه الخصوص -معها إلا الحذر من تقلُّبهم وتحيُّن المناسب في دعوتهم، والتبصُّر بحالهم وصفاتهم.

- ومن أبرز صفاتهم وأعمالهم الواردة في النصوص ما يلي:

أولاً: مرض القلب، قال تعالىٰ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[البقرة:١٠].

ثانيـاً: الافساد في الأرض، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١١ - ١٢].

ثالثـاً: رميهم المؤمنين بالسفه، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٣].

رابعـاً: اللدد في الخصومة والعزة بالإثم، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[البقرة:٢٠٤-٢٠٦].

خامسـاً: موالاة الكافرين والتربص بالمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[النساء:١٣٨-١٣٩]، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٤٤٨).

لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

سادسًا: الخداع والرياء والتكاسل عن اداء العبادات، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣].

سابعًا: التحاكم الىٰ الطاغوت، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

ثامنًا: الافساد بين المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

تاسعًا: الكذب والخوف وكره المسلمين، قال تعالىٰ: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧].

عاشراً: يعيبون أهل الحق، ويرضون ويسخطون لحظوظ أنفسهم، قال

تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[التوبة :٥٨] .

الحادي عشر : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة :٦٧] .

الثاني عشر : الغدر وعدم الوفاء بالعهد قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة :٧٥-٧٧] .

الثالث عشر : يعيبون المؤمنين ويسخرون منهم ولا يرضيهم منهم شيء ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التوبة :٧٩] .

الرابع عشر : تواصيهم بترك الجهاد ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾[التوبة :٨١] .

الخامس عشر : الإضرار بالمؤمنين وتسترهم بفعل ظاهره مشروع ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ

أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[التوبة :١٠٧- ١٠٨] [١] .

- ومن طرق دعوة المنافقين وعظهم وتلمُّس ما له أبلغ الأثر في قلوبهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴾[النساء :٦٣] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« المنافقون لا يعلمهم إلا الله ، وهذا الأصل ، ولكن ربما نعرفهم في لحن القول ، أو بفراسة يعطيها الله تعالىٰ من شاء من عباده .

قوله : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ يعني : لا تتعب نفسك معهم ، ولا تعاملهم معاملة الكافرين فتقاتلهم ؛ لأنهم لم يعلنوا بالعداوة ، ولهذا لما استؤذن النبي ﷺ في قتل من استؤذن بقتله منهم ، قال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »[٢] ، وهذا هو عين الحكمة ؛ لأننا لو سلطنا سيوفنا علىٰ أمثال هؤلاء لقتلنا عالمـاً ، وقد يكونون مؤمنين ، وإذا كان الرجل المشرك الذي لحقه أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأدركه بالسيف قال له النبي ﷺ : « أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله؟! »[٣] مع

---

(١) انظر : « شرح رياض الصالحين » (١ / ١٣٦) لشيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، و« مجموع فتاوىٰ ورسائل ابن عثيمين » (٢٠ / ٣٨٠) ، و« أصول الدعوة » (٣٩٨ ٤٠٤) .
وانظر مزيداً : « صفات المنافقين » لابن القيم ، و« صفة النفاق وذم المنافقين » للفريابي ، و« صفة النفاق ونعت المنافقين » للأصبهاني .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٩) ، ومسلم (٩٦) ، من حديث أُسَامَةَ بن زَيْدِ بن حَارِثَةَ ، قال : بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ ، فَصَبَّحْنَا القَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ ولَحِقْتُ أَنَا ورَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا منهم ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قال : لا إِلَهَ إلا اللهُ ، فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ ، وطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّىٰ قَتَلْتُهُ ، قال : فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذلك النَّبِيَّ ﷺ ، فَقال لِي : « يَا أُسَامَةُ ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قال : لا إِلَهَ إِلا اللهُ؟ » قال : قلت : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا ، قال : فقال : « أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قال لا إِلَهَ إِلا اللهُ؟ » قال : فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّىٰ تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذلك اليَوْمِ .

أن الظاهر أنه قالها تعوذاً ، فإذا كان هذا الرجل عصم دمه بهذه الكلمة فكيف بهؤلاء المنافقين الذين يذكرون الله ، ويأتون معنا ويصلون ويتصدقون ، فالكف عنهم هو عين الحكمة .

قوله : ﴿وَعِظْهُمْ﴾ الموعظة : هي التذكير المقرون بالترغيب والترهيب ؛ أي : أن تذكّر الإنسان بما يلزمه من فعل أو ترك مع ترغيب أو ترهيب ، ترغيب فيما تأمره به ، وترهيب فيما تنهاه عنه .

قوله : ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ أي : قل لهم قولاً يصل إلىٰ قرارة نفوسهم »[1] .

وليس للداعية أن يُعرض عن دعوة المنافقين بحجّة إضمار ما لا يظهرونه ، وتذبذبهم بين الإيمان والكفر ، بل الله تعالىٰ أمر بوعظهم ، وتلمُّس ما له أثر عليهم لعلَّ موعظة توقظ قلبا مضطربـًا ، وقولاً بليغـًا يردُّ عقلا حائرا .

- ومن طرق دعوة المنافقين مجاهدتهم باللسان وذلك بالعلم والبيان الذي يحصل به ردّ شبهاتهم وشائعاتهم ، وهو من أهم الطرق في اندثار المنافقين وانخناسهم ، وشعورهم بضعفهم وبطلان مذهبهم ، وصواب غيرهم من المسلمين ، كما قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[التوبة :٧٣] :

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وأما المنافقون فكان مع علمه بهم يعرض عنهم ، ويكتفي بظاهر إسلامهم ، ويسمع أخبارهم فيلغيها بالبقاء عليهم ، وانتظار الفيئة إلىٰ الحق بهم ، وإبقاء علىٰ قومهم ، لئلا تثور نفوسهم عند قتلهم ، وحذرا من سوء الشنعة في أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؛ فكان لمجموع هذه

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٦٩-٤٧٠) .

الأمور يقبل ظاهر إيمانهم، وبادئ صلاتهم، وغزوهم، ويكل سرائرهم إلىٰ ربهم، وتارة كان يبسط لهم وجهه الكريم، وأخرىٰ كان يظهر التغيير عليهم.

وأما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة، وأما قول من قال: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود فيهم لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم، فإنه دعوىٰ لا برهان عليها، وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامنا، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا، وأخبار المحدودين يشهد مساقها أنهم لم يكونوا منافقين »[١].

وقال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أما مجاهدة الغير فإنها تنقسم إلىٰ قسمين: قسم بالعلم والبيان، وقسم بالسلاح.

أما مَنْ مجاهدته بالعلم والبيان فهو الذي يتسمىٰ بالإسلام وليس من المسلمين؛ مثل المنافقين وأهل البدع المكفرة وما أشبه ذلك، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان، قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، فجاهد الكفار يكون بالسلاح، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان.

ولهذا كان الرسول ﷺ يعلم بأن في أصحابه منافقين، ويعلمهم بأعيانهم، ولكنه لا يقتلهم، واستؤذن في قتلهم فقال: « لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه »[٢]، فكذلك الذين ينضوون تحت لواء الإسلام من أهل البدع

---

(١) « أحكام القرآن » (٢ / ٥٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

لا نقاتلهم بالسلاح ، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان »[(١)] .

والمجاهدة بالعلم والبيان توحي للداعية بمزيد من التبصُّر في دين الله تعالىٰ ، والتعمق في معرفة شُبه الأعداء وما يراوغون فيه لاسيما أهل النفاق ، فلطالما أوردوا علىٰ النبي ﷺ أسئلة شرعية ، وآراء حربيّة أرادوا بها هدم الدين وإضعافه بلسانٍ يظهر ما لا يبطن ، لكن البصيرة التي جعلها الله تعالىٰ في قلب نبيه ﷺ ردَّ الله بها كيدهم في نحورهم ، وأبان منهم كل خيانة للأمة ، وهكذا الداعية إذا أراد مجاهدتهم بالعلم والبيان ، فإنه يلزمه مع ذلك عمق في الاستدلال ، وتأصيل في العلم والبيان .

- ومن طرق دعوتهم التدرج معهم من الرفق واللين إلىٰ الشدة والغلظة ، كما كان يفعل النبي ﷺ ، فلقد كانت دعوته بالرفق وبالقول الحسن ممتثلا قول الله تعالىٰ : ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة :٨٣] ، وقوله : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران :١٥٩] ، وهذا في سائر دعوته ﷺ كما استعمل هذا الرفق مع اليهود ، ومن ذلك ما روته عائشة ، قالتْ : اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : يَا عَائِشَةُ « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ » قالتْ : أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قال : « قَدْ قُلْتُ وعَلَيْكُمْ »[(٢)] ، وهكذا كان يدعو النبي ﷺ المنافقين باللين والرفق ، ففي « الصحيحين » من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن النبي ﷺ : « ... مَرَّ بمَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ ، والمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ ، واليَهُودِ ،

---

(١) « شرح رياض الصالحين » (٢/ ٥٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥) .

فِيهِمْ عبد اللهِ بن أُبَيٍّ ، وفِي المَجْلِسِ عبد اللهِ بن رَواحَةَ ، فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ ، خَمَّرَ عبد اللهِ بن أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ، ثُمَّ قال : لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمِ النَّبِيُّ ﷺ ، ثُمَّ وقَفَ ، فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ ، وقَرَأَ عَلَيْهِمِ القُرْآنَ ، فَقَالَ عبد اللهِ بن أُبَيٍّ : أَيُّهَا المَرْءُ ، لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا ، فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا وارْجِعْ إِلَىٰ رَحْلِكَ ، فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ عبد اللهِ بن رَواحَةَ : اغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا ، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ ، قال : فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ والمُشْرِكُونَ واليَهُودُ حَتَّىٰ هَمُّوا أَنْ يَتَواثَبُوا ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ سَعْدِ بن عُبَادَةَ ، فَقَالَ : « أَيْ سَعْدُ ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَىٰ مَا قال أَبُو حُبَابٍ؟ يُرِيدُ عبد اللهِ بْنَ أُبَيٍّ - قال : كَذَا وكَذَا » ، قال : اعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ ، واصْفَحْ ، فَواللهِ ، لَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ الَّذِي أَعْطَاكَ ، ولَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ البُحَيْرَةِ أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بالعِصَابَةِ ، فَلَمَّا رَدَّ اللهُ ذَلِكَ بالحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَهُ ، شَرِقَ بذَلِكَ[1] ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ ، فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ... »[2] .

هذا تعامله ﷺ مع رأس المنافقين بالرفق واللين ومواقف لطف النبي ﷺ ورفقه في الدعوة كثيرة مشهودة ، لكن إن استدعىٰ الأمر الغلظة عليهم كانت هي الأنسب في التعامل مع المنافقين ، كما فعله مع نفس الشخص الذي رفق به وهو عبدالله بن أُبيّ ، وذلك في حادثة الإفك حيث صعد النبي ﷺ المنبر فقال :

---

(١) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « شرح مسلم » (١٢ / ١٥٩) : « قوله :« شَرِق بذلك » بكسر الراء أي : غصَّ ، ومعناه : حسد النبي ﷺ وكان ذلك بسبب نفاقه » ، وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الفتح » (١ / ١٣٨) : « قوله « شرق بذلك » : بكسر الراء أي ضاق صدره حسداً كمن غصَّ بالماء » وانظر : « إكمال المعلم بفوائد مسلم » للقاضي عياض (٦ / ١٧٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٧) ، ومسلم (٣ / ١٤٢٢) برقم (١٧٩٨) .

« يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، واللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا » ، فَذَكَرَ بَرَاءَةَ عَائِشَةَ ... الحديث[1] ، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله في حديث الإفك من يعذرني من رجل هو عبد الله بن أُبيّ »[2] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقصة الإفك : أن قوماً من المنافقين تكلموا في عرض عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ، وليس والله قصدهم عائشة ، لكن قصدهم رسول الله ﷺ : أن يدنسوا فراشه ، وأن يلحقوه العار والعياذ بالله! ولكن الله ولله الحمد- فضحهم ، وقال : ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور : ١١] »[3] .

واستعذار النبي ﷺ دليل علىٰ شدة الكلام وغلظه تجاه من تسبب في إشاعة القول علىٰ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بحديث الإفك ، وهذا هو المناسب لا سيما مع المنافقين إن استدعىٰ ذلك المقام بعد القول بالحسنىٰ والدعوة بالرفق ، وعليه يُحمل أمر الله تعالىٰ بالغلظة عليهم في قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[التوبة :٧٣] .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية : « يأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ ، بجهاد الكفار والمنافقين ، والإغلاظ عليهم في ذلك ، وهذا شامل لجهادهم ، بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة ، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال ، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبىٰ أن يجيب دعوة الله

---

(١) أخرجه البخاري بطوله (٩ / ١١٣) برقم (٧٣٦٩) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا .

(٢) فتح الباري (١ / ٢٨٦) .

(٣) « شرح العقيدة الواسطية » (٣٤٢) ، وحادثة الإفك بطولها ، رواها البخاري في « صحيحه » (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

وينقاد لحكمه ، فإن هذا يجاهد ويغلظ له ، وأما المرتبة الأولىٰ ، فتكون بالتي هي أحسن »[1] .

والتنويع في دعوة المنافقين بين اللين والغلظة ، هي المناسبة لتنوِّع حالهم وتقلبها وتذبذب قلوبهم كما قال الله تعالىٰ عن حالهم ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[النساء :١٤٣] ، ولذا جاءت المضامين الدعوية المتعلِّقة بدعوة المنافقين متنوِّعة وفقاً لنفاقهم وما يتقلَّبون فيه من حال كما تقدَّم بيانه ، وأفادت هذه المضامين أن أبلغ ما يؤثر في دعوة المنافقين هو تنزيلهم منزلة المسلمين من حيث التعامل الدنيوي كما دلَّت علىٰ ذلك النصوص ، فهذا أدعىٰ لقبولهم واستجابتهم ، وسدٌّ منافذ الخصومة والاستعداء علىٰ المسلمين بحجة التفرقة ، كما أن ذكر صفاتهم وأعمالهم التي جاءت متضافرة في نصوص الكتاب والسنة والتي تميَّزوا بها عن سائر المدعوِّين دون التعرُّض لأعيانهم طريقاً من طرق دعوتهم ومحفِّزاً لهم في ترك قبائح الأعمال والبعد عن مواطن الانتساب للنفاق وأهله ، والمنافق تعتريه بعض المراجعات التي ربما تستوقفه علىٰ قبيح صنيعه فمن المناسب دعوته بالوعظ وتذكيره بما له أثر في قلبه كما هي دعوة القرآن بذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[النساء :٦٣] ، وبالجملة فإن دعوة المنافق دعوة تحتاج إلىٰ فقه عميق ، وفهم دقيق ، وذلك بالرجوع إلىٰ نصوص الكتاب والسنة وتأمل المضامين فيها من خلال التفاسير وشروح السنة ، فإن الداعية كلما تبصَّر بما أوردته النصوص في حياة المنافقين وصفاتهم وأحوالهم

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٨٧٤) .

وتقلُّباتهم كان ذلك أدعىٰ لمعرفة طبائعهم ومفاتيح دعوتهم إلىٰ الحق الذي أراده الله تعالىٰ لعباده .





الفصل الخامس

الأساليب والوسائل الدعويّة المستنبطة

من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الأساليب الدعوية ، وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعويّة ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : الحكمة .

المطلب الثالث : الموعظة الحسنة .

المطلب الرابع : الجدال بالتي هي أحسن .

المطلب الخامس : الترغيب والترهيب .

المطلب السادس : الأمثال .

المطلب السابع : القصص .

المبحث الثاني : الوسائل الدعوية ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الوسائل الدعويّة ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : القدوة الصالحة .

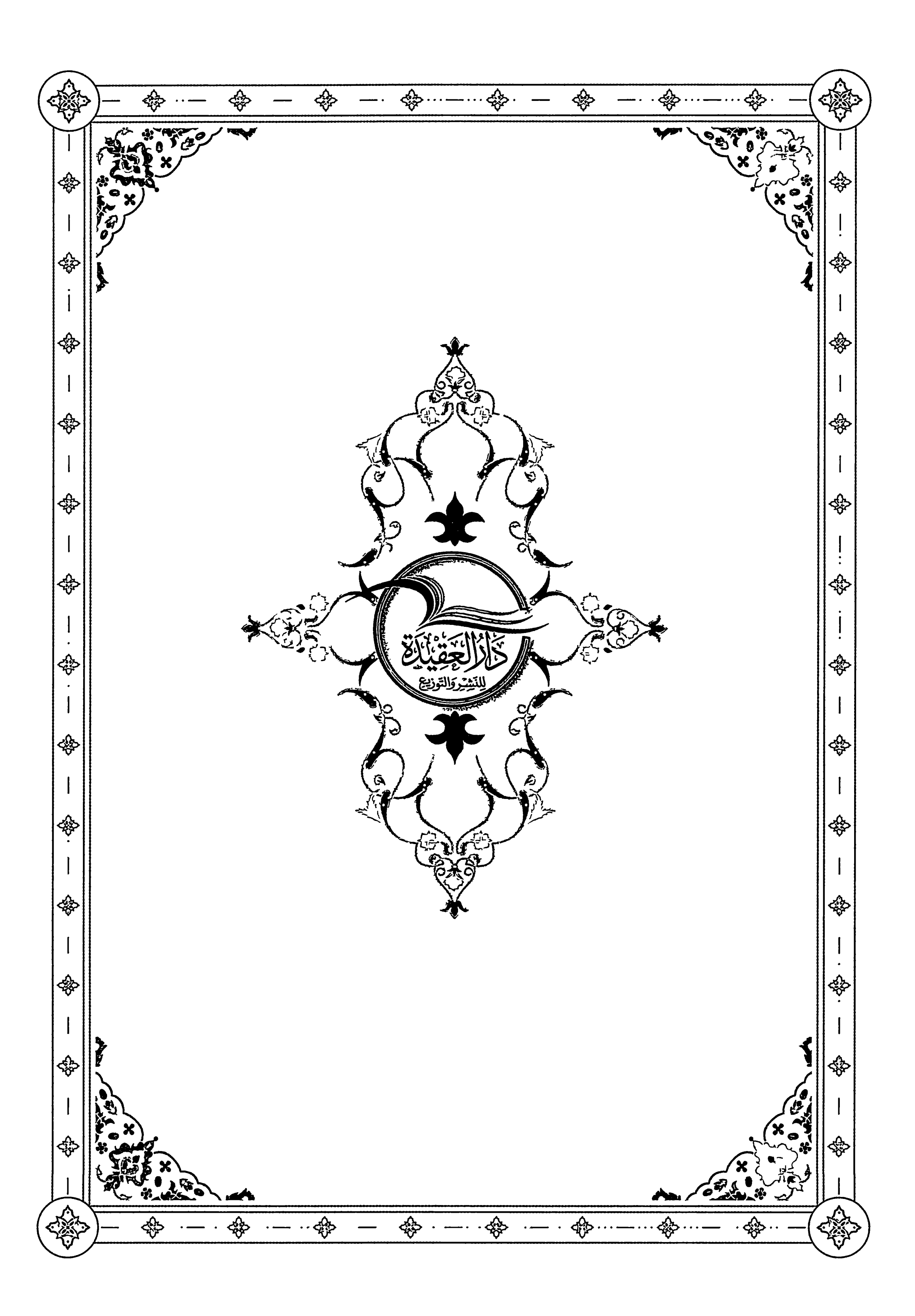
المطلب الثالث : الدعوة بوسيلة القول .

المطلب الرابع : إرسال الرسل والدعاة

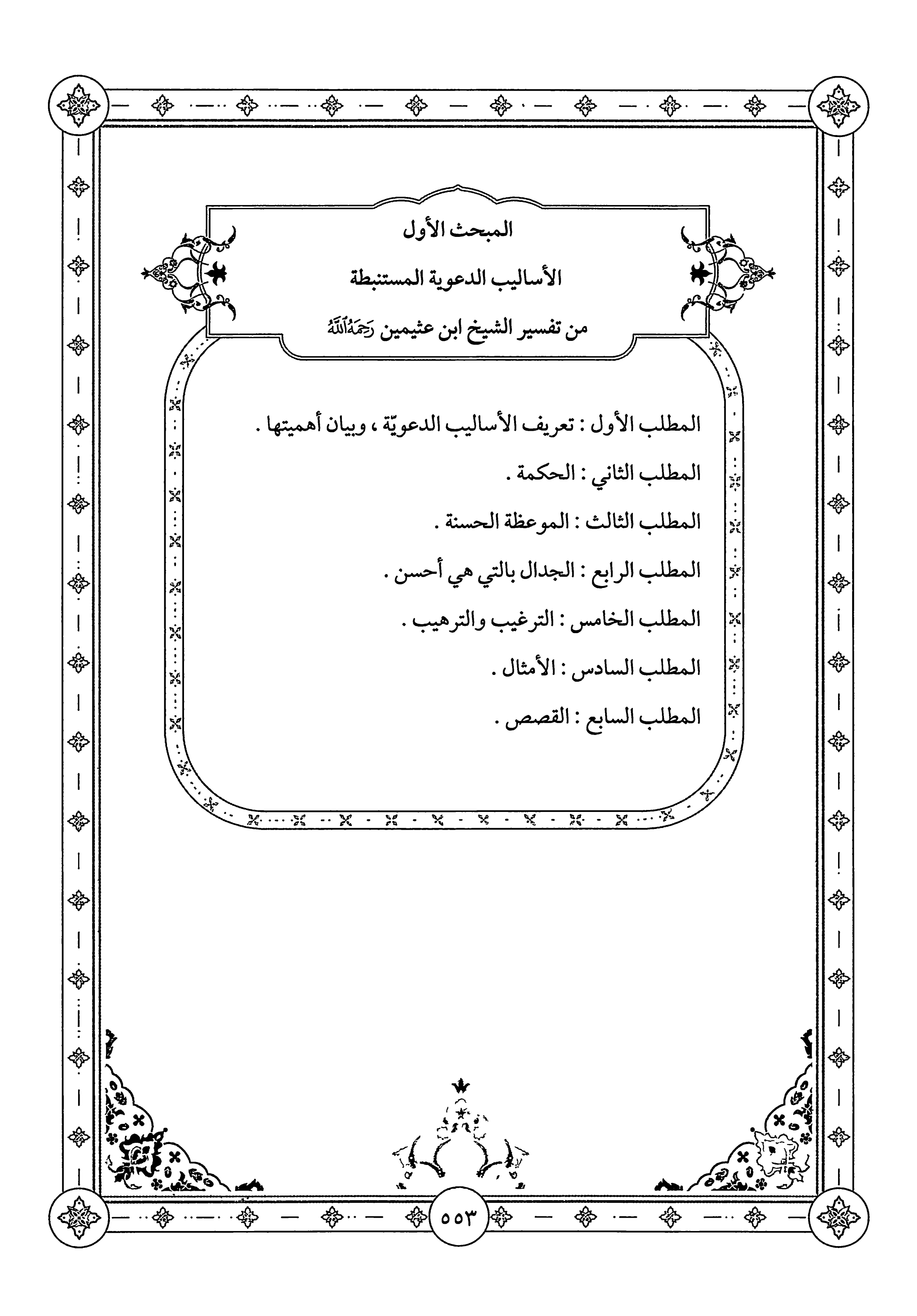
المطلب الخامس : إرسال الكتب والرسائل .

المطلب السادس : الخطبة .

المطلب السابع : وسائل أخرىٰ .



دار العقيدة
للنشر والتوزيع



المبحث الأول

الأساليب الدعوية المستنبطة

من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعويّة ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : الحكمة .

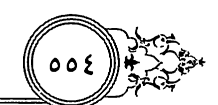
المطلب الثالث : الموعظة الحسنة .

المطلب الرابع : الجدال بالتي هي أحسن .

المطلب الخامس : الترغيب والترهيب .

المطلب السادس : الأمثال .

المطلب السابع : القصص .



المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعويّة ، وبيان أهميتها

إن من أهم المضامين الدعوية تأثيرا في ميدان الدعوة إلىٰ الله هي المضامين المتعلِّقة بالأساليب والوسائل الدعوية ؛ لأن مادة الدعوة وموضوعاتها لا يمكن إيصالها كما ينبغي إلا بأساليب الدعوة ووسائلها .

ولقد استعمل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سائر الأساليب بما يقتضيه مقام الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، فجاءت دعوتهم بالترغيب والترهيب ، وكذا الحكمة ، وضرب الأمثال ، والقصص ، والجدال بالتي هي أحسن ، والموعظة الحسنة ، والمراوحة بين هذه الأساليب للوصول إلىٰ ما يناسب المدعو ، فهذا نبي الله تعالىٰ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول مبيناً تنقُّله بين أساليب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ تلمساً ما يناسب قومه ، قال الله تعالىٰ عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح :٥-١٢] .

فنوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نوَّع في الإسلوب رغبةً بهداية قومه ، فأسرَّ في دعوته ، وأعلن ، ورغَّب ، ورهَّب ، كل ذلك لينقلهم من شركهم إلىٰ توحيد الله تعالىٰ .

ولقد احتوىٰ كتاب الله تعالىٰ علىٰ أساليب دعوية مهمة للداعية ترفع من مستواه في ميدانه الدعوي لو أتقنها وأحسن استعمالها ، وتبصَّر في مضامينها الواردة في كتب التفاسير ، ومن أبرز كتب التفسير التي سطَّرت المضامين

الدعوية المتعلِّقة بالأساليب ، تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما سيأتي بيانه .

ـ تعريف الأساليب الدعوية .

الأسلوب في اللغة : الطريق ، والوجه ، والمذهب ؛ يقال : أنتم في أسلوب سوء ، ويجمع أساليب . والأسلوب : الطريق تأخذ فيه . والأسلوب ، بالضم : الفن ؛ يقال : أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه[١] .

وفي الإصطلاح للأساليب تعريفات متقاربة ، ومن ذلك :

قيل : هي الطرق والكيفيات المؤثرة المقنعة التي يتم بها تبليغ الإسلام ، والحث علىٰ تطبيقه[٢] .

وقيل : هي العلم الذي يتصل بكيفية مباشرة تبليغ الدعوة وإزالة العوائق عنه ، وهي الطريقة التي يسلكها الداعية في تأليف كلامه ، واختيار ألفاظه ، وتأدية معانيه ، ومقاصده من كلامه[٣] .

وقيل : هي الطرق التي يسلكها الداعية في دعوته ، أو كيفيات تطبيق مناهج الدعوة[٤] .

ومما تقدَّم يتضح أن الأساليب الدعوية هي طرق وكيفيات يتم اختيار ألفاظها وتأليفها لتؤدي رسالة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ .

(١) « لسان العرب » (١ / ٤٧٣) ، و« مختار الصحاح » (١٥١) ، و« المصباح المنير » في (١ / ٢٨٤) ، مادة (سلب) .

(٢) « فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري » د . سعيد القحطاني (٢ / ١١٢١) .

(٣) « مناهل العرفان في علوم القرآن » للزرقاني (٢ / ٣٠٣) .

(٤) « المدخل إلىٰ علم الدعوة » (٢٤٢) .

ونظر الداعية في الأساليب الواردة في الكتاب والسنة وما تضمنته من مضامين دعوية، وتأملها ومحاولة محاكاتها في ميدان الدعوة من أهم ما ينبغي مراعاته، ولاسيما وساحة الدعوة اليوم في بعض ميادينها- تشكو ضعفاً في انتهاج الأسلوب الأمثل المبني علىٰ المنهج الشرعي المؤصل في توصيل رسالة الإسلام وتعاليمه.

وأهمية الأساليب الدعوية ترجع إلىٰ أن إتقانها ومعرفة استعمالها سبب في شمول الدعوة واستيعابها كافة أطياف المجتمع وتنوِّع ثقافاتهم ومقدراتهم واختلاف فهومهم واستيعابهم، فاختيار الأسلوب الأمثل راجع إلىٰ حال المحيط الذي تنصبّ عليه الدعوة بظروفه المحيطة به، فالعامي الذي لا يفهم الأسلوب العلمي يناسبه الأسلوب القصصي أو ضرب الأمثال، والعقلاني الذي يردُّ الأمور إلىٰ العقل والفهم يناسبه الأسلوب الإقناعي بالحجج العقلية، والجدال بالتي هي أحسن، والعاصي الذي انغمس في غفلاته يحتاج إلىٰ موعظة حسنة توقظ قلبه ومراوحة بين الترغيب والترهيب، وهكذا يقال في سائر الناس حسبما يقتضيه الحال، وما الداعية إلا طبيب يداوي المدعوِّين بالأسلوب الأمثل.

كما أن تنوّع الأساليب الدعوية يساعد علىٰ كسر الملل الذي يصاحب المدعوِّين جرَّاء الأسلوب الأوحد؛ لئلا يذهب مقصود الدعوة والاستفادة من مضمونها بسبب السآمة التي تلحق المدعو، والاعتماد علىٰ أسلوب واحد أو أسلوبين خلاف الأسلوب القرآني الذي يأخذ بلُبِّ كل مَن قرأه بتدبر وتمعَّن في أساليبه المتنوعة، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقرآن الكريم مثاني تثنىٰ فيه المعاني، فيؤتىٰ بالمعنىٰ وما يقابله، ويأتي بأصحاب النار وأصحاب الجنة، ويأتي بآيات الترهيب وآيات الترغيب، وهلم جرًّا، لأجل أن يكون

الإنسان سائراً إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بين الخوف والرجاء، ولئلا يمل، فإن تنويع الأساليب وتنويع المواضيع لا شك أنه يعطي النفس قوة واندفاعًا، بخلاف ما لو كان الكلام علىٰ وتيرة واحدة، فإن الإنسان قد يمل ولا تتحرك نفسه »(١).

كما أن تنوُّع الأساليب من أقوىٰ العوامل المؤثرة علىٰ المدعوِّين، وانجذابهم إليه؛ لأنه سيحاكي عقولهم بما يناسب الجميع، وهذا مُشَاهَدٌ في الواقع الدعوي، وملموس بما يُصرِّح به المدعوون أحيانًا من عيبهم علىٰ مَن يلازم طريقة واحدة في الطرح الدعوي.

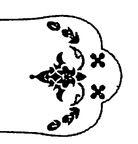
قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]: « من فوائد الآية: أنه ينبغي للداعي إلىٰ الله أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالىٰ حكاية عن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد، والتلطف، والتحبب ما هو ظاهر »(٢).

والداعية إلىٰ الله إذا استعمل الأسلوب المناسب، مقتفيًا في ذلك نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كما جاء في كتاب الله تعالىٰ، ومتبعًا سنة محمد ﷺ في دعوته، كان له من أمره رشدا، وكتب الله لدعوته أثرا، وإن من أهم ما يساعد علىٰ النظر في الأساليب التمعُّن في آيات الله تعالىٰ، والقراءة في تفاسيرها، فإن ذلك يوقف الداعية علىٰ مضامين دعوية متعددة ذات علاقة بالأساليب كما سيظهر في مطالب هذا المبحث من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

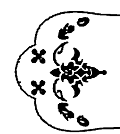
---

(١) « تفسير جزء عم » سورة البيِّنة (٢٨٠).

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٨٨).



المطلب الثاني : أسلوب الحكمة



أمر الله تعالىٰ باستعمال أسلوب الحكمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ فقال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل :١٢٥] ، والحكمة من أكثر الأساليب أهمية وفضلاً ؛ لأن الله تعالىٰ رتب عليه الخير الكثير فقال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة :٢٦٩] ، وهو أسلوب له فقهه الذي ينبغي للداعية أن يراعيه ، وكم من أسلوب دعوة افتقد الحكمة فصار ضرره أكبر من نفعه ، وأورث ندماً وعاقبة لا تُحْمَد ، ولذا فإن الحكمة من أقوىٰ الأساليب أثراً ، ومن أعمقها فقهاً ، ولأجل ذلك أورثت خيرا كثيرا .

والحكمة في اللغة : تستعمل بمعنىٰ : العدل ، والعلم ، والحلم ، والنبوة ، والقرآن ، والإنجيل .

وأحكم الأمر : أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد(١) .

والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم(٢) ، والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل(٣) .

وأما في الاصطلاح فقد عرَّف العلماء مفهوم الحكمة الواردة في الكتاب والسنة بعدة تعريفات : فقيل الحكمة هي : النبوة ، وقيل : القرآن والفقه به : ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وحلاله وحرامه ،

---

(١) انظر : « مقاييس اللغة » (٢/ ٩١) ، و« مختار الصحاح » (٧٨) ، و« لسان العرب » (١٢/ ١٤٠) ، مادة (حكم) .

(٢) « النهاية في غريب الحديث والأثر » (١/ ٤١٩) ، مادة (حكم) .

(٣) « المفردات في غريب القرآن » للأصفهاني (٢٤٩) .

وأمثاله . وقيل : الإصابة في القول والفعل ، وقيل : معرفة الحق والعمل به ، وقيل : العلم النافع والعمل الصالح ، وقيل : سرعة الجواب مع الإصابة ، وقيل : وضع كل شيء في موضعه[1] ، وهو ما ذكره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال : « الحكمة قال العلماء : إنها من الإحكام وهو الإتقان ، إتقان الشيء أن يضعه الإنسان في موضعه فهي وضع الأشياء في مواضعها »[2] .

ومن تتبع سيرة النبي ﷺ وجد أن الحكمة ملازمة له في جميع أموره ، وخاصة في دعوته إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، فهو النبي الحكيم ﷺ الذي ملأ الله قلبه بالإيمان والحكمة ، عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ ، قال : كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وأَنَا بمَكَّةَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ ، فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بطَسْتٍ[3] مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وإِيمَانًا ، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ بيَدِي ، فَعَرَجَ بي إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ... »[4] الحديث .

وهذا يدل علىٰ أن الحكمة من أهم الأمور في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، حيث

---

(١) انظر : « جامع البيان » للطبري (١/ ٤٣٦) و« معالم التنزيل » للبغوي (١/ ٢٥٦) (١ / / ١١٦) و« زاد المسير في علم التفسير » لابن الجوزي (١ / ٣٢٤) و« الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢/ ١٣١) (٣/ ٦٠) و« تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (١/ ١٨٤) (١/ ٣٢٣) و« روح المعاني المثاني » للألوسي (١/ ٣٨٧) و« تيسير الكريم الرحمن » (١/ ١٧٣) (١/ ٢٩٠) ، و« فتح الباري » لابن حجر (١/ ٦٧) ، و« تفسير سورة البقرة » لابن عثيمين (٢/ ٨٧) ، (٢/ ٢٤٢) .

(٢) « شرح رياض الصالحين » (٢/ ٣٥٠) ، وانظر : (٤/ ٧٤) ، وانظر : « تفسير سورة الحديد » (٣٥٩) ، و« مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٤/ ٢٦٩) .

(٣) إناء كبير مستدير . انظر : « فتح الباري » لابن حجر (١/ ٤٦٠) « تاج العروس » (٥/ ٥) ، مادة (طست) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٩) .

امتلأ بها صدر النبي ﷺ، وقد جاء بها روح القدس في طست الذهب وهو أثمن المعادن، وفي مكة المكرمة البقعة المباركة بعد غسله بماء زمزم الذي هو أطهر الماء وأفضله، كل هذه المعاني في هذا الموقف يدلك علىٰ أن الحكمة لها شأن عظيم في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

ولقد احتوىٰ تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ جملة من المضامين الدعوية المتعلِّقة بأسلوب الحكمة، وأبرز المضامين الدعوية في أسلوب الحكمة ما يلي:

أولاً: في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لقول الله تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، قال: «انظر للحكمة، أحياناً يكون الإنسان المدعو غضبان بسبب مؤثرات خارجية، فلا تتحمل نفسه أن يقبل منك حتىٰ ولو كان كلاماً عادياً، وأحياناً يكون راضياً ومنبسطاً تقدر أن تضرب له الأمثلة حتىٰ يهديه الله، ولهذا يخطئ بعض الناس مثلاً- إذا قابل شخصاً ولم يعامله المعاملة اللائقة به، نفر منه، فمثل هذه الأمور لا ينبغي للإنسان أن يحكم علىٰ الشخص بمجرد أنه دعاه مرة ونفر، انظر للوقت الذي تراه فيه متقبلاً وادعه إلىٰ الحق»[1].

ثانياً: أسلوب الحكمة إنما يفوز به من استطاع فهم أحوال الناس، وراعىٰ في ذلك المكان والزمان، فمداره علىٰ حال المدعو وما يناسبه، وحينما يقع الخلل والخطأ في تقدير الحال سيكون التشخيص من الداعية في دعوته بما لا يناسب، ولربما أورث عاقبة لا تُحْمَد، وردة فعلٍ لا تنبغي، ولذا كان لزاماً علىٰ الداعية أن يولي لهذا الأسلوب اهتمامه، ويتأملَ مضامينه.

وفي تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ

---

(١) «تفسير آل عمران» (٢ / ١٥).

أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالىٰ يمنُّ علىٰ مَنْ يشاء من عباده بالحكمة، فتجدُ الرجل حكيمًا في قوله وفي فعله وفي تَرْكِه وفي إقدامه وفي جميع أحواله، متأنيًا مُطَّلعًا إلىٰ المستقبل، وإلىٰ الآثار فيَزِنُ بعضها ببعض، ويُقدِمُ حيث كان الإقدام خيراً ويُحْجِمُ حيث كان الإحجام خيراً ...

- ومن فوائدها: تفاضل الناس في هذا: أن منهم مَنْ يُؤتَىٰ الحكمة، ومنهم من يُحْرَم الحكمة.

- ومنها: أن مَنْ أوتِيَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا، فأموره تكون مرتَّبة قد تأنَّىٰ فيها وقد علم كيف يضع قدمه، فتجده قليل الزلل وإن كان الإنسان ليس معصومًا- لكن مَنْ أوتي الحكمة فهو أقل زللاً من غيره ...

- ومنها أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله وحده الحكمة؛ لأنه إذا كان الذي يؤتي الحكمة هو الله، فإلىٰ مَنْ نلجأ إذا أردنا الحكمة؟! إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فأنت يا أخي المسلم إذا أردت الحكمة فاطلبها ممن يقدر علىٰ إعطائك إياها، ولكن مع هذا نقول: إن التجارب لها دور عظيم في الوصول إلىٰ الحكمة، وإن مصاحبة العقلاء أيضًا لها دور عظيم في تحصيل الحكمة، فاعمل أنت أيها المسلم بدعاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يعطيك الحكمة، وكذلك أيضًا بالأسباب الأخرىٰ الحسِّية حتىٰ تصل إلىٰ مرادك»[1].

فمن أبرز سبل نيل أسلوب الحكمة هو سؤال الله تعالىٰ ذلك، فإن الله تعالىٰ يمنُّ علىٰ من دعاه بالإجابة، ومن ذلك إذا سأل الله تعالىٰ الحكمة، كما سألها النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ ابن عَبَّاسٍ، قال: ضَمَّنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ صَدْرِهِ،

---

(١) «أحكام من القرآن الكريم» (٢/ ٢٩٤-٢٩٥).

وقَالَ : « اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ »(١) فإذا منَّ الله تعالىٰ علىٰ الداعية بالحكمة كان ذلك جانباً ظاهراً في قوته العملية وحسن تصريف الأمور في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأنه استطاع أن يزن الأمور والحوادث ويضعها مواضعها .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الحكمة في الآية : « هي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها ، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، فكمال العبد متوقف علىٰ الحكمة ، إذ كماله بتكميل قوتيه العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به ، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر ، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره ، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك »(٢) .

ثالثاً : إذا أنزل الداعية الأمور منازلها ، وتبصَّر في مناسبة الحال والمقال ، مراعياً في ذلك المكان والزمان ، استطاع أن يُقدِّم دعوته لمدعوِّيه بما يناسب التذكير أو التحذير أو الترغيب كلٌّ بما يناسبه ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء :١٢٩] : « من فوائد الآية : أنه ينبغي للإنسان في خطابه أن يستعمل كل ما يكون فيه التنفير فيما ينفر منه ، أو الترغيب فيما يرغب فيه ؛ لأن هذا من أسلوب الحكمة ، لقوله : ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ »(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٦) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن »(١١٥) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢/ ٢٩٩) .

رابعًا: لقد كان العلماء الأوائل يستعملون أسلوب الحكمة في كثير من ميادين الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، للوصول إلىٰ قلب المدعو بما يناسبه، وإقناعه بالوصول إلىٰ الحق الذي جار عنه، قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكثر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتوىٰ الحموية» النقول عن العلماء من الأشاعرة، وغيرهم؛ وقال: «إنه ليس كل من نقلنا قوله فإننا نقول به؛ ولكن لما كان بعض الطوائف منتحلاً إلىٰ إمام أو مذهب، صار لو أُتي بكل آية ما تبعها حتىٰ يؤتىٰ بشيء من كلامهم» وهذا من الدعوة بالحكمة فإنه يقنع المعارض بما لا يمكنه نفيه ومعارضته إذا أتىٰ إليه بشيء من كلام مقلده لا يمكنه أن يحيد عنه ...»[1].

خامسًا: الداعية إلىٰ الله تعالىٰ لن يستطيع ترتيب أولويات الأسلوب وبماذا يبدأ وما يناسب حتىٰ يكون له نصيب من الحكمة، فبالحكمة يعرف مواضع اللين والشدة، والوعظ والنذارة والبشارة، وما يناسب الحال، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩]: «لو قال قائل: البشارة هل تكون وسيلة لتأليف قلوب أصحاب المنكرات، كأن يقال لهم: أبشروا أنتم علىٰ خير ونحو ذلك؟

الجواب: لكل مقام مقال، قد يكون من الحكمة أن لا تنفر الناس بذكر التخويف والوعيد، وقد يكون بالعكس، فمثلاً: إذا كنت تخاطب شخصًا معينًا منغمسًا في الآثام، فهنا ربما يكون جانب التخويف أفضل، لكن مع التخويف تقول له: يا أخي باب التوبة مفتوح، واذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، حيث ذكر أمهات العظائم، ومع

---

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ١٣٢) بتصرف.

ذلك قال : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، فلكل مقام مقال ، لا يمكن أن تذكر شيئاً معيناً »[١] .

ومن خلال المضامين الدعوية السابقة المناطة بأسلوب الحكمة يتضح أن الداعية إلىٰ الله تعالىٰ لن ينتهج الأسلوب الأمثل في الدعوة إلىٰ الله حتىٰ تكون الحكمة من أبرز الأساليب في دعوته إلىٰ الله تعالىٰ ؛ لئلا يقع مع مدعويه بما ينافي الدعوة إلىٰ الله ، فلابد أن يكون فاهماً ومدركاً لاختلاف أحوال مدعوِّيه ، وما يطرأ عليهم من المؤثرات النفسية كالغضب والرضا ، والإقبال والإدبار ، متأنياً في اتخاذه الأسلوب الأمثل ؛ لئلا يقع ضحية الاستعجال بوضع الشيء في غير موضعه المناسب ، ولابد أن تظهر الحكمة عليه في قوله وفعله وأخذه وردِّه وفي سائر شأنه مع مدعويه ، ويراوح بين الشدة واللين ، والوعظ بالنذارة والبشارة بما يتناسب مع المقام ؛ ليدرك في ذلك السير علىٰ نهج دعوة الإنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الحكمة ، والتي هي الطريقة المثلىٰ التي سار عليها النبي ﷺ والسلف الصالح من بعده ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن طريقة أهل السنة العملية واتباعهم للأثر ، قال : « (اتباع الآثار) : لا اتباع إلا بعلم ، إذاً ، فهم حريصون علىٰ طلب العلم ، ليعرفوا آثار الرسول ﷺ ثم يتبعونها فهم يتبعون آثار الرسول ﷺ في العقيدة والعبادة والأخلاق والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، يدعون عباد الله إلىٰ شريعة الله في كل مناسبة ، وكلما اقتضت الحكمة أن يدعوا إلىٰ الله ، دعوا إلىٰ الله ، ولكنهم لا يخبطون خبط عشواء ، وإنما يدعون بالحكمة ، يتبعون آثار الرسول ﷺ في الأخلاق الحميدة في معاملة الناس باللطف واللين ، وتنزيل كل إنسان منزلته ، يتبعونه أيضا في أخلاقه مع أهله ، فتجدهم يحرصون علىٰ أن يكونوا أحسن الناس لأهليهم »[٢] .

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٥١) ، و (٢ / ٤٨) .

(٢) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٨ / ٦٣٤) .



المطلب الثالث: أسلوب الموعظة الحسنة

بعدما أمر الله تعالىٰ بالدعوة إليه بالحكمة، عطف علىٰ ذلك أسلوبًا مهمًّا في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وهو أسلوب الموعظة الحسنة فقال تعالىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، لما للموعظة من أهمية عظيمة في الإسلام، فهي أسلوب يزيل عن النفس آثار الغفلة والبعد عن الله تعالىٰ، ويحملها علىٰ تحريك القلب بالخوف والرجاء، والزجر عن الأعمال المفضية للعقاب، والحث علىٰ ما فيه نيل للثواب، ولذا كانت آيات القرآن موعظة كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي تزكية نفوسكم بالوعد والوعيد، والإنذار والبشارة، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب، والتحريض علىٰ الأعمال الموجبة للثواب، لتعلموا علىٰ الخوف والرجاء »[١].

والموعظة لغة: الوعْظ والعِظةُ والعَظةُ والمَوْعِظةُ النُّصْح والتذْكير بالعَواقِب، قال ابن سيده: هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّن قلبَه من ثوابٍ وعِقاب، وفي التنزيل: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، لم يجئ بعلامة التأْنيث؛ لأنه غير حقيقي، أو لأن الموعِظة في معنىٰ الوعْظ حتىٰ كأنه قال فمن جاءه وعظ من ربه[٢]، وقالَ ابنُ فَارِسٍ: « الوعْظُ: هو التَّخْوِيفُ والإِنْذَارُ، وقَالَ الخلِيلُ: هو

---

(١) « محاسن التأويل » (٦/ ٣٥).

(٢) « لسان العرب » (٧/ ٤٦٦) مادة (وعظ).

التَّذْكِيرُ في الخَيْرِ بما يُرَقِّقُ القَلْبَ »(١) .

والموعظة اصطلاحـًا عرَّفها العلماء بعدة تعريفات متقاربة منها :

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والموعظة الحسنة : العبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه ، وذكرهم بها في تنزيله »(٢) ، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « هي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة »(٣) .

وقال الجرجاني : « الموعظة هي التي تلين القلوب القاسية ، وتدمع العيون الجامدة ، وتصلح الأعمال الفاسدة »(٤) ، وفي معنىٰ كونها حسنة ، قال الشوكاني : « هي المقالة المشتملة علىٰ الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها ، قيل : وهي الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة »(٥) .

والموعظة من أساليب الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، فقد انتهج الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ العديد من الأساليب في دعوة أقوامهم إلىٰ عبادة الله ، ومن هذه الأساليب أسلوب الموعظة الحسنة ، فهذا هود (يدعو قومه إلىٰ التقوىٰ وعبادة الله وحده ، ويحذرهم من الدنيا فيردون عليه بقولهم : ﴿قَالُوٓاْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء :١٣٦] .

وكذلك بين الله –جل شأنه– أنه كتب في الألواح لموسىٰ (كل ما يحتاج إليه العباد ،

---

(١) « تاج العروس » (٢٠ / ٢٩٠) ، مادة (وعظ) .

(٢) « جامع البيان » (١٤ / ٤٠٠) .

(٣) « مفتاح دار السعادة » (١ / ١٥٣) .

(٤) « التعريفات » (٢٣٦) .

(٥) « فتح القدير » (٣ / ٢٤٢) .

موعظة ترغِّب النفوس في أفعال الخير وترهِّبهم من أفعال الشر! قال تعالىٰ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وكذا نبينا محمد ﷺ استعمل أسلوب الموعظة في تبليغ الرسالة وتذكيره لأصحابه كما سيأتي.

والموعظة من أهم الأساليب الدعوية، وأكثرها تأثيراً لاسيما علىٰ أهل الإيمان؛ لأن غالب ما يعترضهم هو الغفلة والقسوة لا الجحود والعناد، فمناسبة أسلوب الوعظ لغفلتهم أكثر من غيره من الأساليب كما سيأتي بيانه.

- ومن أبرز المضامين الدعوية في أسلوب الموعظة:

أولاً: بيان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لفقه أسلوب الموعظة ومتىٰ يكون؟ قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للإنسان الواعظ للناس أن لا تكون موعظته بالترغيب دائماً أو بالترهيب دائماً؛ لأنه إن أدام الترغيب أوقعهم في الأمن من مكر الله، وإن أدام الترهيب أوقعهم في القنوط من رحمة الله، فالواعظ في الحقيقة كالطبيب، إن أعطىٰ جرعة زائدة هلك المريض، وإن نقص لم يبرأ المريض، لا بد أن الإنسان يراعي الأحوال، لا يقتصر علىٰ الترغيب دائماً ولا علىٰ الترهيب دائماً، وإذا قلنا بهذه القاعدة تَبَيَّنَ لنا أن من الناس من الأولىٰ في حقه الترغيب، ومن الناس من الأولىٰ في حقه الترهيب.

فإذا رأيت شخصاً مقبلاً علىٰ طاعة الله حريصاً عليها، فهنا نقول: الأولىٰ الترغيب، حتىٰ نحثه علىٰ الطاعة وتقدمها ونؤمله القبول، وإذا رأيت أحداً بالعكس متهاوناً بالطاعة، مصراً علىٰ المعصية، فهنا جانب الترهيب أولىٰ ومع ذلك نأمره بالتوبة ونرغبه في قبولها»[1].

وهذا الفقه من الأهمية بمكان، فكثير ممن لا يُحسن الوعظ يديم جانب

---

(١) «تفسير سورة المائدة» (٢/ ٢٩٥).

الرجاء في مواعظه حتىٰ يظن المدعو أن ما عمله من الذنوب هيِّنًا ، أو يُغَلِّب جانب الخوف في وعظه حتىٰ يظن المدعو أنْ قد هلك فيقنط من رحمة الله تعالىٰ ، والفهم الصحيح أن يراعي الداعية حال المدعو في مواعظه هل هو في حال إقبالٍ وندمٍ فيرغِّبَه أو إدبار وإعراض فيُرَهِّبَه مع المراوحة بين الحالين .

ثانيًا : من فقه الموعظة أن يعلم الداعية أن الموعظة ليست خاصة بحال الترغيب والترهيب فحسب ، بل الأوامر والنواهي داخلة في ذلك ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء :٦٦] :

« من فوائد الآية : أن الأحكام الشرعية مواعظ ، ولهذا سمىٰ الله القرآن موعظة ، فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، [يونس : ٥٧] ، ووجه كون الأوامر والنواهي موعظة : أن الإنسان يتعظ بها فيمتثل الأمر ويجتنب النهي ، وكثير من الناس لا يفهم من كلمة موعظة إلا ما كان مقرونًا بالترغيب أو الترهيب ، وهذا ليس بشرط »(١) .

ثالثًا : الوعظ كما أنه يقع في الأمر والنهي وتعليم أوامر الدين ، فهو يقع في مساق الترغيب والترهيب كما هو معلوم ، والوعظ بالتخويف أيضًا أسلوب وعظي قرآني ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة :٢٨٢] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : قرن المواعظ بالتخويف ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة :٢٠٣] ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيحشر إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، وأنه سيجازيه فإنه سوف يتقي الله ، ويقوم بما أوجب الله ، ويترك ما نهىٰ الله عنه ؛

---

(١) « تفسير سورة النساء » (١/ ٤٩٢) .

وبهذا عرفنا الحكمة من كون الله عَزَّوَجَلَّ يقرن الإيمان باليوم الآخر في كثير من الآيات بالإيمان بالله دون بقية الأركان التي يؤمن بها ؛ وذلك ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل لذلك اليوم ؛ وهو القيام بطاعة الله ورسوله »[(١)] .

وتحصَّل مما سبق : إن الوعظ ينقسم إلىٰ قسمين :

١- وعظ التعليم : ويكون ببيان عقائد التوحيد ، وبيان الأحكام الشرعية الخمسة : من الواجب ، والحرام ، والمسنون ، والمكروه ، والمباح ، مع مراعاة أحوال الناس ، ويسوق الداعية ذلك مساق الوعظ الذي يلين القلوب ، ويبعثها علىٰ العمل ، لا سرداً مملاً خالياً من التأثير .

٢- وعظ التأديب : ويكون بتحديد الأخلاق الحسنة ، وبيان آثارها ومنافعها في المجتمع ، والحث علىٰ التخلق بها ، والتزامها ، وتحديد الأخلاق السيئة ، والتحذير عن الاتصاف بها عن طريق : الترغيب والترهيب .

مستشهداً في وعظه بالكتاب وصحيح السنة ، وآثار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[(٢)] .

رابعـًا : يُقسِّم الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الموعظة إلىٰ قسمين باعتبار آخر- مبيِّناً مَن الذي ينتفع بالموعظة ، وذلك في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة :٦٦] ، حيث قال :

« من فوائد الآية : أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون .

- ومنها : أن المواعظ قسمان : كونية ، وشرعية ؛ فالموعظة هنا كونية قدرية ؛

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٤٤١) .

(٢) انظر : « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٢٦٦ ، ٤٦٢) و« تيسير الكريم الرحمن »(١ / ٢٧٨) (٢ / ٣٥) و« هداية المرشدين » لعلي محفوظ(١٤٣) ، و« فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري » للقحطاني (١ / ١٠٥١) .

لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالاً لما بين يديها ، وما خلفها ، وموعظة للمتقين ، وأما الشرعية فمثل قوله تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس : ٥٧] ؛ والمواعظ الكونية أشد تأثيراً لأصحاب القلوب القاسية ، أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيراً في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم ؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات .

– ومنها : أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون ؛ وأما غير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية ، ولا بالمواعظ الشرعية ؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضطراراً ، وإكراهـاً ، وقد لا ينتفع ، وقد يقول : هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عادية ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور : ٤٤] ؛ وقد ينتفع ، ويرجع إلىٰ الله تعالىٰ ، كما قال تعالىٰ : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان : ٣٢] »(١) .

خامساً : أهمية الوعظ في التذكر وإيقاظ القلوب من غفلتها ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص :٤٦] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية : « معلوم أن النذر توجب حياة القلوب والانتباه ؛ ولهذا تجد الإنسان نفسه إذا لم يأته واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة ، فإذا أتاه واعظ فكأنما أيقظه من النوم ، هؤلاء لما تطاول عليهم الأمد ولم يأتهم نذير ، غفلوا وكأنهم ما خلقوا لعبادة

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٣٢-٢٣٣) .

الله ، وجعلوا لهم أصناماً يعبدونها من دون الله ، ويركعون لها ، ويسجدون وينذرون ويوفون ، فهم غافلون لعدم من يوقظهم »[١] .

فلا يمكن أن ينتفع بالوعظ إلا من كان ، حاضر القلب ، سليم النفس ، له قلب يتذكر ويتفكر ، وعقل يتأمل ويتدبر ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق :٣٧] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي ما سبق من الآيات العظيمة ومنها ما قص الله تعالىٰ في هذه الآيات الكريمة من إهلاك الأمم السابقة ، فيه ذكرىٰ لنوعين من الناس : الأول ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي : من كان له لب وعقل يهتدي به بالتدبر والثاني : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي استمع إلىٰ غيره ممن يعظه وهو حاضر القلب فبين الله تعالىٰ أن الذكرىٰ تكون لصنفين من الناس :

الأول : من له عقل ووعي يتدبر ويتأمل بنفسه ويعرف ، والثاني : من يستمع إلىٰ غيره ، ولكن بشرط أن يكون شهيداً أي حاضر القلب ، وأما من كان لا يستمع للموعظة ، أو يستمع بغير قلب حاضر ، أو ليس له عقل يتدبر به ، فإنه لا ينتفع بهذه الذكرىٰ ، لأنه غافل ميت القلب »[٢] .

سادسًا : يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حاثًّا الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ ببذلل النفس في ميدان الدعوة ومرشداً إلىٰ الفقه المطلوب في طرح أسلوب الموعظة الحسنة : « وأما بعلمه فأن يبذل علمه لعباد الله ، تعليما في الحلقات والمجالس العامة والخاصة ، حتىٰ لو كنت في مجلس قهوة ، فإن من الخير والإحسان أن تعلم الناس ، ولو كنت في مجلس عام فمن الخير أن تعلم الناس ، ولكن

---

(١) « تفسير سورة يس » (٢١) .

(٢) « تفسير سورة ق » (١٠٩) .

استعمل الحكمة في هذا الباب ، فلا تثقل علىٰ الناس حيث كلما جلست مجلساً جعلت تعظهم وتتحدث إليهم ؛ لأن النبي ﷺ كان يتخولهم بالموعظة ، ولا يكثر ؛ لأن النفوس تسأم وتمل فإذا ملّت كلّت وضعفت ، وربما تكره الخير لكثرة من يقوم ويتكلم »[١] .

ومن خلال المضامين السابقة يستشعر الداعية أهمية أسلوب الوعظ في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وأن من فقه الوعظ أن ينوِّع الداعية في دعوته بين الترغيب والترهيب وفي الأمر والنهي ، ومعرفة من يناسبه أسلوب الوعظ ويتذكر به ، ويسمو بالقلب عن مواطن الغفلة ، مراعياً في ذلك القدر المناسب في الوعظ ، فكثرة الوعظ تُخِلُّ بالمقصود وتُقَلِّل فائدته ؛ لما يورثه من السآمة والملل ، عَنِ ابن مَسْعُودٍ ، قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ « يَتَخَوَّلُنَا بالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا »[٢] ، كما أن جفاف الميدان الدعوي من أسلوب الموعظة الحسنة يُحدِث خللاً ظاهراً ، ومكاناً شاغرا في الخطاب الدعوي ؛ لما للموعظة الحسنة من أثر كبير في النفوس ، فهو أسلوب يحمل المضمون الدعوي بطابعه الخاص في محاكاة القلوب وإقبالها علىٰ الله تعالىٰ ، « فالمواعظ سياط القلوب ؛ لاشتمالها علىٰ القول الحق الذي يُلَيِّن القلوب ، ويؤثِّر في النفوس ، ويَكْبَحُ جِمَاح النفوس المتمرِّدة ، ويزيدُ النفوس المهذَّبة إيمانا وهداية ، ومن تأمل آثار الموعظة عَلِم حقاً حاجة النفوس لها »[٣] ، أما القلوب التي لم تقارعها المواعظ ستبقىٰ غافلة ، بعيدة عن ذكر الله تعالىٰ .

---

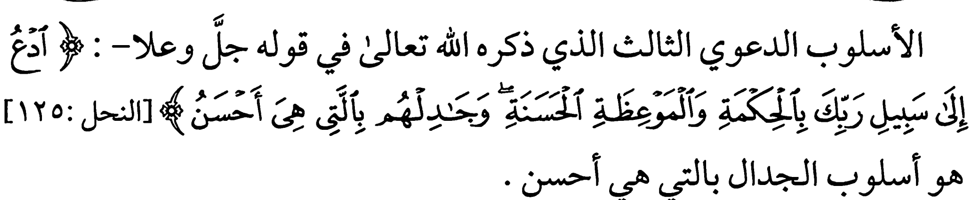
(١) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٣/ ٢١٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٨) ، ومسلم (٢٨٢١) .

(٣) انظر : « مجموع الفتاوىٰ » لابن تيمية (١٩ / ١٦٤) و« مفتاح دار السعادة » لابن القيم (١/ ٤٧٤) .

والداعية إلىٰ الله تعالىٰ يعلم يقيناً أهمية أسلوب الموعظة الحسنة في إقبال القلوب المؤمنة وإيقاظها من غفلاتها ، فيعطي هذا الأسلوب الدعوي حقَّه من الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ بالفقه المطلوب عند طرحه في الميدان الدعوي ، بلا إخلال ولا إملال ، ومستزيداً من المضامين الدعوية لأسلوب الموعظة الواردة في نصوص الكتاب والسنة .





المطلب الرابع : الجدال بالتي هي أحسن

الأسلوب الدعوي الثالث الذي ذكره الله تعالىٰ في قوله جلَّ وعلا- : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل :١٢٥] هو أسلوب الجدال بالتي هي أحسن .

ويُعد الجدل أمراً فطرياً جُبل عليه الإنسان ، قال تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ [الكهف :٥٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة :١] ، والأمر الفطري أيًّا كان- لا يكون محموداً إلا إذا أحسن الإنسان استعماله ، ومن ذلك الجدل في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، فقد أمر الله باستخدامه في الدعوة وقد ظهر ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل :١٢٥] ، وقال جل شأنه : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت :٤٦] ، وأمر الله تعالىٰ بالجدال بالتي هي أحسن فيه دلالة واضحة علىٰ أهميته وأثره في حقل الدعوة إلىٰ الله ، ولقد استعمل الأنبياء والرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أسلوب الجدل في دعوتهم ، ومن ذلك قول قوم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود :٣٢] ، وفي إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة :٢٥٨] ، وأي أسلوب يستعمله الأنبياء والرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يُعد من الأساليب المهمة ، واهتم النبي ﷺ والصحابة من بعدهم والتابعين لهم بإحسان بهذا الأسلوب الدعوي ، وما نقل عن بعض السلف من ذم الجدل ، فهو محمول علىٰ الجدل المذموم والمماراة والمحاجة الباطلة أو ما لا فائدة فيها .

والجدل في اللغة : هو اللدد في الخصومة والقدرة عليها ، والجدال : مقابلة

الحجة بالحجة ، ورجل جدل إذا كان قوي في الخصام ، وجادل مجادلة وجدالا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب هذا أصله ثم استعمل علىٰ لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود إن كان للوقوف علىٰ الحق وإلا فمذموم(١) .

وذكر العلماء عدة تعريفات متقاربة للمجادلة في الاصطلاح ومن ذلك :

قال الراغب الأصفهاني : « هي المفاوضة علىٰ سبيل المنازعة والمغالبة »(٢) .

وقال الجرجاني : « دفع المرء خصمه عن إفساد قوله : بحجة ، أو شبهة ، أو يقصد به تصحيح كلامه ، وهو الخصومة في الحقيقة »(٣) .

وقال الكفوي : « هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة ، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره والنظر قد يتم به وحده »(٤) .

والمجادلة بالتي هي أحسن أسلوب دعوي استعمله الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ كما تقدَّم- واستعمله النبي ﷺ ، ومن ذلك : ما جاء في الصحيحين ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّهُ قال : بَيْنَا نَحْنُ فِي المَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : « انْطَلِقُوا إِلَىٰ يَهُودَ » ، فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّىٰ جِئْنَاهُمْ ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَنَادَاهُمْ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا » ، فَقَالُوا : قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا القَاسِمِ ، فَقَالَ لَهُمْ

---

(١) انظر : « مختار الصحاح » (٥٥) و« لسان العرب » (١١/ ١٠٣) ، و« المصباح المنير » (١/ ٩٣) ، و« تاج العروس » (٢٨/ ١٩٤) و« المعجم الوسيط » (١/ ١١١) و« النهاية في غريب الحديث » (١/ ٢٤٧) ، مادة (جدل) .

(٢) « المفردات في غريب القرآن » (١٨٩) .

(٣) « التعريفات » (٧٤) .

(٤) « الكليات » (٣٥٣)

رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ذَلِكَ أُرِيدُ ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا » ، فَقَالُوا : قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا القَاسِمِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ذَلِكَ أُرِيدُ » ، فَقَالَ لَهُمُ الثَّالِثَةَ : فَقَالَ : « اعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ لِلَّهِ ورَسُولِهِ ، وأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ ، فَمَنْ وجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ ، وإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ ورَسُولِهِ »(١) .

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « بلغ اليهود ودعاهم إلىٰ الإسلام والاعتصام به فقالوا بلغت ولم يذعنوا لطاعته فبالغ في تبليغهم وكرره وهذه مجادلة بالتي هي أحسن »(٢) ، وهذا يدل علىٰ أهمية المجادلة بالتي هي أحسن ، ولما كان اليهود قوم أوتوا من العناد والاستكبار والإعراض عن الحق ناسبهم أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن ، ومثل هذا الصنف من المدعوِّين كالمبتدعة وغيرهم ممن اتصفوا بالعناد أو الإعراض عن منهج الحق ، يناسبه استعمال أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن أكثر من غيره من الأساليب بخلاف غير المعاند فيناسبه غيره .

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل :١٢٥] : « جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمتسجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه ، يُدْعَىٰ بطريق الحكمة ، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر ، يُدْعَىٰ بالموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاندُ الجاحد يجادل بالتي هي أحسن »(٣) .

- ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بأسلوب الجدال بالتي هي أحسن :

أولاً : بيان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية المجادلة بالحُسنىٰ وحثّه علىٰ تعلُّم طرق

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٤) ، ومسلم (١٧٦٥) .

(٢) « فتح الباري » لابن حجر (١٣ / ٣١٥) .

(٣) « مفتاح دار السعادة »(١ / ١٥٣) ، وانظر : « التفسير القيِّم » لابن القيم (٣٥٩) .

الجدال، وأنها من مقامات الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فقال عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥]:

«من فوائد الآية: أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق الجدال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾، فتعلَّم يا أخي طرق الجدل، من أجل أن تجادل بها لنصرة الحق»[1].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة:٢٥٨]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: أن المحاجة لإبطال الباطل، ولإحقاق الحق من مقامات الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة:٢٥٨].

- ومنها: الإشارة إلىٰ أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة، والمحاجة؛ لأنها سُلَّم، ووسيلة لإحقاق الحق، وإبطال الباطل؛ ومن طالع كتب شيخ الإسلام ونحوها تعلَّم المناظرة ولو لم يدرسها فناً»[2].

والجدال لا يكون إسلوباً دعوياً مؤثراً ومطلوباً في الميدان الدعوي حتىٰ يكون بالحسنىٰ كما تقدَّم- أما إذا لم يكن كذلك فهو مذمومٌ لا يراد مطلقاً، فضلاً علىٰ أن يكون أسلوبا دعويا.

ثانياً: ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقسام الجدال وحكم كل قسم منوِّهاً بالجدال المحمود ومحذراً من الجدال المذموم، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧]،

---

(١) «تفسير سورة الأنعام» (١٣٨).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٣/ ٢٨١).

حيث قال : « لولا الجدال مع أهل الباطل ما تبيَّن الحق ، ولا اندحض الباطل ، فلابد للإنسان من الجدال في إثبات الحق ، وإبطال الباطل ، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم .

ومن هنا يمكن أن نقسم الجدال إلىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأول : جدال محمود ، مأمور به : إما وجوبـًا ، أو استحبابـًا .

القسم الثاني : جدال مذموم ، منهي عنه .

القسم الثالث : جدال بين بين .

أما الجدال الممدوح فهو الذي يقصد به إثبات الحق ، وإبطال الباطل ، وهذا مأمور به ، وهو كالجهاد في سبيل الله ، فكما أن المجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضد عدوه ويقاتله ، فطالب العلم مأمور بأن يحمل سلاح العلم ، وهو المجادلة بالحق ليدحض به الباطل .

والقسم الثاني : بالعكس وهذا مذموم منهي عنه ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورىٰ :١٦] .

والقسم الثالث : بين بين ، يعني لا يأمر به[1] ، ولا ينهىٰ عنه ، لكن لاشك أن تركه أولىٰ ، وهو الجدال في أمور لا تمس إلىٰ الحق أو الباطل بصلة ، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات ، فهذا لاشك أنه لا خير فيه ، وأنه

---

(١) هكذا في الطبعة علىٰ البناء للمعلوم ، والأظهر والله أعلم أنها للبناء للمجهول : (لا يؤمر به) بدليل ما بعدها .

من المراء الذي ينبغي للإنسان تجنبه »(١) .

وعلىٰ الداعية التفطُّن لفقه هذا الأسلوب الدعوي والتفرقة بين ما كان محموداً فيُمْتَثل ، وما كان مذموماً فيُجتنب ؛ لأن الجدال المذموم يورث الشحناء ، ويهدر الأوقات ، ولا يف بالمقصود ، بل قد يكون وبالاً علىٰ الداعية بذمِّ طريقته في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، ولقد ابتلي واقع المسلمين اليوم بشيء ظاهر من الجدال المذموم حتىٰ في الأوساط الدعوية ، فما كان من نتاجه إلا تشتت الجهود ، وتفرُّق القلوب ، وتدابر الأبدان ، وضعف الأعمال ، وتبدد الطاقات الفاعلة في المجتمع بسبب جدال مذموم ربما علىٰ جزئية يسيرة حضر

---

(١) « تفسير سورة يس (٢٩٠-٢٩١) ، والنهي عن الجدال في النصوص يُحمَل علىٰ الجدال المذموم ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة :١٩٧] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : تحريم الجدال ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ ؛ والجدال إن كان لإثبات الحق ، أو لإبطال الباطل فإنه واجب ، وعلىٰ هذا فيكون مستثنًىٰ من هذا العموم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] ؛ وأما الجدال لغير هذا الغرض فإنه محرم حال الإحرام ؛ فإن قلت : أليس محرماً في هذا ، وفي غيره لما يترتب عليه من العداوة ، والبغضاء ، وتشويش الفكر؟
فالجواب : أنه في حال الإحرام أوكد » . « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٤١٨) .
قال أبو الفرج الحنبلي : « اعلم أن الله سبحانه ذكر لفظة الجدل وما تصرف منها في كتابه العزيز في تسعة وعشرين موضعاً ولفظه الحجة وما تصرف منها في سبعة وعشرين موضعاً ولفظة السلطان أيضاً في ثلاثةٍ وثلاثين موضعاً الجميع المراد به الحجةُ سوىٰ موضعٍ واحدٍ في الحاقة : ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة :٢٩] وقيل : المراد به الحجة ، فأما الجدلُ فهو مذمومٌ في كل موضعٍ ذكر إلا في ثلاثة مواضع : أحدها : في النحلِ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل :١٢٥] ، الموضعُ الثاني : في العنكبوتِ : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت :٤٦] ، الموضعُ الثالث : في المجادلةِ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة :١] » . « استخراج الجدال من القرآن الكريم » لناصح الدين ابن الحنبلي (٤٩ ٥٢) .

فيها الشيطان فكان له نصيب هذا النتاج .

ثالثـًا : بيَّن الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مضامين أسلوب المجادلة بالحسنىٰ آدابـًا وتوجيهات نافعة يحسن بالداعية أن يراعيها عند امتثاله لأسلوب الجدال بالتي هي أحسن ومنها :

- أنه ينبغي لمن يستعمل أسلوب المجادلة ألا يجادل إلا بعد أن يتمكن من العلم الذي سيخوض فيه ؛ لئلا يؤتىٰ الإسلام من قِبَله ، ويظهر ضعف الحجة لعدم تمكنه من العلم ، وهذا التنبيه من أهم ما ينبغي أن يراعيه الداعية ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران :٦٦] : « من فوائد الآية : ذم المحاجة بغير علم ؛ لقوله : ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ وما أكثر هذا الواقع المؤسف المر في زمننا هذا ، كثير من الناس اليوم يحاجون فيما ليس لهم به علم ، بل بما تقتضيه عقولهم القاصرة ، فيقول مثلاً : لم صار كذا؟ ولم صار كذا؟ لماذا كان هذا حرامـًا وكان هذا حلالاً؟ لماذا كان هذا واجبـًا وكان هذا غير واجب؟ وما أشبه ذلك ، فيحاجون فيما ليس لهم به علم . وكثير من العامة الذين عندهم لَسَن وبيان ، وإن من البيان لسحراً- يجادل طالب العلم في أمر لا يعلمه هو ، بل مجرد مجادلة ومراء »[1] .

- أنه ينبغي لمن يستعمل أسلوب المجادلة أن يعرف جميع حجج الخصم وشبهه ؛ لكي يستحضر الرد عليها بما يناسب ، وذلك عند تفسيره قوله تعالىٰ : ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة :١٥٠] ، قال

---

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٣٨٣-٣٨٤) .

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أن أهل الباطل يحاجون في الحق لإبطاله ؛ ولكن حججهم باطلة .

ويتفرع علىٰ هذه الفائدة : أنه ينبغي للإنسان أن يعرف شبه المخالفين التي يدعونها حججاً لِيَنْقَضَّ عليهم منها ، فيبطلها ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] »(١) .

وتمكُّن الداعية من العلم ، وتبصُّره بحجج الخصم ومداخله من شأنه أن يعطي أسلوبه الدعوي قوة في الدعوة بإظهار الحق وانتصاره ، وإزهاق الباطل واندفاعه ، وكم جرَّت بعض المناظرات مع أهل الباطل والتي يكون فيها المناظِر المنسوب لأهل الحق فاقداً لأهلية الجدال من ويلات وإضعافٍ ، وإظهار للحق بمظهر الباطل ، فكان الداعية فاقد التأهيل العلمي فتنةً لأهل الحق بورود الشبه عليهم ، وفتنة لأهل الباطل بثباتهم علىٰ باطلهم ظنّـًا منهم أنهم علىٰ حق ، وعليه فليتق الله من ينتصب للجدال لاسيما المبثوث عبر وسائل الإعلام العصرية–أن يؤتَىٰ الإسلام من قِبَله .

– استعمال العدل مع المُجَادِل ، والتنزُّل معه لإلزامه بالحُجَّة الدامغة ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد هذه الآية :

– التنزُّل مع الخصم لإلزامه بالحق ، كيف ذلك؟ لأنه قال : ﴿ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ، والحق بلا شك مع الرسول ﷺ ، لكن من أجل إلزام الخصم وإقامة

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٥٨) .

الحجة عليه تنازل معه .

– ومنها : وجوب استعمال العدل في المناظرة حتىٰ مع العدو ؛ لأن الرسول أمر بأن يعلن هذا ، وإذا كان هذا واجبًا في مناظرة المسلمين مع الكفار ، فهو في مناظرة المسلمين بعضهم مع بعض أوجب وأوكد ، ولهذا نقول : من الخطأ العظيم أن بعض الناس إذا رأىٰ رأيًا قال عما سواه : خطأ ، وخطّأ غيره ، هو قد يكون خطأ باعتبار اعتقاده لا ننكر عليه ، لأنه من المعلوم إذا اختار ضده فهو عندهم خطأ ولا ينكر عليه ، لكن الإنكار أن يُخَطِّئ من قال به ، وهذا فرق دقيق ، فرق بين أن أعتقد أن هذا القول خطأ ولا آخذ به ، وبين أن أخطّئ من قال به ؛ لأني إذا خطّأته ادعيت العصمة لي والزلل له وهذا خطأ ، ولهذا يجب في المناظرة بين المسلمين كما يجب في المناظرة بين المسلمين والكفار أن تكون بالعدل ، ومن المعلوم أن الميزان العدل في ذلك كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، لكن المشكل أنه ليس كل أحد يفهم الكتاب والسنة كما ينبغي ، يعني من الناس من يكون ظاهريًا محضًا لا ينظر إلىٰ مقاصد الشريعة ومعانيها العظيمة التي يقصد بها إصلاح الخلق »[1] .

والعدل والإنصاف الإتيان به واجب مع كل أحد كائنًا مَنْ كان ، وإذا استحضر الداعية عوائد عدله وإنصافه واحترامه للخصم كان ذلك مرغِّبًا لامتثال دعوته ، فاستعمال ذلك أدعىٰ لاستجابة الخصم وأكثر تأليفًا لقلبه ، وميله للحق المطلوب .

– البدء بأول وأهم ما يحتجُّ به الخصم ؛ لإنه إن ضعف في هذه كان لما بعدها أضعف ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

---

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٣٧٠) .

مَرْيَمَ ۗ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة :١٧] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أنه عند المناظرة ينبغي بأن تبدأ بأول مَنْ يحتج به المناظر ، وأنه على خلاف ما ناظر عليه ، وجهه : أن الله بدأ بذكر إهلاك المسيح وأمه الذي يعتقد هؤلاء أنه إلهـًا »(١) .

وإن كان لحجته حكمـًا بُدِئَ به ثم يطالب بالحجة والبرهان على هذه النتيجة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة :١١١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية وأحكامها : أن يُقَدِّم المناظِرُ الحكم على قول مناظره ، ثم يطلب منه الحُجَّة على إثباته ؛ ولهذا قال : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ ، ونظير ذلك أن يقول قائل : هذا واجب لابُدَّ من فعله ، فأقول : هذا قولك فهات دليلك إن كانت صادقـًا ، فيُثْبِت المناظِر أولاً أن هذا قول المناظر ، وأن هذا ليس له أصل ، ثم يتحداه بطلب الدليل .

- ومن فوائدها وأحكامها : قوة المحاجَّة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ التي تدحض الخصم وتُفْحِمُه ؛ ولهذا قال : ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ ، ومن المعلوم أنه لا برهان لهم في ذلك ، فإن دخول الجنة ليس معلَّقـًا باليهودية أو النصرانية ، بل هو مُعَلَّقٌ بما ذكره الله تعالى فيما بعد .

- ومن فوائد الآية وأحكامها : الإنصاف في معاملة الخصم ، وإلا فإنه يكفي أن يقول الله عَزَّوَجَلَّ : هذا باطل ، ولكنه سبحانه وتعالى- حكم عدل ، فطلب من

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٣٤) ، وانظر : « تفسير سورة يس » (٢٩٧) .

هؤلاء المدَّعيْن أن يأتوا بالحجة والبرهان »[1] .

– ذكر الحجَّة الظاهرة البيِّنة للخصم دون الحجج التي ربما يجد له فيها مدخلا ، عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة :٢٥٨] .

« من فوائد الآية : أنه ينبغي للمناضل المجادل أن لا يذكر مِنَ الحُجج ما يمكن للخصم أن يدَّعي مثله أو أن يميل يميناً وشمالاً ، وإن ذكر ذلك فليذكر ما لا يمكن أن يدَّعيه الخصم ، ووجه ذلك أن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَدَل عن مناضلة هذا الرجل بالطرق الخفيَّة إلىٰ مناظرته بالطرق الجليَّة ...

– من فوائد الآية : أنه ينبغي للمجادل المُحَاجِّ أن يأتي بالضربة القاصمة التي لا مجال ولا محاولة للتخلُّص منها ؛ لأنه لما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة :٢٥٨] بُهِتَ الذي كفر ، ما استطاع الرد »[2] .

وقال عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران :٩٣] :

« من فوائد الآية : أنه ينبغي للإنسان أن يتحدَّىٰ خصمه بما تَبِينُ به الحجة علىٰ وجه لا مفر له منه ؛ لقوله : ﴿ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ ، وهكذا ينبغي في المناظرة أن الإنسان لا يأتي بحجة واهية ؛ لأنه إذا أتىٰ بحجة واهية ، ثم كسِّرت

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٩٧-٢٩٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٦٤-٢٦٥) وانظر : « تفسير سورة ص » (١١٦) .

أمامه ضعفت عزيمته وبان خلله ، وإذا أتىٰ بحجة لا يمكن أن يلحقها نقص ، صار هذا أقوىٰ لعزيمته وأنكىٰ لخصمه ، أرأيت محاجة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للذي حاجه في ربِّه ، قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، فقال المحاج الخصم : ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة : ٢٥] ، لكن هل هذه دعوىٰ أو منزلة علىٰ شيء معيَّن؟ فيها خلاف ، بعضهم قال : إنها دعوىٰ وهو كاذب ، لكن فيها إيهام ، وبعضهم قال : إنها منزَّلة علىٰ شيء معين ، وأن قوله : ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ﴾ يعني أُوتىٰ بالرجل يستحق القتل ، فأرفع القتل عنه فيكون في هذا إحياء ، ﴿وَأُمِيتُ﴾ يعني أُوتىٰ بالشخص البريء فآمر بقتله ويقتل .

لكن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يجادله مجادلة تحتاج إلىٰ طول منازعة ، قال له : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، أي : انقطع ، لأنه عاجز عن أن يدَّعي الإتيان بقمر أو بنجم . وهكذا ينبغي أن تكون المخاصمة بحجة دافعة بعيدة عن الأشياء المشتبهة »[1] .

ولأن المراد من استعمال أسلوب الجدال بالتي هي أحسن هو دعوة هذا الخصم للحق ، وسلوك أقرب الطرق لاستجابته وذلك بالبدء بما لا مفر عنه وإقناعه بباطله هو المراد ، ولذا كان هذا الأدب من أهم مما يُبدأ به ، لاسيما إذا استحضرنا أن طول المناظرة في الغالب تشتت المقصود وتجعله صاحب الباطل يتمسك بباطله أكثر ؛ لأنه وجد في طول المناظرة ما يتشبث به ويزينه له الشيطان بأنه حجة صالحة لثباته علىٰ باطله .

- حسن القصد والإخلاص في الجدال من أجل إظهار الحق لا من أجل انتصار النفس ، عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٥٣٩) ، وانظر : « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٣٧) .

﴿ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من فوائد الآية: الإشارة إلىٰ ذم الجدل، والخصام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾؛ لأن الخصومات في الغالب لا يكون فيها بركة؛ وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «أبغض الرجال إلىٰ الله الألد الخصم»[1]، أي الإنسان المخاصم المجادل بالباطل ليدحض به الحق؛ وما من إنسان في الغالب أعطي الجدل إلا حرم بركة العلم؛ لأن غالب من أوتي الجدل يريد بذلك نصرة قوله فقط؛ وبذلك يحرم بركة العلم؛ أما من أراد الحق فإن الحق سهل قريب لا يحتاج إلىٰ مجادلات كبيرة؛ لأنه واضح، ولذلك تجد أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة لا خير فيها، وتجد أنهم يخاصمون، ويجادلون، وينتهون إلىٰ لا شيء، لا ينتهون إلىٰ الحق؛ لأنهم لم يقصدوا إلا أن ينصروا ما هم عليه، فكل إنسان جادل من أجل أن ينتصر قوله فإن الغالب أنه لا يوفق، ولا يجد بركة العلم، وأما من جادل ليصل إلىٰ العلم، ولإثبات الحق، وإبطال الباطل فإن هذا مأمور به؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]»[2].

ومن خلال المضامين السابقة اتضحت أهمية أسلوب الجدال بالتي هي أحسن في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، لاسيما وأن المناوئين لدعوة الحق، والعاملين علىٰ تشويهها من الأعداء كثير منذ البعثة إلىٰ يومنا هذا- وهذه سنة الله تعالىٰ في الحياة، ولا أظهر أسلوباً وأقوىٰ حضوراً من أسلوب الجدال بالتي هي

---

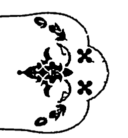
(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ٤٤٤-٤٤٥).

أحسن مع هؤلاء ، فلابد من تعلُّم طرق الجدال ؛ استنانـاً بالرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ ، ويُستفاد من المضامين المتقدِّمة أهمية التفريق بين الجدال المحمود المطلوب في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وبين الجدال المذموم الذي حذَّرت النصوص من استعماله ، ومن الآداب والتوجيهات المستفادة مما سبق : أهمية التمكُّن العلمي لمن يتولىٰ مناظرة الخصوم ؛ ليكون مُلمَّـاً بالحق وكيفية ردّ حجج الخصم ، حاضرَ البديهة لما يُعرض عليه من الشبهات ، بصيراً ببراهين الألداء وتفنيدها ، بادئـاً بالأهم فالأهم ، مستهدفـاً حجَّة الخصم الكبرىٰ ليفلقها فيوهن ما بعدها ؛ لتتهاوىٰ براهين الباطل ، مع استحضاره الإخلاص في مجادلته وطلب الحق والانتصار له ، لا الانتصار للنفس والهوىٰ ، مستعملاً العدل مع الخصم ؛ ليكون ذلك أدعىٰ لاستجابته ورجوعه إلىٰ الحق .

وأسلوب الجدال بالتي هي أحسن من أكثر الأساليب التي تحتاج إلىٰ مهارةٍ وتعلُّمٍ لطرقه وما يتعلَّق به ، مما يستوجب علىٰ الداعاة العناية به ، والنظر في مضامينه الدعوية في الكتاب والسنة وتقوية الحجة بهما في دعوة المعارضين .





المطلب الخامس : أسلوب الترغيب والترهيب



الترغيب في اللغة : « من رَغِبَ يَرْغَبُ رَغْبة إِذا حَرَصَ عَلَىٰ الشيءِ ، وطَمِعَ فِيهِ . والرَّغْبة : السُّؤالُ والطَّمَع »[١] ، والترهيب لغة : رَهْبَةً ورُهْباً ، بالضم وبالفتحِ وبالتحريكِ ، ورُهْباناً ، بالضم ويُحَرَّكُ : خافَ[٢] ، ورَهِبَ الشيء رَهْباً ورَهَباً ورَهَبةً : خافه[٣] .

والمقصود بأسلوب الترغيب : هو استعمال كل ما يحمل النفس علىٰ الاستجابة وقبول الحق والسعي إليه والثبات ؛ لنيل مرضاة الله تعالىٰ وثوابه في الآخرة ، وأما أسلوب الترهيب فهو التخويف من غضب الله تعالىٰ وبطشه وعذابه في الآخرة ، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الإنذار يقول العلماء : هو الإعلام المقرون بالتخويف ، والبشارة هي : الإعلام المقرون بما يفرح ويسر ، فالبشارة بالسارِّ ، والإنذار بخلافه »[٤] .

وأسلوب الترغيب والترهيب من أهم الأساليب الدعوية في تاريخ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ مرِّ العصور ، كما سيتضح ذلك من خلال المضامين الدعوية المتعلِّقة بهذا الأسلوب ، فهو من أساليب تبليغ الرسالات ، استعمله الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم ، وتذكيرهم لأقوامهم بما هم عليه من نِعَم الله تعالىٰ التي ترغِّبهم بطاعته وتوحيده ، وعبادته حق العبادة ، محذِّرين

---

(١) « لسان العرب » (١ / ٤٢٢) ، مادة (رغب) .

(٢) « القاموس المحيط » (ص : ٩٢) ، مادة (رهب) .

(٣) « لسان العرب » (١ / ٤٣٦) ، مادة (رهب) .

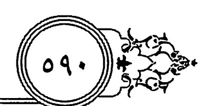
(٤) « تفسير سورة الصافات » (٣٦٥) ، وانظر : « أصول الدعوة » (٤٣٧) .

أقوامهم إن امتنعوا من الاستجابة للدعوة وكفروا بالله تعالىٰ أن يَحِلَّ بهم عذاب الله تعالىٰ، ومن ذلك قول الله تعالىٰ عن هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٥]، وقال تعالىٰ عن صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالىٰ آمراً نبيَّه محمد ﷺ بالردِّ علىٰ المكذبين المعاندين ومبيِّناً وظيفة البشارة والنذارة التي بُعث بها: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، والنصوص الدالة علىٰ استعمال جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أسلوب البشارة والنذارة كثيرة، مما يدل علىٰ أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: أن رسالة الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ تتضمن هذين الشيئين وهما: البشارة والإنذار، فلمن تكون البشارة، ولمن يكون الإنذار؟ تكون البشارة لمن أطاع واتبع الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والإنذار بالعقوبة لمن كذب»[1].

وقال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]: «من فوائد الآية: أن مضمون الرسالات الإلهية شيئان: البشارة، والإنذار؛ وذلك لأن المآل مآل الخلق- إلىٰ

---

(١) «تفسير سورة الأنعام» (٢٣٨).



دارين هما : الجنة والنار ، فأما مؤمن يُبَشَّر بالجنة ، وإما كافر يُنْذَر بالنار »[1] ، وفي موضع آخر لتفسير الآية قال :

«وقوله تعالىٰ : ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ هذان حالان ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يأتون بالبشارة والنذارة في آن واحد ؛ يعني : ليس بعض الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مبشراً ، والآخر منذراً ؛ بل كل واحد جامع بين التبشير ، والإنذار ؛ أي مبشرين بثواب الله عَزَّوَجَلَّ لمن استحقه ؛ ومنذرين بعقاب الله من خالف أمره ؛ قال الله تبارك وتعالىٰ - : ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف : ٢] ؛ فهنا بيَّنَت الآية المبشَّر ، والمبشَّر به ؛ فالمبشَّر : المؤمنون الذين يعملون الصالحات ؛ والمبشَّر به : أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً ؛ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف : ٤ ، ٥] فالمنذَر : هم الكفار ؛ والمنذر به : العذاب »[2] .

وكثرة مواطن أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم دليل علىٰ أهميته في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، ففي معظم سور القرآن الكريم نجد هذا الأسلوب حاضراً ، وفي أعظم سورة فيه كذلك ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وفي قوله تعالىٰ : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة :٤] ترغيب وترهيب : ترغيب في العمل الصالح ؛ لأن الإنسان إذا أيقن بأنه سيحاسب علىٰ عمله ، ويثاب عليه حرص علىٰ الأعمال الصالحة ، واجتهد ورَغِب فيها ، وترهيبٌ لأنه إذا عَلِمَ بأنه سيُجَازَىٰ علىٰ عمله ويُعاقبُ علىٰ سيئته ، أو علىٰ الأصح يستحق العقاب

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٦٧) ، وانظر : « تفسير سورة يس » (٢٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٢٧) .

علىٰ سيئته فإنه يخشىٰ من ذلك، ويتجنب الأعمال السيئة؛ خوفاً من يوم الدين الذي يُجَازَىٰ فيه العاملون بأعمالهم؛ كما قيل: (كما تدين تُدان) فعلينا أن نأخذ لهذا اليوم عُدَّته، وأن نعمل صالحاً يقرِّبنا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويسعدنا في ذلك اليوم »(١).

والداعية إلىٰ الله تعالىٰ لا يحذو حذو الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوته حتىٰ تشتمل علىٰ أسلوب الترغيب والترهيب مراوحاً بينهما بما تقتضيه الحكمة، والأنفع في مقام الدعوة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وكان أي النبي ﷺ - يهجر بعض المؤمنين، كما هجر الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك؛ لأن المقصود دعوة الخلق إلىٰ طاعة الله بأقوم طريق، فيستعمل الرغبة حيث تكون أصلح، والرهبة حيث تكون أصلح »(٢).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ينبغي للداعية إلىٰ الله أن تكون دعوته تارة بالترغيب، وتارة بالترهيب، بل الأفضل أن يجعل دعوته مشتملة علىٰ الترغيب والترهيب، وذلك لأنها أي: الدعوة إذا كانت مقتصرة علىٰ الترغيب صارت سبباً للأمن من مكر الله، وأن يتمادىٰ الإنسان في معصية الله، ويرجو الله، وإذا كانت مشتملة علىٰ الترهيب صارت سبباً للقنوط من رحمة الله، واستبعاد الرحمة، وهذا ضرر، بل ينبغي أن يكون الداعية جامعاً بين هذا وهذا؛ ليحمل الناس علىٰ الرجاء وعلىٰ الخوف، ولهذا قال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فأيهم غلب هلك صاحبه. وقال بعض أهل العلم:

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٧).

(٢) « منهاج السنة النبوية » (١ / ٦٥).

الرجاء والخوف كالجناحين للطائر إن انخفض أحدهما سقط الطائر، وإن تساويا صار طيرانه متزناً[(١)] »[(٢)] .

وعند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء :١٦٥] ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أنه ينبغي للإنسان الداعي إلىٰ الله أن يعامل الناس بما تعامل به الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أقوامها ، فتارة يبشر ، وتارة ينذر ؛ لأنه إن سلك سبيل البشارة دائماً أدخل الناس في الإرجاء ، وإن سلك سبيل الإنذار دائماً أدخل الناس في القنوط واليأس ، فلذلك يجب أن يكون الإنسان حكيماً يراعي أحوال الناس ، فمثلاً : إذا رأىٰ الناس قد انهمكوا في أمر محرم فالأولىٰ هنا أن لا يسلك سبيل البشارة فيوقع الناس في الأمن من مكر الله ، بل يسلك سبيل الإنذار ويشدد »[(٣)] .

والمراوحة بين أسلوب الترغيب والترهيب مهم في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وإن من الخلل الواقع أن تجد من الدعاة مَنْ غالب دعوته في الترهيب حتىٰ أصبح هذا الطابع ملازماً له في كثير من أطروحاته الدعوية ، وهذا من آثاره السلبيِّة أن يُحدِث فجوة كبيرة في حياة المدعو ظنَّاً منه أنه مهما عمل فهو بعيد كل البعد عن مواطن الرضا ، وكذا العكس فإن من غلَّب جانب الترغيب صار سبباً في غفلة المدعو عما هو عليه من التقصير في جنب الله تعالىٰ ، وفقه هذا

---

(١) ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحو هذا الكلام في « مدارج السالكين » (١ / ٥١٣) ، حيث قال : « القلب في سيره إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتىٰ سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتىٰ قطع الرأس مات الطائر ، ومتىٰ فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر » ا.هـ .

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٢١) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٨٥) .

الأسلوب أن يراوح الداعية بين الترغيب والترهيب بما يقتضيه الحال والمقام .

ولقد احتوىٰ تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ مضامين دعوية متعلِّقة بأسلوب الترغيب وأخرىٰ متعلِّقة بأسلوب الترهيب .

- من أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بأسلوب الترغيب :

أولاً : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة :٢٦٥] :

« من فوائد الآية : الترغيب في العمل الصالح ، وأن الله تعالىٰ يعلم به ولا يضيع عليك ، بل يثيبك عليه ثوابـاً عاجلاً وثوابـاً آجلاً »[١] .

ثانيـاً : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره قوله تعالىٰ : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة :٢٦١] .

« من فوائد الآية : الحث ، والترغيب في الإنفاق في سبيل الله ؛ يؤخذ هذا من ذكر فضيلة الإنفاق في سبيل الله ، فإن الله لم يذكر هذا إلا من أجل هذا الثواب ؛ فلا بد أن يعمل له »[٢] .

ثالثـاً : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران :١٨٥] :

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٨٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٣١٢) .

« من فوائد الآية : حث الإنسان علىٰ المبادرة للعمل الصالح ؛ لأنه إذا كان ميتـاً ولا محالة وهو لا يدري متىٰ يموت ، فإن العقل كالشرع يقتضي أن يُبادر ولاسيَّما في قضاء الواجبات والتخلي عن المظالم . فلا تُهْمِلْ ولا تؤخِّر ، فإن التأخير له آفات ، كثيراً ما يقول الإنسان : أنا سأفعل هذا غداً ولكن يتهاون ، ثم يأتي غد وما بعده ، ويضيع عليه الوقت »[1] .

رابعـًا : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالىٰ : ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران :١٩٥] :

« من فوائد الآية : التشويق إلىٰ الجنة ليزداد الإنسان قوة في العمل لها ؛ لقوله : ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ، والجنات في الأصل البساتين الكثيرة ، لأنها أي البساتين الكثيرة الأشجار تجن مَنْ فيها ، أي تستره وتغطيه ، فيستفاد منها التشويق إلىٰ هذا الثواب العظيم »[2] .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء :٥٧] ، قال مرغِّبـًا بالجنة بمزيد من التفصيل الذي احتوته الآية :

« من فوائد الآية : بيان ما في الجنة من النعيم لقوله : ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ .

– ومنها : أن الجنة أنواع وليست نوعـًا واحداً ، يؤخذ ذلك من صيغة الجمع ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ .

---

(١) « تفسير آل عمران » (٢/ ٥١٣) .

(٢) « تفسير آل عمران » (٢/ ٥٧٩) .

- ومنها : أن أهل الجنة مخلدون فيها أبداً ، لقوله : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ ، وقد أجمع أهل الملة علىٰ أن نعيم الجنة دائم أبداً ، وكذلك جمهور أهل السنة علىٰ أن عذاب أهل النار دائم أبداً .

- ومنها : الثناء علىٰ الأزواج في الجنة ، سواء كن من أهل هذه الدنيا أو من الحور ، لقوله : ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ .

- ومنها : الثناء علىٰ هؤلاء الأزواج ، وأنهن مطهرات من كل عيب حسي أو معنوي .

ومنها : أن الجنة ليس فيها حر ، وإنما هي ظل ظليل ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ .

وجملة الآية فيها الحث علىٰ الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن الله سبحانه إنما ساق بيان نعيمهم حثاً علىٰ أن نعمل العمل الموصل إلىٰ ذلك .

- ومنها : أن أهل الجنة ينعمون في الدنيا وفي الآخرة ، لقوله : ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ ؛ لأن السين تدل علىٰ القرب ، ذكرنا ذلك في التفسير ، وأن أصحاب الجنة هم في الجنة في الدنيا وفي الآخرة ؛ لأنه لا أحد أطيب عيشاً ممن آمن وعمل صالحاً »[1] .

والمضامين الدعوية الدالة علىٰ الترغيب بالأعمال الصالحة وما يتعلَّق بها في حال الدنيا ومآل الآخرة كثيرة ، ومما سبق من المضامين يتضح أن للترغيب أهمية كبيرة في الدعوة إلىٰ الحكمة من الوجود وهي تحقيق العبودية لله تعالىٰ بالدعوة لجميع ما يحبه الله ويرضاه ، وعلىٰ رأسها تحقيق كلمة التوحيد والقيام

---

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٣٧) .

بمقتضياتها وشروطها والبعد عما ينقضها، والدعوة إلىٰ بقية أركان الإسلام الخمسة: كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وأركان الإيمان والإحسان، ومن ثم الترغيب في بقية أنواع الطاعات الأخرىٰ، والأخلاق والمعاملات، وكذا ترغيب النفوس بما يحصل به رضا الله تعالىٰ وحفظه وولايته، والترغيب بموعوده في الآخرة.

والداعية إلىٰ الله تعالىٰ إذا أحسن أسلوب الترغيب كان ذلك باعثاً له علىٰ فتح سائر ما يُهيِّج نفوس المؤمنين مما أعدَّه الله تعالىٰ لمن أطاعه من الخيور المتعلِّقة بمصالح الدنيا والآخرة[1].

- من أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بأسلوب الترهيب:

أولاً: قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩]:

«من فوائد الآية: الوعيد علىٰ من زلّ بعد قيام الحجة عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ فإن قيل: من أين يأتي الوعيد؟ قلنا: من قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأن من معاني «العزة» الغلبة، والقهر؛ و«الحكمة»: تنزيل الشيء في مواضعه؛ فإذا كان هناك غلبة وحكمة، فالمعنىٰ: أنه سينزِّل بكم ما تتبين به عزته؛ لأن هذا هو مقتضىٰ حكمته»[2].

ثانياً: قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]: «هٰذه الآية من أعظم الآيات التي جاءت في الوعيد،

---

(١) انظر: «تفسير سورة المائدة» (١/ ٢٧٠-٢٧٢).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٣/ ١٠).

قال الله فيها : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ ، المؤمن هنا : يراد به ما هو أعم من المؤمن ؛ فالمؤمن يشمل ناقص الإيمان وكامل الإيمان »(١) .

ثالثًا : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران :٧٧] : « من فوائد الآية : تهديد هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً ، وينصبُّ هذا علىٰ العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله مداهنة أو مراعاة أو من أجل مال ، فإنهم اشتروا بعهد الله ثمنًا قليلاً ؛ لأن الله عهد إلىٰ العلماء أن يبيِّنوا العلم . وقد مرَّ بنا أن العلماء ثلاثة أقسام :

عالم أمة ، وعالم دولة ، وعالم ملة ، فعالم الملة لا يشتري بعهد الله ثمنًا قليلاً ، بل يبين الملة ولا يبالي . وعالم الدولة يشتري بآيات الله ثمنًا قليلاً ليكون له جاه عند الدولة ، وربما ليعطىٰ مالاً ، وعالم الأمة هو الذي يراعي الأمة ، ينظر ماذا تشتهي الأمة (أي عامة الناس) فيُفتي به أو يقول به ، وما لا تشتهيه الأمة يسكت عنه ، فإذا رأىٰ الأمة علىٰ شيء غير سائغ في الشرع سكت عنه ، وإذا طلبوا منه شيئًا غير سائغ في الشرع ولكنه يرىٰ أنه يرضيهم وافقهم عليه »(٢) .

رابعًا : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء :٢٩-٣٠] : « من فوائد الآية : التحذير من فعل هذه

---

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٨١) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٤٤٣) .

المنهيات ؛ وذلك بالوعيد عليها بالنار .

– ومنها : أن فعل هذه المنهيات من كبائر الذنوب ؛ لأنه توعد عليه بالنار ، وكل ذنب توعد عليه بالنار فهو من كبائر الذنوب .

– ومنها : بيان عظمة الله وتمام سلطانه وقدرته ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[1] .

خامساً : وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء :١٣٥] : « من فوائد الآية : التحذير من الجور ، لقوله : ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾ ، وهذا يشمل كل موضع يتعين فيه العدل ، فيكون مثلاً– العدل بين الأولاد في العطية وغير العطية ، حتىٰ كان السلف يعدلون بين أولادهم في القُبَل . يعني : إذا قبل صبياً قبل الآخر ، والعدل بين الزوجات أيضاً ، والعدل بين الخصمين بين يدي القاضي ... وما أشبه ذلك .

– ومنها : تحذير من أعرض عن إقامة الشهادة والعدل ، أو لوىٰ لقوله : ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .

– ومنها : عموم علم الله وخبرته ، لقوله : ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لأن (مَا) اسم موصول تشمل كل ما يعمله ابن آدم .

– ومنها : التحذير من مخالفة الله ؛ لأن كل مؤمن يعلم أن الله خبير بعمله لا

---

(١) « تفسير النساء » (١ / ٢٦٠) .

بد أن يتجنب ما يكون سببًا للعقاب، ويتعرض لما يكون سببًا للثواب»[١].

والمضامين الدعوية الدالة علىٰ الترهيب من الأعمال السئية وما يتعلَّق بها من الحال ومآل الآخرة كثيرة، ومما سبق يتضح أن للترهيب أهمية كبيرة في الدعوة إلىٰ التحذير من كل ما ينافي حكمة العبودية لله تعالىٰ، وذلك بالدعوة إلىٰ ترك كل ما يغضب الله تعالىٰ ويخالف أمره، وعلىٰ رأس ذلك الشرك بالله تعالىٰ وما يتعلَّق به، وبقية أركان الإسلام، والدعوة إلىٰ ترك الكبائر كالسرقة والخيانة والغش والزنا والزور وقتل النفس المعصومة، وكتمان العلم والظلم وسائر الموبقات، وأي عمل يكون به البعد عن الله تعالىٰ ومرضاته، وذلك ببيان عواقب هذه الأمور في الدنيا وعاقبتها في الآخرة، وبيان مقدار الحرمان الذي يعيشه العبد حينما يتهاون بفرائض الله تعالىٰ، وبيان مقدار العقوبات التي جعلها الله تعالىٰ لمن عصاه علىٰ وجه التفصيل والإجمال، وكذا ترهيب النفوس عن الوصول إلىٰ كل ما يُغضب الله تعالىٰ، ويحصل به مقته وبعده عنه جل وعلا، والترهيب من وعيده في الآخرة.

والداعية إلىٰ الله تعالىٰ إذا أحسن أسلوب الترهيب كان ذلك باعثًا له علىٰ تنفير المسلمين عن الأعمال السيئة والعصيان الذي يورث ضيق الحياة في الدنيا وسوء العاقبة في الآخرة[٢].

- من المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يكون فيه الترغيب والترهيب في مساق واحد تقدَّم في أول المطلب شيء منها- ومن ذلك:

أولاً: قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

---

(١) «تفسير سورة النساء» (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٢) انظر: «تفسير سورة المائدة» (١/ ٢٧٠-٢٧٢).

ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء :٣٩] :

« من فوائد الآية : إثبات العلم لله تعالىٰ بأحوال عباده ، لقوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ ، ويتفرع علىٰ هذه الفائدة : الرغبة والرهبة ، وذلك لأنك إذا علمت أن الله عليم بك خفت من مخالفته ، ورجوت في موافقته ، إذ لا يضيع شيءٌ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، والإيمان بعلم الله عَزَّوَجَلَّ يكسب الإنسان مراقبة الله سبحانه تماماً ؛ لأن أي شيء تفعله فهو عليم بك ، فهذا يحمل الإنسان علىٰ الرجاء في فعل ما يحبه الله ، وعلىٰ الخوف من فعل ما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ »[1] .

ثانيـاً : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة :٢٤٥] : « من فوائد الآية : ترهيب المرء من المخالفة ، وترغيبه في طاعة الله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه راجع إلىٰ ربه لا محالة فإنه لا بد أن يكون فاعلاً لما أُمِر به تاركـاً لما نُهي عنه ؛ لأنه يخاف من هذا الرجوع »[2] .

ثالثـاً : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة :٢٣٧] : « من فوائد الآية : الترغيب في العمل الصالح ، والترهيب من العمل السيء ؛ لأن ختم الآية بهذه الجملة مقتضاه : احرصوا علىٰ العمل الصالح ؛ فإنه لن يضيع ؛ واحذروا من العمل السيء ؛ فإنكم تجازون عليه ؛ لأن

---

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٣٢٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٢٠٥) .

كلاً معلوم عند الله سبحانه وتعالىٰ- »[1] .

رابعـًا : قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يس :٢٢-٢٤] : « من فوائد الآية الكريمة : كمال نصح هذا الرجل ؛ لأنه قرر وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ بعدة أمور ، منها ما سبق في قوله : ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ، ومنها : التحذير من الشرك به لكون المشرك في ضلال مبين ، وهكذا ينبغي للداعية لله عَزَّوَجَلَّ إذا دعا إلىٰ الحق أن يذكر ما في لزومه من الفضائل ، وأن يذكر ما في مخالفته من الضلال والسوء ، حتىٰ يجمع بين الترغيب والترهيب »[2] .

وعلىٰ الداعية حين استعماله لأسلوب الترغيب والترهيب أن يستدل بما صحَّ من الأخبار ، وليحذر الداعية من التهاون في إيراد النصوص الضعيفة ، أو التساهل من الأخذ من الكتب التي تخلط الصحيح بالضعيف ، فإن هذا مما يُعاب علىٰ كثير من الوعّاظ والدعاة اليوم ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « اعلم أنه يوجد في كتب الوعظ من الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة في أحوال القبر والقيامة ما ينبغي للقارئ أن يحترز منها ، ولا أحسن من الرجوع إلىٰ الكتب الصحيحة في هذا الباب لئلا نضل الناس ؛ لأن بعض الوعاظ يختار مثل هذه الأحاديث من أجل الترغيب أو الترهيب ، وفي الحقيقة أن هذا مسلك ليس بجيد ؛ لأن كوننا نملأ أدمغة الناس بأحاديث ضعيفة أو موضوعة خطأ حتىٰ لو كان فيها ترغيب وترهيب ، وفيما صحَّ عن النبي ﷺ كفاية ، والناس

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ١٧٧) .

(٢) « تفسير سورة يس » (٩٤) .

سوف يأخذون كل ما ذكر علىٰ أنه صحيح ، يقولون : ما قيل في المحراب فهو صواب ، والواجب علىٰ من ألّف في الترغيب والترهيب أن لا يذكر إلا ما كان حجة من صحيح أو حسن ، أما الضعيف فلا حاجة لذكره لأننا في غنىٰ عن الضعيف الذي لم يثبت عن النبي ﷺ »[١] .

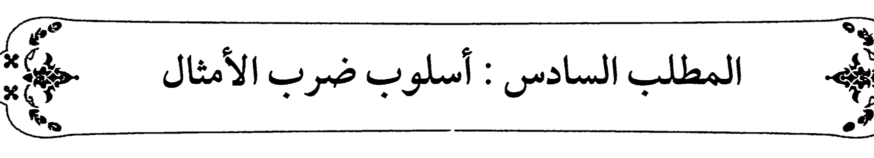
والداعية إذا أتقن طرح هذا الأسلوب الدعوي سار علىٰ نهج القرآن الكريم الذي هو نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم لأقوامهم ، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وكثيرا ما يقرن تعالىٰ في القرآن بين هاتين الصفتين ، كما قال تعالىٰ : وقوله : ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] ، وقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد : ٦] ، وغير ذلك من الآيات المشتملة علىٰ الترغيب والترهيب ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهذا وبهذا لينجع في كل بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنه نهىٰ وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب سميع الدعاء ، جواد كريم وهاب »[٢] .



---

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٧٨) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم »(٣ / ٣٨٥) .



المطلب السادس : أسلوب ضرب الأمثال

من طبيعة النفوس البشرية فطرةً أنها تأنس بالقول إذا جاء بصورة تشبيهية فضلاً عمَّا في ذلك من تقريب للمعنىٰ ، ولذا كان من أهم أساليب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ أسلوب ضرب الأمثال .

«والمَثَلُ : الشَّيْءُ الَّذِي يُضرَب لِشَيْءٍ مِثْلًا فَيَجْعَلُ مِثْلَه ، وفِي الصِّحَاحِ : مَا يُضرَب بهِ مِنَ الأَمْثال . قال الجَوْهَرِيُّ : ومَثَلُ الشَّيْءِ أيضـًا صِفَتُهُ »[١] .

وضرب الأمثال أسلوب دعوي نصَّ عليه الكتاب والسنة ، إذ تعدّد ضرب المثل في كتاب الله تعالىٰ ، كما سيأتي بيانه في المضامين الدعوية المتعلِّقة به في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكذا السنة فقد كان رسولُ الله ﷺ يستعين علىٰ توْضيح المعنىٰ بضرْب المثل ممَّا يشاهِدُه النَّاس بأمِّ أعيُنِهم ، ويقع تَحت حواسِّهم وفي متناول أيديهم ؛ ليكون وقْع الموْعِظة في النَّفس أشدَّ ، وفي الذهن أرْسَخ ، ومن الأمثِلة علىٰ ذلك : ما رواه أبو مُوسَىٰ الأشْعَرِيّ ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ ، مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وطَعْمُهَا طَيِّبٌ ، ومَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ ، لَا رِيحَ لَهَا وطَعْمُهَا حُلْوٌ ، ومَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وطَعْمُهَا مُرٌّ ، ومَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ ، كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وطَعْمُهَا مُرٌّ »[٢] .

وفي صحيح مسلم يبيِّن النبي ﷺ صورة اللُّحْمَة التي ينبغي أن تكون بين

---

(١) « لسان العرب »(١١ / ٦١١) ،و« مختار الصحاح »(٢٩٠)و« تاج العروس »(٣٠ / ٣٧٩) ، مادة (مثل) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٢٧) ، ومسلم (٧٩٧) .

المؤمنين في هذه الحياة بمثال بديع يوصل المعنىٰ المراد بأبلغ صورة وأبين بيان، حيث قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوادِّهِمْ، وتَرَاحُمِهِمْ، وتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّىٰ»[1].

ومِن الأحاديث الَّتي استعمل فيها النَّبيُّ ﷺ أسلوب ضرْب الأمثال، وإثارة الانتِباه، وطرْح السُّؤال علىٰ أصحابه؛ ليثير بذلك النَّشاط الذِّهْني، ويجذب انتباهَهم ويشوِّقهم لما سيقولُه لهم: ما جاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا ببَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ» قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قال: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا»[2].

ونصوص السنة في ضرب المثل كثيرة، وقد أحسن الحافظ الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث أفرد في سننه جزءاً أسماه: «أبْوابُ الأمْثَالِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[3]، جمع فيه جملة من الأحاديث في ضرب النبي ﷺ للأمثال، وقد جمع غير واحد من أهل العلم أحاديث الأمثال في كتاب مستقل[4]، وهذا يدل علىٰ عناية النبي ﷺ بهذا الأسلوب لأهميته في تقريب المعنىٰ وتشويق المتلقي، وسرعة استيعابه للمقصود بأبلغ عبارة.

وفي القرآن الكريم جاء أسلوب ضرب المثل في مواضع كثيرة، يقول ابن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٣) انظر: «سنن الترمذي» (٥/ ١٤٤).

(٤) ومن ذلك كتاب: «أمثال الحديث» للرامهرمزي، و «الأمثال في الحديث النبوي» لأبي الشيخ الأصبهاني، و«الأمثال» لأبي عبيد القاسم بن سلام.

القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقد اشتمل القرآن علىٰ بضعة وأربعين مثلا تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم »(١) .

وهذا التعدد في الكتاب والسنة لاستعمال هذا الأسلوب يبيِّن مكانته في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وأهميته في الطرح الدعوي ، وضرورة تنبُّه الدعاة لهذا الأسلوب من أجل العمل به ، ولقد احتوىٰ تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ مضامين دعوية متعلِّقة بضرب المثل .

– ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بأسلوب ضرب المثل :

أولاً : قال العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة :١٧] : « يضرب الله سبحانه وتعالىٰ الأمثال هنا فيستفاد من ذلك أن من البلاغة أن يضرب المتكلم الأمثال المحسوسة للمخاطب ؛ ليتوصل بها إلىٰ المعاني المعقولة ؛ لأن إدارك الشيء المحسوس أقرب من إدراك الشيء المعقول ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت :٤٣] ، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج :٧٣] ، فالأمثال مهمة في تعليم المخاطب بتقريب المعاني إلىٰ ذهنه وتصورها »(٢) .

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤكد علىٰ أهمية ضرب الأمثال ؛ لأن من ثمراته الوصول إلىٰ المعاني المعقولة بضرب الأمثلة المحسوسة ، وكذا تقريب المعنىٰ وتيسيره لفهم

---

(١) « إعلام الموقعين عن رب العالمين » (١ / ١٠١) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٧٣) .

المدعو ، وهو من شأنه أن يعطي دعوة الداعية وضوحـًا وتقديم الدعوة بأقرب صورة ، ولربما كان ضرب المثل للمدعو أبلغ في بقاء المعنىٰ واستحضاره أكثر مما لو قُدِّم المعنىٰ مجرَّدا من ضرب الأمثال المقرِّبة .

ثانيًا : في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة :٢٦] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أنه ينبغي لمن أراد الإيضاح والبيان وكان ذلك يتوقف علىٰ ضرب المثل - أن يبيِّن ذلك بالمثل كما قال الله تعالىٰ : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت :٤٣] ، وقال الله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم :٥٨] .

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة : أن الناس ينقسمون فيما ضرب الله من الأمثال إلىٰ قسمين : قسم مصدق مؤتمن موقن بأن ذلك حق ، وقسم آخر مستكبر ساخر يقول : ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدَّثر :٣١] هكذا أخبر الله في هذه الآية ، وهذا هو الواقع »[1] .

وفي موضع آخر قال : « ومن فوائد الآية : أن الله تعالىٰ يضرب الأمثال ؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها علىٰ الأمور المعقولة ؛ انظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت : ٤١] ؛ وهذا البيت لا يقيها من حَرّ ، ولا برد ، ولا مطر ، ولا رياح ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت : ٤١] ؛ وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٠١) .

بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد : ١٤] : إنسان بسط كفيه إلىٰ غدير مثلاً ، أو نهر يريد أن يصل الماء إلىٰ فمه! هذا لا يمكن ؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلىٰ الأصنام كالذي يمد يديه إلىٰ النهر ليبلغ فاه ؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلىٰ الإنسان إما لفهم المعنىٰ ؛ وإما لحكمتها ، وبيان وجه هذا المثل »[1] .

ثالثًا : ضرب الأمثال في الدعوة إلىٰ الله له ثمرات عديدة ويحقق أهدافًا ينشدها الداعية في دعوته ، ومن ذلك :

١- أن الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس ، فيتقبَّله العقل ؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم ، وتقدَّم كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الثمرة ، وقال أيضًا في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة :٢٦١] :

« يضرب الله تبارك وتعالىٰ الأمثال في القرآن الكريم تقريبًا للمَعْقُولِ بالمحسوس ، ولا يَعْقِلُ هذه الأمثال وما ترمي إليه من المعاني إلا أهل العلم كما قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت :٤٣] »[2] .

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٩٨-٩٩) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٧٣) ، وقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة :١٧] : « من فوائد الآية : بلاغة القرآن ، حيث يضرب للمعقولات أمثالاً محسوسات ؛ لأن الشيء المحسوس أقرب إلىٰ الفهم من الشيء المعقول ؛ لكن من بلاغة القرآن أن الله تعالىٰ يضرب الأمثال المحسوسة للمعاني المعقولة حتىٰ يدركها الإنسان جيداً ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت :٤٣] » . « تفسير سورة البقرة » (١ / ٦٤) .

٢- في ضرب الأمثال تقريب المعنىٰ للمدعوِّين ، قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فالأمثال مهمة في تعليم المخاطب بتقريب المعاني إلىٰ ذهنه وتصورها »(١) .

٣- أن ضرب الأمثال أوقع في تذكير المدعوِّين ، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقد أخبر الله سبحانه أنه ضرب الأمثال لعباده في غير موضع من كتابه ، وأمر باستماع أمثاله ، ودعا عباده إلىٰ تعقلها ، والتفكير فيها ، والاعتبار بها ، وهذا هو المقصود بها »(٢) .

وقال الشيخ الشنقيطي : « ومِنْ حِكَمِ ضرب المثل : أن يتذكر الناس ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر : ٢١] »(٣) .

٤- أن ضرب المثل سبب في الإمتاع وطرد السآمة والملل عن المدعوِّين ، قال ابن المقفَّع : « إذا جُعِلَ الكلام مثلًا ، كان ذلك أوضح للمنطق ، وأبين في المعنىٰ ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث »(٤) .

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام ، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير ؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ، ولا ينكره ، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنىٰ ظهورا ووضوحا ، فالأمثال شواهد

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٧٣) ، وقال أيضـًا : « فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلىٰ الإنسان إما لفهم المعنىٰ ؛ وإما لحكمتها ، وبيان وجه هذا المثل » . « تفسير سورة البقرة » (١ / ٩٩) .

(٢) « إعلام الموقعين عن رب العالمين » (١ / ١٤٩) .

(٣) « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » (٣ / ٣٠٠) .

(٤) « الأدب الصغير والأدب الكبير » لابن المقفع (٢٧) .

المعنىٰ المراد، ومزكية له »[1].

٥- أن ضرب المثل من سُبُل الإقناع وإقامة الحُجَّة، وهو من حسن التعليم والفصاحة التي جاء بها كتاب الله تعالىٰ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة:٢٦٧]:

« من فوائد الآية: ضرب المثل المُقنع للإنسان، وذلك بقوله: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢٦٧] يعني: لو كان الحقُّ لكم وأعطاكم الإنسان الرديء بدل الجيد أو الوسط، لم تأخذوه إلا علىٰ إغماض، ومِثْلُ هذا المثل قول الله تبارك وتعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء:٩] يعني أن الإنسان يجب عليه أن يرحم اليتيم، كما لو أنه هو ترك مِنْ خَلْفِه ذرية ضعافاً خاف عليهم، فكذلك يجب ان يعرف حق اليتيم، وهذا من حسن تعليم القرآن الكريم وفصاحته وبيانه »[2].

٦- أن الأمثال أوقع في النفس، وأقوم في التصديق وبث الطمأنينة؛ لما يورثه ضرب المثال من التصوير التمثيلي الذي يجعل المتلقي كأنما يرىٰ ما يُدعىٰ إليه رأي العين، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [آل عمران:١٣]:

---

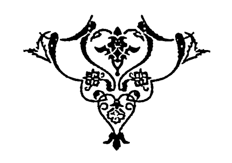
(١) « إعلام الموقعين عن رب العالمين » (١/ ١٨٣).

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢/ ٢٨٩).

« من فوائد الآية : ضرب الأمثال بالأمور الواقعة ؛ لأن ذلك أبلغ في التصديق والطمأنينة ، ويتفرع على ذلك أنه ينبغي للواعظ والداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يضرب المثل للمدعوين بالأمور الواقعة ؛ لأن ذلك أبلغ .

– ومنها : أن الإنسان مهما بلغ من الصدق فإنّ عَرْضَه الأمثال الواقعة تجعل كلامه حق اليقين »[(١)] .

والداعية إذا تأمل هذه الثمرات الظاهرة في المضامين السابقة عَلِم أن ضرب الأمثال له مكانة كبيرة كمضمون أسلوبي دعوي ينبغي أن يكون ظاهراً في الدعوة إلى الله تعالى ؛ لأنه من أهم الأساليب الدعوية التي يحصل بها التذكير البليغ في أقرب صورة وأوضحها ، ولذا استُعْمِل في القرآن في أمثال متنوِّعة ، قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزُّمَر :٢٧] : « يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال ، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر ، وأمثال التوحيد والشرك ، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء ، والحكمة في ذلك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون »[(٢)] .



---

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٨١) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (٧٢٣) .

المطلب السابع : أسلوب القصص

لقد جعل الله تعالىٰ أسلوب القصص سبباً من أسباب أخذ العظة والعبرة والاتعاظ والتفكر ، فقال تعالىٰ : ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف :١٧٦] ، وقال : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف :١١١] .

قال البيضاوي : « لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ في قصص الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وأممهم أو في قصة يوسف وإخوته ، عِبْرَةٌ لِأُولِي الالبابِ لذوي العقول ، المبرأة من شوائب الإلف والركون إلىٰ الحس »[١] .

وفي لسان العرب : « القِصّة : الخَبَرُ وهُو القَصَصُ ، وقَصَّ عَلَيَّ خبَره يقُصُّه قَصّاً وقَصَصاً : أوْرَدَه . والقَصَصُ : الخبرُ المَقْصوص ، بالفَتْحِ ، وُضِعَ مَوْضِعَ المَصْدَرِ حَتَّىٰ صَارَ أغْلَبَ عَلَيْهِ . والقِصَص ، بكَسْرِ القَافِ : جَمْعُ القِصّة الَّتِي تُكْتَبُ »[٢] .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « القَصَص والقَصّ لغة : تتبع الأثر ، وفي الاصطلاح : الإخبار عن قضية ذات مراحل ، يتبع بعضها بعضاً »[٣] .

ولقد جاء أسلوب القصص في القرآن ضافياً علىٰ غيره من الأساليب ، فقد كانت القصص تشغل مساحة كبيرة من القرآن الكريم ؛ لما اشتملت عليه من الحِكَم والثمرات العظيمة ، ذكر الله تعالىٰ فيه قصص الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ مع أقوامهم ، ولربما تعددت القصّة في مواطن كثيرة كقصة موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ، ولربما

(١) « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » للبيضاوي (٣/ ١٧٩) .

(٢) « لسان العرب » (٧/ ٧٤) ، مادة (قصص) .

(٣) « تفسير سورة الفاتحة والبقرة » (٥٧) .

كانت السورة بأكملها وطولها تحكي قصة نبي من الأنبياء كقصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، بالإضافة إلىٰ قصص الصالحين وما جرىٰ لهم، وقصص المعاندين وأخذ الاعتبار مما آلوا إليه، وما ذاك إلا لأهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ومن أمثلة قصص القرآن الكريم في سورة واحدة وهي سورة البقرة ما يلي:

قصة البقرة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

وقصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع النمرود، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقصة طالوت وجالوت، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٧-٢٥١].

والقصص في سائر القرآن الكريم أسلوب يتكرر؛ لأهميته البالغة وحِكَمه الباهرة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ كما سيأتي- وكذا السنة المطهَّرة جاء أسلوب القصص فيها كثيرا ومتضافراً، وامتلأت به دواوين السنة، ومن أمثلة ذلك:

قصة أصحاب الأخدود التي رواها مسلم في صحيحه من حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قال لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُو كَذَلِكَ إِذْ أَتَىٰ عَلَىٰ دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: اليَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّىٰ يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، ومَضَىٰ

النَّاسُ ، فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ ، وإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ، وكَانَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ، ويُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأدْواءِ ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ ، فَقَالَ : مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ ، فَأَتَىٰ المَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قال : رَبِّي ، قال : ولَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قال : رَبِّي ورَبُّكَ اللهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الغُلَامِ ، فَجِيءَ بِالغُلَامِ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ، وتَفْعَلُ وتَفْعَلُ ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَىٰ ، فَدَعَا بِالمِئْشَارِ ، فَوَضَعَ المِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِكِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَىٰ فَوَضَعَ المِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّىٰ وقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِالغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَىٰ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وكَذَا ، فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ ، وإِلَّا فَاطْرَحُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ ، فَقَالَ : اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمِ الجَبَلُ فَسَقَطُوا ، وجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ المَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قال : كَفَانِيهِمُ اللهُ ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وإِلَّا فَاقْذِفُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ ، فَقَالَ : اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا ، وجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ المَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قال : كَفَانِيهِمُ اللهُ ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ ، قال : ومَا هُوَ؟ قال : تَجْمَعُ

النَّاسَ فِي صَعِيدٍ واحِدٍ، وتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ واحِدٍ، وصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ القَوْسِ، ثُمَّ قال: باسْمِ اللهِ، رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ واللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ ومَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَىٰ الحَقِّ»[1].

وقصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، عن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ المَطَرُ، فَمَالُوا إِلَىٰ غَارٍ فِي الجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَىٰ فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي والِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، ولِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَىٰ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ ولَدِي، وإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّىٰ أَمْسَيْتُ فَوجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي ودَأْبَهُمْ حَتَّىٰ طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَىٰ مِنْهَا السَّمَاءَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّىٰ يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ . وقَالَ الثَّانِي : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا ، فَأَبَتْ حَتَّىٰ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَسَعَيْتُ حَتَّىٰ جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَلَقِيتُهَا بِهَا ، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قالتْ : يَا عبد اللهِ اتَّقِ اللَّهَ ، ولاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ ، فَقُمْتُ عَنْهَا ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا . فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً . وقَالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ ، فَلَمَّا قَضَىٰ عَمَلَهُ قال : أَعْطِنِي حَقِّي ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ ورَغِبَ عَنْهُ ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّىٰ جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا ورَاعِيَهَا ، فَجَاءَنِي فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ ولاَ تَظْلِمْنِي وأَعْطِنِي حَقِّي ، فَقُلْتُ : اذْهَبْ إِلَىٰ ذَلِكَ البَقَرِ ورَاعِيهَا ، فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ ولاَ تَهْزَأْ بِي ، فَقُلْتُ : إِنِّي لاَ أَهْزَأُ بِكَ ، فَخُذْ ذَلِكَ البَقَرَ ورَاعِيَهَا ، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وجْهِكَ ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ . فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ »(١) .

ونماذج القصص من الكتاب والسنة كثيرة ؛ لما تميَّزت به القصة من أثر وبُعْدٍ دعوي بالغٍ ؛ ولما للقصة من قبول عند جميع فئات المدعوين ؛ ولما فيها من أيصال العظة والعبرة بأسلوب مؤثر ، ولما جُبلَت عليه النفس البشرية من الاهتمام والتشوّف للأسلوب القصصي .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود بها مجرد الخبر ، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور ، قال الله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] »(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٤) ، ومسلم (٢٧٤٣) .

(٢) « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (١٠ / ٨٦٩) .

- ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلِّقة بأسلوب القصص :

أولاً : من أولىٰ وأهم المضامين أن يعرف الداعية شأن أسلوب القصص ومكانته وأقسامه في القرآن الكريم ، قال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقصص القرآن أصدق القصص ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] وذلك لتمام مطابقتها للواقع .

وأحسن القصص ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف :٣] وذلك لاشتمالها علىٰ أعلىٰ درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنىٰ .

وأنفع القصص ، لقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق .

وهي ثلاثة أقسام :

- قسم عن الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وما جرىٰ لهم مع المؤمنين بهم والكافرين .

- وقسم عن أفراد وطوائف ، جرىٰ لهم ما فيه عبرة ، فنقله الله تعالىٰ عنهم ، كقصة مريم ، ولقمان ، والذي مرَّ علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها ، وذي القرنين ، وقارون ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الفيل ، وأصحاب الأخدود ، وغير ذلك .

- وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ ، كقصة غزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبني قريظة ، وبني النضير ، وزيد بن حارثة ، وأبي لهب ، وغير ذلك »[١] .

---

(١) « تفسير سورة الفاتحة والبقرة » (٥٧-٥٨) .

والداعية إلىٰ الله تعالىٰ يجب أن يعلم أن أعظم مضمون قصصي دعوي هو قصص القرآن الكريم فهي أعظم القصص وأفضلها، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]؛ فأحسن الأخبار أخبار الوحي: القرآن، وغيره؛ وأصلحها للخلق قصصها»[١].

ثانيًا: قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قصُّ الله عَزَّوَجَلَّ أكمل القصص وأحسن القصص؛ لأنه صادر عن:

١- علم.

٢- عن صدق.

٣- صادر بأفصح عبارة وأبينها وأوضحها ولا كلامَ أوضح من كلام الله، إلاَّ من أضل الله قلبه وقال: هذا أساطير الأولين.

٤- وبأحسن إرادة، لم يرد الله تعالىٰ بما يقص علينا أن نضل، ولا بما حكم علينا أن نجور، بل أراد أن نهتدي ونقوم بالعدل»[٢].

ثالثًا: في القصص عظة وتذكرة لأولي الألباب، وفيها فرصة لتوجيه الناس لهدي الشريعة، ومن أمثلة ذلك قصة أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة (ص) قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٤٣] قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٤٣] أي عظة لأصحاب العقول ... يتذكر بها أصحاب العقول، يتذكرون بأنّ المصائب تكون علىٰ

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ٣٦٠).

(٢) «تفسير سورة الكهف» (٢٥).

الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وعلىٰ غيرهم ، وبأنّ الشيطان يمكن أن يُسَلَّط علىٰ الرسول ، ويتذكرون بها أن الإنسان إذا لجأ إلىٰ ربه ، ودعا ربه ، فإن الله يجيبه ، ويتذكرون بأنها كلما اشتد الكرب قَرُب الفرج »[١]

ولا يخفىٰ ما للقصص من تأثير في النفوس ، واتعاظ واستفادة من تجارب السابقين ، وتسلية لما يواجه المسلم داعية أو مدعوا مما قد يؤثِّر عليه في حياته ، ولذا جاء من فوائد القصص التسلية لرسول الله ﷺ ومن بعده في مسيرته الدعوية لما قد يصيبه جراء إعراض المعاندين وتكذيبهم بأن يتأسىٰ بقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من قبله وما واجهوه في دعوتهم فقال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِی۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام :٣٤] .

وعليه فإن أهمية القصة في الدعوة إلىٰ الله يرجع إلىٰ عدة أمور ، أهمها :

- أن فيها العظة والعبرة لمن تفكَّر وتأمل ، كما قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف :١١١] ، وقال تعالىٰ : ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف :١٧٦] .

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يقول لنبيه محمد ﷺ : فاقصص يا محمد هذا القصص ، الذي قصصته عليك من نبإ الذي آتيناه آياتنا ، وأخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة وقصصت عليك نبأهم ونبأ أشباههم ، وما حل بهم من عقوبتنا ونزل بهم ، حين كذبوا رسلنا من نقمتنا علىٰ قومك من قريش ومن قبلك من يهود بني إسرائيل ، ليتفكروا في ذلك فيعتبروا وينيبوا إلىٰ

---

(١) « تفسير سورة ص »(١٨٨) .

طاعتنا ، لئلا يحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات ، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل فيعلموا حقيقة أمرك وصحة نبوتك »[1] .

- أنها سبيل من سُبُل التثبيت وتدعيم الحق وإظهاره ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود :١٢٠] .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، ما ذكر ، ذكر الحكمة في ذكر ذلك ، فقال : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أي : قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، فإن النفوس تأنس بالاقتداء ، وتنشط علىٰ الأعمال ، وتريد المنافسة لغيرها ، ويتأيد الحق بذكر شواهده ، وكثرة من قام به »[2] .

- أن فيها تحفيزاً لتحمل المشاق في طريق الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود :٢٥] .

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ثم إنه تعالىٰ شرع في ذكر قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الداعين إلىٰ الله تعالىٰ وبيان حالهم مع أممهم ليزداد ﷺ تشميرا في الدعوة وتحملا لما يقاسيه من المعاندين ، فقال عز من قائل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ »[3] .

- أن في هذه القصص تسلية لأهل الحق ، بأن ما أصابهم قد أصاب الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من قبلهم وكل من كان علىٰ طريق الحق ، كما قال تعالىٰ لنبيِّه ﷺ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾

(١) « جامع البيان » (١٠ / ٥٨٩) .
(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (٣٩٢) .
(٣) « روح المعاني » (٦ / ٢٣٥) .

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:١٢-١٤]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: «ذكر الله هؤلاء المكذبين لفائدتين:

الفائدة الأولىٰ: تسلية الرسول ﷺ بأنه ليس أول رسول كُذِّب، بل قد كُذِّبت الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من قبل، كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فُصِّلَت:٤٣]. قيل: إنه شاعر، قيل: إنه مجنون، قيل: إنه كاهن. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، هذه فائدة لذكر قصص الأمم السابقة، وهي تسلية النبي ﷺ؛ لأن الإنسان إذا رأىٰ غيره قد أصيب بمثل مصيبته يتسلىٰ بلا شك، وتهون عليه المصيبة.

الفائدة الثانية: التحذير لمكذبيّ الرسول ﷺ، ولهذا قال في آخر ما ذكر ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:١٤] فحق عليهم وعيد الله بالعذاب، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، يعني كل واحد من هذه الأمم جوزي بمثل ذنبه فعوقب بمثل ذنبه»[١]، وهي تسلية لجميع الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ أن يصبروا علىٰ ما ينالهم من المدعوِّين، وعلىٰ طول طريق الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

ومما تقدَّم من المضامين الدعوية يتبيَّن أن أسلوبَ القصص أسلوبٌ له مكانته وأهميته في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ولا أدلَّ من كثرة وروده في الوحيين، ووروده في نقل قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فأهمية وجوده في دعوة الداعية ظاهرة اقتداءً بهدي القرآن في ذكر قصص السابقين، وبالنبي ﷺ في إيراد القصص كما شهدت بذلك دواوين السنة.

وينبغي مع حثّ الدعاة علىٰ عدم التفريط بهذا الأسلوب في الميدان

---

(١) «تفسير سورة ق» (٨٢)، وانظر: «تفسير جزء عم» سورة البروج (١٤١).

الدعوي- ألا يكون في استعمال هذا الأسلوب إفراط أيضـًا ، كما يُغرق بعض الدعاة في سرد القصص بلا قَدَرٍ معيَّن ودون رويَّة ولا تثبت ، حتىٰ ظهر جملة من الدعاة هم إلىٰ القُصَّاص الذين يخلطون الغثَّ بالسمين أقرب منهم إلىٰ المنهج الشرعي في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ بالأسلوب القصصي ، فإن هذا الاستعمال للقصة يُذمُّ ولا يُمدح .

قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « القصاص الذي يذكر الجنة والنار والتخويف ولهم نية وصدق الحديث ، فأما هؤلاء الذين أحدثوا من وضع الأخبار والأحاديث فلا أراه »[1] .

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ذُمَّ القصاص لأن الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد ، ثم غالبهم يخلط فيما يورده ، وربما اعتمد عَلَىٰ مَا أكثره مُحَال ، فأمَّا إذا كان القصص صدقـًا ويوجب وعظـًا فهو ممدوح ، وقَدْ كان أحمد بْن حنبل يَقُول مَا أحوج الناس إِلَىٰ قاصٍّ صدوق »[2] .

ولتتحقق الغاية من القصة في الدعوة إلىٰ الله ، علىٰ الداعية تحرِّي الصدق فيما ينقله من قصص وأخبار ؛ ليتحقق بذلك الاقتداء بالهدي الشرعي في ذلك ، فقد امتدح الله تعالىٰ قصص القرآن بتأكيد صدقها فقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران :٦٢] ، ولا يكن همُّ الداعية التأثير بمدعويه بإيراد القصص الموضوعة جاعلاً التأثير والعاطفة هو معيار استعماله لهذا الأسلوب ، بل علىٰ الداعية تحرِّي الصدق ، وعليه أيضـًا ألا يورد من القصص إلا ما كان معقولاً في أذهان المدعوِّين ، مبتعداً عن الغرائب لئلا يُطعن في مضمون دعوته ، وحتىٰ لا

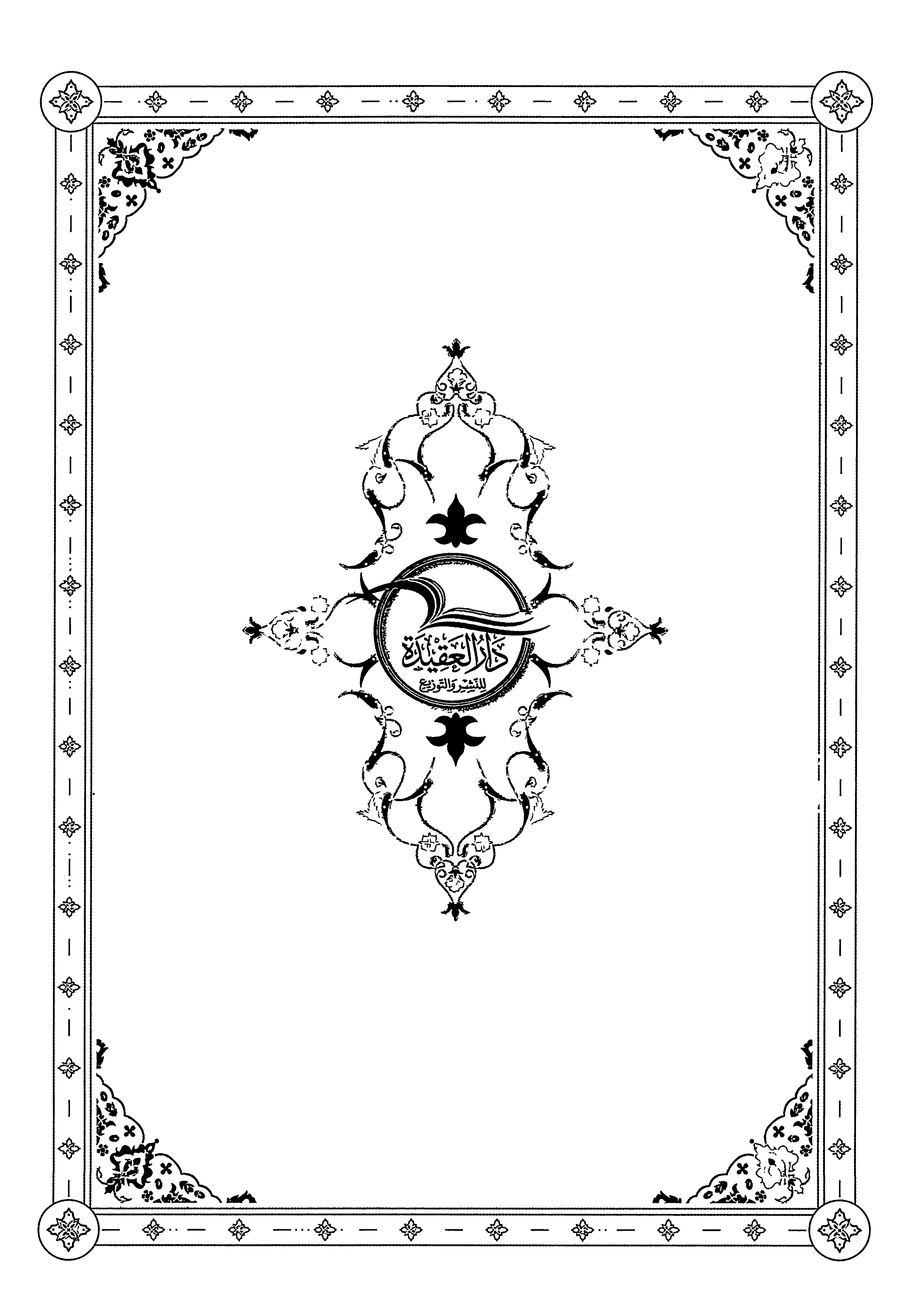
(١) « الآداب الشرعية والمنح المرعية » لابن مفلح (٢/ ٨٤) .

(٢) « تلبيس إبليس » (١١١) .

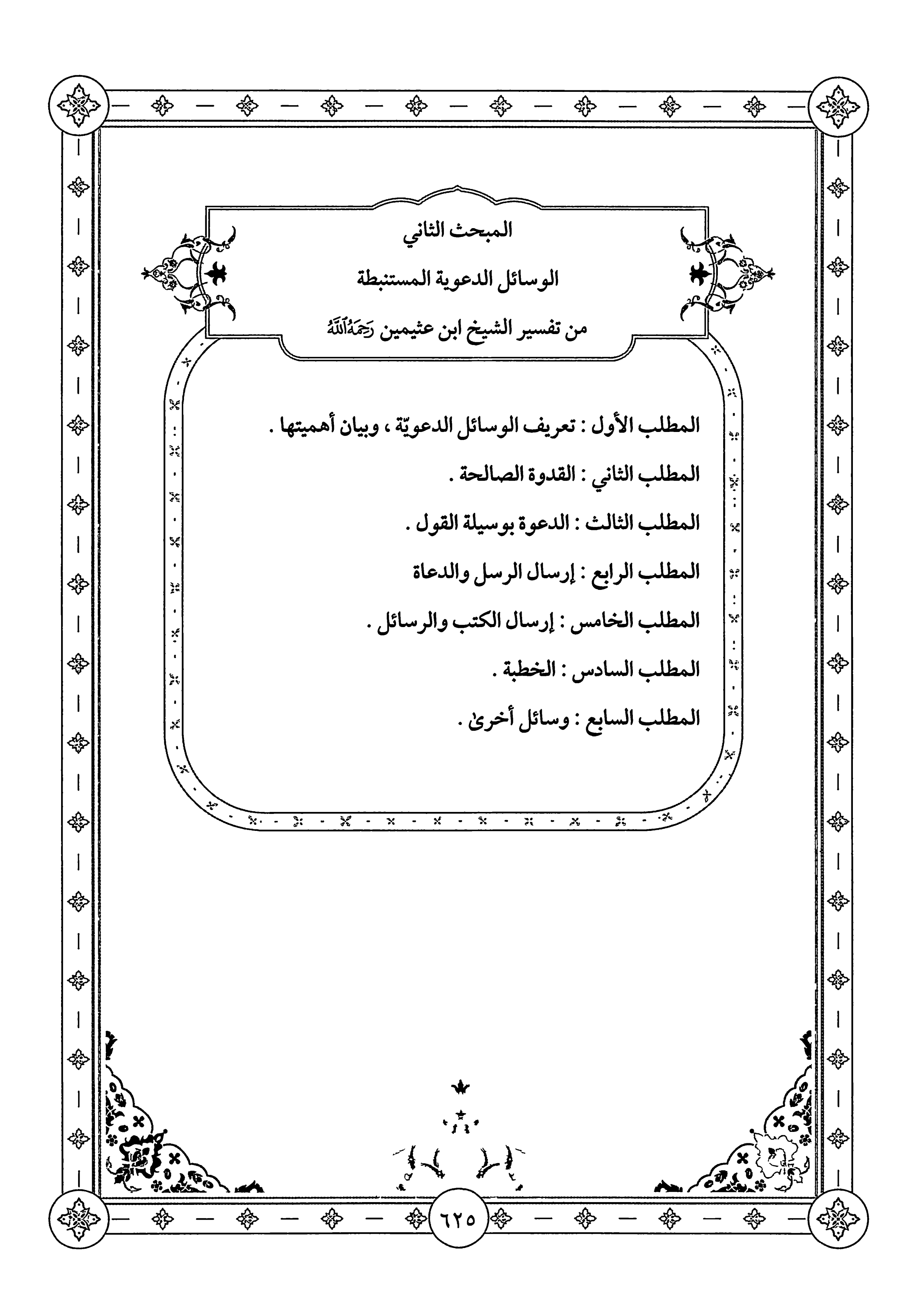
تنعدم ثقة الناس فيه وفي علمه، والفرار من غرائب القصص والأخبار هو هدي السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ومن ذلك قول أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إِنَّمَا نَفِرُّ أَوْ نَفْرَقُ مِنْ تِلْكَ الغَرَائِبِ »، كما أورد ذلك عنه مسلم في « صحيحه »[1]، والداعية إلىٰ الله تعالىٰ يجعل الأسلوب القصصي مدخلاً مناسباً لقلوب مدعوِّيه مستغلاً شغف الناس وفطرتهم في الميل إلىٰ القصص، ليستعين بذلك في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وإذا تأمل الداعية هذه الأساليب الدعوية وتأملها في أخبار دعاة الإسلام من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ومن تبعهم إلىٰ عصرنا الحاضر عرف كيف يدخل علىٰ مدعوِّيه بما يناسب المقام والحال، وصار نموذجاً يُحتذىٰ به في الدعوة إلىٰ الله.



(١) « صحيح مسلم » (١/ ٢٣).



دار العقيدة
للنشر والتوزيع



المبحث الثاني

الوسائل الدعوية المستنبطة

من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

المطلب الأول : تعريف الوسائل الدعويّة ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : القدوة الصالحة .

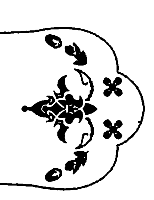
المطلب الثالث : الدعوة بوسيلة القول .

المطلب الرابع : إرسال الرسل والدعاة

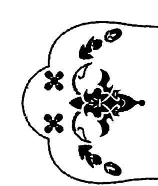
المطلب الخامس : إرسال الكتب والرسائل .

المطلب السادس : الخطبة .

المطلب السابع : وسائل أخرىٰ .



المطلب الأول: تعريف الوسائل الدعويّة، وبيان أهميتها



القسيم الآخر المكمِّل للأساليب في مضامين الدعوة هي وسائل الدعوة، والأساليب والوسائل كما تقدَّم- ركنان أساسيَّان من أركان الدعوة، فهما الحاملان لمضمون الدعوة إلىٰ الميدان الدعوي.

ومن المعلوم عند العقلاء أنه لا يمكن لأحد أن يصل إلىٰ أهدافه التي ينشدها دون استخدام وسائلها أو وسيلة توصله إلىٰ المقصود، وهكذا الداعية إلىٰ الله تعالىٰ فإنه لا يمكن أن يوصل دعوته إلا عن طريق وسائل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وهكذا كان رسول الله ﷺ في دعوته فإنه استعمل الوسائل المتاحة في زمانه فصدع بالحق علىٰ الصفا، وكان يستعمل ملتقيات الناس وأسواقهم ويراها فرصة لإيصال دعوته ﷺ، ويطوف بمشاعر الحج ويتلقىٰ القبائل ويستنصر لدينه، وكل هذا وغيره من الوسائل التي استخدمها ﷺ لإيصال دعوته إلىٰ الناس وقتئذ.

وكذا دعاة الإسلام في كل عصر يستعملون الوسائل المتاحة والمتجددة والمناسبة لمقام دعوتهم، والداعية إلىٰ الله تعالىٰ كلما كان أعلم بوسائل الدعوة أتاح ذلك له نشر الدعوة في سبل متعددة دون الاقتصار علىٰ وسيلة واحدة، وبتعدد الوسائل تتعدد المنافع وتتوسع، ولا يكون الداعية حبيس الوسيلة الواحدة أو الوسائل المحدودة والذي هو سبب من أسباب تعثُّر الدعوة، سواء كان ذلك بسبب ضيق أفق الداعية بمعرفة الوسائل، أو ضيق الوسائل المتاحة في نشر الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

ولئن كانت الأساليب هي طرق وكيفيات يتم بها تبليغ الإسلام، فإن هذه

الطرق والكيفيات لابد لها من أداة لنقلها إلىٰ الميدان الدعوي ، فالوسائل هي الحاملة لهذه الطرق للمدعوِّين ، وسيأتي في تعريف الوسائل بأن أبرز معانيها إيصال الدعوة .

- تعريف الوسائل الدعوية :

الوسيلة في اللغة : من الثلاثي وسَلَ ، ومن معانيه : الرَّغْبَةُ والطَّلَبُ . يُقَالُ وسَلَ ، إِذَا رَغِبَ . و الواسِلُ : الرَّاغِبُ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[١] ، وهِيَ مَا يُتَوصَّل بِهِ إِلىٰ الشَّيْءِ ويُتَقَرَّب بِهِ[٢] .

وفي الإصطلاح الدعوي : وسائل الدعوة : هي ما يتوصل به الداعية إلىٰ تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية ، أو مادية[٣] .

وقيل : هي ما يتوصل به الداعية إلىٰ تبليغ دعوته من أشياء وأمور[٤] .

وقيل : هي ما يستعين به الداعي علىٰ تبليغ الدعوة إلىٰ الله علىٰ نحوٍ نافع مثمر[٥] .

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : الوسيلة هي التي يتوصل بها إلىٰ تحصيل المقصود[٦] .

فالمراد بالوسيلة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ : هي ما يستعمله الداعية من أمور

---

(١) « مقاييس اللغة » (٦/ ١١٠) ، مادة (وسل) .

(٢) « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٥/ ١٨٥) و« لسان العرب » (١١/ ٧٢٥) و« تاج العروس » (٣١/ ٧٥) ، مادة (وسل) .

(٣) « المدخل إلىٰ علم الدعوة » (٤٩) .

(٤) « الحكمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ » (١٢٦) .

(٥) « أصول الدعوة » (٤٤٧) .

(٦) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ١٠٣) .

حسيَّة أو معنوية لنقل دعوته إلىٰ الناس .

وتنقسم وسائل الدعوة إلىٰ قسمين :

١- وسائل معنوية : وهي جميع ما يعين الداعية في دعوته من أمور قلبية أو فكريَّة ، وذلك كالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة ، والتفكير ، والتخطيط ، ونحو ذلك مما لا يُحسُّ به أو يُلمس ، وإنما تُرىٰ آثاره .

٢- وسائل حسيَّة (أو مادية) : وهي جميع ما يعين الداعية من أمور محسوسة أو ملموسة ، كالقول ، والحركة ، والأدوات ، والأعمال ومنها : الكتابة ، والرسالة ، ووسائل الإعلام ، وإعمار المساجد ، وإقامة النوادي ، ونحوها مما هو محسوس[1] .

ولقد استعمل النبي ﷺ الوسائل المعنوية ، وأبرز ذلك هو الأخلاق الرفيعة التي زكَّاه الله تعالىٰ بها وأثنىٰ عليه في كتابه جل وعلا فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم :٤] ، فكانت أخلاقه ﷺ من أعظم وسائل دعوة الآخرين ، وتأثر به بأخلاقه صدقه وأمانته ولِيْنِه وشفقته ، مَنْ تأثر من كفار قريش آنذاك .

وأما الوسائل الحسية فقد استعمل ﷺ جميع وسائل عصره كما تقدَّم ، فصدع بالحق علىٰ الصفا ، وكان يستعمل ملتقيات الناس وأسواقهم ، ويطوف بمشاعر

---

(١) « المدخل إلىٰ علم الدعوة » (٤٩) ، ومنهم من يُقسِّم وسائل الدعوة إلىٰ : وسائل خارجية مثل الحذر المبني علىٰ التوكل علىٰ الله مع الأخذ بالأسباب ، والاستعانة بعد الله تعالىٰ بالغير في تبليغ الدعوة ، ونحوها من الوسائل غير المباشرة والتي تتعلّق باتخاذ الأسباب لتهيئة المجال الجيِّد المساعد لتبليغ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، والنوع الثاني وسائل تبليغ الدعوة بصورة مباشرة ، كالتبليغ بالقول ، والتبليغ بالعمل ، والتبليغ بالسيرة الحسنة وغيرها . انظر : « أصول الدعوة » (٤٤٧) ، وانظر : « مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة » (٩٤) د. سعيد القحطاني .

الحج ويتلقى القبائل إذا وفدوا ، والناس في طرقاتهم ونواديهم .

وفي كل عصر تتجدد الوسائل الدعوية ، وفي زماننا كثرت وسائل الدعوة ، وأصبحت سهلة لكل من عنده همٌّ دعوي يريد نشر الدين وتبليغه في أصقاع المعمورة ، وهذه من نِعَم الله الوارفة .

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « في وقتنا الحاضر يسر الله عَزَّوَجَلَّ أمر الدعوة أكثر ، بطرق لم تحصل لمن قبلنا ، فأمور الدعوة اليوم متيسرة أكثر ، وذلك بواسطة طرق كثيرة ، وإقامة الحجة على الناس اليوم ممكنه بطرق متنوعة مثلا عن طريق الإذاعة ، وعن طريق التلفزة ، وعن طريق الصحافة ، وهناك طرق شتى »[1] .

فينبغي للداعية استغلال تنوُّع الوسائل المعاصرة ، واستعمالها على الوجه المشروع في الدعوة إلى الله تعالى ، فإن الناس إذا رأوا الداعية واكبهم في الوسائل المشروعة ووجدوه حيث استعملوا هذه الوسائل كان ذلك أدعى لوصول الخير إليهم ، ومواكبة الدعوة لكل الميادين المعاصرة في حياتهم .

على أنه ينبغي للداعية التنبه من استعمال هذه الوسائل بوجه غير مشروع ، أو استعمال وسائل محرمة في الدعوة إلى الله تعالى فإنه لا يجوز وكل وسيلة محرمة فإنها لا تؤدي إلى مقصود مشروع ، قال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لو أراد الإنسان أن يتوصل إلى خير بشرٍّ كأن يصانع إنسانـاً بمعصية يقول لعله يهتدي ، مثل أن يغتاب زيداً أو عمراً ليتقرب إلى هذا الرجل ، فهذا ليس بجائز ، لا يمكن أن تكون الدعوة إلى الخير بوسيلة محرمة إطلاقـاً ؛ لأن الوسيلة المحرمة خبث في ذاتها ، كيف تكون وسيلة إلى خير ، لكن إذا كان من المباح صار خيراً لغيره ، وإن كان هو بنفسه خيراً صار خيراً على خير »[2] .

---

(١) « مجموع فتاوى ابن باز » (٥ / ٢٥٦) ، (٨ / ٤٠٣) .

(٢) « تفسير آل عمران » (٢ / ١٢) .

وليكن للداعية في رسول الله ﷺ أسوة حسنة باجتنابه كل وسيلة محرمة وإن كانت تستعمل للدلالة علىٰ الخير ، ومن ذلك حينما أراد الصحابة وسيلة للإخبار بدخول وقت الصلاة ، تحدَّثوا بوسائل متعددة ، فقال بعضهم اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارىٰ ، وقال بعضهم اتخذوا قرناً مثل قرن اليهود ، وأشار بعضهم إلىٰ إضرام نار كما يفعل المجوس ، فأعرض النبي صلىٰ الله عليه عن كل هذه الوسائل المشابهة لوسائل الكفار وأمر بالأذان بصفته المشروعة[1] .

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لو قال قائل : هل يجوز فعل الوسائل المحرمة للوصول للمصلحة كمن أراد إرشاد رجل ولا يتم له ذلك إلا بالجلوس معه في مكان المعصية؟

الجواب : أن الوسائل المحرمة لا تكون سبيلاً للإرشاد أبداً ، فمثلاً : لو قلنا : إن هذا الرجل لا يمكن أن يهتدي ، إلا إذا أتينا بالموسيقىٰ نضربها له ، فلا نضربها ومهما صغر هذا الذنب لا نفعله بل ندعوه إن اهتدىٰ فلنفسه وإلا فعليها »[2] .

وليعلم الداعية أنه لامجال لاستحسان بعض الوسائل المحرمة أو المشروعة المستخدمة علىٰ وجه غير مشروع في مجال الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وهذا مما يقع في خلله بعض المجتهدين باستحسانهم لنتائج دعوية يرجونها ، فالمحرم لا يكون سبيلا للخير ، حتىٰ ولو كان فيه شائبة من محرم ، ومن أمثلة ابتعاد النبي ﷺ من

---

(١) والحديث أخرجه مسلم (٣٧٧) ، عن عبد الله بن عُمَرَ ، أَنَّهُ قال : كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ ، فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَوَاتِ ، وَلَيْسَ يُنَادِي بِهَا أَحَدٌ ، فَتَكَلَّمُوا يَوْماً فِي ذٰلِكَ . فَقَال بَعْضُهُمْ : اتَّخِذُوا نَاقُوساً مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَىٰ . وقال بَعْضُهُمْ : قَرْناً مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ . فَقَال عُمَرُ : أَوَلا تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنَادِي بِالصَّلَاةِ؟ قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا بِلالُ قُمْ . فَنَادِ بِالصَّلَاةِ » ، وفي رواية : فَذَكَرُوا أَنْ يُنَوِّرُوا نَاراً أَوْ يَضْرِبُوا نَاقُوساً .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢١٣) .

الوسيلة ولو كانت مشوبة بمحرم ، ما كان عليه أهل الجاهلية من عادة في إنذار القوم فإنهم يفعلون ثلاثا : يصعدون مكانا مرتفعا من جبل ونحوه ، ويصيحون بقومهم كقولهم (واصباحاه) لإنذارهم ، ويكون هذا النذير عريانـًا وكأن العدو عرَّاهم من ثيابهم ليسرعوا إلىٰ نجدتهم ، ولما أراد النبي ﷺ دعوة قومه انتزع النبي ﷺ ما كان محرَّما وهو التعري ، ففي الصحيحين من حديث ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ورَهْطَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا ، فَهَتَفَ : « يَا صَبَاحَاهْ[١] » ، فَقَالُوا : مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا : مُحَمَّدٌ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي عبد مَنَافٍ ، يَا بَنِي عبد المُطَّلِبِ » ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ » قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا ، قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »[٢] .

فالنبي ﷺ جرَّد هذه الوسيلة مما كان محرَّمـًا وفعل المشروع فيها ، بل صحَّ عنه ﷺ أنه قال عن نفسه : « إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ »[٣] ، إشارة إلىٰ عِظَم ما جاء به كما كان عليه الناس من قبل عند النذارة ، فعلىٰ الداعية الابتعاد عما كان حراما من أصله من الوسائل ، أو ما كان استعماله محرَّما وإن كان أصل الوسيلة مباحة .

---

(١) يا صباحاه : كلمة تقال عند هجوم العدو ، أي هجموا عليكم صباحا . انظر فتح الباري لابن حجر (١ / ١٤٢) ، (٨ / ٧٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ١٧٩) برقم (٤٩٧١) ، ومسلم (١ / ١٩٣) برقم (٢٠٨) .

(٣) والحديث أخرجه البخاري (٨ / ١٠١) برقم (٦٤٨٢) ، ومسلم (٤ / ١٧٨٨) برقم (٢٢٨٣) ، من حديث عن أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : « إِنَّ مَثَلِي ومَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ ، فقال : يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مُهْلَتِهِمْ ، وكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ منهم فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ واجْتَاحَهُمْ ، فَذلك مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي واتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، ومَثَلُ مَنْ عَصَانِي وكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ » .

المطلب الثاني : وسيلة القدوة الصالحة

من المضامين الدعوية التي احتواها تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، والمهمة في تبليغ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، والتأثير في المدعوِّين ودعوتهم إلىٰ الإسلام وتعاليمه ، وسيلة القدوة الصالحة للداعي ، وأفعاله الحميدة ، وصفاته العالية ، وأخلاقه الفاضلة ، والتزامه بالإسلام ظاهراً وباطنـاً ، ولهذه الوسيلة بالغ الأثر علىٰ المدعوِّين ؛ لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ من التأثير بالقول وحده .

فالقدوة الصالحة وسيلة دعوية ينجذب إليها المدعوّون من حيث لا يشعر الداعية ؛ لما يرونه من أخلاقه وأفعاله وحسن تعامله ، كما كان عليه النبي ﷺ من الأسوة الحسنة التي أُمرنا باتباعها فقال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب :٢١] ، والذي عرف عنه قومه أخلاقه وقدوته الكبيرة في النفوس ، فأسلم منهم مَنْ أسلم ، وصدَّ بعضهم عن تصديقه الكِبْر والجحود ، قال تعالىٰ : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام :٣٣] ، وفي حديث أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع هرقل حينما سأله عن أحوال النبي ﷺ وسلوكه قال هرقل : « فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ مَا قال؟ قُلْتُ : لاَ . قال : فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ : لاَ .... قال : مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ : يَقُولُ : اعْبُدُوا اللَّهَ وحْدَهُ ولاَ تُشْرِكُوا بهِ شَيْئًا ، واتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، ويَأْمُرُنَا بالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ والصِّدْقِ والعَفَافِ والصِّلَةِ ... »[1] .

فبوسيلة القدوة الصالحة التي ارتسمت في حياة النبي الكريم ﷺ جعل الله لها أثراً بالغـاً في أوساط قريش ، والذي لم يُتهم بشيء مما كان يعمله قومه حينما كانوا

---

(١) أخرجه البخاري (٧) ، ومسلم (١٧٧٣) .

يعجُّون في وسط مجتمعي كثرت فيه المفاسد وعمَّت فيه الرذائل، لكنه ﷺ بما عليه من قدوة صالحة- استطاع كسب قلوبهم وجذبهم إلىٰ الإسلام وتعاليمه، وهكذا يكون الداعية مقتدياً بالنبي ﷺ، مراعيا هذه الوسيلة المهمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، والتي هي من صفات الربَّانية المنشودة، قال الله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: الإشارة إلىٰ أنه ينبغي للإنسان أن يكون معلماً ربانياً؛ لقوله: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾، أما ما يحصل من بعض الناس وهو أن يكون معلماً لا ربانياً؛ فإن علمه قاصر جدًّا؛ لأن فائدة العلم وثمرته هي العمل والتأدب بآداب العلم، فإذا كان هذا الرجل يملأ أدمغة الطلاب علماً ولكن ليس هناك سلوك وأخلاق وأعمال وعبادة، فإن تعليمه ناقص جداً، ولهذا قال: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾»[1].

وأصول القدوة الصالحة التي يكون بها الداعية قدوة طيبة في مجتمعه أصلان عظيمان هما: حسن الخلق، وموافقة العمل للقول.

فأما حسن الخلق فيندرج تحته كثير من الصفات: كالتواضع، والوفاء بالعهد، والأمانة، والشجاعة، والصبر، والشكر، والحلم، والرفق، والحياء، والعفو، والجود، والعدل، وحفظ اللسان، وغيرها من أخلاق الإسلام.

وأما موافقة العمل للقول فهو أن يكون فعل الداعية موافقاً للطريق المستقيم، وسيرته تطبيقا عملياً لقوله، فلا يخالف ظاهره باطنه، ولا فعله قوله في أمره ونهيه، فهو بهذا يكون قدوة يُحتذىٰ به ويتأثر به مَن حوله من

(١) «تفسير آل عمران» (١/ ٤٥٩).

الناس دون أن يشعر[1] .

وأولىٰ الناس في استعمال هذه الوسيلة هم الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ ؛ لأنهم قدوات في مجتمعهم ويتعلَّم منهم الناس بأفعالهم قبل أقوالهم ، في امتثالهم شريعة الإسلام وتعاليمه ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ويجب علىٰ كل طالب علم أن يكون أول من يمتثل أمر الله عَزَّوَجَلَّ ويجتنب نهيه ؛ لأنه مسؤول عن ذلك من وجهين :

الوجه الأول : أنه كغيره من المكلفين .

والثاني : أن طالب العلم قدوة ، أيُّ عمل يعمله فسوف يقتدي به الناس ، ويحتجون به ، فإذا كان طالب العلم هو الذي يسخر من العلماء أو من دون العلماء فهذه بلية في الواقع »[2] .

وليس هذا فحسب بل علىٰ الداعية أن يشجِّع غيره في امتثال القدوة الصالحة في المجتمع ، فيذكر لهم ما كان عليه النبي ﷺ إمام المقتدين من الُخلق الرفيع ، والمعاملة الحسنة في النفس ومع الغير وهكذا كان مَنْ بعده من التابعين وأئمة الدِّين علىٰ مرِّ العصور ، فإن في نشر نماذج القدوات الصالحة محاكاة للنفوس وتشجيعا لها بالاقتداء ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران :١٤٦] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : أن من طرق التشجيع علىٰ الشيء والإغراء به ، أن يُذكر للإنسان سلف يقتدي به ويتشجع

---

(١) انظر « أصول الدعوة (١٠٠) ، و« الحكمة في الدعوة إلىٰ الله » (١٢٤-١٣٠) ، و« مقومات الداعية الناجح » (٤٨) ، و« المنهج الصحيح وأثره في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ » للرحيلي (١٧٠) .

(٢) « تفسير سورة الحجرات » (٣٩) .

للحاق به ؛ لقوله : ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ »[1] .

وقد عالج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره مدخلا من مداخل الشيطان مما يتعلق بالقدوة الصالحة فقال : « هنا مسألة وهي : أن الشيطان يأتي إلىٰ الإنسان فيقول : إن صليت فقد راءيت ، وإن حسنت صلاتك فقد راءيت ، وهو بعيد من هذا ، فهل يترك تحسين الصلاة خوفاً من ذلك ، أو يترك العبادة خوفاً من ذلك؟

الجواب : لا ، وهذا من مثبطات الشيطان للإنسان ، ولكن ليشق طريقه وليستمر ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا يلتفت إلىٰ هذه الوساوس ؛ لأن الشيطان يتمنىٰ أن لا نعبد الله ؛ لأنه عصىٰ الله ، فيريد من الناس أن يعصوا ربهم أيضاً ، فلا تترك العبادة من أجل الرياء .

ثم إن طرأ علىٰ بالك أنك تحسنها من أجل رؤية الناس : فإن كنت طالب علم يقتدىٰ به فانو أنك تحسنها من أجل أن يقتدي الناس بك ، وتكون في هذه الحال عابداً معلماً ، فإن الرسول ﷺ كان إذا أتاه وفد يطلب منه أن يبين لهم كيفية الصلاة يقول لهم : « صلوا معنا » ، وكان يصعد علىٰ المنبر حين بني له ، ويصلي عليه ويقول : « فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي »[2] ، وبهذا تطرد الشيطان عنك . »[3] ، وفي هذا دلالة علىٰ تعلّم الناس من أفعال الداعية واقتدائهم به ، لما يرونه من حسن عَمَلٍ ، ومثالٍ يُحْتَذىٰ به .

ومما تقدَّم من المضامين الدعوية في تفسير الشيخ تتضح أهمية بناء القدوات الصالحة في المجتمع ؛ وأهمية محاكاة النفس لأن تكون قدوة في

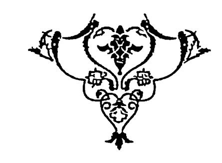
---

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٢٦٢) ، وانظر : « تفسير آل عمران » (١ / ٤٧١) .

(٢) أخرجه البخاري (٩١٧) ، ومسلم (٥٤٤) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٦٤) .

مجتمعها لاسيما الذين يتولون القيادات العلمية والتربوية ، فلابد أن يستشعروا بأن المدعوِّين إنما يتأثرون بأخلاقهم وتعاملهم وتصرفاتهم أكثر من تعليمهم أو تنظيرهم ، فالعلم الصِرْف منابعه كثيرة ، لكن التربية والقدوة الحسنة تحتاج إلىٰ داعية بأفعاله قبل أقواله ، ومعلماً بسمته ودَلِّه قبل تعليمه ، فالدعاة الصادقون هم الذين وافقت أفعالهم أقوالهم في العبادة والأخلاق وحسن التعامل مع الناس ، وطالب العلم قدوة في مجتمعه ، وكم ظنَّ الناس في عمل ما يعمله الداعية أنه من شرع الله تعالىٰ بمجرد التطبيق ، فلابد للداعية أن يراعي هذا المستوىٰ الذي يستقي منه العامة ، فترتسم الدعوة في أفعاله وأقواله ليكون قدوة صالحة في مجتمعه .



المطلب الثالث: الدعوة بوسيلة القول

وسيلة القول من أبرز وسائل الدعوة وأكثرها شيوعـًا واستعمالاً في الميدان الدعوي؛ لما في وسيلة القول من سهولة التطبيق، ولما فُطِرت عليه البشرية من التحدُّث بعضهم لبعض، فينشأ الإنسان ووسيلة القول هي الأبرز في تعايشه مع غيره، ولذا كانت المضامين الدعوية بالقول هي الأكثر من وسائل الدعوة.

وكان تبليغ رسول الله ﷺ لرسالة الشريعة بالقول، قال تعالىٰ مخاطبًا رسوله وآمرًا له أن يقول للناس: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس:١٠٨]، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وكذلك أمر الله رسله أجمعين بتبليغ أقوامهم رسالة ربهم بالقول المبين، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٠٤]، فالقول هو الوسيلة الأصلية في إيصال الحق للناس.

ووسيلة التبليغ بالقول لا تكون وسيلة دعوية حتىٰ تكون ذات مضمون دعوي يتسم بالنفع وبذل الخير للغير، ولذا جاء التقييد في الآية بالقول الحسن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها:

«من فوائد الآية الكريمة: وجوب القول الحسن في مخاطبة الناس، وفي دعوتهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، والظاهر والله أعلم أن القول

الحسن إن كان المراد به ما هو ضد القول السيء ، فإن القول الحسن هنا يكون واجباً ، أي : أنه يجب على الإنسان أن يخاطب الناس بما لا يسيء إليهم ، بل بما يكون فيه منفعتهم الدينية والدنيوية ، ومن القول الحسن : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله ، فإن هذا كله من القول الحسن ، وضده القول السيء الذي يكون به الإساءة والعدوان على الناس ، فإنه محرَّم »(١) .

فما لم يكن حسناً من القول فليس وسيلة للدعوة ، وما كان في أصله حسناً لكنه استُعْمل في غير موضعه فليس على منهاج الدعوة الصحيحة ، ولذا فإن وسيلة القول كغيرها مما لابد أن تُراعى فيه الحكمة ، فمن القول الحسن ما يناسب في مقام دون غيره ، ومن القول الحسن ما تأخيره أفضل من تقديمه ، فالداعية يراعي ما يقول حسبما تقتضيه المصلحة والحكمة .

والتبليغ بالقول وسيلة يندرج تحتها أنواع متعددة منها : الخطبة ، والدروس العلمية ، والفتاوى الشرعية ، والمحاضرات ، والندوات ، والمناقشات الشرعية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوات الفردية ، والنصيحة الأخوية ، ونحوها من الوسائل القولية في الميدان الدعوي .

فينبغي للداعية أن يغتنم استعمال هذه الوسائل ، لأنه باستعمالها تصل دعوته لأقطار بعيدة ، وتعمّ أماكن عديدة .

وينبغي للداعية أن يراعي في قوله من اللفظ ما يناسب المدعوِّين على اختلاف طبقاتهم ، وينبغي أن يتأنى في كلامه حتى يستوعبه السامع ويفهمه ، كما كان النبي ﷺ عليه من القول ، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قالت : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَدِّثُ

---

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٣٦) .

حَدِيثًا، لَوْ عَدَّهُ العَادُّ لَأَحْصَاهُ»[(١)]، مبتعداً عن التفاصح والتكلف في النطق، متلطفًا بقوله للمدعوِّين[(٢)]، وإن من إحسان القول أن يعيد مقالته إذا لم تُفْهم عنه، ففي الصحيح عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ «إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلاَثًا، وإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا»[(٣)].

ولا يكون الداعية إلىٰ الله تعالىٰ وارث الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ حتىٰ يجتهد في الدعوة القولية والفعلية، حتىٰ ينال شرف المبلِّغين لشريعة الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «وجوب إبلاغ الشريعة علىٰ أهل العلم، وجه ذلك: أن العلماء ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وإذا كانوا ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وجب عليهم أن يقوموا بحق الإرث، فيبلغوا ما علموا من شريعة الله وجوبًا، إما بالقول وإما بالفعل: إما بالكتابة وإما بالإشارة، بأي وسيلة يجب عليهم أن يبلغوا ما أنزل إلىٰ الرسول ﷺ»[(٤)].

وإن من حق الإرث الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المضامين السابقة أن يسعىٰ الداعية حسب استطاعته- بكل وسيلة حديثة تكون امتدادا لقوله، وتبليغه الناس دعوة الإسلام، لاسيما في زماننا الذي كثرت فيه وسائل عصريّة متنوعة قرَّبت البعيد، وأسمعت النائي عن الناس حتىٰ صار يعايشهم، من خلال مواقع التواصل الاجتماعي المتجددة والمتسارعة في حداثتها وانتشارها بين الناس،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٢) انظر: «أصول الدعوة» (٤٧٢)، و«مقومات الداعية الناجح» (٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٩٤).

(٤) «تفسير سورة المائدة» (٢/ ١٥١).

والداعية الحصيف هو الذي يستغل هذه البرامج الحديثة في تبليغ الشريعة بقوله، لاسيما وحاجة الأمة اليوم لإقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كبيرة للغاية، وتقدَّم في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يدل علىٰ وجوبها وأنها من أوجب القول الحسن الذي يُدعىٰ الناس به، وليس ببعيد أن يقال: إن وسيلة القول هي أقوىٰ الوسائل الدعوية وأكثرها نفعـًا، فبفقدها يفقد الداعية كثيرا من الوسائل المتعلِّقة بها.





المطلب الرابع: وسيلة إرسال الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ والدعاة

من الوسائل الدعوية التي قامت عليها الرسالات وانتشرت بها الشرائع، ووصل بها الحق إلىٰ الناس، وقُطِعَت بها الحجج، وسيلة إرسال الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ إلىٰ أقوامهم، ليخرجوهم من الظلمات إلىٰ نور الوحي والرسالة والتوحيد.

وهي وسيلة عريقة؛ لتعلُّقها بإرسال الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، حيث كان استعمال هذه الوسيلة في جميع الأمم، فكل أمة بعث الله فيهم رسولاً يبيِّن لهم الحق بعد الضلال، وتتابع الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ لتبقىٰ آثار الرسالة في الأمم، ويحملها من بعدهم من دعاة الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٧]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية مبينـاً مضمون وسيلة إرسال الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ: «من فوائد الآية: أن الله تعالىٰ لم يهمل الخلق بلا رسل، فإنه قفَّىٰ من بعد موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ تباعـاً؛ من أجل هداية الناس، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]، فكل أمة خلا فيها نذير؛ لتقوم الحجة علىٰ العباد، فإن العباد إذا لم يأتهم رسل قد يكون لهم حجة علىٰ ربهم عَزَّوَجَلَّ ولكنه سبحانه وتعالىٰ منع هذا الاحتجاج بإرسال الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ كما قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

- ومن فوائد المستنبطة المأخوذة من هذه الآية: أن الله عَزَّوَجَلَّ قفّىٰ من بعد موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ من أجل أن تبقىٰ آثار الرسالة في العباد»(١).

ووسيلة إرسال الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من أعظم المنن التي منَّ الله تعالىٰ بها علىٰ عباده، وحفظ لهم بها وحدة الصف بوحدة الدين، ليبشروا الناس بكل أمنٍ وخير، وينذرونهم عقوبة الله إن خالفوا أمره، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من فوائد الآية: منَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده بإرسال الرسل، ولابد من إرسال الرسل، يعني: أن حكمة الله عَزَّوَجَلَّ تقضي بإرسال الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ما يجب لله من الأسماء والصفات والأحكام، ولا يمكن أن يستقل بمعرفة العبادات، فالناس مضطرون غاية الضرورة إلىٰ الرسل»(٢).

وأهم حكمة من إرسال الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ هي الدعوة لدينه وإقامة الحجة علىٰ الخلق، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحكمة إرسال الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ تتلخص في:

الأول: إقامة الحجة علىٰ الخلق حتىٰ لا يحتج أحد علىٰ الله فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] لقد قطع الله هذه الحجة من أساسها بإرسال الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وتأييدهم بالآيات البينات الدالة علىٰ صدقهم، وصحة

---

(١) «أحكام من القرآن الكريم» (١/ ٢٤٥)، وانظر: «تفسير سورة النساء» (١/ ٤٦٤).

(٢) «تفسير سورة الأنعام» (٢٣٨)، وانظر(٥٣)، وانظر: «أحكام من القرآن الكريم» (١/ ٣٤٩).

نبوتهم ، وسلامة طريقتهم .

الثاني : توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح لهم في دينهم ودنياهم ، ودعوتهم للحق الذي خُلِقوا من أجله .

الثالث : جمعهم علىٰ دين واحد ورجل واحد ، فإن انقياد الناس لما يشاهدونه من الآيات المؤيدة للأنبياء أسرع وأقوىٰ وأشد تماسكًا فإنهم يجتمعون عليه عن عقيدة راسخة وإيمان ثابت فيحصل الصلاح والإصلاح[1] .

ولقد أرسل النبي ﷺ الدعاة ليبلِّغوا شرع الله تعالىٰ ، كما أرسل معاذ بن جبل إلىٰ أهل الكتاب ، قائلا له : « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ ... »[2] ، وهي وسيلة استعملت علىٰ مرِّ العصور إلىٰ زماننا ، فبإرسالهم تقوم الحُجَّة علىٰ الجاهلين برفع الجهل عمَّن لم تبلغه الشريعة أو أحد فروعها ، أو بلغته علىٰ وجه مشبوه ، وإقامتها علىٰ المعاندين بإزالة الشُّبه التي كان يتمسكون بها ويدعون لها ، لاسيما في زمن كثرت فيه الأهواء ، وتعددت الفرق ، وضلَّ عن طريق الحق أقوام كانوا تباعًا لمن يظنون أنهم علىٰ الحق ، وليسوا علىٰ شيء ، فالمسؤولية علىٰ الدعاة أعظم ، والحاجة مُلحَّة في إرسالهم وبيانهم للحق أوضح بيان[3] .

---

(١) انظر : « مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين » (٥ / ٢٩٩) بتصرف .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

(٣) ولا يتم ذلك إلا بالسير علىٰ هدي الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في رسالاتهم ، فعلىٰ الدعاة أن يقتفوا آثارهم ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء :١٦٥] : « وقوله : ﴿بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي : بعد إرسال الرسل ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يبينون للناس بيانـًا تامـًا لا يحتاج معه إلىٰ إيضاح ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ =

ومن خلال المضامين السابقة يُعْلَم أهمية وسيلة إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ لإقامة الحجة على العباد ، وبيان الحق لهم ، وتوجيههم لما فيه خير وصلاح لدينهم ودنياهم ، ولجمع الأمة على دين واحد وأمة واحدة تعتزُّ بدينها وتدافع عن حياضه ، وإنه من السير على جادة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين سعوا في أقوامهم وكابدوا الدعوة لإيصال الحق ، أن يسير على نهجهم دعاة الإسلام اليوم وفق منهج شرعي قائم على الكتاب والسنة ، لاسيما والحاجة لهم تتضاعف زمناً بعد آخر ، وسواء كان ذلك في الوسط الداخلي للدعوة أو الخارجي ، والواقع خير شاهد ، ولئن كان اجتهاد رهبان اليهود ومبشِّري النصارى ، ومعممي الروافض وغيرهم في الدعوة إلى ديانتهم الباطلة بجدٍّ واجتهاد فعلى دعاة الإسلام اليوم مزاحمتهم وبيان خطرهم ، وسبقهم إلى سائر المدعوِّين في الأرض لإنقاذهم من ظلمات الغواية إلى نور الهداية ، وهم بهذا يسيرون على جادة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران :٨٥] :

« من فوائد الآية : أن هؤلاء الذين يدينون بدين غير الإسلام يُتعبون أبدانهم ، ويهلكون أموالهم ، وربما يموتون جوعاً وعطشاً وحراً وبرداً في الدعوة إلى غير دين الإسلام ، كالذين يسمونهم المبشرين ، وهم في الحقيقة منصِّرون مضلِّلون ، هؤلاء ينفقون أموالاً كثيرة ، ويتعبون تعباً عظيماً ، ويتعرضون للهلاك ، وكل هذه الأعمال نتيجتها هباء : ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، لا يستفيدون منها إطلاقاً لأنها على غير شريعة الله ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

= وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٤] فلا بد من البيان على كل رسول ، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء :١٦٥] » « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٨٤) .

كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، يغلبون إذا قام المسلمون بما يجب عليهم من نصرة دين الإسلام، ولهذا نأسف أن النصارىٰ لهم هذا النشاط في دعوتهم إلىٰ الضلال، والمسلمون نشاطهم لا يبلغ ولا عشر معشاره مع أنهم علىٰ حق. ولكن الحق لا بد أن ينتصر ولو بعد حين »[1].

فالواجب علىٰ المؤسسات الدينية، والمراكز الإسلامية، وغيرهم ممن ينطوي تحته جملة من الدعاة، الاجتهاد، وحسن الترتيب والتنظيم، والتنظير، في إرسال الدعاة وفق المنهج الشرعي المؤصَّل، بلا إخلال، ولا عشوائية، وإنما دعوة ذات رؤية ومنهجية، ودراسة، وثمرات مرتقبة، فهي المثمرة حقاً، وعلىٰ دعاة الإسلام مزاحمة أهل الباطل ومناصرة الحق، والسبق لِنيل شرف الدعوة بالوصول إلىٰ كل قطرٍ يحتاج الدعوة إلىٰ دين الله تعالىٰ، فإن إرسال الدعاة من أعظم الوسائل وأهمها، وهو طريق الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وباتباعه يتم الاقتداء بهم والسير علىٰ نهجهم، فهي وسيلة من أقدم الوسائل ولن تنقطع إلىٰ قيام الساعة.



(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٥٠١).



المطلب الخامس : وسيلة إرسال الكتب والرسائل

كما أن إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وسيلة قامت عليها الرسالات وانتشرت بها الشرائع ، فإن الكتب المنزَّلة هي محتوىٰ تلك الرسالات ومادة الشرائع ، وفيها مضمون الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ بأكمله ، والحجة القاطعة علىٰ أحقية دين الإسلام ولزوم توحيد الله تعالىٰ ، فكانت الكتبُ المنزَّلة وسيلة امتنَّ الله بها علىٰ عباده كما امتن عليهم بإرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، لتقوم حياة الناس بالقسط ، قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد :٢٥] ، وقال سبحانه : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة :٢١٣] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية والحكمة من إنزال الكتب السماوية ومضمون رسالتها للأمة : « من فوائد الآية : رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بالعباد ، حيث لم يكلهم إلىٰ عقولهم ؛ لأنهم لو وكِلوا إلىٰ عقولهم لفسدت السموات والأرض ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون : ٧١] ؛ فكل إنسان يقول : العقل عندي ؛ والصواب معي ؛ ولكن الله تعالىٰ بعث النبيين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه »[١] .

ثم إن أنبياء الله تعالىٰ استعملوا هذه الوسيلة فيما يرسلونه إلىٰ أقوامهم من

---

(١) « تفسير الفاتحة والبقرة » (٣/ ٣٣) ، وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية : « فبين سبحانه أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ ليحكم بين الناس بالحق والقسط ، وليوضح للناس ما اختلفوا فيه منَ الشرائع والعقائد ، من توحيد الله وشريعته عَزَّوَجَلَّ » . « الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة » (٦) .

الكتب، فقد كان رسول الله ﷺ يأمر بكتابة الرسائل إلىٰ حكام البلاد غير الإسلامية، يدعوهم فيها إلىٰ الله، واعتناق دين الإسلام؛ كرسائله (إلىٰ كسرىٰ في العراق، وهرقل في الشام، والمقوقس في مصر، وكذلك علماء الإسلام يرسلون الرسائل إلىٰ الحكام المسلمين يدعونهم فيها إلىٰ ما أمرهم الله به.

ومن رسائله ﷺ ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: بَعَثَ بكِتَابِهِ إِلَىٰ كِسْرَىٰ، مَعَ عبد اللهِ بن حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ» فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَىٰ عَظِيمِ البَحْرَيْنِ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إِلَىٰ كِسْرَىٰ، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ، فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ المُسَيِّبِ، قال: «فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ»[1]، وأورد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ نصَّ الرسالة ولفظها: «بِسْمِ الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلىٰ كسرىٰ عظيم فارس، سلام علىٰ من اتَّبَعَ الهُدَىٰ، وآمَنَ باللهِ ورَسُولِهِ، وشَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، وأَدْعُوكَ بدُعَاءِ اللهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً لأُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويَحِقَّ القَوْلُ عَلَىٰ الكافِرِينَ، فَأَسْلَمَ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْتَ، فَإِنَّ إِثْمَ المَجُوسِ عَلَيْكَ»[2].

وكما في كتاباته إلىٰ أهل الكتاب، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فوائد الآية: أمر الرسول ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلىٰ هذه الكلمة السواء؛ لقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤).

(٢) «تاريخ الأمم والملوك» (٢/ ٦٥٤).

ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، وهنا سؤال : هل الرسول قال بذلك؟ نعم قالها حتىٰ كان يكتب بها إلىٰ الملوك ، لم يكتب إلىٰ كسرىٰ ولكنه كتب إلىٰ غيره : يا أهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم ، لكنه يقول : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، من كمال أدبه ، إذا قال : قل يا أهل الكتاب ، فكأنه يقول : إنما كتبت لكم هذه الآية بأمر الله ، لكن لو قال : يا أهل الكتاب بدون (قل) ، لكان فيها احتمال أنه كتبها من عند نفسه ، فالمهم أن الرسول ﷺ قال ذلك ، ودعاهم إلىٰ هذه الكلمة ، لكنهم أبوا وامتنعوا لأنهم مصرُّون معاندون إلا من هدىٰ الله ، فقد هدىٰ الله من النصارىٰ أقوامـًا ، ومن اليهود أقوامـًا ، ومن المشركين أقوامـًا »[1] .

ومن هذا المضمون الدعوي تتبيَّن أهمية وسيلة إرسال الرسائل والكتب ، لإقامة الحجة علىٰ العباد ، ودعوتهم إلىٰ الحق الذي دلَّ عليه التنزيل ، وعدم إيكالهم إلىٰ عقولهم القاصرة التي ربما تستحسن ما ليس بحسن ، أو ما فيه هلاكهم وتناحرهم والذي تستباح من خلاله الأموال والأنفس بحجة إقامة العدل والإنصاف في المجتمعات ، استناداً لما تمليه العقول القاصرة ، ويكون بذلك التحريف والتبديل في الدين ، ولذا فإنه من المهم إرسال الرسائل والكتب التي تبيِّن للناس الحق الذي لابد أن يصيروا إليه والذي به تُحفظ العقول والأعراض والأموال والنفوس والدين ، وإرشادهم لأصول الدين وفروعه ورفع الجهل عنهم ، ولقد استعمل هذه الوسيلة علماء المسلمين علىٰ مرِّ العصور ، سواء برسائل الدعوة لبيان أصل دين الإسلام ، أو لفرع من فروعه ، أو لبيان فتوىٰ أو نازلة في المسلمين ونحوها ، أو تأليف الكتب والأبحاث والمقالات في المجلات وغيرها ، فينبغي استغلال مثل هذه الوسائل في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، ولقد أثبت الواقع أهميتها وحاجة الناس لها ، في دولٍ شتىٰ ، فعلىٰ أهل الدعوة

---

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٣٧٠) .

الاهتمام بالرسائل والمقالات، والأبحاث، والكتب وترجمتها إلىٰ لغات مَن يراد تعريفهم بالإسلام ودعوتهم إليه، فبهذه الوسيلة يمكن تبليغ الإسلام إلىٰ ملايين الناس الذين لا يعرفون اللغة العربية، ولم تصلهم معاني الإسلام، وفي واقعنا الحاضر نجد اهتماماً بالغاً بكتب الشريعة الإسلامية ومخاطبة العالم الإسلامي بهذه الكتب والرسائل، ومكاتب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ تعتني بهذا الجانب عناية فائقة، وهذه من نِعَم الله تعالىٰ.

علىٰ أنه ينبغي للداعية عند كتابة الرسائل والأبحاث والكتب أن يراعي اختلاف طبقات الناس وفهومهم ومستوياتهم، فلغة الدعوة إلىٰ الإسلام أو فروعه، سواء بالعربية أو المترجمة تكون بأسلوب بسيط مفهوم واضح يدركه أقل النَّاس قدرة علىٰ فهم الخطاب، وأن تكون معانيه واضحة مما لا يسع أيَّ إنسان يريد الإسلام وما يتعلَّق به أن يجهلها، وأن تكون خالية من ذكر المسائل الدقيقة والخلافية، وأن تكون مختصرة دون إخلال بالمعنىٰ ومقتضيات التفهيم[1]، ولغة الرسائل الشرعية والأبحاث والردود العلمية، تناسب مقام التحقيق العلمي، والتفصيل الدقيق، وهكذا يراعي الداعية مستويات القارئين لهذه الكتب والرسائل، ويحقق المنفعة المرادة من استعمال هذه الوسيلة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.



---

(١) انظر: «أصول الدعوة» (٤٨٢).

المطلب السادس : وسيلة الخطبة

الخطبة وسيلة قديمة وجِدَت عند عرب الجاهلية ، فالناس منذ القدم إذا احتاجوا إلىٰ بيان شيء أو التبليغ عن أمرٍ عَمد الولاة إلىٰ أن يخطبوا الناس ؛ ليعلِّموهم ، وكانوا يستعملون هذه الوسيلة في المحافل السياسية إذا استقبلوا الوفود أو قبل الحروب ، وفي المحافل الاقتصادية في أسواقهم كما هو معروف عند العرب ، وكانت وسيلة الخطبة من أشهر الوسائل آنذاك فهي شائعة عند أهل الحضر والبادية ، قال الجاحظ : « ثم اعلم بعد ذلك أن جميع خطب العرب ، من أهل المدر والوبر ، والبدو والحضر ، علىٰ ضربين : منها الطّوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه »[1] .

ثم جاء الإسلام فزاد الخطب قوة وأهمية ؛ لما اشتملت عليه من الاستشهاد بالقرآن والسنة ، والحديث عن الشريعة العظيمة وما فيه مصالح العباد الدينية والدنيوية ، فصارت الخطبة عبادة ، أداءً واستماعـًا ، ومن أهميتها أن جعلها الإسلام في المحافل الأسبوعية كالجمعة ، والسنوية كالعيدين ، وتبعـًا للإحوال العارضة كالاستسقاء والكسوف ، ومن المضامين الواردة في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مما يتعلَّق بوسيلة الخطبة ، قول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أهمية خطبة الجمعة : « خطبة الجمعة ، خطبة عظيمة مهمة أمر الله تعالىٰ بالسعي إليها فقال الله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة : ١٠] »[2] .

---

(١) « البيان والتبيين » للجاحظ (٢ / ٦) .

(٢) « فتاوىٰ نور علىٰ الدرب » (٨ / ٢) ، وانظر : « تفسير جزء عم » (١٦٩) .

وينبغي للداعية حين استعماله لهذه الوسيلة أن يراعي حقها، وحق المستمعين الذين يتعبدون بالاستماع لخطبته، فلا بد من الاعتناء بالموضوع، والتوقيت، والطول، والقصر، ومراعاة الحال، ومواكبة الظروف والأحوال بيانـًا وتوجيهـًا.

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينـًا أهمية استغلال هذه الوسيلة وما ينبغي للداعية الخطيب مراعاته في خطبته: «الواجب علىٰ الخطيب أن يخطب خطبة مؤثرة نافعة، تعالج ما كان الناس عليه، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأزمان، فليراع الخطيب هذا، أعني يراعىٰ ما تقتضيه المصلحة فيما يلقيه من الخطب التي يعالج بها ما كان الناس عليه، فمثلاً إذا كان الخطيب يخطب بين يدي شهر رمضان فإن من المناسب أن يتكلم عن أحكام الصيام، وأحكام القيام، وأحكام الزكاة؛ لأن كل هذه مما يفعل في شهر رمضان، أما الصيام والقيام فظاهر، وأما الزكاة فلأن غالب الناس يخرجون زكاة أموالهم أو علىٰ الأقل يحسبون أموالهم ليعرفوا الزكاة في شهر رمضان، وإذا كان في زمن جفاف وجدب ذكَّر الناس بما يُسَبِّبُ هذا الجفاف والجدب، وأنه الذنوب والمعاصي كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وإذا كان في زمن غفلة من الناس عما ينبغي أن يقبلوا عليه من العبادة والعلم وما أشبه ذلك ذكَّرهم بما يفوتهم في هذا، وإذا كان في زمن الحرب ذكَّرهم بما يناسب الحال ... أما آداب الخطبة فإنها كثيرة منها: أن يكون الخطيب قويـًا في خطبته، مؤثراً منفعلاً حسب ما يسوق من المعاني؛ حتىٰ يؤثر علىٰ الناس في استيقاظهم واستيعابهم لما يقول، وشدّ ضمائرهم وقلوبهم إليه لينتفعوا بهذه الخطبة، أما أن يلقيها إلقاء كما يلقي أي كتاب يقرؤه فإن هذا قد يجلب النوم للمستمعين، بخلاف الذي ينفعل ويتفاعل، ولهذا قال جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

وعن أبيه : « كان النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم- إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتىٰ كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم »[١] ، وكذلك أيضـًا ينبغي للخطيب أن يبدأ في مقدمة الخطبة بالأهم فالأهم »[٢] .

ومما تقدَّم تتضح أهمية وسيلة الخطبة وعراقتها ، والتي بقيت مكانتها عند الناس ، فعلىٰ الداعية إدراك ذلك ومراعاة ما تتطلبه الخطبة ، ومراعاة أحوال المدعوِّين فيها ؛ ليُحْسِن استعمالها كما ينبغي ، فخطبة الجمعة مثلاً يجتمع الناس لها في كل أسبوع علىٰ اختلاف طبقاتهم متعبدين لله تعالىٰ بالاستماع لما يقوله الخطيب ، وإدراك الداعية الخطيب لهذه الحال من المأمومين تجعله يُحسن استعمال هذه الوسيلة ويجتهد في استغلالها ، ويراعي أحوال الخطبة وآدابها ؛ لتؤتي الخطبة ثمارها ، ويَعْظُم أثرها ، لاسيما والخطبة من أشهر مجالات ووسائل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومجالات الدعوة كثيرة منها : الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ بالخطابة ، وإلقاء المحاضرات ، ومنها الدعوىٰ إلىٰ الله بالمقالات ، ومنها الدعوة إلىٰ الله بحلقات العلم ، ومنها الدعوىٰ إلىٰ الله بالتأليف ونشر الدين عن طريق التأليف »[٣] .

وبالجملة فإن وسيلة الخطبة لازالت وسيلة ثمينة ومؤثرة ، لها قيمتها في نفوس المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي ، فهي من أبرز وسائل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وأكثرها فاعلية وأهمية .

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) .

(٢) « فتاوىٰ نور علىٰ الدرب » (٨ / ٢) .

(٣) شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (ص : ٢٢) ، وانظر : مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (٦ / ١٦) .

المطلب السابع : وسائل أخرىٰ

وسائل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ لا تنحصر ؛ لأنها تتجدد بتجدد الزمن ، فلكل زمن وسائل جديدة تناسب حالهم ، وتعدد وسائل الدعوة وتكاثرها وتنوعها ظاهر لكل متأمل لاسيما في العصور المتأخرة التي استُحْدِثَت فيها وسائل مقروءة ومسموعة ومرئية متعددة ، يحسن بالداعية استغلالها ليواكب حياة الناس ، وما يستعملونه من وسائل لتواصلهم الإجتماعي وغيره ، وهناك من وسائل الدعوة التي لازال المسلمون يستخدمونها علىٰ مرِّ العصور إلىٰ يومنا هذا ، وهي وسائل فاعلة في المجتمع ، ولقد ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره جملة من المضامين الدعوية الدالة علىٰ وسائل دعوية أخرىٰ غير ما تقدَّم ، ومن ذلك ما يلي :

- من وسائل الدعوة صحبة الأخيار : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران :٥٢-٥٣] :

« من فوائد الآية : الحرص علىٰ صحبة الأخيار ، نأخذه من قوله : ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ، ولا شك أن صحبة الأخيار خير ، حتىٰ إن الرسول ﷺ مثَّلها بحامل المسك قال : « مثل الجليس الصالح والجليس السَّوءِ كحامل المسك ونافخِ الكير ؛ فحامل المسكِ ، إما أن يُحْذِيَكَ يعني يعطيك مجاناً هبة ، وإِمّا أن تبتاع منه ، وإِمّا أن تجد منه ريحاً طيبة كل هذا طيب ونافِخُ

الكيرِ . . »[١] ، والكِيْرُ عبارة عن جلد مثل الغَرْب ، والغرب دلو للبعير يرفع به الماء ، فهو يشبه الغرب وفيه طرف مفتوح ، وفيه طرف متصل بأنبوب ، يتصل بمكان النار فيفتحه ، ثم يضمه ويكون قد حمل هواء عن طريق هذا الأنبوب يدفعه جهة النار ، فتلتهب بشدة ، وغالباً ما يكون اثنين ، واحد عن يمين الرجل وآخر عن يساره ، فتكون النار دائماً تلتهب .

« ونافخ الكير إما أن يُحْرِق ثيابَكَ ، وإمّا أن تجد منه ريحاً خبيثة » ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار من الجلساء أصلحهم ؛ لأن الجليس الصالح كله خير ، والجليس السوء كله شر »[٢] .

– ومنها : المساجد ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [البقرة :١١٤] :« من فوائد الآية وأحكامها : الإشارة إلىٰ أن المساجد إنما بُنِيَت لذكر الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لقوله : ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ وقد جاءت السنة مصرحة بذلك ، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي المَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ . إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي المَسْجِدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ : مَهْ مَهْ ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ » فَتَرَكُوهُ حَتَّىٰ بَالَ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : « إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ ، ولَا القَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ، والصَّلَاةِ وقِرَاءَةِ القُرْآنِ »[٣] »[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٤) ، ومسلم (٢٦٢٨) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٣١٥) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥) .

(٤) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٠٤) .

- ومنها: التأمل بنعم الله تعالىٰ: قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]:

« من فوائد الآية: أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعىٰ لقبوله الحق، وأقوم للحجة عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلىٰ الله؛ بمعنىٰ أننا إذا أردنا أن ندعو شخصاً نذكره بالنعم؟

فالجواب: نعم، نذكره بالنعم؛ لأن هذا أدعىٰ لقبول الحق، وأدعىٰ لكونه يحب الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومحبة الله تحمل العبد علىٰ أن يقوم بطاعته »[1].

- ومن وسائل الدعوة إظهار أثر النعمة: قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]:

« من فوائد الآية: تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾؛ ولهذا إذا أنعم الله علىٰ عبده نعمة فإنه يحب أن يرىٰ أثر نعمته عليه؛ فإذا أنعم الله عليه بعلم فإن الله يحب من هذا العالم أن يظهر أثر هذه النعمة عليه:

أولاً: علىٰ سلوكه هو بنفسه بحيث يكون معروفاً بعلمه، وعمله به.

ثانياً: بنشر علمه ما استطاع، سواء كان ذلك علىٰ وجه العموم، أو الخصوص.

ثالثاً: أن يدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة بحيث إنه في كل مجال يمكنه أن يتكلم في الدعوة إلىٰ الله بقدر ما يستطيع حتىٰ في المجالس الخاصة فيما إذا دعي إلىٰ وليمة مثلاً، ورأىٰ من المصلحة أن يتكلم فليتكلم؛ وبعض أهل العلم يكون معه كتاب، فيقرأ الكتاب علىٰ الحاضرين، فيستفيد، ويفيد؛ وهذا طيب

---

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٤٤).

إذا علم من الناس قبول هذا الشيء بأن يكون قد عوَّدهم على هذا، فصاروا يرقبونه منه؛ أما إذا لم يعوِّدهم فإنه قد يثقل عليهم بهذا، ولكن من الممكن أن يفتح المجال بإيراد يورده سؤالاً مثلاً- حتى ينفتح المجال للناس، ويسألون، وينتفعون؛ لأن بعض طلبة العلم تذهب مجالسهم كمجالس العامة لا ينتفع الناس بها؛ وهذا لا شك أنه حرمان وإن كانوا لا يأثمون إذا لم يأتوا بما يوجب الإثم؛ فالذي ينبغي لطالب العلم حتى وإن لم يُسأل- أن يورد هو سؤالاً لأجل أن يفتح الباب للحاضرين، فيسألوا؛ وقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها؛ وقال النبي ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1]؛ مع أن الذي يجيب الرسول ﷺ؛ ولكن جعله معلماً وهو يسأل؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم»[2].

- من وسائل الدعوة ترجمة الكتب الشرعية للغات أخرى، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة:١٩]: «من فوائد الآية: أنه إذا احتجنا إلى معرفة اللغات الأجنبية لبيان الشريعة كان ذلك مما يثاب عليه؛ لأن من صفات النبي ﷺ أنه يبين للناس بأي وسيلة، وعلى هذا فمن تعلم اللغة غير العربية من أجل الدعوة إلى الله كان مثاباً على ذلك؛ لأنها وسيلة لتبيين الشريعة ونشرها»[3].

وقال في موضع آخر: «على المسلمين أن يترجموا الشريعة إلى لغة من يخاطبونهم بها حتى تتم الحجة؛ لأنك لو أتيت إلى قوم عجم وتكلمت

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٢/ ١٧٠-١٧١).

(٣) «تفسير سورة المائدة» (١/ ٢٥٠).

عندهم بأبلغ وأفصح الكلام العربي ، ما استفادوا من هذا شيئًا ، ولا يدرون ما تقول ، وعليه فمن أراد أن يذهب إلىٰ قوم يدعوهم إلىٰ الله ، لا بد أن يتعلم لغتهم حتىٰ يتمكن من دعوتهم ، أو يصطحب شخصًا يترجم له يكون عالمًا باللغتين : الأصلية والفرعية ، ويكون له إلمام بموضوع الترجمة ، يعني موضوع ما يترجمه ، يعني إذا كان يريد أن يترجم في الكلام علىٰ التوحيد لا بد أن يكون عنده إلمام بذلك لئلا يفهم الأمر علىٰ خلافه »[١] .

– ومنها : استعمال وسيلة التبليغ بالقول والفعل ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة :٦٧] :

« من فوائد الآية : وجوب إبلاغ الشريعة علىٰ أهل العلم ، وجه ذلك : أن العلماء ورثة الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وإذا كانوا ورثة الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وجب عليهم أن يقوموا بحق الإرث ، فيبلغوا ما علموا من شريعة الله وجوبًا ، إما بالقول وإما بالفعل : إما بالكتابة وإما بالإشارة ، بأي وسيلة يجب عليهم أن يبلغوا ما أنزل إلىٰ الرسول ﷺ .

ومن ثَمَّ يجب أن ينتبه طالب العلم لهذا : وهو أن السنن التي هي سنن تجب علىٰ طالب العلم ؛ لأن هذا من إبلاغ الرسالة ، يعني : لو أن إنسانًا طالب علم معتبرًا عند الناس قام يصلي ، وترك رفع اليدين مثلًا عند تكبيرة الإحرام ، وعند الركوع ، وعند الرفع منه ، وعند القيام من التشهد الأول ، أو ركع ركوعًا علىٰ غير وجه مشروع لعددته آثمًا ؛ لأن هذا الفعل الذي أخل بالسنة فيه سيكون حجة للناس وسيقولون : لو كان هذا مشروعًا ما تركه فلان ، كذلك الأفعال

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٣١٧) .

التي تكون مكروهة في حق غيره قد تكون في حقه محرمة .

كما أنه يجب أيضـاً علىٰ طالب العلم أن يفعل ما يعتقد الناس أنه حرام ، من أجل أن يعرفوا أنه ليس بحرام ، يعني بعض الناس يقول : أي حركة في الصلاة تبطل الصلاة ، فنقول : إذا وجد سبب الحركة ، يعني : السبب الذي يبيحها فليفعله العالم حتىٰ يبين للناس ، لكن في هذه الحالة إذا خاف أن يُقتدىٰ به ، يبين بالقول أنه فعل ذلك لحاجة وأن الحركة في الصلاة إذا كانت لحاجة فلا بأس بها وما أشبه ذلك »[(١)] .

– ومنها : الوسائل العصرية كالإذاعات الحديثة ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران :٩٩] : « من فوائد الآية : سوء القصد من أهل الكتاب ، حيث يبغون أن تكون سبيل الله عوجـاً .

وهذا الوصف لأهل الكتاب لا يزال منطبقـاً عليهم إلىٰ اليوم ، فللنصارىٰ دعاة يُنَصِّرون الناس ويسعون بكل جهدهم إلىٰ أن يصدوا عن سبيل الله من آمن ؛ لأنهم يريدون أن يسلك الناس السبيل العَوج ، لا يريدون أن يسلكوا السبيل السوي ، وما زالوا إلىٰ اليوم ، ولهم إذاعات خاصة تدعو الناس إلىٰ النصرانية ، والعياذ بالله ، النصرانية الباطلة التي يحاربها عيسىٰ (، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ

---

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٥١) .

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧] فهم الآن يَدَّعون أن دين عيسىٰ (القولُ بالتثليث، ويقولون: إن الله ثالث ثلاثة، ثم يضحكون علىٰ أنفسهم وعلىٰ الناس، ويقولون: إنه ثلاثة في واحد، فهل هذا معقول؟!

لكن هذا من ضلال النصارىٰ؛ لأن النصارىٰ ضالون. حتىٰ الأمور العقلية لا يهتدون إليها فكيف يكون ثلاثة في واحد؟! هذا لا يمكن.

علىٰ كل حال: هم يريدون أن يضلوا الناس منذ عهد الرسول ﷺ وإلىٰ يومنا هذا. ومن ثَمَّ يجب علىٰ المسلمين الحذر منهم، والتشهير بهم، حتىٰ ينفر الناس منهم، وأن يقابلوا دعوتهم الإلحادية الكفرية بدعوة التوحيد والإخلاص»[١].

- ومن وسائل الدعوة التأليف بالمال، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦]، فالنبي ﷺ لم يقل لأي واحد: أعطني أجراً علىٰ دعوتي إياك، بل هو ﷺ يبذل المال ليؤلف القلوب، كما أعطىٰ المؤلفة قلوبهم من الأموال شيئاً عظيماً»[٢].

- ومنها: السير في الأرض للاعتبار بالتأمل في خَلْق الله، والنظر في عواقب الأمم السابقة، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧]: «من فوائد الآية: الأمر بالسير في الأرض، ولكن هل هو علىٰ إطلاقه أو من أجل الاعتبار فقط؟

لننظر ﴿ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ﴾ إذن السير في الأرض لغير غرض شرعي

---

(١) «تفسير آل عمران» (١ / ٥٦٨).

(٢) «تفسير الحجرات الحديد» (١٩٨).

مذموم ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] ، وغيره من أهل العلم ؛ لأن السير في الأرض من غير غرض شرعي فيه إتعاب للنفس ، وتعريضها للهلاك ، وإضاعة المال ، وإضاعة الوقت ، أما إذا كان لغرض شرعي فهو علىٰ حسب هذا الغرض .

وعلىٰ هذا فإن السير في الأرض ينقسم إلىٰ أقسام :

قسم لأغراض محرمة ، وهذا لا شك في تحريمه . وقسم آخر لأغراض مشروعة مطلوبة ، وهذا لا شك في طلبه . وقسم ثالث لمجرد الفرجة والنزهة ، وهذا ينظر فيه ، فالأصل فيه الإباحة ، ولكن إن توصل به الإنسان إلىٰ محرم كان حراماً ، وإن توصل به إلىٰ مشروع كان مشروعاً »[٢] .

وفي تفسير قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام :١١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « من فوائد الآية : الأمر بالسير في الأرض للاعتبار ، سواء كان بالبصائر أو بالأبصار ، لقوله : ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، ويتفرع علىٰ هذه الفائدة أنه ينبغي أن نقرأ تاريخ الأمم السابقة ، وأفضل نقرؤه منه هو القرآن وصحيح السنة »[٣] .

هذه أبرز الوسائل الدعوية في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ومما تقدَّم من مضامينها نستفيد أن وسائل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ كثيرة ، ومتنوعة ، وينبغي للداعية اختيار ما يناسب من الوسائل لكل مقام ، فإن تناسب وسائل وأساليب الدعوة وموضوعاتها مع حال المدعوين سبب ظاهر في نجاح دعوته وبلوغه

---

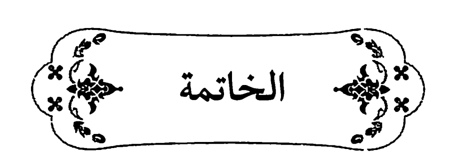
(١) انظر : « اقتضاء الصراط المستقيم » (١ / ٣٢٧) .

(٢) « تفسير آل عمران »(٢ / ٢٠٢) .

(٣) « تفسير سورة الأنعام »(٦١) .

المقصود منها، وتحقيق الهداية للمدعوين، واستجلاب قلوبهم لدعوته، ووسائل الدعوة العصرية متجددة ومتنوعة في مواصفاتها والتي تجعل الداعية يوصل دعوته بكافة الأنواع سمعية كانت أو مرئية أو مقروءة إذا أحسن استعمالها، واجتهد في إتقانها كما ينبغي، واستعان الله تعالىٰ علىٰ بلوغ حسن العمل في كل وسيلة يتم خلالها إيصال الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ووسائل العصر اليوم سهلة الاستعمال، سريعة الوصول، دقيقة الوصف، واسعة الانتشار، والدعاة إلىٰ الله تعالىٰ عليهم استغلال هذه الميزات المهمة والتي من شأنها أن تنشر الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ في أصقاع الأرض.





الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، حمداً يليق بجلاله علىٰ تواتر نِعَمِهِ التي لا تُحْصَىٰ ، ومن ذلك ما أسبغه عليَّ من التيسير فيما كتبته وبحثت فيه ، فله الشكر والمنَّة والفضل علىٰ تمام النعمة .

والصلاة والسلام علىٰ النبي الأكرم ، الذي ترك أمته علىٰ خير هدىٰ ، وأوضح دلالة ، من تمسَّك بها كان من أهل النجاة والفلاح ، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وذريته وصحبه إلىٰ يوم الدين ، وبعد ...

فهذا جهد المُقِل ، بذلت فيه ما فتحه الله تعالىٰ عليَّ في بيان المضامين الدعوية في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ، وقد اشتمل علىٰ :

التمهيد وذكرت فيه : ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، مولده ونشأته ووفاته ، وشيوخه وتلاميذه ، ومكانته العلمية والدعوية ومؤلفاته ، ثم أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة وحاجة الدعوة إليه وإلىٰ تفسيره ، ثم منهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ، وكيفية تناوله لقضايا الدعوة ، وأهمية ربطها بكتاب الله تعالىٰ ، ثم مفهوم الدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

الفصل الأول وذكرت فيه : المضامين الدعوية في الدعوة إلىٰ عقيدة التوحيد من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، كالدعوة إلىٰ عقيدة التوحيد بأنواعه ، ثم التحذير من الشرك وما يضادّ التوحيد ، ثم الدعوة إلىٰ أركان الإيمان ، ثم الدعوة إلىٰ الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة .



الفصل الثاني وذكرت فيه : المضامين الدعوية في مجالات الدعوة الأخرىٰ في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، كالدعوة إلىٰ العبادات ، الدعوة إلىٰ مكارم الأخلاق ، والدعوة إلىٰ ما يتعلق بالمعاملات ، والدعوة إلىٰ التربية الصالحة ، والقدوة الحسنة ، ثم ذكرت القضايا الدعوية المعاصرة في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وذكرت أثر معالجة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه القضايا ونماذج متنوعة لها .

الفصل الثالث وذكرت فيه : المضامين الدعوية في بناء الداعية وتأهيله من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، بدأت بتعريف الداعية وبيان مفهوم التأهيل ، ثم التأهيل العقدي للداعية ، ثم التأهيل العلمي للداعية ، ثم التأهيل الأخلاقي للداعية ، ثم التأهيل العملي للداعية .

الفصل الرابع وذكرت فيه : المضامين الدعوية في أصناف المدعوين وخصائصهم في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، بدأت بتعريف المدعوّين وبيان أصنافهم وأنواعهم ، ثم مراعاة أحوال المدعوّين ، ثم دعوة المسلمين ، ثم دعوة أهل البدع ، ثم دعوة أهل الكتاب ، ثم دعوة المجوس وسائر المشركين ، ثم دعوة المنافقين .

الفصل الخامس وذكرت فيه : المضامين الدعوية في الأساليب والوسائل المستنبطة من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : بدأت بالأساليب الدعوية ، ذكرت تعريف الأساليب الدعويّة ، وبيان أهميتها ، ثم الأساليب الآتية : الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، والترغيب والترهيب ، والأمثال ، والقصص ، ثم الوسائل الدعوية المستنبطة من تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : بدأت بتعريف الوسائل الدعويّة ، وبيان أهميتها ، ثم الوسائل الآتية : القدوة الصالحة ، والدعوة بوسيلة القول ، وإرسال الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والدعاة ، وإرسال الكتب

والرسائل ، والخطبة ، ثم وسائل أخرىٰ .

وقد توصلت إلىٰ مجموعة من النتائج والتوصيات من خلال هذا البحث المتواضع وهي كما يلي :

أولاً : النتائج :

١- شمولية تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكثير من الجوانب العلمية والدعوية ، فتفسيره فيه بسط تفسيري للآية وما تشتمل عليه من جوانب عقدية وفقهية وتربوية ودعوية .

٢- غزارة مضامين الدعوة وما يتعلَّق بها في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : من مفهومٍ للدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها وأصولها ومجالاتها ، وما يتعلق بالداعية وتأهيله وبنائه ، وأصناف المدعوين وكيفية التعامل معهم ودعوتهم ، وأساليب الدعوة ووسائلها ، وأهمية ربط هذه المتعلِّقات الدعوية بكتاب الله تعالىٰ .

٣- التركيز الظاهر في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ جوانب تزكية النفس ، وإصلاحها ، والأخلاق القولية والعملية ، وأن القرآن الكريم هو منهج الحياة وهو أساس الدعوة الذي ينبغي للعبد العمل به كما كان النبي ﷺ .

٤- الدعوة إلىٰ اتباع السنة النبوية وربطها بكتاب الله تعالىٰ في كثير من الجوانب الدعوية التي تناولها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ففي تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ استيفاء لأدلة الكتاب والسنة في عرض المسائل والقضايا الشرعية وترجيحها .

٥- الحث علىٰ التمسك بالسنة ونبذ البدعة ، وبيان انحراف المبتدعة ، وتناول كثير من فرق المبتدعة ، وبيان خلل اعتقادهم ، والردِّ عليهم بردٍّ علمي فيه مناقشة أقوالهم وحججهم وبيان ضعفها وما يعتريها من تناقض ، ولقد أسهب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب لاسيما فيما يتعلَّق بالأسماء والصفات .

٦- وفرة القضايا الدعوية التي تناولها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لاسيما القضايا العصرية التي يحتاجها الناس في كثير من الموضوعات ، سواء علىٰ مستوىٰ الأفراد أو المجتمعات أو قضايا الأمة ككل ، ومحاولة ربط واقع الناس بالقرآن الكريم ومعانيه .

٧- حسن الترتيب في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث إنه في غالب تفسيره يتناول الجوانب اللغوية والنحوية في الآية ، ثم المعنىٰ الإجمالي في الآية مقرونـًا بأوجه القراءات ، ثم الفوائد المستخلصة من الآية وفيها يستوفي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جميع ما يتعلَّق بدلالات الآية ومضمونها .

٨- سهولة الأسلوب الذي عرض فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيره ، فقد جاء تفسيره ، واضح العبارة ، سهل الفهم ، وافر المعاني ، يتسم بالبسط لاسيما في الأمور التي تحتاج إلىٰ مزيد إيضاح .

ثانيـًا : التوصيات :

١- الوصية بوصية الله تعالىٰ للأولين والآخرين بتقوىٰ الله تعالىٰ في السر والعلن ، وأخصَّ بها نفسي وإخواني الباحثين الذين مكنهم الله تعالىٰ للنهل من الكتب العلمية وبحثها ونقلها بأمانة ، وتقديمها للساحة العلمية ، والإخلاص لله تعالىٰ بالعمل له وحده سبحانه ، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ؛ لأن ذلك هو ثمرة العلم والعمل .

٢- العناية بكتاب الله تعالىٰ ، ودراسته دراسة دعوية شاملة ، وما يتعلَّق به من كتب التفسير التي اشتملت علىٰ وفرة في المضامين الدعوية ، ولو تمَّ استقصاء كتب التفسير التي تتميز بالبسط وإبراز المضامين الدعوية فيها ؛ لظهرت جملة من المضامين المرتبطة بكتاب الله تعالىٰ .

٣- تَنَاوُلُ تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمزيد من الدراسات الدعوية التي تسلِّط الضوء علىٰ بعض جوانب الدعوة علىٰ وجه الخصوص والتفصيل ، فإن ما كتبته في هذه الدراسة هو دراسة دعوية شاملة للمضامين الدعوية عموما علىٰ وجه الشمول والتمثيل ، لا الحصر واستقصاء الجميع .

٤- أهمية العناية بتفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حيث الإخراج العلمي له ، حيث التمايز الكبير بين أجزاء التفسير من حيث بسط التفسير وطريقته ، وأهمية عزل ما كان من تفسيره للقرآن مباشرة ، وتعليقه علىٰ تفسير الجلالين ، وتناوله لسورة أو أجزاء معينة في دورة علمية أو استفتاح للقاء علمي .

مع النظر في بعض أجزاء التفسير التي تحتوي علىٰ أخطاء مطبعية ظاهرة وكثيرة لاسيما في أجزاء التعليق علىٰ الجلالين كتفسير سورة يس وتفسير سورة الصافات وتفسير سورة ص ، وكذلك تفسير السور من الحجرات إلىٰ الحديد ، فقد وقفت علىٰ عدة أخطاء مطبعية .

وأهمية تكميل ما يتعلَّق بتفسير الجلالين من أجزاء لم يتم إخراجها مع حاجة طلبة العلم لها ، مع أهمية استقلالية كل ما يتعلَّق بتفسير الجلالين في نتاج علمي مستقل لا يتعلَّق بالتفسير الأصلي ؛ للتفاوت الظاهر في المنهج العلمي المتَّبع بين التفسيرين .

٥- توجيه الباحثين إلىٰ الاهتمام بالدراسات الدعوية المتعلِّقة بكتاب الله تعالىٰ ، ثم الدراسات الدعوية المتعلِّقة بالسنة النبوية ، بحيث تكون هذه الدراسات ضمن جدول متسلسل يتناول كل ما يتعلَّق بالدعوة ؛ للخروج بموسوعة دعوية تأصيلية تتعلَّق بكتاب الله تعالىٰ والسنة النبوية .

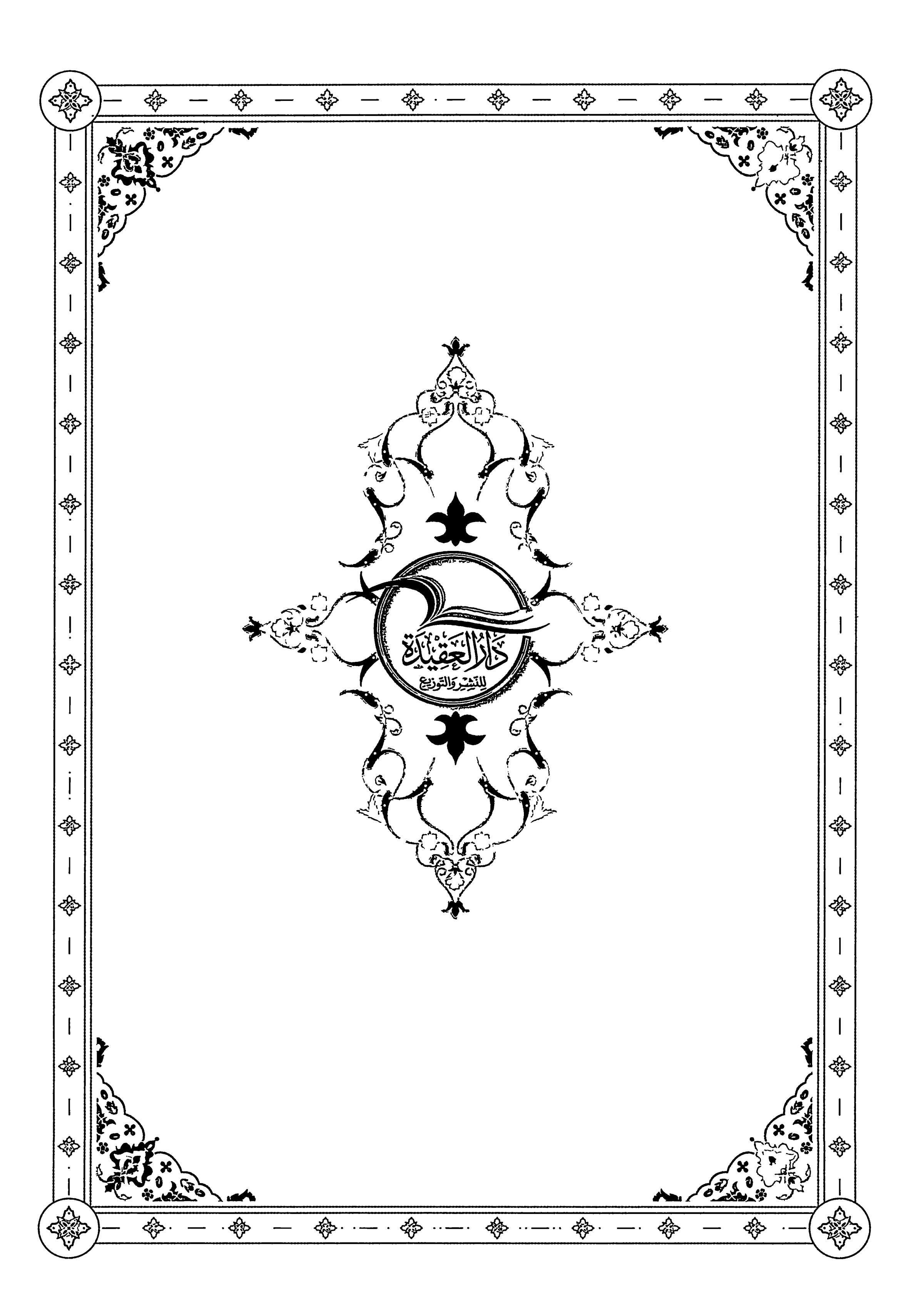
٦- تناول القضايا الدعوية المعاصرة المبثوثة في كتب تفسير المعاصرين ،

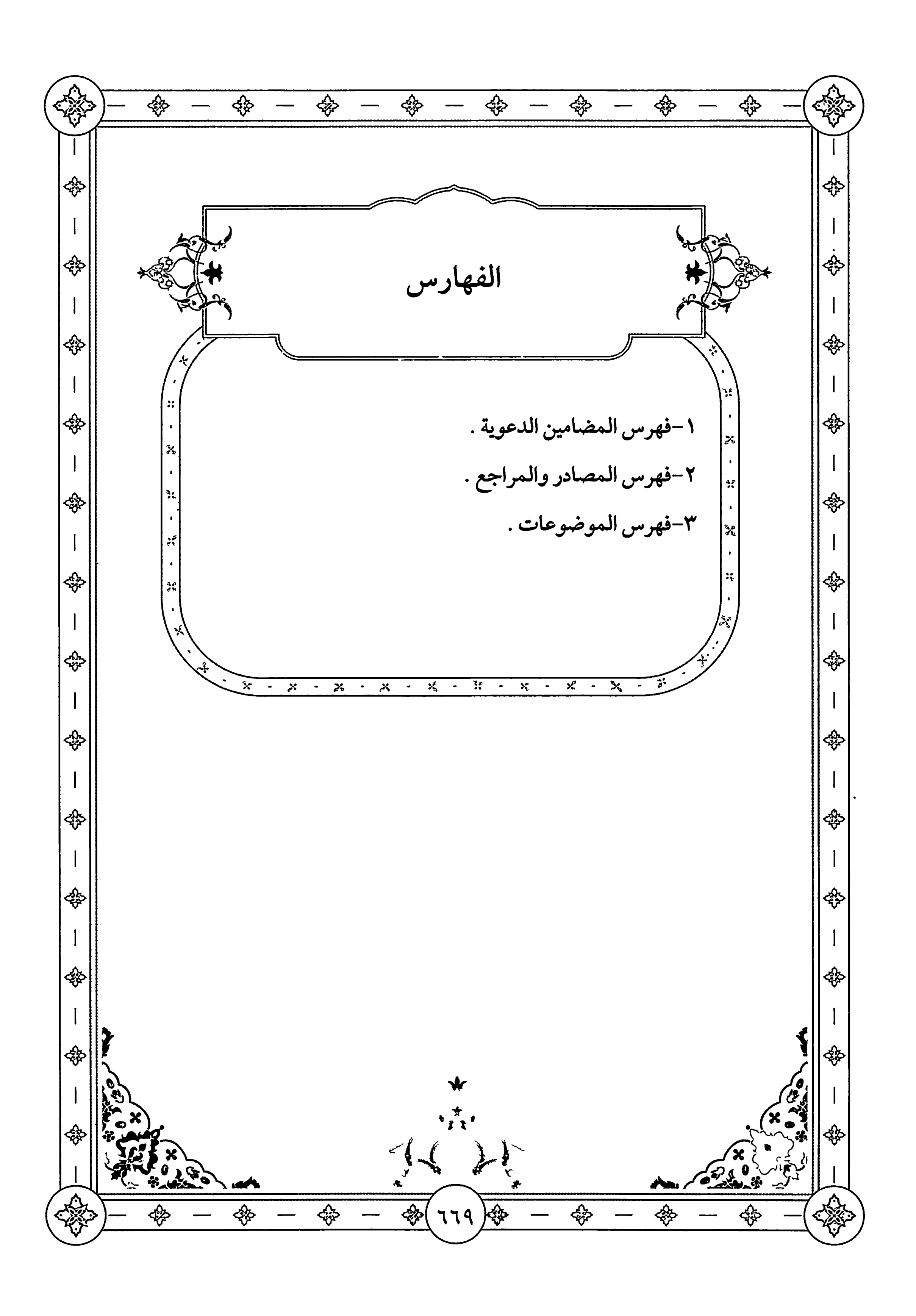
أو شروحات السنة النبوية ، وعرضها وفق دارسة تأصيلية ، لاسيما وقضايا الدعوة متجددة يحتاج معها الناس اليوم إلىٰ دراسة تأصيلية ذات نتائج مبنية علىٰ الكتاب والسنة .

٧- إجراء دراسات دعوية أكاديمية تتناول المضامين الدعوية في كتب الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتعلِّقة بالسنة النبوية ؛ لما يتميَّز به الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التوجيه الدعوي ، والبسط في قضايا الدعوة وموضوعاتها وأساليبها ووسائلها ، ومن الكتب ذات محل الدارسة التي يقترحها الباحث : شرح صحيح مسلم ، شرح صحيح البخاري ، شرح رياض الصالحين .

هذه أبرز النتائج والتوصيات التي خرج بها الباحث ، والله تعالىٰ أسأله القبول ، والتجاوز عن التقصير ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، سالماً من كل شائبةٍ ، هذا وإن أصبت فيه فهي منَّة الله تعالىٰ وحده وتوفيقه وتسديده ، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .




دار العقيدة
للنشر والتوزيع

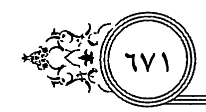


الفهارس



١- فهرس المضامين الدعوية







٢-فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

- **(١٤) عاماً مع سماحة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين**، عبدالكريم بن صالح المقرن، دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ.

- **الإبانة الكبرى**، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ.

- **ابن عثيمين الإمام الزاهد**، للدكتور: ناصر بن مسفر الزهراني، دار ابن الجوزي ط ١، ١٤٢٢هـ.

- **الإتقان في علوم القرآن**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.

- **إثبات صفة العلو**، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي، تحقيق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٩هـ.

- **اجتماع الجيوش الإسلامية**، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ،

- **أحكام القرآن**، للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ.

- **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، لأبي عبدالله محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الحنبلي، عالم الكتب.

- **أدب القاضي**، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، تحقيق:

محيي هلال السرحان، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩١هـ.

- **الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٨هـ.

- **الأربعون النووية**، لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، عُنِيَ بِهِ: قصي محمد نورس الحلاق، أنور بن أبي بكر الشيخي، دار المنهاج للنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ط١، ١٤٣٠ هـ.

- **استخراج الجدال من القرآن الكريم**، عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الجزري السعدي، أبو الفرج، ناصح الدين ابن الحنبلي، تحقيق: زاهر بن عواض الألمعي، مطابع الفرزدق التجارية، ط٢، ١٤٠١هـ.

- **الاستقامة**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد ابن تيمية الحراني، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤٠٣هـ.

- **الأسماء والصفات**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة السوادي، المملكة العربية السعودية - جدة، ط١، ١٤١٣هـ.

- **أصول في التفسير**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، المكتبة الإسلامية، ط١، ١٤٢٢هـ.

- **الاعتصام**، إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي، الشهير بالشاطبي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الشقير وآخرون، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٩هـ.

- **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

- **الإعلام بما في دين النصارىٰ من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام**، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي - القاهرة.

- **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

- **أقسام البدعة وأحكامها**، أحمد عبدالكريم نجيب، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٨هـ.

- **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، لأبي الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض بن عمرون السبتي، تحقيق: يحْيَىٰ إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤١٩ هـ.

- **إنصاف أهل السنة والجماعة ومعاملتهم لمخالفيهم**، محمد بن صالح العلي، دار الأندلس الخضراء، المملكة العربية السعودية- جدة، ط٢، ١٤١٥هـ.

- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

- **البدع العملية المتعلقة بالقرآن الكريم**، أحمد عبدالله آل عبدالكريم، مكتبة دار المنهاج المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٢هـ.

- **البدع والنهي عنها**، لأبي عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع القرطبي، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة مصر، مكتبة العلم، جدة - السعودية، ط١، ١٤١٦هـ.

- **البرهان في علوم القرآن**، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ.

- **البيان والتبيين**، لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

- **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادة (دعو)، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضىٰ، الزَّبيدي، دار الهداية.

- **تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك**، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر الطبري، دار التراث - بيروت، ط٢، ١٣٨٧ هـ.

- **التحرير والتنوير** (تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤هـ .

- **التحفة العراقية** ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ، المطبعة السلفية – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ .

- **التعريفات** ، علي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : جماعة من العلماء بإشراف الناشر : دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .

- **تعظيم قدر الصلاة** ، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوزِي ، تحقيق : عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي ، مكتبة الدار المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .

- **التعليق علىٰ لمعة الاعتقاد** ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، تحقيق : أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، مكتبة أضواء السلف ، ط٣ ، ١٤١٥هـ .

- **تفسير ابن كثير المسمىٰ : تفسير القرآن العظيم** ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ط٢ ، ١٤٢٠هـ .

- **تفسير أبي السعود** ، تفسير أبي السعود المسمىٰ : إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم ، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

- **تفسير البغوي المسمىٰ : معالم التنزيل في تفسير القرآن** ، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ .

- **تفسير الثعلبي المسمىٰ الكشف والبيان عن تفسير القرآن** ، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢هـ .

- **تفسير الرازي المسمىٰ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** ، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ .

- **تفسير السعدي المسمىٰ : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ .

- **تفسير القاسمي**، المسمىٰ: **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.

- **تفسير القرآن الكريم لابن القيم المسمىٰ: التفسير القيِّم**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، إشراف: إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

- **تقريب التدمرية**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودسة، الدمام، ط١، ١٤١٩هـ، وانظر: مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (٩ / ٣١٨).

- **تلبيس إبليس**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ.

- **التمهيد**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧هـ.

- **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- **التوقيف علىٰ مهمات التعاريف**، زين الدين محمد المناوي القاهري، عالم الكتب القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢هـ.

- **جامع العلوم والحكم**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٥، ١٤٢٢هـ.

- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

- **جامع بيان العلم وفضله**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٤هـ.

- **الجامع لأحكام القرآن، المسمىٰ: تفسير القرطبي**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.

- **الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي**، وليد بن أحمد الحسين، سلسلة إصدارات الحكمة ط١، ١٤٢٢هـ.

- **الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث**، أحمد بن عبد الكريم بن سعودي الغزي العامري، تحقيق: بكر عبد الله أبو زيد، دار الراية - الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.

- **جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن**، أحمد محمد البريدي، مكتبة الرشد ناشرون، المملكة العربية السعودية - الرياض، ط٢، ١٤٢٨هـ.

- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: علي بن حسن عبد العزيز بن إبراهيم حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ.

- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، المسمىٰ: الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار المعرفة - المغرب، ط١، ١٤١٨هـ.

- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

- **حقيقة البدعة وأحكامها**، سعيد بن ناصر الغامدي، دار الرشد، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.

- **حكم تارك الصلاة**، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن للنشر، طُبع عام ١٤٢٣هـ.

- **الحكمة في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ**، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الناشر: وزارة الشؤون

الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، ط١ ، ١٤٢٣هـ.

- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، دار السعادة مصر، ١٣٩٤هـ.

- **حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية وسيرته الخيرية**، جمع وترتيب : مرزوق عبدربه عبدالعال، دار الرشد في الرياض ط١ ، ١٤٢٣هـ.

- **درء تعارض العقل والنقل**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط٢ ، ١٤١١هـ.

- **دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية**، سعود بن عبد العزيز الخلف، مكتبة أضواء السلف، المملكة العربية السعودية الرياض، ط٤ ، ١٤٢٥هـ.

- **دراسات في علوم القرآن**، محمد بكر إسماعيل، دار المنار، ط٢ ، ١٤١٩ه

- **الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها**، أحمد غلوش، دار الكتاب الإسلامي، ودار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني بيروت، ط٢ ، ١٤٠٧هـ.

- **الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة**، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض المملكة العربية السعودية، ط٤ ، ١٤٢٣هـ.

- **دعوة أهل البدع**، خالد بن أحمد الزهراني، قد له الشيخ : صالح بن فوازان الفوزان، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية - الدمام، ط١ ، ١٤٢٧هـ.

- **ديوان الإمام الشافعي**، لأبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، مكتبة المستقبل، حلب - أقيول، ط١ ، ١٤٢٠هـ.

- **ديوان الخنساء**، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان.

- **ذم الكلام وأهله**، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، تحقيق : عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة، ط١ ، ١٤١٨هـ.

- **الرحيق المختوم**، صفي الرحمن المباركفوري، دار الهلال - بيروت، ط١.

- **الرد على الجهمية والزنادقة**، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط١.

- **الرد على الجهمية**، لأبي سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، دار ابن الأثير - الكويت، ط٢، ١٤١٦هـ.

- **الرد على المبتدعة**، لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبدالله العروف بـ (ابن البناء الحنبلي)، تحقيق: أبي عبدالله عاد بن عبدالله آل حمدان، دار الأمر الأول للنشر، المملكة العربية السعودية- الرياض، ط٢، ١٤٣٣هـ.

- **رسالة في الدعوة إلى الله**، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن، طُبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٢٨هـ.

- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

- **زاد الداعية إلى الله** (مطبوع ضمن كتاب الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين)، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٢هـ.

- **زاد المسير في علم التفسير**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ.

- **الزهد**، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ.

- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١.

- سنن ابن ماجه ، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، وماجه اسم أبيه يزيد ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية .

- سنن أبي داود ، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السِّجِسْتاني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت .

- سنن الترمذي ، لأبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ الترمذي ، أبو عيسىٰ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي - مصر ، ط٢ ، ١٣٩٥هـ .

- سنن الدارمي ، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي ، تحقيق : حسين سليم أسد الداراني ، دار المغني للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط١ ، ١٤١٢هـ .

- السنن الكبرىٰ ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ، النسائي ، تحقيق : حسن عبد المنعم شلبي ، أشرف عليه : شعيب الأرناؤوط ، تقديم : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ .

- سنن النسائي ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ، النسائي ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ .

- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ .

- السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية ، أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم ، المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة ، ط٦ ، ١٤١٥هـ .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي ، أبو الفلاح ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، خرج أحاديثه : عبد القادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .

- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي ، تحقيق : أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ، دار طيبة السعودية ، ط ٨ ، ١٤٢٣هـ .

- شرح الأربعين النووية، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر، المملكة العربية السعودية - الرياض، إشراف مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، ط٣، ١٤٢٥هـ.

- شرح السنة، لأبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، تحقيق :خالد بن قاسم الردادي، مكتبة الغرباء الأثرية - السعودية، ط١، ١٤١٤ هـ.

- شرح السنة، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي دمشق، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

- شرح الشيخ ابن عثيمين لثلاثة الأصول، دار الثريا للنشر، ط٤، ١٤٢٤هـ.

- شرح العقيدة السفارينية الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن للنشر، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.

- شرح العقيدة السفارينية، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن، المملكة العربية السعودية - الرياض، بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية، ط٢، ١٤٣٤هـ.

- شرح العقيدة الواسطية، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين، تحقيق: سعد فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤١٩هـ.

- الشرح الممتع على زاد المستقنع، فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع السعودية، إشراف مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، ط١، ١٤٢٤هـ.

- شرح النووي على مسلم، المسمى: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٢، ١٣٩٢ه.

- شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.

- شرح كشف الشبهات ويليه شرح الأصول الستة، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، إعداد: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

- الشرك في القديم والحديث، لأبي بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٢ هـ.

- الشريعة، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ، تحقيق: عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، مدار الوطن المملكة العربية السعودية -الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ.

- صحيح ابن حبَّان، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

- صحيح الجامع الصغير وزياداته، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الألباني، المكتب الإسلامي.

- الصحيح المسند من أسباب النزول، مُقْبلُ بنُ هَادِي بنِ مُقْبِلِ الوادعِيُّ، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط٤، ١٤٠٨هـ.

- صفات المنافقين، محمد بن أبي بكر ابن قيم، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية، عام النشر: ١٤١٠هـ.

- صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ.

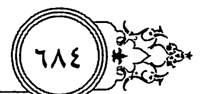
- صفة النفاق وذم المنافقين، لأبي بكر جعفر بن محمد بن الحسن الفِرْيابِي، شرحه وحققه وعلق عليه: أبو عبد الرحمن المصري الأثري، دار الصحابة للتراث، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ.

- صفة النفاق ونعت المنافقين، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، تقديم وتحقيق: الدكتور عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

- الصفدية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية - مصر، ط٢، ١٤٠٦هـ.

- الصلاة وأحكام تاركها، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة.

- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم



الجوزية ، تحقيق : علي بن محمد الدخيل الله ، دار العاصمة الرياض ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

- طبقات المفسرين ، محمد بن علي بن أحمد ، شمس الدين الداوودي المالكي ، دار الكتب العلمية - بيروت .

- طريق الهجرتين وباب السعادتين ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، دار السلفية ، القاهرة ، مصر ، ط٢ ، ١٣٩٤هـ .

- العبودية ، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني ، تحقيق : محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي بيروت ، ط٧ ، ١٤٢٦هـ .

- العلل الواردة في الأحاديث النبوية ، لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد البغدادي الدارقطني ، تحقيق وتخريج : محفوظ الرحمن زين الله السلفي ، دار طيبة - الرياض ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .

- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسىٰ بن أحمد الحنفي بدر الدين العيني ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

- الغُنْيَة عن الكلام وأهله ، للحافظ أبي سليمان حمد بن محمد البستي الخطابي ، دار المنهاج ، مصر - القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٥هـ .

- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، تصحيح وإشراف : محب الدين الخطيب ، دار المعرفة بيروت ، ١٣٧٩هـ .

- فتح القدير ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب دمشق ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤ هـ .

- فتح رب البرية بتلخيص الحموية ، مدار الوطن للنشر ، الرياض ، بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية .

- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية ، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي ، دار الآفاق الجديدة - بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٧م .

- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة دار البيان دمشق ، ١٤٠٥هـ .

- فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري ، سعيد بن علي بن وهب القحطاني ، الناشر : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ط١ ، ١٤٢١هـ .

- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي ، المكتبة التجارية الكبرىٰ - مصر ، ط١ ، ، ١٣٥٦هـ .

- القاموس الفقهي لغة واصطلاحا ، للدكتوز سعدي أبو حبيب ، دار الفكر . دمشق - سورية ، ط٢ ، ١٤٠٨ هـ .

- القاموس المحيط ، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف : محمد نعيم العرقسُوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ط ٨ ، ١٤٢٦هـ .

- القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ .

- كتاب العين ، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ، تحقيق : د .مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .

- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أيوب بن موسىٰ الحسيني القريمي الكفوي ، أبو البقاء الحنفي ، تحقيق : عدنان درويش محمد المصري ، مؤسسة الرسالة - بيروت .

- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء الحنفي أيوب بن موسىٰ الحسيني القريمي الكفوي ، تحقيق : عدنان درويش محمد المصري ، مؤسسة الرسالة - بيروت .

- كيفية دعوة أهل الكتاب في ضوء الكتاب والسنة ، سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، المملكة العربية السعودية - الرياض ، مؤسسة الجريسي للتوزيع .

- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري ، دار صادر بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤هـ .

- مادة صوتية بعنوان : (من دروس وفتاوىٰ الحرم المدني لعام ١٤١٦هـ) ، مقتبسة من صفحة الشيخ ابن عثيمين في موقع إسلام ويب .

- مباحث في علوم القرآن ، مناع بن خليل القطان ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ط٣ ، ١٤٢١هـ .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ، تحقيق : حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٤١٤هـ .

- مجموع الفتاوىٰ ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المملكة العربية السعودية المدينة النبوية ، ١٤١٦هـ .

- مجموع فتاوىٰ ابن باز ، أشرف علىٰ جمعه وطبعه : محمد بن سعد الشويعر ، تحت إشراف رئاسة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٢١ هـ .

- مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، دار الوطن دار الثريا ، ١٤١٣ هـ .

- مختار الصحاح ، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي تحقيق : يوسف الشيخ محمد ، الناشر : المكتبة العصرية الدار النموذجية ، بيروت صيدا ، ط٥ ، ١٤٢٠هـ .

- مختصر العلو مختصر العلو للعلي العظيم ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، حققه واختصره : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤١٢هـ

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط٣ ، ١٤١٦هـ .

- المدخل إلىٰ علم الدعوة ، محمد أبو الفتح البيانوني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ .

- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات ، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، دار الكتب العلمية - بيروت .

- المستدرك علىٰ الصحيحين ، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري ، تحقيق : مصطفىٰ عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط عادل مرشد ، وآخرون ، إشراف : د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢١هـ .

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي بيروت .

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي ، المكتبة العلمية - بيروت .

- المطلع علىٰ ألفاظ المقنع ، لأبي عبدالله محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي ، تحقيق : محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب ، مكتبة السوادي للتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٣هـ .

- معجم البلدان ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٥م .

- معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ ، بكر بن عبد الله أبوَ زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر ، دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض ، ط٣ ، ١٤١٧هـ .

- المعجم الوسيط ، تأليف : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، عناية : إبراهيم مصطفىٰ ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، دار الدعوة .

- معجم مقاييس اللغة ، مادة (دعو) ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ .

- معيار البدعة وضوابط البدعة ، محمد حسين الجيزاني ، دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية ، ط١ ، ١٤٣١هـ .

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت.

- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي - بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

- مقدمة تفسير الجلالين، اعتناء: أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية الرياض، ١٤١٩هـ.

- مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ١٣٩٠هـ.

- مكارم الأخلاق، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين، مدار الوطن - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ.

- الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي.

- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣.

- المناهي اللفظية، للشيخ ابن عثيمين، جمع وإعداد: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ.

- منهاج السنة النبوية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، منشور: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ.

- المنهج الدعوي في تعامل النبي ﷺ مع المنافقين، للباحثة: هيلة بنت عبيد الجدعاني، رسالة ماجستير لبحث تكميلي صادرة من كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة أم القرى، عام ١٤٣٢-١٤٣٣هـ.

- **المنهج الصحيح وأثره في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ**، حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، نشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٩، ١٤٢٣هـ.

- **منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلىٰ الإسلام**، حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ

- **الموافقات**، إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ.

- **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، أحمد بن محمد بن أبىٰ بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر.

- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، تأليف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ١٤٢٠هـ.

- **موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع**، إبراهيم بن عامر الرحيلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المملكة العربية السعودية - المدينة النبوية، ط١، ١٤١٥هـ.

- **النبوات**، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ.

- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد التيمي البكري، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، مجد الدين أبو السعادات الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوىٰ محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ.

- **نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف**، محمد بن عبدالله بن علي الوهيبي، دار المسلم للنشر والتوزيع- الرياض، ط٢، ١٤٢٢هـ.

- **نواقض الإيمان القولية والعملية**، عبدالعزيز بن محمد بن علي العبداللطيف، مدار الوطن للنشر- الرياض، ط٣، ١٤٢٧هـ.



- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أحمد الحاج، دار القلم دار الشامية، السعودية - جدة، ط١، ١٤١٦هـ.

- هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، دار الاعتصام، ط٩، ١٣٩٩هـ.

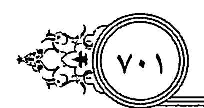
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

- الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد الأثري، راجعه وقدَّم له: الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ.





٣-فهرس الموضوعات





الفهارس

